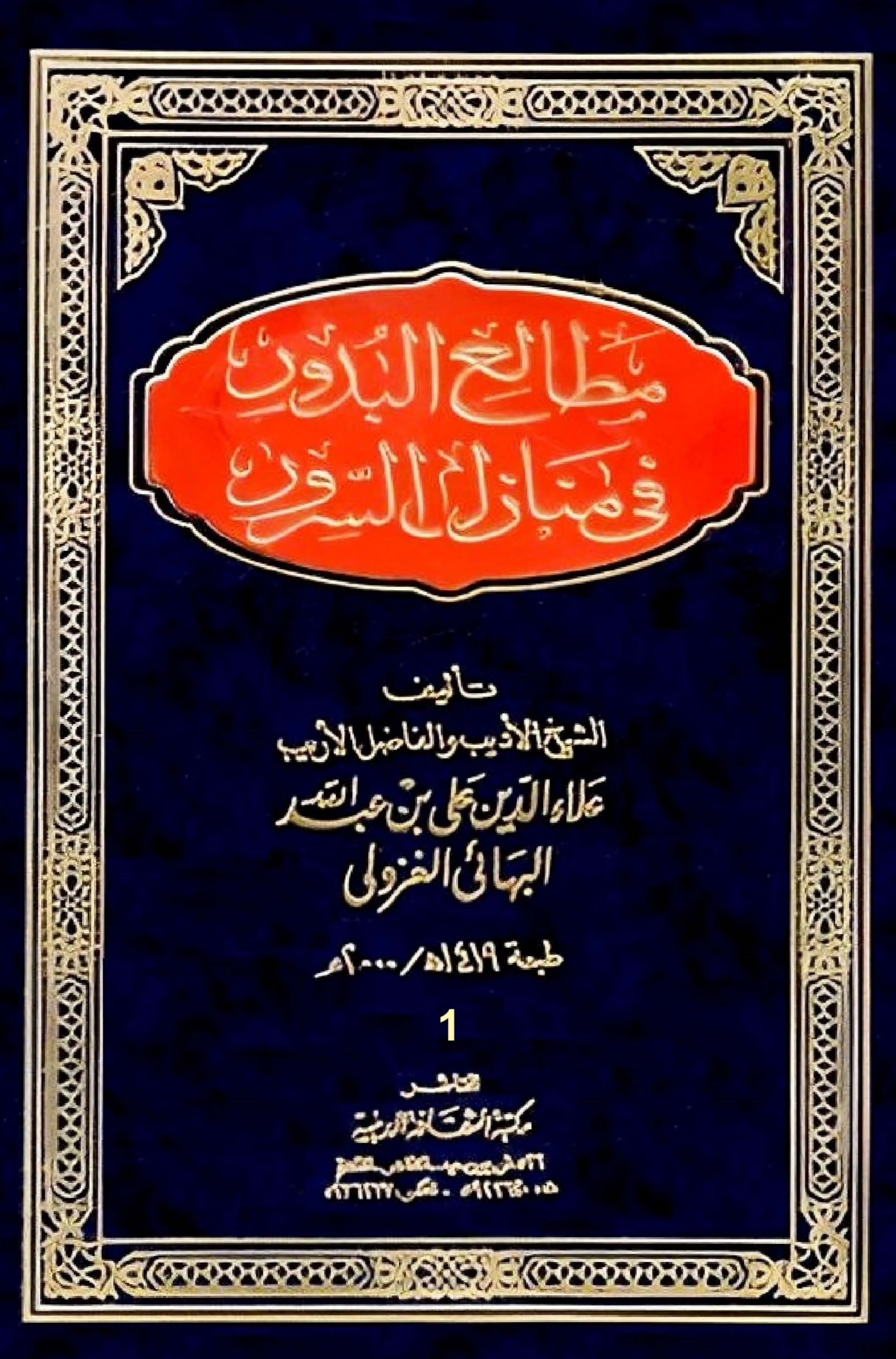

مطالع البدور
في منازل السرور
تأليف
الشيخ الأديب والفاضل الأريب
علاء الدين علي بن عبد الله
البهائي الغزولي
طبعة ١٤١٩هـ/٢٠٠٠م
1
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

مطالع البدور

في منازل السرور

مطالع البدور
في منازل السرور

تأليف

الشيخ الأديب والفاضل الأريب

علاء الدين علي بن عبد الله

البهائي الغزولي

طبعة

١٤١٩هـ / ٢٠٠٠م

الجزء الأول

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر

ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧



مقدمـــة الناشـــر

يسر مكتبة الثقافة الدينية أن تقدم لقرائها الأعزاء كتاب:

«مطالع البدور فى منازل السرور»

للغزولى.

ومؤلفه هو: على بن عبد الله الغزولى البهائى الدمشقى، شاعر، أديب، تركى الأصل، من المماليك.

نسبته إلى مولى له اسمه أو كنيته بهاء الدين.

وقد عاش الغزولى وتوفى فى دمشق، وزار القاهرة مراراً.

لا يعرف له مؤلفات سوى هذا الكتاب.

توفى المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ سنة ٨١٥هـ ـ ١٤١٢م.

لا يعرف له تاريخ ميلاد.

الناشـــر



مقدمة

أما بعد: فهذا كتاب مجموعه لفريق أهل الأدب مفيد، وتذكرة فيها ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، جاء فى تأليفه الشريف علوىّ النسب وتاريخًا أديبًا لو سمعه الذهبى لكتبه بماء الذهب، ما وصل إلى حلاوة تأليفه ابن خلكان، ولا ينظر مع وجوده بوجه فى مرآة الزمان، فيا له من مجموع أقسم بشانى اثنين أنه تفرد، وهامت به كتب الأدب وأمست عارية من الجلد وما عسى أن تتجلد، لقد أصبح من حسان المعانى بحور مقصورات فى خيام الطروس ممدودًا وأوتى من كنوز الأدب وأنبائه مالا ممدودًا، وبنين شهودًا، صرفت الذهن إلى ترصيفه واستعنت بالناقد البصير عند الصرف، وبالصانع القدير عند الرصف، وأعربت بناه عن وصف دار ملك فجاء فى حسنه زائد الوصف، فأقسم من وصف هذه الدار بالبيت المعمور أنها نزهة الناظر والسامع، واتلو على بيت حاسدها أن عذاب ربك لواقع، ما مرّ الأدباء على أبوابها إلا سلموا سلام الخاشعين عسى أن يقال لهم ادخلوها بسلام آمنين.

وإنى وإن لم أستطع خلوة بكم
أمرّ على أبوابكم فأسلم

فتح على من وصفها بخمسين بابًا فسبحان الفتاح، ولكن جعلت سودانة منها وبياض طرسها نزهتى فى الليل والصباح، وجاورتها بأوصاف علت بحسن طباقها البديعة على بيوت الأشعار، فاستحقيت التمتع بها دون الغير لأن جار الدار أحق بدار الجار، وتالله لقد أحجم الفضلاء عن وصف هذه الدار المباركة أعتابها فكيف إذا جاءوها وفتحت أبوابها، وأمست قلوب معانيها المختلفة بأنواع البدائع تتألف، وهى تتلو على بيت حاسدها ﴿لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف﴾[1] كم طرق بابها بوصف فأتيت بالدقة الأدبية من الافتتاح، وأبديت ما لو ناظره ابن سكرة لعسر ذلك عليه ولو أتى بالمفتاح، وإن دخلت إلى وصف الدهليز من بابه فلا تركت لأحد فيه مدخل، أو إلى البادهنج نقلت حديث الهوى صحيحا وإن كان معلل، أو إلى وصف الخدام استعبدت حر الكلام،

---

(١) الآية: ٦٣ من سورة الأنفال.

وأظهرت قوة العزائم فى الاستخدام، وإن ترويت فى البركة رفعت لها من الوصف راية فوق قناتها، أو فى النوفرة الفضة حققتها من زهور البديع بخضراتها، كم سهرت فى الفرش لوصف المساند وهم على الأرائك ينظرون، ودرت إلى وصف الدواليب وهالات بدورها ونجوم نثرتها ﴿وكل فى فلك يسبحون﴾[1] وكم سجعت فى وصف الطيور المسموعة بما يغنى عن سجع المطوق وألحان السواجع، وهذبت النفس فى وصف الشطرنج فعقد لى الدست من حسن فرزنتى من غير مانع، وروّحت الخاطر لوصف المروحة فهب لى نسيم القبول من غير تعب، واقتبست من شعل الدهر وصف الشمعة والفانوس ولم أقل للهيب الفكر تبت يد أبى لهب، وأطلقت عنان الذهن القادح فى وصف السراج، فكنت فارس القبيلة، وأتيت بما يفحم السراج، ولو طول لسانه لقيل له لا تكن طويل الفتيلة، وحدقت فى البساتين ووصف غصونها وزرد خمائلها، فهمت إلى بان الحمى وزرود، وتغزلت فى رياحينها وورودها بما أخمل زهر الآداب وشوق إلى العوارض والخدود، وتمسكت بالغوالى من المعانى المعشوقة فى وصف الطيب فاطربت حتى قال أهل العود طيب، وملت إلى صرف الذهن فى وصف الراح فمازجته من الشعر الذى يقطر ماء الحسن منه بصيب، ووصفت الأوانى حتى قالت الكاسات جانا دو وقهقهت فرحة ثغور القنانى، وحليت سادجها بذهب الوصف حتى قالت أنا ذهبية عصرى وأوانى، وجرعت العدوّ فى وصف النديم، والصديق الحميم، وألفت فى وصف الشعراء قصصا تركت الحسود لما عبس وتولى عنها فى ألف لام ميم، وأتيت فى وصف الفضلاء بنظم ونثر يحير الفاضل، وأرقصت طربا فى وصف المطربين وما خرجت عما هو فى السمع داخل، واسترقيت فى وصف الجوارى والغلمان كل حر من المعانى دقيق، وجئت بما لو سمعه ابن نباتة لصار له عبدا بسوق الرقيق، ووصفت الباه بما يحرك الشهوات، وأتيت بما هو أوضح من الصبح ولكن لم يكن قاطع اللذات، ودخلت إلى الحمام بقلب وانشراح صدر فأبديت ما لو شاهده الحمامى لقال ما أنا قبالة هذا التشبيه، ومن هنا عرفت حر الأشياء وباردها وأخذت الماء من مجاريه، وأضرمت الفكر فى وصف النار فأتيت من الأدب بحشمة قطعت عندها الألسن الجمرية، وأفحمت كل ذهن وقاد وأخمدت الأفكار اللهبية، وقعد لى الدست فى الطباخ فاتيت فى وصف القدور بما طاب وعلى سوقه استوى، وقلت للأفكار ألا هبى بصحنك فأتت بما ترك قلوب الأعداء خوافقا على غير الاستوا، وتصيدت من وصف الأسماك ما غصت خلفه من الشعر الى أقصى البحور، وأتيت بما حيّر الثورانى والجزار فى وصف

---

(١) الآية: ٤٠ من سورة يس.

الجزور، ولم أدخل إلى السفرة بجبن، بل مددتها بما يليق بمثلي، وتركت البقول تقول لمن لا عنده رشاد وهو غير حاذق ما أنت من خل بقلي، ومددت الخوان بمائدة من المعاني صيرت الشعراء عند وصفها فرقان وتنوعت في الأطعمة الشهية بألوان وتفقهت في الوصف لما دخلت إلى باب المياه وقلت وقد جرى جواد الفكر في وصف الماء سبحان من أجراه، وأتيت في وصف "الحلوى بما لو ذاقه ابن الحلاوي لشبك عليه وعقد الخناصر، وفي وصف المشروب بما أصبح كل ظام من أهل الذوق إلى مورده العذب صادر وتركت الضد في بيت الخلا حائرا يبحث في باب الطهارة، وكم طلب أن يستعير له وصفا فلم يطق وشابت ذقنه في باب الاستعارة، وعالجت وصف الأطباء وأعطيت الذهن دستورا فأتى بما هو من القانون أطرب، وإن جحد ذلك حمار ضعيف الذهن فمفردات ابن البيطار له أوجب، وأتيت في وصف الوزراء بما لو ناظره الغير لقالوا عنه ﴿كلا لا وزر﴾[1] وباشرت وصف الحساب فأتيت بما لو شاهده ابن الصاحب رجع عن ديوانه وعلم أني صاحب النظر واصطبحت بخمرة الانشاء في رياض الوصف فأتيت بما أشار إليه بأصبعه زهر المنثور، وطرقت بابه ففتح عليّ ودخلت من غير دستور، وأتحفت الأسماع من الهدايا بكل هدية صالحة لطيفة، وجلبت من معادن الأدب في وصف الجواهر ما لو سمعه صاحب العقد نسي نظامه وتأليفه، وسننت الفكر في وصف السلاح فجزت الحد وكنت فارس الكلام، وتغزلت في حواجب القسي واصداغ السيوف وقامات الخطي وأهداب السهام، ووصفت الكتب وأبوابها بكل قرينة صالحة وأسكنتها في أجمل بيت، وأتيت في وصفها بما لو ناظره الغير لغلقت الأبواب وقالت هيت، وركضت بشدة الحزم إلى وصف الخيل فلم ألحق في ذلك المضمار، وأتيت في وصف الدواب بما لم يقع عليه حافر ولا يلحق له غبار، وقنصت في وصف المصائد ظباء البديع فما نفرت، وحشرت وصف الوحوش في حضائرها وناهيك إذا الوحوش حشرت، وصدحت في وصف الحمائم بما هيج البلابل حين علا أوراقه، وأصبح طائر قلب الضدّ واقعًا دونه ولو طار نحوه بطاقه، وأطلت في وصف القصور فأتيت بكل بيت لم يكن له في علوّ طباقه مطابق، وأتيت في وصف الحصون المنيعة بما عوّذته بالسماء ذات البروج من الطارق، وشوقت إلى الاوطان فأتيت في وصف علائم المنازل بأبيات، إذا رآها الشيق إلى أوطانه قال هي المنازل لي فيها علامات، ودخلت إلى الجنة فغزعت بأوصاف تركت الأعداء في نار الحسد يتقلبون، وتلى عليهم ﴿لا يستوي

---

(١) الآية: ١١ من سورة القيامة.

أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾[١] واستوعبت هذه الأوصاف التى بعد مرامها وأمت عينا يشرب بها المقربون وهنا يحسن الالتفات فنقول والله المستعان على ما تصفون:

وهذا أوان إيراد الأبواب المذكورة، وشرح المحاسن المأثورة، وبالله التوفيق والإعانة، فى لطف الإنابة وحسن الإبانة، لا رب غيره ولا خير الا خيره وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الباب الأول: فى تخير المكان المتخذ للبنيان.

الثانى: فى أحكام وضعه وسعة بنائه وبقاء الشرف والذكر ببقائه.

الثالث: فى اختيار الجار والصبر على أذاه وحسن الجوار.

الرابع: فى الباب

الخامس: فى ذم الحجاب.

السادس: فى الخدم والدهليز.

السابع: فى البركة والفوارة والدواليب وما فيهن من كلام وجيز.

الثامن: فى البادهنج وترتيبه.

التاسع: فى النسيم ولطافة هبوبه.

العاشر: فى الفرش والمساند والأرائك.

الحادى عشر: فى الأراييح اللذيذة والمروحة وما شاكل ذلك.

الثانى عشر: فى الطيور المسموعة.

الثالث عشر: فى الشطرنج والنرد وما فيهما من محاسن مجموعة.

الرابع عشر: فى الشمعة والفانوس.

الخامس عشر: فى الخضرات والرياحين.

السادس عشر: فى الروضات والبساتين.

السابع عشر: فى آنية الراح.

الثامن عشر: فيما يستجلب بها من الأفراح.

التاسع عشر: فى الصاحب والنديم.

العشرون: فى مسامرة أهل النعيم.

الحادى والعشرون: فى الشعراء المجيدين.

---

(١) الآية: ٢٠ من سورة الحشر.

الثانى والعشرون: فى الحذاق المطربين.
الثالث والعشرون: فى الغلمان الحسان.
الرابع والعشرون: فى الجوارى ذوات الألحان.
الخامس والعشرون: فى الباه.
السادس والعشرون: فى الحمام وما غزا مغزاه.
السابع والعشرون: فى النار والطباخ والقدور.
الثامن والعشرون: فى الأسماك واللحوم والجزور.
التاسع والعشرون: فى السفرة والبقول.
الثلاثون: فى الخوان والمائدة وما فيها من كلام مقبول.
الحادى والثلاثون: فى الوكيرة والأطعمة المشتهاة.
الثانى والثلاثون: فى الماء وما جرى مجراه.
الثالث والثلاثون: فى الحلوى والمشروب.
الرابع والثلاثون: فى بيت الخلا المطلوب.
الخامس والثلاثون: فى نبلاء الأطباء.
السادس والثلاثون: فى الحساب والوزراء.
السابع والثلاثون: فى كتاب الإنشاء وهو فصلان.
الثامن والثلاثون: فى الهدايا والتحف النفيسة الأثمان.
التاسع والثلاثون: فى خواص الأحجار وكتانها فى المعادن.
الأربعون: فى خزائن السلاح والكنائن.
الحادى والأربعون: فى الكتب وجمعها.
الثانى والأربعون: فى الخيل والدواب ونفعها.
الثالث والأربعون: فى مصائد الملوك الجليلة المقدار.
الرابع والأربعون: فى حضائر الوحوش المتخذة لنزهة الأبصار.
الخامس والأربعون: فى الأسد والزرافة والفيل.
السادس والأربعون: فى الحمام وما فيه من قيل.
السابع والأربعون: فى الحصون والقصور والآثار.
الثامن والأربعون: فى الحنين إلى الأوطان وما فيه من رائق الأشعار.
التاسع والأربعون: فى دار سكنت بها كثيرة الحشرات.

الخمسون: فى جنات النعيم وما فيها من غرفات، وبتمامه تمت الأبواب.

والمقصود: من الواقف على كتابنا هذا الاقصار عن تتبع أخطائنا والصفح عما يقف عليه عن اغفالنا والتجاوز عما ينتهى إليه من إهمالنا وإن أداه التصفح إلى صواب نشره وإلى خطأ ستره فقد كان يقال من ألف كتابا فقد استشرف، فإن أصاب فقد استهدف وإن أخطأ فقد استقذف، وكان يقال لا يزال الرجل فى فسحة من عقله ما لم يقل شعراً أو يضع كتابًا وكان يقال اختيار الرجل وافد عقله ويقال دل على عاقل اختياره، وقيل لبعض العلماء اختيار الرجل قطعة من عقله، قال بل مبلغ عقله، وقال الخليل بن أحمد لا يحسن الاختيار الا من يعلم ما يحتاج اليه من الكلام، وقال الشعبى: العلم كثير والعمر قليل فخذوا من العلم أرواحه يعنى عيونه ودعوا ظروفه، وقال ابن عباس ﷺ: العلم أكثر من أن يحصر فخذوا من كل شىء أحسنه، ونحن نستعين الله على كل حاسد ولله در القائل:

لمن أبوح بشعرى حين أنظمه ... أم من أخص بمن فيه من الزبد

إما جهول فلا يدرى مواقعه ... أو فاضل فهو لا يخلو من الحسد

على أن الإنصاف من شيم الأشراف.

وهذا أوان الشروع فى ايراد ما قصدناه والأمر الذى نحوناه وبالله المستعان.

الباب الأول
فى تخير المكان المتخذ للبنيان

قال ارسطاليس: أول الصناعات الضرورية الصيد، ثم البناء، ثم الفلاحة، وذلك لو أن رجلا سقط فى فلاة لا أنيس بها ولا زرع لم يكن همه إلا حفظ قوام نفسه بالغذاء، فليس يفكر إلا فيما يصيد، فاذا صاد واغتذا فليس يفكر بعد ذلك الا فيما يسكن فيه وهو البناء، فاذا تم له فكر حينئذ فيما يزرعه ويغرسه.

وقال إبراهيم بن إسحاق المصعبى بمياه الملوك العمارة ولا يحسن بهم التجارة.

وقال ابن كلدة جميع خصال الدار المستخسة أن تكون على طريق نافذ وماؤها يخرج منها وليس عليها مشترف وحدودها لها وتكون بين الماء والسوق ويصلح فناؤها لحط الرحال وبل الطين ووقوف الدواب وان كان لها بابان فذاك أمثل وينبغى أن يكون أيضًا فى طرف البلد لأن الأطراف منازل الأشراف.

وقال البحترى، توفى سنة أربع وثمانين ومائتين:

عجب الناس لاعتزالى وفى الأطـ ـراف تلفى منازل الأشراف
وقعودى عن التلفت والار ض لمثلى رحيبة إلا كناف
ليس عن ثروة بلغت مداها غير انى امرء كفانى كفافى

قيل: وإنما كانت الأطراف منازل الاشراف لانهم يتناولون ما يريدونه بالقدرة ويصل إليهم من يريدهم بالحاجة إليهم.

وقيل لرجل فى أى موضع من القرآن الأطراف منازل الأشراف فقال قوله تعالى: ﴿وجاء من أقصا المدينة رجلٌ يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾[1] فهنا أشرفهم وكان ينزل أقصى المدينة.

وقيل ليس فى الأرض بخيل ولا جواد إذا ابتاع دارا إلا بنى فيها شيئا وهدم شيئا وإن قل لأن حاجته ومنافعه ومرافق المالك الأول لا يستويان، قال الجاحظ رأيت بخلاء فى نهاية البخل يسرفون فى الإنفاق على البنيان.

---

(١) سورة يس الآية: ٢٠

وقال الحكماء لذة الطعام والشراب ساعة ولذة النوم يوم ولذة المرأة شهر ولذة البنيان دهر كلما نظرت إليه تجددت لذته فى قلبك وحسنه فى عينك.

وقال ناصر بنى أمية فى مبانيه العظيمة بمدينة الزهراء بالأندلس:

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان

إن البناء إذا تعاظم شأنه ... أضحى يدل على عظيم الشان

ولما دخل الرشيد إلى منبج قال لعبد الملك بن صالح الهاشمى وكان لسان بنى العباس هذا البلد مقر لك، فقال يا أمير المؤمنين هو لك ولى بك، قال كيف منازلك به، قال دون أهلى وفوق منازل غيرهم، قال كيف صفة مدينتك، قال عذبة الماء طيبة الهواء قليلة الأدواء، قال كيف ليلها قال سحر كله وهى تربة حمراء وسنبلة صفراء وشجرة خضراء وفياف فيح بين قيصوم وشيح، فقال الرشيد والله هذا الكلام أحسن منها.

ولما بنى عيسى بن جعفر قصره بالرصافة دخل إليه عبد الصمد فقال بنيت أجل بناء بأطيب فناء وأوسع فضاء على أحسن بهاء بين صحار وحيتان وضباء، فقال كلامك أحسن من بنائها.

وكان ابن جعفر بن سليمان الهاشمى يقول العراق عين الدنيا والبصرة عين العراق والمربد عين البصرة ودارى عين المربد.

وقال بعض أهل التجربة إذا ابتنى أحدكم داراً فليترك فى واجهتها ثلمة تقيها شر عين الكمال.

قلت: ولا بأس بايراد نبذة مما يتعلق بكرى الدار.

فمن ذلك ما حكى أن رجلا دخل حجرة يكتريها فقال أين المطبخ فقيل له فى الجيران من يطبخ لك ويكفيك المؤنة، قال فأين المخبز فقيل إذا اختمر العجين خبزوا لك أيضًا، قال فبيت الخلاء فقيل بالقرب خربة تقضى فيها الحاجة، قال فالسطح فقيل على الباب ساحة يطيب فيها النوم فى الصيف، قال فأنا فى دار وما أعلم بروحى فأستمر على ما أنا فيه وأربح الأجرة.

وقال الحكيم بن سعيد قال لى ملك بسرنديب صف لى معايش أهل البصرة فقلت قوم منهم لهم فضول منازل يكرونها وقوم لهم ارقاء يستعملونها وقوم لهم رءوس أموال يغدون إلى أسواقهم فيأكلون فضولها وقوم لهم نخيل يأكلون ثمارها فقال من كان معاشه من كرى فلئام الناس ومن استعمل الارقاء فكلاب الناس والذين يغدون إلى أسواقهم فذئاب الناس ولكن أصحاب النخل، وقال بعضهم:

قد رضينا من الزمان بقوت وبيوت ومسكن لا زياده
ورضينا من الاله بما يرضى ومن غيره تركنا الإراده
غير أنا نروم خاتمة الخير فان يسرت فتلك السعاده

لطيفة: ذكرها الحريرى فى كتابه الموسوم بتوشيح البيان أن أحمد بن المعدل كان يجد بأخيه عبد الصمد وجداً شديداً على تباين طريقتهما لأن أحمد كان صوامًا قوامًا وكان عبد الصمد سكيراً خميراً وكانا يسكنان داراً واحدة ينزل أحمد فى غرفة أعلاها وعبد الصمد أسفلها فدعا عبد الصمد ذات ليلة جماعة من ندمائه وأخذ فى القصف واللذات والعزف حتى منعوا أحمد الوِرد ونغصوا عليه التهجد فاطلع عليهم وقال ﴿أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض﴾(١) فرفع عبد الصمد رأسه وقال ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾(٢)

قلت: وعلى ذكر الغرفة فالطف ما ذكره علاء الدين الوداعى فى تذكرته قال: رأيت مكتوبًا على غرفة يصعد منها إلى سطح قبة الصخرة المقدسة قوله تعالى: ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحيةً وسلامًا﴾(٣) فعجبت من اتفاقها وكأنى لم أسمعها، ورأيت أيضًا فى طاقة زجاج بقبر طالوت - عليه السلام - بسفح قاسيون قوله تعالى: ﴿الله نور السموات والأرض﴾(٤) وهذا من عجيب ما يكتب على طاقة زجاج.

نادرة: كان بعضهم فى دار بكرى فقال لصاحبها اعمر لى السقف فإنه يفرقع إذا مشينا عليه فقال لا بأس عليك فإنه يسبح الله، فقال أخشى أن تدركه الرقة فيسجد.

وطلب بعضهم داراً للكرى فدلوه على دار فدخل غيرها فوجد واحدا ينيك أمرد فاستحى وقال هل عندكم دار للكرى فقال له ما أحمقك نحن من الضيق بعضنا على بعض.

كان بعض النحويين له مال كثير وليس له سكن يأوى إليه فقيل ابن بيتًا، فقال والله لا بنيت ما اتفق النحويون على إعرابه.

ومما قاله المرحوم القاضى فتح الدين بن الشهيد الذى كان مولده بالرملة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة وقد توفى مقتولاً بالقاهرة سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وكتبه على عمارة له:

---

(١) الآية: ٤٥ من سورة النحل.
(٢) الآية: ٣٣ من سورة الأنفال.
(٣) الآية: ٧٥ من سورة الفرقان.
(٤) الآية: ٣٥ من سورة النور

بنيت على وقف المكارم والعلى فللفتح أبوابى وصدرى للضم
سنا الملك يبدو فى موشح زينتى ومن أجل ذدار الطراز على كمى

ومما كتبه على الرفرف قوله:

رفعت كما شا الترفه رفرفا أزين سمائى بل أزين سماحى
فلا بدع أن الناس يهوون بهجتى ويمشون فى ظلى وتحت جناحى

الباب الثانى
فى أحكام وضعه وسعة بنائه
وبقاء الشرف والذكر ببقائه

وروى أن عمر بن الخطاب ﷺ لما بلغه أن سعداً وأصحابه بنوا بالمدر كتب: أكره لكم البنيان بالمدر فإذا فعلتم فعرّضوا الحيطان وأطيلوا السُّمك وقاربوا بين الخشب.

ولما بنى معاوية داره بدمشق باللبن دخلها وفد الروم فقالوا ما أحسن ما بناها للعصافير فهدمها وبناها بالحجر.

ورأى بعضهم رجلاً قد بنى حائطًا بالحجر وهو يبيضه فقال هذا يستر الذهب بالفضة.

وحكى أن يحيى بن خالد كان جالسًا للقصص فرفعت إليه قصة متظلم من بعض عماله فقربه وسأله عن ظلامته، فقال له إن عاملك فلانًا ظلمنى وأخذ مالى واغتصب صنيعتى وهدم شرفى، فقال له فهمت جميع ما ذكرته إلا قولك هدم شرفى فما معناه، فقال له أنا من أبناء فارس كانت لى ضيعة وبالقرب منها قصر على الطريق فيه سقاية ينزلها الناس ويسقون منها ويذكرون بانيها ويترحمون عليه فغصبنى الضيعة وهدم القصر فأمر يحيى بالكتابة إلى العامل أن ترد عليه ضيعته وجميع ما أخذته منه وتبنى القصر حتى ترده على هيئته كما كان، وقال لبنيه ابنوا فان الذكر والشرف باقيان ببقاء البنيان.

وقيل لأبى الدهمان أين دارك؟ فقال إذا دخلت سكة بنى العنبر فالدار التى تدل على شرف أهلها دارى.

وعلى ذكر السؤال ما أحسن ما ذكره ابن رشيق فى الانموذج أن عبد الرحمن بن محمد الفراسى جلس مع بعض شيوخ يونس وكان الشيخ نهاية فى المجون فاجتاز بهم رجل يسأل عن دار ابن عبدون فأقبل الشيخ عليه فقال هى فى تلك الرابعة حيث يقوم ايرك فقال الفراسى لأنظمنه، فما رأيت مثل هذا المعنى، وأنشد من وقته.:

إن شئت أن تعرف عن صحة ... دارى التى تعزى لعبدونه

فامش فإن أيرك أبصرته ... قام فإن الباب من دونه

وقد عكس الشيخ صلاح الدين الصفدى (ومولده سنة أربع وتسعين وستمائة ووفاته سنة أربع وستين وسبعمائة) هذا المعنى فقال:

أقول لمن يسائل عن محلى ... تقدم وامش من خلف السوارى
ومر فحيثما تلقى حكاكا ... بسرملك لا تعد فثم دارى

رجع: خرّج الخطيب الحافظ أبو بكر فى تاريخه قال لما بنى المهدى قصره بالرصافة دخل يطوف فيه ومعه أبو البحترى وهب بن وهب بن وهب فقال له هل تروى فى هذا شيئًا؟ قال نعم حدثنى جعفر بن محمد عن ابنه أن رسول الله ﷺ قال: «خير صحونكم ما سافرت فيه أبصاركم».

وقال المأمون يومًا لجلسائه أتدرون من أهنى الناس عيشًا، فقالوا أمير المؤمنين فقال لا قالوا فأمير المؤمنين أعلم، فقال أهنى الناس عيشًا رجل له دار قوراء وامرأة حسناء وكفاف من العيش لا يعرفنا ولا نعرفه.

قال سلمة الأحمر دخلت على الرشيد فى قصره الذى بناه فقلت:

أما بيوتك فى الدنيا فواسعة ... فليت قبرك بعد الموت يتسع

فجعل يبكى.

وقيل: إن خالد بن الوليد ؓ شكى إلى النبى ﷺ ضيق مسكنه، فقال: ارفع البناء وسل الله السعة.

وقال يحيى بن خالد لابنه جعفر وقد همّ ببناء دار استوسع فإن الهمة فى السعة.

سئل بعضهم ما الغنى فقال سعة البيوت ودوام القوت.

وقال بعضهم طيب المساكن بثلاثة: سعة الصحن، وخرير الماء، وشىء من الخضرة.

(يحيى بن خالد) الدنيا ثمانية: الطعام الطيب، والماء البارد، والثوب اللين، والفراش الوطى، والدار الواسعة، والمرأة الموافقة، والخادم الفاره، والقدرة على الإخوان بالإحسان.

وكان يقال جنة الرجل داره.

وذكر الأحنف الدور فقال: ليكن أول ما يشترى وآخر ما يباع.

وقال يحيى بن خالد لابنه جعفر دارك قميصك فوسعه كيف شئت.

وقيل لبعضهم ما السرور فقال: دار قوراء وامرأة حسناء وفرس مرتبط بالفناء وينشد:

ومن المروة للغنى ... ما عاش دار فآخره
فمما قنع من الدنيا بها ... واعمل لدار الآخره

وكان يقال: دار الرجل عيشه.

قال السلامى فى كتابه نتف الطرف الدور للناس كالأعشة للطير والأوجرة للوحش والحجرة للحشرات فدار الرجل حال نفسه وموضع أمنه ومسكن قلبه ومجمع أهله ومحرز ملكه ومأنس ضيفه وملتقى صديقه وعدوه ولا شيء أصعب على الناس من الخروج من ديارهم.

وقد قرن الله سبحانه وتعالى الخروج منها بالقتل حيث قال تعالى: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليلٌ منهم﴾[1] وقال أحد الأشراف لابنه يا بنى أحسن أثرك فى هذه الدنيا بالبناء الحسن واسمع قول الشاعر:

ليس الفتى بالذى لا يستضاء به ... ولا يكون له فى الأرض آثار

ولا تنس قول الآخر:

إن آثارنا تدل علينا ... فانظروا بعدنا إلى الآثار

ومن أحسن ما قيل فى بناء الملوك قول على بن الجهم المتوفى سنة تسع وأربعين ومائتين:

وما زلت أسمع أن الملو ... ك تبنى على قدر اخطارها

فلما رأيت بناء الإما ... م رأيت الخلافة فى دارها

حكى أن أبا العيناء دخل على المتوكل فى قصره فقال له: كيف ترى دارنا هذه؟ فقال الناس بنوا دورهم فى الدنيا وأنت بنيت الدنيا فى دارك.

أخذه اليزيدى فقال:

لما بنا الناس فى دنياك دورهم ... بنيت فى دارك الغراء دنياها

فلو رضيت مكان البسط أعيننا ... لم يبق عين لنا إلا فرشناها

---

(١) النساء الآية: ٦٦

الباب الثالث
فى اختيار الجار والصبر على أذاه وحسن الجوار

وقيل الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق، وقيل لبعضهم أين معك فى القرآن الجار قبل الدار، فقال قوله تعالى: ﴿رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة﴾[1] وقال ﷺ: «من أشراط الساعة سوء الجار نعوذ بالله من ثلاث هنّ القوافر: إمام السوء إن أحسنت لم يشكر وإن أسأت لم يغفر، ومن جار السوء إن رأى حسنا ستره وإن رأى قبيحًا أذاعه، ومن سوء امرأة إن غبت عنها خانتك وإن دخلت عليها لسنتك.

حكى: أبو السعادات بن الشجرى (مولده سنة خمسين وأربعمائة وفاته سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة) فى شرح الحماسة أن العباس بن الفرج الرياشى قال وفد زياد الأعجم على حبيب بن المهلب وهو بخراسان فبينما هما يشربان ذات عشية إذ سمع زياد صوت حمامة تغنى على شجرة فى دار حبيب فقال:

تغنى أنت فى ذممى وعهدى	بأن لا يذعروك ولا تضارى
إذا غنيتنى وشربت كأسًا	ذكرت أحبتى وذكرت دارى
فإما يقتلوك طلبت ثارًا	لأنك فى حماى وفى جوارى

فأخذ حبيب سهما فرماها فأنفذها فقال زياد قتلت جارى، بينى وبينك المهلب فاختصما إليه فقال المهلب أبو امامة لا يروع جاره وقد ألزمنك العقل ألف دينار فدفعها إليه من يومه.

ولما بنى كسرى إيوانه كانت بجواره دويرة لعجوز لا يكمل تربيع الإيوان إلا بها فدفع لها جملة من المال، فقالت لا أبيع جوار الملك بملئها ذهبًا ولا أخرج عن جواره طائعة فإن غصبنى إياها فهو قادر على ذلك فعلم كسرى بذلك، فقال تترك ويبنى الإيوان فقيل لا يجىء مستحكم التربيع، فقال يبنى ما اتفق وكان فيه عوج، فكان بعد ذلك يقال له ما أحسن بناء هذا الإيوان لولا هذا العوج فيقول بهذا العوج تم حسنه.

قلت: وعلى ذكر الإيوان ما أحسن ما أنشدنى من لفظه لنفسه أجازه الشيخ عز الدين

---

(١) الآية: ١١ سورة التحريم.

على ابن الشيخ بهاء الدين الحسين الموصلى ـ رحمه الله تعالى ـ أحجبيه كتب القاضى صلاح الدين الصفدى تغمده الله بالرحمة:

يا من له الطول فى المعالى وبالمعانى لنا يبصر
إنى كما قلت فى سؤالى ما مثل قولى نعم مقصر

رجع: وكان لابن المعقع بجنب داره دار وكان يستامها من صاحبها وهو يمتنع من بيعها فاتفق أنه ركبه دين فاحتاج إلى بيعها فعرضت عليه فسأل عن سبب بيعه إياها بعد غبطة بها فأخبره بقصته، فقال ما قمت إذاً بحرمة الجار ان اشتريتها وقد باعها معدما فحمل إليه ثمن الدار وقال أبق دارك عليك بارك الله لك فيها وردّ هذا فى دينك.

وقال الأصمعى رأى بعضهم عدى بن حاتم الطائى يفت للنمل خبزاً بفناء داره، فقال له يا أبا طريف ما تصنع، فقال جارات ولهنّ حرمة.

قلت: وعلى ذكر حاتم الطائى ذكرت ما أنشدنيه سيدى الجناب المجدى فضل الله بن المرحوم الصاحب الفاضل فخر الدين عبد الرحمن بن مكانس ـ سلمه الله تعالى ـ قال: أنشدنى والدى من لفظه قال أنشدنى صاحبنا الشيخ شمس الدين الواسطى (توفى المذكور قريبًا من سنة ثمانين وسبعمائة) لنفسه مواليًا:

ما مت حتى جفانى كل من فى الحىّ وملنى وقلانى كل من لوشى
وأنت ما فى العجم والعرب مثلك حىّ يا من طوى بالمكارم ذكر حاتم طىّ

قلت: وأنشدنى من لفظه لنفسه الصاحب المرحوم فخر الدين بن مكانس من قصيدة (وتوفى تغمده الله بالرحمة سنة أربع وتسعين وسبعمائة) وذلك بمنزله بقنطرة قدادار بتاريخ عاشر صفر من شهور عام ثلاث وتسعين وسبعمائة:

وكم طربت لما أبدته من ملح يصبو له كل ذى عقل وآراء
وجدت بالتبر من مالى ومن أدبى فكنت فى كل حال منهما الطائى

رجع إلى ما كنا بصدده وقال محمد بن عبد الرحمن الزهرى كانت بينى وبين أبى العباس ثعلب مودة أكيدة وكنت أستشيره فى أمورى فجئت يومًا أشاوره فى الانتقال من دار إلى أخرى لتأذى بها بالجوار، فقال يا أبا محمد العرب تقول صبرك على أذى من تعرفه خير لك من استحداث ما لا تعرفه.

من غريب الاتفاق أن بشار بن برد كان قد حلف انه لا يجاور حماد عجر ولا يظله وإياه سقف بيت ولا مسجد وأنه يهجوه بألف قصيدة فاتفق أن مات حماد فى قرية من سواد البصرة وعرضت لبشار هناك حاجة فمات فيها ودفن إلى جانب حماد عجرد.

وقريب من هذه الحكاية ما حكى أن روحا بن حاتم بن قبيصة بن المهلب كان واليا على السند وأخوه يزيد واليا على أفريقية فتوفى بها فى سنة سبعين ومائة بالقيروان، فقال أهل المدينة - أعنى أفريقة - ما أبعد ما يكون بين قبرى هذين الأخوين فإن أخاه بالسند وهذا هنا فاتفق أن الرشيد عزل روحا عن السند وسيره إلى موضع أخيه يزيد فدخل إلى أفريقية فلم يزل واليا بها إلى أن مات ودفن مع أخيه فى قبر واحد فعجب الناس من غريب هذا الاتفاق.

عود: وكان لأبى حنيفة جار اسكاف بالكوفة يعمل نهاره أجمع فاذا جن الليل رجع إلى منزله بلحم أو سمك فيطبخ اللحم أو يشوى السمك فإذا دب فيه السكر أنشد:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فلا يزال يشرب ويردد البيت إلى أن يغلبه السكر وينام وكان أبو حنيفة يصلى الليل كله ويسمع جلبته وإنشاده ففقد صوته ليال فسأل عنه، فقيل أخذه العس منذ ثلاثة أيام وهو محبوس فصلى صلاة الفجر وركب بغلته ومشى واستأذن على الأمير، فقال ائذنوا له وأقبلوا به راكبا حتى يطأ البساط ففعل ذلك به فوسع له الأمير فى مجلسه وقال له ما حاجتك؟ فقال لى جارا سكاف أخذه العسس منذ ثلاثة ليال فتأمر بتخليته، فقال نعم وكل من أخذ تلك الليلة إلى يومنا هذا، ثم أمر بتخليته وتخليتهم أجمعين فركب أبو حنيفة - رحمه الله تعالى - وتبعه جاره الاسكاف فلما وصل إلى داره قال له أبو حنيفة أترانا أضعناك، قال لا بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً عن صحبة الجوار ورعاية الحق ولله على أن لا أشرب خمرا أبدا فتاب ولم يعد الى ما كان عليه.

قلت: وقد ضمن هذا البيت الشيخ برهان الدين القيراطى تضمينا حسنا (ومولده سنة ست وعشرين وسبعمائة، ووفاته سنة إحدى وثمانين وسبعمائة):

فقال دعانى منيتى لكربة راح ورشف الثغر منه عقيب سكر
فقلت له دعوت فتى يرجى ليوم كريهة وسداد ثغر

ونقلت من المستجاد فى فعلات الأجواد عرض محمد بن الجهم داراً بخمسين ألف درهم فلما حضروا ليشتروا قال بكم تشتروا منى جوار سعيد بن العاص وكان بجواره، فقالوا وان الجوار ليباع، فقال وكيف لا يباع ويفرد بثمن وهو جوار من إذا سألته أعطاك، وإن سكت ابتداك، وإن أسأت أحسن فبلغ ذلك سعيدا فوجه إليه بمائة ألف درهم وقال أمسك عليك دارك.

وعلى ذكر الجار فما أحسن قول الشيخ جمال الدين بن نباتة (ومولده سنة ست وستمائة، ووفاته سنة ثمان وستين وسبعمائة).

بروحي جيـرة أبقـوا دمـوعى وقـد رحلـوا بقلبى واصطبـارى
كـأنا للمجـاورة اقتسمنا فـقلبى جـارهم والـدمع جـارى

وقال الشيخ بدر الدين بن الصاحب (ومولده سنة ست عشرة وسبعمائة، ووفاته سنة ثمان وثمانين وسبعمائة) وقد انتقل النيل السعيد عن بر مصر إلى البر الغربى شط الجيزة.

يأيهـا السلطان إن النيل عن مـصـر تنقل بعـد طول جـوار
فـاحـفـظ لنا جـريانه وجـواره فـالله قـد أوصى بحـفظ الجـار

وأنشدنى سيدى وأخى الجناب المجدى فضل الله بن مكانس أبقاه الله ـ تعالى ـ من موشحة لنفسه:

أجريت ما بين دموعى الغزار * مثل البحار * ولم يدع لى طول دهرى قرار
هجر حبيبى وهو منى قريب * مع الرقيب * قد صيرانى بين قومى غريب
دأبى النحيب * فـآه من جورك يا ذا الحبيب * على الكثيب
وما احتيالى فى قريب الديار * ونائى المزار * هو على الحالين يا قلب جار

رجع إلى ما كنا فيه: كان أبو سفيان إذا نزل به جار قال له يا هذا إنك قد اخترتنى جارا واخترت دارى دارا فجناية يدك على دونك وإن جنيت عليك يد فاحتكم حكم الصبى على أهله.

وذكر ابن الجوزى فى كتاب الأذكياء قال رجل يا رسول الله إن لى جارا يؤذينى قال انطلق وأخرج متاعك إلى الطريق، فانطلق فأخرج متاعه فاجتمع الناس إليه فقالوا ما شأنك؟ قال لى جار يؤذينى فجعلوا يقولون اللهم العنه اللهم اخزه اللهم أخرجه، فبلغه ذلك فأتاه فقال ارجع إلى بيتك فوالله لا أوذيك بعدها. وهذه من الحيل التى أباحها الشرع الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده.

وورد أن أبا مسلم الخراسانى صاحب الدعوة عرض عليه فرس سابق فقال لأصحابه لما يصلح هذا الفرس؟ فقالوا ليوم الحرب، فقال كلا ولكن ليهرب عليه من جار السوء.

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «ثلاث كن فى الجاهلية الإسلام أولى بها: كان الرجل منهم إذا نزل به ضيف سعى له أهل البيت كبيرهم وصغيرهم حتى ينقلب وهو راض، وكان الرجل منهم إذا طال ثواء امرأته معه كره طلاقها لئلا تذل بعده، وكان الرجل إذا جنى جاره جريمة باع فيها ولو ولده حتى ينقذ جاره».

الباب الرابع

فى الباب

الباب يجمع على أبواب وقد قالوا فيه أبوبة للازدواج، وقيل أبواب مبوبة كما قيل أصناف مصنفة، ولبعضهم فيما يكتب عليه.

لذ بذا الباب كلما ... خفت ضيق المناهج
فهو باب مجرب ... لقضاء الحوايج

وأنشد الأصمعى وفى أبيات المعانى قول بعض العرب:

وذى رجلين لا يمشى عليها ... ولكن فى القيام له صلاح
فندفعه إذا احتجنا إليه ... ونجذبه إذا حان الرواح

وقال الحاتمى فى باب بمصراعين (توفى المذكور سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة):

عجبت لمحرومين من كل لذة ... يبيتان طول الليل يعتنقان
إذا أمسيا كانا على الناس مرصدا ... وعند طلوع الفجر يفترقان

وقال الشيخ شمس الدين بن دانيال (توفى سنة عشر وسبعمائة):

قل للوزير محمد بن محمد ... يا من هو المسك الذكى لمن درج
أنت الذى دار السعادة داره ... طول الزمان وبابه باب الفرج

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

بشر أمير المعالى باتصال هنا ... يحفه السعد من أقصى جوانبه
واكتب على بابه الغربى معتمدا ... عز يدوم وإقبال لصاحبه

وقال:

أيا دار دار اليمن من كل وجهة ... عليك ولا زال الهنا لكِ يجاب
ولا عدم القصاد بابك إنه ... لنجح الرجا باب صحيح مجرب

قلت: قوله صحيح على غير طائل وصاحب الذوق السليم يشهد والمعنى يقدم.

وقال:

يا زائرى قاضى القضاة لينهكم ... ما صح التجريب من أبوابه
أقسمت ما الحجر المكرم للغنى ... الا الذى تغشون من أعتابه

وقال:

يا مالكا تقصر عن وصفه بدائع الشاعر والكاتب
فى بابك العلم وفيض الندى فلا خلا بابك من طالب

وقال ناصر الدين ابن النقيب فى المجون (توفى سنة سبع وثمانين وستمائة):

قال لى الخارج صف لى مثل ما أعرف وصفك
أين باب الخرق قل لى قلت باب الخرق خلفك

وعلى ذكر باب الخرق فلا بأس بايراد نبذة مما قيل فى باب زويلة، فمن ذلك قول إبراهيم المعمار (توفى سنة تسع وأربعين وسبعمائة):

زويلة بابك هذا سفيه يشرب ماء الخمر جهرا بفيه
ولم يزل يألف سفك الدما وكل ما يقطعه الشرع فيه

وله فيه:

حاذر زويلة إن مررت ببابها وطعامها كن آيسا من خيره
فوسط القتلا يقول به انظروا من لم يمت بالسيف مات بغيره

وقال شهاب الدين بن أبى حجلة (مولده سنة خمس وعشرين وسبعمائة، ووفاته سنة ست وسبعين وسبعمائة):

برت زويلة إذ أمسى يقول لنا باب لها قول صدق غير مكذوب
إذا وعدت حراميا بسفك دما فى الحال علق من وعدى بعرقوب

وقال الشيخ شمس الدين الضفدع فيما يكتب على الباب (مولده سنة ثلاث وتسعين وستمائة، ووفاته سنة ست وخمسين وسبعمائة):

من ذا الذى ينكر فضلى وقد فزت من الحسن بمعنى غريب
عندى لمن يخذله دهره ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾(١)

وقال إبراهيم المعمار:

يا من بباب علاه العيش للناس طابا
أرسلت مدحى غلاما إليك يخدم بابا

وما أظرف قول من قال وإن كان غير ما نحن فيه لا تحسبه لك وحدك إن كنت راقدا انتبه كما فتحت الطاقة غيرك يسد الباب.

(١) الآية: ١٣ من سورة الصف..

وقال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ملغزا فيه (مولده سنة عشرين وستمائة، ووفاته سنة اثنين وتسعين وستمائة):

أى شيء تراه فى الدور والكتـ ـب مجازا هذا وذاك محقق
يحفظ المال والحريم ولو لا ه حفيظًا لكان ذلك يسرق
هو زوج وتارة هو فرد وهو فى أكثر الأحايين يطرق
وطليق فى نشأتيه ولكن بحديد من بعد ذلك يوثق
وثلاثا تراه فى الخط لكن هو اثنان كله إن يفرق
وتراه للحشو ينسب حينا وهو مع ذاك لا يرى يتزندق
وهو فى القلب يستوى وتراه بان تصحيفه لمن يترمق
فأجبنى عنه بقيت مطاعا لست فى حلبة الفضائل تسبق

كتب الشيخ شرف الدين عبد العزيز الحموى المعروف بشيخ الشيوخ إلى والده ملغزا (مولده سنة ست وثمانين وخمسمائة، ووفاته سنة إحدى وستين وستمائة).

ما واقف فى المخرج يذهب طورا ويجى
لست تخاف شره ما لم يكن بمرتج

فكتب إليه والده الجواب ذهاب وجيء وخوف وهذا باب خصومة والسلام.

وكتب الأديب نصر الدين الحمامى إلى السراج الوراق وكان السراج يسكن بالروضة (مولده سنة خمس وعشرة وستمائة، وتوفى سنة خمس وتسعين وستمائة):

كم قد أردد للباب الكريم لكى أبل شوقى وأحيى ميت أشعارى
وأنثنى خائبًا فيما أؤمله وأنت فى روضة والقلب فى نار

فكتب الجواب إليه:

الآن نزهتنى فى روضة عبقت أنفاسها بين أزهار وأثمار
أسكرتنى بشذاها فانثنيت بها وكل بيت أراه بيت خمار
ولا تغالط فمن فينا السراج ومن أولى بأن قال إن القلب فى نار

وقال الصاحب جمال الدين بن مطروح من قصيدة يمدح بها الملك الأشرف مظفر الدين موسى (ولد ابن مطروح سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، وتوفى سنة تسع وأربعين وستمائة):

ما كان أشوقنى للثم بنانه ولقد ظفرت بلثمهما فليهننى
ودخلت من أبوابه فى جنة يا ليت قومى يعلمون بأننى

وقال علاء الدين الوداعى (مولده سنة أربعين وستمائة وتوفى سنة ست عشرة وسبعمائة):

من أم بابك لم تبرح جوارحه تروى أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن قرة والكف عن صلة والقلب عن جابر والسمع عن حسن

قلت: أما قرة فهو قرة بن خالد السدوسى وهو ثقة روى عن الحسن وابن سيرين وليس بتابعى، وأما صلة فهو صلة بن أشيم العدوى كان من عباد التابعين وهو زوج معاذة العدوية وهى تروى عن عائشة ﵂، وأما جابر فهو جابر بن عبد الله كان صاحب رسول الله ﷺ وليس هو جابر الجحفى لأن جابر الجحفى ضعيف وهو تابعى وإنما ضعفوه لأنه كان يؤمن بالرجعة، وأما حسن فهو حسن البصرى كان تابعيًا كبيراً رأى من أصحاب النبى ﷺ نحو ثلاثمائة رجل، ولقد أجاد علاء الدين فى استعمال هؤلاء الرجال فى أوصاف الممدوح ودل على جودة اطلاعه على أسماء رجال الحديث، رحمه الله تعالى.

وأنشدنى سيدى وأخى تقى الدين أبو بكر بن حجة الحموى ـ سلمه الله تعالى ـ لنفسه الكريمة اجازة من قصيدة:

قصدت باب الحبيب والرقبا علىّ من خيفة اللقا حنقه
قالوا: فما تبتغى فقلت لهم حتى تخلصت أبتغى صدقه

والشىء يذكر بلوازمه ما ألطف وأبلغ ما ذكره ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب الاندلسى فى ترجمة شهاب الدين بن رضوان الغرناطى أبو جعفر فى تاريخه بالإحاطة (وذكر أن وفاته سنة ثلاث وستين وسبعمائة):

يا من اختار فؤادى مسكنا بابه العين التى ترمقه
فتح الباب سهادى بعدكم فابعثوا طيفكم يغلقه

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة نثرا:

أى والله تخلى الشباب وخمد آب الذهن اللهاب وخلا الفكر الحائم من صوب والفهم الخادم من صواب، واقصر عن نظمه ونثره من كانت له فى الإنشاء نشأة وكانت له فى الشعر أسباب، وغض بصر القريحة وتقاص ذيلها فما يرفع لها ولا تجر أهداب، واختبى لسان المنشئ المنشد عجزا وأغلق عليه من شفتيه مصراعى الباب.

وقال القاضى الفاضل نثرا (مولده سنة أربع وعشرين وخمسمائة، ووفاته سنة ست وتسعين وخمسمائة):

لا زالت الملوك ببابه وقوفا والاقدار له سيوفا والخلق له فى دار الدنيا ضيوفا ودين دين الحق تعلمه الناس أنه إذا جرد لتقاضيه سيوفا سيوفى.

ومن نثره: كل لفظة موصولة بأنه وفى كل قلب من حربه نار وفى كل دار من فضله جنة فروح الله تلك الروح وفتح لها أبواب الجنة فهى آخر ما ترجوه من الفتوح

من رسالة كتبها المرحوم العلامة فتح الدين بن الشهيد إلى بعض أصحابه، وقد طرق عليه الباب فوجده مقفلا:

فما هو إلا أن قبلت العتبة فأعتبت، وتأدت فريضة الخدمة لما وقفت وتأدبت، وأطلت قرع حلقة الباب فقال الصدى ضربت فى حديد بارد وجئت، وقد استقل ركاب المسود والسائد فاذكر حاجتك أبلغ عنك ما تقول وأسبق، يرجع الجواب إليك الرسول قلت محب براهم بالقلب إن عاقب الحوايج والجوانح ورحت، وقلت إن جئت بجواب فـل عن سايح بن رايح وعدت أمشى بخفى حنين.

وأصغى إلى صوت الصدى عند ذكركم ... فأطرب للمغنى وأهتف بالدار

وأسعى بها داراً على مروة الصفا ... أطوف بها سبعا ولم أقض أوطارى

وما نافعى التطواف فى دارة الحمى ... إذا لم يكن فى دارة الحىّ أقمارى

وترددت حتى كلل دمعى للطريق بالعقيق ورمت أنفاسى النار فى الدار وصاحت الحريق.

وللقاضى الفاضل يصف الستائر من قصيدة أولها:

يا طالب الجود يمم كعبة الكرم ... وقل سلام لها عن كعبة الحرم

كأن استاره روض سمحت له ... بماء يشرك هذا المخرق الشم

غيم يزر على شمس وفى يده ... غمامة لقيته كاشف الغمم

سحب تعود منه فيض انمله ... والسحب إن سرت دلت على الديم

لو لم تكن سحبا ما كان ذيلها ... برقا يشام إذا ما البرق لم يشم

بيض كعرضك فى طول كطولك فى ... لمع كنشرك فى سلك حكى كلم

فكنت كالشمس فى ثوب النهار بها ... لا كالبدور بأثواب من الظلم

أظهرت عدلك فيها فهى معجزة ... فالاسد ما وثبت والريم لم يرم

قرب سانحة فيه وسارحة ... فاعجب لضدين فى بحر من الكرم

تهيم بالصيد آمالى إذا نظرت ... فيها فأذكر منع الصيد فى الحرم

كأن أحداقنا ترعى الحدائق من ... جنات عدن وعدل دائم قدم

أقاح روض كأن الورد فروزه ... فيا لجريه ماء كف بالضرم

والطير فى شجرات الرقم عاكفة ... ونبت عنهن فى التغريد بالنغم

إن لم يكن ثمر فيها ففي يده ثمار جود زهت فى روضة الشيم
يود ما مثلوه فيه من صور لو أنها استخدمت فى جملة الخدم
تلك الستور عجاج والنجوم لها عرى وابدى الظبا فروزنها بدم
أظن بابك خدا غرت من قبل عليه حتى منعت اللثم باللثم
إذا رأيت بها الأعلام مشرقة رأيت أشهر من نار على علم
مثل السراب ووقت القيظ بيضها لكن وردت بعينى حين هم فمى

وللمولى السيد شمس الدين القاسم ابن الصاحب موفق الدين على بن الآمدى نقلته من خط الوداعى:

ومشعل قام فى خشوع كراهب شق عنه جيبا
قد فنى الجسم منه سقما واشتعل الرأس منه شيبا

وورد على سيدنا ومولانا المرحوم القاضى أمين الدين محمد الانصارى (المتوفى أواخر سنة ثمان مائة وأخبرنى أن مولده سنة إحدى وخمسين وسبعمائة) صاحب ديوان الانشاء الشريفة بالشام المحروسة كتاب من سيدنا ومولانا أوحد العصر القاضى بدر الدين محمد المخزومى المالكى الشهير بابن الدمامينى (الذى مولده فى سنة ثلاث وستين وسبعمائة) أنفذ الله أحكامه وذلك من مكة المشرفة بتاريخ التاسع والعشرين من شهر الله المحرم سنة إحدى وثمانمائة جاء منه وينهى أنه سطرها بمنى وقد سالت بأعناق البدن الأباطح ووقفت الجزر تؤمل سعد الاخبية، فما طلع لها غير سعد الذابح وقد برد الصدر المحرور برمى الجمار وقرت العيون برؤية تلك الآثار وقرع المملوك باب الرحمة عند وصوله إلى البيت الشريف، وقال للزمن تنكر ما شئت فقد حصل التعريف.

وذكر صاحب المباهج أن ستر ايوان كسرى أحرق لما ملك المسلمون المدائن فاخرج منه ألف ألف مثقال ذهبا، وقيل مائة ألف مثقال.

وطرق رجل على عمرو بن عبيد الباب، فقال من هذا، فقال أنا، قال لست أعرف أحدا من إخواننا اسمه أنا.

وأخرج البخارى من طريق جابر ﵁ قال استأذنت على النبى ﷺ فقال من هذا، فقلت أنا، فقال أنا أنا كأنه كرهه.

وأنشدنى الشيخ شمس الدين الجرائحى لنفسه فيما يكتب على ستر:

أنا الستر المجمل بالبـ ـهـا والعز والنصر
فلذ بى أن نجد ضبما وقل يا مجمل الستر

الباب الخامس

فى ذم الحجاب

خالد بن عبد الله القشيرى كان يقول لحاجبه إذا جلست فلا يحجبن علىَّ أحد فإنما الوالى يحتجب لثلاث: شر يكره أن يطلع عليه غيره، أو ريبة يخاف انتشارها، أو بخل يكره معه أن يسأل شيئا.

ووقف رجل على باب أبى دلف فأقام به حينا لا يصل به فتلطف فى رقعة أوصلها إليه وكتب فيها:

إذا كان الكريم له حجاب ... فما فضل الكريم على اللئيم

فأجابه:

إذا كان الكريم قليل مال ... ولم يعذر تعلل بالحجاب

وأبواب الملوك محجبات ... ولا تستكثرن حجاب باب

وقال علاء الدين الوداعى يعتذر إلى بعض أصحابه:

إن كنت يا أكرم الصحاب ... حجبت لما طرقت بابى

فأنت قلبى ولا عجيب ... إذا غدا القلب فى حجاب

وقال زين الدين بن الوردى (توفى سنة خمسين وسبعمائة) يلوم نفسه على زيارة أقوام:

مذ زرتهم صحبة وودا ... ألفيتهم مغلقين بابا

سعيى إلى بابهم جنون ... منى فأستأهل الحجابا

وقال بعض الحكماء لبعض الملوك: لا تمكن الناس من كثرة رؤيتهم لك فإن أجرأ الناس على الاسد أكثرهم له رؤية.

وقال آخر كثرة الاذن مجلبة الابتذال وهيبة الملوك فى الاحتجاب وكان يقال المبذول مملوك والممنوع متبوع.

ولله در ابن المعتز وما أحسن قوله:

كما يخلق الثوب الجديد ابتذاله ... كذا تخلق المرء العيون اللوافح

وقيل لبعض الحجاب متى تفرغ ولايتك فقال متى حضر طعام مخدومى وأين هذا من قول القائل:

جزت على باب صديق لنا ... وبابه من دونه مقفل
وحول تلك الدار غلمانه ... قد أحدقوا بالباب واستكملوا
فقلت ما يصنع مولاكم ... قالوا سمعنا أنه يأكل
قلت فما يفنح مولاكم ... قالوا بلى رأس الذى يدخل

وقيل لبعضهم: هل تغذيت عند فلان؟ قال لا ولكنى مررت ببابه وهو يتغدى، قال فكيف علمت؟ قال رأيت غلمانه بأيديهم قسى البندق يرمون الطير فى الهوى.

وقال بعضهم:

رأيت أبا زرارة قال يوما ... لحاجبه وفى يده الحسام
لئن وضع الخوان ولاح شخص ... لأختطفن رأسك والسلام
فقال سوى أبيك فذاك شيخ ... بغيض ليس يردعه الكلام
فقال وقام من حنق إليه ... بقد لم يزد فيه القيام
أبى وأبو أبى والكلب عندى ... بمنزلة إذا حضر الطعام
اذا حضر الطعام فلا حقوق ... علىّ لوالدى ولا ذمام
فما فى الأرض أقبح من خوان ... عليه الخبز يحضره الزحام

وما أحسن قول القاضى الفاضل:

بتنا على حال يسر الهوى ... وربما لا يمكن الشرح
بوابنا الليل فقلنا له ... ان غبت عنا هجم الصبح

وله فى بواب يلقب بالبحرى:

وهب أن هذا الباب للرزق قبلة ... فها أنا وقد وليته دونكم ظهرى
وهب أنه البحر الذى يخرج الغنى ... فكل خرافى الشط فى لحية البحرى

وقال كمال الدين بن النبيه (توفى سنة تسع عشرة وستمائة) لما سمع قول الفاضل:

قلت لليل إذ حبانى حبيبا ... بغناء يسبى النهى وعقارا
أنت ياليل حاجبى فامنع الصـ ... ـبح وكن أنت يا دجى برد دارا

وقال ناصر الدين بن النقيب:

ماذا على بواب دراكم الذى ... لا اذن يعطينا ولا يستأذن
لو ردنا ردا جميلا عنكم ... او كان يدفع بالتى هى أحسن

وللشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة فى غير المعنى:

يا رب إن النيل زاد زيادة … أدت إلى هدم وفرط تشتت
ما ضره لو جاء على عاداته … فى دفعة أو كان يدفع بالتى

وأنشدنى الشيخ العلامة عز الدين الموصلى لنفسه (المتوفى سنة تسع وثمانين وسبعمائة، وأخبرنى أن مولده سنة أربع وعشرين وسبعمائة):

قد سلونا عن الحبيب بخود … ذات وجه به الجمال تفنن
ورجعنا عن التهتك فيه … ودفعناه بالتى هى أحسن

رجع إلى ما كنا فيه:

قال الناشئ الأصغر (المتوفى سنة ست وستين وثلاثمائة):

ليس الحجاب بآلة الاشراف … إن الحجاب مجانب الإنصاف
ولقل ما يأتى فيحجب مرة … فتعود ثانية بقلب صاف

وقال أبو الحسين الجزار (ومولده سنة إحدى وستمائة، ووفاته سنة اثنتين وسبعين وستمائة):

أمولاى ما من طباعى الخروج … ولكن تعلمته من خمولى
وصرت لديك أروم الغنى … فيخرجنى الضرب عند الدخول

وألم بهذا الاديب شمس الدين الضفدع فقال:

وافا إلى خدمته العبد كى … يحظى بتقبيل يد أو قبول
واستأذن الخادم فى قربه … منكم لأن البعد ستر يحول
فكاد ان يخرجه الضرب عن … غناك بالايقاع قبل الدخول
أوحى إليه منه قولا فما … بلغ عنه ما يقول الرسول

ونقلت من خط فخر الدين بن مكانس للجمال ابن عبد الغنى:

أتيت إلى بابك يا سيدى … أهنيك بالعيد مع من يهنى
فأخرجت من بعد ذاك الدخول … وقد جئت يعنى مدلا بأنى
مغن ويخرج بعد الدخول … وتأبى الطباع خروج المغنى

حكى عن أبى الحسين الجزار انه جاء إلى باب الصاحب زين الدين بن الزبير فأذن للناس كلهم ولم يؤذن له فكتب فى ورقة:

الناس قد دخلوا كالاير أجمعهم … والعبد مثل الخصى ملقى على الباب

فلما قرأها ابن الزبير قال لحاجبه اخرج إلى الباب وناد يا خصى ادخل فلما سمع أبو الحسين قول الحاجب ياخصى ادخل فقال هذا دليل على السعة.

وهذا جميعه مأخوذ من قول الآخر:

أيدخل من يشاء بغير إذن وكلهم كسيد أو عوير

وأبقى من وراء الباب حتى كأنى خصيه وسواى أير

وقال بعض الشعراء وقد منعه بواب اسمه بصاقة من الدخول:

يا من سما فى المكرما ت وفاق أرباب الممالك

أعجب لأمر بصاقة منع الدخول لباب خالك

وهو المعين على الدخو ل إذا تعسرت المسالك

وقال جحظة:

ولى صاحب زرته للسلام فقابلنى بالحجاب الصراح

وقالوا تغيب عن داره لخوف غريم ملح وقاح

ولو كان عن داره غائبا لأدخلنى أهله للنكاح

وقال آخر:

وكل خفيف الشأن يسعى مشمرا إذا فتح البواب بابك أصبعا

ونحن الجلوس الماكثون توقرا حياء إلى أن يفتح الباب أجمعا

وأنشدنى صاحب الأمالى:

كم من فتى تحمد أخلاقه ويسكن العارفون فى ذمته

قد أكثر الحاجب أعداؤه وأحقد الناس على نعمته

حكى أبو السعادات بن الشجرى فى شرح الحماسة أن أنس بن زنيم الهذلى وفد على عمرو بن عبد الله بن التميمى فى جماعة من الشعراء فصده الحاجب عن الدخول وأذن لغيره من الشعراء فلما طال حجابه كتب إليه أبياتا منها:

لقد كنت أسعى فى هواك وأبتغى رضاك وأعصى أسرتى والادانيا

حفاظًا وامساكا لما كان بيننا لتجزينى يومًا فما كنت جازيا

أرانى اذا ما شمت منك سحابة لتمطرنى عادت عجاجا وسافيا

أأقصى ويدنى من يقصر رأيه ومن ليس يغنى عنك مثل غنائيا

فلما قرأ الأبيات عنف حاجبه ثم أذن له وقال له ويحك ما هذا، قال فعل حاجبك وطول مقامى وأنت تعطى من أقبل وأدبر، فقال يا هذا أشهدت معى موذاة هجر قال لا، قال ألك

من يد تضربنى بها أو تستحق بها على ما طلبت قال نعم كنت أجلس بين يديك وأسمع حديثك فانشر محاسنه واطوى مساويه، فقال وأبيك إن فى هذا لما يشكر كم أقمت بالباب، قال أربعين يومًا فأمر له بأربعين ألف درهم.

ولشهاب الدين ابن أبى حجلة:

ألا قل لشمس الدين صاحبنا العبى أتينا مرارا نحو بابك بالأمس

فإن حجبتك الجدر عنا فربما رأينا جلابيب السحاب على الشمس

وقال شرف الدين بن عنين (ومولده سنة تسع وأربعين وخمسمائة، ووفاته سنة ثلاثين وستمائة):

أين غلمانك المطيفون بالبغـ ـلة والرافعون للاثواب

ردك الدهر كالنداء على النيـ ـل لا حاجب ولا بواب

وعلى ذكر الحاجب فما أحسن قول القائل فى مليح قلندرى:

بدا لى فى حلق الحواجب فتنة فقلت لعقل ذاهل فيه ذاهب

حبيبى بحق الله قل لى ما الذى دعاك إلى هذا فقال مجاوبى

وعدت بوصل العاشقين تعطفا فلم يثقوا فاسترهنوا قوس حاجبى

وقال السراج الوراق فيه:

عشقت من ريقه قرقف وما له اذ ذاك من شارب

قلندريا حلقوا حاجبا منه كنوز الخط من كاتب

سلطان حسن زاد فى عدله فاختار ان يبقى بلا حاجب

وقف بعض المطابيع على باب بعض الأمراء والطعام قد حضر فخرج حاجب الأمير إلى الباب فقال أيها المطبوع ألك حاجة، قال نعم قال ما هى؟ فقال له إذا دخلت فأقرئ خبز الأمير السلام.

وما أظرف فى ذم الحاجب قول السراج الوراق.

لا ذقت ذل حجاب ولا وقوفا بباب

فقد حنقت وقد قا م شارب البواب

ورحت أجرى وصحف ت موضعبن لما بى

وقال زين بن الوردى:

يقول بوابه إذ رأى بالباب منى وقفة الحائر

له محاريم بها شغله قلت محاريم بلا آخر

وقال السراج الوراق مضمنا:

وقطب عند دخولى إليه فنم له القبح معنى وصوره
ولولا الضرورة ما زرته على الرغم منى وعند الضروره

وقال جمال الدين ابن نباتة:

حجبتنى فازددت عندى علا برغم من أقبل كالعاتب
وقلت لا أعدم من سيدى من كان عينى فغدا حاجبى

وقال محمد بن العفيف (مولده سنة اثنين وستين وستمائة، ووفاته سنة سبع وثمانين وستمائة):

ولقد وقفت ضحى ببابك أرتجى باللثم للعتبات حق الواجب
وأتيت أطلب زورة أحظى بها فرددت يا عينى هناك بحاجبى

وقال الشهاب فتيان الشاغورى (مولده سنة ثلاث وخمسمائة، ووفاته سنة خمس عشرة وستمائة):

وافيت تهنية الوزير فلم أجد لى فى الدخول ببابه من مسعد
لم أحظ الا بالقيام لمن أتى فحصلت منك على المقيم المقعد

قصد جماعة من الطفيلية وليمة فقال رئيسهم: اللهم لا تجعل البواب لكازاً فى الصدور دفاعا فى الظهور طراحا للقلانس، هب لنا رأفته ورحمته وبشره وسهل علينا إذنه، فلما دخلوا تلقاهم المضيف، فقال الرئيس عزة مباركة موصول بها الخصب معدوم بها الجدب فلما جلسوا على الخوان قال جعلك الله كعصى موسى وخوان إبراهيم ومائدة عيسى فى البركة، ثم قال لأصحابه افتحوا أفواهكم وأقيموا أعناقكم وابسطوا الأكف وأجيدوا اللقم ولاتمضغوا مضغ المتعللين الشباع المتخمين واذكروا سوء المنقلب وخيبة المضطرب خذوا على اسم الله تعالى.

وقال زين الدين) بن الوردى:

ماذا تقولون فى محب عن غير أبوابكم تخلا
وجاءكم زائرا عفيفا عن مالكم هل يجوز أم لا

وقال جمال الدين بن نباتة:

ما يقول المقام أيده اللـ ـه ولا زال للسعود يحوز
فى ولى ببابكم ترك الخلـ ـق ووافى يجوز أم لا يجوز

كان الشيخ عز الدين بن عبد السلام إذا قرأ عليه الطالب وانتهى يقول اقرأ من الباب الذى تليه ولو سطرا فانى لا أحب الوقوف على الأبواب.

وللنصير الحمامى بيتان كتبهما إلى السراج الوراق على يد غلام يدعى إبراهيم وهما:

عبدك إبراهيم وافى بها　　　وفى بها معنى لمن يعقل

وهو على الباب ومقصوده　　　وفيك فهم أنه يدخل

الباب السادس
فى الخادم والدهليز

كان يقال إن الخصيان مليكة بنى آدم.

وقيل لأبى العيناء لم اتخذت غلامين اسودين خصيين، قال لئلا أتهم بهما ولا يتهما بى.

وعرض على بعض الملوك غلام صبى خصى فقال هذا يصلح للفراش وللهراش.

وكان بعضهم يتخذ الخدام الخصيان ويختار منهم البيض الحسان، فقيل له فى ذلك، فقال لأنهم بالنهار فوارس وبالليل عرائس، وفيهم يقول:

ونساء لمستريح مقيم ... ورجال إن كانت الأسفار

وفيهم يقول محمد الخلوع القاهر:

مبرءون من الشعر الكريه ومن ... حمل الايور وإخراج المناتين
وهم نساء إذا حاولت خلوتهم ... وهم رجال لدى الهيجاء يحمونى

وما أحسن قول الصابى فى غلام أسود (مولده سنة عشرين وثلاثمائة، ووفاته سنة ثمانين وثلاثمائة):

لك وجه كأن يمناى خطتـ ... ـه بلفظ يمله آمالى
فيه معنى من البدور ولكن ... نفضت صبغها عليه الليالى

وقال الزين بن جبريل المصرى:

وخادم قد حباه القلب حبته ... حباله وكسته صبغها المقل
كأن ما هو فى خد الجمال لمن ... يراه خال وفى أجفانه كحل

وقال ابن الجوزى فى كتاب الاذكياء: قال أبو أحمد عبد الله بن عمر الحارثى اجتزت ببغداد وأنا أحدث مع جماعة من مجان أصحاب الحديث واذ بخادم خصى جالس على الطريق وبين أيديه أدوية ومكاحل ومباضع وعلى رأسه مظلة خرق، فسألت عنه فقيل طبيب حاذق وهو من عجائب بغداد فتقدم اليه شخص من الجماعة وتغاشى وتماوت وتمارض وقال يا أستاذ يا أستاذ دفعات، فقال أى شىء بكى أيش أصابكى تولى لا شفاك الله، فقال أجد ظلمة فى أحشائى ومغصا فى أطراف شعرى وما آكله اليوم يصبح غدا مثل الجيفة فصف لى

دواء فقال وكأنه أعد الجواب أما ما تجد من المغص فى أطراف شعرك فاحلقى لحيتك ورأسك جميعًا، وأما ظلمة أحشائك فعلقى على باب حجرك قنديلا، وأما الثالث فكلى خراكى.

ولإبراهيم المعمار فى خادم هندى:

تملك قلبى خادم قد هويته ... من الهند معسول اللما أهيف القد
أقول لصحبى حين يرنوا بلحظه ... خذوا حذركم قد سل صارمه الهندى

وقال:

وخادم يعلو على عشاقه ... برتبة من الجمال نالها
واسمه وهو العجيب محسن ... وكم دموع فى الهوى أسالها

ولقد أجاد من قال:

ان لمعت ليلا نجوم السما ... بيضا على أدهم مرخى الازار
وأوجب العكس مثالا لها ... فى الأرض فالسود نجوم النهار

نادرة: قيل إن بعض أولاد الملوك كان يعشق خادما يسمى دينارا وكان من أوحش ما يكون فاتفق أن أجرى عنده ذكر مغن جميل، فقال بلغنى أن فلسه أسود، فقال له بعض الحاضرين والله يا مولانا فلسه خير من دينارك فأخجله.

ومن ظريف ألقاب الخدام ما لقبه سيدى المقر المجدى فضل الله بن مكانس أحسن الله له العاقبة لخدمه وهم: اشراق الدين هلال، ونظام الدين لؤلؤ، وسيف الدين فولاذ.

وأنشدنى من لفظه لنفسه إجازة سيدنا ومولانا أقضى القضاة بدر الدين مجد بن أبى بكر بن عمر المخزومى المالكى أدام الله أيامه ونقلتها من خطه:

علقته خادما لطيفا ... لم أصغ فيه إلى الملامه
إليه قلبى انثنى وطرفى ... مذ لاح بين الأنام شامه

وللشيخ جمال الدين بن نباتة فى خادم اسمه كافور:

يا لائمى فى خادم لى سيد ... قسما لقد زدت السلو نفورا
ولقد أدرت على المسامع قهوة ... فى الحب كان مزاجها كافورا

إبراهيم المعمار:

وخادم قبلت مشروطه ... فى خده لكن رأيت العجب
من ناعم حلو فناديته ... ما أنت يا مشروط الا رطب

وقال ابن نباتة أيضًا:

برو حي مشروط على الخد أسمر ... دنا ووفا بعد التجنب والسخط
وقال على اللثم اشترطنا فلا تزد ... فقبلته ألفا على ذلك الشرط

وقال:

أرى لصواب يا أيري صفات ... تحث على الخلاعة والتصابي
فبادره فأنت به خبير ... ومثلك لا يدل على صواب

وقال صلاح الدين الصفدى فيه:

إذا ما قام أيرك فى الدياجى ... وعندك من تحب فلا تحابى
وقم نحو الطواشى واعتنقه ... ومثلك لا يدل على صواب

وقال الشيخ زين الدين بن الوردى:

أأخشى من الأعداء والله ناصرى ... بخدام حظ إن دعوت أجابوا
فقلبى مسرور وسعدى مقبل ... وحزبى نصر والمقال صواب

قلت: وإذا ذكرنا ما ورد فى مدحهم فلا بأس بايراد نبذة من غيره.

قال الجاحظ (توفى سنة خمس وخمسين ومائتين وقد نيف على التسعين سنة) ضيق الصدور وشدة النفور وطول الأعمار وقلة الاصطبار وكبر الأقدام واضطراب الأجسام وإنكار الحرمة وقلة الرحمة وسرعة الدمعة وابتغاء السمعة وطحن المعدة ولطف القيادة واسترخاء السرح وقلة الجرح وسوء الخلق وكثرة الحرق وشدة الحسد وانقطاع الولد والمشى بالنمائم والنظر إلى المحارم وتربية البغول والبغض للفحول خلاف النساء والرجال لا يجوز به الاستحلال مهلوس عبوس غايته طرسوس مؤاجر فى صغره قواد فى كبره إن ركب ركض وإن مشى مرض مختلف الرأى والعقل متخلق بأخلاق البغل إن لاينته جمع وإن خاشنته رمح وأن أجعته طمع وإن أشبعته سلح يبول فى فراشه إذا عمل النبيذ فى مشاشه، إن حرد كفر وإن قدر قهر مختون على غير ملة حاذق بالهريسة والاخلة، إن غضب بكى وان رضى شكى وان هزل انطوى وإن سمن التوى معدن للمطائر ألوف للعجائز ان ائتمنته خانك وان أكرمته هانك وان أهنته أكرمك وإن أغضبته شتمك صاحب صوارات وجلاهق وحمام وبنادق حاص دجاج وفراريج وطير ما ورد اريج إن أمسكته خرت وان بعته ربحت وان طردته وقفت وان قتلته أجرت، صالحهم مأبون وطالحهم ملعون، شره عتيد وخيره بعيد معروف موصوف بالجلف مترخى البدن طويل الحزن بين الموق بادى العروق يأتى العرقوب كثير العيوب طويل الذراع كثير النخاع مسلوب زينة اللحى محروم

لذة النساء يتزوج بالابكار ويهتك الأستار، يابس المصانع عارى الاشاجع شديد النفاق قليل الإنصاف بين النفاق كثير البقباق شره عند الطعام سفيه على الاقوام نقير ذو مال وحيد ذو عيال شرس حسود حرون جحود بعيد الحياء بارد اللقاء يتلقاك بالبكاء، إن قلت نعم قال لا أو قلت لا قال بلى ان منع فمن حمق وإن أعطى فمن حرق، جرىء جبان طويل الأحزان مظلوم القلفة خالى المعرفة أقلف مختون خائن مأبون ترضيه اللقمة ويخدع بالطعمة أكثر الناس غلمه وأقوده فى الظلمه واحذفه بالإجازة واعرفه لجاره واعمله لمزماره وانحته لمصايد الفار وأبيعه للتكلك وأصيده للسمك، إذا أمن ملعقته غرزها فى منطقته مأواه الدهليز وخبزه على الافزيز لهج بالقمار عليه سوء الدمار من قلة مروءته يدخل الفحل على امرأته ويجمع لها بكده وينفقه على ضده لا بد له فيها من شريك فهو مغرم وغيره ينيك يستر عورته عن الأنام ويبدى سوأته للطعام يقطع الصلاة ويمنع الزكاة بيعه الزمارات ونعته فى الصورات، يأكل بشدقين وينفق بيدين فضله محبوس ودعاؤه منكوس.

وقال الجاحظ أيضًا كان من ظريف ما يقص القاضى عبد الاعلى قوله فى الخصى إذا قطعت خصيته قويت شهوته وسخنت مقعدته ولانت جلدته وانجردت شعرته وكثرت غلمته واتسعت فقحته وغزرت دمعته.

وقال غيره من جب زبه ذهب لبه.

وفى ذلك قول أبى الطيب المتنبى (ومولده سنة ثلاث وثلاثمائة، ووفاته سنة أربع وخمسين وثلاثمائة):

وقد كنت أحسب قطع الخصى ... بأن الرءوس مقر النهى
فلما نظرت إلى عقله ... وجدت النهى كلها فى الخصى

ونقلت من خط الوزير العلامة المفتن فخر الدين بن مكانس سامحه ـ الله تعالى ـ أنه قال: سافرت مرة سنة إحدى وستين وسبعمائة مع الصاحب فخر الدين بن قروينة ـ رحمه الله تعالى ـ إلى دمشق المحروسة عندما تولى نظر مملكها ووالدى ـ رحمه الله ـ استيفاء بها وكان له دوادار يسمى صبيح ويلقب جودر من عتقاء جده الوزير أمين الدين بن الغنائم وكان كثير النوادر لطيف الدقات، فاتفق أن جمال الدين ابن الرهاوى موقع الوزارة ركب يومًا فتقنطر به الفرس وداسه على رأس أحليله فحمل إلى داره وأقام أياما إلى أن عوفى وحضر مجلس الوزارة وهو غاص بالناس، فقال له الصاحب فخر الدين ما سبب تأخيرك قال له تقنطرنى الفرس وداس رأس احليلى فكدت أموت والآن فقد لطف الله تعالى وحصل

البرء والشفاء فقال له صبيح جودر الحمد لله على سلامة الخصى فانقلب المجلس ضحكا وخجل ابن الرهاوى وانصرف.

عود إلى ما كنا فيه: وصف الجماز رجلا بالرعونة فقال: هو كالخصى يفتخر بزبه مولاه.

قال كشاجم فى خادم أسود جائر:

يا مشبهها فى فعله لونه ... لم تعد ما أوجبت للقسمة

فعلك من لونك مستخرج ... والظلم مشتق من الظلمة

وقال آخر وأجاد:

جزوا مذ اكره بحق واجب ... إذ عندهم علم بخسة أصله

لو أنهم تركوه يبقى سالما ... ملأ البلاد أراذلاً من نسله

وقال بعضهم وأصاب:

إن عاينت عيناك ظبيا سانحا ... مع خادم يرعاه وهو شرود

فأقنصه لطفا بالزمام ولا تخف ... منه نفورا فالزمام يقود

نادرة: قيل إن بعض أولاد الملوك كان يعشق خادمًا يسمى دينارا وكان أوحش ما يكون فاتفق أن أجرى عنده ذكر مغن جميل، فقال بلغنى أن فلسه أسود فقال بعض الحاضرين والله يا مولانا إن فلسه خير من دينارك فأخجله.

نادرة: قيل إن بعض الرؤساء كان له خادم وعبد فدخل يوما وجد العبد فوق الخادم فضربه وخرج فرأى بعض أصدقائه فسأله عن غيظه، فقال هذا العبد النجس فعل بالخويدم الصغير فقال له مولانا السيد الكبير فخجل منه وأخرجها فى مجانه.

وما أظرف من قال مواليا:

ستى الكبيرة لها الخدام والحشمه ... نحلف على النيك بالمصحف وبالختمه

جاها الطواشى أفحشت لو نال من كلمه ... راحت بمين القواقية على قرمه

وقال ابن إبراهيم المعمار:

وإن من الخدام من ليس ترتجى ... مكارمه فالبعد منهم غنائم

فلا تك ممن يتهمهم لحشمة ... فليس لهم بين الرجال محاشم

أهدى بعض عمال مروان بن محمد الجعدى الأموى لمروان عبدا أسود فقال لكاتبه عبد الحميد اكتب إلى هذا العامل كتابا مختصراً وذمه على ما فعل، فكتب إليه لو وجدت لونا أشر من السواد وعددا أقل من الواحد لاهديته والسلام.

ومن أحسن ما ورد فى ذم السواد لا يحرم فيه محرم ولا يكفن فيه ولا تجلى فيه عروس.

وما أظرف قول الشيخ جمال الدين بن نباتة:

كان لى عبد يسمى فرجا نصب الغبر عليه الشبكا
فأنا الآن كما تبصرنى ليس عندى فرج الا البكا

القول فى الدهليز - بكسر الدار - فارسى معرب، والجمع الدهاليز وهو بين الباب والدار وأحسن وما فيه:

ودهليز دار فيه للعين بهجة وللنفس فيه للذاذة أوطار
إذا داخل لم يعتبر ما وراءه توهمه من حسنه أنه الدار

وقال يحيى بن خالد ينبغى للإنسان أن يتأنق فى دهليزه لأنه وجه الدار ومنزل الضيف ومجلس الصديق حتى يؤذن له وموضع المعلم ومقيل الخدام ومنتهى حد المستأذن.

وقال بعضهم: إذا كمل للإنسان فى داره حسن ثلاثة مواضع لم يبال بما فاته منها وذكر من جملتها الدهليز.

وللشيخ برهان الدين القيراطى فيه:

أكرم بدهليز سما فإذا الكواكب من رفاقه
دهليز مولى سعده ما زال يخدم فى وطاقه

قلت: من كان له عبد واسمه سعد ففى غاية الحسن.

وقال الشيخ شهاب الدين ابن أبى حجلة بيتين وفيهما ما فيهما:

دار ببدر الدين أشرق نورها فبياضها من نوره مجبول
دهليزها حلو البنا يبدو لنا طعمية فى بابه ودخول

الباب السابع
فى البركة والفوارة والدواليب
وما فيهن من كلام وجيز

البركة هى الموضوع المبنى لاجتماع الماء ويسمى أيضًا الصهريج بكسر الصاد وهو اسم مشتق لها من الصهروج الذى تبنى به، والصهروج الكاس نفسه يقال: بركة مصهرجة إذا كانت مبنية بالصهروج، وقال الجوهرى البركة كالحوض والجمع البرك ويقال سميت بذلك لإقامة الماء فيها.

حكى الأديب أبو الربيع سليمان بن إسماعيل بن أبى الليث المسيحى قال جمعنا مجلس أنس مع الأديب أبى اسحاق إبراهيم بن أبى الثناء المسيحى بالفيوم وكنا فى بستان فيه بركة عليها فوارة من الماء فتجاذبنا أهداب وصفها فقال أبو إسحاق:

بركة يصعد الأنابيب منها ... يقعد الماء فوقها ويقوم
فلدا أطلعت فواقع تبدو ... كالقوارير من زجاج تعوم
وكأن السماء صفحتها الزر ... قاء والياسمين فيها نجوم

قال وقلت أنا:

وبركة تذهل العقول لها ... تحار فى حسن وصفها الفكر
كأنها مقلة محدقة ... عبرا من الوجد نالها السهر
تبكى وما فارقت لها وطنا ... يوما ولا فات أهلها وطر
تخال أنبوبها لصحته ... والماء يعلو به وينحدر
كصولجان فضة سبكت ... فواقع الماء تحتها أكر

قال الشيخ صفى الدين الحلى (وتوفى سنة خمسين وسبعمائة):

والريح تجرى رخاء فوق بحرتها ... وماؤها مطلق فى زى مأسور
قد جمعت جمع تصحيح جوانبها ... والماء يجمع فيها جمع تكسير

ولقد أجاد ابن طباطبا فى قوله (ومولده سنة ست وثمانين ومائتين ووفاته سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة):

كم ليلة ساهرت أنجمها التى ... عرصات أرض ماؤها كسمائها
قد سيرت فيها النجوم كأنما ... فلك السماء يدور فى ارجائها
أحسن بها بحراً إذ التبس الدجى ... كانت نجوم الليل من حصبائها
ترنو إلى الجوزاء وهى غريقة ... تبغى النجاة ولات حين نجائها
تطفوا وترسب فى اصطفاق مياهها ... لا مستعان لها سوى أنمائها
والبدر يخفق وسطها فكأنه ... قلب لها قد ربع فى أحشائها

ولا مزيد فى الحسن على قول عبد الجبار بن حمد يس الصقلى يصف دوحة واسوداً ترى بالماء (توفى المذكور سنة تسع وعشرين وخمسمائة):

وضواغم سكنت عرين رياسة ... تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها ... وأذاب فى أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك ... فى النفس لوجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكانما ... أقعت على أذنابها للثورى
وتخالها والشمس تجلو لونها ... نارا وألسنها اللواحس نورا
فكانما سلت سيوف جداول ... ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه ... ردعا فقدر سرده تقديرا
وبديعة الثمرات تعبر نحوها ... عيناك بحر عجائب مسجورا
شجرية ذهبية شرعت إلى ... شجر يؤثر فى النهى تأثيرا
قد صولحت أغصانها فكأنما ... قبضت بهن من الفضاء طيورا
وكأنما يأتى لوقع طيرها ... أن تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقفة ترى منقارها ... ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس يقلن من الفصاح فان شدت ... جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما فى كل غصن فضة ... لانت فأرسل خيطها مجرورا
وتريك فى الصهريج موقع قطرها ... فوق الزبرجد لؤلؤا منثورا

وقال القاضى شهاب الدين بن فضل الله (مولده سنة سبعمائة، ووفاته سنة تسع وأربعين وسبعمائة) فى ترجمة مجير الدين بن تميم (ووفاته سنة إحدى وثمانين وستمائة) وحكى: أنه جلس على بحيرة أشرقت سماؤها وطاف بكعبة المجلس ماؤها والشمس قد توسطت الظهيرة وأرخت ذوائب أشعتها الظفيرة واللجة قد نصبت فى كل ناحية حباله وتناومت عينها فما رأت من الشىء إلا خياله والماء قد لبس من شعاع الشمس الغلالة وغابت سباع البركة فلعبت الغزالة فقال:

ولما احتمت منا الغزالة بالسما وعز على قناصها أن ينالها
نصبنا شباك الماء فى الأرض حيلة عليها فلم نقدر فصدنا خيالها

وذكر هذه الترجمة فى كتابه مسالك الأمصار من كلام على بن طافر العسقلانى قال: جلسنا على بركة ألقى عليها ورد أحمر ملأ بكثرة نجومه فسحة سمائها وصبغ بحمرة شعاعه صفحة مائها وأهدى زمرده إلى مقلتها الزرقاء فصح سرورنا بدائها.

وقال المذكور فى كتابه بدائع البداية أخبرنى القاضى الاعز بن المؤيد ـ رحمهما الله تعالى ـ قال اجتمعت مع جماعة من ادباء الاسكندرية فى بستان لبعض أهلها فحللنا روضا تثنت قامات أشجاره وتغنت قيان أطياره وبين أيدينا بركة ماء كجو سماء فنثر عليه بعض الحاضرين ياسمينا زان سمائها بزواهر منيرة وأهدى إلى لجتها جواهر نثيره فتعاطينا القول فى تشبيهه وأطرق كل منا لتحريك خاطره وتنبيهه ثم أظهرنا ما حررنا ونشرنا ما حبرنا فانشد عباس بن ظريف:

نثر الياسمين لما جنوه عبثا فاستقر فوق الماء
فحسبنا زهر الكواكب تحكى زهر الأرض فى أديم السماء

قال والذى صنعته أنا:

نثروا الياسمين فى صفحة الماء فخلنا النجوم وسط الماء
فكأن السماء فى باطن الأر ض أو الدر طفّ فوق الماء

وقال مجير الدين بن تميم فى مليح يشرب من بركة:

أقدى الذى أهوى بفيه شاربا من بركة رقت وطابت مشرعا
أبدت لعينى وجهه وخياله فأرتنى القمرين فى وقت معا

نادرة: اكترى نحوى حمالا ليحمل له زيرا فلما وصل إلى البيت وفيه بركة قال له النحوى اقفزن، فقفز فوقع فانكسر الزير، فقال ما هذا؟ قال جانب البركة ساكن والنون فى اقفزن ساكنة فتحرك الزير بينهما بالكسر، فقال أحسنت ما أنت إلا عالم بيض الله وجهك.

وقال الشريف العقيلى:

وبركة قد أفادنا عجبا ما ماج من مائها وما انسكبا
من حول فوارة مركبة قد انحنى ظهر مائها تعبا

وقال شمس الدين الطيبى أحمد بن أبى المحاسن (مولده ببخارى سنة تسع وأربعين وستمائة ووفاته سنة سبع عشرة وسبعمائة بطرابلس):

النهر وافى شاهرا سيفه ولمعه يختلس الاعينا

فماجت البركة من خوفه وارتعدت وادرعت جوشنا

وقال مجير الدين ابن تميم مضمنا:

لو كنت اذ أبصرتها فوارة للشمس فى أمواجها لألاء
رأيت أعجب ما يرى من بركة سال النضار بها وقام الماء

وله مضمنا:

لقد نزهت عينى أنابيب بركة تقابلنى أمواجها بالعجائب
انابيب زادت فى علو كأنما تحاول ثاراً عند بعض الكواكب

وله:

يا حسن نوفرة بدت فى بركة أبدا يفيض الماء فيها ديدنا
ما إن بدت إلا وظللت مفكرا فى قدنوفر راح ينبت سوسنا

وقال الوجيه المناوى:

فوارة تشبه فى شكلها سبيكة من فضة خالصه
تلهيك بالحسن فقد أصبحت جارية ملهية راقصه

وقد عكس بعضهم هذا فقال:

وقينة ملهية قد غدت تستوقف السامع والرائى
جارية راقصة أشبهت فى وصفها فوارة الماء

وقال ابن حجاج (توفى سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة):

صنعت فى دراك فوارة أغرقت فى الأرض بها الانجما
فاض على نجم السهى ماؤها فأصبحت أرضك تسقى السما

وقال ابن تيميم فى بركة بشاذروان:

الا رب يوم قد تقضى ببركة أقمت بها فيما جرى متحيرا
بعينى رأيت الماء فيها وقد جرى على رأسه من شاهق فتكسرا

وقال الشيخ برهان الدين القيراطى:

مذهب شاذروانا الـ ـمعالى المقام والرتب
نال الغنى الماء به حين مشى على الذهب

وقال فيه:

لحسن شاذروانا كل القلوب تعشق
من أجل ذا الماء له قلب به معلق

ومن كلام سيدى تقى الدين أبى بكر بن حجة فى الفوارة كأنها سنان تطعن فى صدر الظما، أو شجرة كدنا أنها طوبى لما ظهرت وأصلها ثابت وفرعها فى السما، أو معترف بندا الماء وقد أفاض عليه عطاياه فيضا فرفع له لأجل ذلك فوق قناته راية بيضاء، أو عمود وفاء أشارت الناس إليه بالأصابع أو ملك طالب السماء بودائع حتى قلنا إن إكليل الجوزاء له من جملة الودائع، أو أبيض طائر علا حتى قلنا إنه يلتقط حباب النجوم الثواقب، أو شجاع ذو همة عالية تحاول ثاراً عند بعض الكواكب.

وقال شهاب الدين بن أبى حجلة:

وشاذروان ماء بات يجرى … كعين الصب روع يوم بين

إذا ما قيل جد بالماء سريعا … يقول نعم على رأسى وعينى

وقال شيخنا الشيخ زين الدين بن العجمى (توفى سنة خمس وتسعين وسبعمائة):

تسلسل مائى وهو لا شك مطلق … وصح حقيقا حين قالوا تكسرا

وفى قلب مائى للقلوب مسرة … وقالوا سيجرى بالهنا وكذا جرا

قلت: وقد تصرفت الفضلاء متأخرو العصر فى هذه اللفظة أعنى وكذا جرى تصرفات حسنه فمنهم القاضى صلاح الدين الصفدى فقال:

أملت أن تتعطفوا بوصالكم … فرأيت من هجرانكم ما لا يرى

وعلمت يوم فراقكم لا بد أن … يجرى له دمعى دما وكذا جرى

ومنهم الشيخ عز الدين الموصلى فقال:

رُبَّ نسيم قد سرى … يحدو سحابا ممطرا

أذياله بليلة … تخبرنا بما جرى

وقال أيضًا:

حديث عذار الحب فى خده جرى … كمسك على الورد الجنى تسطرا

فقبلته حتى محوت رسومه … كأن لم يكن ذاك الحديث ولا جرى

وقال الشيخ برهان الدين القيراطى:

لم يبك حين بكيت من … هجرانه متحسرا

لكن حكى لك خده الـ … ـمصقول صورة ما جرى

وقال:

كابرت عدل صبوتى … فى الدمع حين تحدرا

قالوا بكيت صبابة … فأجبت هذا ما جرى

وأنشدنى سيدى وأخى تقى الدين أبى بكر بن حجة ـ أبقاه الله تعالى ـ لبعض المغاربة:

وتحدث الماء الزلال مع الحصا فجرى النسيم عليه يسمع ما جرى
فكأن فوق الماء شيئا ظاهرا وكأن تحت الماء داراً مضمرا

رجوع إلى ما كنا فيه قال ابن ظافر العسقلانى فى كتابه بدائع البدائه: مررنا فى بعض العشايا على بعض البساتين المجاورة لبحر النيل فرأينا بئرا عليها دولابان متحاذيان قد دارت أفلاكهما بنجوم القواديس ولعبت بقلوب ناظريهما لعب الأمانى بالمفاليس وهما يئنان أنين أهل الاشواق ويفيضان دمعا أغزر من دموع العشاق، والروض قد جلا للأعين زبرجده والأصيل قد راق حسنه فنثر عليه عسجده والزهر قد نظم جواهره فى أجياد الغصون والسواقى قد أدلت من سلاسل فضتها كل مصون، والنبت قد اخضر شاربه وعارضه وطرف النسيم قد ركضه فى ميادين الزهر راكضة ورضاب الماء قد علاه من الظل ألمى وحيات المجارى حائرة تخاف أن يدركها من زمرد البنان العمى، والبحر قد صقل صيقل النسيم درعه وزعفران العشى قد ألقى فى ذيل السماء ردعه فاستحوذ علينا ذلك الموضع استحواذا وملأ أبصارنا وقلوبنا التذاذا وملنا إلى الدولابين شاكين أرمزا حين شجت قيان الطير بألحانها أم شدت على عيدانها أم ذكرا أيام نعما وطابا وكانا اغصانا رطابا فنفيا لذيذ الهجوع ورجعا النوح وأفاضا الدموع طلبا للرجوع. وقال مجير الدين بن تميم مضمنا:

ودولاب روض كان من قبل أغصنا تميس فلما فرقتها يد الدهر
تذكر عهدا بالرياض فكله عيون على أيام عهد الصبا تجرى

وقال:

تأمل تر الدولاب والنهر اذ جريا ودمعهما بين الرياض غزير
كأن النسيم الرطب قد ضاع منهما فأصبح ذا يجرى وذاك يدور

وقال بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى (توفى سنة ثمانين وستمائة):

وروضة دولابها إلى الغصون قد شكا
من حين ضاع زهرها دار عليه وبكى

واستعمل هذا المعنى صلاح الدين الصفدى فى غير الدولاب فقال:

أضحى يقول عذاره هل فيكم لى عاذر
الورد ضاع نجده وأنا عليه دائر

وقال الشيخ جمال الدين محمد بن محمد بن محمد بن نباتة:

أعـجـب لهـا ناعـورة قلبـهـا ... للمـاء مـشى العـيش والعـشب
تعـبـانة الـجـسم ولكنـهـا ... كـمـا ترى طيـبـة القـلب

وقال سعد الدين بن عربى (ومولده سنة ست وخمسين وخمسمائة، ووفاته سنة اثنتين وستمائة):

شـاهـدت دولابًا لـه أدمع ... تـكـلـفـت لـلـروض بالـرىّ
فـأعـجـب له مـن فلـك دائر ... مـا فـيـه برج غـيـر مـاءى

ولآخـر:

أبدى لنا الدولاب قـولا مـعـجبا ... لمـا رآنا قـادمـين إليـه
إنى من العجب العجيب كما ترى ... قلبى مـعـى وأنـا أدور علـيـه

قال أبو حنيفة الدينورى الدولاب بضم الدال وفتحها كذا سمعته من فصحاء العرب.

ولآخـر:

لله أزهار دوح بـات يضـحكهـا ... صـوت الغـمـام بدمع منه منسـفك
حكت نجـوم السـمـا أزهارها فكذا ... أضحى يدور بها الدولاب كالفلك

وقال ابن نباتة:

وناعـورة قـالت وقـد ضـاع قلبـهـا ... وأضلعـها كادت تعـد من السـقم
أدور على قـلبى فـإنى فـقـدته ... وأما دموعى فهى تجرى على جسمى

ولآخـر:

وذات شـجـو أسـالـت ... مدامعًا لم تصنها
تـبـكى بـغـرط دمـوع ... ونـضـحك الـروض منـهـا

ولآخـر:

أشـبـه مـا بين القـواديس صـوتها ... ومن كل وجـه مـاؤهـا يتـحـدر
بأرملـة ضـمت إليـهـا بناتـهـا ... تنوح بـشـجـو والمـدامع تـقطر

ولآخـر:

وناعـورة قـد ضـاعـفت بنواحـهـا ... نواحى وأجـرت مقلتـاى دموعـهـا
وقد ضـعفـت مما تـانٍ فقـد غدت ... من الضعف والشكوى تعد ضلوعها

سأل الشيخ نجم الدين القحفيرى جماعة من الطلبة المشتغلة عليه عن قول الشاعر (ومولده سنة ثمان وستين وستمائة، ووفاته سنة أربع وأربعين وسبعمائة):

يأيها الحبر الذى	عِلمُ العروض به امتزج
أبن لنا دايرة	فيها بسيط وهزج

ففكر بعض الطلبة فيه ساعة طويلة ثم قال هذا فى الساقية لأنه أراد بالبسيط الماء وبالهزج صوت الساقية حال دورانها، فقال له الشيخ: إلا أنك درت فيها زمانا حتى ظهرت لك وهذا الكلام فى غاية الطرافة من الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ وقال ابن تميم:

وناعورة قد ألبستها حبالها	من الشمس ثوبا فوق أوراقها الخضر
كطاوس بستان يدور وينجلى	وينفض عن ارياشه بلل القطر

وله:

أبدت لنا بالعذر ناعورة	أدمعها فى غاية السكب
تقول لما غاب قلبى وقد	ضعفت بالنوح وبالندب
صيرت جسمى كله أعينا	تدور فى الماء على قلبى

وقال الشيخ زين الدين بن الوردى:

ناعورة مذعورة	للبين ثكلى حائره
الماء فوق كتفها	وهى عليه دائره

وله:

حالة الدولاب دلت	أنه فى فرط حزن
كان يسقى ويغنى	صار يسقى ويغنى

وقال مؤلف الكتاب من مرثيته التى رثى بها دمشق وغيرها عند حلول الواقعة المشهورة من التتار:

أعروسنا لك أسوة بحماتنا	فى ذا المصاب فأنتما أختان
غابت بدور الحسن عن هالاتها	فاستبدلت من عزها بهوان
ناحت نواعير الرياض لفقدهم	فكأنها الأفلاك فى الدوران

وقال ابن تميم:

أيا حسنها من روضة ضاع نشرها	فنادت عليه فى الرياض طيور
ودولابها كادت تذوب ضلوعه	لكثرة ما يبكى بها ويدور

وقال جمال الدين بن نباتة:

وناعورة قسمت حسنها ... على واصف وعلى سامع
وقد ضاع نشر الربا فاغتدت ... تدور وتبكى على الضائع

وقال مؤلفه ارتجالا جيما اقترح عليه والحالة كذا:

كأن البحر اذ يزهو صفاه ... ونور البدر يشرق والسواقى
دموعى ثم وجهك يا حبيبى ... وقلبى اذ شكا ألم الفراق

قلت ومن المداعبات اللطيفة ما كتب به المرحوم القاضى فخر الدين بن مكانس إلى الشيخ بدر الدين البشتكى سلمه الله تعالى (مولده سنة ثمان وأربعين وسبعمائة) وقد دار فى ساقية الهمائل وهو:

دورة البدر فى سواقى الهمائل ... تركت أدمع العيون هوامل
آه من للرياض نور أديب ... مظهر من كلامه سحر بابل
فاق سعيا على بنى عجل فى الـ ... ـجود وأغنى عن الولى الهاطل
زاد علما على أبى ثور لكن ... قال بالدور ماؤه والسلاسل
قد أعاد الجناس حسن نوار ... وأتته ثورية فهو كامل
يا سعيد أثرى من النظم والنثـ ... ـر فأنسى الورى زمان الفاضل
قد سقيت الرياض يا شيخ بالدو ... ر فها غصنها من السكر مائل
لم تدع من نباتة لم تجدها ... أنها بالثنا عليك تواصل
وابن قادوس كان طالع فى خد ... مك اليوم بالأوامر نازل
وغدا بالظلال كل أديب ... فى هجير الرمضاء بفضلك قائل
وبروحى عيون نرجس روض ... يغزل الحسن بالندا ويغازل
أنت شنفتها بشعرك زهرا ... وبعثت المياه فيها خلاخل
كم غصون أينعتها فعليها ... هاج للطير والمحب بلابل
أنت فى الحالتين تصريفك الاحـ ... ـرف أو كيمياء ذهنك واصل
أنت لو لم تكن بحار علوم ... ما جرت فى الرياض منك جداول
كنت عندى أجلى قدرا وقد در ... ت من الثور للوجود الحامل
وغدا قس بين لفظك والرو ... ض على الحالتين عندك باقل
أنت يا بدر فقت بدر الدياجى ... فلهذا تبدو وذاك آفل
يا خليا أبثه الشجو إن لم ... يك عنى كدمع عينى سائل
والأديب المحب يشكو هواه ... للأديب المحب عند النوازل

أنا مــغـرى بـحـب أحـور الـمى نافـثى يزرى بغـصن الحــمـائل
من بنى الـتـرك قـده للـدن واللحـ ـظ كـلا الفـاتـنين أصـبـح ذابل
أعـين الـزهر والغـصـون تراها شـاخـصـات إذا مـشى ومـوائل
لا تقل بى الاعـراب تحكم حـسنا مـا ترى للاعـراب هذى العـوامل
مـاس عجـبا وقصـده يقـتل الخلـ ـق دلالاً ولـلـدلال دلائـل
لا تلم فـى عـذاره هتك شـيـبى أنا قـد بعـت آجلى بـالعـاجل
ولعـمـرى أنـت الذكى ولـكن أنت والله عـن غـرامى غـافل
ولئـن كنـت عـاقـلا إننـى من صـبوتى فى الهـوى عن العقل عاقل
هاك حـالى شـرحـتـه فـاغـتنى إن تكـن يا أخى لـهـمـى حـامل
واطرح عـتـبها فـعيش المحـبـ ـن مـحبـون والعيـش كـالظل زائل
دمت يا جامع المـحـاسن والشـمـ ـل ولا زال غـيـث فـضلك شـامل
أنت بـدر أم أنت شـمـس فـإنا قـد رأيناك غـرة فى الأصـائل
وكـفـيت الحـرار يا أشـرف القـو م ومن جـوده يـنعـى ابن بـاخل

الباب الثامن
فى الباذهنج وترتيبه

قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فى باذهنج مطل على البحر:

أنا نعمى من ابتهج انعش الروح والمهج
وعن البحر يا نسيم حدث ولا حرج

وقال ابن سناء الملك (توفى سنة ثمان وستمائة):

وباذهنج علا علاء لكنه قد هوى هواء
دام عليك النسيم فيه كأنه يطلب الشفاء

وقال أبو الحسن عبد الكريم الأنصارى:

ونفحة باذهنج أسكرتنا وجدت بروحها برد النعيم
أتينا من أنيق الشكل سمح تراه مثل راووق النديم
صفا وجرى الهوى فيه رقيقا فسميناه راووق النسيم

ومما يحسن أن ينشد على لسان الباذهنج قول بعض العرب:

اذا الريح من نحو الحبيب تبسمت وجدت لرباها على كبدى بردا
وانى بتهباب النسيم موكل طروب وبعض القوم يحسبنى

وللشيخ برهان الدين القيراطى:

يا طيب نفحة باذهنج لم يزل بهوائه لنفوسنا تنفيس
مغرى بجذب الريح من آفاقها فكأنه للريح مغناطيس

وللشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة:

وباذهنج لا خلت ديارنا من أنسه
كأنه متيم يلقى الهوى بنفسه

وله:

وباذهنج غدا فى الجو منظر من فوق منظره تبدو على سنن
فانظر فديتك يا محبوب رفعته واستنشق الريح من تلقاه يا سكنى

ولـــــه:

يا باذهنجى كم كذا تعلو على بان الحمى
أبديت حمقًا زائدًا رفعت رأسك للسما

وله مضمنا:

ودار حكت قصر السموْل فاغتدت تباهى بنيان لها وتقول
أرى باذهنجى فى الهواء ارتفاعه يعز على من راحه ويطول

وله مضمنا:

يا باذهنجى أما ترثى لذى حرق يبدى لهيب الجوى مذبات يخفيها
عودتنا صدقات من لطيف هوى فامنن على بريح منك يجريها

وله مضمنا:

يا باذهنجى لا برحت من الهوى مثلى على حب الديار مولها
دارى بحبك دائما مشغوفة خلقت هواك كما خلقت هوى لها

ولـــــه:

وباذهنج تراه كغصن بان ترنح يهتز عند العطايا لأنه يتريح

وله ملغزا فيه:

وذى جناح طوله أضعاف ما فى العرض
ما جار فى شرع الهوى وحكمه إذ يقضى
ولم يطر مع كونه بين السما والأرض

وقال أبو الفتح بن قادوس يهجوه:

لك باذهنج قلب صب له نفس يصاعد لوعة الحرق
مات النسيم به فأجمعنا نبكى عليه بأدمع العرق

ولصدر الدين بن عبد الحق (توفى تقريبا سنة ثمانين وسبعمائة):

فى الباذهنج لا تنم فما لمرضاه دوى
لا يأمن الشخص الذى يرق فى الليل النوى

ولشهاب الدين بن أبى حجلة:

وباذهنج ريحه تضرم نيران الجوى
مدحته جهلاً به فراح مدحى فى الهوى

وله مضمنا فيه:

هجا الشـعـراء جـهـلا بـاذهنجى ... لأن نسـيـمـه أبـدا علـيل
فـقـال البـاذهـنج وقـد هجـوه ... إذا صح الهـوى دعـهـم يقـولوا

وقال شهاب الدين السنبلى المالكى (توفى سنة أربع وستين وستمائة):

وباذهنج اذا حـر المـصـيـف أتى ... أهدى النسيم وقـد رقت حـواشيـه
مـصغ إلىّ الجـو مـا ناجـاه فـحـة ... الاونم عـليـه فـهـو واشـيـه

وأكثر الناس ولوعا بالباذهنج القاضى الفاضل فإنه قال من رسالة[1]: إنى من مدة سنتين وما قاربهما وهى المدة من تاريخها فرح بهجرة وكرى وعلو سعر شعرى قد نظمت مائتين وخمسين ألف بيت من الشعر بشهادة عيانها وحضور ديوانها مثل قولى فى باذهنج شديد الحرور كأنما يتنفس نفس مصدور ما يناهز ألف بيت كل مقطوع منها يخرع العقول اختراعه ويعفى المحاسن بديع ابتداعه.

ومثل قولى فى رجل طويل الآذان كأنهما فى رأسه خفان أوقد عجل له منهما نعلان، ما يقارب ألف بيت تجاوزت بهما وأوريت وما ادخلت منها الشاعر إلى بيت.

ومثل قولى فى رثاء الوطن الذى درجت من وكره وخرجت فلم أخرج عن ذكره ما يناهز عشرة آلاف بيت ومثل قولى:

فى مـدايـح منصـوصـه ... واهاجـى مـخـصـوصـه

وللشيخ برهان الدين القيراطى ملغزا فيه:

أهـواءنا الـمـخـتـلفـه ... قـد أصـبـحت مـؤتلفـه
فـى شـامـخ بـأنـفـه ... عـلـى العـوالـى أنـفـه
وذى جـنـاح لـم يـطـر ... وكـل طـيـر ألـفـه
جـنـاحـه طـول المـدا ... يـبـدى علـينـا رفـرفـه
كم مـن كـئـيـب عـاشق ... أهـدى له مـشـرفـه
ولا يـزال مـرسـلا ... لـنـجـوه ملـطـفـه
فـى الريـح ضـاع قـول من ... عـلـى هـواه عـنـفـه
عـليـلـه الصـحـيـح كم ... شـغـى قـلـوبًا دنـفـه
وروحـه لـطـيـفـة ... وذاتـه منـحـرفـه
عـن قـبـلـة الـديـن أرى ... حب الـهـوى قـد صـرفـه

(١) قوله: فإنه قال من رسالة... إلخ. هذا ما رأيناه بالأصل فليحرر. اهـ.

ولم يكن مع الهوى ... أعطافه منعطفه

هواه تحت طوعه ... كيف يشاء صرفه

كم عممت غمامة ... هامته المنكشفه

ما زال غير ساكن ... ساكنه مذ ألفه

وكلما لاح له ... من الهواء التقفه

فنى الوليد ذاته ... بذاته مؤتلفه

مكانها سميها ... فى الغرب يبدى حيفه

فيه تثنى عصبة ... قد أصبحت مصيفه

ببدر ذو الرشد ولا ... ينبه إلى السفه

حمدت مع نبذيره ... وبذله تصرفه

وكل ما أسرف فى ... بلد شكرنا أسرفه

ونصفه مع جبل ... ملك سطاه متلفه

تصحيف ثلثيه جلت ... فض حديثه الشفه

وثلثه حرفان بل ... حرف فدع من حرفه

أنفاسه كم أودعت ... محاسنا مستلطفه

كم رنحت من غصن ... ذى قامة مهفهفه

معتلة هو الصحيـ ... ـح عند من قد عرفه

وعرفه يعرفه ... بالطيب حل عرفه

وثوبه الأبيض لا ... يزال يبدى صلفه

آخره مصنف ... لعالم قد صنفه

وبيت سلطان غدا ... يصون فيه تحفه

يكنى بسدسى لفظه ... عصابة مستنكفه

وسدسه أرى السما ... والأرض والماء يألفه

فاكشف معمى قلبه ... فمثلكم من كشفه

نهار ذهنكم محى ... من الظلام سدفه

يجرى لحل المشكلا ... ت لم يخف توقفه

وبحركم در وما	صادفت فيه صدفه
وللرقاب قلدت	هباتك المؤلفه
كل البرايا نكرة	وأنت فيهم معرفه
وخذ عروسا شنفت	مذجليت مشنفه
زهي لو بان له	زهر جلاها قطفه
أغشى سناء طرفها	إذا لاح طرف طرفه
حديقة حاسدها	يرعد مثل السفعه

الباب التاسع

فى النسيم ولطافة هبوبه

وإنما ذكرت النسيم لأنه من لوازم الباذهنجى، والنسيم الريح الطيبة ونسيم الريح أولها حين تقبل بلين قبل أن تشتد، ومنه الحديث «بعثت فى نسيم الساعة» أى حين ابتدأت وأقبلت.

وما أحسن قول بعضهم:

* نسيم الريح نسيب الروح *

قال أبو زكريا يحيى بن على الخطيب التبريزى الرياح المعروفة أربع: الصبا: وهى تسلى عن الكروب، والجنوب وهى تجمع السحاب، والشمال: وهى تعصره وتفرقه، والدبور: وهى تهدم البنيان وتقلع الشجر وهى المذكورة فى القرآن الريح العقيم وريح عاصف وريح صرصر.

وكل موضع جرى فيه ذكر الريح فالمراد بها الدبور والمراد بها العقوبة، وكل موضع جرى فيه ذكر الرياح فى القرآن فإنه يرجع إلى الثلاثة التى تقدم ذكرها فيراد به الرحمة.

وقيل: الرياح ثمان أربع من الجهات الأربع، وأربع تسمى النكب لميلها، وتنكيبها عن الجهات الأربع فالشمال من ناحية الشام وذلك عن يمينك إذا استقبلت قبلة العراق فهبوبها من تحت بنات نعش، ويقابلها الجنوب وهى باردة يابسة صافية من الكدر تشد الأعضاء وتسد المسام وتحصر الحرارة فى الباطن فينهضم الغذاء وتصفو بها كدورة الروح الحيوانى الذى فى القلب من الأبخرة الدخانية وتديم الصحة وتقوى حواس الدماغ وذلك إن وصلت إلى الجسم باعتدال وهى قليلة الهبوب ليلا؛ ولذلك تقول العرب فى أحاديثها إن الجنوب قالت للشمال إن لى عليك فضلا لأننى أسرى وأنت لا تسرى، فقالت الشمال إن الحرة لا تسرى.

وكان للمتوكل بيت مال يسميه بيت مال الشمال فكلما هبت شمالا تصدق بألف درهم.

وسمع عمر بن الخطاب ﷺ قول سحيم عبد بنى الحسحاس:

وهبت شمالا آخر الليل سحرة ولا ثوب إلا درعها وردائيا

فما زال بردى طيبا من نباتها إلى الحول حتى انهج البرد باليا

فقال عمر: إنك مقتول، فاتهم بعد ذلك بامرأة فقتل.

قال أبو نواس (توفى سنة ثمان وتسعين ومائة) وفيه ثلاث روايات:

هبت لنا ريح شامية منت إلى القلب بأسباب

ادت رسالات الهوى بيننا عرفتها من بين أصحابى

يحكى أن الصاحب بن عباد ـ رحمه الله تعالى (مولده سنة ست وعشرين وثلاثمائة ووفاته سنة خمس وثمانين وثلاثمائة) كان إذا سمع هذين البيتين ترنح لهما.

قال الشيخ شرف الدين أحمد بن يوسف القيسى حدثنى من دخل سجستان وكرمان أن جميع ارحائهم ودواليهم تدور بريح الشمال قد جعلت منصوبة تلقائها، وأن هذه الريح تجرى عندهم على الدوام صيفا وشتاء وهى فى الصيف أكثر وأدوم وربما سكنت فى اليوم والليلة أو مرات فيسكن كل رحى ودولاب بذلك الاقليم، ثم يتحرك فيتحرك وذكر أن هذه الدواليب المنصوبة بها اثنا عشر ألفا وتنقطع بانقطاعها قال والخصب والقحط فى بلادهم معتبر بكثرة جريان ريح الشمال وقلته قال ولهم فى الارحاء منافس تغلق ليقل ويكثر وذلك أنها إذا كانت قوية أحرق الدقيق فيخرج به أسوداً وربما حمى الرحاء فانفلق فهم يحتاطون لذلك بما ذكرناه.

والصبا تأتى من مطلع الشمس وهى القبول والدبور يقابلها وهى معتدلة ولا سيما إن هبت قبل طلوع الشمس فى زمان الربيع، وهى لطيفة صافية تذكى الأذهان وتبط الأخلاق لا سيما إن مرت بمروج أزهار نافعة فانها تحمل قواها إلى القلب والدماغ.

وإلى نفعها أشار الشاعر:

وصبا أتت من قاسيون فسكنت بهبوبها وصب الفؤاد البالى

خاضت مياه النيرين عشية وأتتك وهى بليلة الأذيال

وقال سيف الدين المشد (ومولده سنة اثنين وستمائة، وتوفى سنة خمس وخمسين وستمائة):

مسكية الأنفاس تملى الصبا عنها حديثا قط لم يملل

جننت لما ان سرى عرفها وما نرى من جن بالمندل

وقال مجير الدين الخياط (ومولده سنة خمسين وأربعمائة، ووفاته سنة أربع وعشرين وخمسمائة):

يا نسيم الصبا الولوع بوجدى حبذا أنت لو مررت بهند
ولقد رابنى شذاك فبالله منى عهده يا طلال نجد

وقال المهيار الديلمى وتلطف (توفى سنة ثمان وعشرين وأربعمائة):

حملوا ريح الصبا نشركم قبل ان تحمل شيحا وخزاما
وابعثوا لى فى الدجى طيفكم إن أذنتم لجفونى أن تناما

وروى المرزبان باسناده أن المجنون خرج مع أصحاب له ليمتار من وادى القرى فمر بجبلى نعمان فقالوا: إن هذين جبلا نعمان وقد كانت ليلى تنزلهما، قال فأى ريح تجرى من نحو أرضها إلى هذا المكان، فقالوا الصبا فقال والله لا أبرح حتى تهب الصبا فأقام فى ناحية من الجبل ومضوا فامتاروا لهم وله ثم أتوا فحبسهم حتى إذا هبت الصبا رحل معهم وفى ذلك يقول:

أيا جبلى نعمان بالله خليا نسيم الصبا يخلص إلىّ نسيمها
أجد بردها أو تشف منى حرارة على كبد لم يبق إلاصميمها
فان الصبا ريح منى ما تنسمت على نفس مهموم تجلت همومها

وضمن البيت الأول) الشيخ صفى الدين الحلى فى مليح اسمه نعمان فقال:

أقول وقد عانقت نعمان ليلة بنور محياه أنار اديمها
وقد أرسلت الياه نحوى فسوة بروح كرب المستهام شميمها
أيا جبلى نعمان بالله خليا نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها

أقول وعلى ذكر نعمان والكناية عنه فما ألطف ما ذكره الشيخ بدر الدين حسن بن زفر المتطبب الاربلى فى كتابه روضة الجليس ونزهة الأنيس وهو ان بعض الرؤساء قال: أخبرنى بعض الأصحاب قال كنت يوما جالسا عند صديق لى بالموصل إذ جاءه كتاب من بغداد من صديقة له فيه تشوق وفيه هذا البيت عتاب وهو:

تناسيتم العهد القديم كأننا على جبلى نعمان لم نتجمعا

فأخذ يستحسن هذا البيت ويهتز له، فقلت له بالله عليك يا فلان أسألك شيئًا ولا تخفه عنى، قال سل، قلت هذى معشوقتك صاحبة هذا الكتاب هل كنت تأتيها من وراء الدار فقال إى والله ومن أين علمت ذلك؟ قلت من هذا البيت لأنها ذكرتك فيه بجبلى نعمان وجبلى نعمان كناية عند الظرفاء من الناس عن جانبى كفل المليحة والمليح، فقال والله ما ادركت من هذا البيت الذى ادركت.

وكان لبيد بن ربيعة العامرى آلى فى الجاهلية أن لا تهب صبا إلا نحر وأطعم الناس حتى تسكن وألزم نفسه ذلك فى الإسلام فلما كانت أيام عثمان جعل ديوان لبيد بالكوفة، وخطب الوليد بن عقبة الناس بها فى يوم صبا فقال: معاشر الناس إن أخاكم لبيد آلى فى الجاهلية ألا تهب صبا إلا أطعم الناس حتى تسكن وقد ألزم نفسه ذلك فى الإسلام وهذا اليوم من أيامه فأعينوه وأنا أول من يعينه، ونزل فبعث إليه مائة بكرة وكتب إليه يقول:

أرى الجزار يشحذ شفرتيه إذا هبت رياح أبى عقيل
أشم الأنف أصيد عامرى طويل الباع كالسيف الصقيل
ووفى الجعفرى بما عليه على العلات والمال القليل

فلما أتاه الشعر قال لابنته يا بنية أجيبيه فقالت:

إذا هبت رياح أبى عقيل دعونا عند هبتها الوليدا
أشم الأنف أصيد عبشميا أعان على مروءته لبيدا
بأمثال الهضان كأن ركبا عليها من بنى حام قعودا
أبا وهب جزاك الله خيرا نحرناها وأطعمنا الثريدا
فعد إن الكريم له معاد وظنى يا بن أروى أن تعودا

فقال أبوها أحسنت لولا أنك استطعمتيه.

ولبيد هذا صحابى قدم على النبى ﷺ مع قومه بنى جعفر بن كلاب وهو صاحب إحدى القصائد المعلقات التى أولها:

* عفت الديار محلها فمقامها *

وإنما أمر ابنته أن تجيب الوليد لأنه لم يقل شعرا منذ أسلم، وقال بعضهم لم يقل فى الإسلام الا قوله:

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

وقيل: هذا البيت لغيره، وهو أصح.

وقيل هذا البيت الذى قاله فى الإسلام بيت عجزه:

* والمرء يصلحه القرين الصالح *

وقال له عمر - رضي الله عنه - يوما يا أبا عقيل أنشدنى شيئًا من شعرك فقال: ما كنت لأقول شعرا بعد إن علمنى الله البقرة وآل عمران فزاده فى عطائه خمسمائة وكان ألفين.

وقالت عائشة ﷺ رويت من شعر لبيد اثنى عشر ألف بيت، وقالت أيضا رحم الله لبيداً حيث قال:

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم ... وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

قلت: كيف لو أدرك زماننا.

وكان لابن الجوزى ـ رحمه الله تعالى ـ زوجة اسمها نسيم الصبا فاتفق أنه طلقها فحصل له بعد ذلك ندم وهيام أشرف به على العدم فحضرت فى بعض الأيام مجلس وعظه فحين رآها عرفها، فاتفق أنه جاء امرأتان وجلستا أمامه فحجبتاها عنه فانشد فى الحال:

* أيا جبلى نعمان بالله خليا *

وهذا من جملة لطائفه وظرائفه.

ومنها أنه أنشد فى بعض مجالس وعظه:

أصبحت ألطف من مر النسيم سرى ... على الرياض يكاد الوهم يؤلمنى

من كل معنى لطيف أجتنى قدحا ... وكل ناطقة فى الكون تطربنى

فقام إليه إنسان وقال فإن كان الناطق حمارا، فقال أقول له يا حمار اسكت.

وقال صلاح الدين الصفدى:

صدّق خلى نسمات الصبا ... فيما روت عنكم وما شك

قال لا أخبر منها بما ... جاءت به قلنا ولا أذكى

وقال جمال الدين بن نباتة:

يداوى أسا العشاق من نحو أرضكم ... نسيم صبا أضحى عليه قبول

بروحى من ذاك النسيم إذا سرى ... طبيب يداوى الناس وهو عليل

وقال شهاب الحاجبى (توفى قريبا من سنة سبعين وسبعمائة):

لا تبعثوا غير الصبا بتحية ... ما طاب فى سمعى حديث سواها

حفظت أحاديث الهوى وتضوعت ... نشرا فبالله ما أذكاها

وقال بدر الدين بن الصاحب:

أسكرتم ريح الصبا بالشذا ... حتى أذاعت سمرنا بالبطاح

لا تعتبوها إن اذاعت هوى ... فما على السكرى بهذا جناح

وقال بدر الدين حسن العربى (ومولده سنة ست وسبعمائة، ووفاته سنة خمس وخمسين وسبعمائة):

سرت من بعيد الدار لى نسمة الصبا فقد أصبحت حسرى من السير ظالعه
ومن عرق مبلولة الجيب بالندا ومن تعب أنفاسها متتابعه

ولما أنشدتهما السيد القاضى صدر الدين بن الأدمى ـ فسح الله فى أجله (مولده سنة ثمان وستين وسبعمائة) قال: لو قال الشيخ بدر الدين

* فقد أصبحت معتلة وهى ظالعة *

لكان أحسن من قوله حسرى، ولعمرى صدق فيما قاله.

وما ألطف القاضى أمين الدين عثمان بن عطايا فى قوله:

أنا أهوى غصن النقا وهولاه وفؤادى بحبه فى التيه
يا نسيم الصبا ترفق عليه وتلطف به ولا تؤذيه
وتحمل رسالة ليس إلا كأمين فى حملها ارتضيه
وإذا لم يكن رسولى نسيم نحو غصن النقا فمن يثنيه

وللشيخ شمس الدين الواسطى، من متأخرى شعراء الديار المصرية من موشحه:

نسائم الأسحار * بنشرها الفواح * تحرك الأغصان * لأنها أرواح
فقم بنا نسعى * لمربع يانع * للماء والمرعى * فيه غدا جامع
قد أطرب السمعا * قمريه الساجع
كأنما تكرار * غناه فى الأدواح * ضرب من العيدان * لمن غدا أو راح

ولمؤلف الكتاب لطف الله به:

إن هبت الأرواح من نحوهم فانتشت الأشباح من راحها
لا تعتبونا فى الهوى واسكنوا أشباحنا حنت لأرواحها

ولم أر أحداً وصف الريح غير الأديب أبى القاسم أسعد بن على الكاتب المترسل فى قوله:

كأن شكل الهلال قرط أو عطفة النون أو قلامه
كأن لون الهواء ماء أو سندس رق أو غمامه

حكى أن نور الدين على بن سعيد المغربى صاحب المرقص والمطرب مر مع جماعة من الأدباء المصريين ومنهم أبو الحسين الجزار فمروا فى طريقهم بمليح نائم تحت شجرة وقد هب الهوى فكشف ثيابه عنه، فقال أبو الحسين الجزار قفوا لينظم كل واحد منا فى هذا شيئًا، قال فما لبث أن قال نور الدين:

الريح أقود ما يكون لأنها تبدى خبايا الردف والأعكان
وتميل بالأغصان عند هبوبها حتى تقبل أوجه الغدران
وكذلك العشاق يتخذونها رسلا إلى الأحباب والأوطان

فقال أبو الحسين ما بقى أحد منا يأتى بمثل هذا سيروا بنا.

وقال النور الاسعردى (ووفاته سنة ست وخمسين وستمائة):

تميل الريح بالأغصان لطفا كما مالت بشاربها العقار
وتجمع بينها من بعد بُعد وأوراق الغصون لها آزار
وتخفق غيرة عند التلاقىّ فهل أبصرت قواداً يغار

وما أحسن قوله وإن كان فى غير ما نحن فيه:

اعدى سقام جفونه جسمى وأعدمنى الكرا
حتى اعتللت بسرعة مثل النسيم إذا سرى

وأنشدنى من لفظه لنفسه الشيخ العلامة عز الدين أبى الخير على ابن الشيخ بهاء الدين الحسين الموصلى ـ تغمده الله بالرحمة:

رُبَّ نسيم قد سرى تحدو سحابا ممطرا
أذياله بليلة تخبرنا بما جرى

وأنشدنى من لفظه لنفسه سيدى الشيخ وأخى تقى الدين أبى بكر بن حجة الحموى فسح الله فى أجله، من قصيدة نبوية أولها:

شدت بكم العشاق لما ترنموا فغنوا وقد طاب المقام وزمزم
وضاع شذاكم بين سلع وحاجر فكان دليل الظاعنين إليكم
ولما روى أخبار نشر ثغوركم أراك الحمى جاء الهوى يتبسم

وقال القاضى مجير الدين بن عبد الظاهر:

شكر النسمة أرضهم كم بلغت عنى تحيه
كم قد أطالت بل أطا بت فى رسائلها الزكيه
لا غرو أن حفظت أحا ديث الهوى فهى الذكيه

ومن هنا أخذ صلاح الدين الصفدى قوله وهو حسن عندى:

يا طيب نشر هب لى من أرضكم فآثار كامن لوعتى ونهتكى
أهدى تحيتكم وأشبه لطفكم وروى شذاكم ان ذا نشر ذكى

وقال شهاب الدين أبى حجلة مخاطبا صلاح الدين:

ان ابن ايبك لم تزل سرقاته تأتى بكل قبيحة وقبيح
نسب المعانى فى النسيم لنفسه جهلا وراح كلامه فى الريح

وكان القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ـ رحمه الله تعالى ـ يحب مغنيا اسمه النسيم وله فيه عدة مقاطيع وقد ذكر بعضها الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة من رقعة كتبها إلى القاضى علاء الدين بن فضل الله فى منزلة الأهرام قال:

وقد كان تقدم من انعامه ثوب صوف أحمر، ونصفه فى يوم ماطر ونسأل ـ الله تعالى ـ أن لا يخلى ذوى العارض الممطر من جاه مولانا العريض وحلل انعامه التى هى كالدنانير الحمر والدراهم البيض ونصف ميتة فى هذه المنزلة التى أصبحت كليلة القدر عندى ذات أندية وخيامها التى ولو كان طالعة بها سعد الأخبية وبردها اليابس الذى لم يترك منه رطبا سوى لسانه بصالح الأدعية هذا والهرم يضرب حتى اللحية بالشيب وأبو الهول إلى جانبه يرجم حين يرجع بالغيب فإن شبت من هوله فالهرم أمامى وإن فررت من نسيمه فهوى ناقتى خلفى وقدامى.

هوى تذرف العينان منه وإنما هوى كل نفس حيث حل حبيبها

فلو حكم به على القاضى محيى الدين بن عبد الله الظاهر ـ رحمه الله تعالى ـ وقد حمى بهبوبه الوطيس لاشتغل بنفسه ولترك محبوبه النسيم فى الريح المريس وذلك بعد أن قال فيه:

إن كانت العشاق من أشواقهم جعلوا النسيم إلى الحبيب رسولا
فأنا الذى أتلو لهم يا ليتنى كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

فقلت كأنى حاضر أخاطبه:

إن كنت فى عشق النسيم متيما وزعمت أن هواه ليس بمتلف
فأنا أقول لمن تحرش بالهوى عرضت نفسك للبلا فاستهدف

وقال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فيمن اسمه نسيم:

يا من غدا لى من عوا صف هجره الريح العقيم
أترى يطيب لى الهوى ويقال لى رق النسيم

فقلت له مجاوبا:

بالله إن رق النسيم وأخمدت	نار تؤججها يد التبريح
نقل فؤادك حيث شئت من الهوى	ودع العذول وقوله فى الريح

قلت: وعلى ذكر الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة فى رسالته المذكورة فى ليلة من جمادى ذات أندية ذكرت ما قاله الشيخ المحدث الرحلة فتح الدين محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس ـ رحمه الله تعالى ـ قال: كان القاضى فخر الدين بن نعمان والقاضى تاج الدين أحمد بن الأثير (توفى تاج الدين سنة سبعين وستمائة) صحبة السلطان على تل العجول ولفخر الدين مملوك اسمه الطنبا فاتفق أنه دعى لمملوكة المذكور بالطنبا، فقال له نعم ولم يأته وتكرر طلبه له وهو يقول نعم ولم يأته، وكانت ليلة مظلمة مطيرة فاخرج فخر الدين رأسه من الخيمة وقال تقول نعم ولم أرك فقال تاج الدين:

فى ليلة من جمادى ذات أندية	لا يبصر الكلب فى أرجائها الطنبا

وقال بعض العشاق:

ألا يا نسيم الريح ما لك كلما	تدانيت منا زاد نشرك طيبا
أظن سليمى خبرت بسقامنا	فاعتطك رياها فحييت طبيبا

وكان أبو الفرج الوأواء محمد بن أحمد الدمشقى من حسنات الشام وصناعة الكلام وكان مبدأه مناديا بدار البطيخ بدمشق قال: قال ابن حمدون كان الفتح بن خاقان يأنس بى ويطلعنى على الخاص من أموره فقال: مرة يا أبا عبد الله لما دخلت البارحة إلى منزلى استقبلتنى جارية من جوارى فلم أتمالك دون أن قبلتها فوجدت بين شفتيها هوى لو رقد المخمور فيه لصحا، فكان ذلك مما يستملح ويستظرف من الفتح بن خاقان فسمع الوأواء ذلك فقال:

سقى الله ليلا طاب إذ زاد طرفه	فأفنيته حتى الصباح عناقا
بطيب نسيم منه يستجلب الكرى	فلو رقد المخمور فيه أفاقا

وقال علاء الدين الجوينى صاحب الديوان دوبيت:

لله مبيتنا بضوء القمر	والحب نديمنا وصوت الوتر
قد فرق بيننا نسيم سحرا	ما أبرد ما جاء نسيم السحر

وما ألطف ما قال سيدى تقى الدين بن حجة ـ أبقاه الله تعالى ـ من موشحة امتدح بها

سيدنا ومولانا الإمام العلامة المفنن قاضى القضاة أبى الحسن علاء الدين الشهير بالقصا الحاكم بمدينة حماه المحروسة ـ أسبغ الله عليه ظلاله ـ مضمنا:

بالله يا برق إن أومضت فى الثغر وحارس اللحظ فى شك من الخبر
قف بالثنيات واذكرنى إذا عذبت مسهلات عذيب الثغر فى السحر
وارسل عليل النسيم خلفى معرفا بالشذا ومشفى
ولا تقل إنه المعتل فى شغل فربما صحت الأجساد بالعلل

وللقاضى الفاضل:

يا لمعة البرق بل يا هبة الريح روحى بجسمى إلى من عنده روحى
خذى لهم من دموعى عنبراً عبقًا وأوقديه بنار من تباريحى
ناشدتك الله إلا كنت مخبرة عنى بأنهم ذكرى وتسبيحى

وذكر الوهرانى فى أول منامه هذه الأبيات ولم أدر هى له أم لغيره (توفى سنة خمس وسبعين وخمسمائة):

أيا نفحة أهدت إلىّ تحية ينم عليها العرف من أم سالم
مشت فى اراك الواديين فنبهت به كل نشوان المعاطف ناعم
ألا إنما أحكى بدمعى ولوعتى بكاء الغوانى وانتحاب الحمائم

حكى عن الاصمعى أنه قال: كانت امرأة من العرب تأتى بصبية لها قبل الصبح فتقف على تل عال هناك وتقول: أى بنى خذوا صفو هذا النسيم قبل ان تكدره الخلائق بأنفاسها.

ولمؤلف الكتاب لطف الله به ـ قصيدة:

ألا يا نسمة الريح وفى أيديك تبريحى
قفى أسألك عن قلبى وإن شئت أقل روحى

الباب العاشر
فى الفرش والمساند والأرائك

ذكر القاضى الرشيد أبو الحسين أحمد ابن القاضى الرشيد بن الزبير فى كتابه (العجائب والطرف والهدايا والتحف) أنه لما عزم المتوكل على اعذار المعتز أمر الفتح ابن خاقان بالتأهب لذلك وأن يلتمس فى خزائن الفراش بساطا للايوان فى طوله وعرضه، وكان طوله مائة ذراع وعرضه خمسين ذراعًا، فلم يوجد إلا فى ما مضى من بنى أمية فإنه وجد فى أمتعة هشام بن عبد الملك على طول الايوان وعرضه، وكان بساطا لم ير لاحد مثله ابريسمى مذهب مقزوز مبطن فلما رآه المتوكل استحسنه وبسطه فى الايوان بعد أن قوم فى أوسط التقويم بعشرة آلاف دينار ونصب للخليفة فى صدر الايوان سرير ومد بين يديه أربعة آلاف مرفع ذهب مرصعة بالجوهر فيها تماثيل العنبر والمسك والكافور المعمول على مثل الصور منها ما هو مرصع بالجوهر مفردا ومنه ما عليه ذهب وجوهر، وجعلت بساطا ممدودا اوقعد المتوكل والناس جلوس وهو على سريره وحضرت القواد والأمراء والندماء وأصحاب المراتب وجلسوا على مراتبهم، ووضعت بين أيديهم من الجانبين وللسماط فرجة وجاء الفراشون بزمل غشيت بأدم مملوء دنانير ودراهم نصفين وصب فى تلك الفرجة حتى ارتفعت، وقام الغلمان دونها وأمر الناس بالشرب وأن يتنقل كل من يشرب من تلك الدنانير والدراهم ثلاث حفنات بمقدار ما حملت يداه، وكلما فرغ صب فيه من الزمل حتى يرد إلى حالته، ووقف غلمان فى آخر المجلس فصاحوا أن أمير المؤمنين أمر أن يأخذ من شاء ما شاء فمدوا أيديهم إلى المال وأخذوه، وكان إذا أثقل الواحد ما فى كمه ناوله إلى غلمانه ثم يعود إلى مجلسه، وخلع على من حضر ثلاث خلع حسان على مراتبهم، وأقاموا إلى أن صليت العصر والمغرب وحملوا عند انصرافهم على الخيل والمهارى، وأعتق المتوكل عن المعتز ألف عبد وأمر لكل واحد منهم بمائة درهم وثلاثة أثواب، وكان فى حصن الدار بين يدى الايوان أربعمائة مكبة عليها أنواع الثياب وبين أيديهم مكبة فيها أنواع الفاكهة، وتقدم إلى صاحب الباب أن ينثروا على خدام الدار والحاشية ما كان أعد لهم وهو ألف درهم فلم يقدر أحد على التقاط شىء فأخذ الفتح

درهما فاكب الجماعة على المال فنهبوه وكانت قبيحة أم المعتز بالله قد تقدمت بضرب دراهم عليها مكتوب (بركة من الله واعذار أبى عبد الله) فضرب ألف ألف درهم نثرت على وجوه الغلمان والشاكرية وقهرمانات الدار والخدام والخاصة من الصبيان والسودان.

وسأل أبو العباس الصولى حرملة المزنى كم وصل إليك من اعذار المعتز فقال: صار إلى أن وضع الطعام نيفا وثمانين ألف دينار سوى المصاغات والخواتيم والجواهر.

وحضر المجلس محمد المنتصر وأبو أحمد وأبو سليمان ابنا الرشيد، وأحمد وأبو العباس ابنا المعتصم، وموسى بن المأمون وابنا حمدون النديم، وأحمد بن أبى رويم والحسين بن الضحاك، وعلى بن الجهم وعلى بن يحيى المنجم وأخوه أحمد، ومن المغنين: عمرو بن بانة وأحمد بن أبى العلاء والحفصى بن المكى وسلمك الرازى وثمرة وسلمان الطبال والمسدود وأبو حشيشة بن الفضل وصالح الدفاف وزنام الزامر وتفاح الزامر، ومن المغنيات: غريب وبدعه جاريتها وشراب وجواريها وندمان وننغم ونحلة وتركية وقديرة ورائك وعرفان.

قال وأقام المتوكل بالقصر ثلاثة أيام ثم صعد إلى قصره الجعفرى وتقدم إلى إبراهيم ابن العباس يعمل حساب ما انفق فاشتمل على ستة وثمانين ألف ألف دينار وفضل بعد القسم عن الناس واخراج الخمس مما فى المدائن بساط كسرى أنفذه إلى عمر بن الخطاب ﷺ فقسمه بين الناس، فأصاب علىّ قطعة منها بعشرين ألف دينار وما كانت بأجود القطع، وكانت الفرس تسميه القطف وكان طوله ستين ذراعا فى عرض ستين حرير فيه طرق كالصور وفيه فصوص كالانهار، وخلال ذلك فى الافريز وفى حافاته كالأرض المزروعة المقبلة بالنبات فى أوان الربيع فى قضبان الذهب والفضة ونواره كالجواهر وأشباه ذلك وشبه فصوص ورسمه بالجواهر وزخرفته بحرير وذهب، وكانوا يدخرونه للشتاء إذا ذهبت الرياحين وأرادوا الشرب شربوا عليه فكأنهم فى رياض وكان أفضل ما أصيب بالقادسية وكانت قيمته ستة وثلاثين ألف ألف دينار.

ووجد لأم المعتز بالله ثلاث دواويج كانت تستعملهن فقوم الدواج بأكثر من ألف دينار ووجد لها جلود السمور فتحلق ما عليها من الوبر وترمى الجلود فإذا اجتمع من ذلك ما يكفى الدواج تنثر فيه مع فتت من المسك والعنبر وتجعله بين البطانة والظهارة عوضا عن القطن.

وقال القاضى الفاضل:

بساط يرى التيجان تهوى للثمه ... فما هو إلا قبلة أو مقبل
إذا نشرت من نقشه لك روضة ... بدا فوقها من كفه لك جدول
وأفضل أجزاء الجسوم رءوسها ... وأرجلها فى وطئ بسطك أفضل

دخل محمد بن عمران على المأمون ذات ليلة فجعل يأمره وينهاه ثم دعا له بمتكأ فقال أعيذك بالله يا أمير المؤمنين ما كنت لاتكئ فى مجلسك، فقال له إن على قلبك من بدنك ثقلا ومئونة فأردنا أن يستريح بدنك ليفرغ لنا قلبك.

وقال محيى الدين بن عبد الظاهر ملغزا فى شبرية:

وهندية موطوءة غير أنها ... إذا افترشت أغرتك بالبيض والسمر
تعانق من أعطافها خيزرانة ... وتلمح من أزرارها طالع البدر
وأعجب من ذا إنها إذ تقيها ... تفوتك طولا وهى تعزى إلى شبر

وأنشدنى من لفظه لنفسه الشيخ الفاضل بقية المتأخرين شمس الدين محمد بن بركة الجرائحى - سلمه الله تعالى (مولده سنة خمس وثلاثين وسبعمائة):

يقول محدثى لما اضطجعنا ... ووسدنى حبيب القلب زنده
قصدتم عند طيب الوصل هجرى ... خذونى تحت رأسكمو مخده

وأنشدنى لنفسه أيضا:

بشحانة تطرزت ... قالت بلفظ موجز
على الحرير قد سما ... قدرى والمطرز

وقال الشاعر الظريف محمد بن العفيف:

بساط يملأ الأبصار نورا ... ويهدى للقلوب به سرورا
ويشرح حين يبسط كل صدر ... وخير البسط ما أرضى الصدورا

وقال ظافر الحداد فيما يكتب على كرسى:

نزه لحاظك فى غريب بدائعى ... وعجيب تشبيهى وحكمة صانع
فكأننى كفا محب شبكت ... يوم الوداع أصابعا بأصابع

وذكر القاضى الرشيد بن الزبير فى كتابه (العجائب والطرف) قال الفضل بن الربيع لما ولى محمد الأمين الخلافة فى سنة ثلاث وتسعين ومائة أمرنى أن أحصى ما فى الخزائن من الكسوة والفرش والآنية والآلة، فاجتمعت كتاب الخزائن وأقاموا أربعة أشهر يحصون،

فأشرفت على ما لم أتوهم أن خزائن الخلافة تحويه ثم أمرهم أن يعملوا لكل صنف جملة فكان فى خزائن الكسوة أربعة آلاف جبة منسوجة بالذهب وعشرة آلاف قميص وغلالة وعشرة آلاف خف وألفا سروال وكثير من أصناف الثياب وأربعة آلاف عمامة وألف طيلسان وخمسة آلاف منديل من أصناف المناديل وخمسمائة قطيفة خز ومائة ألف وسادة ومخدة خز وألف بساط ملون وألف مخدة ميسانى وألف وسادة ميسانى وألف بساط طبرستانى وألف وسادة ديباج وألف وسادة خز مرقوم وألف ستر حرير ساذج وثلاثمائة ستر مرقوم وخمسمائة بساط طبرى وألف وسادة طبرى وألف مرقعة وألف مخدة طبرى، ومن الآنية ألف طست ذهب وألف ابريق ذهب وثلاثمائة كانون فضة وذهب وألف نور شمع ذهب وألف قطعة نحاس من سائر الأصناف وألف منطقة ذهب، ثم ذكر السلاح وأصنافه وقد ذكرته فى بابه.

الباب الحادى عشر

فى الارابيح الطيبة والمروحة وما شاكل ذلك

قال انس بن مالك رضي الله عنه: دخل علينا النبى ﷺ فنام عندنا فعرق وجاءت أمى بقارورة فجعلت تسلت فيها العرق فاستيقظ فقال: يا أم سليم ما هذا الذى تفعلين قالت عرقك نجعله فى طيبنا وهو من أطيب الطيب.

وما أحق هذا الطيب بقول القائل وهو الشيخ عز الدين الموصلى:

تنشق مسك أصداغى حلالا فهذا الطيب من عرق الجبين

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو كنت تاجرا ما اخترت غير المسك إن فاتنى ربحه لم يفتنى ريحه.

أهدى عبد الله بن جعفر لمعاوية قارورة من الغالية، فسأله كم أنفق عليها فذكر مالا كثيرا، فقال هذه غالية فسميت بذلك.

وما أحسن قول أبى بكر الخوارزمى (توفى سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة):

وطيب لا يحل بكل طيب يحيينا بأنفاس الحبيب
متى تشممه أنف حن قلب كأن الانف جاسوس القلوب

وكان يوزن بين يدى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه مسك للمسلمين فيأخذ بانفه لئلا يصيب الرائحة ويقول: وهل ينتفع إلا بريحه.

وقال جعفر بن سليمان الهاشمى فى الطيب أربع خصال: لذة ومروة ومنفعة وسنة.

ولما دخل عمر بن عبد العزيز بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ابنة عمه أوقد فى مسارجها تلك الليلة الغالية فقوم ثمن ذلك فبلغ عشرين ألف دينار.

نادرة: تبخر بعض الأمراء وعنده مزيد ففرطت منه رويحة خفيفة وأراد أن يدرى هل فطن لها مزيد، فقال ما أطيب هذه المثلثة، فقال نعم إلا أنك ربعتها.

سئل جالينوس عن منافع الطيب فقال: المسك يقوى القلب، والعنبر يقوى الدماغ والكافور يصلح الرئة، والعود يقوى المعدة، والغالية تحلل الزكاة، والمثلث ينشف العرق.

وقال ضياء الدين المناوى) فى المسك:

المسك انفس طيب مثل الشباب وزينه
إن كان للطيب عين فالمسك إنسان عينه

وله فى العود:

المندلىّ كريم سقيا له ولغرسه
لما أراد برينا للهند نسبة جنسه
غدا على النار ملقى يجود فيها بنفسه

وقال الشيخ زين الدين ابن الوردى:

تجادلنا أسماء الزهر أذكى أم الخلاف أم ورد القطاف
وعقبى ذلك الجدل اصطلحنا وقد حصل الوفاق على الخلاف

ولبعضهم فى مبخرة:

عطرت مجلسى بنية طيب أعربوا شكلها بحسن البخارى
وإذا اعتل للنسيم بخار اسندوا نحوها صحيح البخارى

وللشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة فيها:

ومبخرة تحكى المتيم فى الهوى تبوح بما تلقاه من شدة الكرب
تقول وقد نمت بعرف بخورها أأكتم ما ألقاه والنار فى قلبى

ولمؤلفه لطف الله به وإن كان غير مقصودنا:

مذ بَاعنى بالآس لا بالبان من أعطافه
حكموا بصحة بيعه مع علمهم بخلافه

وله:

سرحت مشطى سائلا تصحيف قولى غاليه
إن لم تجد برخيصها فالنار منها غاليه

وقال الشيخ جلال الدين ابن خطيب داريا:

حكيت فى اللطف نسج العنكبوت على انى ظهرت لكم من جوهر قاسى
يكاد أن لا يرانى غير ذى نظر من اللطافة إلا طيب أنفاسى

صفة غالية لذيذة يؤخذ مسك جيد جزء وعنبر ربع جزء ومسك جزآن وسنبل الطيب جزء يسحق الجميع ناعما ويعجن بدهن بان ويرفع ويستعمل.

صفة ند له فى تفريح القلب أمر عجيب وفعل بالغ غريب. يؤخذ عنبر جيد فيوضع فى إناء مسطح من نحاس على نار ويصب عليه شىء يسير من ماء ورد ويترك إلى أن يلين ويدعك ويعلق به وزنه مسك جيد ومثل نصف وزنه عود مسحوقا ويدعك دعكا جيدا ويبسط على رخامة ويقطع قطعا ويبخر به فإنه عجيب فى تقوية القلب والقوة وإحداث التفريح.

صفة ذريرة منسوبة إلى جعفر البرمكى وكان كثير التبخير بها فى أكثر ساعات نهاره وليله: يؤخذ سليخة وقرنفل وفاغرة من كل واحد جزء وسنبل الطيب وقسط مر وصندل مقاصيرى وعود وكبابة وفاقلة من كل واحد نصف جزء وزعفران ربع جزء يدق الجميع ناعما ويوضع فى إناء من صينى ويسقى بماء الورد وماء القرنفل والنمام وماء الآس كل يوم مدة ثلاثة أيام، ثم يترك إلى أن يجف ويسحق ناعما ويضاف إليه كافور ومسك ويتبخر به.

نقلت هذه الصفحة من كتاب (مفرح النفس) تأليف الحكيم الفاضل بدر الدين مظفر بن قاضى بعلبك الذى ألفه للأمير الفاضل سيف الدين عمر ابن قزل المشد ـ تغمده الله بالرحمة.

القول فى المروحة: وهى ثلاثة أنواع: مروحة الخيش، ومروحة الاديم، ومروحة الخوص، ومن أحسن ما سمع فيها قول عرقلة:

ومحبوبة فى القيض لم تخل من يد — وفى القر يسلوها أكف الحبائب

إذا ما الهوى المقصور هيج عاشقا — أتت بالهوى الممدود من كل جانب

وقال ابن معقل:

ومروحة اهدت إلى النفس روحها — لدى القيض مثبوتا باهداء ريحها

روينا عن الريح الشمال حديثها — على ضعفه منخرجا من صحيحها

وقال نور الدين على بن صاحب تكريت ولله دره:

يا سائلى عن نسيم طىّ مروحة — أهدت سرورا بترجيع وترويح

أما ترى الخوص أهدى من مراوحه — ما أودعته قديم نسيمة الريح

قلت: وعلى ذكر الخوص فما أحسن ما قاله الشيخ برهان الدين القيراطى فى وصف النوق:

صاح هذى قباب طيبة لاحت — وفؤادى على اللقاء حريص

وتبدت نخيلها للمطايا — فعيون المطى للنخل خوص

قال أبو الفوارس سوار بن اسرائيل الدمشقى (مولد ابن اسرائيل سنة ثلاث وستمائة ووفاته سنة سبع وسبعين وستمائة): كنت عند صلاح الدين يوسف بن أيوب فحضر إليه رسول صاحب المدينة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ ومعه قود[١] وهدايا فلما جلس أخرج من كمه مروحة بيضاء عليها سطران من نساجة السعف الأحمر وقال الشريف لخدم السلطان خذ هذه المروحة فما رايت أنت ولا أبوك ولا جدك مثلها فاستشاط السلطان صلاح الدين غضبا فقال الرسول: لا تعجل بالغضب قبل تأملها وكان صلاح الدين ملكا حليما فإذا فيها مكتوب:

أنا من نخلة تجاور قبرا ساد من فيه سائر الناس طرا
شملتنى سعادة القبر حتى صرت فى راحة ابن أيوب أقرا[٢]

وإذا هى من خوص النخل الذى فى مسجد رسول الله ﷺ، فقبلها صلاح الدين ووضعها على وجهه.

وقال بعضهم فيها:

اننى أجلب الريا ح وبى يذهب الخجل
وحجاب إذا الحبيـ ـب ثنى الرأس للقبل

وأما مروحة الأديم فإنها على نوعين أحدهما مستديرة إلا موضع النصاب لا غير، والأخرى مستديرة، ثم يقطع ربع دائرتها التى تلى الوجه.

وفيها يقول ابن خروف:

ومروحة[٣] إذا ما تأملتها ترى فلكا دائرا باليد
وتطوى وتنشر من حسنها فتشبه قنزعة الهدهد

وأما مروحة الخيش فقد ذكرها الحريرى فى المقامات حيث قال: اسمعوا وقيتم الطيش ومليتم العيش وانشد ملغزا فى مروحة الخيش:

وجارية فى سيرها مشمعلة ولكن على أثر القفول قفولها
لها سائق من جنسها يستحثها على أنه فى الاحتثاث رسيلها
ترى فى أوان القيض تنطق بالندا ويبدو إذا ولى المصيف قحولها

قال الشريشى فى شرح المقامات: هذه المروحة تكون شبيه الشراع للسفينة وتعلق فى

---

(١) القعود: الخيل، أو التى تقاد بمقاودها، كما فى القاموس. اهـ.

(٢) قوله: «أقرا» هكذا وجد فى الأصل. اهـ.

(٣) قوله: «ومروحة...» إلخ، لا يخفى ما فى هذين البيتين.

سقف ويشد بها حبل تدير به مشيها وتبل بالماء ونرش بماء الورد، فإذا أراد الرجل فى القائلة أن ينام جذبها بحبلها فتذهب بطول البيت وتجىء فيهب على الرجل منها نسيم بارد طيب الريح فيذهب عنه أذى الحرّ ويستطيب وهى فوقه ذاهبة وجائية؛ ولذلك سماها جارية.

ومشمعلة سريعة الذهاب وقفولها رجوعها والسائق الشريط الذى يسوقها إذا جذبت به يستحثها يستعجلها ومن جنسها أى هو من كان مثلها رسيلها أى يرسل معها لزاوية البيت، وترجع معها أو إن القيض وقت الصيف وتنطف تقطر، وقحولها يبسها انتهى. كلام الشريشى.

قال الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة: وهذه المروحة محدثة فى زمن بنى العباس وكان سبب حدوثها أن هارون الرشيد دخل يوما على أخته علية بنت المهدى فى قيض شديد فألفاها قد صبغت ثيابا من زعفران وصندل ونشرتها على الحبال لتجف فجلس هارون قريبا من الثياب المنشورة فجعلت الريح تمر على الثياب فتحمل منها ريحا بليلة عطرة فوجد لذلك راحة من الحر واستطابة، فأمر أن يصنع له فى مجلسه مثله على الوجه المشروح فى كلام الشريشى فاشتهرت واستعملها الناس.

ومن ملح ألغاز الصاحب بن عباد فيها قوله لأبى العباس الحارث فى يوم قيض ما يقول الشيخ فى قلبه فلم يفهم عنه أراد فى قلب الشيخ وهو خيش وقال السرى الرفاء:

وخيش كما نجرت ذيول غلائل ... مصندلة تختال فيها الكواعب

وقد اطلعت فيها الشمائل وانشذت ... مقبلة فى جانبيها الحبائب

الباب الثانى عشر
فى الطيور المسمعة

القول على البيغاء وهو طائر هندى وحبشى دمث الخلق ثاقب الفهم له قوة على حكاية الأصوات وتلقى التلقين، تتخذه الملوك فى منازلهم لينم بما يقع فيها من الاخبار، وفى لونه الأغبر والأخضر والأسود والأحمر والأصفر والأبيض، وقد أهديت لمعز الدولة هدية من اليمن فيها ببغا بيضاء سوداء المنقار والرجلين وعلى رأسها ذؤابة فستقية وكل هذه الألوان معدومة خلا الأخضر، وفى طبع هذا الطائر أنه يتناول طعامه برجليه كما يتناول الإنسان الشىء بيده وله منقار معقق يكسر به الصلب وينقب به ما يعسر نقبه، يتزاوج ويتعاشق ويسكن الذكر إلى أنثاه وله عفة فى مأكله ومشربه ومنكحه، ليس بشره ولا أشر وهو بمثابة الإنسان الظريف، والناس يحتالون على تعليمه بأن ينصب له تجاهه مرآة بحيث يرى خياله فيها ويتكلم الإنسان من ورائها فيتوهم أن خياله فى المرآة وهو المتكلم فيأخذ نفسه بحكاية ما يسمعه من صوت الإنسان.

الوصف: كتب أبو إسحاق الصابى إلى أبى الفرج أبياتا فى البيغاء منها (توفى سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة):

زارتك من بلادها البعيدة ... واستوطنت عندك كالقعيدة
ضيف قراه الجوزا والارز ... والضيف فى أبياتنا يعز
تراه فى منقاره الخلوقى ... كلؤلؤ نقط بالعقيق
ينظر من عينين كالفصين ... فى النور والظلمة بصاصين
يميس فى حلته الخضراء ... مثل الفتاة الغادة العذراء
خريدة خدورها الاقفاص ... ليس لها من حبسها خلاص

فأجابه بأبيات منها:

وحسن منقار أشم قان ... كأنما صيغ من المرجان
صيرها افرادها فى الجنس ... بنطقها من فصحاء الانس
يحكى الذى تسمعه بلا كذب ... من غير تغير لجد أو لعب
ذات غشا تحسبه ياقوتا ... لا يرتضى غبير الارز قوتا

كـأنـمـا الحبـة فى منقـارها حـبـابة تطفـو على عـقـارها
أقـدامـهـا بيـأسـهـا الشـديد أوقـعـهـا فـى قـفص حـديد

وهذه المذكورة تسمى فى هذه البلاد الدرة.

ومن ظريف ما سمعته فيها قـول الشيخ الإمام العالم النحوى المفنن زين الدين عمر بن المظفـر أبى الفوارس الـشهـير بابن الوردى رحـمـه الله تعالى ـ فـبيـنما الطاوس مـصغ إلى الياسمين وهو على ما ساقه الذنب على ساقه حزين وإذا بدرة خضراء لا بل درة عذراء تقول أف لطاوس الطيـر من طاوس القراء أيها الطاوس الطـريد المعكوس الشريد شـغلك ظاهر الثـيـاب عن باطن العـيوب إن الله لا ينـظر إلى الثـياب ولكن يـنظر إلى القلوب هلا شـغلت بمداواة أمراضك عن بساتينك وغياضك ولم لا أفنيت عن ملـبوسك وعجبك ليغفر لك الله مـا تقدم من ذنبك شـاركت آدم فى الخـروج من الجنة والاسف عليـها فـشـاركه فى التـوبة والاستغفـار والعودة إليها، على أن آدم خرج من الجنة قهرا ليـزرع فى الأولى ما يحصده فى الآخرة وأما أنا أيها الطاوس فإنى رأيت نفوس البشر أشرف النفوس كرّمهم الرب وفضلهم وخلق الموجودات لهم فـشاركتهم نطقا ورزقا ونادمـتهم ونديم السعداء لا يشقى فـسبحان من بيده الخـير المؤلف بين البشـر والطير ومن أعجب أحوالى أن الـصمت محمود أفـعالى لأنى طائر ضعيف ولا اقاس على البشر فى التكليف:

غـائـب فى القـلب حـاضـر كـاسـر للصب جـابـر
أنـا من خـوف جـفـاه واقـع والـقـلـب طـائـر
أنا بـالمـحـبـوب فـخـرى فـانتـصب يـا من يفـاخـر
أنـا مـن جـودة فـكـرى عـرفت باسـمى الجـواهر
هـا أنا الـدرة فـاعـرف قـيـمـتى إن كـنت تاجـر

القول على الـقمرى: سـمى بذلك لبياضـه وحكاية صوته وهو يضـحك كمـا يضحك الإنسان ومن طبعه أنه شديد المودّة والرحمة.

أما مودته فـإنه يفرخ على فنن من أفنان شجرة كلهـا اعشاش لابناء جنـسه يصاحـبها كل يوم ولا يعتزل اعتزال الغراب.

وأمـا رحمـتـه فـإنه يربى ولده ويعف عن انثـاه مـا دام ولده صغـيـرا، وهو يطاعم انثاه وتطاعمه ويظهر منه عليها، وله وفيه من المروءة أنه متى تزوج لا يبتغى بانثاه بدلا.

وله اعتناء بنفـسه واعجـاب بها ومن عادته أنه يـعمل عشـه فـى طرف فنن دائم الاهتزاز احترازا على فرخيه ليلا يسعى إليه من الحيوان الماشى ما يقتلها.

الوصف قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ملغزا فيه:

ما معمى رأيته * فى عداد المطير * كم له من مترجم * كم له من مشجر

كم له من كآبة * ظهرت بالتدبر * كم خواف له بدت * لا لتماح المبصر

كله معجم وان * زال بعض له قرى

ذكرت بقوله كم خواف له ما أنشدنيه من لفظه لنفسه ونقلته من خطه المعز الاشرف المرحوم أوحد الدهر ونخبة العصر القاضى أمين الدين محمد الانصارى صاحب ديوان الانشاء بالشام المحروس من قصيدة امتدح بها المعز الصاحب المرحوم فخر الدين عبد الرحمن بن مكانس ناظر الدولة الشريفة بالديار المصرية سامحه الله تعالى أولها:

جفون من تأرقها دوامى ... مدامعها تفيض على الدوام

ويقول فى آخرها:

قوادمها ينرن ولن عنه ... خواف تحت أجنحة الظلام

وقال السيخ برهان الدين القيراطى:

تنفس الصبح فجاءت لنا ... من نحوه الانفاس مسكيه

واطربت فى العود قمرية ... وكيف لا تطرب عوديه

وأنشدنى سيدى القاضى شهاب الدين ابن حجر فسح الله فى أجله من لفظه لنفسه بتاريخ ثالث عشر ربيع الأول من شهور عام اثنين وثمانمائة بالقاهرة المحروسة بمنزله عمره الله ببقائه بحارة بهاء الدين:

تخيرت رسلا سرنا عندهم خفا ... اليكم وتلك الرسل فهى الحمائم

إذا قدمت منى عليكم فبا لها ... خوافى سر حملتها قوادم

وأما الفاخت فهى عراقية ولبست بحجازية وفيها فصاحة وحسن صوت وصوتها فى الحجازيات يشبه صوت المثلث وفى طبعها تأنس بالناس وتعشش بالدور وهذا الحيوان يعمر وقد ظهر منه ما عاش خمسا وعشرين سنة وما عاش أربعين سنة على ما حكاه أرسطو.

الوصف: أنشدنى من لفظه لنفسه إجازة أوحد المتكلمين العالم المفنن فريد الدهر المرحوم القاضى أمين الدين الأنصارى صاحب ديوان الانشاء الشريف بالشام المحروس ملغزا فى فاختة:

وما طائر يهوى الرياض تنزها ... ويسرح فى أفنانها ويغرد

هجاء اسمه خمس حروف تعدها ... وخمساه حرف إن تأملت مفرد

وبعدهما تصحيف باقية إن ترد ... بيانا له أفعى يبين ويشهد

وفـيـه أخ ان تهـت عنه فـأخـتـه ... تدل علـى مـا قـد عـنيت وترشـد

قلت: أنشأت هذا اللغز الظريف التركيب للشيخ العلامة بقية السلف الصالح زين الدين أبى بكر بن عثمان الشهير بابن العجمى بمنزله بمدرسة الكاملية بشارع بين القصرين عند ارتحالى فى أوائل سنة خمسة وتسعين وسبعمائة فأجاب بهذه الأبيات:

أيا مـن له مـجـد أثيل وسـؤدد ... غـدا دون مـرمـاه سـمـاك وفـرقـد

تفـيـد بـسـار المـقـتـرين يمـينه ... ويسـراه من يمنى الغـمـامـة أجـود

سـؤالك عن أنـثى طروب ولم تزل ... على عودها فى الروض تشدو وتنشد

وتجـذبنى بالـطوق حـين نشـيـدها ... لنحـو التـصـابى لا أطيـق أفند

يطيـر بهـا نحـو الـنجـاح جناحـهـا ... فـتـبلغ مـا تخـتـار ثم وتقـصـد

وفى بطـن انثى لم تصـور وإنمـا ... تصـورها من جنسـهـا من يـرفـد

تذكـرنى تدركـاها أم هـانئ ... فـتـشـرف فى نفـسى إذا وتمـجـد

ومذ بان منها الطرف أمست بعكـسها ... تخـاف الردى مـمـن لهـا يتـرصـد

وإن حـذفت ثانى الاخـيـر فـإنه ... على الحذف خاف بل يلوح ويشـهد

وأولهـا مع مـا يليـه وطرفـهـا ... لنا فـاه بالمـعنى الذى منه يقـصـد

وحـرفـان منهـا فـرد حـرف لناطق ... واف لمن للعكس من ذاك يجـحد

وتفـتح فـاها حـين يفـقـد ثالـثـا ... وثالثـه يـخـشـاه من يتـصـيـد

فـخذه مـبينا مغـضـيا عن اساءتى ... فـإنك للإحـسـان أهل ومـقـصـد

بقـيت بقـاء الدهر عـزك باذخ ... وفى مـفـرق الجـوزا لواءك يعـقـد

ولا زلت فى الدنيـا سعـيدا مـملكا ... خطك فى الآخـرة النعـيم المـخلد

وأما الشعين وهو الذى تسميه العامة اليمام وصوته فى الترنم كصوت الرباب فى الاوتار صوتا محزونا جدا وهى متى اختلطت مع أصواتها غيرها حسنت وأما مفردة فلا لأن الزأر مستحسن مع الغناء وغير مستحسن وحده.

وفى طبعه أنه متى فقد انثاه لم يزل عـزبا يأوى إلى بعض فراخه حتى يموت، وكذلك الانثى إذا فقدت الذكر.

وفى تركيبه أنه إذا سمن سقط ريشه وامتنع من السفاد فهو لذلك لا يشبع نفسه.

وهو طائر ساكن جدا وقد ألهم أنه يحترس من أعدائه بالسوسن يتخذه فى وكره.

الوصف: ولنذكر الآن ما وقع للشعراء فى أصواتهن جملة لا تفصيلا فمن ذلك قول الحسام الحاجرى (توفى مقتولا سنة اثنتين وثلاثين وستمائة):

أنى لا أعذار فى الاراك حمامة الشـ ـشادى كذلك تفعل العشاق

حكم الغرام الجاجرى بأسرها فغدت وفى أعناقها أطواق

قال القاضى الفاضل:

لو كنت جاوبت الحمائم نائحا قال الوشاة اذاع سرك بائحا

سل طائرا صدع الفؤاد بسحره أتراه غرد صادعا أم صادحا

يا ضعف من أمسى الفريسة فى الهوى وغدا الحمام له هنالك جارحا

وقال المنارى:

لقد عرض الحمام لنا بسجع إذا أصغى له ركب تلاحا

شجى قلب الخلى فقيل غنى وبرح بالشجى فقيل ناحا

قلت: وبعد هذين أبيات فلا بأس بذكرها وإن لم يكن مما نحن فيه:

وكم للشوق فى أحشاء صب إذا اندملت أجد لها جراحا

ضعيف الصبر عنك وان تقاوى وسكران الفؤاد وان تصاحا

كذاك بنو الهوى سكرى صحاة كأحداق المهى مرضى صحاحا

قلت: ولهذه الأبيات حكاية غريبة نقلتها من خط الحافظ اليعمورى (ولد سنة ستمائة وتوفى سنة اثنتين وسبعين وستمائة) روى أن أبا نصر المنارى المذكور واسمه أحمد بن يوسف دخل على أبى العلاء المعرى وهو فى الشام فى جماعة من الادباء فأنشده كل واحد من شعره ما تيسر حتى أنشده المنارى أبياتا له فى وصف واد وهى:

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم

نزلنا دوحة فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم

وأرشفنا على ظمأ زلالا أرق من المدامة للنديم

يصد الشمس أنًا واجهتنا ويحجبها ويأذن للنسيم

تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

فقال أبو العلاء: أنت أشعر من بالشام، ثم رحل إلى بغداد فدخل المنارى عليه فى جماعة من أهلها من الادباء وأبو العلاء لا يعرف منهم أحدا فأنشده كل واحد ما حضره من شعره حتى جاءت نوبة المنارى فأنشده لنفسه الابيات المتقدمة فقال أبو العلاء ومن بالعراق اشارة إلى قوله من بالشام (توفى المنارى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة).

وقال الشيخ صفى الدين الحلى:

وبشرت بوفاة الليل ساجعة كأنها فى غدير الصبح قد سبحت
مخضوبة الكف لا تنفك نائحة كأن افراخها فى كفها ذبحت

وقال محيى الدين بن عبد الظاهر:

نسب الناس لحمامة حزنا واراها فى الحزن ليست كذلك
خضبت كفها وطوقت الجيد وغنت وما الحزين كذلك

وقال جمال الدين محمد بن نباتة:

ما لى نديم سوى ورقاء ساجعة من بعد مغتبقى فيكم ومصطبحى
إذا أدار ادكار الوصل لى قدحا من أحمر الدمع غنانى على قدحى

ولـــه:

ناجتك من مغنى دمشق حمائم فى دف أشجار تشوق لطفها
فإذا أشار لها النديم بلطفه غنت عليه بجتكها وبدفها

وقال علاء الدين الوداعى:

وفى أسانيد الاراك حافظ للعهد يروى صبره عن علقمه
وكلما ناحت به حمامة روى حديث دمعه عن عكرمه

وقال بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى:

ونبهت ذات الجناح بسحرة بالواديين فنبهت أشواقى
ورقاء قد أخذت فنون الحزن عن يعقوب والألحان عن إسحاق
قامت تطارحنى الغرام جهالة من دون صحبى بالحمى ورفاقى
انا تبارينى جوى وصبابة وكآبة وأسى وفيض مآقى
وأنا الذى أملى الهوى عن خاطرى وهى التى تملى من الاوراق

وقال ناصح الدين الارجانى (ولد سنة ستين وأربعمائة، وتوفى سنة أربعين وخمسمائة):

من كل أخطب مبكى الاهاب له فى منبر الايك تسجاع وتهدار
خطيب خطب وقد أفنى السواد به فمن بقيته فى الجيد ازوار

قلت: وأنشدنى من لفظه لنفسه الشيخ عز الدين الموصلى ـ رحمه الله تعالى:

مـذغنت الورق على عيـدانهـا ... كم خلع الجـو عليـهـا مـن ملح
تدرعت سـحبا وخـاضت شـفقا ... وطوقت أعـناقـهـا قـوس قـزح

وقال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر:

ذات طـوق وذات ربـق تـغـنـى ... فـتـثنـى بالوجـد من لـيس يدرى
زيقـت ثم كـاشـفـتنا فـقلنا ... لـك زيق وزيـق بالـقـفـر
مـا نراها قـد حـدثـت خـاطر النهـ ... ـربمـا قـد جـرى ومـا منه يجـرى

وأنشدنى من لفظه لنفسه سيدى وأخى تقى الدين أبى بكر بن حجة:

ناحت مطوقـة الرياض وقـد رأت ... دمـعى تلون بعـد فـرقـة حبـه
لكـن بتلويـن الدمـوع تبـاخلـت ... فـغـدت مـطوقـة بـمـا بخلـت به

وقال الشيخ بدر الدين بن الصاحب:

ناحت حـمـام البـان أم تاهت أسى ... لم أدر مـا غنـاؤها من شـوقـهـا
عـجمـاء لا تظهر حـرفا من شـجى ... لأنهـا مـخنوقـة بطوقـهـا

وقال أيضا:

وذات طوق على الاغصان تذكرنى ... قـوام حسنك فى ضـمى لمعتنقك
قد سـودت مهجتى نوحـا فقلت له ... سـواد قلبى يا ورقـاء فى عـنقك

وقال الأمير مجير الدين بن تميم:

لم أنـس قـول الورق وهى حبيسة ... والعيـش مـنهـا قـد أقـام منـغصـا
قد كنـت ألبـس أخضرا مـن أغصن ... فلبـست منهـا بعـد ذاك مـقـفـصـا

وقال الامير سيف الدين المشد فى قفص:

أنـا لـلـطـائـر سـجـن ... اقـتـنى كـل مـليـح
قـضـب البـان ضـلوعى ... وحـمـام الأيك روحـى

وله على لسان الطائر:

يا غـصـون البـان مـاذا ... بلـغ الاحـبـاب عنـى
مـا شـجـاهـم طول نـوحى ... مـا كـفـاهـم فـرط حـزنى
حـبـسـونى عن مـطارى ... لا لـمـعـنـى ولـفـن
غـيـر انـى كنت مـنهـمـا ... بـشـرب الـراح أغـنـى

ولمؤلفه لطف الله به من قصيدة:

حمام الايك أسعدنى فإنى خلف تبريح
وحزنى حزن يعقوب فأبكى الصب أو نوحى

وأما الديك فما ورد فيه أن النبى ﷺ قال: الديك الأبيض صديقى وعدوّ عدوّ الله يحرس دار صاحبه وسبع دور حوله وكان يبيته معه، وزعم أهل التجربة أن الرجل إذا ذبح الديك الابيض الافرق لم يزل ينكب فى أهله وماله.

قيل: والفرخ يخلق من البياض والصفرة غذاؤه، وقيل ليس فى الدنيا أبخل من أهل مرو حتى إن الديك ينزع الحبة من أفواه الدجاج مع أن العادة خلاف ذلك وكأن ماء مرو يقضى ذلك فيسرى فى جميع حيوانها.

كان مروان ابن أبى حفصة من أبخل الناس مع يساره وما أصابه من الخلفاء لا سيما من بنى العباس فإنه كان رسمه أن يعطوه لكل بيت يمدحهم به ألف درهم.

قال دعبل: كنت عنده فى بعض الأيام أنا وجماعة فأخذنا فى الحديث وطال المجلس حتى أضر به الجوع فدعا بغداء فأتى بصحيفة فيها مرق ولحم ديك قد هرم لا تجز فيه السكين ولا يؤثر فيه ضرس فأخذ قطعة من خبز فحسا بها جميع المرق وفقد رأس الديك فبقى مطرقا ساعة ثم رفع رأسه إلى الغلام فقال له أين الرأس فقال رميت به قال ولم قال لم أظنك تأكله قال ولم ظننت ذلك والله إنى لامقت من يرمى برجله فضلا عن رأسه والرأس رئيس وفيه الحواس الخمس ومنه يصيح الديك وفيه عيناه التى يضرب بها المثل فيقال شراب مثل عين الديك ودماغه عجب لوجع الركبة فإن كان بلغ من جهلك أن لا تأكله فعندنا من يأكله فانظر أين هو، قال والله لا أدرى أين رميت به، فقال لكن أنا أدرى أين رميت به... فى بطنك.

وكان أيضا لا يأكل اللحم حتى يجوع فإذا جاع أرسل غلامه فاشترى له رأسا فأكله فقيل له لا نراك تأكل إلا الرءوس فى الصيف والشتاء فلم تختار ذلك فقال نعم الرأس أعرف سعره فلا يستطيع الغلام أن يخوننى فيه وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه إن مس عينا أو أخذ أذنا وقفت على ذلك وآكل منه ألوانا شتى، آكل عينيه لونا وأذنيه لونا ودماغه لونا ولسانه لونا فقد اجتمعت لى فيه مرافق.

نادرة: قال أبو حاتم الاصمعى قدمت بغداد فدخلت مسجدا يحضره جماعة فسألنى

بعضهم عن قوله تعالى: ﴿قوا أنفسكم﴾[1] ما يقول للواحد قلت «قِ» قال فالاثنين قلت «قيا» قال فللجماعة قلت «قوا» قال فاجمع الثلاثة ذات قِ قيا قوا وفى ناحية المسجد جماعة فمضوا إلى صاحب الشرطة فقالوا له إن هنا قوما زنادقة يفسرون القرآن على صياح الديك فما شعرنا الا باعوان فأحضرونا بين يديه فأعلمته ما سئلت فعنفنى وأمر بضرب أصحابى عشرة عشرة.

وما أحسن قول بعضهم فيه:

قد قلت شعرا مليحا ... فسره لى يا مليكى

اكلت ديكا وديكا ... وليس لى غير ديك

وقال ابن المعتز فيه (مولده سنة سبع وأربعين ومائتين، ووفاته سنة ست وتسعين ومائتين):

بشر بالصبح طائر هيفا ... مسترقيا للجدار مشترفا

مذكرا بالصبوح صاح بنا ... كخاطب فوق منبر وقفا

صفق اما ارتياحة لسنا الصب ... ح واما على الدجى أسفا

ولله أبو على ابن رشيق (توفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة) حيث مزق عنه جلباب الممادح وتركه من شمل الذم فى الزى الفاضح فإنه قال:

قام بلا عقل ولا دين ... يخلط تصفيقا بتأذين

فنبه الاحباب من نومهم ... ليخرجوا فى غير ما حين

بصرخة تبعث موتى الكرى ... قد أذكرت نفخ سرافين

كأنها فى خلفه عضة ... أعضه الله بسكين

وقال الشيخ زين الدين بن الوردى من رسالة منطق الطير فصاح الديك ها أنا أناديك أنا قد أذنت فأقم الصلاة أنت هذا أوان صف الاقدام ووضع الحياة ومن أحسن قولا ممن دعى إلى الله كم أوقظك وبانقضاء الأوقات أعظك فأشفق عليك بصياحى وأرفرف عليك بجناحى أقسم لك الوظائف بلا حساب وأعرف المواقيت بغير الاصطرلاب أنهاكم عن معصية الله بخروج الوقت فلا تعصوه والله بقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فمن ادعى حسن الصحبة، فليؤثر كإيثارى ولا يختص من رفاقه بحبه كم منحت أهل الدار اخائى وولّيتهم ولائى وهم يذبحون أبنائى ويستحيون نسائى.

---

(١) الآية: ٦ من سورة التحريم.

الباب الثالث عشر

فى الشطرنج والنرد وما فيهما من محاسن مجموعة

قال الشيخ شمس الدين خلكان فى تاريخه رأيت خلقا كثيرا يعتقدون أن الصولى هو واضع الشطرنج وهو غلط وإنما واضعه صصه بصادين مهملتين أحدهما مكسورة والثانية مشددة مفتوحة وفى الآخر هاء ساكنة وأدزشير بن بابك أول ملوك الفرس الاخيرة هو الذى وضع النرد ولذلك قيل النردشير نسبوه إليه وازدشير لفظ عجمى تفسيره بالعربى دقيق وحليب فأزد دقيق وشير حليب وقيل دقيق وحلاوة وقيل هو بالزاى لا بالراء وضعه مثالا للدنيا وأهلها فرتب الرقعة اثنى عشر بيتا بعدد شهور السنة والمهارك ثلاثين قطعة بعدد أيام الشهر والفصوص مثل الافلاك ورميها مثل تقبلها ودورانها والنقط فيها بعدد الكواكب السيارة كل وجهين منها سبعة الشش ويقابله إليك والبنج ويقابله الجو والجهار ويقابله السا وجعل ما يأتى به اللاعب من النقوش كالقضاء والقدر والجهار تارة له وتارة عليه وهو يصرف المهارك على ما جاءت به النقوش لكنه إذا كان عنده حسن نظر عرف كيف يتأتى وكيف يتحيل على الغلب وقهر خصمه مع الوقوف عندما حكمت به الفصوص.

ولما تم وضعه واشتهرت افتخرت به الفرس وكان ملك الهند يومئذ بلهيث فوضع له صصه المذكور الشطرنج فقضت حكماء ذلك العصر بتفضيله على النرد ولما عرضه على الملك وأوضح له أمره سأله أن يتمنى عليه عدد تضعيف بيوته قمحا فاستصغر الملك ذلك من همته وأنكر عليه ما قابله من النزر القليل فى ذلك فقال له ما أريد غير ذلك فأمر له بذلك فلما حسب أرباب الديوان ذلك قالوا للملك ما عندنا ما يقارب القليل منه فأنكر ذلك . فاوضحوا له بالبرهان فاعجبه الامر الثانى أكثر من الأول.

قال القاضى شمس الدين بن خلكان ولقد كان فى نفسى حزازة من هذه المبالغة حتى اجتمع بى بعض حساب الاسكندرية وذكر لى طريقا يبين لى ما ذكروه وأحضر لى ورقة بصحبة ذلك وهو أنه ضاعف الاعداد إلى البيت السادس عشر فاثبت اثنين وثلاثين ألف وسبعمائة وثمانية وستين حبة وقال نجعل هذه الجملة مقدار قدح وقد عبرتها فكان الامر

كما ذكروه والعهدة عليه فى هذا النقل ثم ضاعف السابع عشر إلى البيت العشرين فكان فيه وية ثم انتقل من الويبات إلى الاردب ولم يزل يضعفها حتى انتهى فى البيت الاربعين إلى مائة ألف اردب وأربعة وسبعين ألف اردب وسبعمائة اثنين وستين أردبا وثلثى أردب وقال فى هذا المقدار شونة ثم ضاعف الشون إلى بيت الخمسين فكانت الجملة الفا وأربعة وعشرين شونة ثم قال هذا المقدار مدينة ثم إنه ضاعف إلى البيت الرابع والستين وهو آخر الأبيات فكانت الجملة ستة عشر ألف مدينة وثلاثمائة وأربعا وثمانين مدينة وقال يعلم أنه ليس فى الدنيا مدن أكثر من هذا العدد انتهى.

قال أبو عبد الله محمد بن الاكفانى إذا جمع هذا هرما واحداً مكعبا كان طوله ستين ميلا وعرضه كذلك وارتفاعه كذلك بالميل الذى هو أربعة آلاف ذراع بالعمل الذى هو ثلاثة أشبار معتدلة على أن الاردب المصرى مساحته ذراع مكعب وزنه مائتان وأربعون رطلا وكل رطل مائة وأربعة وأربعون درهما والدرهم أربعة وستون حبة من القمح.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد ذكر عنده الشطرنج إنى لأعجب من ذراع فى ذراع يديرها الحكماء مذ وضعت لم يقفوا لها على غاية.

قيل سبب وضع الشطرنج أن ملوك الهند ما كانوا يروا القتال فإذا تنازعوا فى كورة أو مملكة تلاعبا بالشطرنج فيأخذها الغالب من غير قتال.

ذمها: ذكر الصولى فى كتابه كتاب شعراء مصر أن خرسان الشاعر كان حاذقا بلعب الشطرنج فعابها الحسين الجمل مكائدة له فقال صاحبها أبدا مشغول بهموم يحلف بالله كاذبا يعتذر مبطلا ويشتم نفسه ويسخط ربه وكل صناعة يجوز المكاثرة فيها غيرها فإن صاحبها يغلب فى ساعة فيقضى دعواه وهو لعب الصائم إذا جاع والعامل إذا عزل والمخمور حتى يفيق وإنما يهزم خشب خشبا ثم إن الرجل يسأل عن غلامه فيقال له هو يلعب فيضربه ولا يستحى أن يقول قم حتى نلعب وهو يلاعبه وأن تقول فى الكناس ما أحذقه وفى الطنبور ما أضربه وإذا اعترف عن الشطرنج قلت ما ألعبه فما يقول فى صناعة العبارة عن الكناس أحسن من العبارة عن صاحبها.

قال الجاحظ: سمعت النظام يقول فى الشطرنج غنيان عجزا عن الادب فتلاعبا بالخشب.

دخل أبو العبيس على أبى تمام وهو يلعب بالشطرنج وكان وسخا فقال ما أوسخ هذا الشطرنج فقال أبو تمام واللعب أوسخ.

نادرة: حكى أن بعضهم كان إذا لعب الشطرنج ضرب خصمه فوصف لبعض الظرفاء فقال أنا ألتزم اللعب معه وما يحصل بيننا ضراب فلما أتى به ولعبا قال له فى أثناء اللعب شاه استر فقال مليح ياشه القرنان أنت والقواد أنت فقال يا أخى ما الذى قلت لك قال قلت استر وهى اشتر وما يشتر إلا الجمل والجمل تصحيفه حمل والحمل اسم نجم فى السماء يقاربه الجدى والجدى كبش والكبش القرنان والقرنان هو الذى يقود فقال يا أخى ما رأيت من يضارب بتصحيف وتفسير الا أنت.

نادرة: سأل بعض الاكابر انسانا فقال تعرف اللعب بالشطرنج فقال لا والله يا مولانا ولكن لى أخ اسمه عز الدولة وهو أخى لامى أكبر منى بسنتين وأكبر بشىء يسير كان قد حصل بينى وبينه خصومة غاظته فسافر من مدة عشرة أعوام وسكن مدينة قوص وبلغنى أنه فتح له دكان عطر وإلى الآن ما ورد على المملوك منه كتاب وهو أيضا ما يعرف يلعب الشطرنج.

ومشى البيدق البريدى مع شاب موسوم بالجمال فقال شمس الدين المنجم الشاعر أراك يا بيدق تفرزن حول هذا النفس، فقال له وإذا كان ذلك فقال أخشى عليك من ذلك الرخ لا يقطعك من الحاشية ويرميك عن الفرس ويقطع عليك الرقعة ولو كان فى كفيك الفيل يشير بقوله ذلك الرخ إلى أحد الاعيان كان يحب الشاب المذكور.

نادرة: بعض الأجناد كان كثيرا يعلب الشطرنج مع مخدومه وكان الجندى خليعا فأعطاه الامير فرسا وقال له لا تفرط فيها قال نعم وبعد ذلك الفاه راجلا وهو لابس جوخه قال ويلك أين الفرس فقال يا سيدى ضربنى الشاشاه مات سترت بالفرس.

وما أحسن قول القاضى الفاضل يصف حصار قلعة وجثا المنجنيق يحاكمها ولسان حبله يخاصمها والخادم تحت المنجنيق الإسلامى يعرض وجهه للمنجنيق الفرنجى ونقل قطع الستائر نقل قطع الشطرنجى جنب التراس بيادق والجنابى رخاخ وجنب القلاع صيد والمنجنيقات فخاخ.

وقال الشيخ جمال الدين ابن نباتة وظرف:

أشكوا السقام وتشكو مثله امرأتى	فنحن فى الفرش والاعضاء نرتج
نفسان والعظم فى نطع يجمعنا	كأنما نحن فى التمثيل شطرنج

وله ملغزا فيه:

وما صامت يمضى ويرجع حائرا ... ويقضى على أوصاله الوصل والصد
كأن الاسى آلى عليه إليه ... فما فيه إلا النفس والعظم والجلد
وأحرفه خمس على أن شطره ... ثلاث أخماس الحروف التى تبدو

وله فيمن يلعب غائبا:

ولاعب يعرب شطرنجه ... عن ذهنه المتقد الصائب
يغيب لكن ذهنه حاكم ... يا حبذا من حاكم غائب

وله:

لله فى الشطرنج فكرة لاعب ... إن غاب أو حضر اجتنيت حدايقه
شكرته نفس اللعب أو نفس النهى ... هاتيك صامتة وهذى ناطقه

وقال الشيخ بدر الدين بن الصاحب:

تأمل تر الشطرنج كالدهر دولة ... نهارا وليلا ثم بؤسا وأنعما
محركها باق ويفنى جميعها ... وبعد الفنا تحيى وتبعث أعظما

قلت: وهذا يشبه قول القاضى الفاضل وقد أخرج له السلطان الملك الناصر صلاح الدين من القصر من يعانى خيال الظل ليفرجه فقام الفاضل فقال له صلاح الدين إن كان حراما فما نحضره وكان حديث عهد بخدمته قبل أن يلى السلطنة فما أثر أنه ينكدر عليه فقعد إلى آخره فلما انقضى ذلك قال له السلطان كيف رأيت ذلك فقال موعظة عظيمة رأيت دولا تمضى ما كأنها كانت ودولا تأتى ولما طوى الازار طى السجل للكتاب إذا بالمحرك واحد فأخرج هذا الجد فى هذا الهزل.

وللشيخ بدر الدين أيضا مضمنا:

أميل لشطرنج أهل النهى ... وأسلوه من ناقل الباطل
وكم هذبت طبع لعابها ... وتأبى الطباع على الناقل

وقال:

لعبت بالشطرنج فى غاية ... تقصر الاوصاف عن حدها
إن صاح فى الاقران لى بيدق ... تموت منه الشاة فى جلدها

وقال أيضا وكان يلعبها غائبا وله يد طولى فيها:

لـى فـى الـشـطـرنـج نـقـل أتـقن الادمـان حـفظه
ألـعب الـغـائب منهـا فـأراه طيـف يـقـظـه

وكتب إلى شيخنا العلامة عز الدين الموصلى من حماة المحروسة كتابا وفيه من المتجددات قوله مضمنا:

جـاهل شطرنج ينادى وقـد أمـات نـفس اللعب من عكسـه
مـا تفـعل الأعـداء فى أحـمق مـا يفـعل الجاهـل فى نفسـه

وقال جمال الدين ابن نباتة:

افديه لاعب شطرنج قد اجتمعت فى شكله من معانى الحسن أشتات
عـيناه منصـوبة للقلب غـالبـة والخد فيه لقتل النفس شامات

وقال صلاح الدين الصفدلى:

ألاعب بالشطرنج بدر ملاحـة محاسنه تزهى على طلعة الشمس
سـترت ضنا جسمى فلما رأيته يروم قطاعى خفت منه على نفسى

وقال زين الدين بن الوردى:

لاعـبت بـالشـطرنـج من أضـحى كـشـمس طالعـه
نـفـسى بـه مـاتـت ومـا تعـجبنى المـقـاطعـه

ومن الاستشهادات اللطيفة ما أنشده الشيخ نور الدين على بن سعد المعرى صاحب المرقص والمطرب وغيره وقد رأى شخصًا يلعب الشطرنج ويضرب بالرقعة القطع ضربا عنيفا فقال:

رفـقـا بهـن فـمـا خلقن حـديدا أومـا تـراها أعظمـا وجلودا

قلت: وهذا البيت أول قصيدة للشريف البياضى فى وصف النوق ولقد أجاد نور الدين رحمه الله تعالى.

وعلى ذكر نور الدين فما أحسن ما كتب به إلى القاهرة المحروسة سيدنا ومولانا الفاضل المؤرخ المحدث المفنن شهاب الدين أحمد بن القاضى نور الدين على الشهير بابن حجر (مولده سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة) فسح الله فى أجله وذلك من بعض متجدداته:

مـولاى نور الدين صبـحك الهنا | بسعادة تبقى لديك سرورها
لا تحتجب عن مقلتى فأنا امرء | إن لم تكن عينى فإنك نورها

ونقلت من خط الشيخ بدر الدين أبى المحاسن محمد بن إبراهيم اليشتكى أحد فضلاء الديار المصرية وبقية متأخريها ـ سلمه الله تعالى ـ فى القاء العاشر من الشطرنج على قاعدة الحكاية المشهورة ولم أعلم الضابط فى هذه الاعداد جميعها له أم لغيره وأنسيت أن أسأله:

موت عدوى بزين حزمى | وألحق سيف به قتالى | (القاء التاسع)
ولما فتنت بلحظ له | عذرت فما خفت من شامت | (القاء الثامن)
أبثك يا عز شوقى لعل | تمنى بعطف به راحتى | (القاء السابع)
يا مليح بت شاكى بثه | ومتى رق ظلوم لشكى | (القاء السادس)
إن كان فى صدك قتلى فقد | أنا لنى فقد أحبابى | (القاء الخامس)
تنكر فى حبه جائرا | فبات وفوه يبث الحرق | (القاء الرابع)
وفاتن منظره فتنة | ليس يرى حرف الجفا عاشقة

اللام ألف بحرف واحد.

قال المنقول من خطه أنشدنى من لفظه لنفسه صاحبنا جلال الدين ابن خطيب داريا سلمه الله تعالى ـ فى القاء الثالث.

بك يا خير منجد يحجب الغـ | ـى إذ اقيل أى حر تصيد

وقال القاضى السعيد ابن سنا الملك:

ويوم مطير قد ترنم رعده | وصفق لما أحسن القطر فى
ورقعة ماء تحت برد فواقع | الرقص

وقال الشيخ شمس الدين ابن الصائغ (ولد سنة عشر وسبعمائة، وتوفى سنة ست وسبعين وسبعمائة):

لما غدا بدر الدجى لاعبا | بالنرد يلقى الفص مثل الشرك
وفاق فى الحسن وفى لعبه | ناديت بالله ما أقمرك

وقال زين الدين بن الوردى:

مهفهفان لعبا | بالنرد أنثى وذكر
قالت أنا قمرية | قلت اسكتى فهو قمر

ولبعضهم يورى باعداد النرد:

ســاعــدنى جــارى عــلى شــادن أعطيـنـــه خـمـــسا بمـقـدار
فـــمـــا تـأتى إلـيك مـن بكـه الا بـهـــذا انـنـج والـجــــار

فى القاء الخامس من قطع النرد من نظم الشيخ صلاح الدين الصفدى:

لا تـبك إن هـب ريـح نـجــــد انـك يـا بـش مـــــا بـلـيت

اللام ألف حرفان.

وله فى القاء السابع:

قـــد رد شـــانـى بكل شـــين عـدمت فـى ذا صـلاح خـبـرى

الباب الرابع عشر
فى الشمعة والفانوس والسراج

من رسالة للإمام ضياء الدين محمد بن نصر الله الجزرى المعروف بابن الاثير (مولده سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، ووفاته سنة سبع وثلاثين وستمائة) وكان بين يدى شمعة تعم مجلسى بالإيناس وتغنى بوجودها عن كثرة الجلاس وينطق لسان حالها أنها أحمد عاقبة من مجالسة الناس ولا الاسرار عندها بملفوظة ولا السقطات لديها محفوظة وكانت الريح تلعب بلهبها وتخلف على شعبة بشعبها فطورا نقيمه فتصير أنمله وطورا تمله فتصير سلسله وتارة تجوفه فتصير مذهنه وتارة تجعله ذا ورقات فيتمثل سوسنه وآونة تنشره فتصير منديلا وآونة تلفه على رأسها فيستدير اكليلا ولقد تأملتها فوجدت نسبتها إلى الفص العسلى وقدها قد العسال وبها يضرب المثل للحكيم غير أن لسانها لسان الجهال ومذهبها مذهب الهنود فى احراق نفسها بالنار وهى شبيهة بالعاشق فى انهمال الدمع واستمرار السهر وشدة الاصفرار وكل ذا تجدد لها بعد فراق أخيها ودارها والموت فى فراق الاخ والدار.

وقد نزع هذا المنزع فى رسالة أخرى فقال وذلك أن لها قد ألفى القوام مشبها فى نحوله واصفراره بحال المستهام وهى والقلم شيئان فى انها إذا قطع رأسهما صحا بعد السقام ومن عجيب شأنها أن روحها تحيى بفناء جسمها وبالارواح تكون حياة الاجسام وقد وصفها قوم بأن لها خلقا كريما فى رعاية حقوق الاخوان وإن بكاها ليس إلا لمفارقة أخيها الذى خرجت معه من بطن ونشأت معه فى مكان وهذا الوصف من ألطف أوصافها وهو مما يزيد الاحباب وجدا بأحبابها ويهيج الآلاف شوقا إلى آلافها وكانت الريح تلعب بلهبها لدى الخادم فتسلطه هلالا فتارة تبرزه نجما وتارة تبرزه هلالا ولربما سطع طورا كالجلنارة فى تضاعف أوراقها وطورا كالاصابع فى انضمامها وافتراقها وآونة تأخذه فتلقيه على رأسها كالقناع ثم ترفعه عنها حتى تكاد تزاوله بذلك الارتفاع ثم قال بعد ذلك كلاما ليس فيه تشبيه فكما كانت الريح تلعب بالشمعة فتنقلها من مثال إلى مثال كذلك الشوق يلعب بالقلب فينقله من حال إلى حال، وهذا الوصف وإن مد باعه لمعانقه الابداع، وأودع اسرار المعانى

فى صدور الالفاظ فصانها بالايداع مأخوذ من موضعين أحدهما من قصيدة الارجانى والآخر من كلام أبى محمد عبد الله ابن أبى الخصال فإنه مذكور فى آخر هذا الباب عند ذكر السراج.

أما قصيدة الارجانى فهى:

نمت باسرار صبح كان يخفيها ... وأطلعت قلبها للناس من فيها
قلب لها لم يرعنا وهو مكتمن ... إلا برقبة نار من تراقيها
سفيهة لم يزل طول اللسان لها ... فى الحى يجنى عليها ضرب هاديها
غريقة فى دموع وهى تحرقها ... انفاسها بدوام من تلظيها
تنفست نفس المهجور فادكرت ... عهد الخليط فبات الوجد يبكيها
يخشى عليها الردى مهما ألم بها ... نسيم ريح إذا وافى يحييها
بدت كنجم هوى فى أثر عقربة ... فى الأرض فاشتعلت منها نواصيها
نجم رأى الارض أولى أن يبوئها ... من السماء فأمسى طوع أهليها
كأنها غرة قد سال سادخها ... فى وجه دهماء يزهيها مجليها
أو ضرة خلقت للشمس حاسدة ... فكلما حجبت قامت تحاكيها
وحيدة وهى مثل الرمح هازمة ... عساكر الليل إن حلت بواديها
ما طنبت قط فى أرض مخيمة ... إلا وأقمر للأبصار داجيها
لها غرائب تبدو من محاسنها ... إذا تفكرت يوما فى معانيها
فالوجنة الورد الا فى تناولها ... والقامة الغصن الافى تثنيها
قد أثمرت وردة حمراء طالعة ... تجنى على الكف أن أهويت تجنيها
ورد تشاك به الايدى إذا قطفت ... وما على غصنها شوك يوقيها
صفر غلائلها حمر عمائمها ... سود ذوائبها بيض لياليها
كصعدة فى حشا الظلماء طاعنة ... تسقى أسافلها ريا أعاليها
وصيفة لست منها قاضيا وطرا ... إن أنت لم تكسها تاجا يحليها
صفراء هندية فى اللون إن نعتت ... والقد فى اللين إن أتممت تشبيها
ما إن تراك تبيت الليل لاهثة ... وما بها علة فى الصدر تصميها
تحيى الليالى نورا وهى تقتلها ... بئس الجزاء لعمر الله يجزيها
ورهاء لم يبد للأبصار لابسها ... يوما ولم يحتجب عنهن عاريها
قدت على قد ثوب قد تبطنها ... ولم يقدر عليها الثوب كاسيها

غــراء فــرعـــاء مـــا تنفك قـــالــيــة تقص لـمــتـهـــا طــورا وتقليـتهـــا
شـيـاء شـعثـاء لا تكـى غـدائرها لون الشـبـيب .لا حين تبليـهـا
فـنـاة ظـلمــاء مـا ينفك ثاكلهـا سنانـهـا ـرب طعن أو يشـظيـهـا
مـفتـوحة العين تفنى ليلها سهـرا نعـم وافنـاؤها إياه بغنيـهـا
وربمـا نال من أطرافـهـا مـرض لم يشف منه بغيـر القطع شـافيهـا

وقال القاضى الفاضل:

ولمـا أراد الليل يـنظر وجـهـه تقـدم إن يذكى لـه الشـمع أعـينا
ومـا هى إلا أعـين وجـفـونهـا دجـاهـا وإنسـان السـعود نهـارنا
رياض دجى فـتحن عند وقـودها أزاهر نار تـركب الشـمع أغـصنا
عـجـبـت لروض منه بالـنار يزدهى وإلا لزهـر منه بالـعـين يجـتـنى
فـتكن الدجى والنور فـيض دمائهـا إذ النار نصـل والشـمـوع لهـا قنا

وقال فيها:

بكت مثل ما أبكى وفاضت دموعها ولم تفش أسـرارا كـفيض دمـوعى
إشـارة مظـلوم وعـبـرة عـاشق ووقـفـة مـأمـور ولون مـروع
أقـامت إلـى نحـر الظلام أسنة فلـم تلـقـهـا إلا بخـلع دروع

وقال أيضا:

والشـمع فـوق البحـر تحـسب انه من لجـة قـد اطلع المـرجـان
والمـاء درع والشـمـوع أسـنة ولهـا إذا خـفق النـسـيم طعـان

وقال محمد بن على الوزير حاجب النعمان:

وطفـلة كـالـرمح شـاهدتـهـا سـنانهـا من ذهـب قـد طبع
دمـوعـهـا تـنهل فـى نحـرها ورأسـهـا يـحـيـى إذا مـا قـطع

وقال آخر وأجاد:

إذا مـرضـت طال منهـا اللسـا ن ومـد المـداوى إلـيـهـا يدا
ويقـطع مـن رأسـهـا الـجلنا ر فـيـرجع أهليلجـا اسـودا

وقال ابن خفاجة (ومولده سنة خمسين واربعمائة، ووفاته سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة):

وصـعدة لبـسـت سـروال مشـتهـر بالحب منغمس فى الدمع والحرق
مـازال يطعن صـدر الليل يهـدمهـا حـتى بـدا سـائلا منه دم الشـفق

وقال آخر وأغرب:

وباكـيــة من غـيــر حــزن بأدمع　　تذوب بها أحشاؤها حين تنهمل
دموعا إذا ردت إليها بكت بها　　ولم أر دمعا غيره رد فى المقل

وقال سيف الدين المشد:

ولم أر مثل شمعتنا عروسا　　تجلت فى الدجى ما بين جمع
كأن عقود أدمعها عليها　　سلاسل فضة أو قضب طلع

وقال محاسن الشوا (مولده سنة اثنين وخمسين وخمسمائة، ووفاته سنة خمس وثلاثين وستمائة):

حكتنى وقد أودى بى السقم شمعة　　وإن كنت صبا دونها متوجعا
ضنا وسهادا واصفرارا وزفرة　　وصبرا وصمتا واحتراقا وأدمعا

وقال نور الدين ابن سعيد:

ومجلس انس زينته عرائس　　تزيد لنا وصلا اذا ما قطعناها
إذا طعنت صدر الظلام برمحها　　ترد بسيف الصبح منها فأفناها

الشيخ زين الدين ابن الوردى:

ممشوقة مثل صدر الرمح عارية　　قد توجت بنظير الكوكب السارى
تبكى إذا ضحكت جلاسها فرحا　　فالقوم فى جنة والشمع فى نار

وقال ابن الجلال وأجاد إلى الغاية (توفى سنة ست وخمسين وخمسمائة):

وصحيحة بيضاء تطلع فى الدجى　　صبحا وتشفى الناظرين بدائها
شابت ذوائبها أوان شبابها　　واسود مفرقها أوان فنائها
كالعين فى طبقاتها ودموعها　　وسوادها وبياضها وضيائها

مجير الدين ابن تميم وقد طفئت شمعة بمجلس فزارهم مليح عقيب طفيها:

ومخطفة أوقدتها جنح ليلة　　وقد زار من أهوى وتم بها أنسى
فأطفأتها إذا أشرقت شمس وجهه　　ومن سفه أن يوقد الشمع فى الشمس

وقال إبراهيم المعمار:

لا تنور فى مقامى　　شمعة من غير حاجه
قد كفانا طلعة البد　　ر ومصباح الزجاجه

ولما أنشدتها للامير شهاب الدين الحاجى قال لى لم لا قلت:

أطفئوا ذا الشمع عنا　　ما لنا بالشمع حاجه

فقال إبراهيم أردت مقامى وهذا فى غاية الظرافة.

علاء الدين الوداعى وقد أهدى شمعة:

يا من ببعادهم أسا الدهر إلى ... والآن فقد أنعم بالقرب على

قد أظلمت الاشواق طرفى فلذا ... قدمت إليكم شمعة بين يدى

البدر يوسف بن لؤلؤ الذهبى فى مليح يقط الشمع:

وذى قوام أهيف ... بين الندا ما قد نشط

قام يقط شمعة ... فهل رأيت الظبى قط

سيف الدين المشد ملغزا فى طوافه[1]:

لبينة الاعطاف لا ... ينكر فضل قدرها

حياتها فى طيها ... وموتها فى نشرها

وقال ناصر الدين بن شافع فى وصفها (مولده سنة تسع وأربعين وستمائة، وتوفى سنة ثلاثين وسبعمائة):

وشمعة قد استتم نبتها فى روض الانس حتى نور * ولا نمى بدوحة المفاكهة حتى أزهر * أومأ بنان تبلجها إلى طرق الهداية وأشار ودل على نهج التبصر وكيف لا وهى علم فى رأسه نار * كأنما هى قلم امتد بماء ليق من ذهب أو صعدة إلا أن سنانها ذهب وحسبها كرما أن جادت بنفسها وأعلنت بامتناعها على همود حسها سايلها فى الجود بأمثالها مسول ودمعها بالعفو للصفو من سماحتها مطلول تحيتها عموا صباحا يتألق فجرها وتمام بدرها فى أوائل شهرها قد جمعت من ماء دمعها ونار توقدها بين نقيضين ومن حسن تأثرها وعين تبصرها بين الأثر والعين.

وقال محيى الدين بن عبد الظاهر: فى حين ما شق ريحى الدجى عن ترائبه جيبا ونشر الظلام ظفائره وقد اشتعل رأسه من النجوم شيبا فى ضوء شمعه نشرت على الورق رده الاصيل وأخفت من الدجى سواد دجفنه الكحيل وسترت ذوائبه فى معصفر أبهج من وجنتى بثينة لولا أنها فى صفرة وجه جميل .

وكتب الاديب الفاضل الكامل شرف الدين عيسى بن حجاج العالية أحد شعراء العصر بالديار المصرية - أبقاه الله تعالى - إلى الوزير العلامة فخر الدين ابن مكانس تغمده الله بالرحمة يقبل الأرض التى شاقه ترابها المواطئ الفخرية فزاد عجابا وقال المسك يا ليتنى

---

(١) قوله: «فى طوافه» هكذا فى الأصل فانفهم.

كنت ترابا وينهى أنه أقبل على المطالعة والباقى من العشر ليال خمس واستهدى بنجوم فوائدها حين قامت الشمعة بوظيفة الشمس واستدعى اعوانا من السهر فتخاذلت عنه أعوانه وخشى من غلبة النوم فتغلب عليه سلطانه ولما أغفى على وجه الكتاب لعبت الشمعة بلسانها وتناولت طرف شاشه بيد نيرانها فهب المملوك وأخمد منها ما تصاعد من الانفاس وقابلها على حرق الشاش بقطع الراس.

أنى جلست بشمعة موقودة ... لأطالع الاسفار للتسبيح

فتناولت شاشى أوائل نارها ... وتمكنت منه بمر الريح

من قبل حرق الشاش كنت مطالعا ... فى الكتب صرت مطالعا فى الروح

وقد توسلت بهذه الرسالة المدونة فى باب المنظوم والمنثور ومددت يد سؤلى إلى طلبى ساشا مقصورا وأرجو أن يجمع لى بين الممدود والمقصور أبقاك الله للأولياء الذين يحبون وجودك ويستمطرون كرمك وجودك.

وقال مجير الدين ابن تميم وقد مر بدار بعض أصحابه ومعه شمعة وقد طفئت فأوقدها من داره:

لما أزرتك شمعتى لتنيرها ... جاءت تحدث عن سراجك بالعجب

وافتك حاسرة فقبل رأسها ... فأعادها نحوى بتاج من ذهب

حكى أن مجير الدين الخياط الدمشقى كان يتعشق غلاما من أولاد الجند فشرب فى بعض الليالى وسكر فوقع فى الطريق فمر الغلام عليه وهو راكب فرآه فى الليل مطروحا فوقف عليه بالشمعة ونزل فأقعده ومسح وجهه فسقط من الشمعة نقطة على خده ففتح عينيه فرأى الغلام على رأسه فاستيقظ من سكرته وأنشد مرتجلا:

يا محرقا بالنار وجه محبه ... مهلا فإن مدامعى تطفيه

أحرق بها جسدى وكل جوارحى ... واحذر على قلبى فإنك فيه

وأما الفانوس فمن أحسن ما سمع فيه قول مجير الدين بن تميم:

انظر إلى الفانوس تلق متيما ... ذرفت على فقد الحبيب دموعه

يبدو تلهب قلبه لنحوله ... وتعد من تحت القميص ضلوعه

وقال:

أبدى اعتذارا لنا الفانوس حين بدا ... فى حالة من هواه ليس ينكرها

رأى الهوى مضرما ما بين أضلعه ... نار الجوى فغدا بالثوب يسترها

وقال الوجيه المناوى:

كأنما الليل وفانوسنا يجلو دجى الظلمة للحس
لجة بحر قد طما موجه تسبح فيه كرة الشمس

وقال شهاب الدين بن أبى حجلة مضمنا:

وكأنما الفانوس نجم نير منع الظلام من الهجوم طلوعه
أو عاشق أجرى الدموع بحرقة من حر نار قد حوته ضلوعه

وله مضمنا أيضًا:

وباكية من غير حزن بأدمع تذوب بها أحشاؤها حين تنهمل
دموعا إذا ردت إليها بكت بها ولم أر دمعا غيره رد فى المقل

وله فيه مضمنا:

يحكى سنا الفانوس من بعد لنا برق تالق موهنا لمعانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه والماء ما سمحت به أجفانه

وله:

أنا فى مقام الناصر السلطان لا أشكو إلى محبوب قلبى ما بى
فاصبر كصبرى فى الهوى ولاننى متجلد والنار تحت ثيابى

مجير الدين ابن تميم تضمن:

يقول لها الفانوس لما بدت له وفى قلبه نار من الغيظ تسعر
خذى بيدى ثم اكشفى الثوب تنظرى ضنا جسدى لكننى أتستر

وأما السراج وما قيل فيه فمنه قول ابن أبى الخصال.

عذرا إليك أعزك الله فانى حططت والنوم معازل والعز منازل والريح يلعب بالسراج ويصول عليه صولة الحجاج وطوراً يسدد سنانا وطوراً يحركه لسانا وآونة يطوى جنابه وأخرى ينشره ذؤابه ويقيمه ابرة لهب ويعطفه برة ذهب أو حمة عقرب وتقوسه حاجب فتاة ذات غمرات ويسلط على سليطه ويزيله عن خليطه ويخلفه نجما ويمده رحما وتسل روحه من ذباله ويعيده إلى حاله وربما نصبته اذن جواد ومسخته حدق جراد ومشقته خاطف برق بكف ودق ولثمه سناه قنديله ولفت على أعطافه منديله فلا حظ منه للعين ولا هداية فى الطرس لليدين

قال شرف الدين التيفاشى رأيت فيما يرى النائم قائلا يقول لى تحفظ فى السراج والمسرجة فانشدته قول ابن الرومى:

وحية فى رأسها درة تسبح فى بحر قصير المدا
اذا تولت فالعمى حاضر وإن تجلت بان طرق الهدى

فقال لى هذا فى الذبالة وأنا سألتك فى السراج والمسرجة فانشدته قول الصنوبرى:

إن سراجًا نوره ظلمة كأنما يوقد فى قلبى
الحب أضناتى فما باله بفتى وما يشكو جوى الحب

فقال هذا فى السراج وأنا سألتك فى السراج والمسرجة فصمت فقال أراك سكت فقلت له ما تحفظ فيهما أنت فانشد:

مسرجة تسرج من فوقها ذبالة فى جوف مصباح
كأنها مسرجة فوقها تفاحة فى غصن تفاح

فاستيقظت وأنا أحفظهما.

قال شهاب الدين بن أبى حجلة وهذا التشبيه فى المسرجة جيد فى مسارج العرب فإن مسرجتهم قضيب أملس أشبه شىء بغصن التفاح.

قلت: لا يخفى ما فى هذين البيتين من الحسن وجودة التركيب فى قوله فى البيت الأول مسرجة ثم فى الثانى كأنها مسرجة وقوله تفاحة فى غصن تفاح وما أعرف لهما شبيها إلا قوال ابن وزير فى الحمام.

حكى ان ابن قزمان الوزير أبى بكر صاحب الازجال المشهورة قام من مجلس أنس فمال على السراج فأطفأه فقال فى الحال:

يا أهل ذا المجلس السامى سرادقه ما ملت لكننى مالت بى الراح
فإن أكن مطفئا مصباح بينكم فكل من حل فيكم فيه مصباح

قال القاضى كمال الدين بن العديم (مولده سنة ست وثمانين وخمسمائة، ووفاته سنة تسع وخمسين وستمائة) فى تاريخ حلب أن القاضى شمس الدين بن خلكان الاربلى (مولده سنة ثمان وستمائة، ووفاته سنة إحدى وثمانين وستمائة) قدم حلب وتفقه على مذهب الشافعى وأنشدنى لنفسه ملغزا فى السراج:

أيها العالم الذى صار حبرا ممارسا
والذى موضحاته بجنليها عرائسا
أى شىء ترى الورى جمعهم منه قابسا

إن فى الـــــرب نصـــفـــه حـــيـث مـــا كـــان ثـــانـــيـــا
ثـم صـــحـف تـمـــامـــه تـلق خـــلا مـــؤانـــســـا
واحــــذفـن منه ثـالـثـــا تـنـظرن فـــيـــه فـــارســـا
من يـصـحــفــه عـــاكـــســـا يـلق فـى الليـل حـــارســـا

وما أحسن قول القاضى الفاضل يعتذر عن كتاب كتبه إلى بعض أصحابه ليلا كتبها الملوك ليلا وقد عمشت عين السراج وشابت له الدواة وكل خاطر السكين وخرس لسان القلم وضاق صدر الورقة فإذا وقف سيدنا على هذا الكتاب فليقف على بيمارستان وليقل الباذنجان من هذا ولا يقل هذا من الباذنجان.

وقال ابن تميم فى سراج يوقد من سراج:

أعلـــمـتم يا قـــوم أن ســـراجـنا أمـــسى وفـــيـــه فـضلـيـه لا تـكتـم
يأتى أخـــوه إلـيـــه حـــاسـر رأســه فـيـعـيـده فى الـحـال وهو مـعـمـم

نادرة: اتفق أن أبا الحسين الجزار قام مرة إلى بيت الخلاء فناوله السراج الوراق شمعة فقال الجزار ما عادتى أقضى الشغل إلا على السراج.

وما أظرف قول زين الدين ابن الوردى:

لى صـــاحـب واســـمـــه ســـراج مـــــا قـــــرّ لـى عنده قـــــرار
لـســـانـه مــــحـــرق لـقـلـبى إن لـســـــان الـســـــراج نـار

وممن أكثر من ذكر السراج الاديب الفاضل الكامل سراج الدين عمر الوراق حتى إنه قيل له لولا لقبك راح نصف شعرك، فمن ذلك قوله:

اذا بحت بالشكوى عتبت معاشرا بلا راحة فى مدحهم أتعبوا ذهنى
يريدوننى رطب اللسان ومن رأى سراجا غدا رطب اللسان بلا دهن

وقوله يتقاضى زنجبيلا:

مـــــــولاى بـدر الـديـن أنـــ ـــت من الـمكـارم تاجـــهـــا
ولـديك بـغـــيـــة كـل نفــ ـــس آملـيك وحـــاجـــهـــا
ولـنـور وجـــهك فى الفـــضـــا ئل قـــد أقـــر ســـراجـــهـــا
أنـــســـيت ســــورة هل أتى ونـــســـيت كـــان مـــزاجـــهـــا

وقـــوله:

أقـــول فى يـوم شـــتـــاء به من ســـحـــبـــه مـــا خلف الـنيـلا
خـرجت مـن بيتى سـراجـا وقـد عـــدت بحـــمـــد الله قـنـديلا

وقولـــــه:

سـبق السـراج إلى امـتـدا حك كـل من بتـقـدمـه
وسناك مسرجة لبـا بك والمهابة تلجمه
لكن توقـد ذهنه ما كل شىء يفحمه

وقولـــه:

كم قطع الجـود من لسان قلد فى نظمه النحورا
وها أنا شاعر سراج فاقطع لسانى أزدك نورا

وقولـــه:

بنىّ اقتدى بالكتاب العزيز فراح ليرى سعيا وراجا
فما قال لى أف مذ كان لى لكونى أبا ولكونى سراجا

وقولـــه:

أثنى على الانام إنى لم أهج خلقا ولو هجانى
فقلت لا خير فى سراج إن لم يكن ذاك فى اللسان

وقولـــه:

قلبى لديك وطرفى طال بعدهما عنى فلى أبدا سهد وتذكار
ولست متهما قول السراج إذا ما قال من حرق فى قلبى النار

وقولـــه:

بكتبك راح لى أملى وقصدى وفى يدك النجاح لكل راجى
ولولا أنت لم نرفع منارى ولا عرف الورى قدر السراج

وقوله: وقد اجتمع ببدر الدين بيليك وشمس الدين سنقر:

لما رأيت البدر والشمس معا قد انجلت دونهما الدياجى
حقرت نفسى ومضيت هاربا وقلت ماذا موضع السراج

وقوله: يمدح ضياء الدين:

أمولانا ضياء الدين دم لى وعش فبقاء مولانا بقائى
فلولا أنت ما أغنيت شيئا وهل يغنى السراج بلا ضياء

وقوله:

شعيرتى مذ رمدت قد حجبت شخصك عنى وكان مأنوسا
فالحمد لله زادنى شرفا كنت سراجا فصرت فانوسا

وقولـه:

الهى قد جاوزت سبعين حجة ... شكرًا لنعمـ..ـنى ليس تنكر
وعمرت فى الإسلام فازددت بهجة ... ونورا كذا يبدو السراج المعمر
وعمم نور الشيب رأسى وسرنى ... وما ساءنى إن السراج منور

وقولـه:

طوت الزيادة إذ رأت ... عصر الشباب طوى الزيارة
ثم انثنت لما انثنى ... بعد الصلابة كالحجارة
وبقيت أهرب وهى تسـ ... ـأل جارة من بعد جاره
وتقول ياستى استرحـ ... ـنا لا سراج ولا مناره

وقال فيه بعض شعراء عصره والسراج عمر عالى المنار ويتوقد دكا ولو لم تمسه نار.

حكى أنه جهز غلاما ليبتاع له زيتا طيبا يأكل به لفتا فأحضر وقلبه على اللفت فوجده زيتا حارا فأنكر على الغلام وأخذه وجاء إلى البياع وقال لم تفعل مثل هذا بنا فقال والله يا سيدى ما لى ذنب إلا أنه قال لى اعطنى زيتا للسراج.

وحكى عنه أيضًا أنه دعى إلى زفة فقالوا له صبيحتها أيش كان حالك يا سراج الدين البارحة فقال أيش حال سراج بين ألف مشعل.

ومثلها ما حكاه لى الوزير المرحوم فخر الدين بن مكانس عن صاحبه سراج الدين القوصى أنه كان حصل له طلوع فى جسده فتردد إليه المزين فقال أيش حال سراج فيه سبع فتائل.

وأنشدنى لنفسه بداعب المذكور وكان سكندرى الأصل:

يا ذا السراج اشتر ابرى فانت به ... أولى وذلك للأمر الذى وجبا
سكندرى وتدعى بالسراج وذا ... مثل المنار إذا ما قام وانتصبا

وما أحسن قول بعضهم

* ومتى أظلم خطب عمر الله السراجا *

فصل فى القنديل: قال شمس الدين محمد بن العفيف:

صفا باطنى صرفا كمارق ظاهرى ... وناجيت فتيانا من الشرب أكياسا
إذا نهضوا كنت الرفيق لهم اذا ... وان جلسوا أميت فى الوسط جلاسا

ولآخــــر:

وقنـدبل كــان الضــوء فــبــه ... سنا وجــه الحـبـيـب إذا تجـلا
أشــار إلى الدجـى بلســان افــعى ... فـــشـــمـــر ذيلـه هربـا وولى

ولآخــــر:

وشــادن مــــرّ والقـنديل فـى يده ... مــا بـينـا وظـلام الليل مـــعـــتكر
كــأنه فلك والمــاء فـيــه سـمــا ... والنار شـمـس به والحـامل القـمـر

ولـــه:

عــجـبت لقنديـل تضــمن قلبــه ... زلالا ونارا فى دجى الـليل تشــعل
وأعــجب من ذا أنه طول عــمـره ... يجن عـليــه الليل وهو مــسلسل

الباب الخامس عشر
فى الخضروات والرياحين

الورد كان المتوكل يقول أنا ملك السلاطين والورد ملك الرياحين فكل منا أولى بصاحبه وكان قد حرم الورد على جميع الناس واستبد به وقال لا يصلح للعامة فكان لا يرى الورد إلا فى مجلسه وكان أيام الورد لا يلبس الا الثياب الموردة ويفرش الفرش الموردة يوورد جميع الآلات.

ورفع إلى المأمون أن حائكا يعمل سنته كلها لا يتعطل فى عيد ولا جمعه فإذا ظهر الورد طوى عمله وغرّد بصوت عال:

طاب الزمان وجاء الورد فاصطبحوا ما دام للورد أزهار وأنوار

فإذا شرب مع ندمائه غنى:

اشرب على الورد من حمراء صافية شهرا وعشرا وخمسا بعدها عددا

ولا يزال فى صبوح وغبوق ما بقيت وردة فإذا انقضى الورد عاد إلى عمله وغرد بصوت عال:

فإن يبقنى ربى إلى الورد أصطبح وندمان صدق حاكة ونبيط

فقال المأمون لقد نظر إلى الورد بعين جليلة فينبغى أن نعينه على هذه المروءة فأمر أن يدفع له كل سنة عشرة آلاف درهم.

وقال إبراهيم الخواص إذا جاءت أيام الورد أمرضنى علمى بكثرة من يعصى الله تعالى فيه.

جلس روح بن حاتم أمير افريقية يوما فى منظر له ومعه جارية من جواريه فدخل الخادم بقادوس فيه ورد أحمر وأبيض فى غير أوان الورد فاستظرفه وسأل الخادم عن أمره فأخبره أن رجلا أتى به هدية فأمر أن يملأ له القادوس دراهم فقالت له الجارية ما أنصفته قال ولم قالت أتى بلونين أحمر وأبيض فلونّه له فأمر أن يخلط دنانير ودراهم فخلط ودفع إليه.

ويقال إن كسرى مر بوردة ساقطة فقال أضاع الله من أضاعك

خواصه: بارد يابس فى الدرجة الأولى يابس فى آخر الدرجة الثانية نافع لصاحب المرة الصفرا ومن به حرارة حريقة مسكن للصداع المتولد منها ضار لصاحب المزاج

البارد مهيج لعطاسه مزعج لدماغه ومرباه بالسكر والعسل ينفع من البلغم وماؤه المصعد منه بارد وطب نافع من سائر أوجاع الدماغ الحادة ومن الأورام الحارة نقلتها من النور المجتبى من رياض الندماء تأليف الحكيم الفاضل الأديب المعروف بالعنبرى وبابن المحلى ذكره الفاضل المؤرخ موفق الدين بن أبى أصيبعة فى تاريخ الاطباء وأثنى عليه الثناء البالغ.

وعلى مصنفه المذكور قلت وهذا الكتاب رتبه على فصول السنة كل فصل يشتمل على أربعين بابا عديم النظير قليل الوجود.

القول فى استخراجه فى غير اوانه: قال صاحب المباهج من أحرق السداب فى أصول شجر الورد حتى يرتفع وجه الاحراق إلى الشجر فى أى وقت كان من السنة التى تورد شجرة الورد فيه وردت بعد أيام ورداً غضا ومتى جمع الرماد التى أحرق وخلط بتراب ونبش أصل الشجرة التى أحرق ذلك فى أصولها وطمر الرماد ثم سقيت الماء فى الوقت وسقيت بعد ذلك على العادة كان ما ذكرناه أيضاً.

الحيلة فى أن يبقى الورد السنة كلها فى الفلاحة الرومية: يؤخذ زر ورد الذى لم يفتح بعد فتملأ به جرة فخار جديدة وتطين رأسها تطينا محكما لا يتخلله الهواء ويدفن فى الأرض فانك تخرج منها الورد متى شئت إلى آخر السنة كهيئته حين أدخلته فيها فرش عليه ماء ويترك فى الهواء فإنه يفتح ورداً طريا كالذى يقطف من شجره.

وفى كتاب الخواص أن الورد الأحمر إذا بخر بالكبريت ابيض وإذا بخر نصف الوردة صار نصفها أبيض ونصفها أحمر والورد الأحمر إذا بخر بالنورة المطفية أبيض وإذا صب فى الشتاء فى أصول شجر الورد ماء حار عند كل غداة انفطر قبل انفطار الورد.

غرائب من هذا النبات: حكى صاحب نشوار المحاضرة أنه رأى وردا أصفر واستغرب ذلك وقد رأيناه كثيرا إلا أنه امتاز بكونه عد ورق وردة فكانت ألف ورقة ورأى وردا اسود حالك اللون له رائحة ذكية ورأى بالبصرة وردة نصفها أحمر قانى الحمرة ونصفها الآخر ناصع البياض والورقة التى قد وقع الخط فيها كأنها مقسومة بقلم قال صاحب المباهج وحكى لى بعض أصحابى أنه رأى وردا بدمشق له وجهان أحد الوجهين أحمر والآخر أبيض لا يشوب أحدهما شىء من الآخر وأخبرت أن بحلب وردا أحد وجهى الورقة أحمر والآخر أصفر وأما الورد الأزرق فقد حكى لى بعض أصحابى أن

رجلا أخبره أنه رأى اكارا يجرى إلى شجرة الورد ماء مخلوطا بالنيل قال فسألته عن ذلك فقال إن الورد يكون أزرق بهذا العمل والظاهر من الأسود أنه احتيل عليه كذلك.

وذكر ابن قتيبة أن بالهند شجرا يخرج وردًا عليه كتبة تقرأ لا إله إلا الله، وحدث أن منقذ لما عاد من المغرب وكان قد توجه إليه رسولا من صلاح الدين أن فى مراكش وردا كل وردة من الثمانين ورقة إلى المائه ورقة.

الوصف والتشبيه قال بعضهم وصدق:

للورد عندى محل ورتبة لا تمل
كل الرياحين جند وهو الأمير الاجل

وقال آخر وظرف:

كتب الورد الينا فى قراطيس الخدود
يا بنى اللهو صلونى قد دنا وقت ورودى

ولبعضهم فى باكورة ورد:

ودونك يا سيدى وردة يذكرك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكمامها رأسها

وقال على بن الجهم فى صبابته:

لم يضحك الورد الا حين أعجبه حسن الرياض وصوت الطائر الفرد
لا عذب الله إلا من يعذبه بمسمع بارد أو صاحب نكد

وفيه لجحظلة:

يعز على بأن يشمك ساقط أو أن تراك نواظر البخلاء

وقال محمد بن عفيف التلمسانى:

قامت حروب الدهر ما بين الرياض الندسيه
وأتت بأجمعها لتغـ ـزو روضة الورد الجنيه
لكنها انكسرت لـ ـأن الورد شوكته قويه

وتلطف الشيخ زين الدين ابن الوردى فى قوله موريا باسمه:

مهفهف القد اذا ما انثنى قال ولا يخشى من الرد
ما أنت حملى يا كثيب اللوى ولست يا غصن النقا قدى
لو نلت من خديه تقبيلة تزين الريحان بالورد

ما أحقه بقول القائل شاكر نفسه يقرئك السلام.

قلت: أحسن من بيته الثانى ما أنشدنيه من لفظه لنفسه ونقلته من خط المرحوم فخر الدين بن مكانس من أبيات:

اسمران عاين غصن البان قال استقم فأنت ذو ألوان

يثنيك فى الدوح النسيم الوانى وليس لى فى قامتى من ثانى

* فلا تقايسنى فلست قدى *

رجع وقال أبو الوليد بن الحنان الشاطبى (مولده سنة خمس عشرة وستمائة، ووفاته سنة خمس وسبعين وستمائة):

فوق خد الورد دمع من عيون الحب تذرف

برداء الشمس أضحى بعد ما شال يحفف

وقال برهان الدين القيراطى:

ان للروح فى دمشق لمأوى ذا قرار وذا معين وربوه

وبروضاتها بساتين ورد لى بأزرارها صبابة عروه

وقال بعضهم وأصاب:

كم وردة تحمى بسيف الورد طليعة تشرعت من جند

قد ضمها فى الغصن قرص البرد ضم فم لقبلة من بعد

ومن أحسن ما استعمل أوصاف الورد فى اعتذاره عن الاصغاء إلى كلام العذول مجد الدين النسائى الاربلى (مولده سنة اثنين وثمانين وخمسمائة، وتوفى فى سنة ست وستمائة) شعر:

أصغى إلى قول العذول بجملتى مستفهما عنكم بغير ملالى

لتلقطى زهرات ورد حديثكم من بين شوك ملامة العذالى

السرى الرفا يصف وردا أبيضا قال:

بدا أبيض الورد الجنى كأنما تبسم للناس بمسك وكافورى

كأن اصفرارا منه تحت بياضه برادة تبر فى مداهن بلورى

ولبعضهم فى الورد الأسود:

لله اسود ورد ظل يلحظنا من الرياض بأحداق اليعافير

كأنما وجنات الريح نقطها كف الإمام بانصاف الدنانير

ولآخر فيه:

وورد أسود خلناه لما ... تنشق نشره ملك الزمان

مداهن عنبر غصن وفيها ... بقايا من سحيق الزعفران

وقال مجير الدين بن تميم مضمنا:

لم أنس قول الورد حين جنيته ... والنار لاستقطاره تتسعرو

ناشدتكم نفسى خذوه وإنما ... لا تعجلوا فى قبض روحى واصبروا

من رسالة كتبها الجناب المجدى فضل الله ابن المرحوم فخر الدين عبد الرحمن بن مكانس إلى سيدنا ومولانا أقضى القضاة بدر الدين محمد بن أبى بكر عمر المخرومى المالكى الشهير بابن الدمامينى أسبغ الله عليه ظلاله ملغزا فى ورد وكان سيدنا بدر الدين قد كتب إليه قبلها لغزا فى قدح فحله وكتب اليه هذا اللغز ونقلته من خطه وهو: ما عاطل تتحلى به المجالس ويتفكه فيه المجالس تحمر وجناته من الشرب وتحمر آثاره فى البعد والقرب إن قلبته رأيت تاجا وإن تركته على حاله زادك ابتهاجا يعذب بالنار وغيره الجانى ويريك إن بدلت أوله برد الامانى يستخرج وهو داخل ويرى دمعه من نار قلبه هاطل لا يبرح به فى غبطه ولا تجد فيه مع انهماله نقطه إن حذفت أوله وحرفت باقيه وجدته أمرا بالشراب وإن فعلت كذلك فى ثانيه ما بقى يؤكد للمحبة بين الأصحاب وور إن حذفت أخيره كمن ورا وغص فى بحر الفكر على عكس ثلثيه لستخرج درا وقد سطره ليحصل له من نظر المخدوم طرفا ويصير له فى الالغاز شرفا والمملوك يسأل الصفح والامتنان وبسط العذر فى هذا الهذيان فإنه لولا المحبة ما أجاب ولا طرق بعد فقد أبيه هذه الأبواب ولا عارض بجد وله البحر العباب فإن بضاعته فى هذا الفن مزجاة وهم أبيه غطى على حجاه والله المسئول أن يلطف برحمته ويحسن عاقبته فى دنياه وآخرته ويمتع مولانا بزناد ذهنه الوارى ويطلعه وبنيه فى سماء الفضل حتى يهتدى بالنجوم والدرارى بمنه وكرمه، فكتب الجواب سيدنا بدر الدين وينهى ورد الجواب الذى شفى الصدور وروده واللغز الذى نسى بورده بان الحما وزر وده فوجده روض بلاغة عدم العابث والعائب وترعرع زهره حيث أمطرته من أنامل المخدوم خمس سحائب وتمسكت أذيال أنفاسه بالرواية عن أبى الطيب وجاد فكر مولانا على خد طرسه بالعارض الطيب فلو شاهده ابن الوردى لاحمر خجلا أو

صاحب زهر الآداب لتلون وجلا ثم تأمل حل اللغز فرآه قد كشف المشكل وجلا واعترف بأنه لم يمر بذوقه أطيب من ذلك الحل ولا أحلى وتحقق أن مولانا أوسعه فى مقام الادب بفضله إيناسا وتناول منه قدحا فأعاده بألفاظه المسكرة كاسا وانتهى المملوك إلى اللغز المخدومى فقال:

مولاى مجد الدين يا من فضله　　　يروى وجود كفه يروى الصدا
ألغزت فى اسم عاطل حليته　　　منك بدر اللفظ أو قطر الندا
ان ورد التحريف فى أبياته　　　كان لشانيك هلا كاوردا

وقال أيضًا:

لله لغزك يا مولى فضائله　　　قد عطر الاكوان منها أطيب أنفاس
أتى بورد فحيانى على قدحى　　　به وأبهجنى ما بين جلاسى
وقد أسى جرح كرى حين أقبل لى　　　روحى الفداء لذاك الورد والآسى

فاستحلى المملوك بالتحريف ورده وود لو اقتطف من أغصان حروفه ورده فرده ذل القصور عاريا من ملابس عزه وأنشده قول ابن قلاقس وقد تقلى بنار عجزه:

إذا منعتك أشجار المعالى　　　جناها الغض فاقنع بالشميم

فراج عليه بهرج هذا الرأى الكاسد واقتنع بالشم على رغم أنف الحاسد وعلم أن هذا الورد لا يحسن من غير تلك الخضرة وان هذه الفاكهة لا يخرجها إلا أغصان أقلام لها بندى الراحة المخدومية بهجة ونضرة ومشى نظر المملوك من هذا اللغز فى بساتين الوزير على الحقيقة ورأى منه كل وردة وأحب الوجنات الحمر فتحير أهى وردة أم شقيقة وتفكر معجبا بثمار غرسه منشدا لمن كرر النظر فى صفحة طرسه:

إن كنت تزعم ما فى خده عجب　　　قم فانظر الورد فى خديه منثورا

فلقد ظفرت من نفسه بالعنبر الورد وعوذته عند تبديل الثلاثة بالواحد الفرد وتأملت بفتور قريحتى نكتة برد الامانى وانعقد لسانى بسحر هذا البيان ونفثات تلك المعانى وتيقنت أنه لا يقوى لفهم هذا البرد إلا كل حديد النظر ووجدت تصحيف هذه الكلمة يا شمس الفضائل للعقول قمر وعلمت إن الفكر لا يجارى من بديهيته من بحار الفضل روية وإن الخاطر الذى هو من ضعفة رعايا الادب لا يقوى على سلطان هذا اللغز لأن شوكته قويه وقلت للذهن رد بعضه لتنهل شرابا سائغا وزد تصحيفه ليكون فى التعريف بمعناه مبالغا

وتمتعت من ورده الوارد بالشموم ثم تذكرت البعد عن جناب المخدوم فاستقطر البين ماء الورد فى حدقى ولمولانا المنة فى الصفح عن مقابلة الدر بالسند وتمر هجر بهذا الحشف الملتقط وله الفضل فى إجابة المملوك إلى ما سأله أولا من الاتحاف بما تيسر من آداب المقر الفخرى الوالد نور الله ضريحه وتعاهد بعهاد الرحمة بمنه وكرمه.

ولبعضهم) فى الورد القحابى:

وورده جمعت لونين خلتهما ... خدى حبيب وخدى هائم عشقا

تعانقا فبدا واش فراعهما ... فاحمر ذا خجلا واصفر ذا فرقا

وظرف من قال كأنه وجنة الحبيب وقد نقطها عاشق بدينار انظر إلى هذا وجنة وحبيب ودينار واين هذا من قول ابن الرومى (مولده سنة إحدى وعشرين ومائتين، ووفاته سنة أربع وثمانين وسبعمائة):

كأنه سرم بغل حين سكرجه ... بعد البراز وباقى الروث فى وسطه

ونقلت من خط شيخنا شمس الدين محمد بن محمد بن محمد الشهير بابن سمنديار الذهبى لنفسه:

إذا الربيع جبت أزهاره ... فورده ذو الشوكة السلطان

وأنشدنى من لفظه لنفسه ارتجالا الشيخ الاديب الفاضل بقية المتأخرين شمس الدين محمد بن بركة الرئيس فسح الله فى مدته:

شاب ورد الرياض من ... ورد خديك وانفرك

فله الناس اثبتوا ... وانتفى الورد للكرك

النرجس قال أبقراط كل شىء يغذو الجسم والنرجس يغذو العقل.

وقال جالينوس من كان له رغيف فليجعل نصفه فى النرجس فإنه راع الدماغ والدماغ راعى العقل.

ويروى عن على ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال تشمموا النرجس ولو فى اليوم مرة فإنه فى القلب داء لا يبرئه إلا شم النرجس.

وقال الحسن بن سهل من أدمن شم النرجس فى الشتاء أمن من البرسام فى الصيف، وكان كسرى أنوشروان مغرما بالنرجس ويقول هو ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر.

وقال إنى لاستحى أن أباضع فى مجلس فيه النرجس لأنه أشبه شىء بالعيون الناظرة، ومن هنا أخذ من قال:

غضى جفونك يا عيون النرجس لعسى أفوز بنظرة من مؤنسى
فلقد تحير إذا أراك شواخصا ترونه بلواحظ المتفرس
حتى كأنك لن ترى قمر الدجا بين الاحبة طالعا فى مجلس

نادرة: تحدث رجل مع خاطبة فى أن تخطب له امرأة يتزوجها فقالت له عندى امرأة كأنها طاقة نرجس فتاقت نفس الرجل إليها فتزوجها فلما زفت إليه وكشف القناع لقى عجوزا مكمشة الوجه بيضاء الشعر دقيقة الساقين صفراء الوجه مخضرة الساقين بالشعر فلم يقربها وعاد باللوم على الخاطبة وقال لها كذبتينى وغربتينى فقالت له ما كذبتك ولا غررتك وإنما أنت رجل جاهل قلت لك عندى امرأة كأنها طاقة نرجس فرغبت وما هى طاقة النرجس الا هكذا.

خواصه حار يابس ينفع من سائر أوجاع العصب من برد وكذلك النسرين ويصدع النرجس الرءوس الحارة وفعلهما أقل من فعل الياسمين وينفعان من وجع الارحام من برد ويفتح سدد الدماغ وينفع من الصداع البارد الرطب والسوداوى ودهنه ينفع من أوجاع المفاصل. انتهى كلام ابن المحلى فى النور.

وقال صاحب المباهج خاصيته للنفع من الاوجاع الباردة الكائنة فى الرحم أصله يدمل القروح وينفع من أوجاع المفاصل وإذا سحق أصله وخلط بدقيق واغتسل به نقى أوساخ البدن والقروح وإذا تضمد به فجر الاورام والدملات وهذا الفعل موجود فى أصله وزهره ورائحته مقوية للدماغ مفتحة للسدد طاردة لما فى بطونه من الارياح وإذا أديم شمه نفع من الصداع الكائن من بخار البلغم ومن الرطوبة المحتقنة فيما بين أغشية الدماغ وإن اتخذ منه شمامة مستديرة فى شكل الرمانة ورش عليها شىء من ماء الورد الممسك وبخرت بالند الرفيع أو العود الرطب والزعفران الشعر الطردى أكسبها البخور بذلك نفعا عظيما وان شوى بصله فى النار أو فى الرماد وقشر وسحق فى الهاون وسكب عليه شىء من دهن الحبرى وأغلى بالدهن عليه وضمد به على الخنازير والجراحات الفجه الجاسته والدماميل الصلبة ألانها وفجرها.

وفى كتب الخواص قال هرمس إذا وضعت طاقات النرجس التى لم تفتح بعد فى ماء البقم حتى ينفخ فيه أبدل من بياض أوراقه حمرة شديدة وبقيت على حالها.

الفلاحة: النبطية إن أوفق ما غرس بصل النرجس فى الأرض التى أقام الماء فيها عشرة أيام أو عشرين يومًا ثم نضب الماء عنها وجف وبقى فيها شىء من النداوة يسير فليحفر فى همة الأرض حفاير عمقها قدم أو أقل ويجعل البصلة فيها ويغطى بالتراب ويكبس فوقه التراب كبسا جيدا فإذا ابتدأ يطلع منه شىء يسير فيسقى سقية خفيفة ويتعاهد كذلك حتى يكمل ورده.

ومن أراد أن يجعل العين منه مضاعفا فيأخذ بصلة سمينة فيشق وسطها ويغرس فيها سن ثوم غير مقشرة ويغرقها فى البصلة فى التراب فإنها تحمل نرجسا مضاعفا.

غريبة: ذكرها صاحب المباهج من أخذ من بصل النرجس بصلة كبيرة وأخدشها بالمسلة من ذهب خالص ثم غرز البصلة برأس المسلة باليد اليسرى ثم يدور الماسك فى الموضع الذى يريد أن يغرس فيه تلك البصلة خمس دورات وهو يضحك أو يتضاحك ثم يغرسها فى مقطع الدورة الخامسة فإن تلك البصلة تحمل نرجسا أحمر مثل الشقيق طيب الريح جدا وصفة غرسه كما يفعل بغيره ومن أراد أن يكون النرجس فى غير أوانه فليحرق السداب مع شىء فى قشور الجوز على منابت أصله فإنه يسرع اخراج ورقه الوصف وقال ابن الرومى:

خجلت خدود الورد من تفضيله	خجلا يورد عليه شاهد
لم يخجل الورد المورد لونه	إلا وناصله الفصيلة عاند
للنرجس الفضل المبين وإن أبى	آب وحاد عن الطريقة حائد
فصل القضية إن هذا قائد	زهر الربيع وإن هذا طارد
شتان بين اثنين هذا موعد	بتصرم الدنيا وهذا واعد
فإذا احتفظت به فامنع صاحبا	بجنابه لو إن حيا خالد
يلهى النديم عن النديم بلحظه	وعلى المدامة والسماع مساعد
اطلب بعيشك فى الملاح سميه	أبدا فانك لا محالة واجد
والورد إن فتشت فى فرد اسمه	ما فى الملاح له سمى واحد
هذى النجوم هى التى ربتهما	بحيا السحاب كما يربى الوالد
فانظر إلى الأخوين من ادناهما	شبها بوالده فذاك الماجد
أين العيون من الخدود نعاسة	ورياسة لولا القياس الفاسد

وناقضه أحمد بن يونس الكاتب فقال:

يا من يشبه نرجسا بنواظر   دعج تنبه إن فهمك راقد
اين القياس ولم يصح قياسه   بين العيون وبينه متباعد
والورد أشبه بالخدود حكاية   فعلام تجحد فضله يا جاحد
ملك قصير عمره متأهل   لخلوده لو أن حبا خالد
إن قلت إن الورد فرد فى اسمه   ما فى الملاح له سمى واحد
فالشمس تفرد فى اسمها والمشترى   والبدر يشرك فى اسمه وعطارد
أو قلت إن كواكبا ربتهما   بحيا السحاب كما يربى الوالد
قلنا أحقهما بطيع أبيه فى الـ   ـجدوى هو الزاكى النجيب الراشد
زهر النجوم تروقنا بضيائها   ولها منافع بعد ذا وعوائد
وكذلك الورد الانيق يروقنا   وله فضائل خمسة وفوائد
وخليفة إن عاب آب بنفحة   ونبيمه أبدا مقيم راكد
إن كنت تنكر ما ذكرنا بعدما   وضحت عليه دلائل وشواهد
فانظر إلى المصفر لونا منهما   وافطن فما يصفر إلا الحاسد

وقال سعيد بن هاشم الخالدى يفضل النوعين:

أيحب النرجس البلدى ودى   وما لى باجتناب الورد طاقه
كلا الاخوين معشوق وإنى   أرى التفضيل بينهما حماقه
هما فى عسكر الإزهار هذا   مقدمة يسير وذاك ساقه

وقال أبو العلاء المعرى الشروى يهجو النرجس:

انظر إلى نرجس تبدت   صبحا لعينيك منه طاقه
واكتب اسامى مشبه به   بالعين فى دفتر الحماقه
كـأنه ركبت عليها   صفرة بيض على رقاقه

وقال ابن الشلبى البغدادى فيهما:

ونرجس قابل فى مجلس   وورد غلا فى نعته الناعت
فخد ذا يخجل من لحظ ذا   وطرف ذا فى وجه ذا باهت

وقال منصور الهروى يصفه مع البنفسج:

قرن الزمان إلى البنفسج نرجسا   متبرجا فى حلة الاعجاب
كخدود عشاق غدت ملطومة   نظرت إليها أعين الاحباب

ولما دخل الاديب الفاضل المؤرخ الرحال نور الدين على بن سعيد إلى القاهرة المحروسة صنع له أدباؤها صينا فى بعض متنزهاتها وانتهت بهم الفرجة إلى روض نرجس وكان فيهم أبو الحسين الجزار فجعل يدوس النرجس برجليه فقال ناصر الدين حسن ابن النقيب:

يا واطئ النرجس ما تستحى ... ان تطئ الاعين بالارجل

فتهافتوا بهذا البيت وراموا اجارته فقال زكى الدين ابن أبى الاصبع:

فقال دعنى لم أزل محنقا ... على لحاظ الرشاء الأكحل

ثم أبوا أن يجيزه غيره أعنى ابن سعيد فقال:

قابل جفونا بجفون ولا ... تبتذل الارفع بالاسفل

ثم استدعاه ابن سابق إلى مجلس على النيل مبسوط بالورد وقد قامت به شمامة نرجس فقال فى ذلك:

من فضل النرجس فهو الذى ... يرضى بحكم الورد إذ يرأس

أما ترى الورد غدا قاعدا ... وقام فى خدمته النرجس

وقال مجد الدين ابن سحنون خطيب النيرب وقد أهدى نرجسا:

لما تحجبت عن طرفى وارّقنى ... بعد ولم تحظ عينى منك بالنظر

أرسلت مشبهها من نرجس عطر ... كيما أراك باحداق من الزهر

وقال صفى الدين الحلى ـ رحمه الله تعالى:

أتول وطرف النرجس الغض شاخص ... إلىّ وللنمام حولى المام

أيا رب حتى فى الحدائق أعين ... علينا وحتى فى الرياحين نمام

وما أحسن قول بدير المجنوى ـ رحمه الله تعالى:

وكأن نرجسه المضاعف خائض ... فى الماء لف ثيابه فى رأسه

وأظرف من قال:

يغض من فرط الحيا طرفه ... ما أحسن الغض من النرجس

ونقلت من خط المرحوم فخر الدين ابن مكانس لنفسه:

بعدك شمس الدين ياما جرى ... من أدمع الطل بخد الشقيق

والنرجس الغض غدا شاخصا ... فلا تخلى عنه للطريق

زاد على البيتين المتقدمين وأجاد:

ليس جلوس الورد فى مجلس قام به نرجسه يوكس

وإنما الورد غدا باسطا خدا ليمشى فوقه النرجس

قول أمين الدين الجوتان توفى سنة ثلاث وستين وستمائة:

نفش غض البان أذنابه وماس عند الصبح زهوا وفاح

وقال هل فى الروض مثلى وقد تعزى إلى غصنى قدود الملاح

فحدق النرجس يهزو به وقال حقا قلت ذا أم مزاح

بل أنت بالطول تحامقت يا مقصوف عجبا بالدعاوى القباح

فقال غصن البان من تيهه ما هذه إلا عيون وقاح

وأنشدنى من لفظه لنفسه ارتجالا بحضورى ونحن نتنزه بجزيرة الفيل وقد مررنا بقطعة نرجس نسقى سيدنا المقر المجدى فضل الله ابن مكانس ـ أبقاه الله:

وجدول الماء يجرى بين نرجسه لذى البصائر جرى الطيف فى المقل

وقال القاضى شهاب الدين ابن فضل الله فى كتابه مسالك أبصار فى ترجمة ابن تميم وحكى أنه حضر فى مجلس بعض الاكابر وقد غض المجلس وبهتت فيه عيون النرجس وقمعت فيه أصابع المنثور وأعطى فيه أمير الحسن ذؤابة شعره المنثور وطال اعمال الكئوس حتى غمضت الجفون ولم يبق دور الكاس خال من الجنون وأن أمنية ابن تميم قد تركه السكر ملقى وخلاخده المصرج محلقا فنهض غير مرة لتقبيله ثم خاف أعين قتيله فقعد بعد اللجاج ورجع رجوع الصادى والماء يجلى عليه فى الزجاج فقال:

كيف السبيل لأن أقبل خد من أهوى وقد نامت عيون الحرس

وأصابع المنثور تومى نحونا حسدا وتغمزنا عيون النرجس

البنفسج: بارد رطب فيه حرارة يسيرة تتحلل بها الاورام وهو ينفع المحرور وينوم نومات معتدلا ويذهب الصداع العارض من المرة الصفراء والدم الحريف وهو وشرابه يسهل المرة الصفراء وينفع للصدر والرئة وكذلك مرباه ينفع من ذات الجنب انتهى كلام ابن المحلى فى النور.

وقال صاحب مباهج الفكر ومناهج العبر البنفسج من الرياحين اللطيفة ومن الخواص الظريفة أن من أراد أن يكون البنفسج على غير سبيل الفلاحة فى السرعة أن يأخذ من السداب البستانى شيئا يكون مقداره فى القلة والكثرة بمقدار البنفسج ويكون السداب لم

يصبه الماء البتة بل يقطع من منابته ويجفف حتى يزول التراب المتعلق بعروقه عند قلعه ثم يؤخذ لكل طاقة بنفسج طاقة سداب ويعمد إلى أطراف مجارى الماء إلى أصول البنفسج فيجعل فيها السداب ويؤخذ من أغصان خشب التين المجففة شيء ثم يحرق الجميع على مقربة من البنفسج بحيث لا يبلغ لهب النار إليه فإنه متى فعل ذلك للبنفسج أهاجه وحمل بعد عشرين يوما من هذا الفعل.

ومن عجيب أمره أن الإنسان إذا تغوط فى مجارى الماء إليه مات ودبل وكذلك إن خرج منه ريح فى مزرعته وحاجته إن كان ابتدأ فى توريده فإنه يفسده ولا يكاد يجذب من الماء الذى يسقى به شيئا وأنه إذا دام الضباب عليه يوما أو نحوه ضعف ومتى توالى نقصت زهرته وصغر ورقه وتغيرت رائحته ومن الاشياء المضار قلة القصب فإنه لا يفلح بقربه ولا ينمو ومن آفاته المهلكة له والمضعفة لقوته لسرعة قبوله للتأثيرات الرديئة أن تقع صاعقة على اربعمائة ذراع منه أو أقل فإنه يهلك سريعا والبرد يفسده فساد الاصلاح معه وكذلك الرعد الشديد المتابع يضعفه ويوهنه والسمائم أيضا تتلفه والريح الشمال الباردة والمطر الكثير يذهب به لضعف ساقه وماء الآبار الثقيل يضعفه وربما أهلكه وكذلك الدخان إذا دام عليه ولا ينبغى أن يماسه فى منبته تراب من قبور أو ما يقرب من القبور فإن ذلك يضعفه وإن أصابه أهلكه.

الوصف من رسالة لابى العلاء عطاء بن يعقوب يصفه سماوية اللباس مسكية الانفاس واضعة رأسها على ركبها كعاشق مهجور ينطوى على قلب مسحور كبقايا النفس فى بنان الكاعب أو النقش فى أصابع الكاتب أو الكحل فى لحاظ الملاح الفاترات الفانيات القاتلات لازوردية فاقت بزرقتها على اليواقيت كأوائل النار فى أطراف كبريت.

وأجاد أبو هلال العسكرى فى قوله ـ رحمه الله تعالى:

ومعذر قال الاله لحسنه ... كن فتنة للعالمين فكانه
زعم البنفسج أنه كعذاره ... حسنا فلوا من قفاه لسانه

وقال آخر وهو المكيال ـ رحمة الله عليه آمين:

يا مهديا لى بنفسجا أرجا ... يرتاح صدرى له وينشرح
بشرنى عاجلا مصحفه ... بأن ضيق الامور ينفسح

وأنشدنى الشيخ عز الدين الموصلى لنفسه ـ رحمه الله تعالى:

بنفسج الروض تاه عجبا ... وقال طيبى للجو ضمخ
فأقبل البان فى احتفال ... والزهر من غيظه تنفخ

وقال مجير الدين بن تميم:

عـاينت ورد الروض يـلطم خـده ... ويقـول وهو على البنفسج محنق
لا تقـربوه وإن تضـوع نشـره ... مـا بينكم فـهـو العـدو الازرق

آخـــر:

بنفسجا جمعت أوراقه فحكت ... دمعا تشرب كحلا يوم تشتيت
كـأنه بين طاقـات ضعـفن بهـا ... أوائل النار فى أطراف كـبريت

ويعجبنى قول الراضى بالله وإن لم يكن مما نحن فيه لكن الشىء بالشىء يذكر:

قـالوا الرحيل فـانشبت أظفارها ... فى خدها وقد اعتلقن خضابا
فظننت أن بنانهـا من فـضـة ... تطفت بأرض بنفسج عنابا

حار يابس وإذا غمس فى الماء اعتدل وقلت حرارته وشمه ينفع من اللقوة ويضمد به مدقوقا للسعة العقرب فيسكن وينفع المبرود الدماغ ويضر المحرور. انتهى كلام العنبرى.

وذكر الشيخ جمال الدين بن نباتة فى كتابه شرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون عند ذكر كسرى أنوشروان أنه كان جالسا بالايوان وإذا بحية قد دنت من عش حمامة فى بعض شرف الايوان لتأكل فراخها فرمى الحية بسهم أو ببندقة فقتلها وقال هكذا نفعل بعدو من استجار بنا فلما كان بعد أيام جاءت الحمامة بحب فى مناقرها فألقته إليه فأخذه وقال ازرعوه فنبت ريحانا لم يكن يعرفه فقال نعم ما كافأتنا به الحمامة نسأل الله الذى ألهمها أن يلهمنا الاحسان إلى رعيته والشكر على نعمته.

قلت: وذكر الشيخ جمال الدين ما خص به كسرى من الاشياء الغريبة فلا بأس بايراد نبذة منها إذ كان كتابنا هذا يشتمل على مآثر فمنها الفيل الابيض لركوبه طوله اثنا عشر ذراعا والقطعة الياقوت المسماة لسان الثور تضىء أكثر من السراج والفلهيد المغنى واضع العود الخراسانى على اثنى عشر وترا كل من ضرب به جرح إلا هو وكان يعمل له كل يوم مع طعامه مهر من الخيل وعناق زرقاء مغذاة بألبان النعاج يذبحان بسكين من ذهب ويسجر التنور بالعود ويسمط ما يسمط بالجمر المغلى ويطلى بالمسك والملح ويعلق فى سفود من ذهب ورياحين من ذهب فإذا برد حمل ووضع على خوان من ذهب ويقدم إليه فيأكل أكثره ويتحف بالبقية من أحب من ندامائه ويكسر التنور ويجدد كل يوم مثله واجتمع على بابه سبعون ملكا وكانت له حكايات حسنة فى سيرته أضربت عنها لئلا نخرج عما نحن بصدده.

رجع: قال الحسن بن سهل أربعة من الرياحين تقوى بأربعة من الطيب ليكمل ذكاؤها

الورد بالمسك والنرجس بماء الورد و البنفسج بالعنبر والريحان بالعبير الوصف قال ابن المعتز:

قضيب من الريحان شابه لونه إذا ما بدا فى العين لون الزمرد
فشبهته لما تأملت حسنه عذارا تدلى فى عوارض أمرد

قلت: وأنشدنى الشيخ عز الدين الموصلى من لفظه فى مليح معذر:

بخد الحب ريحان نضير لاسطره حروف ليس تقرى
فراعيت النظير وقلت حبى عذارك أخضر والنفس خضرى

وقال مجير الدين بن تميم:

ومجلس راق من واش يكدره ومن رقيب له باللوم ايلام
ما فيه ساع سوى الساقى وليس به بين الندامى سوى الريحان نمام

الآس بارد يابس دهنه يقوى أصول الشعر ويمنع تساقطه ويطيله ويسوده وورقه اليابس ينفع صنان الابط ويطيب رائحة الجسم وإذا طبخ وتمضمض بمائه قوى الأسنان واللثة ويمنع من الصداع الحاد وشمه يقوى القلب المحرور ويزيل خفقاته وينفع حبه من الاسهال ويقوى المعدة. انتهى كلام العنترى فى النور المجتنى.

وقال صاحب المباهج أنه يتصرف فى أشياء كثيرة عظيمة النفع حبه وورقه وقوته البرودة فى الأولى وحبه نافع من الخفقان وضعف القلب وهو بجملته قاطع للاسهال المتولد من الصفراء ومن ابتلع من ورقة من الخمسة إلى السبعة ورقات فإنه يقوى المعدة وينفى ما فيها ويحلل رياحها وأما حبه فإنه لما فيه من الحلاوة واللطافة ينفع للسعال العارض من الحرارة من غير اضرار بالصدر والرئة ولما فيه من العفوصة يقطع نفث الدم وحرقة المثانة وينفع الاسهال المزمن وماؤه إذا غسل به الشعر حصبه وقواه من الانتشار وصد أصله وينفع من الابرية والقروح الرطبة وإذا جفف الورق ودق ونخل وحمل على الآباط والافخاذ الندية قطع نداوتها ومنع عرقها.

وعن ابن عباس ﷺ قال: اهبط آدم من الجنة بثلاثة أشياء منها الآسة وهى سيدة ريحان الدنيا.

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «والحسين بكلتا يديه وردة إن الورد سيد رياحين أهل الجنة ما خلا الآس» وهو باليونانية المرسين.

الوصف:

خليلى ما للآس يعبق نشره إذا هب أنفاس الرياح العواطر
حكى لونه أصداغ ريم معذر وصورته آذان خيل نوافر

وما ألطف ما ألم به الشيخ شمس الدين بن الصائغ فى قوله:

خط آس العذار فى الخد لاما عرفتنى سفاهة اللوام
أنا فى كسرة لبعدى عنها جبر مثلى بالآس أو باللام

وقال آخر فأغرب:

اعجب بآس معجب مونق يعجب منه أى إعجاب
كأنما تقطيع أوراقه ما بيننا أنصل نشاب

قلت: فى البيت الأول عجعجات كثيرة ولكنه أصاب الغرض فى الثانى ويمكن أن يقول:

* أحبب بآس أخضر مؤنق *

الياسمين: حار يابس فى آخر الدرجة الثالثة نافع من الرطوبة والبلغم صالح للمشايخ ومن كان بارد المزاج ومن الصداع العارض من البلغم والمرة السوداء وعفونة البلغم وكثرة شمه تورث الصفار يفعل ذلك فى الحار المزاج ودهنه ينفع من أمراض العصب الباردة والخالص من دهنه يرعف. انتهى كلام ابن المحلى.

وقال صاحب المباهج فى الفلاحة اذا اردت ياسمينا أحمر اللون فانه يشق قصب الياسمين ويخرج ما فيه ويحشى مكانه بالك مسحوقا ويوضع عليه طين ويلف عليه مشاق ويغرس ويتعاهد بالسقى فانه يزهر ياسمينا أحمر والازرق بالنلح والاصفر بالزرنيخ مجرب.

الوصف:

ولما خلناها سماء زبرجد لها أنجم زهر من الزهر الغض
تناولها الجانى من الارض قاعدا ولم أر من يجنى السماء من الارض

آخر فى الاصفر منه:

كأنما الياسمين حين بدا يشرق منه جوانب الكتب
عساكر الروم نازلت بلدا وكل صلبانها من الذهب

وقال محيى الدين عبد الظاهر ـ رحمه الله تعالى:

وياسمين قد بدت ازهاره لمن يصف
كمثل ثوب أخضر عليه قطن قد ندف

الحيرى: وهو المنثور حار يابس فى الثانية فيه جلاء وتلطيف وينفع من السدة فى الرأس من البلغم وهو داء فائق للاورام وخاصة لما طال لبثه وعسر ويجتذب المشيمة والاجنة الموتى بأن يشم دهنه وتدلك به الاخصار والمغابن وفم الرحم والحيرى ألوان مختلفة أصفر ذهبى وهو أرفعها وخمرى وبنفسجى واكحل وملمع وبياض وغير ذلك من الألوان والأبيض هو أردأها والأصفر الذهبى ذكى الرائحة يشم ليلا ونهارا وأما سائر أنواعه سوى الأبيض فانها لا يشم لها بالنهار رائحة ما دامت الشمس طالعة فاذا غابت ظهر لهذه الألوان رائحة عجيبة عطرة مشاكلة لروايح القرنفل أو روايح ماء القرنفل المصعد بماء الورد ولا تزال رائحتها تزداد طيبا الى طلوع الشمس ثم تزول تلك الحمرة والرائحة باقى النهار الى وقت المغيب وأما الأبيض فلا يؤدى رائحة فى ليل ولا نهار وهو أقلها نفعا وأردأها وفى أصنافه منفعتها واحدة وقد يتخذ من الأصفر منه والخمرى والبنفسجى دهن يربى بالسمسم كما تربى أدهان الازهار فينفع الاورام الباردة ويحلها ولعقد الرقاب والاعصاب المعارضة لهما.

وادمان شمه ينفع من اللقوة والفالج وذوى الامزجة الباردة واذا أخذ من بزر الاصفر مجففا وزن دانقين يسحق مع زهرتين من زهر القرنفل الذكر وأضيف اليهما وزن حبة من مسك أذفر خالص ووزن القرنفل من أنفحة أرنب وسحق الجميع ورتب على الصلابة بالبان المبسوس بالمسك واتخذ منه فرزجات وتحملت المرأة فرزجة منها فى ليلة طهرها وواقعها بعلها فانها تحمل باذن الله من تلك المواقعة.

وذكر جالينوس أن بزر الحيرى اذا سحق مع دم هدهد ودهن زئبق واحتملته المرأة وواقعها زوجها حملت.

وهو من النبات الذى اذا لقطت ورده امرأة حائض فسد وذبل وهلك الخاصية فيه ولا ينبغى أن يعمل أعماله كلها امرأة البتة حائضا كانت أو غير حائض بل الرجال الذين أسنانهم فوق أسنان الصبيان ويطرح بزره الذى يطرحه وهو طاهر نظيف بعيد العهد بملامسة النساء ويعالج جميع أعماله والقمر زائد فى الضوء وان كان متصلا بالسعود جيد المكان فى الفلك كان أجود، ومما يوافقه أن يذر فى أصله شيء من دقاق بعر المعز بعد السقى فانه ينفعه ويزيد فى رائحته زيادة بينة وليس يحتاج الى الشمس الحارة لانها تضعفه ولا يكثر عليه الماء اكثارا مفرطا فانه يضره. انتهى كلام صاحب المباهج.

الوصف:

قال مجير الدين بن تميم:

حاذر أصابع من ظلمت فانه يدعو بقلب فى الدجى مكسور
فالورد ما ألقاه فى جمر الغضا الا الدعا بأصابع المنثور

وقال متعصبا للورد:

ولم أنس قول الورد لا تركنوا إلى معاهدة المنثور فهو يمين

وقال متعصبا له على النرجس

مذ لاحظ المثور طرف النرجس الـ ـمزور قال وقوله لا يدفع
فتح عيونك فى سواى لاننى عندى قبالة كل عين أصبع

وقال:

ومذ قيل للمنثور انى مفضل على حسنك الورد الجليل عن الشبه
تلون من قولى وزاد اصفراره وفتح كفيه وأدمى إلى وجه

وقال ابن حجة:

رأيت من المنثور بعض وقاحة ولم أدر ما بين الغدير وبينه
تلون منه ثم مد أصابعا إلى وجهه عمدا وحمر عينه

وقال:

ومذ قيل للمنثور ان الورد قد وافى على الازهار وهو أمير
بسمت ثغور الإقحوان مسرة لقدومه وتلون المنثور

وقال:

لما دعى المنثور أن الورد لا يأتى وأن يصلى بنار السعير
ودت ثغور الاقحوان لو أنها كانت تعض أصابع المنثور

وأحسن التصرف الامير شهاب الدين الحاجبى فى قوله:

ولقد نثرت مدامعى ودمى معا يوم الوداع وخاطرى مكسور
لا تعجبوا لتلون فى أدمعى لا ندع أن يتلون المنثور

الاذريون حار يابس منافعه أن بسحق بالخل ويطلى به داء الثعلب ينبت الشعر فيه وينفع سائر السموم لا سيما اللدوغ.

وقال صاحب المباهج ان شرب من أصله خمسة دراهم مع عسل أو سمن أسهل

اسهالا شديدا بلغمـا وكيموسا بانيا ويشربه أصحاب اليـرقان وينبغى أن يضطجع من يشربه فى بيت حار ويغطى بثياب كثيرة فـانه يسيل منه عرق لونه لون المرة الصـفراء والشربة منه ثلاث مثاقيل ونصف بشراب حلوى وبماء العسل وينفع شرب بالطلاء من السم القاتل ولدغ الهوام ومن عجائب خواصه أنه ان دخلت امرأة حـامل بيتا فيه اذريون أسقطت وإن تحملت به امرأة فى فرجها ثم جامعها بعلها حملت.

وقال ديسقوريدس أصل بخور مـريم اذا علق على المرأة منع الحبل واذا خطته المرأة الحامل أسقطت واذا أخـذ منها وهى جافة وسحق منهـا مثقال وسقى بمـاء فاتر وعسل لمن يحب أن يسهل باطنه فانه يجليه بلغما كثيرا وينقى كل ما فى صدره من البلغم ويخرج ما فى باطنه من الخام وان شـربت منه امرأة أسهل حيـضها وان أحتـت منه صـوفة أسهل حيـضها وهى تنزل الولد الميت ويشرب منها لعسر البول وعـسر الولد ولمن سقى سما أو لدغه شىء من ذوى السموم وهى سليمـة مأمونة لا يخاف منها نافعة وهى تنفع لـوجع الكبد يسقى منها رطلا وعسلا وبماء فـاتر وعسل وهى نافعة من السرطان ومن العقـد التى تخرج فى الاصابع والسلع يعمل لهم منها مرهم ثم يطلى عليها.

والاذريون من الاشياء الصابرة على العطش وهى كبيرة وصغيرة ونباتهما سواء فالكبيرة شجرة مريم والصغيرة اذن العجوز.

وزعم السلف أن الحامل اذا أمسكته بيديها مطبقة احداهما على الاخرى ان الجنين يناله ضـرر شديد فـان ادامت امسـاكـه واشتمـامه أسقطت وان عسـرت الولادة على الحـامل فلتمسكه بيديهـا كمـا وصفنا فـانها ترمى الولد سـريعا واذا بخر به هرب الفار والوزغ من الموضع الذى بخر فيه وفيه منافع جمة اختصرناها.

الوصف: قال الصنوبرى:

كأن آذريونها من فوق تلك القضب ... خيام مسك فوقها سرادق من ذهب

وقال ابن المعتز وأجاد:

كـأن أذريونها والشمس فيه كاليه ... مـداهن من ذهب فيـها بقـايا غاليـه

قال ابن حجة فى الاذريون:

كـأن أذريونهـا ونـوره قـد أبهـجـا ... وبيض برق لامع فى جنح ليل قد دجا

السوسن بضم السين لحن والصواب بالفتح وزن جوهر وكوثر ولم يسمع بالضم إلا جـوذر، وهو حـار يابس فى أول الدرجة الثانية ينفع من كـان بارد المـزاج ومن الاوجـاع

المعارضة فى العصب من البلغم ودهنه نافع من وجع العصب المتولد من البلغم ووجع الرحم والاسمانجوى أقل حرارة وأصل الاسمانجوى يسهل الماء الاصفر الشربة منه مثقال. انتهى كلام صاحب النور.

الوصف:

قال أبو نواس رحمه الله تعالى:

سقيا لارض إذا ما نمت نبهنى | على الهدو بها قرع النواقيس
كأن سوسنها فى كل شارفة | على الميادين اذناب الطواويس

قال ابن حجة فى السوسن:

بدا سوسن الروض المدبج أزرقا | وأصفر يعلو طوله فوق مبيض
كأن الربا أرخت ذيول غلائل | مصبغة والبعض أقصر من بعض

اللينوفر وهو ازرق وأصفر وأحمر وأبيض وجميع اصنافه باردة رطبة منوّم مخدر للدماغ أقوى فعلا من البنفسج فى التنويم وينفع الصدر والرئة فى الامراض الحارة ويزيل الصداع وكثرة شمه تزيل الاحتلام ويقطع شهوة الباه لا سيما ان شرب منه فانه يجمد المنى لخاصية فيه لا سيما أصله وبزره وشرابه ودهنه نافعات لامراض الرأس من حرارة. انتهى كلام ابن المحلى.

الوصف: قال ابن صابر:

يا حبذا بركة نيلوفر | قد جمعت من كل فن عجيب
أزرق فى أحمر فى أبيض | كقرصة فى صحن خد الحبيب
كأنه يعشق شمس الضحى | فانظره فى الصبح وعند المغيب
إذا تجلت يتجلى لها | حتى إذا غاب سناها يغيب
يدنو إليها شاخصا طرفه | ولا يتحاشى نظرات الرقيب
لا يبتغى وجها سوى وجهها | فعل محب مخلص فى حبيب

وقال ابن حمديس:

اشرب على بركة نيلوفر | محمرة الاوراق خضراء
كانما أزهارها أخرجت | ألسنة النار من الماء

وقال ابن تميم وأجاد:

لينوفر لما تلبّس ماؤه | ثوبا فتاه على النجوم بثوبه
لحظته أعينها فنكس رأسه | خجلا وغاص من الحيا فى ثوبه

وقال أيضا:

غدا الليِنوفر المصغر يحكى النـ ـنجوم فلا يغادرها شبيها
تغوص العين فيه إذ اتجلى النـ ـنهار وفى الظلام يغوص فيها

وقال أيضا:

ولينوفر كالزهر شكلا ومنظرا محاسنه فيها اللواحظ ترتع
وكل نجوم لكن الفرق بينهما تغيب صباحا وهو فى الليل يطلع

وقال ابن حجة:

لينوفر الليل مذ أبدى تلونه أحمر وأزرق من ساسينا وشكا
قلنا له ذاك لون واحد وبه يسمو وأنت بليد وهو فيه ذكا

الباب السادس عشر
فى الروضات والبساتين

أجمع جوابو أقطار الارض على أن متنزهاتها أربعة سغد سمرقند وشعب بوان ونهر الابلة وغوطة دمشق، قال أبو بكر الخوارزمى قد رأيتها كلها فكان فضل الغوطة على الثلاث كفضل الاربع على غيرهن كأنها الجنة صورت على وجه الارض فاما السغد فهو نهر تحف به قصور وبساتين وقرى مشتبكة العمائر ما مقداره اثنى عشر فرسخا فى مثلها، وأما شعب بوان فبقعة من نواحى كورة سابور يكون مقدارها فرسخين قد ألحقتها الاشجار ظلالها وجاست الانهار خلالها وهذا الشعب لبوان بن أبرج أفريدون وفيها يقول المتنبى:

مغانى الشعب طيبا فى المعانى ... بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربى فيها ... غريب الوجه والبدن واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان
غدونا نغض الاغصان فيه ... على أعرافها مثل الجمان
فسرت وقد حجبن الشمس عنى ... وجئن من الضياء بما كفانى
والقى الشرق منها فى ثيابى ... دنانيرا تفر من البنان
لها ثمر يشير اليك منه ... باشربة وقفن بلا أوان
وأمواه تصل بها حصاها ... صليل الحلى فى أيدى الغوانى
اذا غنى الحمام الورق فيها ... أجابتها الاغانى والقيانى
ومن بالشعب أحوج من حمام ... اذا غنى وناح الى البيان
وقد يتقارب الوصفان جدا ... وموصوفا هما متباعدان
تقول بشعب بوان حصانى ... أعن هذا تسير الى الطعان
أبوكم آدم قد سن هذا ... وعلمكم مفارقة الجنان

وأما نهر الابلة وهو من أعمال البصرة وطوله أربع فراسخ وعلى جانبيه بساتين كأنها بستان واحد قد حط على خط مستقيم وكأن نخله غرس فى يوم واحد.

وأما الغوطة وهى من حيز دمشق فانها ناحية يكون طولها ثلاثين ميلا وعرضها خمسة

عشر ميلا مشتبكة القرى والضياع لا يكاد أن يقع للشمس على أرضها شعاع للالتفاف أشجارها واكثاف أزهارها.

وللشعراء فى وصفها قصائد كثيرة أضربنا عن ذكرها لتردد العلل فيما يختار منها اذ كلها حسان لو جمعت لحفيت من تسطيرها الاقلام وكلت البنان، وقد روى فى بعض الاخبار عن كعب الاحبار انه قال: غوطة دمشق بستان الله فى أرضه، وقال جمال الدين بن نباتة كتبها المملوك ومنظر الروض قد شاق ودمع الغيث قد رقا ووجه الارض قد راق والغصون المنعطفة قد أرسلت أهواء القلوب بالاوراق وحمائمها المترنمة قد جذبت القلوب بالاطواق والورد قد احمر خده الوسيم وفكت أزراره من أجياد القضب أنامل النسيم وخرجت أكفه من أكمامه بأخذ البيعة على الازهار بالتقديم.

وقال مجير الدين بن تميم:

كيف السبيل بلثم من أحببته ... فى روضة للزهر فيها معرك

ما بين منثور وناظر نرجس ... مع اقحوان وصفه لا يدرك

هذا يشير بأصبع وعيون ذا ... ترنو إلىّ وثغر هذا يضحك

وقال آخر وحللنا موضع كذا فافترشنا من زهره أحسن بساط واستظللنا من شجره بأوفى رواق وطفقنا نتعاطى شموسا من أكف بدور وجسوم نار فى غلائل نور الى أن جرى ذهب الاصيل على لجين الماء ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء.

وقال الشريف على بن دفتر خوان:

ودوحة سكرت أغصانها بصبا ... فللهوى فى معانيها اشارات

ماست فنقطها غيث بلؤلؤة ... ففوق أوراقها منه جمانات

فهن فى العين هاءات مطمسة ... من اللجين وان سالت فميمات

وقال على بن ظافر فى منزل قد انقطفت قدود أشجاره وأبسمت ثغور أزهاره وذاب كافور مائه على عنبر طيبه وامتدت بكاسات الجلنار أنامل غصونه والنسيم قد خفت واعتل وسقط رداؤه الخفاق فى الماء فابتل ووهنت قوته حتى ضعف عن السير واشتد مرضه حتى ناحت عليه نوايح الطير (فخر الترك) أندم المجنوى:

الروض مقتبل الشبيبة مؤنق ... خضل يكاد نضارة يتدفق

نثر الندى فيه لآلى عقده ... فالزهر منه متوج وممنطق

وارتاع من مر النسيم به ضحى ... فغدت كمائم نوره تتفتق

وسرى شعاع الشمس فيه فاتقى ... منها ومنه سنا شموس تشرق
فالغصن مياس القوام كأنه ... نشوان يصبح بالنعيم ويعبق
والطير ينطق معربا عن شجوه ... فيكاد يفهم عنه ذاك المنطق
غردا يغنى للغصون فينثنى ... طربا جيوب الطل منه تشقق
والنهر لما راح وهو مسلسل ... لا يستطيع الرقص ظل يصفق
فتمل ايام الربيع فانها ... ريحانة الزمن الذى يستنشق

برهان الدين القيراطى فى دمشق سمى سهمها على قوس الكواكب وأقبلت من كتائب زهورها فى مواكب وتحرك عودها حين غنت عليه من الورق القيان وطفح يزيدها فقلت وهذا مما يعجب أبا سفيان، وقال سيدنا ومولانا أقضى القضاة بدر الدين محمد المخزومى المالكى الشهير بابن الدماميني - أسبغ الله عليه ظلاله - يصفها عند دخوله اليها فى ثامن رمضان المعظم سنة ثمانمائة ونقلتها من خطه فتأملها المملوك فاذا هى جنة ذات ربوة وقرار معين وبلدة تبعث محاسنها الفكر على حسن الوصف وتعين وحسبك بالجامع الفارق بينها وبين سواها والانهار التى اذا ذكر قتل المحل فما أجراها واذا سمع حديث الخصب فما أرواها ما أقول الا منتزهات مصر عارية من المحاسن وهذه ذات الكسوة ولا أن النيل احترق إلا من الاسف حيث لم يسعده الدهر بالصعود الى تلك الربوة ولا أظنه احمر الا خجلا من صفاء أنهارها ولا ناله الكسر الا لتألمه بالانقطاع عن الوصول الى سقى أزهارها فلو رأى العاشق جبهتها لسلا بمصر معشوقه ونسى ظهور جواريه المتحببة بمقامات غصونها المشوقة ولو تطاولت المجنونة الى المفاخرة لتأخرت الى خلفها متخبلة وأجمحت عن الاقدام حين تحركت لها بدمشق السلسلة وحق مصر أن لا يجرى حديث المفاخرة فى وهمها وأن تتقى شر المنازعة قبل أن تصاب فى هذه البلدة بسهمها فسقى الله منتزهاتها التى طرب المملوك برؤية حبكها وطالما اهتزت له المعاطف على السماع ورأى بها كل نهر ذاب عنه الجليد فانعقد على حلاوة شكره الاجماع تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم.

وقال البدر يوسف لؤلؤ الذهبى:

هلم يا صاح إلى روضة ... يجلو بها العانى صدا همه
نسيمها يعثر فى ذيله ... وزهرها يضحك فى كمه

وقال ابن عمار:

ياليلة بتناها فى ظل اكناف النعيم من ... فوق أكمام الرياض ونحت أذيال النسيم

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدى فى تشبيه القمر من خلال الاغصان:

كأنما الاغصان لما انثنت ... امام بدر التم فى غيهبه
بنت مليك خلف شباكها ... تفرجت منه على موكبه

وقال سيدنا بدر الدين محمد بن الدماميني فى كتابه الذى وضعه على غيث الادب الذى انسجم فى شرح لامية العجم تصنيف الشيخ صلاح الدين الصفدى وسماه كتاب نزول الغيث عند ذكر هذين البيتين: ظاهر هذه العبارة أن الاغصان شبهت فى حال انثنائها امام البدر فى الدجا ببنت مليك تطل من خلف شباكها للنظر فى موكب أبيها وذلك عن مظان التوجيه بمعزل ومقصوده أن البدر فى حال ظهوره من خلال الاغصان المثنية على الصفة المذكورة شبه ببنت مليك على تلك الحالة تمثيلا للهيئة الاجتماعية بشبيهها لكن لفظه لا يساعده على هذا المطلوب فانه جعل الاغصان مبتدأ وأخبر عنه بقوله بنت مليك فلم يتم له المراد وكثير ما يقع له فى هذا.

قال يصف خالا على شفة:

قد شبه الخال على ثغره ... تشبيه من لا عنده شك
كسبحة من جوهر تضمنت ... حق حقيق قفله مسك

وأين هذا من قول الطغرائى:

انظر الى الجنة فى ثغره ... لا ريب فى ذاك ولا شك
أما ترى فيه الرحيق الذى ... ختامه من خاله مسك

على أن مقطوع الصفدى الاول مع ما فيه من العيب مأخوذ من قول ابن قرناص.

وحديقة غناء ينتظم الندى ... بفروعها كالدر فى الاسلاك
والبدر يشرق من خلال غصونها ... مثل المليح يطل من شباك

وقد عيب هذا البيت وشتان بين ذاك وبينه فتأمله: انتهى كلام الشيخ بدر الدين وقال بعضهم وأحسن:

نحن فى عب سماء أقلعت بعد الارتواء وأقشعت عند الاستغناء والنبت خضل ممطور والنقع ساكن محصور رش جبين النسيم وابتل جناح الهوى وضربت خيمة الغمام واعرورقت مقلة السماء وقام خطيب الرعد ونبض عرق البرق.

وقال ابن الساعاتى (توفى سنة أربع وستمائة بالقاهرة وعمره احدى وخمسون سنة):

ولد نزلت بروضة عبقية ... رتعت نواظرنا بها والانفس
فظللت أعجب حيث يحلف صاحبى ... والمسك من نفحاتها يتنفس
ما الدوح الا جوهر والجو الا ... عنبر والارض الا سندس
سفرت شقائقها فهم الاقحوا ... ن بلثمها فرنا إليها النرجس
فكأن ذا خد وذا ثغر تحا ... وله وذا أبدا عيون تحرس

بدر الدين بن يوسف بن لؤلؤ الذهبى ـ رحمه الله تعالى:

وحديقة مطلولة باكرتها ... والشمس ترشف ريق ازهار الربا
ينكر الماء الزلال على الحصا ... واذا غدا بين الرياض تشعبا

وقال:

باكر الى الروضة نستحلها ... فثغرها يا صاح بسام
والنرجس الغض اعتراه الحيا ... فغض طرفا فيه أسقام
والغصن فيها ألف قد بدا ... والنهر فى أرجائها لام
وبلبل الدوح فصيحا على ... الايكة والشحرور تمتام

صفوان بن ادريس (توفى سنة ٩٨ ـ رحمه الله تعالى):

جاد الربا من بانة الجرعاء ... نوآن من دمعى وغيم سماء
ياليت شعرى والزمان منقل ... والدهر ناسخ شدة برخاء
هل نلتقى فى روضة موشية ... خفاقة الاغصان والافياء
وننال فيه من تألفنا ملوما ... فيه سخنة أعين الرقباء
فى حيث أطلعت الغصون سوالفا ... قد قلدت بلآلئ الانداء
وجرت ثغور الياسمين فقبلت ... عنى عذراء الآسة الميساء
والورد فى شط الخليج كأنه ... رمد ألم بمقلة زرقاء
وكأن غصن الزهر فى خضر الربا ... زهر النجوم تلوح فى الخضراء
وكأنما جاء النسيم مبشراً ... للروض يخبره بطول نواء
فكساه خلعة طيبة ورمى له ... بدراهم الأزهار رمى سخاء
وكانما احتقر الضيع فبادرت ... بالعذر عنه نغمة الورقاء
والغصن يرقص فى حلى أوراقه ... كالخود فى موشية خضراء
واجتر ثغر الاقحوان بما رأى ... طربا وقهقه منه جرى الماء
أفديه من أنس تصرم وانقضى ... فكأنه قد كان فى الاغفاء

ونقلت من خط سيدنا ومولانا بدر الدين محمد بن الدماميني هذا اللغز وكتب به إلى بعض الفضلاء الثغر المحروس ما قول مولانا ـ أبقاه الله تعالى ـ وضاعف اقباله ووالى فى ذات ينعم بها الجانى وتطرب فى مرابعها الالحان المغنية عن المثالث والمثانى خرساء لا تعرف حديث الادب المأثور وطالما تأملها الكاتب فوجد بها السجع والمنثور عيونها تذبل إذا شربت وأعطافها ترقص إذا طربت طالما تحركت السواكن وهاجت البلابل ونهر من سأل عنها فاستعذب نهرها السائل وروى منها عن الزهرى حديث حسن ولم يعز اليها مع ذلك براعة ولا لسن ورمقت الاعين خدودها وودت الانفس على الحالين ورودها استحسنت الخواطر حديث راويها إذا اعتل واستروجت لنفسه الطيب إذا اختل إن عرف لفظها كان علما لمحل لا يطرقه محل ولا ينكر تأنيثه فحل يحدث المصرى بحلاوته ويخبر بلفظه وطلاوته قد سهر من قديم تألفه البسطة وجهل السكر على أنه ما زال يقول بالنقطة يعرف المعشوق وآثاره وينال من المشتهى أمانيه وأوطاره وتوطأ فيحمد حمله الانعال وتقف عنده الجوارى على الارجل فلا تود الانتقال وينشد من شغف بمعانيه وبعث طرفه لتأمل مغانيه وكتب إذا أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر والا فعلم على جملة يعرفها الطالب ويحسن ارتكاب المهالك لنيل ما فيها من المطالب قد فتحت لارباب المقاصد أبوابها ومنحت الافهام الضالة هديها وصوابها وصحت بما اشتملت عليه من العلل ونسخت مع أنها أحكمت بالسلامة على الحلل:

وقد بسقت منها الفروع وأثمرت ... إلى أن جنا منها الورى ثمر العليا
وفى وصفها يبدو الطباق فضدها ... يموت بها غما وصاحبها يحيى

الوزير بن عمار:

وليل لنا بالسد بين معاطف ... من النهر ينساب انسياب الاراقم
بحيث اتخذنا الروض جارا تزورنا ... هداياه فى أيدى الرياح البواسم
تبلغنا أنفاسه فتردها ... بأعطرها أنفاس وأزكى المباسم
تسير الينا ثم عنا كأنها ... حواسد تمشى بيننا بالنمائم

وقال القاضى بدر الدين بن الدماميني لنفسه ـ رحمه الله.

يقول مصاحبى والروض زاه ... وقد بسط الربيع بساط زهرى
تعال نباكر الروض المغدا ... وقم نسعى إلى ورد ونسرى

وقال أبو جعفر ابن الشعرى (توفى سنة إحدى وثلاثين وستمائة):

يا أهل ترى أظرف من يومنا قلد جيد الأنق طوق العقيق
وأنطق الورق بعيدانها مرقصة كل قضيب وريق
والشمس لا تشرب خمر الندى فى الروض إلا بكئوس الشقيق

وقال بعضهم:

فى روضة علم أغصانها أهل الهوى العذرى كيف العناق
هبت بها ريح الصبا سحرة فالتفت الأشجار ساق بساق

وقال الشيخ عز الدين الموصلى ونقلتها من خطه ـ رحمه الله تعالى:

منابر الدوح فيها الورق قد سجعت فمالت القضب للألحان واستمعت
وهاجها سحرا مر النسيم فمذ هب القبول إلى طيب الصبوح دعت
أبدت فرادى ومثنى من عجائبها تلك الرياض التى للحسن قد جمعت
بينا ثغور بها للزهر قد بسمت أضحت عيونا بماء الطل قد دمعت
ومذ تلون وجه الروض قابله نهر به أعين فى صدره دفعت

وقال الشيخ الفاضل الكامل يحيى بن هذيل التجيبى أبو زكريا كذا ذكره العلامة ذو الوزارتين لسان الدين محمد بن الخطيب فى تاريخه الإحاطة بتاريخ غرناطة (وذكر أن وفاته سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة):

نام طفل النبت فى حجر النعامى لاهتزاز الظل فى مهد الخزاما
وسقى الوسمى أغصان النقا فهوت تلثم أفواه الندامى
كحل الفجر لهم جفن الدجى وغدا فى وجنة الصبح لثاما
يحسب البدر محيا ثمل قد سقته راحته الصبح مداما
حوله الزهر كئوس قد غدت مسكة الليل عليهن ختاما

وقال الوزير العلامة فخر الدين عبد الرحمن بن مكانس ـ تغمده الله بالرحمة ـ يصف شجرة بشاطئ النيل المبارك بالروضة:

يا سرحة الشاطئ المنساب كوثره على اليواقيت فى أشكال حصباء
حلت عليك عز اليها السحاب إذا نوء الثريا استهلت ذات انوائى
فإن تبسم فيك النور من جذل سقاك من كل غيم كل بكائى
رحماك بالوارف المعهود منك فكم لنا بظلك من اهواء اهوائى
وكم نزلنا مقيلا منك ما حمى الهجير إذ حيث لا مرائى لحربائى

يظل من قبل الفضفاض فى ظل ... من الغمام يقينا كل ضرائى

يا طيبة بدواء القيض عالمة ... أنت الشفاء لدى الرمضا من الداء

لا صوح الدهر منك الزهر وانبجست ... عليك كل هتون الودق سوداء

عصابة الشرب أسوار روض زاهرة ... تعزى لاكرام أخوال وآبائى

خمائل الروض منشاها ومرضعها ... ضرع النميرين من نيل وانوائى

فاستمهدت دوحها المخضل وافترست ... لجم الربا ورقت عرشا على الماء

قريرة العين بالانواء باردة الـ ... ـقلب الذى لم تنله غير سراء

مقيل ندمان بل مغنى حمائل بل ... كناس أرام بل أفناء درماء

لها مطارف سجسج فمصيفها ... ظل يعادل فيه طيب مشتاء

قديمة العهد هزتها الصبا فصبت ... فهى العجوز تهادى هدى مرهاء

لا يدرك الطرف أقصاها على كلك ... حتى تعود له لحظات حولاء

وصوت بلبلها الراقى ذرى غصن ... بحلة من دمقس الريش دكناء

كقرع ناقوس ديرى على شرف ... مسبح فى سواد الليل دعاء

خلية حين أجنيت الضلوع على ... نار بشجوى بها لاحب لمياء

تهكمت بى فلم تجنى أضالعها ... على الهواء وأجتها على الماء

بديعة الحسن قد فاز الجناس لها ... من المعانى بأفنان وأفياء

وقام عنها لسان الزهر ينشدنا ... للهو كم أرج ما بين ارجاء

كم صفق الموج من أزهارها طربا ... فنقطته بيضاء وصفراء

وكم طربت لما أبدته من ملح ... يصبو له كل ذى عقل وآراء

وجدت بالتبر من مالى ومن أدبى ... فكنت فى كل حال منهما الطاء

كأنها من جنان الخلد قد كملت ... حسنا وحسبك من خضراء العاء

كأن أغصانها اللدن الرشاق إذا ... هصرت أفنانها أعطاف وطفاء

كأن صمغتها الحمرا بقشرتها الدْ ... ـدكناء قرص على أعكان سمراء

كأنها فوق دعص الموج إذ سفحت ... هضابه سفح وادرب أفباء

مالت على النهر إذ جاش الخوير به ... كأنها أذن مالت لاصغاء

كأنما النهر مرآة وقد عكفت ... عليه تدهش فى حسن ولألاء

ذو شاطئ راق غب القطر فهو على ... نهر الابلة يزرى أى ازراء

كأنه عند تفريك النسيم له ... فرند سيف نضته كف جلاء

كأنه شبك من لؤلؤ نظمت أو جوهر السن أو تحليل رقشاىء
كأنه حين يهدى زرقة وصفا رقراق عين بوجه الأرض شهلاء
وكم شدتنا حمامات الاراك على أغصانها فأرتنا رقص هيفاء
من كل ورقاء فى الافنان صادحة بين الحدائق فى فيحاء زهراء
ورق تغنت بحيات رقين على عيدانها قاله فى مغنا وغناء
باكرتها فى سراة من أصاحبنا لا ينطوون على حقد وشحناء
تداعبوا بمعانى شعرهم فأروا ود الاحبة فى ألفاظ أعداء
من شيخ مجنون فى شباب فتى يقرى المجون بقلب غير نساء
يسعى إليها على جرداء جارية من ايكها كهلال الافق حدباء
نوحية الصنع والاحكام منشأة تسير ما سيرت من غير اعياء
سوداء تحكى على الماء المصندل شا مة على شفة كالشهد لعساء
ساجية ألبستها الصانعون لها من التدابيج ما يزهو بصنعاء
غربية ذات ألوان وأجنحة لم أدر تعزى لروض أو لعنقاء
لم يستطع شاوها إذ سيرها عنق عز الجياد على كد وانضاء
كم قد نعمنا بها عيشا بصافية شمطاء تجلى على الخلاء عذراء
مما تخيرها كسرى وأودعها رب الخورنق فى قوراء جوفاء
راحا إذا ركع الابريق يمزجها سمعت من صوته تسبيح فأفاء
أم السرور التى أبقى الزمان بها جزؤ الحياة وقد ألوى بأجزاء
فعاطيتها على طل الندى سحرا فإن ترشافها موتى واحياء
واستجلها بنت مصر تستطيل على بغداد والموصل الحدبا وسوراء
كم بين من قام معتل النسيم بها على اعتدال وحدباء وزوراء
من كف ظبى وشاد أو وشادية تشدو لنا بين صوت العود والناء
على الحدائق لا الآ كام تنقحنا ريح البنفسج لا نشر الخزاماء
أما أنا لست نواحا على طلل ولا خليط ولا نداب أحياء
تركته لأناس كالتيوس غنوا عن المدام بدر الابل والشاء
يعزون للشعر لكن من جهالتهم لم يفرقوا بين ابطاء واقواء
من كل ألكن عند البحث منقطع كأنه واصل والشعر كالزاء

وقال الشيخ برهان الدين القيراطى:

أشتاق فى وادى دمشق معهدا كل الجمال إلى حماه ينسب
ما فيه الا روضة أو جوشق أو جدول أو بلبل أو ربرب
وكأن ذاك النهر فيه معصم بيد النسيم منقش ومكتب
وإذا تكسر ماؤه أبصرته فى الحال بين رياضه يتشعب
وشدت على العيدان ورق أطربت بغنائها من غاب عنه المطرب
فالورق تشدو والنسيم مشبب والنهر يسقى والحدائق تشرب
وضياعها ضاع النسيم بها فكم أضحى له من بيننا متطلب
وخلت بقلبى من عالة حبه فيها لارباب الخلاعة ملعب
ولكم طربت على السماع بجنكها وغدا بربوتها اللسان يشبب
فمتى أزور معالما أبوابها بسماحها كتب الكرام تبوب

وقال ابن ظافر فى بدائع البداية: اجتمع الوزير أبو بكر ابن القبطرنة والاديب أبو العباس ابن صارة فى يوم جلا ذهب برقه وأذاب ورق ودقه والارض قد ضحكت لتعبيس السماء واهتزت وربت عند نزول الماء فقال ابن صارة:

هذى البسيطة كاعب ابرادها حلل الربيع وحليها النوار

فقال ابن القيطرنة:

فكأن هذا الجو فيها عاشق قد شفه التعذيب والاضرار

فقال ابن صارة:

وإذا شكا فالبرق قلب خافق وإذا بكى فدموعه الامطار

فقال ابن القيطرنة:

من أجل ذلة ذا وعزة هذه تبكى الغمام وتضحك الازهار

وقال ابن تميم:

لو كنت إذا نادمت من أحبته فى روضة تسبى العقول وتفتن
لرأيتها وعيونها من غيرة منى تفيض ووجهها يتلون

وقال محيى الدين بن عبد الظاهر:

والاغصان قد أخضر نبات عارضها ودنانير الازهار ودراهمها وقد تهيأت لتسليم قابضها والمنثور وقد نظمت قلائده وصيغت ولائده والحور وقد جاوز السهى بالبياشير

والسرور قد كشف عن سوقها وقالت لها تلك الغدران بهديرها إنه صرح ممرد من قوارير والسوسان وقد لاحظ جفنه الوسنان والورد وقد ورد والبان وقد بان.

وقال الشيخ عز الدين الموصلى ونقلها من خطه ـ رحمه الله تعالى:

وروضة نقشتها للحيا ابر فأصبحت بين تطريز وتزهير
مثل السوار لها سور أحاط بها من سلسل هى منه ذات تسوير
أو كالخلاخيل للادواح دار على سوق لها مطلقا فى زى مأسور
تحت الغياض رياض دبجت فبدت ألوانها ذات تشهير وتشذير
أغصانها الند والاوراق سوسنه والزهر عرق ياقوتا بيلورى
والزهر بين شعاع الشمس تحسبه دراهما نثرت بين الدنانير
والظل ثوب إذا مر النسيم به فالروض ما بين مهتوك ومستور
ونهرها زائد بالخصب يدنينا كصارم فى سبيل الله مشهور

وقال:

وروض نجم الزهر أصبح معجبا فتحسده من حسنه الانجم الزهر
مذ أرجف الماء النسيم تدرعت مزردة الاثواب من خوفها الغدر
فللروض تدبيج بألوان زهره وللغصن من أوراقه الحلل الخضر
فراع نصيرا من حنان جناسه فحلى الضحى زهر وحلى الدجى زهر
وأغربت الالحان فى الدوح ورقة فكن قيانا دونها أسبل الستر
وأسفر للاصباح خد مورد ومن قبله حبى بريحانة الفجر

وقال العفيف التلمسانى ـ قدس الله سره:

انظر إلى الاغصان فى حركاتها الشكرها أم سكرها تتأود
فتقول أرباب البطالة ينثنى وتقول أرباب الحقيقة يسجد

وقال شهاب الدين بن دمرداش (مولده سنة ثمان وثلاثين وستمائة، ووفاته سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة):

انظر إلى الاشجار تلق رءوسها شابت وطفل ثمارها ما أدركا
وعبيرها قد ضاع من أكمامها وغدا باذيال الصبا متمسكا

وقال برهان الدين القيراطى من قصيدة:

تشوقنى الفات الروض مائلة من النسيم سكارى وهى دالات
ولى من الورق فى أوراقها طربا كأنهن على العيدان قينات

وقال الشيخ مجد الدين الارموى (توفى سنة إحدى عشرة وسبعمائة):

كم للنسيم على الربا من نغمة وفضيلة بين الورى لن تجحدا
ما زادها وشكت اليه فاقة الا وهزلها الشمائل بالندى

وقال: محيى الدين بن قرناص - رحمه الله تعالى:

أظن نسيم الروض والزهر قد روى حديثا ففاحت من شذاها المسالك
وقال دنا فصل الربيع فكله ثغور لما قال النسيم ضواحك

وقال الفاضل علاء الدين على بن ظافر العسقلانى فى كتابه بدائع البداية قال اجتمعت أنا والقاضى الاعز يوما فقلت له أجز:

* طار نسيم الروض من وكر الزهر *

فقال:

* وجاء مبلول الجناح بالمطر *

قلت: الشىء بالشىء يذكر، ذكرت بقول العسقلانى ما أنشدنى من لفظه لنفسه الشيخ عز الدين الموصلى محاجيا:

يا من له حسن لفظ يثنى عليه المثانى
ما مثل قول الهاجى أحوى الشفاه جفانى

وذكرت بلطف هذه الاحجية ما أنشدنيه من لفظه لنفسه سيدنا ومولانا الفاضل المفتن المحدث المؤرخ شهاب الدين أحمد بن الشيخ نور الدين على الشهير بابن حجر ابقاه الله محاجيا:

يا فاضلا هو فى الاحاجى ليس يخلو من ولع
ما مثل قولك للذى يبكى الحبيب اسكت رجع

وظرف من قال:

وروضة رقصت أغصانها وشدت أطيارها وتولى سقيها المحب
وظل شحرورها الفريد تحسبه أسويداً زامرا مزماره ذهب

وقال ابن خفاجة فى نهر تحف به أشجار:

قد رق حتى ظن درعا مفرغا من فضة فى بردة خضراء
وغدت تحف بها الغصون كأنها هدب تحف بمقلة زرقاء

وقال الرصا فى نهر تحف به شجرة:

فانت عليه مع الظهيرة سرجة صدنت لعينها صفيحة مائه
فتراه أزرق فى غلالة سمرة كالراء يستغلى بظل لوائه

وقال نور الدين على بن سعيد:

كأنما النهر صفحة كتبت أسطرها والنسيم ينشئها
لما أبانت عن حسن منظرها مالت عليه الغصون تقرؤها

وقال بعض المغاربة وأجاد الغاية:

ومنمنم الشطين أحكم صقله كالمشرق قد اكتسى بفرنده
فخمائل الديباج منه حمائل متعانق فيها البهار بورده
ولقد اختفى طرف له فى دوحة كالسيف رد ذبابه فى غمده

وقال محيى الدين بن عبد الظاهر ـ رحمه الله:

وبطحاء فى روض يروقك روضها ولا سيما إن جاد غيث مبكر
تلاحظها عين تفيض بأدمع يرترقها منه هنالك محجر
بها فاض نهر من لجين كأنه صفايح أضحت بالنجوم تسمر
كأن حصاها اذ بدا فيه أحمر وأبيض دمع فى خدود ينثر
والا فبرد بالظلال مسهم والا فطراس بالتجعد يسطر
وما لاح فى جنبيه نبت وانما تبدا عذارا منه فى الخد أخضر
وكم غازلته للغزالة مقلة تسارق أوراق الغصون فتنظر
وتبصر منه كل حسن فينبرى حياء لديه وجهها وهو أصغر
اذا فاخرته الريح ولت عليلة بأذيال كثبان الربى تتعثر
به الفضل يبدو والربيع وكم غدا به الروض يحى وهو لا شك جعفر

وقال على بن ظافر: مررت أنا والقاضى الاعز ـ رحمه الله تعالى ـ بساقية تتلوى تلوى الافعوان، و تخفق خفقان قلب الجبان، والزهر قد نظم بلبتها عقودا فوق أثوابها الممسكة والنسيم يكسوها ويسلبها غلائل معركة فقلت:

* أساقية أم أرقم فر هاربا *

فقال:

* أم الريح قد هزت من الماء قاضبا *

فقلت:

حصا مثل در الثغر أجرى زلاله رضابًا وأبدى نبته النضر شاربا

فقال:

يوشحها زهر الرياض قلائدا ويلبسها مر الرياح جلاببا

وقال الاديب أبو اسحاق إبراهيم بن خفاجة:

ورائحة رياتها تهابها الصبا تهادى عطف المشرف المتخرر
وقد صقلت من صفحة الماء منصلا به من شعاع الشمس رونق جوهر
فمن شبك قد حيك حوك مفاضة ومن سمك قد صيغ صيغة خنجر
وقد نظرت شمس الاصيل إلى الربا بأضعف من طرف المريب وأفتر
ولاح على بلورة من غديره شعاع شراب للعشية أصفر
وصفرة مسواك الاصيل تروقنى على لعس من مسقط الشمس أسمر
إلى أن توارت بالحجاب مريضة تلفع فى ثوب من الليل أخضر
وغازلنى جفن من الافق أنجل يدير من الظلماء مقلة أحور

ونقلت من كتاب نزهة الابصار فى نعت الفواكه والثمار تأليف الشيخ الفاضل الكامل محمد بن القاضى المنشئ البليغ ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الموصلى ولم أزل من الازهار فى سؤال وجواب وأنا منصت انصات المتعجب لمفاخرات الاعجاب اذ سمعت صوت هاتفة ورقاء على بانة خضراء بلسان فصيح وقلب بفرقة الاحباب جريح وقد أوفت على غصنها الرطيب ومالت وأعلنت بما أسرته من وجد وقالت:

اذكرونا ذكرنا عهدكم رب ذكرى قربت من نزحا
اذ كروا صبا إذا اغنى بكم شرب الدمع وعاف القدحا

يا معشر الرياحين التى يزهى حسنها على كل حين لقد جزتم حد الاكثار ولم ينج أحدكم من سقطات العثار هب أنكم نزهة العيون وزينة الافنان والفنون فهل أنتم الا أعشاش أفراخنا ومواضع أوساخنا واعواد خطباتنا وأرائك امرائنا ومهود أبنائنا وستور نسائنا رءوسكم محط أرجلنا وهاماتكم نعال أرجلنا ونحن المسبحون بحمد ربنا المثنون عليه بالألسن الناطقة والافواه العذبة الرائقة فلما سمعت كلام الحمام هممت بالانصراف من حيث أتيت لاخبر بما سمعت ورأيت إذا أقبلت غمامة تمشى لثقلها مشى الرداح ويكاد يلمسها من قام بالراح وما أظلمت الا أضاء البرق فى جوانبها فتمثلت ليلا فى صباح فلم يزل البرق يأخذ

فى اذهاب ردائها ويبدو نذيرا لدى أصوات ندائها وهل يلقى على الارض ما حملته فى احشائها ثم قالت يا ذوات البكاء والنوح المفتخرات على الا ت بالدوح أنتم الباكين بغير جوى الشاكين ألم الفراق من غير هوى بكم عرف الشتاق واشتهر ذكره فى الآفاق قلوبكم خاشعة وعيونكم غير دامعة ومنكم عرف اختلاف الباطن والظاهر وقد أعرب عن ذلك قول الشاعر:

وهاتفة فى البان تملى غرامها ... فتتلو علينا من صبابتها صحفا

ولو صدقت فيما تقول من الاسى ... لما لبست طوقا ولا خضبت كفا

ونقلت من خط الشيخ شمس الدين محمد بن سمندبار الذهبى لنفسه الكريمة (توفى قريبا من سنة خمس وثمانين وسبعمائة) وأنشدنى من نظمه:

سماع غناء الطير للدوح مرقص ... ومن طرب بالزهر منه ينقط

الباب السابع عشر
فى آنية الراح

الشراب فى الزجاج أحسن منه فى كل جوهر لا يفقد معه وجه النديم ولا يثقل فى اليد ولا يرتفع فى السوم وقدور الزجاج أطيب من قدور الحجارة وهى لا تصدأ ولا تندى ولا يتخللها وسخ الغمر وأوساخ الوضر وإن اتسخت فالماء وحده لها جلا ومتى غسلت بالماء عادت جديدة ومن كرع فيه بشرب فكأنما يكرع فى اناء وماء وهواء وضياء، وما أحسن رسالة سهل بن هارون يفضل الزجاج على الذهب: الزجاج يحلو نورى والذهب متاع سائر والشراب فى الزجاج خير منه فى كل معدن ولا يفقد معه وجه النديم ولا يثقل اليد ولا يرفع فى السوم واسم الذهب يتطير منه ومن لونه مصيره إلى اللئام وهو فاتن قاتل لمن أصابه وهو أيضا من مصائد ابليس ولذلك قالوا أهلك الرجال الاحمران والزجاج لا يحمل الوضر وهو أشبه شىء بالماء وصفته عجيبة... وهى رسالة طويلة.

ومن أحسن ما قيل فى ذمه قول النظام فإنه أخرجه فى كلمتين بأوجز لفظ وأتم معنى فقال سريع إليه الكسر ولا يقبل الجبر.

ذكر الرشيد بن الزبير فى كتابه العجائب والظرف أنه وجد المتورد بن ربيعة يوم القادسية ابريق ذهب عليه يا قوت وزبرجد فلم يدر ما هو فلقيه رجل من الفرس فقال أنا أعطيك فيه عشرة آلاف دينار فعرف قيمته فذهب به إلى سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه فباعه بمائة ألف دينار.

ووجد للوليد بن يزيد بعد مقتله جفنة بلور كأعظم ما يكون من الجفان قيل إنها تسع ثلاثمائة رطل ولما وقعت الفتنة بين عازم الدولة رقيب بن على وبين حاج خراسان بمدينة رسول الله ﷺ فى سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة وعازم الدولة يومئذ أمير الموسم ومقدم القافلة المضرية وكانت الهزيمة على الخراسانين فنهبت أموالهم وأتى بعض النهابة إلى عازم الدولة بزبدية فيروزج تسع وزن رطل شامى كأحسن ما يكون من الزباد لا يعلم لها قيمة ودفعها عازم الدولة بعد ذلك إلى الظاهر.

ومن الاشياء النادرة المستظرفة المتجملات فى الملابس والمجالس ما ذكره الفقيه الكاتب أبو مروان عبد الملك بن بدرون فى شرحه لقصيدة الوزير عبد المجيد بن عبدون فى قصة جبلة بن الايهم الغسانى وهو أن جبلة لطم انسانا من الناس فلما أراد الإمام عمر اقادته منه فر إلى هرقل وتنصر ثم ندم على تنصره فقال:

تنصرت الاشراف من أجل لطمة ... وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكنفنى منها اللجاج ونحوه ... فنعت لها العين الصحيحة بالعور
فيا ليت أمى لم تلدنى وليتنى ... رجعت إلى القول الذى قاله عمر
وياليتنى أرعى المخاض بقفرة ... وكنت أسيرا فى ربيعة أو مضر
ويا ليت لى بالشام أدنى معيشة ... أجالس قومى ذاهب السمع والبصر

ولما تنصر جبلة ولحق بهرقل صاحب القسطنطينية أقطعه هرقل الاموال والضياع والرباع وبقى ما شاء الله ثم إن عمر رضي الله عنه بعث إلى هرقل رسولا يدعوه إلى الإسلام أو إلى الجزية فأجاب إلى الجزية فلما أراد الرسول الانصراف قال له هرقل ألقيت ابن عمك هذا الذى عندنا يعنى جبلة الذى أتانا راغبا فى ديننا قال ما لقيته قال القه ثم ائتنى أعطك جواب كتابك قال الرسول فذهبت إلى باب جبلة فاذا عليه من القهارمة والحجاب والبهجة وكثرة الجموع مثل ما على باب هرقل قال الرسول فلم أزل أتلطف فى الاذن حتى أذن بالدخول فدخلت عليه فرأيته أصهب اللحية ذا سبال وكان عهدى به اسود اللحية فأنكرت عليه فإذا هو قد دعى بسحالة الذهب فذرها على لحيته حتى عادت سوداء وهو قاعد على سرير من قوارير قوائمه أربعة أسود من ذهب فلما عرفنى رفعنى معه على السرير فجعل يسألنى عن المسلمين فذكرت له خيرا قلت قد أضعفوا اضعافا على ما تعرف قال وكيف تركت عمر بن الخطاب قلت بخير حال فرأيت الغم فى وجهه لما ذكرت له من سلامة عمر ثم انحدرت عن السرير فقال لم تأب الكرامة التى أكرمناك بها قلت إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا قال نعم ﷺ ولكن نق قلبك من الدنس ولا تبال على ما قعدت فلما سمعته يقول ﷺ طمعت فيه فقلت له ويحك يا جبلة ألا تسلم وقد عرفت الاسلام وفضله قال أبعد ما كان منى قلت نعم قد فعل رجل من بنى فزارة اكثر مما فعلت ارتد عن الإسلام فضرب وجوه المسلمين بالسيف ثم رجع إلى الإسلام فقبل ذلك منه وخلفته بالمدينة مسلما قال ذرنى من هذا إن كنت تضمن لى أن يزوجنى عمر ابنته ويولينى الامر بعده رجعت الاسلام

قال فضمنت له التزويج ولم أضمن له الأمر قال ثم أومى إلى خادم كان على رأسه فذهب مسرعا فإذا خادم قد جاء ومعه خدم يحملون الصناديق فيها الط..م فوضعت ونصبت موائد الذهب وصحاف الفضة وقال لى كل فقبضت يدى وقلت إن رسول الله ﷺ نهى عن الأكل فى أوانى الذهب والفضة فقال نعم ﷺ ولكن نق قلبك وكل فيما أحببت قال فأكل فى الذهب وأكلت فى الخلنج ثم جىء بطساس الذهب وأباريق الفضة فغسل يده فى الذهب وغسلت فى الصفر ثم أومى إلى خادم بين يديه فمر مسرعا فسمعت حسا فإذا خدم معهم كراسى مرصعة بالجواهر فوضعت عشرة عن يمينه وعشرة عن شماله ثم جاءت الجوارى عليهن تيجان الذهب فقعدن عن يمينه وعن يساره على تلك الكراسى ثم جاءت جارية كأنها الشمس حسناء على رأسها تاج على ذلك التاج طائر لم أر أحسن منه وفى يدها اليمنى جامة فيها مسك فتيت وجامة فى يدها اليسرى فيها ماء ورد فأومت تلك الجارية أو صفرت للطائر الذى على تاجها فطار حتى وقع فى جامة ماء الورد فاضطرب فيه ثم أومأت إليه أو صفرت فوقع على جامة المسك فتمرغ فيه ثم أومأت اليه فطار حتى نزل على تاج رأس جبلة فلم يزل يرفرف حتى نفض ما عليه فى رأسه فضحك جبلة من شدة السرور حتى بدت أنيابه ثم التفت إلى الجوارى اللاتى عن يمينه فقال أضحكننا فاندفعن يغنين يخفق عيدانهن:

لله در عصابة نادمتهم	يوما بحلق فى الزمان الأول
يسقون من ماء البريص نديمهم	راحا يصفق بالرحيق المسلسل
أولاد جفنة حول قبر أبيهم	قبر ابن مارية الكريم المفضل

قال فضحك حتى بدت نواجده ثم قال أتدرى من يقول هذا قلت لا قال حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ ثم أشار إلى الحوارى اللاتى عن يساره فقال لهن أبكيننا فاندفعن يغنين يخفقن عيدانهن ويقلن:

لمن الدار أقفرت بعمان	بين أهل اليرموك فالجمان
ذاك مغنى لآل جفنة فى الدهر	محلى لحادث الازمان

قال فبكى حتى سالت دموعه على لحيته فقال أتدرى من يقول هذا قلت لا قال حسان ثم أنشد الابيات التى أولها تنصرت الاشراف ثم سألنى عن حسان أحى هو قلت نعم فأمر له بكسوة ولى أيضًا كذلك وأمر بمال لحسان ونوق موقرة ثم قال لى إن وجدته حيا فادفع

الهدية إليه وأقرئه عنى السلام وإن وجدته ميتا فادفعها إلى أهله وانحر النوق على قبره فلما أخبرت عمر بخبره وما اشترط على وما ضمنت له قال فهلا ضمنت له الامر فإذا أفاء الله به قضى الله علينا بحكمه ثم جهزنى عمر إلى هرقل ثانيا وأمرنى أن أضمن له ما اشترط فلما دخلت القسطنطينية وجدت الناس منصرفين من جنازته قلت إن الشقاء سبق عليه فى أم الكتاب.

وذكر الحكيم موفق الدين بن أبى أصيبعة فى ترجمة الحكيم سديد الدين بن رقيعة قال ومن شعره وهو مما كتبه على كأس فى وسطه طائر على قبة مجوفة إذا قلب الماء فى الكأس دار الطائر دورانا سريعا وصفر صفيرا ومن وقف بازائه الطائر حكم عليه بالشرب فإذا شربه وترك فيه شيئا من الشراب صفر الطائر وكذلك لو شربه فى مائة مرة فمتى شرب جميع ما فيه ولم يبق فيه درهم فإن صفيره ينقطع والابيات هى هذه:

أنا طائر فى هيئة الزر زورى ... مستحسن التكوين والتصوير
فاشرب على نغمى سلاف مدامة ... صرفا تنير حنادس الديجور
صفراء تلمع فى الكئوس كأنها ... نار الكليم بدت بأعلى الطور
وإذا تخلف فى شرابك درهم ... فى الكاس نم به عليك صفيرى

قلت: كتبت هذه الابيات لغرابة هذا الكأس وأما الشعر فإنه ليس بطائل.

قال الثعالبى فى تحفة الارواح وموائد السرور والافراح إنه كان فى الزمن القديم امرأة فى العراق تعمد إلى الصينى الابيض فتصير منه الشمشى والاسود والسماقى والأخضر حتى لا يشك ناظر فى أنه كان كذلك فى الاصل وما علم أحد من الرجال سواها فى ذلك وأهل الخبرة بهذا النوع إذا وقع فى أيديهم شىء من عمل هذه المرأة عرفوه (القول فى الكأس المصور) قال أبو نواس:

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا ... بها أثر منهم جديد ودارس
مساحب من خز الرقاق على الثرى ... واضغاث ريحان جنى ويابس
تدار علينا الراح فى عسجدية ... حبتها بأنواع التصاوير فارس
فنال بها كسرى وفى جنباتها ... مها قد رمتها بالقسى الفوارس
فللراح ما زرت عليها جيوبها ... وللماء ما دارت عليه القلانس

قال الجاحظ وجدنا المعانى تقلب ويؤخذ بعضها من بعض الا هذا المعنى فإن الحسين ابتدعه.

قلت: وضمن هذه الأبيات الأديب أبو الحسين الجزار تضمنا حسنا أجاد فيه إلى الغاية وهو:

كتبت بها فى يوم لهو وهامتى ... تمارس من أهواله ما يمارس
وعندى صحاب للمجون ترحلت ... عمائمهم عن هامهم والطيالس
فللماء ما زرت عليه جيوبهم ... وللراح ما دارت عليه القلانس
مساحب من خز الرقاق على القفا ... واضغاث انطاع جنى ويابس

وقال أيضًا:

بنينا على كسرى سماء مدامة ... مكللة حافاتها بنجوم
فلو رد فى كسرى ابن ساسان روحه ... إذا لاصطفانى دون كل نديم

أخذه الباشى فقال:

فى كأسها صور تظن لحسنها ... عربا برزن من الحجال وغيدا
وإذا المزاج اثارها فتقسمت ... ذهبا ودرًا توأما وفريدا
فكأنهن لبسن ذاك محاسدا ... وجعلن ذا لنحورهن عقودا

وقال ابن المعتز:

وساق يجعل المنديل منه ... مكان حمائل السيف الطوال
غلالة خده صبغت بورد ... ونون الصدغ معجمة بخال
بدا والصبح تحت الليل باد ... كطرف أبلق ملقى الجلال
بكأس من زجاج فيه أسد ... فرائسهن ألباب الرجال

وقال ابن قلاقس (ومولده سنة اثنتين وخمسمائة، ووفاته سنة سبع وستين وخمسمائة):

دارت زجاجتها وفى جنباتها ... كسرى أنوشروان فى ايوانه
فخلعت عن عطفيه حلة قهوة ... وشربتها فغدوت فى سلطانه

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدى ـ رحمه الله تعالى:

ومشمولة قد هام كسرى بكأسها ... فأضحى ينادى وهو فيها مصور
وقفت لشوقى من وراء زجاجة ... إلى الدار من فرط الصبابة أنظر

وقال المرحوم فخر الدين بن مكانس ـ رحمه الله تعالى:

إذا ما أديرت فى حشا عسجدية ... بها كل ذى ملك وتاج تصورا
فحسبك نيلا فى السيادة أن ترى ... نديمك فى الكاسات كسرى

قلت: والسبب الموجب لتصويرها ما ذكره الفقيه الكاتب أبو مروان عبد الملك بن بدرون فى شرحه لقصيدة الوزير عبد المجيد بن عبدون وهو أن سابور بن هرمز الملقب بذى الاكتاف لما رجع من قتال بنى تميم قصد الروم والدخول إلى القسطنطينية متنكرا فاستشار قومه فحذروه التغرير بنفسه فلم يقبل قولهم وسار متنكراً إلى القسطنطينية فصادف وليمة لقيصر قد اجتمع فيها الخاص والعام فدخل فى جملتهم وجلس على بعض موائدهم وقد كان قيصر أمر مصورا أتى عسكر سابور فصوره فلما جاء قيصر بالصور أمر بها فصورت على آنية الشراب من الذهب والفضة وأتى بعض من كان على المائدة التى عليها سابور بكأس فنظر بعض الخدام إلى الصورة التى على الكأس وسابور مقابل لها على المائدة فعجب من اتفاق الصورتين وتقارب الشبهين فقام إلى الملك فأخبره فمثل بين يديه فسأله عن خبره فقال أنا من أساورة سابور وهربت منه لامر خفته فيه فلم يقبلوا ذلك منه وقدم إلى السيف فأقر بنفسه وجعل فى جلد بقرة وتمام حكايته إلى أن خلص وعاد إلى ملكه فى كتاب سلوان المطاع فى السلوانة الثانية منه وهى حكاية غريبة مشتملة على أنواع من الحكم.

وقال صلاح الدين الصفدى ـ رحمه الله:

كئوس المدام تحث الصفا فكن لتصاويرها مبطلا
ودعها سواذج من نقشها فأحسن ما ذهبت بالطلا

وقال زين بن الوردى ـ رحمه الله تعالى:

دع الكاس من من نقشها وصاف بصاف أحب
إذا ذهبت بالمطلا فقد طليت بالذهب

وقال) شمس الدين بن العفيف فيما يكتب على كأس:

أدور لتقبيل الثنايا ولم أزل أجود بنفسى للندامى وأنفاسى
واكسو أكف الشرب ثوبا مذهبا فمن أجل هذا لقبونى بالكاسى

الشيء بالشيء يذكر قال شهاب الدين بن أبى جحلة مضمنا:

يا صاح قد حضر الشراب ومنيتى وحظيت بعد الهجر بالائيناس
وكسى العذار الخد حسنا فاسقنى واجعل حديثك كله فى الكأس

وقال إبراهيم بن الحاج الغرناطى (ومولده سنة خمس عشرة وسبعمائة ـ رحمه الله تعالى):

يا رب كاس لم يشح شمولها فاعجب لها جما بغير مزاجي
لما رأينا السحر من أشكالها جملا نسباه إلى الزجاجي

وقال الاديب أبو بكر بن مجير وقد اقترح عليه حسود وصف كأس أسود فقال ارتجالا:

سأشكو إلى الندمان أمر زجاجة تردت بلون حالك اللون أسحم
تصب بها شمس المدامة بيننا فتغرب فى جنح من الليل مظلم
وتجحد أنوار الحميا بلونها كقلب حسود جاحد يد منعم

القول فى القدح قال القاضى شهاب الدين بن فضل الله فى وصفه: تكوّن من جوهر مكنون وتجسد من هواء مظنون واتخذ خدر الآنية العنب وطاف به الساقى فاصبح منه فى راحة وهو فى تعب قهقه عليه الابريق فصدح وطار منه شرار المدام فقيل قدح وكتب سيدنا ومولانا بدر الدين محمد بن أبى المخزومى المالكى الشهير بابن الدمامينى - فسح الله فى أجله إلى سيدى الجناب المجدى فضل الله بن مكانس آدام الله عزه - وذلك فى ربيع الأول سنة خمس وتسعين وسبعمائة وقد تجاسر العبد وتوقا بمكارم الأخلاق المخدومية فأهدى هذا اللغز لينعم مولانا بقبوله ويتفضل بحله عند حلوله فقال ما اسم حبيب إلى النفوس شبيه بالبدر حليف للشموس إن قلب كان لقلبه من العين مكان من المناسبة وان سقط قلبه مع هذا الفعل كان ضد الاقوال الكاذبة وان صحف بعد العكس أنبأ عن الذكاء وهذا غاية الشرح وإن غير ثانيا علم ورب الكلام المحرر أنه دال على الطرح حسبناه مع التصحيف آلة للصيد معينة على المكر والكيد إن قلع طرفه كان مزج باقيه قواما وإن عكس كان الطرب بتصحيفه مداما وإن زال أوله كان العكس عنابا لمتعاطى اثمه وان صحف اشتاقت الشفاة إلى تقبيله ولثمه وربما كان الهزل عن تصحيفه الآخر منافيا لاسمه مباينا فى الحقيقة لحده ورسمه والمملوك يسأل الصفح عن هذا الهذيان والامتنان بالجواب مع شىء من نظم المقر الصاحبى للوالدى وشىء من نثره ليحلى المملوك بعقوده جيد تذكرته ويتأنس بحسنه الغريب فى زمن غربته فكل غريب للغريب نسيب ومدح مولانا أجل من أن يحيطه قلم العبد أو لسانه أو يحصره بيان الاديب أو بنانه ونسأل الله تعالى أن يمتع ببقائه ويعلى درجات ارتقائه بمنه وكرمه فكتب الجواب يقبل الارض التى أطالت بالجفا حرمانه وتداركته بعد اجراء دموعه فعظمت فى الحالتين منها شأنه وانتهى إلى اللغز الذى يمتع بمحله ويشرب بقدحه فابتهل شكرا ومالت أعطافه بالقدح الفارغ سكرا فوجده كما قال حبيب إلى النفوس

يجتهد فى التوصل بماء حاره إلى الرءوس يأتيك بالمعنى اللطيف ويقف حذقك من تصحيفه بعد العكس بين تصحيف وتحريف فحله من ساعته وقابل شمسه المنيرة بذبالته وكتب قرينه لغزا وخالف نفسه إذ قالت لا تتعبنى فى مجاراة هذا الجواد لذا وقد ذكرته أولا فى باب الرياحين وقال القاضى التنوخى ـ رحمه الله تعالى:

وراح من الشمس مخلوقة بدت لك فى قدح من نهارى
هواء ولكنه جامد وماء ولكنه غير جارى
إذا ما تأملتها وهى فيه وتأملت نورا محيطا بنارى
فهذا النهاية فى الابيضاض وهذا النهاية فى الاحمرار
كأن المدير لها باليمين إذا قام للسقى أو باليسار
تدرع ثوبا من الياسمين له فرد كم من الجلنار

وقال النضير الحمامى ـ رحمه الله تعالى:

أصبحت من أغنى الورى مبشرا بالقدح
عندى خمر ذهب أكتاله بالقدح

وأنشدنى سيدى وأخى تقى الدين أبو بكر حجة الحموى لنفسة مضمنا ـ رحمه الله:

أرى طير أقداحنا نائحا يحوم على عذب ورد القدح
فقلت لدر الحباب اجتهد ومد الشباك وصد من سبح

وقال ابن تميم:

يا حسنه قدح بضىء زجاجه ليل الهموم إذا ادلهم وعسعسا
أهديته مثل النهار فإن حوى صرف المدام غدا نهارا أشمسا

الابريق)قال ابن المعتز:

وكأن ابريق المدامة بيننا ظبى على شرف أناب مدلها
لما استحثه السقاة حنى لها فبكى على قدح النديم وقهقها

وقال إبراهيم بن اسحاق الموصلى ـ رحمه الله عليه:

كأن أباريق المدام لديهم ظباء بأعلى الرقمتين قيام
وقد شربوا حتى كأن رقابهم من اللين لم تخلق لهن عظام

صاعد اللغوى:

كأن ابريقنا والراح فى فمه طير تناول ياقوتا بمنقار

السرى الرفاء الموصلى ـ رحمة الله عليه:

ابريقنا عاكف على قدح   تخاله الأم ترضع الولدا
أو عابدا من بنى المجوس إذا   توهم الكاس سرعة له سجدا

السراج المحار (توفى سنة إحدى عشر وسبعمائة ـ رحمة الله عليه):

يا حبذا شكل ابريق تميل له   منا القلوب وتصبو نحوه الحدق
يروق لى حين أجلوه ويعجبنى   منه طلاوة ذاك الجسم والعنق
كم قد شربت به ماء الحياة ولن   ينالنى منه لا غص ولا شرق
حتى غدا خجلا مما أقبله   فظل يرشح من أعطافه العرق

الراووق الجوبان القواس ـ رحمه الله تعالى:

ولما حكى الرواق فى العين شكله   وقدعلق المنقود فى سالف الدهر
تذكر عهدا بالكروم فكله   عيون على أيام عهد الصبى تجرى

وقال بدر الدين حسن المعزى ـ رحمه الله:

أعجب ما فى مجلس اللهو جرى   من أدمع الرواق لما انسكبت
لم تزل البطة فى قهقهة   ما بيننا تضحك حتى انقلبت

وقال برهان الدين القيراطى ـ رحمه الله:

باكرت راووقى وبطتى التى   قد تهقهت ودم المدامة يسفك
وأضعت مالى فيهما حتى غدا   هذا يصفى لى وهذا يضحك

وقال صدر الدين بن عبد الحق (توفى تقريبا سنة سبعين وسبعمائة):

أسبل الراووق لما صلبا   أدمعا لكن رأينا عجبا
بينما الراووق يبكى بدم   ضحك الابريق حتى انقلبا

وقال سيدى المقر المجدى سلمه الله تعالى وأجاد:

قم واصلب الراووق واشف قلبى   منه وبلغنى بذاك سؤلى
واسفك دم الزق وناد هذا   جزاء من يلعب بالعقول

وقال محمد بن العفيف فى باطية وأجاد:

إنا المجالس والجليس أنيسه   أزهى بحسن ناضر للناظر
اصغو فاظهر ما أجن ولم يكن   فى باطنى شىء يخالف ظاهرى

وما ألطف من قال عجلو:

عـجلوا بشـرب البـواطى فالصواب الصـواب نيك الخواطى

كان لابى الحارث خمـون دنا كان يقول إنه لم يفسد فيه نبيذ قط سنذ عشرين سنة فأوصى به عند موته للفضل الرقاشى وقال هذا جزاء له فإنه كان كلما اجتمعنا على أمر قال قم فابدأ به (الامير صلاح الدين الاربلى) فيما يكتب على طبق تحت أقداح (توفى المذكور سنة سبع وثلاثين وستمائة، ومولده سنة اثنين وسبعين وخمسمائة) رحمة الله عليه:

من فرحتى بالندامى واجتماعهم حـولى وقـربهم منى وايناسى

جعلت صفحة خدى تحت أخمص ما قد غادرته الندامى أسفل الكاسى

الباب الثامن عشر
فيما يستجلب بها الافراح

وهو خمسة فصول:

الفصل الأول: فى من مدحها من الملوك والرؤساء.

الفصل الثانى: فى تدبير استعمالها على رأى الحكماء.

الفصل الثالث: فى آداب متشبها وما يجب على مستعمليها.

الفصل الرابع: فى استهدائها واستدعاء الإخوان.

الفصل الخامس: فى من وصفها من الشعراء الأعيان.

الفصل الأول

قال كسرى النبيذ صابون الهم:

قلت من هنا قول الشيخ بدر الدين البشتكى:

وكنت إذا الحوادث دنستنى ... فزعت إلى المدامة والنديمى

لا غسل بالكئوس الهم عنى ... لأن الخمر صابون الهمومى

وقال أرسطاطاليس الراح كيمياء الفرح، وقال جالنيوس الراح صديق الروح، وقال آخر الراح درياق سم الهم، قال عبد الملك بن صالح الهاشمى ما حمشت الدنيا بأظرف من النبيذ وقال الثعالبى لكل شىء سر وسر النبيذ السرور، وقال الدنيا معشوقة ريقها الراح، وقال الجاحظ إن النبيذ إذا تمشى فى عظامك ودب فى أجرامك منحك صدق الحس وفراغ النفس وجعلك رجى البال خلى الدرع قرير العين منشرح الصدر حسن الظن وسد عليك باب الغم وحسم عنك خاطر الهم، وقيل لأ بى حميد الفضل بن وكيل ما تقول فى النبيذ المصفى المروق المعسل المعتق فجعل يتمنطق ويقول أخاف الا اشتغل بشكر الله تعالى الكريم على نعمه فيه وكان مطيع بن اياس يقول فى النبيذ معنى فى الجنة موجود لان الله - عز وجل - يقول إخبارا عن أهلها: ﴿الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن﴾[1] والنبيذ

(١) الآية: ٣٤ من سورة فاطر.

يذهب الحزن، وقيل لأبى عائشة إن فلانا لا يشرب النبيذ فقال قد طلق الدنيا ثلاثا، وقيل للأعمش مثل ذلك فقال دعوه حتى يقتله القولنج.
وقال: يزيد بن المهلب وددت لو أن كأسًا بألف دينار وكل منكح فى جبهة أسد فلا يشرب الا جواد ولا ينكح الا شجاع.
وقال: عبد الملك للاخطل صف لى الخمر فقال أولها صداع وآخرها خمار قال فما يعجبك منهما قال: إن بينهما طربة لا يعاد لها ملكك وأنشأ يقول:

إذا ما نديمى علنى ثم علنى ... ثلاث زجاجات لهن هدير
خرجت أجر الذيل حتى كأننى ... عليك أمير المؤمنين أمير

وقال ابقراط الخمرة صديقة الجسم والتفاحة صديقة النفس.
نادرة: اجتمع محدث ونصرانى فى سفينة فصب النصرانى من ركوة كانت معه فى مشربة وشرب وصب فيها وعرض على المحدث فتناولها من غير فكر ولا مبالاة فقال النصرانى جعلت فداك إنما هو خمر فقال من أين علمت أنها خمر قال اشتراها غلامى من يهودى وحلف أنها خمر فشربها بالعجلة وقال للنصرانى أنت أحمق نحن أصحاب الحديث افنصدق نصرانيا عن غلامه عن يهودى والله ما شربتها الا لضعف الاسناد.
وقال الجاحظ كل شىء من المأكل يكون أوله أطيب من آخره الا النبيذ فإن القدح الأول ثقيل والثانى أسهل والثالث أسلس والرابع أسوغ والخامس أعذب والسادس الذ حتى ينتهى إلى غاية السرور.
حكى أن عبد الملك بن مروان امتحن اعرابيا من الشعراء فقال صف لى الخمر فاطرق الأعرابى وقال:

شموس إذا شجت لدى الماء مرة ... لها فى عظام الشاربين دبيب
تريك الغذاء من دنها وهى دونه ... لوجه أخيها فى الوجوه قطوب

فقال عبد الملك شربتها يا أخا العرب ووجب عليك الحد فقال ومن أين لك ذلك يا أمير المؤمنين فقال لأنك وصفتها بصفتها فقال وإنى قد رابنى من أمير المؤمنين ما رابه بأن يكون أيضا شربها إذ عرف أنى وصفتها بصفتها فضحك منه وأحسن جائزته.
نادرة: جلد مدنى فى الشراب وكان طويلا والجلاد قصيرا فقال له تقاصر لينالك السوط فقال ويلك إلى أكل الفالوذج تدعونى والله لوددت أنى أطول من عوج وأنك أقصر من يأجوج ومأجوج.

كتب رجل إلى ابن قريعة القاضي فتيا (توفى المذكور سنة سبع وستين وثلاثمائة ببغداد) ما يقول القاضي - أيده الله - في رجل سمى ولده مداما وكناه أبو الندامى وسمى ابنته الراح وكناها أم الأفراح وسمى عبده الشراب وكناه أبو الاطراب وسمى وليدته القهوة وكناها ام النشوة أينهى عن بطالته أم يؤدب على خلاعته؟ فكتب تحت سؤاله لو بعث هذا لأبي حنيفة لأقعده خليفة ولعقد له راية، وقاتل من تحتها من خالف رأيه ولو علمنا مكانه لمسحنا أركانه فإن أتبع هذه الاسماء افعالا وهذه الكنى استعمالا علمنا أنه قد أحيى دولة المجون وأقام لواء ابنة الزرجون فبايعناه وشايعناه وإن تكن اسماء سماها ما له بها من سلطان خلعنا وفرقنا جماعته فنحن إلى إمام فعال أحوج منا إلى إمام قوّال انظر أبلك الله إلى معاني هذا النثر الذي يعجز عنه البديع والمجون الذي لا يلحقه الخليع.

وقالت دنانير جارية البرامكة من أصبح وعنده قنينة ناقصة وزبدية طباهجة باردة وتفاحة معضوضة ولم يصطبح فهو أحمق فاسد المزاج يحتاج إلى العلاج.

الفصل الثاني

في تدبير استعمالها على رأى الحكماء

قال الشيخ الإمام علاء الدين أبو الحسين على بن أبي الحزم القرشي المتطبب المعروف بابن النفيس - تغمده الله برحمته - في الجملة الثانيه مى قواعد الحبر العلمي من الطب في كتابه المشهور المعروف بالموجز عندما ذكر تدبير المشروب ما هذا نصه:

وخير الشراب ما طاب طعمه وعطرت رائحته وصفى لونه واعتدل قوامه والعلامة الجيدة للشراب الجيد الخالي من الغش أنه إذا ترك المقدار القليل مدة طويلة لم يفسد وبقدر طول المدة تعرف الجودة والرقيق اللطيف أسرع اسكارا وتحللا والغليظ أبطأ اسكارا وتحللا وأدوم خمارا لكنه يسمن وخصوصا الحلو وليكن من تسديده على حذر ويختار للشباب والمحرورين الأبيض الممزوج قبل شربه بمدة بكثير الماء وللمشايخ الاصفر القوى القليل المزج فإن ارادوا الاغتذاء والسمن فالأحمر ودع الشيخ وما احتمله وجنبه الصبيان وعدله في الشبان وإنما يستعمل الشراب عند انحدار الغذاء من المعدة وأما في خلل الأكل أو عقيبه فضار لتنفيذه الغذاء على فجاجته على أن المعتاد به لا يتفع باستعمال ما يعين على الهضم الا بمقدار ما يقوى على التنفيذ وما دام السرور يتزايد واللون

يحسن والبشرة تلين والجلد يربواوالحركة نشيطة والذهن سليما فلا تخف من افراط فإن أخذ النعاس يغلب والغشيان يقوى والبدن والدماغ يثقل والذهن يتشوش والحركة تسترخى فقد وجب الترك فحينئذ يجب القىء والقىء على قليل منه ردىء لأنه يغصب من البدن ما ينفعه والشراب بالاقداح الصغار خير من الكبار والتبعيد بين الاقداح لينهضم الأول قبل ورود الثانى أفضل وينبغى أن يحف مجلس الشراب بالمنظر اللذيذ من الأزهار والمحبوبين من الناس والارايبح اللذيذة والسماع المطرب ورفع كل ما يغم ويقبض النفس كالوسخ والصنان واللباس القذر والكمد وبعد غسل البدن والاطراف ولبس المشرف وتسريح الرأس واللحية وتقليم الاظفار وليكن المجلس مشرفا فسيحا بقرب المياه الجارية ومع الظرفاء من الاصدقاء وذلك لأن الشراب يحرك قوى النفس ويثير كل الشهوات فإذا لم تجد كل قوة مطلوبها تأذت وانقبضت فلا تقبل النفس على الشراب كل القبول ولا تتصرف فيه التصرف الواجب فيقل نفعه وربما فسد فكان شره أكثر من نفعه.

ومنافع الشراب منها نفسية ومنها بدنية.

أما النفسية فلا يمكن أن يساويه فيها غيره وذلك كالسرور وبسط النفس وتفسيح أملها وتشجيعها وازالة البخل والغم والفكر الفاسد وهو أنفع الاشياء للماليخوليا لتفريحه المضاد لا يحاش السوداء وتحسن الظن وتقوى ذهن قوى الدماغ لأن دماغه لا ينفعل عن ابخرة الشراب المسكر بل عن حده اللطيف فيصفو ذهنه صفاء لا يصفو مثله بغيره فلذلك قوى الدماغ لا يسكر بسرعة وبسرعة السكر وبطئه تعلم قوة الدماغ وضعفه.

وأما البدنية فإنها وإن أمكن أن تستفاد بغيره من المعاجين والمركبات فذلك يعسر وذلك كتحسين اللون وانارته وتبريقه واشراقه وتقوية الحرارة الغريزة وانعاشها وانضاج الرطوبات وإذلاقها وتفتيح المجارى وازالة سددها وتفتيح المسام وتقوية الهضم وتكبير الروح وتلطيفها وانارتها واثارة الدم وتنقيته وانضاح البلغم وتلطيفه وادرار الصفراء وترطيبها وتعديل مزاج السوداء وقمع عادتها واخراجها ونفعه يتعلق بالقوى الطبيعية والحيوانية أكثر من القوى النفسانية وادامته تبلد الذهن وترخى العصب وتورث الرعشة والتشنج وكثيرا ما يموت السكران بالسكتة والصرف محرق للدم مفسد لمزاج الدماغ والكبد والمطار يخاف منه ذو سنطار بالنفحة واسهاله والسكر المتواتر يوهن قوى الدماغ والعصب ولا بأس به فى الشهر مرتين لاراحة قوى الدماغ والفصل والبلد الباردان

يحتملان كثرة الشراب وقوته وما أمكن ترك التنقل فهو أولى لكن المحرور قد ينتفع بالتنقل بمثل السفرجل والرمان المز والتفاح والكمثرى والزعرور وأقراص الليمون وحماض الاترج شرابه بل يحتاج إلى التنقل بأقراص الكافور كما يفعل بالمدقوقين والمبرودين بحوارش التفاح والخلنجيين والتمر والفستق والمرطوب بالقرعامة وزيتون الماء والفستق واللوز المملوحين والاشياء التى تبطئ بالسكر التنقل باللوز وخصوصا المز خمسون لوزة يستعمل قبل الشرب فيمنع السكر وكذلك التنقل ببزر القنبيط المملح وأكل القبنيطية والكرنبية قبل الشراب وكذلك استعمال المدرات والثرايد الدهنية وإن أبطأت بالسكر لكنها تمنع كثرة الشرب والمسكرات بسرعة كالتنقل بجوز الطيب ونقعه فى الشراب وكذلك العود والشيلم وورق العنب والزعفران وكل هذه تسكر مفردة وأما البنج واللقاح والشوكران والافيون فمفرط وإنما يستعمل لمن يريد أن يعالجه بما لا يحتمله فى الصحو ومما يذهب رائحة الشراب الكزبرة اليابسة والرأس ودار صينى العين وأفضل ما يمزج به الشراب الماء وقد يمزج بماء لسان الثور ليزداد تفريحه وهو بذلك يسر سرورا عظيما وقد يمزج بماء الورد فيقوى المعدة والقلب أكثر وقد يمزج بأمراق الفراريج واللحم لمن غشى عليه أو ضعف وضيف عليه أن لا تطول المدة إلى حيث تصل المرقة مفردة والله أعلم. انتهى كلام ابن النفيس الحكيم الفاضل المؤيد محمد بن المحلى الشهير بالعترى فى كتابه النور المجتنى من رياض الندماء.

واعلم أن الاكثار من الخمرة يحدث الامراض الباردة الرطبة كالسكتة والفالج واللقوة والخدر والرعشة والاسترخاء والسبات هذا لمن مزاجه مستعد للبرد فأما أصحاب المزاج الحار فإنها تولد الحميات الحارة ولا سيما إن وافقها غذاء حار وفصل حار ومزاج صرف والغرض من الخمرة أن يأخذ منها اليسير بعد الطعام بثلاث ساعات ولا بأس باستعمال النشوة والسكر فى الشهر مرتين نافع وكذلك القىء كرتين فى الشهر ويجب ألا يؤخذ الغذاء الا وقت الشهوة وبعد الرياضة ومن أراد الاستكثار من الشراب فلا يستكثر من الطعام ومن أراد أن يطول جلوسه على الشراب فلا يستكثر من الرياضة والحمام ولا يمتلئ من الطعام وإذا كان الغذاء ظهرا كان الشراب عصرا ويبدأ بالاقداح الصغار أولا.

وأما أوقات الاجتماع عليها فيكون ذلك والقمر فى برج الزهرة أو عطارد متصلا بهما اتصالا مقبولا ويحذر ثبوت المشترى ونظره إلى القمر والعاقل إذا انقطع إلى الخمرة فى

يوم مذموم كفى شر ذلك اليوم باشتغاله بها إلا أنه يجب أن يكون خلوه مع نديم مأمون الجانب عاقلا يكفى شر ذلك اليوم إن شاء الله تعالى ومنه صفة تفاحة تسكر سريعا إذا شمت يؤخذ زعفران وميعه وحمام ولقاح وقشور أصل اليبروح ينعم سحقه ويعجن بشراب صرف عتيق ويتخذ منه تفاحة منقشة وتشم والحرمل مفردا ومع الشراب يسكر الشارب سكرا مفرطا ومن شرب خمس سعدات أو عشرة مسحوقة لم يسكر يومه ويجب ألا يفعل ذلك الا صاحب المزاج البارد وأما المحرور فيجعل غذاءه إذا أراد ألا يسكر بالخل والسماق والحصرم وماء الليمون بلحوم الدجاج والجداء والخرفان ويمتص ماء الرمان المز وأكل السمك الطرى بالخل والتنقل باللوز الحلو لا سيما إن وافق ذلك سماع مطرب أو نديم يعجب وينشد:

الخمر طيبة وليس تمامها الا بطيب خلائق الجلاس

ما يقطع رائحة الشراب من الفم:

فمن ذلك سعد وكبابة ودار صينى بالسوية يدق ويستف منه مثقال لا سيما بعد القيء المستقصى وسف الكزبرة والنعناع ومضغ العود الرطب وكذلك السعد وأكل البصل يخفى رائحة الشراب والفوتنج النهرى اذا مضغ قطع رائحته. انتهى كلام العنبرى.

وقال التيفاشى فى كتابه سرور النفس بمدارك الحواس الخمس وهو عدة مجلدات اننى لما رأيت لهج الخلفاء والملوك وشغف جمهور الأمم من العرب والعجم بشرب شراب العنب واختلاف مذاهبهم فى استعماله مع الاتفاق على الميل إليه على تباين بخلهم ومللهم وقد ذكر عن الاحنف بن قيس أن رجلا قال له يا أبا بحر ما ألذ الأشربة فقال له الخمر فقال كيف علمت ولم تذقها قال لأنى رأيت من أحلت له لا يصبر عنها ورأيت من حرمت عليه يخطئ البهائم ووجدت جل من يستعمل هذا المشروب لا يفى له خيره بشره ولا يقوم نفعه بضره وذلك لجهله بوجه استعماله فإن من المعلوم إن الخمر إنما المقصود من شربها منفعتان احداهما للنفس بالتفريح ونفى الهموم واخراهما للبدن بحفظ صحته عليه ونفى الامراض النازلة به وتحقق عند كل من له أدنى مسكة من عقل أنها إذا استعملت على غير ما ينبغى انعكست هاتان المنفعتان مضرتين فصار عوض السرور هما وغما وضجرا وسوء خلق وعوض الصحة مرضا مزمنا أو موتا فجأة حسبما نشرحه إلا أنه لا يقتصر الأمر على عكس هاتين المنفعتين فقط بل يتعدى إلى مضار أخرى عظيمة إن

سلمت المهجة كذهاب العقل والمال والجاه والذكر الجميل بل لا يقف الأمر على ذلك بل يتعدى الضرر إلى الاعقاب فإن الحكماء أجمعوا قاطبة على أن مدمن الخمر لا ينجب وإن أنجب كان الولد أحمق. انتهى كلام التيفاشى.

ونقلت من مجموع بخط بعض الافاضل قد ذكر الحكماء والأطباء والعلماء والشعراء والفضلاء والبلغاء من مضار الخمر ومنافعها وبهجة عواريها وطوالعها فمن ذلك قولهم الخمر يسخن الجسم ويجود الهضم ويرطب الاعضاء ويسكن القيء والعطش إذا مزجت وتدر البول وتسهل الطبيعة وتسر النفس وتحدث النشاط والطرب والاريحة لا سيما فى الابدان المعتدلة هذا فى أخذ القصد فإذا أكثر منها أحدث ذلك السهر وورم الكبد وقلة شهوة الجماع والغذاء والنسيان والبخر والرعشة والدمع وضف البصر والحميات واختلاط العقل والتبلد والسكتة والصرع وموت الفجأة لأن الخمر تملأ الدماغ فتغمر الحرارة كما يغمر الدهن نار السراج فيطفأ. انتهى.

الفصل الثالث

فى آداب منتشيها وما يجب على مستعمليها

ينبغى للمعاشر والنديم المجالس للملوك والرؤساء أن يكون نظيف الكف نقى الظفر متعاهد التقليمة والتخليل بين أصابعه وغسل يده ومعصمه فى أوقات وضوئه ومطعمه طيب المعانى عطر البشرة نظيف الوجه والشارب والانف نقى الجبين مستعملا للسنوت وأخذ السعد بالغدوات وتسريح اللحية وتنظيف الثياب وعمامته خاصة لأن العين كثيرا ما تقع عليها متعطر بالبخور والغالية والدراير على الشعر والثياب وليجلس فى مرتبته بحسن أدب وسكون جاشر بغير اتكاء ولا مد رجل ولا عبث بثوب ولا بلحية ولينهض بنهوض الملك ويجلس حيث يشير إليه ويدنو إذا استدناه ويجيبه إذا سأله ولا ينهض عن المائدة أولا ولا يمد يده مبتدئا ولا يلعق أصابعه ويعيدها فى الطعام ولا يغمس أنامله ولا يسرع المضغ ولا يكثر الضحك والكلام ولا يعض اللحم بأسنانه ولا يرد ما عض فى الصحفة ولا يتناول ما بين يدى غيره ولا يكثر اللقم ولا يفتت الخبز ولا يخلخل الملح ولا يلتقط الدسم بالخبز ولا يكثر من اغتراف الحبوب والامراق خوفا من أن يسيل على الثياب وينسب إلى الشره وسوء الادب ولا يفسخ الدجاج بيده بعنف خوفا من الاندلاق وهو أن يكون تحت

جلد الدجاجة أو فى أوراكها دسم فيطير على ثياب من بازائه بل يقطع بالسكين على تواضع ولا يحصر الزيتونة بشدة فربما طارت نواتها فأصابت وجه جليسه ولا يحمل بيده الحلوى بكثرة ولا يدخل إلى فيه الطعام الحار ثم يخرجه من فيه ولا ينفخ فيه وفى المرقة ليبرد ولا يكثر شرب الماء ولا يتجشى ظاهرا ولا يمشمش العظام ولا ينفض المخاخ ولا يعض الفواكه إن حضرت قبل الطعام ولا يمد يده إلى قطعة لحم مشهورة ولا بيضة منضورة ولا سنبوسجة مشتهاة ولا ما تقع الشهوة عليه ولا ما تسارع النفس إليه ويجب أن يتجنب الخمرة فى مجالس الملوك ومن يخاف على عرضه.

حكى أن المتنبى كان يأبى شرب الخمرة ويكرهه فألزمه سيف الدولة بن حمدان فشرب ذات ليلة عنده ففرطت منه فارطة بأن قبل غلاما ومازحه ثم ندم لوقته فقام وانصرف وبقى أياما لا يحضر مجلسه فأكثر بطلبه حتى حضر فأمره بالشرب فامتنع وأقسم أنه لا يشرب أبدا خمرا وأنشأ يقول:

رأيت المدامة غلابة تهيج للمرء أشواقه
تسىء من المرء تأديبه ولكن تحسن أخلاقه
وبالامس مت بها موتة وهل يشتهى الموت من ذاقه

فعفاه من الشرب.

وإذا ألزم العاقل الشرب فى مجالس الملوك فلا يشرب فإن غلب لزم الصمت والسكوت وتكلفه إلا أن يسأل فيرد جوابا مختصرا..

وحكى أن نصيبا كان يجالس عبد الملك بن مروان ويؤاكله ويجلس قريبا منه فألزمه بالشرب فقال يا أمير المؤمنين لست لك بقرابة ولا لى عليك يد بيضاء ولا أنا ذو حسب ونسب وإنما أنا عبد أسود قربنى منك أدبى وعقلى فيأبى بك أن تسلبنى أدبى وعقلى الذى قربنى منك فعجب منه وعفاه.

وينبغى ألا يشربها أبدا الحمقى والسفهاء والجهال حتى يخرجون فى فجورهم وسفههم وتكثر حماقتهم.

وقال أبو نواس ـ رحمه الله تعالى:

والخمر قد يشربها معشر ليسوا اذا عدوا بأكفائها

وقال آخر:

وقد تعرف الجهال من حلمائنا إذا ما تعاطينا الكئوس تعاطيا
تزيد حمياها السفيه سفاهة وتترك ألباب الرجال كما هيا
وجدت أقل الناس عقلا إذا انتشى أقلهم عقلا إذا كان صاحيا
عليك دليل من صحبت فلا يكن جليسك من يحكى إليك المساويا

وقال آخر:

على قدر عقل المرء فى حال صحوه يؤثر فيه الخمر فى حال سكره
فيأخذ من عقل كثير أقله ويأتى على العقل اليسير بأسره

قال المأمون الشراب ستر فانظر مع من تهتكه وقال الجماز حرم النبيذ على ثلاثة عشر نفسا على من غنى الخطأ واتكأ على اليمين وأكثر أكل النقل وكسر الزجاج وسرق الريحان وبل ما بين يديه وطلب العشاء وقطع اللمة وحبس أول قدح وأكثر الحديث وامتخط فى منديل الشراب وبات فى موضع لا يحتمل المبيت ولحن المغنى ونقلت من خط الحافظ جمال الدين اليغمودى من مجاميعه المسماة بكنوز الفوائد ومعادن الفرائد ما صورته لما تقلد كسرى أنوشروان مملكته عطف على الصبوح والغبوق فكتب اليه وزيره رقعة يقول فيها إن فى إدمان الملك الشراب ضررا على الرعية والوجه تخفيف ذلك والنظر فى أمور المملكة فوقع على ظهر الرقعة اذا كانت سبلنا آمنة وسيرتنا عادلة والدنيا باستقامتنا عامرة وعمالنا بالحق عاملة فلم نمنع فرحة عاجلة.

قال سليمان أخطأ كسرى من وجوه أحدها أن الادمان افراط والافراط مذموم وآخر أنه حمل أن أمن السبل وعدل السيرة وعمارة الدنيا والعمل بالحق لم يوكل به الطرف الساهر ولم يحظ بالعناية التامة ولم يحفظ بالاهتمام الجالب لدوام النظام مع أنه متى كان كذلك دب اليها النقص والنقص باب الانتقاص مزيل للاصل مزعزع للدعامة وآخر أن الزمان أعز من أن يبذل كله للاكل والشرب والتلذذ والتمتع فان فى تكميل النفس الناطقة باكتساب الرشد لها وابعاد الغى عنها ما يستوعب أضعاف العمر فكيف اذا كان العمر قصيرا وكان ما يدعو اليه الهوى كثيرا وآخر أنه ذهب عليه أن العامة والخاصة اذا وقفت على اشتهار الملك بالذات وانهماكه فى طلب الشهوات ازدرته واستهانت به وجذبت عنه بأخلاق الخنازير وأخلاق الحمير.

وما أحسن ما قال الاديب الفاضل أبو عبد الله محمد بن الرفا الرصافى من رصافة قرطبة ـ رحمة الله تعالى ـ وقد مر بروضة نزهة فتذكر جلوسه فيها مع رفقة له كانوا أعزاء على قلبه:

سلى خميلتك الريا بآية ما ... كانت ترف بها ريحانة الادب
عن فتية نزلوا أعلى أسرتها ... عفت محاسنهم الا من الكثب
محافظين على العليا وربتما ... هزوا السجايا قليلا بابنة العنب
حتى اذا ما قضوا من كأسها وطرا ... وضاحكوها الى حد من الطرب
راحوا رواحا وقد زيدت عمائمهم ... حلما ودارت على أبهى من الشهب
لا يظهر السكر حالا من ذوائبهم ... إلا التفاف الصبا فى السن العذب

ونقلت من خط سيدنا ومولانا الجناب المجدى فضل الله ابن المرحوم الصاحب فخر الدين بن مكانس هذه الارجوزة وسماها عمدة الحرفاء وقدوة الظرفاء من نظم والده سامحه الله تعالى:

هل من فتى ظريف ... معاشر حريف
يسمع من مقالى ... ما يبهر اللآلى
أمنحه وصيه ... سارية سريه
تنير فى الدباجى ... كلمعة السراجى
جالبة السراء ... جليلة الانباء
ماجنة خليعه ... بليغة مطبوعه
رشيقة الالفاظ ... تسهل للحفاظ
جادت بها القريحه ... فى معرض النصيحه
أنا الشفيق الناصح ... أنا المجد المازح
اسلك الجماعه ... فى طريق الخلاعه
اجد للاكياس ... عهد أبى نواس
ان تبتغى الكرامه ... وتطلب السلامه
اسلك مع الناس الادب ... تر من الدهر العجب
لنْ لهم الخطابا ... واعتمد الآدابا
تنل بها الطلابا ... وتحر الالبابا

البس حلا الخلاعه	واخلع ردا الرقاعه
ولا تطاول بنشب	ولا تفاخر بنسب
المرء ابن اليوم	والعقل زين القوم
ما أروض السياسة	لحائز الرياسة
ان شئت تلقى محاسنا	فلا تقل قط أنا
وان أردت لا تهن	اذا اؤتمنت لا تخن
العز فى الأمانه	والكيس فى الفطانه
القصد باب البركة	والخرق داعى الهلكه
لا تغضب الجليا	لا تخط الرئيا
لا تصحب الخبيا	لا توحش الانيسا
لا تكثر العتابا	تنفر الاصحابا
فكثرة المعاتبه	تدعو الى المجانبه
وان حللت مجلسا	بين سراة رؤسا
اقصد رضا الجماعه	وكن غلام الطاعه
داريهم باللطف	واحذر وبال السخف
لا تلفين كاذبا	لا تهمل الملاعبا
قرب الندامى يلجى	للنرد والشطرنج
واختصر السؤالا	وقلل المقالا
ولا تكن معربدا	ولا بغيضا نكدا
ولا تكن مقداما	تسطو على المنداما
لا تمسك الاقداحا	تنغص الافراحا
لا تقطع الظرافه	لا تشحذ السلافه
لا تحمل الطعاما	والنقل والمداما
فذاك فى الوليمه	شناعة عظيمه
لم يرتضيها آدمى	غير وضيع عادم
وقل من الكلامى	ما لاق بالمدامى
كرائق الاشعار	وطيب الاخبار
واترك كلام السفله	والنكتة المبتذله

وقالت الاكباسى … اذا أريق الكاسى

بادره بالمنديل … فى غاية العجيل

فشملة الكرام … سفنجة المدام

وان رقدت عندهم … فلا تشاكل عبدهم

فان سلمت مره … فلا تعد يا عره

لا تأمنن الثانيه … فان تلك القاضيه

والدبدبون احذره حذر … فانه احدى الكبر

فيا لها من فضيحه … ومحنة قبيحه

فاعلها لا يكرم … وان دوى لا يرحم

كم أسكن الترابا … ذا قوة ذبابا

وكم فتى من ذره … أصبح مفضى الثقبه

جازوه من جنس العمل … وصار فى الخلق مثل

ليس له من آسى … كمثل بعض الناس

كفته تلك شهره … ومثلة وعبره

اياك والتطفيلا … وشامة الوبيلا

تبالها من محنة … وثلمة وهجنة

لا تقرب الطاعه … فانها دلاعه

ولا تكن مبذولا … ولا تكن ملولا

وان دعاك الاخوه … الى ارتشاف القهوه

فلا تصقع ذقنكا … ولا تزرهم بابنكا

ولا بجار الدار … ولا بشخص طارى

ولا نجل تألفه … ولا صديق تصدفه

ولا تقل لمن تحب … ضيف الكرام يصطحب

فهذه أمثال … غالبها محال

سيرها الاغراب … السادة السغاب

قد وضعوها فى الورى … طرا بأولاد الخرا

وان حللت مشربه … مع سوقه لا كتبه

فأقلل من المدام … فى مجلس العوام

فكثرة المجون نوع من الجنون
والامر فيه يحتمل وكل من شاء فعل
وآخر الامر الرضى وكل مفعول مضى
فعصبة العوام ضرب من الانعام
وان صحبت تركى فاصبر لاكل السكك
هذا اذا تلطفا ولم يكن فيه جفا
وان يكن ذا عربده ونزغة منكده
يقوم للجلوس بالسيف والدبوس
أبشر بقتل القوم ونحس ذاك اليوم
فاقبل كلامى واعتمد وصبنى واصل وفد
ولا تخالف تندم ولا تعزز تعدم
فالشوم فى اللجاج والحر لا يلاجى
فهاكها وصيه تصحبها التحيه
يحملها الكرام إليك والسلام

الفصل الرابع

فى استهدائها واستدعاء الاخوان

كتب ابن العميد الى بعض اصحابه يستهديه خمرا قد اغتنمت الليلة أطال الله بقاء سيدى ومولاى رقدة عين الدهر وانتهزت فرصة من فرص العمر وانتظمت مع أصحابى كالثريا فان لم تحفظ علينا ما نحن فيه من النظام باهدائى المدام عدنا كبنات نعش والسلام.

وقال جحظة البرمكى يستهدى نبيذا (توفى سنة ست وعشرين وثلاثمائة ـ رحمه الله):

قد زارنى اليوم نور عينى وكان بالامس صدًّ عنى
وليس عندى له نبيذ وليس يرضى بذاك منى
فجد علينا بنصف دن بربع دن بثلث دنى
لا تنكرن كدنى وشحتى فاننى شاعر مغنى
حالا لو خافا مليكا اذا لكدى بكل فن

وكتب عبد الرحيم بن أحمد القاريس خوى الى أخيه الاكبر

بلغ جمال الدين عبد الواحد صدر الانام الماجد بن الماجد

برد الهوا زاد فى قلبى الهوى فانعم على بقلب ضد البارد

وأنشدنى الصاحب المرحوم فخر الدين بن مكانس من لفظه لنفسه:

براح ورمان بعثت اليكم وبسر وتفاح تضوع كالند

كما حليت بكر على الشرب ناهد مقمعة الاطراف قانية الخد

الاستدعاء قال بعضهم :

تفضل بحق الكأس والراح والهوى وترجيل أصداغ غدون على خد

وكن غير مأمور جواب كتابنا ولا توحشنا بالتعلل والوعد

ولآخر:

جعلت فداك قد حضر الطعام وضجت من تأخرك المدام

فاما جئتنا عجلا والا أخذنا فى اغتيابك والسلام

وكتب أحمد بن يوسف الى صديق له هذا يوم رقت حواشيه وبدت تباشير الحبور فيه والمرء بأخيه كبير وبمساعدته جدير وأنت قطب السرور ونظام الامور فلا تتأخر عنا فنقل ولا تتفرد منا فنذل.

وقال عبيد الله بن طاهر (توفى سنة ثلاثمائة):

القدر قد هدرت والدن مبذول والروض قد رش والريحان مبلول

وقرت العين قد جاءت بمزهرها بصيح فى يدها والنائى مشغول

ولا يتم لنا عيش ولا طرب حتى نراك فانت القصد والمسئول

وكل عيش بلا راح ومسمعة ولا نديم ولا أنس فتعليل

يوم التلاق قصير كيف طال لنا وغيره فيه مع ابعاده طول

وقال آخر نحن فى مجلس قد أبت راحته أن تصفو أو تتناولها يمناك وأقسم غناءه لا طاب ان لم تعه أذناك فاما خدود تاريخه فقد احمرت خجلا لابطائك واما عيون نرجسه فقد حدقت تأميلا للقائك ونحن لغيبتك كعقد قد ذهبت واسطته وشباب قد اخذت حدته فاذا غابت شمس السماء عنا فلا بد أن تدنو شمس الارض منا فان رأيت أن تحضر لتتصل الواسطة بالعقد ويحصل بقربك فى جنة الخلد فكن الينا أسرع من السهم الى ممره والماء الى مقره.

وقال الوزير أبو القاسم بن السقاط يومنا أعزك الله يوم بقيت شمسه بقناع الغمام وذهبت طاسه بشعاع المدام ونحن فى قطار الوسمى فى رداء هدى ومن نضير النوار على نضائد النضار ومن نواسم الزهر فى لطائم العطر ومن غرر الندمان بين زهر البستان ومن سقاة الكئوس ومعاطى المدام بين مشرقات الشموس وعواطى الارام فرأيك فى مصافحة الاقمار ومنافحة الانوار واجتلاء غرر الظباء الجوارى واتقاء درب الغناء الحجازى موفقا ان شاء الله تعالى.

وقال محمد بن أبى محمد بن الفياض كاتب سيف الدولة بن حمدان وقد أجلتنا يومين وهذا ثالث وأعطيتنا عهدين وكنت الناكث فهل ابتدعت ما أتيت أو كان لك عليه باعث فيا قيم روحى ويا نسيم صبوحى ها قد آن الغبوق الا أنه يعز بمرشف شفتيك وكأس عينيك ووالله لا شربت الا على آس عذارك وورد خديك فابرر قسمى ورد الجواب من فمك الى فمى.

وقال القاضى السعيد بن سناء الملك وقد انتظمنا انتظام الجمان واجتمعنا على رغم انف الزمان وعندنا فلان وما أدراك ما فلان تارة ينظر فيملأ علينا البيت سحرا وتارة يبسم فيفرق علينا درا.

وقال أبو الوليد بن الحبان الشاطبى نحن فى روض أغصانه الندماء وغمامته الصهباء فبالله الا ما كنت لروض مجلسنا نسيما ولزهر حديثنا شميما وللجسم روحا وللطيب ريحا وبيننا عذراء زجاجتها خدرها وحبابها ثغرها بل شقيقة حوتها كمامه أو شمس حجبتها غمامه اذا طاف بها معصم الساقى فوردة على غصنها أو شربها مقهقهة فحمامة على فننها طافت علينا طوفان القمر على منازل الحلول فأنت وحياتك اكليلنا وقد آن حلولها فى الاكليل.

وقال بدر الدين بن صاحب وكتب بها الى الصاحب فخر الدين ابن مكانس تغمدهما الله برحمته وسامحنا واياهم بمحمد وآله هل لك بسط الله آمالك وضاعف نعيمك ودلاك فى عذراء مصونة كالدرة المكنونة فتانة مفتونة كأن على خدها فوق ورده ياسمينة مخدرة تدهش العقول لمجتلاها وتغشى العيون لضوئها سناها مظلومة الريق فى تشبيهها بالضرب وفى اللثات وفى أنيابها شنب لها من ذاتها طرب يغنى عن المزامير بلقية الجمال لها صرح ممرد من قوارير ضرة للشمس تلبس زى البدور ليلين ويرطب بها عيش السرور ليلها من

حسنها نهار وضوء وجهها ليد لامسها سوار عجوز الاسم صبية الاستمتاع بكر تستخف الحليم بكشف القناع تعصبت بالدجى طيبا وتلثمت بالصباح وتلطفت حتى مازجت الارواح كريمة الاصل والفعال حسنة المعانى والخصال أديمها كلما يعتق يغلو ووردها كلما مر بحلو يخلع الوقور فى حبها العذار ويطيعها بالسعد فلك اللهو المدار ثملة المعاطف تقهقه تهقهة الرعونة كأنما خلقت نشوانة من الطينة يزداد ثغرها طيبا فى ساعة السحر وتعرف عينها المخفية بحسن الاثر حديثها السحر الحلال وعتيقها خلع الدلال أيامها اعياد وأوقاتها أوقات القلوب والاكباد تطيب عيش الجلاس وتفرك أذن الوسواس من القاصرات الطرف فى كل قصر وهى على الاطلاق مليحة ذهبية العصر رومية لها بالكيمياء معرفة مع انها بادراك المطالب متصفة فتارة تقلب الاحزان أفراحا ومرة تكتال لك الذهب أقداحا نديمها يجد فى نفسه تخاييل المملكة ويكاد أن يمد على الدنيا من لؤلؤة حباتها شبكة قينة كأنما غنت الفلك فنقطتها بالنجوم قارية تخلقت بعد أن تقمصت ببياض الغيوم تجمع شمل الاحباب وتهذب الاخلاق الصعاب لو خالطها حبل لماس أو قابلها جماد لقيل انه كاس أو قتلت ندمائها لما نسبت الى اياس ولقال لسان حالهم وفيها منافع للناس وتلطف حتى كأن رائيها سامع يطيب ويطرب وحتى يكاد يأكل بالضمير ويشرب تغايرت الاستقصاءات على شكلها النورانى وما نفثت فى خلقها الجثمانى الروحانى فلم يجد الطير له فيها مدخلا لكن قنع منها بالتلطيخ تطفلا على أنه وارثها بالتعصب وقل جدها للام بلا تثريب انفاسها مسكيه وطبائعها برمكية ومكارمها خاتمية وانسابها قيصرية بكر خاتم ربها وهى ترضع أباها من حلبها فتعيد الشيخ صبيا والمشغول خليا فكأنها استعارت الارضاع من أمها التى لها ثدى كالنجوم عدة وتعلمت منها المكارم لما رأت أكفها بالندى ممتدة غانية طعم الحياة فى ريقها وضيق الموت فى مباينتها وتطليقها لا تنزل الحوادث ساحتها ولا يعرف التعب من صافح راحتها حمراء تخلع ثوبها على الندمان بل تكاد تطبق عينها على الانسان لا ينهض البليغ بوصفها فالعجز عن ادراك لطفها ادراك لطفها.

أخبرنى الجناب المجدى ـ سلمه الله تعالى ـ أن والده أجاب عن هذه الرساله جوابا معجزا الى الغاية وأن مسودتها عدمت.

وقال أبو الحسين بن بسام ليستنهض همه نديم (توفى سنة ثلاث وثلاثمائة رحمه الله):

الا بادر فلا تأن سوى ما	عهدت الكأس والبدر التمام
ولا يكسل برؤيته ضبابا	يظن به الحديقة والمدام
فان الروض ملتثم الى ان	توافيه فينحط اللثام

وقال الشهاب الاعزازى من موشحة أولها (توفى سنة عشرة وسبعمائة):

كـأس رؤيـه * جـلا علينا النديم * أم سنا مصباح

أم شمس حسن * قد توجتها النجوم * فى سماء الاقداح

ومنها:

وأجـاد لنا خليل	نـراه منـذ ليالى
غائبا عنا * وماء الشمول	لذيذه وهو سالى
أيش منا * قل يا رسول	نائبنا فى ظلالى

غيره:

دوحه غنى زبرجديه * ونم شادورنم * وبقايا راح

ويوم دجن * وقد دعاك النديم * فأجب يا صاح

وقال الحكيم شمس بن دانيال يداعب:

شمس الدين قد أبطأت عنا	لأمر قل لنا ماذا الجفاء
وقلت اليوم بعد العصر تأتى	وبعد العصر يأتينا الجزاء

ونقلت من خط الصاحب المرحوم فخر الدين بن مكانس ما صورته كتبت الى صاحبنا الاديب الفقيه العالم الحافظ الراوية أبى حفص سراج الدين عمر السكندرى الشهير بالقوصى استدعيه وفيها بعض مداعبة:

الحمد لله المجيب لمن دعاه:

يا ذا الذى فكره مثل اسمه يقد	فندت عنا وما من شأنك الفند
بما اعتذارك عن هذا الصدود وما	هذا وقد ضمنا بالحيرة البلد
عافاك ربك من داء القطيعة بل	شفاك من كل داء أمره نكد
فيم التوانى وشهر الصوم مقتبل	عن خمرة ضونها فى الكأس يتقد
وفتية مخلصين الود قد جلبوا	على المحبة لا حقد ولا حسد
ان ذاع وصفك فى ناديهم طربوا	أو جال ذكرك فيما بينهم سجدوا
ان لم تشرف بناديهم فاشرفوا	أو لم تنفق لهم آدابهم كسدوا
لم ذا هجرت بنى الآداب فابد لنا	فما اعتذارك لا أهل ولا ولد
قد صرت توحشهم بعد اوان قربوا	وكنت تؤنسهم قربا وان بعدوا
تركت عشرتهم لما رغبت الى	جساه طويل عريض زانه مدد

ما هكذا تفعل الدنيا بصاحبها فالناس بالناس والاخوان تنتقد
وبعد فاحضر فذنب العبد مغتفر ولو تطاول من هجرانك الامد
أولا فعصبة فسق كلهم سبق سود غلاظ شداد مالهم عدد
لهم ايور قيام طول دهرهم من حين ادراكهم بالحسين ما رقدوا
كأنهم من حديد جمعوا زبرا يستوثبون فلا يقواهم الاسد
من كل اير تحك السحب هامته يهيج كالبحر اذ يبدو له زبد
مرنفل مكهمر مغضب شرس لظهره جملونات بها عقد
مكرج الرأس فى عرنينه شمم معشر الدوم فى حلقومه غدد
تلك الايور تراهم فى نكورهم كأنهم تحت فطاط السما عمد
ومن قرى رقعتى هذى وليس برى عقيبه حاضرا لم يثنه أحد
مولاى انى محب فاتخذ كلمى نصيحة فعليها الخل يعتمد
يا در لنا فبنو الآداب كلهم تجمعوا من فجاج الارض واحتشدوا
وانت أدرى بقوم ان قلوا سلقوا بألسن ما لقتلى حربها قود
فأوعدوك وان لم تأت نحوهم فكل منحر فى الحال ما يعد
لا زلت ترقى على زهر النجوم علا ما حلت الربح أقوام وما رصد

وكتب اليه يداعبه:

يوم عليك سعيد يبدى الهنا ويعيد
يا بحر علم خضم تأتى اليه الوفود
يا ناقض الود يا من شوقى اليه يزيد
ويا رقيق الحواشى ماذا الجفا والصدود
يا جامع الشمل يا من بما لديه يجود
قد غيرتك الليالى والجاه وهو شرود
فكيف تبدى نفارا منا ونحن عبيد
لم لا تتيه وتعلو على الورى وتسود
وأنت خلفك قوم كل قوى شديد
والناس شكوا وقالوا ما شاب منه الوليد
والشعر فيك توالى طويله والمديد

أصـبـحـت كـالـبـدر مـراء وهو القـريب البـعـيـد
يا أكـثـر الناس نحـبـا قل لى لمـاذا العـقـود
وقـد أتى الصـوم فـالمم بنا فـقـربك عـيـد
واغـتـنم شـفـاءك واشـرب فـقـد أتتك السـعـود
واحـضـر إلينا اذا مـا وافـاك دن النضـيـد
فـعـندنا ان تـزرنا مـمـا نشـتـهى ونريد
راح وظـبـى وشـاد يشـجى الانام وعـود
تـزوج الـمـاء بـالراح والـمـلاح شـهـود
وأنـت جـوهـر فـضـل به تـحلى الـعـقـود
لا زال عـزمـك والـر أى مـفـلح ورشـيـد
يـسـتـخـدم الدهر فـيـمـا تقـره وتـبـيـد
أيـامـه خـدم وبيـض والليـالى سـود

وقال آخر نحن قـوم من شيعة الخمر نحب العتيق قد فرضنا عنا يد الهم بسماع الوتر واقمنا من ناصب الغم وعدك المنتظر.

الفصل الخامس

فيمن وصفها من الشعراء الاعيان

القول فى الكرمة:

الكرم أكرم الشجر جوهرا وأشرفها محتدا وعنصرا منافعها عظيمة وعوائدها جسيمة وثمرها يزهى على جميع الثمار طيبا ومنفعة ومواد الشرب فيما يستخرج منه مستجمعة وينبغى أن يختار لها أرض معتدلة رطبة لا مفرطة الرخاوة ولا صلبة ولا يكثر سقيها فيصير ما يعصر منها رقيقا مائيا ولا يفرط فى تعطيشها فيكون يابسا ناريا ويعتمد تزبيل أرضها باخثاء البقر فانها حافظة لما استودعته دون غيرها من الشجر وألا يغرس ما يضادها فى أقرب مواضعها ولا يلاصقها الا ما يقاربها فى طبائعها فيجتنب الدفلى والدلب والخروع وما يشاكلها وتجاور الورد والتفاح واللوز والخوخ وما يماثلها والتفاح أشبهها به.

نكتة حسنة: قال أبو مسلم الخراسانى صاحب الدعوة لسليمان بن كثير بلغنى أنك كنت فى مجلس قد جرى بين يديك فيه ذكرى فقلت اللهم سود وجهه واقطع عنقه واسقنى

من دمه فقال نعم قلته ونحن فى الكرم الحصرم لما نظرت اليه فاستحسن قوله وعفا عنه لسداد جوابه.

القول على ثمرها أجمع العجم والعرب على أن رأس الفاكهة التين والعنب لانهما يهديان الخصب الى الجسوم ونفذوا أنهما غذاء غير مذموم وعقيد العنب اذا طبخ نفع من بعض الخوانيق وقطع الرطوبات المضرة بالحلوق وقد ورد فى الخبر المأثور ماهو عند أصحاب الحديث مشهور وهو كلوا الزبيب فانه يطفئ الغضب ويذهب الوصب ويشد العصب ويرضى عن الرب، وأطيب العنب ما اخضر عوده وتسلسل عنقوده وتدفق ماؤه ورق لحاؤه وقل عجمه واستجلاه مستطعمه وأفضل الاشربة ما اتخذ منه وهو الخمر لما فيها من الفضائل ولما انفردت به من شريف الخصائل فالألسنة منبسطة بنشر محاسنها والمدايح مشوقة اليها من أفضل معادنها والنفوس بمحبتها كلفه والقلوب الى ما تجتنيه منها مشوفة من اعتياد شربها لم يصبر عنها ومن لم يذقها ورآها دعاه نسيمها ولونها إلى الأخذ بحظ وافر منها وما أحسن قول ابن المعتز فيها:

معتقة صاغ المزاج لرأسها … أكاليل در ما لمنظومها سلك
جرت حركات الدهر فوق سكونها … فذابت كذوب التبر أخلصه السبك
وأدرك منها الآخرون بقية … من الروح فى جسم أضر به النهك
وقد خفيت من صونها فكأنها … بقايا يقين كاد يذهبه الشك

وقال القاضى الفاضل ـ رحمة الله عليه:

لها منن تصفو على الشرب أربع … وواحدة لولا سماحتها تكفى
سرور الى القلب وتبر الى يد … ونور الى عين وعطر الى أنف
ولما رأينا ياسمين حبابها … مددنا يمين القطف قبل فم الرشف

وقال مجير الدين بن عبد الظاهر:

خمرة للشقيق أمست شقيقة … بنت كرم بالمكرمات خليقه
قال قوم من لطفها هى فى الكأ … س مجاز الكاس قالت حقيقه
كيف تغدو عتيقة لدنان … وهى فى قبضة الندامى رقيقه
أنتجت فرحة وجاءت بكاس … صبغت حمرة فنعم العقيقه
هى مخلوقة من الماء فاعجب … كيف نار من مزنة مخلوقه
كم تبدت بها معانى سرور … بسوى الماء لم تكن مطروقه

سلفتنا على العقول وقالت يتولى الجناب كتب الوثيقه
حملت همنا فحمدا وشكرا لعجوز على بنيها شفوقه
كم بكت بالدموع منها الرواويـ ـق وجاءت جيوبها مشقوقه
أترانى أعصى الهى فيها ثم أخشى من أن يقول الخليقه

وما أحسن قوله ملغزا فى شملة وان لم يكن مما فيه لكن الشىء بالشىء يذكر بلوازمه
ومشمولة رقت وراقت فأصبحت:

على الشرب تزهى حين تهدى الى الكاس
معتقة ما شمست بعد عصرها لاثم وكم فيها منافع للناس
ولا عصرت يوما برجل ولا لها اذا ما أديرت من صعود الى الرأس

وقال ديك الجن عبد السلام بن رعبان الحمصى (مولده سنة إحدى وستين ومائة وتوفى سنة ست وثلاثين ومائتين):

بها غير معذور فداو خمارها وصل بعشيات الغبوق ابتكارها
فقم أنت واحتث كأسها غير صاغر ولا تشق الا خمرها وعقادها
فقام يكاد الكأس تحرق كفه من الشمس أو من وجنتيه استعارها
ظللنا بأيدينا نتعتع روحها فيأخذ من أقدامنا الراح ثارها
موردة من كف ظبى كأنما تناولها من خده فأدارها

قلت: أحسن ما ضمن هذا العجز الشيخ بدر الدين حسن العربى الشهير بالزعارى:

وبى سامرى مربى فى عمامة قد اكتبت من وجتيها احمرارها
موردة دارت بوجه كأنما تناولها من خده فأدارها

وقال مجير الدين بن تميم مضمنا:

لو كنت شاهدنا وقد جليت لنا فى كأسها لما انتشى الندماء
لرأيت أحسن ما يرى بزجاجة سال النضار بها وقام الماء

وقال صدر الدين بن غنوم:

قم نفرغ بكر المدامة بكرة فى روضة حسنت وراقت منظرا
فالراح سيف قاطع لهمومنا أوما تراه بالحباب مجوهرا

وقال شرف الدين راجح الحلى:

أعجب شىء رأته عينى ما بين عود وحقق نائى
زحف سرور بجيش هم وقتل خمر بسيف مائى

وقال محيى الدين المغربى حافى راسه (مولده سنة خمس وثمانين وستمائة، وتوفى سنة اثنين وستين وسبعمائة:

لم يبتدر بدر الحباب بكأسها الا لصيد بلابل الأرواح
مزحت فأنجزت الذى وعدت به من نفخ روح الهوى فى الأشباح

وقال الناشئ:

صفت وأحداق نورها بزجاجها فكأنما جعلت اناء انائها
وتكاد أن مزجت لرقة لونها تمتاز عند مزاجها من مائها
تزداد من كرم الطباع بقدر ما تؤدى به الازمان من أحزانها

وقال البديع الهمدانى قال ابن خلكان (كانت وفاته سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة مسموما بمدينة هراه):

وفتيان كأقران الثريا على طرق من العيش الرخيم
بساقيهم من الغزلان أحوى كأن بطرفه داء الظليم
تنادوا للمدام وعنفونى وقالوا هاك حظك من نعيم
فقلت أخاف عقباها ولكن أشيعكم الى باب الجحيم

وقال أبو تمام الطائى (توفى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة) وفى وفاته ثلاثة أقاويل:

بمدامة تعدو المنا لكئوسها حولا على السراء والضراء
راح اذا ما الراح كن مطيها كانت مطايا الشوق فى الاحشاء
صعبت وراض المزج يبنى خلقها فتعلمت من سنن خلق الماء
حرقاء تلعب بالعقول حبابها كتلعب الافيال بالاسماء
وضعيفة فاذا أصابت فرصة فبكت كذلك قدرة الضعفاء

وقال أبو الحسن على بن موسى الغرناطى ضمنى وابا يحيى الكاتب مجلس أنس فتذاكرنا ما قيل فى معاقرة الشراب فى المشيب فأنشدنى لنفسه:

لاموا على حب الصبا والكاسى لما بدا زهر المشيب براسى
والغصن أحوج ما يكون لشربه ايان يبدو بالازاهر كاسى

ثم قال هل سمعت فى هذا المعنى شيئا لغيرى فقلت لا ثم أعلمت حتى عملت فيه وهو معنى غريب قلت:

يلوموننى ان شبت فى الخمر صلة ۞ واننى اذ ر فى المشيب بها أحق
اذا شاب رأس الليل بالفجر قريب ۞ له كئوس الصبح من خمرة الشفق

آخـــر:

صب فى الكاسى عقيق فجرى ۞ وطفا الدر عليه فسبح
نصب الساقى على حافاتها ۞ شبك الفضة فاصطاد الفرح

وقال أبو نواس ـ رحمة الله عليه:

يطوف بها ساق أغن يرى له ۞ على مستدار الاذان صدغا معقربا
اذا عب فيها شارب القرم خلته ۞ يقبل فى داج من الليل كوكبا

وقال ابن المعتز ـ رحمة الله عليه:

قد أظلم الليل يا نديمى ۞ فاقدح لنا النار بالمدام
كأننا والورى رقود ۞ نقبل الشمس فى الظلام

وقال ابن حمديس المصنفلى ـ رحمة الله عليه:

قم هاتها من كف ذات الوشاح ۞ فقد نعى الليل بشير الصباح
من قبل ان ترشف شمس الضحى ۞ ريق الفوادى من ثغور الاقاح

وقال ابن رشيد ـ رحمة الله عليه ـ أيضا:

خليل النفس لا تخلى الزجاجا ۞ اذا بحر الدجى فى الجو ماجا
مشعشعة كأن الشمس ألقت ۞ على ايدى السقاة به محاجا
اذا مريخها اتقد احمرارا ۞ سكبن المشترى فيه مزاجا

وقال ابن حجاج ـ رحمة الله عليه:

ويحكم يا كهول أو شيوخ الفـ ۞ ـتى أو يا معاشر الفتيان
اشربوها خمرا مما اقتناها ۞ آل دير الغنون للقربان
بكئوس كأنها ورق النسـ ۞ ـرين فيها شقائق النعمان
اشربوها وكل اثم عليكم ۞ إن شربتم بالرطل فى ميزان
فى ليال لو أنها دفعتنى ۞ وسط ظهرى وقعت فى رمضان

وقال ابن سيناء الملك:

الكاس لم تذنب فكيف حاسبتها أوحشتها من طول ما أنسيتها
لا بل هممت بشربها ورأيتها القت عليك شعاعها فلبستها

وقال وجيه الدين بن الدروى:

يفيض على كسرى غلالة قهوة ويلمه عمدا الراحة سالب
ونص على دين المجوس لهيبها فشق الدجى عن صدره مسبح راهب

وقال القاضى الفاضل - رحمه الله:

يلوح عليها خجلة اذ أدارها فمن عرق يبدو الحباب لذى المزج
أتانى بها والصبح من تحت ذيله كما استل سيف أو كما ابتسم الربجى
حبيب كأن كأسه من صبابتى فظاهرها برد يزر على وهجى

وقال أبو نواس - رحمة الله عليه:

وخمار الحب عليه ليلا قلائص قد تعبن من السفار
فترحم والكرى فى مقلتيه كمخمور شكى ألم الخمارى
أين لى كيف سرت الى حريمى وجفن الليل مكتحل نفار
فقلت له ترفق بى فانى رأيت الصبح فى خلل الديار
فكان جوابه إن قال كلا وهل صبح سوى ضوء العقار
وقام الى الدنان فسد فاها فعاد والليل منسدل الازار

وقال آخر:

جلوها على الندمان فاحمر وجهها بخجلتها عند البروز من الخدر
وألقوا عليها الماء فاصفر لونها وتحسن عند الملتقى وجل البكر

وقال يزيد بن معاوية:

لى وله اذا الكاسات دارت رقا سحرا بحل عرى الهموم
محادثة ألذ من الامانى وأبث جوى أرق من النسيم

وقال البحترى - رحمة الله عليه:

تخفى الزجاجة لونها فكأنها فى الكف قائمة بغير إناء
ولها نسيم كالرياض تنفست فى أوجه الارواح والابداء
وفواقع مثل الدموع تحدرت فى صحن خد الكاعب الحسناء

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدى ملغزا فى مدام:

وما شيء حشاه فيه داء … وأوله وآخره سواء

اذا مازال آخره فجمع … يكون الحد فيه والمضاء

وان أهملت أوله فعل … له بالرفع والنصب اعتناء

وله:

حبناها مشعشعة تلألأ … وثوب الليل فضفاض الذيول

فنحسبها اذا الساقى جلاها … تغتش بالسراج على العقول

ولآخر:

أدير بلحيتى البيضاء كأسى … بكيس زائد منى وفطنه

ألم يرنى وعفو الله راج … ومن شرهى أصفيها بقطنه

وقال الشيخ يحيى الخبان (توفى سنة سبعين وسبعمائة) :

بعيشك هاتها حمراء صرفا … صباحا واطرح قول النصوح

فهذى الشمس قد بزغت بعين … تغامزنا على شرب الصبوح

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة

مورد الخد أدار الطلا … فقال لى فى حبها عاتبى

عن أحمر المشروب ما تنتهى … قلت ولا عن أخضر الشارب

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدى:

قم هاتها فى الظلام صافية … تورث جسمى وقبضتى بسطه

أضحت عليها الافراح دائرة … يا صدق من قال انها نقطه

وقال المرحوم فخر الدين بن مكانس :

للراح بالكيميا شبه فان لها … للقلب والرأس تقطيرا وتصعيدا

قالوا هى الشمس اشراقا وقد جهلوا … وما ذاك الا شعاع الشمس معقودا

وقال بدر الدين بن الصاحب:

يا حابس الكاس لا تزدها … من بعد حبس الدنان حسره

واغتنم مزاجا لها لطيفا … يورثه الانتظار صفره

وقال من لفظه لنفسه سيدنا القاضى بدر الدين محمد بن الدمامينى:

قم بنا نركب طر … ف اللهو سبقا للمدام

واثنى يا صاح عنانى … للكميت وللجامى

وللشيخ شهاب الدين بن حجر ـ أبقاه الله تعالى ـ لنفسه الكريمة:

أطيل الملال لمن لامنى وأملأ فى الروض كأس الطلا
وأهوى الملاهى وطيب الملا ذ فها أنا منهمك فى الملأ

ومن لفظه لنفسه الكريمة الجناب المجدى بن مكانس:

نزل المطل بنكرة ونوالى تجددا
والندامى تجمعوا فأجلى كاسى على الندا

وقال شهاب الدين بن أبى حجلة:

أمعطل الكاسات عن عشاقها يكفيك بالتعطيل عيب عائبا
ذهبت كئوسك بالمدام فقد أرى للناس فيما يعشقون مذاهبا
فمتى سلكت من الهموم مهالكا صادفت فى فتح الدنان مطالبا
ومتى امتطيت من الكئوس كميتها أمسيت تمشى فى المسرة راكبا
ومتى طرقت عشى أنس ديرها لم تلق الا راغبا أو راهبا

وقال الشيخ عز الدين الموصلى لنفسه ـ تغمده الله برحمته:

لان شبه الساقى المدام بعسجد فقد مال بالتشبيه عن صنعة الأدب
ولكن رآها جوهرا سميت طلا فموّه لما حلت الكاس بالذهب

ونقلت من خط الشيخ بدر الدين البشتكى لنفسه:

وخمار هدينا فى الدياجى بجذوة كأسه وسنا النديم
سألنا منه عن خمر حديثا فأخبرنا عن العصر القديم

قلت: وعلى ذكر الحديث قال أبو بكر بن عياش كنت وسفيان الثورى وشريك نمشى بين الحيرة والكوفة فرأينا شيخا أبيض الرأس واللحية حسن السمت فقلنا هذا شيخ جليل قد سمع الحديث ورأى الناس وكان سفيان أطلبنا للحديث وأشدنا بحثا وأعلمنا به وأحفظنا له فتقدم الى الشيخ وسلم عليه ثم قال له أعندك شىء من الحديث فقال له أما الحديث فلا ولكن عندى عتيق سنين قال فنظرنا فاذا الشيخ خمار.

نادرة: قيل لخالد بن صفوان أتمل الحديث قال انما العتيق يمل.

رجوع: وقال المرحوم فخر الدين بن مكانس:

من شرطنا ان أسكرتنا الطلا صرفا تداوينا بشرب اللما
نعاف مزج الماء فى كأسها لا آخذ الله السكارى بما

وقال بدر الدين بن الصاحب:

يأيهـا العاصـر بادر إلى	عنقودك الفاخر فى كرمه
اياك ان تتركه ساعة	تزبب النحس على أمه

وقال مجير الدين بن تميم:

وليلة بت اسقى فى غياهبها	راحا تسل شبابى من يد الهرم
ما زلت أشربها حتى نظرت الى	غزالة الصبح ترعى نرجس الظلم

ولما تمثلت فى أواخر سنة خمس وتسعين وسبعمائة بين يدى سيدنا ومولانا أوحد العصر من غير مدافع ولا منازع أقضى القضاة بدر الدين محمد بن أبى بكر المخزومى الشهير بالدماميني ـ أسبغ الله ظلاله ـ تذاكرنا بين يديه الكريمة الكتب وحسن أسمائها فأخبرنا أنه فى زمن الصبا جمع مقاطيع من الخمريات وسماها مقاطع الشرب تأمل ما ألطف هذه التسمية.

القصائد قال الشيخ العالم المفنن البارع صدر الدين محمد بن المرحل ويعرف فى الشأم بابن وكيل بيت المال ـ تغمده الله بالرحمة (مولده سنة خمس وستين وستمائة ووفاته سنة ست عشرة وسبعمائة ـ رحمه الله تعالى):

ليذهبوا فى ملامى أية ذهب	فى الخمر لا فضة تبقى ولا ذهب
لا تأسفن على مال تمزقه	أيدى سقاة الطلا والخرد العرب
والمال أجمل وجه فيه تصرفه	وجه جميل وراح فى الدجى لهب
فما كسوا راحتى من راحها حللا	الا وعرّوا فؤادى الهم واستلبوا
راح بها راحتى فى راحتى حصلت	فتمى عجبى بها وازداد بى العجب
اذ ينبع الدر حلو من مذاقته	والتبر منسبك فى الكأس منكب
وليست الكيمياء فى غيرها وجدت	وكل ما قيل فى أبوابها كذب
قيراط خمر على القنطار من حزن	يعيد ذلك أفراحا وينقلب
عناصر أربع فى الكأس قد جمعت	وفوقها الفلك السيار والشهب
ماء ونار هواء أرضها قدح	وطوقها فلك والانجم الحبب
ما الكاس عندى بأطراف الانامل بل	بالخمس تقبض لا يخلو لها الهرب
شججت بالماء منها الرأس موضحة	فحين أعقلها بالخمس لا عجب

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدى لو لم يقل الشيخ صدر الدين من الشعر الا هذا البيت لكان قد أتى بشىء غريب نهاية فى البديع لقد غاص فيه على المعنى ودق تحيله فيه:

وما تركت بها الخمس التى وجبت ... وان رأوا تركها من بعض ما يجب

وان أقطب وجهى حين تبسم لى ... فعند بسط الموالى يحسن الادب

هذا البيت أيضا بديع المعنى دقيقه وقد اعتذر عن اقتضابه بأحسن عذر وأوضحه وما أحسن قول ابن رشيق:

أحب أخى وإن أعرضت عنه ... وأقل على سامعه كلامى

ولى فى وجهه تقطيب راض ... كما قطبت فى وجه المدام

وتتمة الأبيات :

عاطيتها من بنات الترك عاطية ... لحاظها للاسود الغلب قد غلبوا

هيفاء جارية للراح ساقية ... من فوق ساقية تجرى وتنسكب

من وجهها وتثنيها ومقلتها ... تخشى الاهلة والقضبان والقضب

يا قلب أرادفها مهما مررت بها ... قف بى عليها وقل لى هذه الكتب

وان مررت بشعر فوق قامتها ... بالله قل لى كيف البان والعذب لكن

تريك وجنتها ما فى زجاجتها ... مذاقته للريق تنتسب

تحكى الثنايا التى أبدته من حبب ... لقد حكيت ولكن فاتك الشنب

وقال الشيخ جمال الدين محمد بن محمد بن محمد بن نباتة المصرى:

قضى وما أقضيت منكم لبانات ... متيم عبثت فيه الصبابات

ما فاض من جفنه يوم الرحيل دم ... الا وفى قلبه منكم جراحات

أحبابنا كل عضو فى محبتكم ... كليم وجد فهل للوصل ميقات

غبتم فغابت مسرات النفوس فلا ... انتم زعمى ولا تلك المسرات

يا حبذا فى الصبا عن حبكم خبر ... وفى بروق الفضا منكم اشارات

وحبذا زمن اللهو الذى انقرضت ... أوقاته الغر والاعوام ساعات

أيام ما شعر البين المبيت بنا ... ولا خلت من مغانى الانس أبيات

حيث المنازل روضات مدبجة ... وحيث جاراتها غيد وقينات

وحيث لى بديار اللهو سلطنة ... ولى على ثغر من أهوى ولايات

وحيث أسعى لاوطان الصبا مرحا ... ولى على حكم من أهوى ولايات

ورب حـانة خمـار طرقت ومـا | حانت ولا طرقت للقصف حانات
سبقت قاصدا مغناها وكنت فتى | الى المـدام له بالسبق عـادات
أعثو الى ديارها الاقصى وقد لمعت | تحت الدجى فكأن الدير مشبكات
وأكشف الحجب عنها وهى صافية | لم يبق فى دنهـا الا صبـابات
راح زحفت على جيش الهموم بها | حتى كـأن سنا الاكـواب رايات
وبت أجلو على الندمان رونقها | حتى لقد أصبحوا من قبل ما باتوا
مصونة السرح ماتت دون غايتها | حاجات قوم وللحاجات أوقات
تجول حول أوانيها أشعتها | كأنما هى للكاسات كاسات
ويصبح الشرب صرعى دون مجالسها | وهى الحياة كأن الشرب أموات
تذكرت عند قوم دوس أرجلهم | فاسترجعت من روث القوم ثارات
واستضحكت فلها فى كل ناحية | هبات حسن وفى الإناء هبات
كأنها فى أكف الطائفين بهآ | نار تطوف بها فى الارض جنات
من كل أغيد فى دينار وجنته | توزعت من قلوب الناس حبات
مبلبل الصدغ طوع الوصل منعطف | كأن أصداغه للعطف واوات
ترنحت وهى فى كفيه من طرب | حتى لقد رقصت تلك الزجاجات
وقمت أشرب من فيه وخمرته | شربا تشن به فى العقل غارات
وينزل اللثم خديه فينشدها | هى المنازل لى فيها علامات

وقال الأديب الفاضل الكامل أبو الفتح بن قلاقس السكندرى :

الحق بنفسج فجرى وردتى شفق | كافورة الصبح فتت مسكة الغسق
قم هات جامك شمسا عند مصطبح | وخل كأسك نجما عند مغتبق
واقسم لكل زمان ما يليق به | فـان للزند حليا ليس للعنق
هب النسيم وهب الريم فاشتركا | فى نفحة من نسيم المندل العبق
واسترقصنى كاسترقاص حاملها | مخضرة الورق فى محضلة الورق
وظلت بالكأس أغنى الناس كلهم | فالخمر من عسجد والكاس من ورق

وقال الشيخ الفاضل الكامل برهان الدين ابراهيم بن عبد الله بن محمد المعروف بالقيراطى ـ رحمة الله عليه:

قسما بروضة خد، ونباتها ... ويا سها المخضر فى جنباتها
وبسورة الحسن التى فى خده ... كتب العذار بخطه آياتها
وبقامة كالغصن الا أننى ... لم أجن غير الصد من ثمراتها
لاعزرن غصون بان زورت ... أعطافه بالقطع من عذباتها
ولاصبحن للذى متيقظا ... ما دامت الايام فى غفلاتها
واباكرنّ رياض وجنته التى ... ما زهرة الدنيا سوى زهراتها
كم ليلة نادمت بدر سمائها ... والشمس تشرق فى أكف سقاتها
وجرت بنادهم الليالى للصبا ... وكئوسنا غرر على جبهاتها
فصرفت دينارى على دينارها ... وقضيت أعوامى على ساعاتها
خالفت فى الصهباء كل مقلد ... وسعيت مجتهدا الى حاناتها
فتحير الخمار أين دنانها ... حتى اهتدى بالطيب من نفحاتها
فشممتها ورأيتها ولمستها ... وشربتها وسمعت حسن صفاتها
وتبعت كل مطاوع لا يختشى ... عند ارتكاب ذنوبه تبعاتها
يأتى إلى اللذات من أبوابها ... ويحج للصهباء من ميقاتها
عرف المدام بجنسها وبنوعها ... وبفصلها وصفاتها وذواتها
ياصاح قد نطق المزار مؤذنا ... أيليق بالأوتار طول سكاتها
فخذ ارتفاع الشمس من أقداحنا ... وأتم صلاة اللهو فى أوقاتها
ان كان عندك يا شراب بقية ... مما تزال به العقول فهاتها
الخمر من أسمائها والدر من ... تيجانها والمسك من نسماتها
واذ العقود من الحباب تنظمت ... اياك والتفريط فى حباتها

وقال الصاحب العالم المفنن فخر الدين عبد الرحمن بن مكانس:

خليلى هيا للصبوح وبكرا ... وحثا أوانى لهوها تحمد السرا
ولا تركبا الليل البهيم اركبا مدا ... ما كميتا أو من الصبح أشقرا
وصيدا بنات الكرم من دنها ... فان أوانى راحها عندى القرا
اذا ما أديرت فى حشا عسجدية ... بها كل ذى ملك وتاج تصورا
فحسبك نبلا فى السيادة أن ترى ... نديمك فى الكاسات كسرى وقيصرا
مدام حوت معنى السرور أفرطت ... فمنها سرى فيها السرور وأثرا
لذلك قد تزهى بوجه مخلق ... وجللها ثوب النعيم مزعفرا

اذا ضرجتها تحت حبابها   تخال بها فى الكاس سيفا مجوهرا
وبرهانه ذبح الهموم الا ترى   على جانبها ذلك الدم أحمرا

وقال الاديب الفاضل الكامل فخر الترك أيدمر المجنوى من قصيدة مطولة تقدمت أوائلها فى باب الروضات والبساتين:

وسلافة باكرتها فى فتية   من مثلها خلق لهم وتخلق
شربت كثافتها الدهور فما ترى   فى الكأس الا جذوة تتألق
يسعى بها ساق يهيج به الهوى   وترى سبيل العشق من لا يعشق
تتنادم الالحاظ منه على سنا   خد تكاد العين فيه تغرق
راق العيون غضاضة وغضارة   فهو الجديد ورق فهو معتق
ورنا كما لمع الحسام المستضـ   ـىء ومشى كما اهتز القضيب المورق
وأظللنا فى فرعه وجبينه   ليل تألق فيه صبح مشرق
وكأن مقلته تردد لفظه   لتقولها لكنها لا تنطق
وإذا العيون تجمعت فى وجهه   فاعلم بأن قلوبنا تتفرق

وقال الشيخ الفاضل الكامل كمال الدين على بن النبيه:

طاب الصبوح لنا فهاك وهات   واشرب هنيئا يا أخا اللذات
كم ذا التوانى والشباب مطاوع   والدهر سمح والحباب موات
قم فاصطبح من شمس كأسك واغتبق   بكواكب طلعت من الكاسات
صفراء صافية توقد بردها   فعجبت للنيران فى الجنات
ينسل من قار الظروف حبابها   والدر مجتلب من الظلمات
وتريك خيط الصبح مفتولا اذا   صبت من الراووق فى الكاسات
عذراء واقعها المزاج أما ترى   منديل عذرتها بكف سقات
يسعى بها عبل الروادف أهيف   خنث الشمائل شاطر الحركات
يهوى فتسبقه ذوائب شعره   ملتفة كأسود الحيات
يدرى منازل نيران كئوسه   ما بين منصرف وآخر آت

وقال الأديب الفاضل الأوحد أمين الدين جوبان القواس:

اذا افتر جنح الليل عن مبسم الفجر   ولاح به ثغر من الانجم الزهر
وفاحت لنا من عابق الروض نكهة   رشفنا بها برد الرضاب من الخمر
وعهدى بوجه الارض مبتسما فلم   يغرغر منها الدمع فى مقل القدر

اذا أرجف الماء النسيم لوقته كساه شعاع الشمس درعا من التبر
وبحر الرياض الخضر بالزهر مزبد كأنما به فى فلك مجلسنا نسر
ومن شهب الكاسات بالنجم نهتدى اذا ظل سار العقل فى لجة السكر
نصون الحميا بالقنانى وانما نصون القنانى بالحميا وما ندر
ولما حكى الراووق فى العين شكله وقد علق العنقود فى سالف الدهر
تذكر عهدا بالكروم فكله عيون على أيام عهد الصبا تجرى
عجبت لها والراح تبكى به فلم غدت بحباب الكأس باسمة الثغر
اذا ما أتانى كأسها غير مترع تحققت عين الشمس فى هالة البدر
يناولنيها مخطف الخصر أهيف فلله ذاك الاهيف المخطف الخصر
ينادمنا نظما ونثرا ولفظة ومبسمه يغنى عن النظم والنثر
فلم يسقنى كأس المدامة دون أن سقانى بعينيه كئوسا من الخمر
وناجوز ثم انثنى غصن بانة وعن مهما لما تبسم عن در
وقال وفرط السكر يثنى لسانه الى غير ما يرضى التقى وهو لا يدرى
ردوا من رضابى ما يعيض عن الطلى اذا كان وجهى فيه مغنى عن الزهر
ومن كان لا تحوى زراعاه مئزرى فدون الذى تحوى أنامله خصرى

وقال الشيخ الامام الفاضل البارع صفى الدين عبد العزيز بن سرايا الحلى ـ رحمه الله:

أراد التبر فى كأس اللجين رشًا بالراح مخضوب اليدين
وطاف على الصاحب بكأس راح فطافت مقلتاه بآخرين
رخيم من بنى الاتراك طفل يجاذب خصره جبلى حنين
يبدل نطقه ضادا بدال ويثر عجمه قافا بغين
اذا يحلو الحميا والمحيا شهدنا الجمع بين النيرين
يطوف على الرفاق من الحميا ومن خمر الرضاب بمسكرين
وآخر من بنى الاعراب حفت جيوش الحسن منه بعارضين
الى عينيه تنتسب المنايا كما انتسب الرماح الى ردين
بلاحظ سوسن الخدين منه فبدلها الحياء بوردتين
ومجلسنا الأنيق تضىء فيه أوانى الراح من ورق وعين
فاطلقنا فم الابريق فيه وبات الزق مغلول اليدين

وشــمــعــنا شــبــيــه سنان تبــر تــركب فــى قــناة مــن لــجــيــن
وقــهــوتنا شــبــيــه شــواظ نار توقــد فــى أكف الــســاقــين
اذا ملئ الزجــاج بهــا وطارت حــواشى نورها فى الــمــشــرقــين
عــجبت لــبدر صــار شــمــســا يحف مــن الــسقــاة بكــوكــبــين

ولــــــه:

بدت لنا الراح فى تاج من الحبب فحــرقت حلة الظلمــاء بــاللهب
بكــر اذا زوجت بالــمـــاء أولادها أطفــال در على مــهــد من الذهب
بعيدة المهد بالمعصــار لو نطقت لحدثتنا بمــا فى ســالف الحقب
باكــرتهــا فى رفــاق قــد زهت بهم قبل الســلاف سلاف العلم والأدب
بكل مــتــشــح بــالفــضل مــتــزر كــأن فــى لفظه ضــرب من الطرب
بل ربّ ليل غــدا فى الاهاب غدت تضىء فيه كئوس الراح كــالشهب
بدلت عــقلى صــدافــا حين بت به أزوج ابن ســحــاب بابنة العنب
بتنا بكاســاتهــا صــرعى ومطربنا يعيــد أرواحنا من مــبــدء الطرب
بعث اتانا فلم نعلم لفــرحــتــنا من نفخة الصوارم من نفخة القضب
بروضة ظل فــيــهــا الظل أدمــعــه والزهر مــبــتــسم عــن ثغره الشنب
بكت عليه أســاليب الحيــا فغدا خــذلان يرفل فى أثــوابه القــشــب
بسط من الروض قد حاكت مطارفها يد الربيــع وجــادتهــا يد الــســحب

وقال الوأواء الدمشقى ـ رحمه الله تعالى:

اســقــيــانى ذبــيــحــة المــاء فى الكأ س وكــفا عن شــرب مــا تــســقيــانى
اننــى قــــد آمنت بالأمــس إذ مـــت بأنــى أمــــوت بكــرة ثانى
قــهـــوة تطرد الــهــمـــوم إذا مــا ســكــنت فى مـــواطن الأحـــزان
نثــرت راحــــة المــزاج عليــهــا حــدقــا مــا تدور فى أجــفــان
فــهى تجــرى من اللطافــة فى الأر واح مــجــرى الأرواح فى الأبدان
يتــهـــادى بكأســهـــا من هــدايا ه ظنى من ظرائف الأشــجـــان
آنهـــا الرايح الذى راحـــتـــا ه بخضاب الكئوس مخضوبتان
عج بضحك الأقداح فى رهج القصـ ـف إذا مــا بكت عليــهــا القنانى
واســقنى القــهــوة التى تنبت الور د اذا شــئت فى خــدود الغــوانى
لا تدغدغ صــدر المدام بأيــدى المز ج مــا دغــدغت صــدور المثــان

وقال أبو الفتوح بن قلاقس ـ رحمه الله:

كم مقلة للشقيق الغض رمداء ... انسانها سابح فى بحر دمع انداء
وكم ثغور اقاح فى مراشفها ... رضاب طائفة بالرى وطفاء
فما اعتذارك من عذراء جامحة ... لانت كما لامستها راحة الماء
نضت عليها حسام المزج فامتنعت ... بلامة للجباب الجم حصدائى
أما ترى الصبح يخفى فى دجنته ... كأنما هو سقط بين أحشائى
والطير فى عذبات الدوح ساجعة ... تطابق اللحن بين العود والناء
فحى بالكأس كرى تحى رمته ... بروح راح سرت فى جسم سراء
وعذ بمعجز آيات المدامة من ... نوافث السحر فى أجفان حوراء
فما الفصاحة الا ما تكرره ... منازل الدن من ترجيع فأفاء
فاعكف على جلس اللذات مغتنما ... فالدهر فى حربه تلوين حرباء

قيل: أتى عبد الملك بن مروان بسكران فقال له ماذا شربت فقال:

معتقة كانت قريش تعافها ... فلما استحلوا قتل عثمان حلت

فقال مع من؟ فقال:

سقونى مع الشعرى بكأس روية ... وأخرى مع الجوزاء لما استقلت

قال فما غنيت؟ فقال:

سقونى وقالوا لا تغن فلو سقوا ... جبال حنين ما سقونى لغنت

فعفى عنه وأطلق سبيله.

ومن كلام الشيخ برهان الدين القيراطى:

يوم أنيق وغيم دفيق، وروض إذا سلسل ماؤه المطلق تهلل وجهه الطليق، فإذا دعى الندامى فيه بالصبوح جاءت قنية فى يدها ابريق، وإذا انحرت السقاة فيه دماء الرقاق صارت أيامهم كلها أيام تشريق، وإذا خاط من الشرب ثياب سرور غار من أرجه المسك الفتيق.

قلت: قوله أيام التشريق مأخوذ من قول أبى الحسن الجزار يفتخر:

انى لمن معشر سفك الدما لهم دأب ... وسل عنهم ان رمت تصديق
تضىء بالدم اشراقا عراصهم ... فكل أيامهم أيام تشريق

وقال برهان الدين القيراطى أيضًا:

زوج الـــــــاء بـراحـك وأجلـهـا بـيـن مـلاحـك
لا تـعـطـل يـوم لـهـو من ... ... صباحك
وإذا خـفـت افـتـضـاحـا كل عـ... ... افتضاحك
أو ترى فـيـهـا جنـاحـا قـم ودعـنـي ... جنـاحـك
وصل اليـوم اغـ... ... باقـا من كـئـوس باصطباحك
صـاح هـذا وقـت راحـي واقـتـراحي واقـتـراحك
فـاطرح مـن لام جـهـلا فـي اطـراحـي والـطـراحـك

وقال شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة هذه الأبيات تحبب في الحبب وتقلب اكبر راحها لجين الزجاج إلى الذهب قد امتزجت بالقلوب امتزاج الماء بالراح ولم يفتح بمثلها على صاحب مفتاح الفرح، كم رقصت على سماعها الأحبة ونقط الحبيب دينارها من خده وشامته بدينار بقيراط وحبه.

وقال الشيخ بدر الدين البشتكي ـ أبقاه الله تعالى:

أقول كلما والله نظرت إلى هذه الابيات، والكلمات الحجيلات، أكاد أسكر بلا راح، وأطير من الأدب بلا جناح.

هذه عبارة الشيخ بدر الدين ومن خطه نقلت.

قلت: ولو قال بدر الدين وأطير من الأدب وأطير من الفرح لكان أحسن فتأمله.

وأنشد عن لفظه لنفسه سيدنا القاضي المفنن البارع صدر الدين على بن سيدنا ومولانا القاضي أمين الدين بن الأدمي ـ سلمه الله تعالى ـ ونقلتها من خطه:

سبح القمري في الدوح وغرد فحسبنا إن في الروضة معبد
والند فاض على زهر الربا فسرت بين الندامى نفحة الند
إنما الزهر ثغور فتحت باسمات بحميل المزن تحمد
فاسقني القهوة حتى انثني مثل غصن البان لما يتأود
من يدي ظبي عزيز أهيف مخطف الخصر رقيق مايس القد
كامل الاوصاف لكن ثغره ولما ريقه حلو مبرد
جامع الحسن لوصل مانع طرفه الهندي قد بالغ في الحد
ضيق العين إذا ما سمته قبلة سل من اللحظ مهند
وحمى فاه بلحظ فاتر فهو تركي على الثغر مجرد

يا له من عجب فى لحظه سكر العشاق منه وهو عربد
ليت أعطافه الخمرة لى فأعادت أسد الخلية أغيد
بنت كرم عشقوها زمنا طال حتى إنه لم يحص بالعد
تسلب العقل من الرأس كما سلبت قدما من الكرمة باليد
قل لساقينا إذا طاف بها سحرا بين الندامى يتردد
أترع الكأس واسرع واغتنم جمع شملى واخنش أن يتبدد
ما ترى الأنجم كانت زمرا لم يدع ذا الصبح منها غير فرقد
فهى مثلى حين غابت سادتى عن عيانى بعد جمع صرت مفرد

قلت: واذ ذكرنا مدحها أيضًا وأوسعنا المجال فى ذلك فلا بأس بايراد نبذة من ذمها فى الحديث المرفوع جمع الشر كله فى بيت وجعل مفتاحه الخمر، وفى كتاب المبهج الخمر مصباح السرور ولكنه مفتاح الشرور.

وقيل لبعضهم تركت النبيذ وهو رسول إلى القلب فقال نعم ولكنه بئس الرسول يبعث إلى القلب فيذهب إلى الرأس.

وكان العباس بن على عم المنصور يأخذ الكأس بيده يقول لها: أما المال فتتلفين وأما المروءة فتخلفين وأما الدين فتفسدين فيسكر ساعة ثم يقول أما النفس فتسخنين وأما القلب فتشجعين وأما الهم فتطردين أفتراك متى تقتلين ويشربها.

قيل لأعرابى لم لا تشرب النبيذ قال لا أشرب ما يشرب عقلى.

وقيل لبعضهم لم لا تشرب فقال عقلى لا أقدر على جمعه فكيف أفرقه وما أظرف من قال شعرا:

تقول أثوابى لما رأت شيبى وتكعيبى على صدرى
بالله يا شيخ أما تستحى إلى متى تصبغنى بخمرى

وقال آخر:

قد هجرت الراح حتى ليس لى فيها نصيب
وعلى الراووق منى طول ما عشت صليب

وقيل مهر الخمر العقل والدين والدرهم، سئل بعض الشيوخ عن الخمر فقال: تضييع مال وعقل وزيادة بول وجنون.

واذا ذكرنا الخمر ومنافعها ومضارها ومدحها وذمها فلا بأس بايراد نبذة من المفرحات المركبة نقلتها من كتاب مفرح النفس تأليف الحكيم الفاضل الرئيس بدر الدين مظفر ابن القاضي مجد الدين عبد الرحمن قاضي بعلبك ولى رياسة الطب بدمشق (وتوفى سنة تسعمائة وخمسة وسبعين بدمشق) رحمة الله عليه:

صفة مفرح حار للملوك والكبر الأوائل كان الخلفاء المتقدمون من بنى العباس وغيرهم يستعملونه وله منافع كثيرة يطول شرحها والحاصل أنه يبرئ جميع الامراض السوداوية عاجلا ويفرح تفريحا مفرطا حسنا:

خولنجان وزراوند مدحرج وسنبل وسلحة وجعدة وزنجبيل وقاقلة كبار وصغار ودار صينى الصين وقرنفل وزرنب وذرساذ من كل واحد ثلاثة دراهم تفاح الأذخر وغاريقون وحاشا وتربد وقسط حلو وسادج وبسفانج محكوك وحماما من كل واحد خمسة دراهم وعرق ذهب وياقوت أحمر رمانى وزمرذ من كل واحد مثقال وزعفران مثقالان بدق الجميع وينخل ويعجن بعسل مادى ويوضع فى إناء من صينى أو فضة ويرفع ويستعمل الشربة منه مثقالان بشراب تفاح شامى وماء لسان ثور نافع - إن شاء الله تعالى.

صفة مفرح حار للمتوسطين من الناس سعة خمسة دراهم زر ورد منزوع الاقماع عشرة دراهم قرنفل وسنبل الطيب ومصطكى وأسارون وزرنب وزعفران من كل واحد درهمان بسباسة وقاقلة كبار وصغار وجوزبو من كل واحد درهم عود ثلاثة بدق الجميع وينخل ويعجن بعسل منزوع الرغوة ويرفع ويستعمل الشربة وزن مثقال بشراب تفاح حلو وماء لسان ثور نافع - إن شاء الله تعالى.

مفرح حار للفقراء وهو شراب الابريسم وله منافع كثيرة منها التفريح المفرط وقوة الاحشاء خصوصا الكبد وينفع من جميع الأمراض الباردة ويقوى الانعاظ يؤخذ بريسم خام ينقع فى الماء أياما عشرة فى قدر من حديد فإن لم يتهيأ من حديد فينتقع فى الماء المطفى فيه الحديد دفعات كثيرة ويغلى غليانا جيدا ويصفى ويضاف إليه بوزن الماء سكرا وعسلا ويعقد ويرفع ويطيب بشىء من زعفران وخولنجان ومصطكى روح ويستعمل نافع - إن شاء الله تعالى .

صفة)مفرح بارد للملوك والكبراء طباشير عشرة دراهم لسان ثور خمسة دراهم زر ورد منزوع الاقماع أربعة دراهم طين أرمنى سبعة دراهم شير املج خمسة عشر درهما خشب

صندل أبيض وأحمر وأصفر من كل واحد درهمان زعفران نصف درهم عرق ذهب جيد وفضة من كل واحد مثقال ابريسم محرق على ما وصفنا درهم يدق الجميع ناعما وينخل ويعجن بجلاب قد عقد من عسل وسكر بماء الورد وماء التفاح وماء السفرجل وماء الرمان ويحرك ويرفع الشربة ثلاثة دراهم بشراب حماض وتفاح شامى وماء لسان الثور وماء ورد وماء خلاف نافع - إن شاء الله تعالى.

صفة مفرح بارد للمتوسطين من الناس يؤخذ اهليدج كابلى وأملج من كل واحد خمسة دراهم وزر ورد منزوع الاقماع وخشب صندل أبيض وأصفر وأحمر من كل واحد ثلاثة دراهم وورق فضة مثقالان ولؤلؤ كبار نقى البياض غير مثقوب مثقال يدق الجميع وينخل ويعجن بعسل الاهليدج الكابلى الشربة مثقالان بشراب حماض وتفاح شامى بماء ورد وما خلاف نافع - إن شاء الله تعالى.

صفة مفرح معتدل للمتوسطين من الناس بهمنين أحمر وأبيض من كل واحد خمسة دراهم عسل اهليلج كابلى منزوع الرغوة عشرون دراهما شاهترج ولسان ثور وترنجان من كل واحد عشرة دراهم طباشير وكسفرة يابسة وطين محتوم من كل واحد ثلاثة دراهم ابريسم خام محرق على ما وصفنا قشر الفستق الخارج من كل واحد درهمان بسد ولؤلؤ كبار غير مثقوب وكهربا من كل واحد درهم عود هندى خام نصف مثقال يدق الجميع ناعما وينخل ويعجن بجلاب قد عقد من سكر وعسل ويرفع فى اناء من صينى أو فضة الشربة مثقالان بشراب حماض وتفاح شامى وماء لسان الثور وماء ورد وماء خلاف وما نيلوفر نافع - إن شاء الله تعالى.

نادرة: دخل رجل على بعض أصحابه يعوده من مرض بالقلب وكان له غلام يدعى ياقوت شديد الافتان به وكان متهما به فقال له حاشاك يا سيدنا تشكو وجع القلب وعندك المفرح الياقوتى.

الباب التاسع عشر
فى الصاحب والنديم

قال النبى ﷺ : «أكثروا من الاخوان فان ربكم حيى كريم يستحى أن يعذب عبده بين اخوانه» وقال على رضي الله عنه: أعجز الناس من عجز عن اكتساب الاخوان وأعجز منهم من ضيع ما ظفر به منهم، وقال عمر رضي الله عنه: ثلاث يثبتن لك الود فى صدر أخيك أن تبتدئه بالسلام وأن توسع له للمجلس وتدعوه بأحب أسمائه إليه، وقال الخليل بن أحمد: الرجل بلا صديق كاليمن بلا شمال، وقال رجل لابن المقفع أنا بالصديق آنس من الأخ فقال صدقت الصديق نسيب الروح والأخ نسيب الجسم، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: ما الدخان على النار بأدل من الصاحب على الصاحب.

اعرابى: المودة بين السلف ميراث بين الخلف.

اعرابى: دع مصارعة أخيك وإن حث التراب فى فيك.

اعتذر رجل إلى صاحب من تعذر اللقاء فقال أنت فى أوسع عذر عند ثقتى وفى أضيق عذر عن شوقى.

المأمون: الاخوان على ثلاث طبقات: طبقة كالغداء لايستغنى عنه وطبقة كالدواء لا يحتاج إليه إلا فى الاحايين وطبقة كالداء لا يحتاج إليه أبدا، وقال النبى ﷺ : «ألا أخبركم بأحبكم إلى الله وأقربكم منى مجالسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون» وقال على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه: الغريب من ليس له حبيب، وقال أيضًا، لا تضيعن حق أخيك اتكالا على ما بينك وبينه فإنه ليس بأخ من ضيعت حقه، وقال علقمه بن لبيد العطاردى لابنه إذا نازعتك نفسك صحبة الرجال فاصحب من إذا صحبته زانك وإن خدمته صانك وان نزلت بك مؤنة مانك اصحب من إذا مددت يدك بفضل مدها وإن بدت بك ثلمة سدها وإن رأى منك حسنة عدها اصحب من يتناسى معروفه عندك ويتذكر حقوقك عليه.

قال لابى داود السجستانى صاحب له أستمد من محبرتك قال لا فاحترك الرجل حياء فقال أعلمت أنه من شرع فى مال أخيه بالاستئذان فقد استوجب بالحشمة الحرمان.

قرع باب بعض السلف صديق له بالليل فنهض إليه وبيده كيس وسيف وهو يسوق جارية له ففتح الباب وقال قسمت أمرك بين نائبة فهذا المال وعدو فهذا السيف وأيمة فهذه الجارية.

كان على بن الجهم يمدح أبا تمام ويطيب فيه فقيل له لو كان أخاك ما زدته على هذا المدح فقال إن لم يكن أخا بالنسب فإنه أخ بالأدب.

مر بخالد بن صفوان رجلان فعرج إليه أحدهما وطواه الآخر فقال عرج علينا هذا لفضله وطوانا ذاك لبغيه.

الاعمش أدركت أقواما لا يلقى الرجل أخاه الشهر والشهرين فإذا لقيه لم يزده على كيف أنت وكيف حالك ولو سأله شطر ماله أعطاه ثم أدركت آخرين إذا لم يلق الرجل منهم أخاه يوما سأله حتى عن الدجاجة فى البيت ولو سأله حبة من ماله منعه.

وأحسن من قال من رضى بصحبة من لا خير فيه لم يرض بصحبة من فيه خير.

كان يقال إن الكيس الذى لا يمل مناجات الصديق.

الهند من كتم الأحبة نصحه والأطباء علته والإخوان بثه فقد خان نفسه.

كان الخليل إبراهيم ـ صلوات الله عليه ـ إذا ذكر زلته غشى عليه وسمع اضطرابه من ميل، فقال له جبريل: يا خليل الله الجليل يقرؤك السلام ويقول هل رأيت خليلا يخاف خليله قال يا جبريل كلما ذكرت الزلة نسيت الخلة.

قال العتبى لقاء الإخوان نزهة القلوب. قال سليمان بن وهب غزل المودة أرق من غزل الصبابة والنفس بالصديق آنس منها بالعشق. وقال يونس النحوى يستحسن الصبر عن كل واحد الا عن الصديق، وقال ابن المعتز إذا قدمت المودة شبهت بالقرابة، وقال عمرو بن العاص: من كثر إخوانه كثر غرماؤه يعنى فى قضاء الحقوق.

عمرو بن مسعدة العبودية عبودية الإخاء لا عبودية الرق ،وكان بعضهم يقول اللهم احرسنى من أصدقائى فإذا قيل له فى ذلك قال إنى أقدر أحترس من أعدائى ولا أقدر على الاحتراس من أصدقائى.

وقال ابن الرومى:

عدوك من صديقك مستفاد	فلا تستكثرأن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه	يكون من الطعام أو الشراب

واعلم أنه لا يتناهى فى حسدك إلا الاصدقاء والندماء فإنهم متى رأوك بحال وهم بأنقص منه انغرس فى قلوبهم حسدك فلو خولتهم أضعاف نعمك لم يزالوا يحسدونك حتى تفتقر ويستغنون والحسد داء الابد، روى عن النبى ﷺ أنه قال: «يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخال» قال معاوية بن قرة نظرت فى المودة والإخاء فلم أجد أثبت مودة من ذى أصل.

قال أبو الحسن بن جبير الاندلسى البلنسى:

تغير اخوان هذا الزمان فكل خليل عراه الخلل
وكانوا قديما على صحة فقد داخلتهم حروف العلل
قضيت التعجب من أمرهم فصرت أطالع باب البدل

ولله در ناصر الدين بن النقيب:

فأين الصديق الصدوق الذى مودته من قرى صافيه
فما لى صديق سوى درهمى ولا لى حبيب سوى العافية

وقال أبو العلاء المعرى:

جربت دهرى وأهليه فما تركت لى التجارب فى ود امرء غرضا

وقال القاضى ناصح الدين الارجانى والثانى يقرأ معكوسا وهو غاية:

أحب المرء ظاهره جميل لصاحبه وباطنه سليم
مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

وقال صلاح الدين الصفدى:

عذيرى فى الليالى من صديق على مالى وعرضى قد تسلط
تأول اذ تأخر عنه خيرى فهل ألقاه يوما قد توسط

وقال الشريف العقيلى وأجاد:

ألذ مودات الرجال مذاقة مودة من ان ضيق الدهر وسعا
فلا يلبس الود الذى هو سادجا إذا لم يكن بالمكرمات مرصعا

وقال مخارق أنشدت المأمون قول أبى العتاهية (مولد أبى العتاهية سنة ثلاثين ومائة وتوفى سنة إحدى عشرة ومائتين):

وإنى لمحتاج إلى ظل صاحب يروق ويصفو إن كدرت عليه

قال لى أعد فأعدت سبع مرات فقال لى يا مخارق خذ منى الخلافة واعطنى هذا الصاحب لله در أبى العتاهية ما أحسن ما قال.

وأحسن من قال:

بروحى من صاحبته فوجدته	أرق من الشكوى وأصفى من الدمع
يوافقنى فى الهزل والجد طائعا	فينظر من عينى ويسمع من سمعى

وقال الجاحظ كان أبو دؤاد إذا رأى صديقه مع عدوه قلا صديقه وقال ابن عساكر فى تاريخ دمشق قال ابن عائشة قال هشام بن عبد الملك ما بقى على شىء من لذات الدنيا الا وقد نلته وما اشتهى إلا شيئا واحدا أخا أرفع مؤنة التحفظ بينى وبينه، وقال معاذ بن جبل ﷺ: صحبة العاقل فى المفاوز والاسفار خير من صحبة الجاهل بين الرياض والانهار.

ولله در القاضى الفاضل.

وما برح الإخوان إخوان الزمان فإذا أحسن كانوا من التابعين له بإحسان وإذا أساء كانوا من المهاجرين لا من الهجرة ولكن من الهجران.

وقال جعفر بن محمد لولده: يا بنى من غضب عليك من إخوانك ثلاث مرات ولم يقل فيك سوءاً فاتخذه خليلا.

ويجب على الصديق إذا رأى صديقه معسرا وهو موسر أن يواسيه ببعض ماله، فقد حكى عن بعض الحكماء أنه رأى رجلين لا يفترقان فسأل عنهما فقيل هما صديقان فقال ما هما بصديقين لانى أرى أحدهما موسرا والآخر معسرا ولو كانا صديقين لتواسيا، وقال المأمون لندمائه: أفيكم من يقدر يدخل يده فى كم صديقه فيأخذ منه نفقة يومه فقالوا لا فقال ما انتم بأصدقاء والصديق الصديق معدوم وأما من تصادقه مجاز فيمثل بقول القائل:

ارض من المرء فى مودته	بما يؤدى إليك ظاهره
من يكشف الناس لا يجد أحدا	تصح منهم له سرائره

الهند إياك والاغترار بمصادقة العدو فإنها ما أوجبها الا أمر وعلة فمع ذهاب العلة رجوع العداوة كالماء يسخن فإذا رفع عن النار عاد باردا وصفة الصديق أن يعادى من تعاديه ويهوى من تهوى وقال بعض الحكماء صديق عدوى عدوى، وقال الشاعر:

تود عدوى ثم تزعم أننى	صديقك إن الرأى منك لعازب
إذا نحن أظهرنا لقوم عداوة	ولان لهم منكم جناح وجانب
فلا أنتم منا ولا نحن منكم	إذا أنتم سالمتم من نحارب
وليس أخى من ودنى رأى عينه	ولكن أخى من ودنى وهو غائب

واعلم أن الخصال المحمودة والكمال لا يوجدان فى شخص أبدا ولا بد من عيب يشوبه فان اخترت صديقا ورضيته وكاشفته فبدت منه هفوة أو زلة فاغفرها فالسيف ينبو والجواد يكبو وإذا صفى الصديق فلا تناقشه فى دينه ولا مذهبه فإن ذاك يوجب القطيعة والعداوة واجر معه فى هواه من دينه إذا جرى هو فى هواك من صداقتك.

قال أبو العلاء المعرى - رحمة الله عليه:

إذا ما الخل أصفانى ودادا ... فسقيا فى الحياة له ورعيا

ليقرأ إن أراد كتاب موسى ... ويقرأ إن أراد كتاب شعيا

واصلح ما صادقت حكيما أو أديبا عاقلا عالما فإن عداوة هذا خير من صداقة الجاهل قال بعض الحكماء: الجاهل عدو نفسه فكيف يكون صديق غيره ما يبلغ الاعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه.

ومتى تغير الصديق عليك فاستيقظ ذلك بقريحة حسن منك كما قال الشاعر:

وإذا استعجمت مودة خل ... فاعتبرها من أعين الغلمان

إن عين الغلام تنبيك عما ... فى ضمير المولى من الكتمان

القول على النديم: النديم فعيل بمعنى مفاعل منادم والندمان أكثر منادمة وملازمة من النديم لان زيادة اللفظ توجب زيادة المعنى، ويقال رجل رحيم ولا يقال رحمان لأنه ثناء المبالغة وفى الدعاء يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة لأن رحمته فى الدنيا عمت الكافر والمؤمن والفاسق والناسك ففى الآخرة يخص برحمته المؤمنين والمسلمين دونهم واشتقاق اسم النديم من المنادمة كأنه يندم على مفارقته لوجود الراحة به والأنس إليه، وينبغى له أن يكون حسن المبرة نبيل الهمة مستوى الذيول واطراف الاكمام نظيف المخفى من الملبس كالقلنسوة والسراويل والتكة والجورب ومنديل الكم، فإذا كملت فيه هذه الخصال كان محبوبا إلى القلوب سهلا على الأرواح، وإذا لم يكمل كان بالضد مستثقلا معيبا فى العيون بغيضا على القلوب كما قيل فى أبى يعلى الكاتب القرشى:

نعمة الله لا تعاب ولكن ... ربما استثقلت على أقوامى

لا يليق الغناء بوجه أبى يعلى ... ولا نور بهجة الاسلام

دنس الثوب والعمامة والبرذو ... ن والنعل والقفا والغلام

وينبغى له إذا جلس للشراب مع الملك أن يجلس فى المرتبة التى لايتجاوزها إلى ما

هو أعلى منها عنده ولا يحط نفسه عنها ولا يكثر الاتكاء بين يديه وليكن منتصب الجلوس خفيف الوطأة إن قام قام لقيامه وليحذر التبسيط والتمديد والتمطى والتثاؤب والتنخع والبصاق وتغريك اليدين وفرقعة الأصابع واللعب بالخاتم والعبث باللحية والعمامة ولا يكون من شأنه التعزية والتهنئة ولا التشميت عند العطسة ولا اسراع بالتحية ولا العبث بالفاكهة والرياحين والأزهار ولا التناول للشمامات ولا الاكثار من التنقل بعد الشرب ولا يرمى ثفل ما يمتصه بحيث يرى ولا يعض الفاكهة نهشا بل يقطع منها حاجته بالسكين قطعا ولا يكثر شم الريحان ولا ادارة اليد فيه ولا يقطع رءوسه ولا ينفضه عند أخذه ولا يفركه ولا يلتقطه بعد مضغه وليكن شربه مصا وكرعه جرعا ولا يشرب من الشراب ما لا يطيق فيزول عقله وليصب لنفسه ما يعلم أنه يقوم به ولا يرفع القدح قبل الملك ولا يصب فيه نبيذا من قبل صبه أو معه ولا يقترح صوتا ولا يظهر الطرب ولا يوقع على تلحين ولا يبد منه هزل إن ناوله الساقى قدحا أخذه بلا ازدياد ولا نقصان ولا مماسكة ولا مماراة فإذا أحس بنفسه سكرا أسرع القيام والانصراف وهو يملك نفسه ولا يلمس كف الغلام عند مناولة كأس ولا يكثر ملاحظته عند معاطاته الراح ولا يشير إليه ولا يغمزه ويستحب منه أن يكون مفننا فيجرى مجرى أبان اللاحقى بما وصف نفسه للفضل بن يحيى البرمكى وذلك أنه ورد إلى بابه ليعرض نفسه وأدبه عليه فأتى إلى محمد بن زيد ان الثقفى فقال له: إن رأيت أصلحك الله أن تعرض قصتى على الامير فقال وما فيها قال أعرض نفسى وأدبى عليه فقال عند الأمير مثلك مائة ألف فأتى منصور بن هشام فقال له: تعرض رقعتى على الأمير، فقال وما فيها فقال له: أعرض نفسى وأدبى عليه فقال فهل لك فيمن دون الامير ليشاطرك الضياع والأموال والرقيق ما خلا الأهل والولد قال قد نازعتنى نفسى إلى شىء لا بدّ لى من أن أعطيها شهوتها منه فأخذ قصته فأدخلها إلى الفضل بن يحيى فاذا فيها:

أنا من بغية الامير وكنز ... من كنوز الامير ذو ارباح

كاتب حاسب أديب خطيب ... ناصح زائد على النصاح

شاعر مغلق أخف من الريـ ... ـشة مما يكون تحت الجناح

لى فى النحو فطنة وانتقاد ... أنا فيه قلادة بوشاح

لو رمى بى الامير أصلحه اللـ ... ـه رماحا حطمت سمر الرماح

غير ما عاجز ولا مسكين ... طوع أمر الامير آسى الجراح

لست بالفخم يا أمير ولا الثـ ... ـزم ولا المدحرج الدحداح

لحـبـة سـبطة ووجـه مليح وانقـاد كـشـعلة المصـبـاح
وكـثـيـر الحـديث من ملـح النا س بصـيـر بخـافـيـات مـلاح
كم وكم قد خبأت عندى حديثا هو عند الامـيـر كـالتـفـاح
فـبـمـثلى تخلو الملوك وتلهـو ومـا حى لـلمـشكل القـداح
أيمـن الناس طائرا يوم صـيـد فـى غـدو وغـدوة أو رواح
أعلم الـناس بالجـوارح والـخـيـل وبالـخـرد الحـسـان المـلاح
كل هذا جـمعت والـحـمـد للـه على أننى ظـريف المـزاح
لست بالـنـاسك المـشـمر كـمـيـه ولا الـفـاتـك الخليع الوقـاح
لو دعـانـى الامـيـر عـاين منى سـمـريا كـالبلبل الصـيـاح

قال: فدعى به فلما دخل أتى كـتـاب من أرمينية فرماه إليـه وقال له أجب عنه فأجاب من ساعته فى عـرصتـه فأمـر له بمائة ألف درهم وكـان أول داخل وآخر خـارج وإذا ركب فى الموكب فركابه مع ركاب الفضل.

ومن صفات النديم ألا يكون لجوجا ولا حـسـوداً ولا مماريًا ولا طامح العين ولا طايش اللب ويكون حمولاً موافقًا لك فى عملك ومذهبك ودينك كتوما للسر ويكون أديبا عاقلا أو حكيما فاضلا ليس على طبيعتكما منافرة طبيعية ولا عرضية بِشرٌ اذا حدثته وبشر إذا حدثك كلما ازداد سكره ازداد تواضعه لك ومودته وفضله فـالخمـرة تحرك مـا يوجد من عقل وجهل وتبرزه فى الإنسان من القوة إلى الفعل وهى محك العقول.

صافح أبو العميثل عبد الله بن ظاهر عند قدومه من سـفره فقبل يده فقال عبد الله خدش شاربك كفى فـقال شوك القنفذ لا يضر بترين الاسـد فتبـم عبد الله وقـال كيف كنت بعدى قال اليك مشـتاقا وعلى الزمان عـاتبا ومن الناس مستـوحشا، أما الشوق إليك فـلفضلك وأما العتب على الزمان فلمنعـه منك وأما الاستيحـاش من الناس فلرضاهم بعدك فاحتبـه فلما حضر الشراب سقاه بيده فقال:

نادمت حـرا كـأن الـبـدر غـرته مـعظمـا سيـدا قد أحـرز المـهـلا
فـعلنى برحـيق الـراح راحـتـه فـمت سكرا فـشـكراً للذى فـعـلا

بينا أبو العباس السـفاح يحدث أبا بكر الهذلى فعصف الريح فأذرت طـسـتا من سطح إلى المجلس فـارتاع من حضر ولم يتحـرك الهذلى ولم تزل عينه مطابقـة لعين السـفاح فـقال ما

[illegible] يقول: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه﴾[1] وإنما لى قلب [illegible] غمره السرور بتائده أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال فلو انقلبت الخضراء على البيضاء ما أحسست بها ولا وحمت لها فقال السفاح لئن بقيت لارفعن منك ضبعا لا يطوف به السماع ولا ينحط عليه العقيان.

ومن الآداب اللطيفة ما يحكى عن إبراهيم بن المهدى قال: كنت عند الرشيد فأتاه رسول معه أطباق عليها مناديل ورقعة فأخذ يقرأ الرقعة ويقول وصله الله وبره فقلت يا أمير المؤمنين من هذا الذى أطنبت فى شكره لنشركك فى جميل ذكره فقال: عبد الملك بن صالح ثم كشف عن الاطباق فإذا هى فواكه فقلت يا أمير المؤمنين ما يستحق هذا الوصف إلا أن يكون فى الرقعة ما لا نعلمه فرمى بها إلى فإذا فيها دخلت يا أمير المؤمنين إلى بستان لى قد غمرته بنعمتك وقد أينعت فواكهه فحملتها فى أطباق قضبان ووجهت بها إلى أمير المؤمنين ليصل إلى من بركة دعائه مثل ما وصل إلى من نوافل بره فقلت وما فى هذا الكلام ما يستحق الدعاء فقال أوما ترى كنى بالقضبان عن الخيزران وهى اسم امنا.

وقال الشعبى أخطأت عند عبد الملك بن مروان أربعا وهى حدثنى بحديث فاستعدته منه فقال أما علمت أنه لا يستعاد أمير المؤمنين وقلت حين أذن لى أنا الشعبى يا أمير المؤمين فقال ما أدخلناك حتى عرفناك وكنيت عنده رجلا فقال أما إنه لا يكنى أحد عند أمير المؤمنين وسألته أن يكتبنى حديثا فقال إنا نكتب ولا نكتب.

ولما كان مجلس الشراب مؤهلا للاستكثار من اللذات والتقلب فى المسرات كان الأولى به أن يجمع من الندماء من فيه من الحذاق بالغناء ومن يكون حديثه يطرب سامعيه وملحه أحسن موقعا من الأغانى المعجبة فى قلوب منادميه كما وصفه بعض الشعراء فقال:

حديث يشرب له الغوانى ... ويأخذ كل سمع باستماعى

فيكون للحديث نوبة وللغناء أخرى. وحكى عن بشار أنه قال لا تجعلوا مجالسكم حديثا كله ولا غناء كله ولا هزلا كله ولا جدا كله ولكن تنقلوا فان العيش خلس.

واعلم أن فى النديم والخمر لذات شتى فلذة الخمر زوال الهموم والغموم والأفكار ولذة النديم المحادثة، قال الشاعر:

وما بقيت من اللذات الا ... محادثة الرجال ذوى العقول

وقد كانوا اذا عدوا قليلا ... فقد صاروا أقل من القليل

---

(١) الآية: ٤ من سورة الأحزاب.

وأما) أوساط الناس فيجب ألا يستكثر من الندماء ويقتصر على القليل فإن الكثير سبب اذهاب المال ووجود العداوة وفقدان المسرة وتعب القلب وال سم ولا يجب أن تصطفى نديما حتى تغضبه فى الصحو فان وجدته حمولا مطاوعا نبولا لما تأمره به يصفيك وداده حاضرا وغائبا مساعدا لك فى الشدائد اذا وقعت فيها فاعتمد عليه فقلما تجد هذا النديم، وقد قال الشاعر:

إذا كنت مختاراً لنفسك صاحبا ... فمن قبل ان تبدئه بالود أغضبه
فإن كان فى حال التعدى راضيا ... والا فقد جربته فتجنبه

قال بعض الظرفاء شرط المنادمة قلة الخلاف، والمعاملة بالانصاف والمسامحة بالشراب، والتغافل عن الجواب، وادمان الرضى، والطراح ما مضى واسقاط التحيات، واجتناب افتراخ الاصوات، وأكل ما حضر، واحضار ما تيسر، وستر العيب.

ولقد أحسن من قال:

لا خير فى الشرب إلا مع أخاتقة ... إن سر غنى وإن غنيته طربا
يعطيك صمتا إذا غنيته وإذا ... شربت حى وان حييته شربا
عف اللسان عفيف الفرج تحمده ... فى كل حال إذ ثرى وإن تربا
فاشدد يديك عليه إن ظفرت به ... وأكثر مودته لا تكثر الرهبا

كان إبراهيم بن المهدى يقول: لذة العيش فى ثلاث: منادمة الأحباب ومعاقرة الشراب ومذاكرة الآداب، ويروى أن أول من جعل لندمائه أمارة ينصرفون بها من مجلسه إذا أراد ذلك كسرى وهو أنه يمد رجله فيعرفون أنه يريد قيامهم فينصرفون وتبعه الملوك فكان فيروز الاصغر يدلك عينيه وكان بهرام يرفع رأسه إلى السماء وكان فى الإسلام معاوية يقول العزة لله وعبد الملك يلقى المروحة من يده، وحدث بهذا الحديث عند بعض البخلاء وسئل ما أمارته فقال: إذا قلت يا غلام هات الطعام.

والناس يختلفون فى الشرب فمنهم من يرى كثرة الندماء ومنهم من يرى الانفراد وممن رأى هذا الرأى جماعة من أهل الأدب قديما وحديثا ولهم فيه أشعار وأخبار ومنهم من رأى مطالعة الكتب عليها واعمال الفكرة فى تصنيف العلوم والآداب، كما حكى عن الشيخ الرئيس ابن سينا أنه قال: كنت استعين على مصنفات علومى باستعمال اليسير من الخمر المصلوح من الماء ومنهم الفارابى ودليل ذلك قوله شعرا:

لمـــا رأيت الزمـــان تنكـــا ... وليس فى العـــشـــرة انتـفـــاع
كل رئـيـس بـه مـــــلال ... وكـل رأس بـه صـــــداع
لزمت بيـــتى وصنت نفـــسـا ... لهـــا عن اللـذة امـــتـناع
أشــرب مـــمـا اقـتنيت راحـا ... لهـــا على راحـــتى شـــعـاع
لى من قـــواريـرها ندامى ... ومن قـــراقـيـرها ســمـاع
واجـــتنى من حـــديث قـــوم ... قـــد اقـفـرت منهـم البـقـاع

قال بعضهم رأيت أعرابيا جالسا بالفلات تحت ظل شجرة ومعه ركوة وهو يشرب قدحا ويصب فى أصل الشجرة قدحا فقلت له ما هذا فقال هو نديم لا يعربد علىّ يلحقنى بظله ويحمل عنى كله.

وقال بعضهم دخلت على بعض الرؤساء فلقيته يشرب وبين يديه كلب صيد وهو يشرب قدحا ويصب قدحا بين يدى الكلب ومهما أكل طعاما أو نقلا رمى إلى الكلب منه فقلت له أتنادم كلبا فقال نعم يكف عنى أذاه ويحرسنى من أذى سواه يشكر قليلى ويحفظ مبيتى ومقيلى وأنشد شعرا:

وأشرب وحدى من كراهتى الأذى ... مخافة شر أو سباب لئيم

وقال الشيخ صفى الدين الحلى وأجاد:

إذا لم أجد للراح خلا موافيا ... فلى بى أنس كامل حين أشرب
لسانى يغنينى وفكرى منادمى ... وكفاى تسقينى وقلبى يطرب

ومما يجب على ذوى السيادة والمروءة أن يسامحوا نديمهم إذا وقعت منه هفوة أو غفلة.

وما أحسن قول خالد اليشكرى:

ولست بلاح لى نديما بزلة ... ولا هفوة كانت ونحن على الخمر
عزلت بجنبى قول خلى وصاحبى ... ونحن على صهباء طيبة النشر
فلما تمادى قلت خذها غريقه ... فانك من قوم جحاجحة زهر
فما زلت أسقيه وأشرب مثلما ... سقيت أخى حتى بدا وضح الفجر
وخر صريعا للجبين موسدا ... فوسدته واخترت حملى على الهجر
وأيقنت أن السكر طار بلبه ... فأغرق من شمتى وقال ولم يدر
وزال لسان كان إذ كان صاحيا ... يقلبه فى كل فن من الشعر

وقال أبو نواس ـ رحمة الله عليه:

ولست لنديم صدق وقد أخذ الشراب بوجتيه
تناولها والا لم أذقها فيأخذها وقد ثقلت عليه
ولكني آخذ الكأس عنه وأصرفها بعبة حاجبيه
وإن رام الوساد لنوم سكر دفعت وسادتي أيضا إليه
وهذا ما حببت له وإني أبر له من والديه

ولله در الصاحب بن عباد: قد حملت أوزار السكر على ظهور الخمر.

وتلطف من قال:

وطويت بساط الشراب على ما فيه من خطأ وصواب

وقال أيضًا:

تعلم في مرافقة النديم مطاوعة الأراكة للنسيم
وعاشره بأخلاقي فاني وحقك عبد رق للنديم
أعاطيه أحاديثي وكأسي فيسكر بالحديث وبالقديم

وقال ابن المعتز:

وندامای فی شباب وحسن أتلفت ما لهم نفوس كرام
بين أقداحهم حديث قصير هو سحر وما سواه كلام
وغناء يستعجل الراح بالرا ح كما ناح في الغصون الحمام
فكأن السقاة بين الندامى الفات بين السطور قيام

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة ـ رحمه الله:

بروحي نديم يشهد العقل أنه قضى العمر باللذات وهو خبير
تذكر مزج الكأس عند وفاته فأوصى لها بالثلث وهو كثير

وأنشدني من لفظه لنفسه أقضى القضاة بدر الدين محمد المخزومي:

ورب نهار فيه نادمت أغيدا فما كان أحلاه حديثا وأحسنا
منادمة فيها منادى فحبذا نهار تقضى بالحديث وبالمنا

كتب إلى الحسن بن وهب صديق له من أهل الأدب فصلا من كتاب قال فيه وقد قسمك الله بين طرفي وقلبي ففي مشهدك أنس قلبي يرويه طرفي وفي بعدك لهو طرفي يذكر قلبي، فأجابه الرجل: فهمت كتابك الذي أخبرت فيه بما أخبرت فسيان عندك على هذا

رأيتنى أم لم ترنى إذ كان بعث يونس بعضا وحضور أعضائك تنوب لك عن حضورى لكننى أراك فيخشع قلبى وأغيب عنك فيدمع طرفى فسيان بين من سلا أبدا ومن حزن دهره.

سئل إسحاق الموصلى عن عدد الندماء فقال واحد هم واثنان غم وثلاثة نظام وأربعة تمام وخمسة مجلس وستة زحام وسبعة موكب وثمانية سوق وتسعة جيش وعشرة نعوذ بالله من شرهم وضرهم.

قال أبو العينا: رب وحشة أنفع من أنيس ووحدة أمتع من جليس.

وقال الجاحظ:

أرى للكأس حقا لا أراه ... لغير الكأس الا للنديم

هو القطب الذى دارت عليه ... رحا اللذات فى الزمن القديم

وكتب المرحوم فتح الدين محمد بن الشهيد إلى القاضى أمين الدين ابن الانفى المالكى تغمده الله برحمته ـ وكان قد تأخر عن زيارته:

حتام فى سجن الصدود ... سرور عبدك يحتبس

معنى الجفاء فهمته ... قد زدت فى المعنى قبس

وأغث بأنفاس الرضا ... نفسى فما فيها نفس

يا مالكى بأبيك زر ... نروى الزيارة عن أنس

أقرأ ألم نشرح فكم ... نلقاك تقرأ فى عبس

العمر أنفس أن تعيـ ... ـش نهار همك كالغلس

إن الحياة لغفوة ... والعيش طيف يختلس

الباب العشرون

فى مسامرة أهل النعيم

الليلة الأولى: حكى أنه كان بمدينة بغداد رجل من أولاد النعيم ورث من أبيه مالا جزيلا وكان يتعشق قينة فأنفق عليها أشياء ثم اشتراها وكانت تحبه كما يحبها ولم يزل ينفق عليها ماله وهو فى أكل وشرب إلى أن لم يبق له شيء وأفلس فطلب معاشا يعيش فلم يقدر على شيء، وكان الفتى فى أيام سعادته يحضر القينة فى صناعة الغناء لتزداد فى صناعتها فبلغت فى الصناعة الغاية التى لم يدركها أحد سواها وكان الفتى قد علم من صناعة الغناء مثلها وأوفى فاستشار بعض إخوانه ومعارفه فقالوا له ما نعرف لك معاشا أصلح من أن تغنى أنت والجارية فتأخذ على ذلك المال الكثير وتأكل وتشرب وأنت كل يوم طيب العيش فأنف من ذلك وعاد إليها فأخبرها بما أشير به عليه وأعلمها أن الموت أحب إليه من ذلك فصبرت معه على الشدة ثم قالت لقد رأيت لك رأيا قال ما هو قالت تبيعنى فإنه يحصل لك من ثمنى ما إن تعيش فيه عيشا طيبا وتتخلص من هذه الشدة وأخلص أنا وأحصل على نعمة فإن مثلى لا يشتريه الا ذو نعمة وبه أكون السبب فى رجوعى اليك قال فحملها إلى السوق فكان أول من أعرضها عليه فتى هاشميا من أهل البصرة ظريف أديب كريم النفس واسع الحال فاشتراها بألف وخمسمائة دينار عينا فقال الرجل حين لفظت بالبيع وقبضت المال ندمت غاية الندامة وبكيت أشد بكاء وصارت الجارية فى أقبح من صورتى وجهدت فى الإقالة فلم يكن إلى ذلك سبيل وأخذت الدنانير فى الكيس ومضيت لا أدرى إلى أين أذهب لأن بيتى موحش منها وورد علىّ من البكا واللطم والنحيب شيء لا أصفه قال فدخلت بعض المساجد وجلست أبكى فيه وأفكر فيما نابنى وفيما عملت بنفسى فحملتنى عينى وتركت الكيس تحت رأسى كالمخدة ونمت فلم أشعر إلا بإنسان قد جذبه من تحت رأسى ومضى يهرول فانتبهت فزعا فطلبت الكيس فوجدته قد أخذ فقمت أريد أجرى وراءه وإذا برجلى مربوطة فى حبل والحبل فى وتد فوقعت على وجهى وإلى حين أن أخلص رجلى هرب ذلك الرجل عنى فبقيت ألطم على وجهى ورأسى وقلت فارقت من أحب وذهب المال فكيف حالى فزاد بى الأمر إلى أن جئت إلى الدجلة ووضعت ثوبى على وجهى ورميت روحى فى الدجلة ففطن الحاضرون لى وأن ذلك لغيظ نالنى فرموا أرواحهم خلفى

فسألونى وسألونى عن أمرى فأخبرتهم خبرى فصرت بين راحم ومستجهل إلى أن جاءنى شيخ منهم فأخذ بغصتى وقال لى يا هذا ذهب مالك وتذهب نفسك وتكون من أهل النار فثق بالله العظيم قم معى فأرنى بيتك فما فارقنى حملنى إلى منزلى وقعد عندى حتى رأى السكون فىّ فشكرته وانصرف فكدت أقتل نفسى فتذكرت الآخرة والنار فخرجت من بيتى هاربا إلى بعض أصدقائى القدماء فأخبرته بخبرى وما جرى علىّ فبكى لى رحمة وأعطانى خمسين دينارا وقال اقبل رأيى واخرج الساعة من بغداد واجعل هذه نفقة لك إلى حيث تجد قلبك تشاغل وأنت من أولاد الكتاب وخطك جيد وأدبك بارع فاقصد من شئت من العمال فاطرح نفسك عليه فلعله أن يستخلفك فى شىء تنتفع به وتعيش معه ولعل الله ـ عز وجل ـ أن يجمع عليك جاريتك فعملت على هذا وجئت إلى الكتبين وقد قوى حالى وزال عنى بعض الهم واعتمدت على أننى أقصد واسط لأنه كان لى بها أقارب فإذا زلال مقدم وجراية كبيرة وقماش فاخر ينتقل إلى الزلال فسألتهم أن يحملونى إلى واسط فقالوا هذا الزلال لرجل هاشمى ولا يمكننا حملك على هذه الصورة فسألتهم أن يحملونى وأرغبتهم فى الاجرة فقالوا اذا كان ولا بد اخلع هذه الثياب التى عليك والبس ثياب الملاحين واجلس معنا كأنك واحد منا فرجعت واشتريت من ثياب الملاحين وجئت إلى الزلال بعد أن اشتريت خبزا وما يصلح للسفر وجلست معهم فما كان إلا ساعة حتى رأيت جاريتى بعينها ومعها جاريتان يخدمانها فسهل على ما كان بى وقلت أراها واسمع غناءها من هنا إلى البصرة واعتقدت أن أجعل قصدى البصرة وطمعت أن أداخل مولاها وأصير من ندمائه وقلت لعلها لا تخلينى من المراد وكنت واثقا بها فلم يكن اسرع من أن جاء الفتى الهاشمى راكبا ومعه عدة ركبان فنزلوا فى الزلال وانحدروا فلما صار عند كلوادى أخرج الطعام وأكل والجارية وأكل الباقون على وسط الزلال وأطعم الملاحين ثم أقبل على الجارية فقال لها كم هذه المدافعة عن الغناء ولزوم الحزن والبكاء لست أنت أول من فارق مولا كان لها محبا فعلمت ما كان عندها من أمرى ثم ضربت ستارة فى جانب الزلال واستدعى اللذين يأكلون ناحية جلس معهم خارج الستارة فسألت عنهم فإذا هم اخوته ثم أخرج الصوانى فيها الخماسيات والحردادبات من المحكم مملوءة شرابا ففرقت عليهم وقدمت لهم الانقال وما شاكل ذلك وما زالوا يرفقون بالجارية إلى أن استدعت بالعود وأصلحته واندفعت تغنى من البعيد الأول وهو:

بأن الخليط بمن عرفت فأدلجوا ... عمدا بمن أهواه لم يتحرجوا

وغدت كأن على ترائبى نحرها ... جمر الغضا فى ساعة تتأجج

ثم غلبها البكاء ورمت العود وقطعت عن الغناء وتنغص على القوم مشربهم ووقعت أنا مغشيا علىّ فظن القوم أنى قد صرعت فصار بعضهم يقرأ فى أذنى وأفقت بعد ساعة فلم يزالوا يدارونها ويرفقون بها ويسألونها إلى أن أصلحت العود واندفعت تغنى فى البعيد الثانى:

فوقفت أندب للذين تحملوا ... وكأن قلبى بالشفار يقطع

فدخلت دارهم أسائل عنهم ... والدار خالية المنازل بلقع

ثم شهقت شهقة كادت تتلف وارتفع بكاؤها وصرخت أنا ووقعت مغشيا علىّ وتبرم الملاحون منى وقالوا كيف حملتم هذا المجنون فقال بعضهم إذا بلغتم بعض القرى فأخرجوه وأريحونا منه فجاءنى من ذلك أمر عظيم ثم وضعت على نفسى الصبر والتجلد وقلت أعمل الحيلة فى أن أعلمها بمكانى من الزلال لتمنع من إخراجى وبلغنا إلى قريب ضيعة فقال صاحب الزلال اصعدوا بنا إلى الشط فطرحوا القماش وطلعوا وكان مساء نطلع الملاحون وخلا الزلال فقمت حتى صرت خلف الستارة فغيرت طريقة العود عما كانت عليه إلى طريقة أخرى وكانت تعلمها منى فرجعت إلى موضعى من الزلال وفرغ القوم من حوائجهم فى الشط ورجعوا والقمر قد انبسط فقال لها مولاها بالله عليك لا تنغصى علينا عيشنا ولم يزلوا إلى أن أخذت العود وجسته وشهقت حتى ظنوا أن روحها قد طلعت وقالت والله مولاى معى فى الزلال فقال لها مولاها والله يا هذه لو كان معنا ما منعته من معاشرتنا ولعله كان يخف ما بك وننتفع بغنائك ولكن هذا بعيد قالت هذا مما لا أسمعه مولاى معنا قال الهاشمى فنسأل الملاحين قالت افعل فسأل الملاحين وقال هل حملتم معكم أحداً قالوا لا وأشفقت أن ينقطع السؤال فصحت نعم هو ذا أنا فقالت كلام مولاى والله فجاءنى الغلمان فحملونى إلى الرجل حملا فلما رآنى عرفنى وقال ويحك ما هذا الزى وما الذى أصابك إلى أن صرت إلى هذه الحالة قال فصدقته عن أمرى وبكيت وأعلى نحيب الجارية من خلاف الستارة وبكى هو وإخوته بكاءً شديدا رقة لنا قال لى يا هذا والله ما وطئت الجارية ولا سمعت لها غناء الا اليوم وأنا رجل موسع ولله الحمد وإنما وردت بغداد لسماع الغناء وطلب أرزاقى من أمير المؤمنين وقد بلغت الأمرين مما أردت ولما علمت أنى أريد الرجوع إلى وطنى قلت أسمع من غناء بغداد شيئًا فاشتريت هذه الجارية لأصير بها عند مغنيات لى بالبصرة وإذا كنتما على هذه الحالة فوالله لأنالن المكرمة والثواب فيكما وأشهد الله تبارك وتعالى على أن هذه الجارية إذا وصلت إلى البصرة أعتقتها وأزوجك إياها وأجرى عليكما ما يكفيكما وزيادة ولكن على شريطة أننى إذا أردت الاجتماع تضرب لها ستارة

وتغنى من خلفها ونحن مع بعضنا لا تبخل علينا بذلك وأنت من جملة إخوانى وندمانى ففرحت بذلك ثم أدخل رأسه إلى الجارية وقال يرضيك ذلك فأخذت تدعو له وتشكره ثم استدعى غلامه فقال خذ بيد الغلام ومده بثياب وبخره وقدمه الينا بعد أن يأكل شيئًا وفعل لى الغلام ما أُمر به وعدت إليه فحط بين يدى مثل ما بين أيديهما من الشراب والنقل ثم اندفعت الجارية تغنى بانبساط وهو:

عيرونى بأن سفحت دموعى	حين هم الحبيب بالتوديع
زعموا أننى تهتكت فى الحب	ـب ما أريد غير مطيع
لم يذوقوا طعم الفراق ولا ما	أحرقت لوعة الأسى من ضلوع
كيف لا أسفح الدموع على رسم	عفا بعد ساكن وجموع
هب إن كتمت حالى لا تخفى	زفرات المتيم المصدوع
إنما يعرف الغرام لمن لا	ح عليه الغرام بين الربوع

فطرب القوم من ذلك طربا شديدا وزاد فرح الفتى بذلك فلما رأيته على ما هو عليه من الفرح أخذت العود من الجارية وأصلحته وضربت به فى أحسن صنعة وغناء واندفعت أقول:

اسأل العرف إن سألت كريما	لم يزل يعرف الغنى واليسارا
فسؤال الكريم يورث عزا	وسؤال اللئيم يورث عارا
وإذا لم يكن من الذل بد	فالق بالذل إن لقيت الكبارا
ليس اجلالك الكريم بذل	إنما الذل أن تجل الصغارا

ففرح القوم بى وزاد فرحهم وأنسوا بى غاية الإيناس ولم نزل على مسرة وسرور وغبطة وحبور وأنا أغنى ساعة وهى تغنى ساعة كذلك إلى أن جئنا إلى بعض الشطوط فارسى الزلال وصعد من الزلال كل من فيه وقضوا حوائجهم وصعدت أنا أيضا وكنت سكرانا فقعدت أبول فأخذتنى عينى فنمت وطلع القوم وانحدر الزلال ولم يعلموا بى وهم سكارى وكنت دفعت النفقة التى معى إلى الجارية ولم يبق معى حبة واحدة وأن القوم انحدروا ووصلوا إلى البصرة ولم أنتبه أنا الا من حر الشمس فجئت إلى الشط فلم أر حسا وقد كنت أجللت الرجل أن أسأله بمن يعرف وأين داره من البصرة فبقيت على شاطئ نهر معتلا كأول يوم بدأت فى المحبة وكأن ما كنت فيه مناما واجتازت بى سمارية فحملت فيها ودخلت إلى البصرة وما كنت دخلتها قط فنزلت خانا وبقيت متحيرا لا أدرى ما أعمل ولم يتجه لى

معاش إلى أن اجتاز بى يوما إنسان كنت أعرفه ببغداد فتبعته لأكشف له حالى وأسترفده ثم أنفت من ذلك ودخل منزله فعرفته وجئت إلى بقال على باب الخان الذى نزلته فأعطيته دانقا وأخذت منه دواة وورقة وجلست أكتب إليه رقعة فاستحسن خطى البقال ورأى ثوبى دنسا فسألنى عن أمرى فأخبرته أنى رجل غريب فقير قد تعذر على التصرف وما بقى معى شىء فقال تعمل معى كل يوم بنصف درهم وطعامك وكسوتك وتضبط لى حساب دكانى فقلت له نعم قال لى اصعد فصعدت وخرقت الرقعة وجلست معه ودبرت أمره وضبطت دخله وخرجه فلما كان بعد شهر رأى الرجل دخله زائدا وخرجه ناقصا فحمدنى وبقيت معه كذلك شهورا ثم جعل لى كل يوم درهما ولم يزل حالى يقوى معه إلى أن حال الحول فناله منى الصلاح فدعانى إلى أن تزوجت بابنته وشاركنى فى الدكان ففعلت ودخلت بزوجتى ولزمت الدكان والحال يقوى إلا أنى فى خلال ذلك مكسور النفس ميت النشاط ظاهر الحزن وكان البقال يشرب فربما جذبنى إلى مساعدته فأمتنع وأظهر ذلك حزنا منى واستمرت بى الحال على هذا سنتين وأكثر فلما كان فى بعض الايام اذا قوم يجتازون بطعام وشراب وكل أحد على ذلك فسألت الشيخ عن القصة فقال لى هذا اليوم عيد الشعانين يخرج أهل الطرب واللعب والشراب والقينات إلى نهر الابلة فيرون النصارى ويشربون ويتفرجون فدعتنى نفسى إلى هذا وقلت لعلى أقف لأصحابى على خبر فقلت للبقال كنت اريد النظر إلى هؤلاء قال لى شأنك وأصلح لى طعاما وشرابا وسلم إلىّ غلاما وسفينة فخرجت فأكلت وبدأت بالشراب حتى وصلت إلى الابلة وابتدأ الناس ينصرفون وعزمت على الانصراف وإذا أنا بالزلال بعينه فى وسط الناس سائرا فى نهر الابلة فتأملت وإذا بأصحابى على سطحه ومعهم عدة مغنيات فحين رأيتهم لم أتمالك فرحا وصحت بهم فلما رأونى عرفونى وأخذونى إليهم وقالوا لى أنت حى وعانقونى وفرحوا بى وسألونى عن قصتى فأخبرتهم بها على أتم شرح وقالوا إنا لما فقدناك فى الحال وقع لنا أنك قد سكرت ووقعت فى الماء وغرقت فخرجت الجارية من ثيابها وكسرت عودها وقطعت شعرها ولطمت وجهها وأقبلت على البكاء والنحيب ولم نقدر نمنعها من ذلك ووردنا البصرة فقلت لها ما تحبين أن يعمل بك فقد كنا وعدنا مولاك بوعد تمنعنا المروءة من استخدامك بعده وسماع غناك قالت يا مولاى تملكنى من القوت اليسير ولباس ثياب الشعر السواد وأن أعمل قبرا فى جنب من الدار وأجلس عنده واتوب عن الغناء فملكناها من ذلك وهى جالسة عنده إلى الآن فأخذونى معهم ومضوا بى فلما دخلت إلى الدار ورأيتها على تلك الصورة ورأتنى شهقت

شهقة عظيمة ما ظننت أنها تعيش فاعتنقنا عناقا طويلا ثم افترقنا ثم قال مولاها تأخذها قلت نعم أعتقها كما وعدت وزوجنى بها ففعل ذلك ودفع الينا ثيابا كثيرة وفرشا وقماشًا وآلة وحمل إلىّ خمسمائة دينار وقال هذا مقدار ما اردت أجريه عليك فى كل شهر منذ أول دخول البصرة وقد اجتمع طول هذه المدة فخذه والجراية متسابقة فى كل شهر وشىء آخر لكسوتك وكسوة الجارية والشرط فى المنادمة وسماع الجارية من وراء الستر وقد وهبت لك الدار الفلانية قال فحملت إلى الدار فإذا قد غمرت بالفرش والقماش وجميع ما أصاحبه وحملت اليها الجارية وجئت إلى البقال فحدثته الحديث وسألته أن يجعلنى فى حل من طلاقه لابنته بغير ذنب ودفعت إليه مهرها وما يلزمنى من أمرها وأقمت مع الهاشمى على ذلك الحال سنين وصرت رب ضيعة ونعمة وعادت حالتى إلى قريب ما كنت فيه أنا والجارية وفرج الله الكريم عنا وسهل لنا الامور بالإحسان وهذا ما كان من حديثهم والحمد لله حمدا كثيرا.

الليلة الثانية: حدث أبو العباس بن يزيد النحوى المعروف بالمبرد قال حدثنا محمد بن عامر الحنفى وكان من سادات بكر بن وائل وأدركته شيخا كبير القامة مملقا وكان إذا فاض على املاقه شيئًا جاد به وقد كان ولى قديما شرطة البصرة فحدثنى هذا الحديث الذى نذكره ووقع لى من غير ناحيته ولا أذكر ما بينهما من الزيادة والنقصان إلا أن معانى الحديث مجموعة فيما أذكر لك:

ذكر أن فتيانا كانوا مجتمعين فى نظام واحد كلهم ابناء نعمة وكلهم شرد عن أهله وقنع بأصحابه فذكر ذاكر منهم قال كنا قد اكترينا دارا مشرفة على الطريق ببغداد المعمورة بالناس فكنا نفلس أحيانا ونوسر أحيانا على مقدار ما يملق الواحد من أهله وكنا لا نستنكر أن تقع مؤننا على واحد منا إذا أمكنه ويبقى الواحد منا لا يقدر على شىء فيقوم به أصحابه الدهر الأطول وكنا إذا أيسرنا أكلنا ودعونا الملهين والملهيات وكنا فى أسفل الدار فإذا عدمنا الطرب فمجلسنا غرفة لنا نتمتع منها بالنظر إلى الناس وكنا لا نخلو من نبيذ فى عسر ولا يسرفإنا كذلك يوما إذا بفتى يستأذن علينا فقلنا له اصعد فإذا رجل نظيف حلو الوجه سرى الهمة يظهر عليه أنه من أبناء النعم فأقبل علينا وقال إنى سمعت باجتماعكم وألفتكم وحسن منادمتكم حتى كأنكم أدخلتم جميعًا فى قالب واحد فأحببت أن أكون واحدا منكم فلا تحتشمونى قال فصادف ذلك منا اقتارا من القوت وكثرة من النبيذ وقد كان قال لغلامه أول ما يأذنوا لى أن أكون كأحدهم هات ما عندك فغاب عنا غير كثير ثم إذا هو أتى بسلة خيزران وفيها طعام مطبوخ من جدى وفراخ ورقاق وأشنان ومحلب داخله فأصبنا من ذلك

ثم أفضينا فى شرابنا وانبسط الرجل وإذا هو أحى خلق الله إذا حدث وأحسنهم استماعا إذا حدث وأمسكهم عن الملاحات إذا خولف ثم أفضينا فى شرابنا وانبسط الرجل فإذا هو أحسن الناس خُلقا وخَلقا وكنا ربما امتحناه بأن ندعوه إلى الشيء الذى نعلم أنه يكرهه فيظهر لنا ألا نريد غيره ونرى ذاك فى اشراق وجهه ونسبه فلم يمكن منا غير معرفة الكنية فإنا سألناه عنها فقال أبو الفضل فقال لنا يوما بعد اتصال الأنس ألا أخبركم كيف عرفتكم قلنا إنا لنحب ذاك قال أحببت فى جواركم جارية وكان سيدها ذا عزائم وكنت أجلس لها فى الطريق التمس اجتيازها فأراها حتى أخلفنى الجلوس على الطريق ورأيت غرفتكم هذه فسألت عن خبرها فخبرت عن ائتلافكم ومساعدة بعضكم بعضا فكان الدخول فيما أنتم فيه آثر عندى من الجارية فسألناه عنها فخبرنا، قلنا ما نحيد عنها لك حتى نظفرك بها فقال يا اخوتى إنى والله على ما ترون منى من شدة المحبة والكلف بها ما قدرت فيها حراما قط ولا تقديرى الا مطاولتها ومصابرتها إلى أن يمن الله بثروة فاشتربها وأقام معنا شهرين ونحن على غاية الاغتباط بقربه والسرور بصحبته ثم اختلس منا فنالنا لفراقه كل ممض ولوعة مؤلمة ولم نعرف له منزلا نلتمسه منه فكدر علينا من العيش ما كان طاب لنا به وقبح عندنا ما كان حسن بقربه وجعلنا لا نرى سرورا ولا غما إلا إذا ذكرنا اتصال الأنس والسرور بحضوره والغم بمفارقته فكنا كما قال القائل:

يذكرنيهم كل خير رأيته وشر فما أنفك منهم على ذكرى

فغاب عنا زهاء عشرين يوما ثم بينما نحن مجتازون من الرصافة إذا به قد طلع فى موكب نبيل وزى جليل فحيث بصرنا به انحط عن دابته وانحط غلمانه ثم قال يا إخوتى إنى والله ما هنا لى عيش بعدكم ولست أماطلكم بخبرى حتى آتى المنزل ولكن ميلوا بنا إلى المسجد فملنا معه فقال أعرفكم أولاً بنفسى أنا العباس بن الاحنف وكان من خبرى بعدكم أنى خرجت إلى منزلى من عندكم فإذا المسودة محيطة بى فمضى بى إلى دار أمير المؤمنين فصرت إلى يحيى بن خالد فقال لى ويحك يا عباس إنما أخبرتك من ظرفاء الشعر لقرب مأخذك وحسن مأينك وأن الذى ندبتك له من شأنك وقد عرفت خطرات الخلفاء وإنى أخبرك أن ماردة هى الغالية على أمير المؤمنين اليوم وأنه جرى بينهما عتاب فهى بدلالة المعشوق تأبى أن تعتذر وهو بعز الخلافة وشرف الملك يأبى ذلك وقد رمت الامر من قبلهما فأعيانى وهو أحرى أن تستره الصبابة فقل شعرا يسهل عليه هذه السبيل فقضى كلامه ثم دعاه أمير المؤمنين فصار إليه وأعطيت دواة وقرطاسا فاعترانى الزمع وأذهب عنى كل

قافية ثم انفتح لى شىء والرسل بين يدى فجاءتنى أربعة أبيات رضيتها وقعت صحيحة المعنى سهلة الألفاظ ملائمة لما طلب منى فقلت لأحد الرسل أبلغ الوزير أنى قد قلت أربعة أبيات فإن كان فيها مقنع وجهت بها فرجع إلى الرسول بأن هاتها ففى أقل منها مقنع وفى ذهاب الرسول ورجوعه قلت بيتين من غير ذلك الروى وكتبت الأربعة الابيات فى صدر الرقعة وعقبت بالبيتين فكتبت:

العاشقان كلاهما متعتب ... وكلاهما متوجد متغضب

صدت مغاضبة وصد مغاضبا ... فكلاهما مما يعالج متعب

راجع أحبتك الذين هجرتهم ... إن المتيم قل ما يتجنب

إن التجنب إن تطول منكما ... دب السلولة فعز المطلب

وكتبت تحت ذلك:

لا بد للعشاق من وقفة ... يكون بين الصد والصرم

حتى إذا ما الهجر تمادى به ... راجع من تهوى على رغم

ثم وجهت بالكتاب إلى يحيى بن خالد فرفعه يحيى إلى الرشيد فقال والله ما رأيت شعرا أشبه بما نحن فيه من هذا والله لكأنى قصدت به فقال له يحيى فأنت والله المقصود به هذا يقوله العباس بن الاحنف فى هذه القصة فلما قرأ البيتين وأفضى إلى قوله راجع من تهوى على رغم استغرب ضاحكا حتى سمعت ضحكه ثم قال أى والله أراجع على رغم يا غلام هات النعل فنهض وأذهله السرور عن أن يأمر لى بشىء فدعانى يحيى فقال لى إن شعرك قد وقع بغاية الموافقة وأذهل أمير المؤمنين السرور عن أن يأمر لى بشىء قلت لكن هذا الخبر ما وقع منى بموافقة ثم جاء فساره فنهض وثبت مكانى ثم نهضت بنهوضه فقال لى يا عباس أمسيت أملى الناس أتدرى ما سارنى به هذا الرسول قلت لا قال قد ذكرنى ماردة بلغت أمير المؤمنين لما علمت بمحبته فقالت يا أمير المؤمنين كيف هذا فأعطاها الشعر وقال هذا أتى به إليك قالت فمن يقوله قال العباس بن الاحنف قالت ما فعلت معه قال ما فعلت شيئًا بعد قالت إذا والله لا أجلس حتى يكافئ قال فأمير المؤمنين قائم لقيامها وأنا قائم بقيام أمير المؤمنين وهما يتناظران فى صلتك فهذا كله لك قلت ما لى من هذا كله الا الصلة ثم قال هذا أحسن من شعرك فأمر أمير المؤمنين بمال كثير وأمرت ماردة بمال دونه وأمر الوزير بمال دون ما أمرت به وحملت على ما ترون من الظهر ثم قال الوزير من تمام اليد قبلك ألا ترجع من الدار حتى يؤتى لك بهذا المال ضياعا فاشتريت لى ضياع بعشرين ألف دينار ودفع إلى بقية المال فهذا الخبر الذى عاقنى عنكم فهلموا حتى أقاسمكم

الضياع وأفرق فيكم المال فقلنا له هناك الله بمالك وكلنا راجع إلى نعمة من الله فاقسم وأقسمنا قال فامضوا بنا إلى الجارية حتى نشتريها فمشينا إلى صاحبها وكانت جارية جميلة حلواء لا تبخس شيئًا أكثر ما فيها ظرف اللسان وتأدية الرسائل وكانت تساوى على وجهها مائة وخمسين دينارا فلما رآنى مولاها أسامنى فيها خمسمائة دينار فأوحيناه بالعجب فحط مائة ثم حط مائة وقال العباس يا فتيان إنى والله أقسم أحتشم بعد ما قلتم ولكنها حاجة فى نفسى بها يتم سرورى فإن ساعدتم فعلت قلنا له قل قال هذه الجارية أنا عابثتها منذ دهر وأريد ايثار نفسى بها يتم سرورى فإن ساعدتم فأكره أن تنظر إلى بعين من قد ماكس فى ثمنها فأعطيه فيها خمسمائة دينار كما سأل قلنا فإنه قد حط مائتين قال وإن فعل فصادفنا من مولاها رجلا حرا فاخذ ثلاثمائة دينار وجهزها بالمائتين فما زال لنا محبا إلى أن فرق الموت بيننا.

الليلة الثالثة: حدث عبد الرحمن بن عمر الفهرى عن رجال سماهم قال أمر المأمون أن يحمل إليه عشرة أناس من البصرة كانوا يرمؤن بالزندقة عنده فحملوا إليه فبينما أحد الطفيليين جائزا إذ رآهم مجتمعين فقال ما اجتمع هؤلاء الا لوليمة فأنل معهم ودخل فى جملتهم ومضى بهم المتوكلون إلى البحر فأطلعوهم فى زورق قد أعد لهم فقال الطفيلى كأنها نزهة فأصعد معهم فى الزورق فلم يكن بأسرع من أن قيد القوم فقيدوا الطفيلى معهم فعلم أنه قد وقع ورام الخلاص فلم يقدر ثم دفع الملاح وساروا إلى أن وصلوا بغداد وحملوا على دخول المأمون فأمر بضرب أعناقهم فاستدعوا بأسمائهم رجلا رجلا وهو يقتل حتى لم يبق الا الطفيلى وفرغت العدة فقال المأمون للمتوكلين بهم ما هذا قالوا يا أمير المؤمنين ما ندرى غير أنا وجدناه مع القوم فجئنا به فقال له المأمون ما قصتك ويلك فقال يا أمير المؤمنين امرأته طالق إن كان يعرف من أقوالهم شيئًا ولا يعرف غير لا إله إلا الله محمد رسول الله وإنما رأيتهم مجتمعين فظننت أنهم يدعون إلى مأدبة أو دعوة فالتحقت بهم قال فضحك المأمون ثم قال بلغ من شؤم التطفيل إلى أن أدخل صاحبه هذا المدخل لقد سلم هذا الجاهل من الموت ولكن يؤدب حتى يتوب.

قال وكان إبراهيم بن المهدى حاضرا يومئذ فقال يا أمير المؤمنين هبه لى واحدثك بحديث عن نفسى فى التطفيل عجيب، قال قد وهبته لك، هات حديثك، قال:

يا أمير المؤمنين خرجت يوما متنكرا أنظر إلى سكك بغداد فاستهوى بى التفرج وانتهى بى المشى إلى موضع شممت فيه روايح طعام وأبازير قد تاقت نفسى إليها ووقفت يا أمير

المؤمنين لا أقدر على المضى فرجعت بصرى فإذا شباك ومن خلفه كف ومعصم ما رأيت أحسن منه فوقفت حائرا ونسيت روايح الطعام بذلك الكف والمعصم فأخذت فى اعمال الحيلة فى الوصول فنظرت فإذا بخياط قريب من ذلك الموضع فقدمت إليه وسلمت عليه فرد على فقلت يا سيدى لمن هذه الدار قال يا سيدى لرجل من البزازين قلت فما اسمه قال فلان ابن فلان قلت هو ممن يشرب الخمر قال نعم وأظن اليوم عنده دعوة وليس ينادم الا تجارا مثله فبينما نحن فى الكلام إذ أقبل رجلان راكبان فقال هؤلاء ندماؤه فقلت ما أسماؤهما وما كناهما فقال فلان وفلان فحركت دابتى فلحقتهما وقلت جعلت فداكما قد استبطأكما أبو فلان ـ أعزه الله ـ وسايرتهما حتى أتيا الباب فدخلت ودخلا فلما رآنى صاحب المنزل معهما لم يشك فى أنى منهما بسبيل فرحب بى وأجلسنى فى أفضل المواضع ثم جىء بالمائدة ونقل إليها الألوان فكان طعمها يا أمير المؤمنين أطيب من رائحتها فقلت فى نفسى هذه الألوان قد منّ الله علىّ ببلوغ الغرض منها يبقى الكف والمعصم ثم جىء بالوضوء فغسلنا ثم نقلنا إلى مجلس المنادمة فإذا هو أشكل منزل وأظرفه فى سائر أموره وجعل صاحب المنزل يلطف ويقبل علىّ فى الحديث لظنه أنى ضيف لاضيافه وهم على مثل ذلك يظنون أن إكرامه لى عن معرفة متقدمة وصداقة حتى شربنا أقداحا خرجت علينا جارية كأنها غصن بان فى غاية الظرف وحسن الهيئة فسلمت غير خجلة وأتيت لها وسادة فجلست وأتى بعود فأخذته وجسته أحسن حبس واندفعت تغنى فغنت:

توهمها طرفى فأصبح خدها ... وفيه مكان الوهم من نظرى أثر
وصافحها كفى فآلم كفها ... فمن لمس كفى فى أناملها عقر

فهيجت يا أمير المؤمنين بلبالى وطربت لحسن شعرها وحذقها ثم اندفعت فغنت أيضًا:

أشرت إليها هل عرفت مودتى ... فردت بطرف العين إنى على العهد
فحدت عن الإظهار حفظا لسرها ... وحادت عن الإظهار حفظا على عهد

فجاءنى من الطرب ما لم أملك معه نفسى وطرب القوم طربا شديدا ثم غنت:

أليس عجيبا أن بيتا يضمن ... وإياك لا تخلو ولا تتكلم
سوى أعين تبدى سرائر نفس ... وتقطيع أنفاس على النار تضرم
إشارة أفواه وغمز حواجب ... وتكسير أجفان وكف تسلم

فحسدتها على حذقها يا أمير المؤمنين واصابتها معنى الشعر لانها لم تخرج من الفن الذى ابتدأت فيه فقلت قد بقى عليك يا جارية شىء فرمت بالعود وقالت متى كنتم

تحضرون فى مجالسكم البغضاء فندمت على ما كان منى ورأيت القوم كأنهم تنكروا بى فقلت فى نفسى فاتنى جميع ما أملت أن لم أتلافى فضيتى فقلت أثم عود قالوا نعم فأتيت بعود مليح الصنعة فأصلحت ما أردت ثم اندفعت فغنيت:

ما للمنازل لا تجيب حزينا أصم أم قدم الليل البلا فبلينا
روح الفتية دوحة مذكورة إن مت متنا وإن حييت حيينا

فما استميت يا أمير المؤمنين حتى وثبت الجارية على رجلى تقبلها وتقول معذرة اليك والله ما علمت مكانك ولا سمعت مثل هذه الصنعة من أحد ثم زاد القوم فى اكرامى وتبجيلى وطربوا غاية الطرب وشربوا بالطاسات، فلما رأيت طربهم اندفعت فغنيت:

أبى الله أن تمسين لا تذكريننى وقد سمحت عيناى من ذكرك الدما
إلى الله أشكو بخلها وسماحتى لها عسل منى وتبدى علقما
فردى مصاب القلب أنت قتلته فلا تتركيه ذاهب العقل مغرما
إلى الله أشكو أنها أجنبية أكون لها ما عشت بالود محرما

فرأيت من طرب القوم شيئًا خشيت أنهم فارقوا عقولهم فأمسكت عنهم ساعة ثم راجعت أمرهم لما هدأت نفوسهم واندفعت وغنيت:

هذا محبك مطويا على كمده صب مدامعه تجرى على جسده
له يد تسأل الرحمن راجية مماته ويد أخرى على كبده
يا من رأى كفا مستنهريا دنفا كانت منيته فى طرفه ويده

فجعلت الجارية تصيح هذا والله الغناء لا ما نحن فيه وشرب القوم وسكروا وبقى فى صاحب المنزل مسكة لجودة شربه فأمر غلمانهم بحفظهم الى منازلهم وانصرفوا وخلوت معه وشرب أقداحا ثم قال يا سيدى ذهب ما مضى من عمرى هدرا اذ لم أكن أعرف مثلك ولم أحاضر رئيسا يشبهك فبالله يا مولاى من أنت لأعرف نديمى فأخذت اروى عليه وهو يقسم على إلى أن أعلمته من انا على الحقيقة فوثب قائما على قدميه وقال لقد عجبت أن يكون هذا الفعل الا لمثلك ولقد أسدى الزمان الى يد الا أقوم بشكرها ومتى طمعت بأن يزورنى ذو الخلافة فى منزلى وينادمنى ما هذا الا فى المنام فلا أتممت ليلتى الا قائما بين يديك اذ كنت أحقر أن أجالس ذا الخلافة فأقسمت عليه الى أن جلس ثم أخذ يسألنى ما السبب فى حضورى عنده بألطف معنى فأخبرته يا أمير المؤمنين بالقصة من أولها الى آخرها وما سترت منها شيئًا ثم قلت أما الطعام فنلت منه بغيتى وأما الكف والمعصم ان شاء الله ثم

قال يا فلانة تولى لفلانة جارية له تنزل وجعل يستدعى واحدة واحدة ويعرضها على وانا لا أدرى صاحبتى الى أن قال والله مابقى غير أمى وأختى والله لينزلن فعجبت من كرمه وسعة صدره فقلت جعلت فداك ابدأ بالاخت فقال حبا وكرامة ثم نزلت أخته فأرانى يدها فاذا هى التى رأيتها فقلت حسبك هذه الجارية فأمر غلمانه لوقته واستدعى عشرة مشايخ سماهم لهم ثم قام فاخرج بدرتين عشرين الف درهم وحضرت المشايخ فقال لهم هذا سيدى ابراهيم بن المهدى يخطب منى أختى فلانة وأشهدكم أنى قد زوجتها له وأمهرتها له عشرة آلاف درهم فقلت له قبلت ورضيت النكاح فشهدوا علينا ثم دفع البدرة الواحدة الى أخته والأخرى فرقها على المشايخ ثم قال أعذروا فهذا ما حضر فشكروا ودعوا له وانصرفوا ثم قال يا سيدى أمهد لك بعض البيوت وتنام مع أهلك فاحتشمنى ما رأيت من كرمه واستحييت أن أخلو بها فى داره فقلت بل أحضر عمارية وأجهزها وأحملها الى منزلى فوحقك يا أمير المؤمنين لقد حمل الىّ من الجهاز ما ضاقت عنه بيوتنا على سعتها فأولدتها هذا الغلام القائم بين يديك يا أمير المؤمنين فعجب المأمون من كرم هذا الرجل فقال لله دره ما سمعت قط بمثله ثم أطلق الطفيلى بإجارة ابراهيم وأمر باحضار الرجل ليشاهده فأحضر بين يديه فاستنطقه فأعجبه وصار من جملة خواصه ومحاضرته.

الليلة الرابعة: حدث غير الهلالى قال كان من فتيان بنى هلال فتى يقال له بشر بن عبد الله وكان يعرف بالأشتر وكان من سادات بنى هلال أحسنهم وجها وأسخاهم كفا وكان مغرما بجارية من قومه تدعى جيدا وكانت بارعة الجمال والكمال ثم اشتهر أمره وأمرها وظهر خبرهما بين أهليهما الى أن كانت بين الفريقين ثم افترقوا وأبعدت منازلهم فقال غير فلما طال على الاشتر الفراق وتمادى البعد جاءنى فقال يا غير هل لك من خبر ثم ما عندى الا ما أجبته فقال تساعدنى على زيارة جيد فقد أذهب الشوق روحى فقلت نعم بالحب والكرامة فانهض بنا اذا شئت وركبت وسرنا يومنا وليلتنا والغد حتى إذا كان العشاء انخنا راحلتنا فى شعب قريب من الفريق فقال يا غير اذهب فتأنس بالناس واذكر ان لقيت أحدا أنك صاحب ضالة ولا تعرض بذكرى بين شفة ولا لسان الى أن تلقى جاريتها فلانة ترعى غنمهم فأقرئها منى السلام وسلها عن الخبر وأعلمها بموضعى قال فخرجت لأعدو الى ما أمرنى به حتى لقيت الجارية وأبلغتها الرسالة واعلمتها مكانه وسألتها عن الخبر واعلمتها بموضعى فقالت هى والله مشدد عليها تحفظ بها ولكن مواعدكم أوائل الشجرات اللواتى عند أعقاب البيوت مع صلاة العشاء قال فانصرفت الى صاحبى فأعلمته الخبر ثم نهضت أنا

وهو نقود راحلتنا حتى أتينا الموضع فى الوقت المعهود فلم نلبث الا قليلا واذا جيد تمشى قريبا منا فوثب الاشتر فصافحها وسلم عليها وقمت أنا موليا عنهما فقالا نقسم عليك بالله الا ما رجعت فوالله ما نحن فى مكروه ولا بيننا ما يستر عنك فرجعت اليهما وجلست معهما فقال الاشتر ما فيك حيلة يا جيد نتعلل الليلة قالت لا والله وما لى الى ذلك سبيل الا أن يرجع الذى عرفت من البلاء والشر فقال لها لا بد من ذلك ولو كان ما عسى أن يكون قالت فهل فى صاحبك هذا من خير قلت تولى ما بدا لك فانى انتهى الى رأيك ولو كان فيه ذهاب روحى فخلعت ثيابها وقالت البسها وأعطنى ثيابك ففعلت ثم قالت اذهب الى بيتى وادخل فى سربى فان زوجى سيأتيك بعد فراغه من الحلية والقدح مملوء فيقول هاك غبوقك فلا تأخذه منه حتى تطل ذلك عليه ثم خذه أو دعه حتى يضعه ويذهب فلست تراه حتى تصبح - ان شاء الله تعالى - قال فذهبت ففعلت ما أمرتنى به حتى اذا جاء بالقدح لم آخذه حتى نكد عليه ثم أهويت لاخذه منه وأهوى هو ليضعه فاختلفت أيدينا على الاناء فانكفأ القدح وانهرق اللبن فقال ان هذا لطماح جدا وضرب بيده الى مقدم البيت واستخرج سوطا ملويا مثل الثعبان ثم دخل فهتك الستر علىّ ومتع السوط منى تمام عشربن سوطا ثم جاءت امه واخته فانتزعاه من يده لا والله ما فعلا ذلك حتى زال عقلى وهممت أن أجبه بالسكين وان كان فيها الموت فلما خرجوا شددت سترى وقعدت كما كنت فلم البث الا قليلا حتى دخلت ام جيد فكلمتنى وهى لا تشك انى بنتها واندفعت فى البكاء والنحيب وتغطيت بثوبى ووليتها ظهرى فقالت يا بنية اتقى الله فى نفسك ولا تعرضى بمكروه زوجك فذاك أولى بك واما الاشتر فذاك آخر الدهر وخرجت من عندى وقالت سأرسل اليك أختك تؤنسك الليلة فما لبثت غير دقيقة واذا الجارية قد جاءت فجعلت تبكى وتدعو على من ضربنى وأنا لا أكلمها ثم انضجعت الى جنبى فلما استمكنت منها شددت يدى على فيها وقلت يا هذه تلك أختك مع الاشتر وقد قطع ظهرى الليلة بسببها وأنت أولى بالستر عليها فاختارى لنفسك ولها ولئن والله تكلمت بكلمة لاصيحن أنا بجهدى حتى تكون الفضيحة شاملتهم فلما سمعت ذلك دفعت يدى عن فيها واهتزت كما يهتز القضيب فلم أزل بها حتى انست بى فباتت والله معى أحسن رفيق رافقته ولم نزل نتحدث وتضحك منى وما نالنى وتمكنت منها تمكن من لو أراد زنية فعلها ولكن الله عصم فله الحمد ولم نزل كذلك حتى طلع الفجر واذا جيد قد دخلت علينا فلما رأتنا ارتاعت وقالت ويحك من هذه فقلت أختك قالت وما الخبر قلت هى تخبرك فانها والله نعم الاخت وأخذت ثيابى ومضيت الى صاحبى فركبت أنا وهو وحدثته ما أصابنى وكشفت له عن ظهرى فاذا فيه ضرب رمى الله ضاربه

بالنار كل ضربة يخرج منها الدم فلما رآنى كذلك قال لقد عظم صنعك ووجب شكرك وطالت يدك فلا أحرمنى الله مكافأتك ولم يزل لى شاكرا معترفا.

الليلة الخامسة: قال الواقدى كان ابراهيم بن المهدى قد ادعى الخلافة لنفسه بالرى وأقام مالكها سنة واحد عشر شهرا واثنى عشر يوما وله أخبار كثيرة أحسنها عندى ما حكاه لى قال:

لما دخل المأمون الرى وطلبنى أشد الطلب وجعل لمن أتاه بى مائة ألف درهم فخفت على نفسى وتحيرت فى أمرى فخرجت من دارى وقت الظهر وكان يوما صائفا وما أدرى أين أتوجه فمررت على وجهى حتى وقعت فى زقاق لا ينفذ فقلت إنا لله وإنا إليه راجعون ان عدت على أثرى يرتاب بى فرأيت فى صدر الزقاق عبدا أسود وهو قائم على باب دار فتقدمت اليه فقلت له أعندك موضع أقيم فيه ساعة من نهار فقال نعم وفتح الباب فدخلت الى دار نظيفة فيه حصيرة نظيفة ومخدة جلد الا انها نظيفة ثم أغلق الباب علىّ ومضى لسبيله فتوهمته قد جعل الجعالة فىّ وانه خرج ليدل على فبقيت على مثل النار قلقا فبينما انا كذلك اذ أقبل ومعه حمال عليه كل ما يحتاج اليه من خبز ولحم وقدر جديد وجرة نظيفة وكيزان جدد فحط عن الحمال والتفت الى وقال جعلنى الله فداك انا رجل حجام وانا أعلم انك تتقذر منى لما أتولاه من معيشتى فشأنك بما لم تقع عليه يد وكان لى حاجة الى الطعام فطبخت لنفسى قدرا ما أذكر أنى أكلت مثله فلما قضيت أربى من الطعام قال لى هل لك من شراب فانه يسلى الهم ويطيب العيش ويدفع عن النفس الغم قلت ما أكره ذلك رغبة فى أن أؤانسه فأتى بقطرمين جديد لم تمسه يد وجاءنى بذتين من شراب مطيبة وقال لى روق نفسك فروقت شرابا نهاية فى الجودة وأحضر لى قدحا جديدا وفاكهه ونقلا مختلفة فى طوت فخار جدد ثم قال لى بعد ذلك اتأذن لى جعلت فداك أن أقصد ناحية عنك وآتى بنبيذ لى فأشرب منه سرورا بك فقلت له افعل فشرب وشربت ثلاثا ثم دخل الى خزانته فأخرج عودا مصلحا ثم قال يا سيدى ليس من قدرى ان أسألك تغنى ولكن قد وجب على مروءتك وحرمتى فان أردت بأن تشرف عبدك بأن تغنى لنفسك فافعل فقلت ومن أين لك أنى أحسن الغناء فقال متعجبا سبحان الله أشهر من ذلك أنت ابراهيم بن المهدى خليفتنا بالامس الذى جعل المأمون لمن دل عليك مائة الف درهم فلما قال ذلك عظمت هيبته ومروءته عندى وعلمت أن نخوته أجل من المال الذى بذله فى فتناولت العود فأصلحته وغنيت وقد مر بخاطرى فراق أهلى وولدى:

وعسى الذى أهدى ليوسف أهله وأعزه فى السجن وهو أسير

أن يستجيب لنا فيجمع شملنا والله رب العالمين قدير

فقال يا سيدى اجعل الذى تغنيه ما يقتضيه حالك فقلت نعم فقال غن لى:

ان الذى عقد الذى انعقدت به عقد المكاره فيك يحسن حلها

فاصبر فان الله يعقب راحة ولعلها ان تنجلى ولعلها

فغنيته ولم أكن أحسن لحنه ولكنى لحته وتفاءلت به وحسن عندى ايراده فشرب وشربت وقال غن لى يا سيدى فقلت :

فلا تجزع وان أعسرت يوما فقد أيسرت فى الزمن الطويل

ولا تيأس فإن اليأس كفر لعل الله يغنى عن قليل

ولا تظن بربك غير خير فان الله أولى بالجميل

وكنت أعرفه فغنيت وشربت فقال لله درك على لله يد اذ آنسنى بمثلك وما كنت أحب أن الزمان يسمح لى بكونك فى منزلى فان رأيت أن تغنى لى فقلت:

واذا تنازعنى أقول لها اصبرى موت بريحك أو علو المنبر

ما قد قضى الرحمن فاصطبرى له ولك الازمان من الذى لم يقدر

فغنيته وحسن فى روحى اقتضاءه وآنست به واستظرفته ثم قال لى يا سيدى أتأذن لى أن أغنى ما سنح وان كنت من غير اهل هذه الصناعة فقلت له زيادة فى أدبك ومروءتك فاخذ العود وغنى:

شكونا الى أحبابنا طول ليلنا فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا

وذاك لأن النوم يغشى عيونهم سريعا ولا يغشى النوم لنا أعينا

اذا ما بدا الليل المضر بذى الهوى جزعنا وهم يستبشرون اذا رنا

فلو أنهم كانوا يلاقون مثلما نلاقى لكانوا فى المضاجع مثلنا

فوالله لقد أحسنت بالبيت قد سرنى وذهب عنى كل ما كنت فيه من الهلع وسألته ان يغنى فغنى :

تعيرنا انا قليل عدادنا فقلنا لها ان الكرام قليل

وما ضرنا انا قليل وجارنا عزيز وجار الاكثرين ذليل

وانا لقوم لا نرى القتل سبة اذا ما رأته عامر وسلول

يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول

فداخلنى من الطرب ما لا مزيد عليه الى أن عاجلنى السكر فلم استيقظ الا بعد

المغرب فعاودنى فكرى فى نفاسة هذا الحجام وحسن أدبه وظرفه وكيف اقتضانى من الغناء ما أراد أن يسليني به فقمت وغسلت وجهى وأيقظته وأخذت خريطة كانت صحبتى فيها دنانير كثيرة لها قيمة فرميت بها اليه وقلت له استودعك الله فانى ماض من عندك وأسألك أن تصرف ما فى هذه الخريطة على بعض مهماتك ولك عندى المزيد ان أمنت من خوفى فأعادها الى متنكرا وقال لى يا سيدى ان الصعلوك ما لا قدر له وليس عندكم من ذوى الرياسات ويظن به الظنون الرديئة عن الأخذ آخذ على ما وهبنيه الزمان من قدرك وحلولك عندى ثم انى ألححت عليه فأومى الى موسى وقال والله لئن راجعتنى فيها لاقتلن نفسى فخشيت عليه وأخذت الخريطة فأعدتها الى كمى وقد اثقلنى حملها فلما انتهيت الى باب داره معولا الى المضى قال لى سيدى ان هذا الموضع أخفى لك ولبس فى مؤنتك ثقلة فأقم عندى الى ان يفرج الله عنك فرجعت وسألته أن يكون منفقا من الخريطة فلم يفعل وكان يفعل فى كل يوم مثل ما فعله فى يوم حلولى عنده فأقمت اياما فى ألذ عيش فتبرمت من الإقامة فى منزله واحتشمت من التثقيل فتركته وقد مضى يجدد لنا حالنا فقمت وتزينت بزى النساء بالخف والنقاب فخرجت فلما صرت فى الطريق داخلنى من الخوف أمر شديد وجئت لاعبر الجسر فاذا أنا بالموضع قد رش وصار زلقا فأبصرنى جندى ممن كان يخدمنى فعرفنى وقال هذه حاجة المأمون فتعلق بى فمن حلاوة الروح دفعته هو وفرسه فرميتهما فى ذلك الزلق وتبادر الناس لينقذوه فاجتهدت فى المشى حتى قطعت الجسر ودخلت زقاقا فوجدت باب دار وامرأة فى دهليزه فقلت يا سيدة النساء احقنى دمى فانى رجل خائف فقالت على الرحب وأطلعتنى الى غرفة وفرشت لى وقدمت طعاما وقالت هدئ روعك فما يعلم بك مخلوق عندى ولو أقمت سنة وهى معى فى ذلك واذ بالباب يدق دقا عنيفا فخرجت ففتحت الباب فاذا بصاحبى الذى دفعته على الجسر وهو مشدود الرأس ودمه يجرى على ثيابه وليس معه فرس فقالت يا هذا ما بالك فقال لها ان حديثى عجيب ظفرت بالفتى وانفلت منى ولو كنت حملته الى المأمون لتعجلت لى مائة ألف درهم قالت وما هو قال ابراهيم ابن المهدى لقيته وتعلقت به فدفعنى والفرس فأصابنى ما ترين قال فأخرجت اليه خرقا فعملتها فى جرحه وعصبته وأسقته شرابا ونام عليلا وطلعت الىّ فقالت أظنك صاحب القصة فقلت نعم فقالت لا بأس عليك ثم جددت الكرامة فأقمت عندها ثلاثا ثم قالت انى خائفة عليك من هذا الرجل لئلا يطلع على أثرك فينم بك فانج بنفسك فسألتها امهالى الى الليل نفعلت فلما دخل الليل لبست زى النساء وخرجت من

عندها فأتيت الى بيت مولاة كانت لى فلما رأتنى توجعت لى وبكت وحمدت الله على سلامتى وخرجت كأنها تريد السوق والاهتمام فى الضيافة وظننت خيرا فما شعرت الا بإسحاق بن ابراهيم الموصلى بنفسه فى خيله ورجله والمولاة معه فسلمتنى له فرأيت الموت عيانا وحملت الى المأمون فجلس مجلسا عاما وأدخلنى اليه فلما مثلت بين يديه سلمت عليه بالخلافة فقال لا سلم الله عليك ولا رعاك ولا حباك فقلت على رسلك يا أمير المؤمنين ان أولى الثار محكم فى القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناولته أيدى الاغترار بما أمد له من أسباب الرجا لم يأمن من غائلة الدهر وقد جعلك الله فوق كل ذى عفو كما جعل كل ذنب تحت عفوك فان تأخذ فبحقك وان تعف فبفضلك ثم أنشدت:

ذنبى اليك عظيم وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولا فاصفح بحلمك عنه
ان لم اكن فى فعالى من الكرام فكنه

فرفع رأسه الى فبدرته وقلت:

أذنبت ذنبا عظيما وأنت للعفو أهل
فان عفوت فمن وان جزيت فعدل

فرق لى المأمون واستروحت رواح الرحمة فى وجهه ثم أقبل على أخيه أبى إسحاق وابنه العباس وجميع من حضر فى خاصته وقال ما تقول يا أحمد فقال يا أمير المؤمنين ان قتلته وجدنا مثلك قتل مثله وان عفوت عنه لم نجد مثلك عفا عن مثله فنكس المأمون رأسه ينكث بأصبعه فى الارض ثم قال متمثلا:

قومى هم قتلوا أميم أخى فاذا رميت يصيبنى سهمى
فلئن عفوت لاعفون جدالا ولئن سطوت لأوهين عظمى

فكشفت المقنعة عن رأسى وكبرت تكبيرة عظيمة فقلت عنا والله عفى أمير المؤمنين فقال لا بأس عليك يا عم فقلت يا أمير المؤمنين ذنبى عظيم أعظم من أن اتفوه معه بعذر وعفوك أعظم من أنطق معه بشكر ولكن أقول :

ان الذى خلق المكارم حازها فى صلب آدم والإمام الشافعى
ملئت قلوب الناس منك مهابة وتظل تكلؤهم بقلب خاشع
فعفوت عمن لم يكن عن مثله عفو ولم يشفع اليك بشافع
ورحمت أطفالا كأفراخ القطا وحنين والدة بقلب جازع
رد الحياة على بعد ذهابها كرم الملك العادل المتواضع

فقال لى المأمون لا تثريب عليك اليوم قد عفوت عنك ورددت عليك ضياعك فقلت رددت مالى ولم تبخل على به وقبل ردك مالى قد رددت دمى:

نأيت عنك وقد خولتنى نعما ... هما الحياتان من الموت ومن عدم

فلو بذلت دمى أبغى رضاك به ... والمال حتى أسل النعل من قدم

ما كان ذاك سوى عارية رجعت ... اليك لو لم تعدها كنت لم تلم

وان جحدتك ما أوليت من نعم ... انى الى اللؤم أولى منك بالكرم

فقال المأمون ان من الكلام كلاما كالدر وهذا منه وامر لابراهيم بمال وخلع عليه وقال يا ابراهيم ان أبا إسحاق وأبا العباس اشارا بقتلك فقلت انهما نصحا لك يا أمير المؤمنين ولكن أبيت إلا ما أنت أهله ودفعت عنى ما خفت بما رجوت فقال المأمون قد مات حقدى عليك بحيات عذرك وعفوى عنك وأعظم من عفوى عنك انى لم أجرعك مرار امتنان النافعين ثم سجد المأمون طويلا ثم رفع رأسه وقال يا ابراهيم أتدرى لم سجدت فقلت شكرا لله الذى أظفرك بعدوك وعدو دولتك فقال ما أردت هذا ولكن شكرا لله على ما ألهمنى من العفو عن مثلك فحدثنى الآن حديثك فشرحت له صورة أمرى وما جرى لى مع الحجام والجندى والمرأة والمولاة التى أسلمتنى فأمر المأمون باحضارها وهى فى دارها تنتظر الجائزة فقال لها ما حملك على ما فعلت مع انعامه عليك فقالت رغبة فى المال فقال لها هل لك من ولد أو زوج فقالت لا فأمر بضربها مائة سوط وخلدها فى السجن ثم قال أحضروا الجندى وامرأته والمزين فأحضروا فسأل الجندى عن السبب الذى حمله على ما فعل فقال الرغبة فى المال فقال المأمون أنت أولى أن تكون حجاما من أن تكون من أوليائنا ووكل به من يلزمه الجلوس فى دكان الحجام ليتعلم الحجامة واستخدم زوجته قهرمانة فى قصره وقال هذه امرأة عاقلة أدبية تصلح للمهمات ثم قال للحجام لقد ظهر من مروءتك ما يجب معه المحافظة عليه وسلم اليه دار الجندى ودابته وخلع عليه وأثبته برزقه وزيادة ألف دينار فى كل سنة ولم يزل بخير الى أن مات.

الليلة السادسة: قال الامير بدر الدين يوسف المهمندار ابن الامير سيف الدين ابى المعالى ابن رماح المعروف بمهمندار العرب حكى لى الامير شجاع الدين محمد الشرزى متولى القاهرة فى الأيام الكاملية سنة ثلاثين وستمائة قال بينما انا عند رجل ببعض بلاد الصعيد فضيفنا وأكرمنا وكان الرجل أسمر شديد السمرة وهو شيخ كبير وحضر له اولاد حسان فيهم صفاء لون فقلنا يا فلان هؤلاء اولاد بيض وأنت شديد السمرة فقال هؤلاء امهم

فرنجية اخذتها فى أيام الملك الناصر صلاح الدين وأنا شاب نوبة حطين فقلنا وكيف أخذتها فقال لها حديث عجيب فقلت أتحفنا به فقال:

زرعت كتانا فى هذه البلدة وقلعته ونفضته فانصرف عليه خمسمائة دينار فلم يجب أكثر من ذلك فأشير على بحمله الى الشام فحملته فلم يجب أكثر من ذلك فقيل لى بعه صبرا لعله يرجع لك حق النصرة فبعت بعضه صبرا الى ستة اشهر والبعض تركته عندى واكتريت حانوتا ابيع فيه على مهل الى حين انقضاء الستة اشهر فبينما انا ابيع وقد مرت بى امرأة فرنجية زوج بعض الخيالة ونساء الفرنج يمشون فى الاسواق بلا نقاب فأتت تشترى منى كتانا فرأيت من جمالها ما أبهرنى فبعتها وسامحتها ثم انصرفت وعادت الى بعد أيام فبعتها وسامحتها أكثر من الكرة الاولى فتكررت الى عندى وعلمت أنى أحبها فقلت للعجوز التى معها انى قد تعلقت بحبها فكيف تتحيلين لى فقالت لها ذلك فقالت تروح أرواحنا الثلاثة أنا وأنت وهو فقلت لها اذا اذهبت روحى باجتماعى بها ما هو كثير وحكت لى كلاما كثيرا جرى بينهما واتفق الحال على أن أدفع لها خمسين دينارا صورية وتجىء اليه قال فوزنت خمسين دينارا صورية وسلمتها للعجوز فقالت هيئ لنا موضعك ونحن الليلة عندك قال فمضيت وجهزت ما قدرت عليه من ماكول ومشروب وشمع وحلوى وكانت دارى مطلة على البحر وكان الصيف ففرشت لى على سطح الدار وجاءت الفرنجية فأكلنا وشربنا وجن الليل فنمنا تحت السماء والقمر يضىء علينا والنجوم تنظر فى البحر فقلت فى نفسى أما تستحى من الله وأنت غريب وتحت السماء وعلى البحر وتعصى الله مع نصرانية فتستوجب عذاب النار وعذاب الدنيا اللهم انى أشهدك انى قد عففت عن هذه النصرانية فى هذه الليلة حياء منك وخوفا من عقابك ثم نمت الى الصبح فقامت فى السحر وهى غضبى ومضت ومضيت الى حانوتى فجلست فيه واذا هى قد عبرت على هى والعجوز وهى مغضبة وكأنها القمر فهلكت وقلت فى نفسى من هو أنت حتى تترك هذه الجارية أنت الجنيد أو السرى السقطى ثم لحقت العجوز وقلت ارجعى فقالت وحق المسيح ما نرجع اليك الا بمائة دينار فقلت نعم ومضيت الى حانوتى ووزنتها وجاءت الى ثانى دفعة فلحقتنى تلك الفكرة الاولى وعففت عنها وتركتها لله تعالى ثم مضت ومضيت الى موضعى ثم عبرت على وكلمتنى وكانت مستغربة وقالت وحق المسيح ما بقيت تفرح بى عندك الا بخمسمائة دينار أو تموت كمدا فارتعت لذلك وعزمت أنى أغرم ثمن الكتان جميعه وأفدى نفسى فبينما أنا كذلك والمنادى ينادى معاشر المسلمين ان الهدنة التى بيننا وبينكم قد انقضت وقد أمهلنا من هنا من المسلمين الى جمعة ليقضوا أمورهم وينصرفوا الى

بلادهم فانقطعت عنى وأخذت أنا فى تحصيل ثمن الكتان الذى لى والمصالحة على ما بقى منه وأخذت معى بضاعة حسنة وخرجت من عكا وأنا فى قلبى من الفرنجية ما فيه فوصلت الى دمشق وبعت البضاعة التى لى بأوفى ثمن لانقطاع وصولها بسبب فراغ الهدنة ومنّ الله سبحانه وتعالى على بكسب جيد وأخذت اتجر فى الجوارى عسى أن يذهب ما بقلبى من الفرنجية ولازمت التجارة فيهن فمضى على ثلاث سنين وجرى للسلطان الملك الناصر ما جرى من وقعة حطين واخذه جميع الملوك وفتحه بلاد الساحل باذن الله ـ تعالى ـ فطلب منى جارية للملك الناصر وكان عندى جارية حسنة فاشتريت له بمائة دينار فاوصلوا الى تسعين دينارا وبقيت عشرة دنانير فلم يجدوها فى الخزانة ذلك اليوم لانه أنفق الاموال جميعها فشاوروه على ذلك فقال امضوا به الى الخزانة التى فيها السبى من نساء الفرنج فخيروه فى واحدة منهن يأخذها بالعشرة دنانير التى له فأتيت الخزانة فنظرت اليها فعرفت الجارية الفرنجية غريمتى فقلت أعطونى هاتيك فأخذتها ومضيت الى خيمتى وقلت لها أتعرفيننى قالت لا فقلت أنا صاحبك التاجر فى المكان الذى جرى له معك ما جرى واخذت منى الذهب وقلت ما بقيت تبصرنى الا بخمسمائة دينار وقد أخذتك ملكا بعشرة دنانير فقالت مد يدك أنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فأسلمت وحسن إسلامها فقلت والله لا وصلت اليها الا بأمر القاضى فرحت الى ابن شداد وحكيت له ما جرى فعجب وعقد لى عليها وبانت تلك الليلة فحملت ثم دخل العسكر فأتينا الى دمشق فما كان الا شهور قلائل وأتى رسول الملك يطلب الاسارى والسبايا باتفاق وقع بين الملوك فرد من كان أسيراً من الرجال والنساء ولم يبق الا امرأة الفارس التى عندى فسألوا عنها وألحوا فى السؤال والكشف فوشى بها أنها عندى فطلبت منى وحضرت وأنا فى شدة وقد تغير لونى فقالت ما بدا لك وما الذى أصابك قلت جاء رسول الملك وأخذوا الاسارى جميعهم وطلبونى فقالت لا بأس عليك أحضرنى اليهم وأنا أعرف الذى أقول لهم قال فأخذتها وأحضرتها قدام السلطان الملك الناصر والرسول جالس عن يمينه فقلت هذه المرأة التى عندى فقال لها الملك والرسول تروحين الى بلادك أم الى زوجك فقد فك أسرك أنت وغيرك فقالت للسلطان أنا قد أسلمت وحبلت وها بطنى كما ترونه وما بقيت الفرنج تنتفع بى فقال لها الرسول يخيرها أيما أحب اليك هذا المسلم أم زوجك الفارس فلان فقالت له كما قالت للسلطان فقال الرسول لمن معه من الفرنج اسمعوا كلامها ثم قال لى الرسول خذ امرأتك وامض فوليت بها وقد أرسل الى عاجلا وقال ان أمها أرسلت لها

معى وديعة وقالت ان ابنتى أسيرة وهى عريانة شعثة واشتهى أن ترسل لها هذا الجمدان وتسلمه لها قال فتسلمت الجمدان ومضينا الى الدار ففتحته فوجدت قماشها بعينه وقد صرته لها أمها ووجدت الصرتين الذهب الخمسين دينار والمائة دينارا كما هما بربطتى لم يتغيرا وهؤلاء الاولاد منها وهى تعيش وهى التى عملت هذا الطعام.

الليلة السابعة: قصة أريب بنت إسحاق زوج عبد الله بن سلام القرشى وكان عبد الله بن سلام هذا واليا لمعاوية على العراق وكانت أريب هذه من أجمل النساء وقتها وأحسنهن أدبا وأكثرهن مالا وكان يزيد بن معاوية قد سمع بجمالها وبما هى عليه من الأدب وحسن الخلق والخلق ففتن بها فلما عيل صبره استهاج فى ذلك مع أحد خصيان معاوية وكان ذلك الخصى خاصا بمعاوية اسمه رفيف فذكر ذلك رفيف لمعاوية وذكر شغفه بها وأنه ضاق ذرعه بأمرها فبعث معاوية الى يزيد فاستفسره عن أمره فبعث له شأنه فقال معاوية مهلا يا يزيد قال له علام تأمرنى بالمهل وقد انقطع منها الامل قال له معاوية فأين حجاك ومروءتك فقال له يزيد قد عيل الحجا ونفد الصبر ولو كان أحد ينتفع به من الهوى لكان أولى الناس بالصبر عليه داود حين ابتلى به قال له اكتم يا بنى أمرك فان البوح به غير نافعك والله بالغ أمره فيك ولا بد مما هو كائن وكانت أريب بنت إسحاق مثلا فى أهل زمانها لجمالها وتمام كمالها وشرفها وكثرة مالها فأخذ معاوية فى الحيلة حتى يبلغ يزيد رضاه فيها فكتب معاوية الى عبد الله بن سلام وكان استعمله على العراق أن أقبل حين تنظر كتابى لأمر فيه حظك ان شاء الله تعالى ولا تتأخر عنه وأجد السير وكان عند معاوية يومئذ بالشام أبو هريرة وأبو الدرداء صاحبا رسول الله ﷺ فلما قدم عليه عبد الله بن سلام الشام أمر معاوية أن ينزل منزلا قد هيأه وأعد فيه نزله ثم قال لابى هريرة وأبى الدرداء إن الله قد قسم بين عباده نعما أوجب عليهم شكرها وحتم عليهم حفظها فحبانى منها ـ عز وجل ـ بأتم الشرف وأفضل الذكر واوسع على رزقه وجعلنى راعى خلقه وأمينه على بلاده والحاكم فى أمر عباده ليبلونى أأشكر أم أكفر وأول ما ينبغى للمرء أن يتفقده وينظر فيه من استرعاه الله أمره ومن لا غناية عنه وقد بلغت لى ابنة أريد أناكحها وأنظر فى تبجيل من يباعلها لعل من يكون بعدى يقتدى بى فى هديتى ويتبع فيه أثرى فانه قد يلى هذا الملك بعدى من يغلب عليه زهو الشيطان ويزينه الى تعطيل بناتهم ولا يرون لهن كفؤا ولا نظيرا وقد رضيت لها عبد الله بن سلام القرشى لدينه وشرفه وفضله ومروءته وأدبه، فقال أبو هريرة وأبو الدرداء: إن أولى الناس برعاية نعم الله وشكرها وطلب مرضاته فيما خصه منها لأنت صاحب

رسول الله وكاتبه وصهره وقال معاوية فاذكروا ذلك عنى وقد كنت جعلت لها فى نفسها
شورى غير أنى لأرجو ألا تخرج من رأيى - ان شاء الله تعالى - فخرجا من عنده متوجهين
الى منزل عبد الله بن سلام بالذى قال لهما معاوية ثم دخل معاوية على ابنته فقال لها اذا دخل
عليك أبو الدرداء وأبو هريرة فعرضا عليك أمر عبد الله بن سلام وانكاحى اياك منه
فاحرصى على المسارعة الى هواى وقولى لهما عبد الله بن سلام كفؤ كريم وقريب حميم
غير أن تحته أريب بنت إسحاق وأنا خائفة أن يعرض لى من الغيرة ما يعرض للنساء فأنال
منه ما يسخط الله فيه فيعذبنى عليه ولست بفاعلة حتى يفارقها فلما ذكر ذلك أبو هريرة وأبو
الدرداء لعبد الله بن سلام وأعلماه بالذى أمرهما معاوية فردهما الى معاوية خاطبين منه فقال
قد تعلمان رضاى به وحرصى عليه وقد كنت أعلمتكما الذى جعلت لها فى نفسى من
الشورى فادخلا عليها واعرضا الذى رأيت لها عليها فدخلا عليها وأعلماها ذلك وأعلماها
بالذى ارتضاه أبوها فقالت كالذى قال أبوها فأعلما عبد الله بن سلام بذلك فلما ظن انه لا
يمنعها منه الا افتراق أريب أنشدهما على طلاقها وبعث بهما اليها خاطبين وأعلما معاوية
الذى كان من فراق عبد الله بن سلام امرأته طالبا رضاها فأظهر معاوية كراهيته لفعله وقال
لهما ما استحسن له طلاق امرأته ولا أجبته فانصرفا فى عافية ثم عودا الينا فيها ونأخذ ان شاء
الله رضاها وكتب الى يزيد ابنه يعلمه بما كان من طلاق عبد الله بن سلام لأريب بنت
إسحاق فلما عاد أبو هريرة وأبو الدرداء الى معاوية أمرهما بالدخول على ابنته وسؤالها عن
رضاها تبريا من الامر ونظرا فى القدر ويقول لم يكن لى أن أكرهها وقد جعلت لها الشورى
فى نفسها فدخلا وأعلماها بطلاق عبد الله بن سلام امرأته ليسراها وذكرا من فضله وتمام
مروءته وكريم محمدته فقالت جف القلم بما هو كائن وانه فى قريش لرفيع القدر وقد
تعرفان ان التزويج جده جد وهزله جد والاناة فى الامور ممن لا يخاف فيها من المحذور
فان الامور اذا جاءت خلاف الهوى بعد التأنى فيها كان المرء فيها بحسن العذر خليقا
وبالصبر عليها حقيقا وانى سائلة عنه حتى أعرف دخيلة خبره ويصح لى بالذى أريد علمه
من أمره وان كنت أعلم أن الاختيار لاحد فيما هو كائن ومعلمتكما بالذى يرينيه الله فى أمره
ولا قوة الا بالله قالا وفقك الله وخار لك ثم انصرفا عنها فلما أعلماه بقولها أنشأ يقول فان
يك صدر هذا اليوم ولى فان غدا لناظره قريب وتحدث الناس بالذى جرى من طلاق عبد
الله بن سلام امرأته وخطبته ابنة معاوية وقالوا لم يطلق حتى فرغ من طلبه له الذى كان من
بغيته واستحث عبد الله أبا هريرة وأبا الدرداء فاتياها فقالا لها اصنعى ما أنت صانعته

واستخيرى الله فانه يهدى من استهداه قالت أرجو والحمد لله أن يكون الله قد خار فانه لا يكل الى غيره من توكل عليه وقد اختبرت أمره وسألت عنه فوجدته غير ملائم ولا موافق لما أريد لنفسى مع اختلاف من استشرته فيه فمنهم الناهى عنه والآمر به واختلافهم أول ما كرهت فلما أبلغاه كلامها علم أنه مخدوع فان المرء وان كمل له حلمه واجتمع له عقله واستبد رأيه ليس يدافع عن نفسه قدراً برأى ولا كيد ولعل ما أسروا به واستحلوا به لا يدوم لهم سروره ولا يصرف عنهم محذوره قال وذاع أمره وفشا فى الناس وقالوا خدعه معاوية حتى طلق امرأته وانما أرادها لابنه بئس ما صنع فلما بلغ ذلك معاوية قال لعمرى ما خدعته فلما انقضت اقراؤها وجه معاوية أبو الدرداء الى العراق خاطبا لها على ابنه يزيد فخرج حتى قدمها وبها يومئذ الحسين بن على بن أبى طالب - ﷺ - فقال أبو الدرداء اذ قدم العراق ما ينبغى لذى نهى أن يبدأ بشىء ويؤثره على مهم أموره قبل زيارة الحسين سيد شباب أهل الجنة فاذا دخلت موضعا هو فيه وأديت حقه والسلام عليه انقلبت الى ما جئت اليه فقصد الحسين فلما رآه الحسين - عليه السلام - قام اليه وصافحه اجلالا لصحبته من جده ﷺ ولموضعه من الاسلام وقال له ما أتى بك يا أبا الدرداء قال وجهنى معاوية خاطبا على ابنه يزيد أريب بنت إسحاق فرأيت على حقا أن لا أبدأ بشىء قبل السلام عليك فشكر له الحسين ذلك وأثنى عليه وقال لقد كنت ذكرت نكاحها وأردت الارسال اليها اذا انقضت اقراؤها فلم يمنعنى من ذلك الا تخير مثلك فقد أتى الله بك فاخطب - رحمك الله - على وعليه ليجرى من اختاره الله لها وهى أمانة فى عنقك حتى تؤديها اليها وأعطها من المهر مثل ما بذل لها معاوية عن ابنه فقال أفعل - ان شاء الله - فلما دخل عليها قال أيتها المرأة ان الله خلق الامور بقدرته وكونها بعزته فجعل لكل أمر قدرا ولكل قدر سببا فليس لاحد عن قدر الله مستخلص ولا للخروج عن علمه مستناص فكان ما سبق لك وقدر عليك من فراق عبد الله بن سلام اياك ولعل ذلك لا يعيرك ويجعل الله فيك خيرا كثيرا وقد خطبك أمير هذه الامة وابن ملكها وولى عهده والخليفة من بعده يزيد بن معاوية والحسين ابن بنت رسول الله ﷺ وابن أول من أقر به من أمته وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة وقد بلغك سناهما وفضلهما جئتك خاطبا عليهما فاختارى أيهما شئت فسكتت طويلا ثم قالت يا أبا الدرداء لو كان هذا الامر جاءنى وأنت غائب لأشخصت فيه الرسل اليك واتبعت فيه رأيك ولم اقتطعه دونك فاما اذا كنت أنت المرسل فيه فقد فوضت أمرى بعد الله اليك وجعلته فى يديك فاختر لى ارضاهما لربك والله شاهد عليك فاقض فى قصدى بالتحرى ولا يصدنك عن

ذلك اتباع الهوى فليس أمرهما عليك خفيا ولا أنت عما طوقتك غبيا قال أبو الدرداء أيتها المرأة انما على اعلامك وعليك الاختيار لنفسك فقالت عفا الله عنك انما أنا بنت أخيك ومن لا غنا لها عنك ولا يمنعك رهبة أحد من قول الحق فيما طوقتك فقد وجب عليك أداء الامانة فيما حملتك والله خير من روعى وحنف انه بنا خبير لطيف فلما لم يجد بدا من القول والاستشارة قال يا بنية ابن بنت رسول الله ﷺ أحب الىّ لك وأرضى عندى والله أعلم بخيرهما لك وقد رأيت رسول الله ﷺ واضعا شفتيه على شفتى الحسين فضعى شفتيك حيث وضع رسول الله ﷺ شفتيه قالت قد اخترت ورضيت فتزوجها الحسين بن على ـ عليهما السلام ـ فساق لها مهرا عظيما وبلغ معاوية الذى كان من فعل أبى الدرداء فى ذلك نكاح الحسين إياها فتعاظمه جدا ولامه شديدا وقال من يرسل ذا بله وعمى يركب خلاف ما يهوى، وكان عبد الله بن سلام قد استودعها قبل فراقه إياها بديرات مملوءة ذهبا وكان ذلك أعظم ماله لديه وأحبه اليه وقد كان معاوية أطرحه وقطع عنه جميع رواتبه عنده لسوء قوله وتهمته انه خدعه فلم يزل يجفوه حتى عيل صبره وقل ما فى يده ولام نفسه على المقام لديه فرجع الى العراق وهو يذكر ماله الذى استودعه اياها ولا يدرى كيف يصنع فيه واين يصل اليه وهو يتوقع جحودها لسوء فعله بها ولأنه طلقها على غير شىء أنكره عليها فلما قدم العراق لقى الحسين فسلم عليه ثم قال له قد عرفت ما كان من خبرى وخبر أريب وكنت قبل فراقى اياها قد استودعتها مالا عظيما وكان الذى كان ولم أقبضه ووالله ما انكرت منها فى طول صحبتها فتيلا ولا أظن بها الا جميلا فذاكرها أمرى واحضضها على رد مالى على فان الله يحسن عليه ذكرك ويحرك به أجرك فسكت عنه فلما انصرف الحسين الى أهله قال لها قدم عبد الله بن سلام وهو يحسن الينا عليك ويحمل النشر عنك فى حسن صحبتك وما أنسه قديما من أمانتك فسرنى ذلك وأعجبنى وذكر أنه كان استودعك مالا فأد اليه أمانته وردى عليه ماله فانه لم يقل الا صدقا ولم يطلب الا حقا قالت صدق استودعنى مالا لا أدرى ما هو وإنه لمطبوع عليه بخاتمه ما حول منه شىء الى يومه وها هو ذا فادفعه إليه بطابعه فأثنى عليها الحسين خيرا وقال الا أدخله عليك حتى تبرئى اليه منه كما دفعه اليك ثم لقى عبد الله فقال ما انكرت مالك وزعمت أنه كما دفعته اليها بطابعك فادخل يا هذا اليها وتوف مالك منها قال عبد الله أوتأمر من يدفعه الى قال لا حتى تقبضه منها كما دفعته اليها وتبرئها منه اذا أدته اليك فلما دخل عليها قال لها الحسين هذا عبد الله بن سلام قد جاء يطلب وديعته فأد اليه أمانته فاخرجت اليه البدر فوضعتها بين يديه وقالت هذا مالك فشكر

وأثنى وخرج الحسين عنهما وفض عبد الله خواتم بدره وحثى لها من ذلك وقال خذى فهذا قليل منى فاستعبرا جميعا حتى علت أصواتهما بالبكاء أسفا على ما ابتليا به فدخل الحسين عليهما وقد رق لهما للذى سمع منهما فقال اشهد انها طالق ثلاثا اللهم قد تعلم أنى لم استنكحها رغبة فى مالها ولا جمالها ولكنى أردت احلالها لبعلها فطلقها ولم يأخذ شيئا مما ساق لها فى مهرها فسألها عبد الله أن يصرف للحسين ما ساق لها فأجابته شكرا لما صنعه بهما فلم يقبله الحسين وقال الذى أرجوه من الثواب خير لى فلما انقضت اقراؤها تزوجها عبد الله بن سلام وبقيا زوجين متصافيين الى أن فرق بينهما الموت وحرمها الله يزيد بن معاوية. نقلتها من تاريخ ابن بدرون .

الباب الحادى والعشرون
فى الشعراء المجيدين

وهو مقدمة ونتيجة:

أقول: لا بد من مقدمة ينتفع بها الطالب لهذا العلم لئلا يخلو كتابنا من ذلك.

الشعر: قول موزون مقفى بالقصد يدل على معنى والمعنى للشعر بمنزلة المادة واللفظ بمنزلة الصورة وهو يشتمل على أربعة أشياء لفظ ومعنى ووزن وقافية وتهذيبه أن يكون اللفظ سمحا سهل المخارج حلوا عذبا وتهذيب الوزن أن يكون حسنا تقبله النفس والغريزة غير منكسر ولا متزحف وتهذيب القافية أن تكون سلسلة المخارج مألوفة فإن القوافى حوافز الشعر وأن يقصد الكلام الجزل دول الرذل ولا يعمل نظما ولا نثرا عند الملل فإن الكثير معه قليل والخواطر ينابيع وإذا رفق بها جمعت وإذا عنف عليها مرجت وليترنم بالشعر وقت عمله فإنه يعين عليه وقد يتخيل الشاعر الشعر الجيد فيمكنه مرة ولا يمكنه أخرى وإياك وتعقيد المعانى واجعل المعنى الشريف فى اللفظ اللطيف لئلا يتلف أحدهما الآخر ومتى عصى الشعر فاتركه ومتى طاوعك فعاوده وروح الخاطر إذا كَل واعمل فى أحب المعانى إليك وفى كل ما يوافقه طبعك فالنفوس تعطى على الرغبة ولا تعطى على الإكراه واعمل الأبيات متفرقة على ما يجود به الخاطر ثم انظمها فى الآخر وحصل المبدأ والمقطع والخروج فهو أصعب ما فى القصيدة فإذا فعلته سهل عليك واشمرها أولا وهذبها آخرا فقد قيل عن زهير إنه كان يعمل القصيدة فى شهرين ويهذبها فى حول ولذلك سمى شعره الحولى المنقح.

قال الخوارزمى من روى حوليات زهير واعتذارات النابغة وأهاجى الحطيئة وهاشميات الكميت وقلائص جرير وخمريات أبى نواس وتشبيهات ابن المعتز وزهريات أبى العتاهية ومراثى أبى تمام ومدايح البحترى وروضيات الصنوبرى ولطائف كشاجم ولم يخرج إلى الشعر فلا شب الله قرنه.

وإذا نثرت منظوما فغير قوافى شعره عن قرائن سجعه وإذا سرقت معنى فغير الوزن والقافية ليخفى ذلك وإذا أخذت شعرا فزد على معناه وانقص من لفظه واحترز مما يطعن به

عليك فحينئذ تكون أحق من قائله به وأن لا يكاتب العامة بكلام الخاصة ولا بالعكس وأكثر من حفظ النظم والنثر فعلى قدر ما يحفظ منه يقوى فيه واعلم أن الشعر يسخى البخيل ويشجع الجبان ويفرج الهموم ويرضى الغضبان وكذلك قالوا الشعر يعد من السحر وقال النبى ﷺ: «إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا» وقال الشافعى فى كتاب الام: والشعر كلام كالكلام فحسنه كحسنه وقبيحه كقبيحه وفضله على سائر الكلام أنه سائر فى الناس يبقى على الزمان فينظر فيه وإن كان حسنا كان كغيره من الكلام الحسن. انتهى.

وقال الشيخ برهان الدين القيراطى فى خطبة ديوانه ويكفى من تفضيله أن النبى ﷺ استنشد بعض الصحابة من شعر أمية فأنشده مائة قافية، وكانت الصدِّيقة تحفظ للبيد ألف بيت وافية، وكان الشعبى يقول لو شئت أن املى عليكم من انشادى شهراً لا أعيد بيتا لفعلت، وكان الاصمعى يحفظ اثنى عشر ألف ارجوزة، وما زال السلف يحفظون الشعر قديما ويتخذونه فى الخلوات نديما وينشدونه فى مواطن المؤانسة ويوردون دقائقه فى ساعات المجالسة، ولو اوردنا ما ورد فى فضله من الآثار المسندة والأخبار الممهدة لوقف الناظر منها على حجج قوية ومحجة ضوية، ولقد كان جماعة من العلماء الراسخين والأئمة الورعين لهم فى صناعة الشعر الغاية وانتهوا فى الإجادة فيه إلى النهاية يعرف ذلك من وقف على تراجمهم وأحصاها وطالع أخبارهم واستقصاها.

وحديث «احثوا فى وجوه المداحين التراب» فالمراد به الغلو والاطراء واستقباح المدح المفرط كلاما وشعرا ونظما ونثرا ولا يختص ذلك بالشعر وحده لما يخشى من افتتان سامعه عنده.

وقال أبو بكر الهذلى: قال لى الشعبى أتحب الشعر قلت نعم قال إنما تحبه فحول الرجال ويكرهه مؤنثوهم ثم إن الناظمين لارواح الالية أفراد والظافرين بفرائده ذوو انفراد والسالكين للمناهج الفاصلية أضمرتهم البلاد والمقتفين لمنار السراج والمتحليين بحلية الجمال قلت منهم الاعداد والمؤلفين لعقودها المتواتر مدحها أجادوا بما اذعانه اغماد وجهال ما لهم بالاشعار اشعار راموا الوصول إلى معانيه اللطيفة بطباع كثيفة وحاولوا أسبابه الخفيفة بنفوس ثقيلة وأسبابه الثقيلة بعقول خفيفة لا يظفر أحد منهم بأبيات أوتاده وإن كان فى عتوه ذو الاوتاد ولا يتجملون من ملابسه بما يسترهم وإن تعصبوا أو نقبوا فى البلاد ولا يجيبون من ألفاظهم اليابسة الا بما يقال لهم إذا قطعوه جابوا الصخر بالواد فيقال لمجيدهم إذا أتى بلفظ وزنه وأخلاه من المعانى الحسنة إذا كنت لا تدرى سوى الوزن

وحده فقل أنا وزان وما أنا شاعر ثم إن منهم من يظفر بمعنى ولكن يقلبه تركيبا ويركبه مقلوبا ويأتى بجمل غير مفيدة وقد قلت فى ذلك من قصيدة:

وشاعر بالمعانى لا شعور له   مركب الجهل يبدى سوء تركيب
موكل بمعانيه يحرسها   فما يركب معنى غير مقلوب

فما أولاه بأن يركب على نفسه مقلوبا ويضرب بأذنه على سوء الأدب تأديبا. انتهى كلام القاضى برهان الدين.

وقال الشيخ والامام العالم المفنن النحوى العروضى القاضى زين الدين عمر بن الوردى فى خطبة الكلام على مائة غلام ولعمرى ما أنصفنى من سابى الظن أو قال عنى كيف رضى مع درجة العلم والفتوى بهذا الفن فالصحابة كانوا ينظمون ويشرون ونعوذ بالله من قوم لا يشعرون.

وقال أبو بكر الخوارزمى فى مدحهم ما ظنك بقوم الاقتصاد محمود إلا منهم والكذب مذموم الا فيهم إذا ذموا أثبتوا وإذا مدحوا سلبوا وإذا رضوا رفعوا الوضيع وإذا غضبوا وضعوا الرفيع وإذا افتروا على أنفسهم بالكبائر لم يلزمهم حد ولم تمتد اليهم يد غنيهم لا يصادر وفقيرهم لا يحقر وشيخهم يوقر وشابهم لا يستصغر وسهامهم تنفذ فى الاعراض إذا بثت سهامهم عند الاعراض وشهادتهم مقبولة وإن لم ينطق بها سجل ولم يشهد عليها عدل سرقتهم مغفورة وإن جاوزت ربع دينار وبلغت ألف قنطار إن باعوا المغشوش لم يرد عليهم وإن صادروا الصديق لم يستوحش منهم بل ما ظنك بقوم اسمهم ناطق بالفضل واسم صناعتهم مشتق من العقل هم أمراء الكلام يقصرون طويله ويقصرون مديده ويخففون ثقيله.

وقال الحسن بن سهل: لا تكسد صناعة الشعر إلا فى شر زمان وأخس سلطان.

ومن حيلهم اللطيفة ما ذكره أبو الفتح كشاجم فى كتابه المصائد والمطارد وهو ان بعض الملوك كان كثير الاشتغال بالصيد منهمكا فيه وكان بعض الشعراء قصده فتعذر ما أمله وحال بينه وبينه الحجاب لكثرة الفه بالصيد فعمد الشاعر إلى رقاع لطاف وكتب فيها ما قاله من الشعر فى مديحه وصاد عنده من الظبا والارانب والثعالب وشد تلك الرقاع فى أذناب بعضها وآذان بعض وراعى خروجه إلى الصيد فلما خرج كمن له فى مظانه ثم أطلقها فلما ظفر بها ورأى تلك الرقاع استبشر وزاد فى استظراف الرجل واستلطفه وزاد فى رعى ذمامه وأمر بطلبه فأحضر ونال منه خيرا كثيرا.

وقريب منها: سأل رجل فخر الملك وزير بنى بويه حاجة وأمله فلم يعطه شيئًا فمضى الرجل إلى القاضى واستدعى على بن نباتة الشاعر فلما جاءه الرسول قال والله ما لأحد على دين ولا بينى وبين أحد معاملة ولا محاكمة فمن خصمى أحضره حتى أرضيه فلما جاء الرجل قال ما حقك حتى أوفيك قال له أنت قلت فى شعرك حيث مدحت فخر الملك بقولك:

لكل فتى قرين حين يسمو وفخر الملك ليس له قرين
أنخ بجنابه وانزل عليه على حكم الرجا وأنا الضمين

فأنت قد ضمت لى ونزلت عليه فلم يفعل والضمين غارم فما أعطانى شيئا فقال أمهلنى حتى أصل إليه فلما دخل على فخر الملك أخبره بالقصة فقال له وكم أملت منه فقال مائة دينار فقال ادفعوها إليه ثم قال لابن نباتة إذا مدحتنى فلا تضمن عنى (توفى ابن نباتة المذكور سنة خمس وأربعمائة، ومولده سنة سبع وعشرين وثلاثمائة) وقال فخر الترك أيضمر المجنوى يمدح السلطان الملك الصالح أيوب ابن السلطان الملك الكامل محمد بن الملك العادل ـ تغمدهم الله برحمته ـ ويذكر بنيانه للجزيرة المسماة بالروضة وجلوسه بالقياس وأولها:

الروض مقتبل الشبيبة مؤنق خضل يكاد عصاره يتدفق

وقد ذكرت اوائلها فى باب الروضات والبساتين ثم ذكرت منها الخمريات إلى مبتدأ هذه الأبيات:

ايه مديحى لانفصال قصيدة يوم الرهان ولا محولك ضيق
هذا مقام الملك حيث تقول ما تهوى ونطيب كيف شئت فتصدق
فى حيث لأشرف الصفات بمعوذ فيه ولا باب المدايح مغلق
ملك يلوذ الدين منه بمعقل أسس سطاه سوره والخندق
لو ان سر الملك فيه مخنف قامت شمائله عليه تنطق
هدأت بسيرته الرعية واغتدى قلب الحسود من المهابة يخفق
فالدين بعد تفرق متجمع والكفر بعد تجمع متفرق
الصالح الملك الذى آياته عقد به جيد الزمان مطوق
عرق الرعية بمن دولته التى فيهم تأكد عهدها والموثق
جمعت كما اقترح الرجاء إلى الغنى امنا فقد رزقوا الذى لم يرزقوا

فالله نحمد ثم أيوب الذى أمن الغنى به واثرى المملق
تظل بهم عداته بسنائه عشقا وقد الرمح مما يعشق
فبضمه ضم الحبيب قلوبها يوم الوغى وهو العدو والازرق
آيات ملكك معجزات كلها ومدى اهتمامك غاية لا يلحق
شيدت أبنية تركت حديثها مثلا يغرب ذكره ويشرق
من كل شاهقة تظل تعجبا من هول مطلعها الكواكب تسهق
ليس الرخام ملونا فكأنه روض يفوقه الربيع المغدق
واحتال فى الذهب الصقيل شفوفه فكأنه شفق الاصيل المشرق
يا حسنها والنيل مكتنف بها كالسطر مشتمل عليه مهرق
فكأنما طرف إليه ناظر وكأنه جفن عليه مطبق
وافاه مصطفقا عليه موجه فكأنما هو للسرور مصفق
وتجاذبت أيدى الرياح رداءه عنه فظل رداؤه يتمزق
وسرى النسيم وراهن برفقه فرقى الذى عذب الرياح يمزق
تلك المنازل لا حديث يفترى عما سمعت ولا العراق وجلق
لله يوم كان فضلك باهرا فيه ومنك جماله والرونق
يوم تحلى الدهر منه برونق لما غدا المقياس وهو مخلق
هو ثالث العيدين إلا أنه للهو ليس على العبادة يطلق
جمعت لمشهده خلائق غادرت فيه رحيب البر وهو مضيق
وعلا عباب البحر من سباحه أمم يغص بها الفضاء ويشرق
كادت تبين لهم على صفحاته طرق ولكن يعبقون وترتق
لم يمش مركوب بهم فنفوسهم حشوا النحا كما تحث الانيق
حفت جسومهم لفرط صبابة هزت اليك فما خشوا آن يغرقوا
وفدوا إليك مموهين بأخذ ما تعطى وأكثر سؤلهم أن يرمقوا
متجردين عن المخيط لأنهم حجاج بيتك غير أن لم يحلقوا
طافوا به سبعا على وجناتهم سعيا وأرخى ستره فتعلقوا
والناس شاخصة إليك عيونهم كل يحدد طرفه ويحدق
ظمئت نفوسهم إليك فلم يكن صدر يقربه فؤاد شيق

متطلعين كما تطلع صائم ليرى هلال العيد ليلة يرمق
حتى إذا قضيت مناسك كعبة المقـ ـياس وهى لكم عوائد سبق
وشكرت ربك فى الزيادة طامعا ولشاكر النعماء المزيد محقق
ومددت للتخليق أكرم راحة أضحى الخلوف بطيبها يتخلق
أقبلت تنظرك العيون فتنثنى حسرى وتلحظك القلوب فتطرق
تمشى الهوينا قد علتك سكينة كادت قلوب القوم منها تصفق
متتوجًا تاج الجلالة لابسا حلل الوقار وأنت فيها أليق
وقد امتطى يمنى يديك مهندا غصنا يروق النصر منه يبرق
حتى انتهيت إلى مقر كرامة بالنيرات مزخرف ومنمق
فجلست حيث جلست منه بزينة شرفا وطاف بك الملوك وأحدقوا
كل يغض من المهابة طرفه فتراه وهو لغير فكر مطرق
والنيل مضطرب الغوارب مزبد صب إليك فؤاده متشوق
لو يستطيع سعى فقيل راحة هو فى السماح بخلقها يتخلق
فرأيت منك ومنه تجرى رحمة يتبارزان كلاهما يتدفق
أطعمتهم لما سقى فعليكما رزق العباد كلاكما يسترزق
لكن بينكما على ما فيكما من نسبة فى الجود فرقا يفرق
تحصى الأصابع جوده لحسابها لكن حساب يداك ليس يحقق
ويفيض ذا فى كل عام مرة وبحار جودك كل حين يدفق
ويخص ذا قوما وجودك يستوى فيه الأنام مغرب ومشرق
ونداك لا منّ يكدره وذا يمنن فهو لأجل ذاك مريق
لما غدا المقياس مقسم راحة يحيى الرعية فيضها المتدفق
أكبرت أن تعلو الملابس عطفه فكسوته أنوار شمس تشرق
انسانه خلقا جديدا ما رأى راء له شبها ولا هو مخلق
حرم الخلافة حله من ربه ملك بمقلته الخلائق ترمق
ذو معنيين فللتمنع معقل صعب المرام وللتمتع جوسق
أخذ الوقار عن المشيب وربه لكن عليه للشبيبة رونق
إيوان كسرى حيث شئت رأيته منه وأدنى ما هناك خورنق
حصن تمرد صنعه لا مارد وعلا فعز مثاله لا الابلق

دغتت به هوج الرياح فما جرت ... فى كـرة الا بـقلب يخـفق
وكـأنمـا هـو النجـوم ملجج ... وكـأنمـا هو فـ النجـوم محلق
هذا الذى أعـيـا الملوك وجـوده ... من بعد ـا حاموا عليه وحلقوا
أدركت بالتـمكين مـا لـم يدركـوا ... ورزقت بالتـوفـيق مـا لـم برزقـوا
فانـقض وواترهم فالقضاء مـسدد ... والسـعـد مكتنف وأنت مـوفق

وقال شرف الدين أبو الطيب أحمد بن محمد بن أبى الوفا الموصلى الشهير بابن الخلاوى (مولده سنة ثلاث وستمائة، ووفاته سنة ست وخمسين وستمائة) يهنئ الملك الرحيم صاحب الموصل بدار بناها:

يا دار نـال العـلا والـجـد يأتـيك ... حـاشـاك مـمـا تمنيـه أعـاديك
عـدنا إليك على رغم العـداة فكم ... بتنـا نحث الأغـانى فى مـعـانيك
وكم جلونا عـروس الراح مشرقـة ... وكم خلونا بمن نخـتـاره فـيك
أصـبـحت بالـعـين للـذات منزلة ... فكل عـين لمن عـداك تـفـديك

وقال الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة يهنئ ببناء دار:

ودار علت قـدرا على الدور مثلمـا ... عـلا ربهـا بالمكرمـات على الورى
مطابقة الاوصاف أمـا نسيـمـهـا ... فـصح وأمـا مـاؤها فـتـكسـرا
تكرر فـيـهـا النبت دهـنا وروضـة ... فـالله مـا أحـلا نبـاتا مكررا
وشـيـد هارب الفـضـائل والندى ... فـيـا حـبـذا دار القـراءة والـقـرا
تذكـره دار النعـيـم بطيـبـهـا ... فـيـسعى لجنات الـنعيم كـمـا ترى
لقد زادها فى الحـن يوسف فاغتدت ... تبـاع بمـرآها الـقلوب ونشـتـرا

والمليح فى هذا المعنى قول أسجع السلمى:

قـصـر عليـه تحـيـة وسـلام ... خلعت عليـه جـمـالهـا الأيام
أجرى الإمـام عليه نـهرا منعـمـا ... أعطى الـقـيـاد ومـا عليـه زمـام

ومنها فى المديح وأجاد:

وعلى عـدوك يا بن عم مـحـمـد ... رصـدان ضـوء الصـبح والإظلام
فـاذا تنبـه رعـتـه وإذا غـفـا ... سلت عـليـه سـيـوفك الأحـلام

قلت: الشيء بالشيء يذكر وما أحسن ما ضمن هذه الابيات الشيخ برهان الدين القيراطى رحمة الله عليه وقال:

ومـشـرف ان زاد تشـريفـا ... فـقد خلعت عليـه جمـالهـا الأيام

هو جـامـع للحـسـن الا أنه ... قـصـر عليـه تحيـة وسـلام
وعلى العـدوى من نقشـه وطروسه ... رصـدان ضـوء الصـبح والإظلام

وقال على بن الجهم ـ رحمة الله عليه:

وفـيـه ملك كـأن النجـو ... م يقـضى إليـهـا بأسـرارها
تخـر الملوك لهـا سـجـدا ... إذا مـا تجلت لأبصـارهـا
وفـوارة نـارهـا فـى السـ ... ـمـاء فليست تقـصـر عن نارها
ترد عـلى الـمـزن مـا أنـزلت ... علـى الارض من صـور أمطـارها

نقلت من كـتاب رفع الحـجب المنشـورة على محـاسن المقـصورة من الجـزء الأول تأليف العلامة قاضى الجـماعة بحظيرة غرناطة الشريف المرحـوم والخطيب بها أبو القاسم مـحمـد ابن أحمـد بن محـمد الحـسينى ـ رحـمه الله تـعالى ـ وهذا التـأليف من العجـائب المختـرعة ألفه شرحا لمقصورة الإمام الاوحد أبى الحـسن حازم بن محمـد بن حسين بن حازم الانصارى العرطاجى تغمده الله بالرحمة.

قلت: ذكر العـلامة لسان الدين مـحمد بن الخطيـب فى تاريخه المـسـمى بالإحاطة أن مولد الشريف الحسينى سنة سبع وتسعين وستمائة، ووفاته سنة ستين وسبعمائة.

قال الشـارح ويتعلق بذكر الهالة ما ذكره أبو عبد الله بكر بن عباس كاتب المنصور وأبى يوسف يعـقـوب قال كـان لأبى بكر بن مـجير عـادة على المنـصور فى كل سنـة فصـادف المنصـور فى إحدى وفـادات فراغـه من أحـداث المقـصورة التـى كان أحـداثها بجـامعـه المتصل بقصره فى حضرة مراكش وكانت قد وضعت على حركات هندسية ترفع لخروجه وتخفض لـدخوله وكان جـميع من بباب المنصور يومـئذ من الشـعراء والادباء قـد نظموا أشعاراً أنشدوه إياها فى ذلك فلم يزيدوا على شكره وتجرئته على الخير فيما جدد من معالم الدين وآثاره ولـم يكن فيهم من تصـدى إلى وصف الحال حتى قام أبو بكر بن مجير فأنشـده قصيدته التى أولها:

أعلمـتنى القى عـصـا اليـمـا ... ر فى بـلدة لبـسـت بـدار قـرار

واستمر فيها حتى ألم بذكر المقصورة فقال يصفها:

طوراً تكون بـمن حـوتـه مـحـيطة ... وكـأنهـا سـور من الأسـوار
وتكـون طـورا عـنهـم نجـيـة ... فكـأنهـا سـر من الأسـرار
وكـأنمـا علمـت مـقـادير الورى ... فـتـصـرفـت لهم على مـقـدار
فـإذا أحـست بالإمـام يـزورها ... فى قـومـه قـامت إلـى الزوار

تبدو فتبدو ثم تخفى بعده ... كتكون الهالات بالأقمار

فطرب المنصور لسماعها وارتاح لاختراعها.

ومن لطيف بداية الشعر بحضرة ملوكهم ما ذكره القاضى شهاب الدين بن فضل الله فى كتابه مسالك الأبصار فى ترجمة مجير الدين ابن تميم.

حكى أن الملك المنصور، استدعاه فى ليلة غفل رقيبها وحضر ربيبها وسحبت من سود الذوائب ظفائرها وسجنت من بيض الأيام ضرائرها إلى مجلس مزخرف وفواكه لم تخرق وأمامه جدول قد خر ماؤه فتكسر وان عليه كل بارق وتحسر والكئوس دائره والشموس فى أيدى البدو سائرة فلما رأى الجدول وقد أصابته من العين نظرة فتعثر وسقط عقد لؤلؤه وتنثر نظر إليه وقال ـ رحمة الله عليه:

يا حسنه من جدول متدفق ... يلهى برونق حسنه من أبصرا

ما زلت أبذره عيونا حوله ... خوفا عليه أن يصاب فيعثرا

فأتى وزاد تماديًا فى جريه ... حتى هوى من شاهق فتكرا

فسر المنصور بأبياته وأحب استطلاع خباياته وأمره بالجلوس إليه وجعله أرفع القوم لديه ولم يستقر به المكان ولا قعد ولا استكان حتى تحرك المجلس لغلام ورد كأنما يم عن برد فقال له المنصور بصوت يخفيه ما تقول فيه فقال:

بأبى أهيف تبدى وحيى ... بابتسام عدمت منه اصطبارى

فأرانى بوجهه وثنايا ... ه نجوما طلعن وسط النهار

فقال له سرا وقد أسفر وجهه وتسرا إلا أنه شديد النفار من المدام وله قرع بالملام فهل تقدر على استلانته وتسهيل بأسه واستهانته فما قطع المقال حتى التفت إليه ابن تميم وقال:

اتهجرها صرفا لأجل خمارها ... وذلك شيء لو جرى غير ضائر

فلا تخش من داء الخمارى وعاطها ... هنيئا مرياء غير داء مخامر

فكاد الغلام يسطو عليه كالعائب وقال له كالعابث ما هذه فقال:

صفراء لو لاحت لشمس الضحى ... من قبل أن تطلع لم تطلع

أحسن ما فى وصفها أنها ... لم تجتمع والهم فى موضع

فقال بل أشرب خيرا منها وأدع المنهى عنها، ثم إنه أتى بركة فعب من مائها وأرى وجهه خيال قمره فى سمائها فقال:

أفدى الذى بفيه شاربا ... من بركة طابت وراقت مشرعا

أبدت لعينى وجهه وخياله ... فأرتنى القمرين فى وقت معا

ثم لم يزل به حتى شرب ولذ معه ليلة وطرب فلما طلع ابن ذكا وأنار الصبح وأضاء شكر له المنصور حل عقدة الغلام وقال مثلك من سحر بالكلام ثم أحسن له الجائزة وغدا ابن تميم ويده لها جائزة.

وحكى عنه أنه استدعاه فى صبيحة يوم أبيض ونوبات ياسمينه على الارض تنفض والثلج قد نثر كافوره والجليد قد كسر بلوره والسحاب قد أصبحت ذيولها مجرورة والبرق قد تلون طول ليلته حتى أخرجها من صورة إلى صورة وأوانى الزجاج قد شقت من وراء مدامها والدنان قد فك عنها ختام قدامها ورجال الراح قد زادت فى اقدامها والساقى بعذار كأنما كتب بالريحان أو نسج بالزمرد نبت ألحان وتحت عذاره خيلان قد خبأت مسكها فزاد تضوعا وكثر طيبه تنوعا قد تأرج نشرها وفاح وعلم بنقطها فى خده بأنه قديم وصف التفاح فلما دخل عليه فى بكرة ذلك اليوم الاغر ورأى الدنيا ضاحكة تغتر أنشده:

يأيها الملك الذى بسطت له ... بالجود كف دهرها لم تقبض
دنياك مذ وعدت بأنك لم تزل ... فى نعمة وسعادة لا تنقضى
كأن الدليل على وفاها أنها ... أضحت تقابلنا بوجه أبيض

فأجزل له الصلة ولم تكن عوائده بمنفصله.

ذكر ابن ظافر فى بدائع البداية أن المعتمد بن عباد كان جالسا فمر عليه بعض خطبائه فى غلالة لا يكاد يفرق بينها وبين جسمها فكب عليها اناء ماء ورد فعجب من حسنها وجمالها فقال:

وهويت سالبة النفوس عزيزة ... تختال بين أسنة وبواتر

واستجان النحلى وهو على الباب فقال:

راقت محاسنها ورق أديمها ... فتكاد تبصر باطنا من ظاهر
وتمايلت كالغصن فى ورق الندى ... يلتف فى ورق الشباب الناضر
تبدى بماء الورد عنبر شعرها ... كالطل يسقط من جناح الطائر
تزهى برونقها وحسن حديثها ... زهو المؤيد بالثناء العاطر

فلما قرأها استحسنها وقال له أوكنت معنا جالسا.

وقال محاسن الشورى:

وحولك من كماءة الارض شوش ... غلائلها الجواشن والدروع
قد اعتقلوا ذوائب كالافاعى ... إذا اضطربت عواملها تروع
تلوك اللجم تحتهم جياد ... سلاهب ما بها عطش وجوع

صدمت بهم فريق الترك حتى ... تهدم ركن جمعهم المنيع
فكروا والصوارم تستضاء ... بأيديهم فعاشتها النجيع

وقال الصليعى الداعى - رحمه الله:

أنكحت بيض الهند سمر رماحهم ... فرءوسهم عوض النثار نثار
وكذا العلا لا يستباح نكاحها ... الا بحيث تطلق الأعمار

وقال ابن رشيق الأزدى:

لو أورقت من دم الابطال سمرقنا ... لاورقت عنده سمر القنا الذبل
إذا توجه فى أولى كتابته ... لم تفرق العين بين السهل والجبل
فالجيش ينفض حوليه اسنته ... نفض العقاب جناحيها من البلل

والعلامة ذو الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب (مولده سنة ثلاثة عشر وسبعمائة وتوفى تقريبا سنة خمس وسبعين وسبعمائة):

لله موقفك الذى وثباته ... وثبابه مثل به يتمثل
والخيل خط والمجال صحيفة ... والسمر تنقط والصوارم تشكل
والبيض قد كسرت حروف جفونها ... وعوامل الاسل المثقف تعمل
لله قومك عند مستجر القنا ... اذ ثوب الداعى المهيب واقبلوا
قوم إذا لفح الهجير وجوههم ... حجبوا برايات الجهاد وظللوا

وقال السيد الفاضل شمس الدين محمد بن الصاحب موفق الدين الآمدى:

وإذا سرى يلقى السنابك ضعف ما ... يراه فوق الطروس من الجفا
مزاج كأس الراح من ماء الظبا ... كما أسال من النجيع القرقفا
كأس العجاج ترى الكماة شخوصها ... والبيض فوقهم حباب قد طفا
خضب النجيع لكل سيف معصما ... ولكل رمح أصبعا قد طرفا

وقال عبد العزيز بن نباتة:

وولوا عليها يقدمون رماحنا ... وتقدمها أعناقهم والمناكب
كتبنا بأطراف القنا لظهورهم ... عيونا لها وقع السيوف حواجب

وقال الشهاب محمد يمدح الاشرف خليل بن قلاون:

فصبحتها بالجيش كالروض بهجة ... صوارمه انهاره والقنا الزهر
وأبدعت بل كالبحر والبيض موجه ... وحرد المذاكى سفن جودك الدر
وأغربت بل كالليل عوج سيوفه ... أهلته والنبل أنجمه الزهر

وأخطأت لا بل كالنهار فشمسه جيوشك والآصال راياتك الصفر

وقال الاسعد بن مماتى يمدح الظاهر غازى:

أسكران نديم العدو غاز وأسماء الملوك لها حلاها
كأن السمر ريشها طوال فكم نفس بهن قد استقاها
اذا اكتحلت عيون من عداة بغير حيلة وجدت عماها
وأطمع نفس أسمره وأضحى يفتش عن نفوس ما خباها
كأنك خلتها سترت كمينا فتطعنها لتبصر ما وراها
سل البيت المقدس عنه يخبر بسورة فتحه لما تلاها
محا الناقوس والصلبان عنه وأثبت هل أتى فيه وطاها

وقال التهامى ـ رحمة الله عليه:

ودحوا فويق الارض أرضا من دم ثم أثبتوا فثنوا سماء غبار
قوم إذا لبسوا الدروع حسبتها سحبا مزررة على أقمار
وترى سيوف الدارعين كأنها لجج تمد بها أكف بحار
حشوا الجياد من المطى وراوحوا بين السروج هناك والأكوار
وكأنما ملئوا عباب دروعهم وعمود نصلهم شراب قفار

وقال سبط بن الجوزى لما صالح الكامل الفرنج على دمياط وعاينوا الهلاك أرسلوا إليه يطلبون الصلح والرهان ويسلمون دمياط فمن حرص الكامل على خلاص دمياط منهم أجابهم ولو أقاموا يومين أخذوهم برقابهم فبعث إليهم الكامل ابنه الصالح أيوب وابن أخيه شمس الملوك وجاءت ملوكهم إلى الكامل فالتقاهم وأنعم عليهم وضرب لهم الخيام ووصل المعظم والاشراف فى تلك الحال إلى المنصورة وذلك فى ثالث رجب سنة ثمان عشرة وستمائة فجلس الكامل فى خيمة عظيمة كبيرة عالية ومد سماطا وأحضر ملوك الافرنج والخيالة ووقف فى خدمته اخوته المعظم والاشرف وغيرهما وقام شرف الدين راجح الحلى وأنشد:

هنيئا فإن السعد راح مخلدا وقد انجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا اله الخلق فتحًا بدا لنا مبينا وانعاما وعزا مؤيدا
تهلل وجه الارض بعد قطوبه وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله الطغاة وأضحى بالمراكب من بدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه صقيلا كما سل الحسام مجردا

فلم ينج الا كل سلو مجندل ... ثوى منهم أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكفر فى الارض رافعا ... عقيرته فى الخافقين ومنشدا
أعباد عيسى إن عيسى وحزبه ... وموسى جميعا يخدمون محمدا

وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة بلغنى أنه وقت الانشاد أشار عند قوله عيسى إلى المعظم وعند قوله موسى إلى الاشراف وعند قوله محمد إلى الكامل وهذا من أحسن الاتفاق.

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدى فى شرح لامية العجم أنشدنى من لفظه الشيخ الامام الحافظ العلامة أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف قال أنشدنى من لفظه لنفسه بدر الدين أبو المحاسن محمد بن يوسف المهمندار فى السلطان الملك الظاهر لما خاض الفرات:

لو عاينت عيناك يوم نزالنا ... والخيل تطفح فى العجاج الاكدر
وسنا الاسنة والضياء من الظبا ... كشفا لاعيننا قتام العثير
وقد اطرخم الامر واحتدم الوغى ... ووهى الجبان وساء ظن المجتر
لرأيت سدا من حديد مائد ... فوق الفرات وفوقه نار ترى
ظفرت وقد منع الفوارس ردها ... تجرى ولولا خيلنا لم تشكرى
ورأيت سيل الخيل قد بلغ الربا ... ومن الفوارس أبحرا فى أبحر
لما سبقنا أسهما طاشت لنا ... منهم الينا بالخيول الضمر
لم يفتحوا للرمى منهم أعينا ... حتى كحلن بكل لدن أسمر
فتسابقوا هربا ولكن ردهم ... دون الهزيمة رمح كل غضنفر
ما كان أجرى خيلنا فى أثرهم ... لولا إنها برءوسهم لم تعثر
كم قد فلقنا صخرة من صرخة ... ولكم ملأنا محجرا من محجر
ملأوا الفضاء فعن قليل لم ندع ... فوق البسيطة منهم من مخبر
سدت علينا طرقنا قتلاهم ... حتى جنحنا للمكان الاوعر
من كل أشهب خاض فى بحر الدما ... حتى بدا لعيوننا كالاشقر
وجرت دماؤهم على وجه الثرى ... حتى جرت منها مجارى الانهر
والظاهر السلطان فى آثارهم ... يدوى الرءوس بكل عضب أبتر
ذهب العجاج مع النجيع بصقله ... فكأنه فى غمده لم يشهر

وقال الأديب الفاضل الكامل الرحال جواب الآفاق برهان الدين إبراهيم الساحلى الشهير بالطويخى المغربى ذكره العلامة لسان الدين ابن الخطيب فى الإحاطة وأثنى عليه الثناء البالغ وذكر ان وفاته سنة سبعمائة وتسعة وثلاثين من قصيدة مطولة مدح بها أحد ملوك اليمن وأولها:

خطرت كمياد القنا المتناظر ورمت بألحاظ الغزال الاعفر
تسجى على الخد النقاب وإنما ترخى الغمام على الصباح المسفر
فتخال فوق الروض ظل أراكة وعلى ثرى الكافور صلة عنبر
وبملمع الصدغين مطرز وجنة زحفت عليه كتائب ابن المنذر
من أمره زحفوا بعسكر تبع وتقلدوا بعزائم الاسكندر
السائمين الرمح من خلل الظبا والنجم من طرف السنان الازور
والمطعمين الاسد من أمثالها أسلا كل مجندل ومعفر
والخالعين على الزمان ملابسا نظمت مفاخرهم كنظم الجوهر
سلوا أسنته الضحى يوم الوغى فيعيدها بالليل أين العثير
وجياده بالعاديات وبيضه بالقارعات وكفه بالكوثر
قابل برعبك جيش صدك تنثنى واضرب بعزمك قبل سيفك تنصر
فرءوس من عاديت أغماد الظبا ودماء من ناويت زى السمهرى
جرع عدوك فضل كأس قد سقى منها أبوه فان أبى فليجبر
أعمد ذوابته التى لم تستتر وحمام مزنته التى لم تمطر
أرسل عليه عقاب عزم صادق يستاق روح لعامه المستبشر
مزق ثياب العز عنه وخل فى عطفيه حاشية الرداء الأحمر
هذى قواعد ملكه مدت إلى علياك جيد اللائذ المستنصر
ضاقت يداه بها وقل نصيره فيها فطلقها طلاق المعسر
خذها اليك محاجة من شاعر غاصت اليك بأبحر لم تسجر
مرضى العيون كليلة أجفانها إن لم تنر انسانها لم تبصر
وقف ابن أوس دونها وتخضبت فى نسج حلتها أكف البحترى
واسحب ذيول العز فى أرض الندى واركب ظهور الشهب يوم المفخر
واضرب رواق العرفى أرض العلى وارفع سماك الفخر فوق المشتر

وقال القاضى الفاضل تغمده الله برحمته:

أهذه سير فى المجد أم سور ... وهذه أنجم فى السعد أم غرر
وأنمل أم بحار والسيوف لها ... موج وافرندها فى لجها درر
وأنت فى الأرض أم فوق السماء ففى ... يمينك البحر أم فى وجهك القمر
يقبل البدر تربا أنت واطئه ... فللتراب عليه ذلك الأثر
نأى به الملك حتى قيل ذا ملك ... دنا به الجود حتى قيل ذا بشر
فى كل يوم لنا من مجده عجب ... وكل يوم لنا من ذكره سمر
نظرت فى نجمه فالسعد طالعه ... لا ينقضى وعلى أمواله سفر
أبو الفوارس والأبطال مشفقة ... وهم بنوك فما تبقى ولا تذر
يلقى عروس المنايا وهى حاسرة ... وخدها فيه من فيض الدما حفر
والضرب بالبيض من آثاره عكن ... والطعن بالسمر من آثاره سرر
ورب ليلة خطب قد سريت بها ... وما سرى كوكب فيها ولا قمر
سمت الغويص بعزم ما له ضجر ... ولبعيد يباع ما به قصر
وأنت فى جيش رأى لا غبار له ... ترمى العداة بقوس ما لها وتر
هى الحروب التى لا السيف منثلم ... فيها ولا الذابل اللحظى بمتظر
فى كعبة للندى لو حلها ملك ... هب النطق حتى قيل ذا حجر
وسائل لى ما العليا فقلت له ... فى فعله الخير أو فى قوله الخبر
ما أنصفت مجده نظام سيرته ... إن الذى ستروا فوق الذى سطروا
نال السما بأطراف القنا فبدت ... من النصول عليها أنجم زهر
لا يحدث النصر فى أعطافهم مرحا ... حتى كأنهم بالنصر ما شعروا
أجروا دماء العدا بين الرماح فما ... يقال ما عندهم ماء ولا شجر
ترى غرائب من أفعال مجدهم ... يردها الفكر لو لم يشهد النظر
خلائق فى سموات العلا زهر ... منها تنير وفى روض الثنا زهر
الناس أضيافكم والأرض داركم ... فهو المقام فلم قالوا هو السفر
ما أنصف الشكر لولا أن تسامحنا ... فأنت تطنب جوداً وهو يختصر

الباب الثانى والعشرون
فى الحذاق المطربين

قال افلاطون من حزن فليسمع الاصوات الطيبة فإن النفس إذا حزنت خمد نورها وإذا سمعت ما يطربها ويسرها اشتعل منها ما خمد، وكان حكماء الهند يسمعون الغناء للمريض ويزعمون أنه يخفف العلة ويقوى الطبيعة والغناء غذاء الأرواح كما أن الأطعمة غذاء الأشباح.

وقال معاوية وقد سمع عنده مغن فحرك رأسه وصفق بيده ودخلته أريحته ثم لما ثاب رأيه إليه اعتذر منه أن الكريم طروب ولا خير فيمن لا يطرب.

وقال أبو الحسن بن مقلة يعجبنى من يقول الشعر تأدبا لا تكسبا ويغنى تطربا لا تطلبا.

الشىء بالشىء يذكر ما ألطف قول الشيخ برهان الدين القيراطى من قصيدة:

بابى غنى مـلاحـة أشكو له ... فـقرى فـيصـيح بالغنا يتطرب

وكان مروان بن أبى حفصة إذا تغذى عند الموصلى يقول له الغناء غذاء الأرواح كما أن الشراب غذاء الاشباح.

يقال السماع كالروح والخمر كالجسد والسرور ولدهما.

اعلم أن بين الخمر والغناء مناسبة فى أكثر الأحوال ومضارعة فيما يجمعانه من محمود الخصال لأن فيه ما يصير الجبان إذا سمعه شجاعا ومنه ما يكون للهم دفاعا ونغمه يبعث الشحيح على السخاء ومقابلة سؤال السائل بالعطاء وفيه ما ليس فى الخمر من الخصائص العجيبة الامر وذلك أن الرجل الواحد يغنى له فى طريقه فيلين خلفه ويغنى له فى غيرها فتطهر شراسته وترفه وإذا سمع ضربا منه استنفره واذا غنى بصوت آخر لم يمكن العواصف أن تهزه وفيه ما يبكى سامعه ولممازجة الأصوات الحسنة للأرواح واهدائها إلى القلوب ظرائف الأفراح كانت البهائم إذا سمعتها تحن إليها والطير يشغف بها ويطرب عليها والإبل يكسبها الحداء مثل ما يكسب الإنسان الغناء والخيل والبغال والحمير تلذ بشرب الماء إذا تواصل من ساقيها الصفير والحمامة المطوقة والشحارير والبلابل والزرازير والهزاردستانات وغيرها من الطيور المستحسنة الأصوات تسمع أصواتها فيبين

منها الطرب وذاك داعيها إلى تكريرها ولأجل ذلك يتخذها الملوك فى قصورهم ويجعل أمائل الناس كثيرا منها فى دورهم وإن كانت أصواتها لا تدل على معنى رائق يعلم ولا تتضمن ما يعرب عنه الكلام الذى يفهم فما ظنك بالالفاظ التى يسمعها السامع فيعيها ويفهم ما يفيده اياه من معانيها إذا ادركها ملحنة ممن خصوا بصفاء الخلق والنغمات المستحسنة ولهذه العلة صار من يسمع غناء المحسن يشرب من النبيذ عليه أزيد مما يحتمله حاله إذا لم يصغ إليه ويستمرئ الكثير منه مع سماعه وإن كان يثقل عليه قليله إذا خلا من استماعه وقد علم أن الصبى الطفل إذا انزعر خلقه واتصل بكاؤه لوجع يناله أو ضجر يجده وصوتت له دادته بكلام تلحنه وتراجعه سكن قلقه أو سمع من منومته مثل ذلك زال أرقه.

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى: عيش الدنيا بعد الصحة والشباب فى الطلاء والغناء والنساء والآلات التى اتخذت للغناء بها واستعملت على ترتيب أمكن معه أن يظهر منها ما يظهر من الحيوان الذى يرجع صوته بألحان فإن الحكمة فيها مطلوبة والمنافع المكتسبة منها جميلة جسمية والعود أجلها خطرا وأحسنها فى القلوب أثرا وقد كان داود - عليه السلام - أحذق الناس بصوغ الالحان فى تسبيحه ويعرف الفاسد من ذلك من صحيحه وبه كان يضرب المثل فى حسن ايقاعه فى عوده وارتياح القلوب لصوته وتغريده وكان قبل افضاء الملك إليه واجتماع بنى اسرائيل عليه يحضره ملكهم طالوت إذا غلب عليه خلط ردىء كان يعتريه فيأمره أن يوقع له بالعود ويسمعه من أصواته ما يستلذه فيفعل فيسكن ما هاج به ولما صار الملك إليه نصب من أعظم الحذاق بتلحين المزامير والتسبيح بها على الميدان والطنابير وغيرها من الدفوف والطبول والصلصل وما يجرى مجراها جماعة وكانت العدة التى تحضر من هذه الطائفة عنده أربعة آلاف فى كل ليلة ذكر ذلك جميعه الثعالبى فى موائد الافراح وحدود الغناء أربعة لا يستغنى عن واحد منها وبها يتم وعليها ينى فأقلها النغم ثم تأليفه ثم قسمته ثم إيقاعه فما اشتمل من الشعر على هذه الحدود فهو غناء وإن نقص منه فليس بغناء.

وذكر اليونانيون أن الأوتار الأربعة شبهت بالطبائع الأربع وإن البم مشاكل للأرض والسوداء والمثلث بالماء والبلغم والمثنى بالهواء والدم والزير بالنار وإن النار لما كانت فى الطرف الأعلى فى العالم والأرض فى الجهة السفلى منه جعل ما بين البم والزير كذلك وزعمت الأعاجم أنه مشتق من صرير باب الجنة وما تقدم أحد من الأمم على العود من

الملاهى الا لما جمع من الفضائل التى استبد بها وقصر سواه عن اللحاق فيها والحاذق فى الغناء مقدم على كل حاذق.

وذكر أن عبد الملك أتى بعود قد أخذ مع شارب بالليل فقال وعنده قوم ما هذا ولاى شىء يصلح هذا وأى شىء يعمل به فسكت جلساؤه فقال عبد الله بن مسعدة القرارى هذا عود يؤخذ خشبه فيشقق ويرقق ويلصق ثم يعلق عليه هذه الاوتار وتحركها الجارية الحسناء فينطق بأحسن من وقع القطر فى البلد القفر وامرأتى طالق إن لم يكن كل من فى هذا المجلس يعلم منه مثل ما علمت وأولهم أنت يا أمير المؤمنين قال فضحك عبد الملك.

فصل: وينبغى أن يكون المغنى جميل الخلق صافى الخلق له حلاوة وعليه طلاوة مستعذب العبارة نظيف الشارب يحفظ كثيرا من الملح والاخبار والنوادر والاشعار وشيئا صالحا من علم الإعراب ما يختلط معه بذوى الآداب غير نمام ولا مغتاب ولا فضولى ولا عتاب كامل الظرف بعيدا من الظئر متوقيا للهجن كتوما للاسرار مرتكبا طريق الاسرار ذو روايح ذكية وبشرة نقية وجوارح سالمة من العيوب وشمائل يخفق بها على القلوب صناعته معجبة وأغانيه مطربة فمن اجتمعت فيه هذه الصفات والمناقب وسلم مما تقدم ذكره من المعائب والمثالب كان حقيقا من الملوك بالاختصاص وخليقا منهم بأن يشرفوه بالاصطناع والاختصاص ومنهم من يكون حاذقا فى صناعته فيبلغ فى أحكامه غاية استطاعته واجتمعت فيه الخلال الحميدة وعرف بالأخلاق السديدة غير أنه يرزق صوتا يستمدنه ويحسن ممن يغنى له موقعه فتصطفيه الملوك لتعليم الغناء ممن يؤهلونه لذلك من الطرائف والإماء وتختلف أحوال الباقين فى أخلاقهم وخلقهم والمذهب من كل ذى علم وصناعة قليل وتعديد ما يوجد من أخلاق يطول.

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى شر الغناء والشعر الوسط لأن الاعلى منهما يطرب والرذل يضحك من صاحبه ويلهى به والوسط لا يطرب ولا يضحك.

وذكر الشيخ جمال الدين بن نباتة فى شرح العيون ما صورته ويقال إن أول من اتخذ العود الملك المتوشلخ على مثال فخذ ابنه الميت وهو قول ضعيف، وقيل بطليموس، وقيل بعض حكماء الفرس وسماه البربط وتفسيره باب النجاة ومعناه أنه مأخوذ من صرير باب الجنة وقد جعلت أوتاره أربعة كما تقدم ذكره.

وذكر أن أول من غنى على العود بألحان الفرس النضر بن الحارث بن كلدة وفد على كسرى بالحيرة فتعلم ضرب العود والغناء وقدم مكة فعلم أهلها وأول من غنى فى الإسلام بالحان الفرس سعيد بن مسجح وقيل طويس وذلك أن عبد الله بن الزبير لما وهى بناء

الكعبة رفعها وجد بناءها وكانت فيها صناع من الفرس يغنون بألحانهم فوقع عليها ابن مسحج الغناء العربى ثم دخل إلى الشام فأخذ عن ألحان الروم ثم رحل إلى فارس فأخذ الغناء وضرب العود وابتعه من بعده وبدأ هذا العلم ببطليموس وختم بإسحاق بن إبراهيم الموصلى.

وذكر القاضى الرشيد بن الزبير فى كتابه العجائب والظرف أنه وجد للاسعد المرتضى أحمد بن عبد الواحد لما قبض عليه المستنصر فى سنة تسع وخمسين وأربعمائة ما يجوز حد الحصر لكثرته وجلالته وعلو همته وفيما وجد له عدلان كبيران أوتارا برسم عيدان الغناء وعدلا مخزوما مضارب العيدان وثلاثمائة طبل شبرى وغير ذلك من سائر أصناف الملاهى ووجد له هاون فضة وزنه سبعون رطلا.

فصل: فيما ورد للفضلاء فى مدحهم قال الشيخ برهان الدين القيراطى:

أقول إذ جس عود مطرب حسن ... يريك يوسف فى أنغام داودو

من حسن وجهك تضحى الارض مشرقة ... من بنانك يجرى الماء فى العود

وقال:

أطربنا العود إلى أن غدا ... مقاصنا يرقص مع صحبه

فشمعه قام على ساقه ... وكأسه دار على كعبه

الشىء بالشىء يذكر: أنشدنى من لفظه لنفسه الشيخ تقى الدين بن حجة الحموى فسح الله فى أجله من قصيدة حربية:

إن جس عود الضرب مال سامعه ... والخيل يرقصها إن حرك الوترا

وقال الشيخ برهان الدين القيراطى:

وشذا فى أصغها ... ن بالأغانى المطربات

مع غنا فأغنا ... بصفات الحسن ذات

قلت إذ حرك عودا ... عارفا بالنغمات

أنت مغناح سرو ... رى يا سعيد الحركات

وقال المرحوم فتح الدين بن الشهيد وقد أحضر له بدر الدين طائرا ينعى العواد بسفارة الحاجب توكل:

نهارى ليس كله بمنادم ... على عودة تعرو الحشابا لتغرك

وكنت أراه طائرا عز مطلبا ... ولكننى حصلته بتوكل

وأنشدنى من لفظه لنفسه إجازة سيدنا ومولانا أقضى القضاة بدر الدين محمد المالكى المخزومى الشهير بالدمامينى أسبغ الله ظلاله:

يا عزولى فى مغن مطرب ... حرك الاوتار لما سفرا
لم تهز العطف منه طربا ... عندما يسمع منه وترا

وقال علاء الدين الوداعى فى مغن يدعى الفصيح:

وليلة ما لها نظير ... فى الطيب لو ساعفت بطول
كم نوبة للفصيح فيها ... أطرب من نوبة الخليل

وممن برع فى الالحان وعلمها أبو عامر محمد بن الجمارة الغرناطى اشتهر عنه أنه كان يعمد إلى الشعر فيقطع العود بيده ثم يصنع منه عود الغناء وينظم الشعر ويلحنه ويغنى به، ومن شعره قوله:

إذا ظن وكرى مقلتى طائر الكرى ... رأى هدبها فارتاع خوف الحبائل

ذكر هذا الاديب نور الدين على بن سعيد فى كتابه المعرب فى حلى المغرب.

وقال سيف الدين المشد:

ومطرب قد رأينا فى أنامله ... سبابة لسرور النفس أهلها
كأنه عاشق وافت حبيبته ... فضمها بيديه ثم قبلها

وقال محيى الدين بن قرناص:

مشبب بجفاه راح يقتلنا ... فإن تداركنا بالنفخ أحيانا
هويت تشبيبها من قبل رؤيته ... والاذن تعشق قبل العين أحيانا

وقال محيى الدين بن عبد الظاهر:

وناطقة بالروح عن أمر ربها ... تعبر عما عندنا وترجم
سكتنا وقالت للقلوب فأطربت ... فنحن سكوت والهوى يتكلم

وقال الشيخ بدر الدين ابن الصاحب:

أطربنا مشبب من غير جعل ساله ... بأحسن موصول له لم يفتقر إلى صله

وظرف فى قوله أيضا وإن لم يكن فى المعنى:

يا مهدى الاقصاب من سكر ... صغرا حكى سمر القنا طولها
اياك أن تقطعها ساعة ... فأطيب الاقصاب موصولها

ومن ذلك قول الشيخ جمال الدين بن نباتة:

واسمع مقاطيعا لنا أطربت فلا تقل الا مواصيلا

وقال إبراهيم المعمار:

ومشبب أبدى لنا قولا بنغمته الشهيه
متعاتم فكأنه متكلم بالفارسيه

وقال زين الدين بن عبد الله مضمنا:

ونائحة صفراء تنطق عن هوى فتعرب عما فى الضمير وتخبر
براها الهوى والوجد حتى أعادها أنابيب فى أجوافها الريح تصفر

وقال صلاح الدين الصفدى:

لى مطرب كملت جميع صفاته متأدب الحركات والتسكين
فإذا دعاه لمجلس حرفاؤه يأتى ويجلس فيه بالقانون

وقال فتح الدين بن الشهيد:

غنى على القانون حتى غدا من طرب يهتز عطف الجليس
فحنت الأرواح من شدوه إلى أنيس يا له من أنيس
داوى قلوبا من غليل الاسى وكان فيه حوله رسيس
فصاحت الجلاس عجابه يا صاحب القانون أنت الرئيس

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدى أنشدنى القاضى جمال الدين عبد القاهر التبريزى لنفسه ملغزا فى الشبابة:

وناطقة بأفواه ثمان تميل بعقل ذى اللب العفيف
لكل فم لسان مستعان يخالف بين تقطيع الحروف
يخاطبنا بلفظ لا يعيه سوى من كان ذا طبع لطيف
فصيحة عاشق ونديم راع وعزه موكب ومدام صوف

وقال الشيخ علاء الدين على بن أيبك من لفظه لنفسه فى مغن معذر (توفى المذكور سنة إحدى وثمان مائة):

منمم العارض غنى لنا أشياء بالسمع حلا ذوقها
كأنما فى فيه قمرية تشدو ومن عارضه طوقها

نادرة: شهد على امرأة أربعة بالزنا وكان فيهم مغن فقال له الوالى بم تشهد قال أشهد أنى رأيته قد رفع رجليها مثل البنجك وبحر حتى كأنه يغنى وجعل مضرابه على التم وجعلت استه ترقص ولا أدرى أتم الصوت أم لا.

فصل: فيما ورد فى ذم الغناء كتب البديع الهمذانى إلى تلميذ له توفى أبوه وخلف له مالا يا مولاى ذلك المسموع من العود يسميه الجاهل نقرا و يسميه العاقل فقرا وذلك الخارج من الناى هو فى الآذان زمر وغدا فى الابواب سر والعمر مع هذه الآلات ساعة والقنطار فى هذا العمل بضاعة.

وطلب بعض المغنيين جائزة من بعض المحصلين فقال له المملوك اعلم أن المال روح والغناء ريح ولست اشترى الريح بالروح.

ومما ورد من النظم فى ذم المتخلفين من أهلها:

حكى بعضهم أن بعض الفلاسفة خرج مع تلميذه فسمع صوت عود فقال لتلميذه امض بنا إلى هذا المغنى لعله يفيدنا صورة شريفة فلما قربا منه سمعا صوتا رديئا وتأليفا غير متقن فقال لتلميذه تزعم أهل الكهانة والرجز أن صوت البومة يدل على موت الانسان فان كان ذلك حقا فصوت هذا يدل على موت البومة.

ولبعضهم يهجو مغنيا:

كنت فى مجلس فقال مغن الـ ـقوم كم بيننا وبين الشتاء
فتبرت البساط منى إليه قلت هذا المقدار قبل الغناء

ولبعضهم يذم صوت مغن:

انك لو أصغيت يوما إلى الحانه تلك المقادير
لخلت فى الحلق أمراء جالسا يعرك أذان السنانير

ولآخر فى المعنى قال:

انك لو تسمع الحانة تلك اللواتى ليس يعدوها
لخلت من داخل حلقومه موسوسا يخنق معتوها

ولآخر:

ومغن ان تغنى أوسع الندمان هما
أحسن الفتيان حالا كل من كان اصما

وقال المصيصى الخياط:

واذا تربع لا تربع بعدها وغدا يحرك عوده متقاعسا
فكأنه جرذان المدينة كلها فى عوده يقرضن خبزا يابسا

وقال آخر وأجاد:

قلت اذ غنى عراقا ليتنا فى اصفهانى

وقال آخر

غنى أبو الفضل فقلنا له سبحان مخليه من الفضل
غناؤه حد على شربه فاشرب فأنت اليوم فى حل

وقال آخر وأجاد :

ومغنى يغنى اذهب اللذات عنا
فسألناه سكوتا فأبى ذاك وغنى
فشتمناه فغنى فاشتفى الفؤاد منا

وقال آخر فى مغن بالرباب:

لا تبعثوا بسوى المهذب جعفر فالشيخ فى كل الأمور مهذب
طورا يغنى بالرباب وتارة يأتى على يده الرباب وزينب

وقال سيف الدين المشد يهجو عوادا:

عواد قد طمست عينه فصار بالتصحيف قوادا
ما عاد الا لقيادته لا لاجل ذا أصبح قوادا

قلت: وان كان حصل له عمى فأحسن.

وأنشدنى المرحوم فخر الدين بن مكانس قال أنشدنى من لفظه لنفسه صاحبنا شمس الدين محمد الواسطى يهجو عوادا وزامرا:

شبهت ذا العواد والزامر اذ ضاقت علينا بهم المناهج
يعقوب يضرب وهو ساكت وأرقم ينفخ وهو خارج

ولا بأس من إيراد نبذة من حكايات الحذاق فى الغناء:

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى بعث الى المأمون يوما وبين يديه ثمانى عشرة مغنية تسع عن اليمين وتسع عن شماله وعنده إبراهيم بن المهدى فقال كيف تسمع يا إسحاق فقلت اسمع يا أمير المؤمنين خطأ فقال لإبراهيم ما تقول يا عم فيما قال؟ قال باطل ما ههنا خطأ ولكنه يريد أن يتزيد عندك فقلت له أتأذن لى أن أقفه على الخطأ وأناظره فيه قال نعم قلت على انه سيدى وأنا عبده أو على الانصاف قال بل على الانصاف قلت يؤمرون الجوارى أن يغنين الصوت الذى غنينه أولا فغنين ثم قلت له أفهمت الخطأ قال لا قلت فانى ألقى عنك النصف والخطأ فى التسع البواقى اللوانى عن الجانب الأيسر قال فتفهم وقال ما أسمع خطأ قلت فانى أخفف عنك ايضا هؤلاء الأربع الأواخر فاجتهد فى التفهم وقال ما

ههنا خطأ قلت فانه فى آخر الجوارى كلهن فتفهم فلم يتنف عليه فقلت للجارية اضربى وحدك وامسكن البواقى وغنت فقلت ما ترى فقال بل الخطأ هـ :: فقال المأمون احسنت فيهم الخطأ بين اثنين وسبعين وترا ولم تفهمه أنت الا من أربعه.

وقال أحمد بن المرزبان حدثنى بعض كتاب السلطان ان الرشيد هب ليلة من نومه فدعا بحمار كان يركبه فى القصر أسود فركبه وخرج فى دراعة متلثما بعمامة متلفحا بازار وشى وبين يديه أربعمائة خادم سود سوى الفراشين وكان مسرور العوغانى جريئا عليه لمكانة كانت له عنده فلما خرج من باب القصر قال له اين تريد يا أمير المؤمنين فى هذه الساعة قال أردت منزل إبراهيم الموصلى قال مسرور فمضيت معه حتى انتهى الى منزل الموصلى فخرج فتلقاه وقبل حافر حماره وقال له يا أمير المؤمنين انى مثل هذه الساعة تظهر قال نعم شوق طرفك بى ثم نزل فى طرف الايوان وأجلس إبراهيم فقال إبراهيم ياسيدى أنبسط لشىء تأكله قال نعم (حامبرطى) فأتى به كأنما كان عنده معدا له فأصاب منه شيئا يسيرا ثم دعا بشراب حمل معه فقال الموصلى يا سيدى أغنيك أم تغنيك اماؤك فقال بل الجوارى فخرجن جوارى إبراهيم فأخذن صدر الايوان وجانبيه فقال أيضربن كلهن أم واحدة واحدة فقال بل يضربن اثنتان اثنتان وتغنى واحدة واحدة ففعل ذلك حتى مر صدر الايوان وأخذ جانبيه والرشيد يسمع ولا ينصت لشىء من غنائهن الى أن غنته صبية من حاشية الصفة:

يا مورى الزند قد أعيت قوادحه	اقبس اذا شئت من قلبى بمقباسى
ما أقبح الناس فى عينى وأسمجهم	اذا نظرت فلم أبصرك فى الناس

قال فطرب لغنائها واستعاد الصوت مرارا وشرب أرطالا وسأل الجارية عن صانعه فأمسكت فاستدناها فتقاعست فأمر بها فأقيمت بين يديه فأخبرته بشىء اسرته اليه فدعى بحماره فركبه وانصرف ثم التفت إلى إبراهيم وقال له ما ضرك الا ان تكون خليفة فكادت نفسه تخرج حتى عاد بعد ذلك وأدناه قال وكان الذى أخبرته ان الصنعة فى الصوت لاخته علية وكانت الجارية لها فوجهتها الى إبراهيم يطارحها عنها لمكانته عندها قال قال لى الرشيد يا إبراهيم بكر حتى نصطبح فقلت أنا والصبح فرسى رهان نستبق الى حضرتك فبكرت فاذا أنا به خال وبين يديه جارية كأنها خوط بان أو جذل عنان حلوة المنظر فغنت فى شعر لابى نواس:

توهمه طرفى فأصبح خده	وفيه مكان الوهم من نظرى أثر
ومر بفكرى خاطر فخرجته	ولم أر جسما قط يجرحه الفكر

وصافحه كفي فا آلم كفه ... فمن غمز كفي أنامله عقر
قال إبراهيم فذهبت والله بعقلي حتى كدت أفتضح فقلت من هذه يا أمير المؤمنين قال هذه الذي يقول فيها الشاعر :لها قلبي الغداة وقلبها لي ... فنحن كذاك في جسدين روح ثم قال لها غني فغنت :
نقول غداة البين إحدى نسائهم ... لي الكبد الحر فسر ولك الصبر وقد خنقها عبرة فدموعها ... على خدها بيض وفي نحرها صفر قال :فشرب وسقاها وقال غن يا إبراهيم فغنيت حسب ما في قلبي غير متحفظ من شيء
تشرب قلبي حبها ومشى به ... تمشي حمى الكأس في جسم شارب
ودب هواها في عظامي فشقها ... كما دب في الملسوع سم العقارب
قال ففطن لتعريضي فكانت جهلة مني فأمرني بالانصراف ولم يدع بي شهرا ولا حضرت مجلسه فلما أن مضى شهر دس إليّ خادما معه رقعة مكتوب فيها
قد تخوفت أن أموت من الوج ?... د ولم يدر من هويت بما بي
يا كتابي أقرى السلام على من ... لا يسمى وقل له يا كتابي
كف صب إليكم كتبتني ... فارحموا كاتبي وردوا جوابي
إن كفا إليكم كتبتني ... كفا صب فؤاده في العذاب
فأتاني الخادم بالرقعة فقلت ما هذه فقال رقعة الجارية التي غنتك بين يدي أمير المؤمنين فأحسست بالقصة فشتمت الخادم ووثبت عليه وضربته ضرباً شفيت به نفسي وغيظي وركبت إلى الرشيد من فوري فأخبرته بالقصة وأعطيته الرقعة فضحك حتى كاد يستلقي ثم قال على عمد فعلت ذلك بك لامتحن مذهبك وطريقتك ثم دعا بالخادم فلما رآني قال لي قطع الله يديك ورجليك ويلك قتلتني فقلت القتل والله كان بعض حقك ولكني رحمتك وأخبرت أمير المؤمنين حتى يأتي في عقوبتك بما تستحقه فأمر لي بصلة سنية والله يعلم أني ما فعلت ذلك عفافا لكن خوفا
قلت وقريب من هذه الحكاية ما نقلته من خط الشيخ بدر الدين البشتكي سلمه الله تعالى وهو أن الوزير أبا عامر أحمد بن مروان بن عبد الملك بن عمر بن عيسى بن محمد ابن شهيد كان أهدى له غلاماً من النصارى لا تقع العيون على شبهه فلمحه الناصر فقال أني لك هذا قال هو من عند

لك هذا قال هو من عند الله فقال تحفونا بالنجوم وتستاثرون بالقمر فاستعذر واحتفل فى هدية بعثها له مع الغلام وقال يا بنى كن من جملة ما بعثت به لولا الضرورة ما سمحت بك نفسى وكتب معه:

أمولاى هذا البدر صار لافقكم ... وللافق أولى بالبدور من الارض

أرضيكم بالنفس و[illegible] نفيسة ... ولم أرى قبلى من بمهجته يرض

فحسن ذلك عند الملك وأتحفه بمال جزيل وتمكنت عنده مكانته ثم انه بعد ذلك أهديت اليه جارية من أجمل نساء الدنيا فخاف ان ينمى ذلك الى الناصر فيطلبها فتكون قضية الغلام فاحتفل فى هدية أعظم من الاولى وبعثها معها اليه وكتب له:

أمولاى هذى الشمس والبدر أولا ... تقدم كيما يلتقى القمران

قران لعمرى بالسعادة ناطق ... فدم منهما فى كوثر وجنان

فما لهما والله فى الحسن ثالث ... ولا لك فى ملك البرية ثان

فتضاعفت مكانته عليه ثم ان أحد الوشاة رفع للملك انه بقى فى نفسه من الغلام حرارة وانه لا يزال يذكره حين تحركه الشمول ويقرع السن على تعذر الوصول فقال للواشى بذلك لا تحرك به لسانك والا طار رأسك وأعمل الملك الحيله فى ان كتب على لسان الغلام رقعة منها يا مولاى تعلم انك كنت لى على انفراد ولم أزل معك فى نعيم وأنا وان كنت عند الخليفة مشارك فى المنزلة مجاوز ما يبدومن سطوة الملك فتحيل فى استدعائى منه وبعثها له مع الغلام صغير السن وأوصاه ان يقول له هى من عند فلان وان الملك لم يكلمه قط ان سأله عن ذلك فلما وقف أبو عامر على الرسالة واستخبر الخادم فعلم فى سؤاله ما كان فى نفسه من الغلام وما تكلم به فى مجالس المدام وكتب على ظهر الرقعة ولم يزد حرفا:

أمن بعد احكام التجارب ينبغى ... لدىّ سقوط العير فى غابة الاسد

وما أنا ممن يغلب الحب عقله ... ولا جاهل ما يدعيه أولو الحسد

فان كنت روحى قد وهبتك طائعا ... وكيف ترد الروح ان فارق الجسد

فلما وقف الناصر على الجواب تعجب من فطنته ولم يعد الى استماع واش به ودخل عليه بعد ذلك فقال له كيف خلصت من الشرك قال لأن عقلى بالهوى غير مشترك.

عن إسحاق عن أبيه قال استأذنت الرشيد ان يهب لى يوما من أيام الجمعة لانبعث فيه بجوارى واخوانى فأذن لى فى يوم السبت وقال يوم أستثقله فأت فيه بما شئت قال فأقمت

يوم السبت بمنزلى وتقدمت فى اصلاح طعامى وشرابى بما احتجت اليه وأمرت بوابى باغلاق الابواب وتقدمت اليه فى ألا يأذن لاحد على فبينما أنا فى مجلس والحرم قد حففن بى يترددن بين يدى اذا أنا بشيخ ذى هيبة وجمال عليه خفان قصيران وقميصان ناعمان وعلى رأسه قلنسوة لاطية وبيده عكازة مقمعة بفضة وروايح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار والرواق فدخلنى لدخوله على مع ما تقدمت به غيظ عظيم وهممت بطرد بوابى ومن يحجبنى لاجله فسلم على أحسن سلام فرددت عليه وأمرته بالجلوس فجلس وأخذ بى فى أحاديث الناس وأيام العرب وأشعارها حتى سكن ما بى من الغضب وظننت أن غلمانى تحروا مسرتى بادخال مثله على لادبه وظرفه فقلت له هل لك فى الطعام فقال لا حاجة لى فيه فقلت هل لك فى الشراب قال ذلك اليك فشربت رطلا فسقيته مثله فقال يا أبا إسحاق هل لك ان تغنى لنا شيئًا فنسمع من صنعتك ما قد نقت به عند الخاص والعام فغاظنى قوله ثم سهلت الامر على نفسى وأخذت العود فجسته ثم ضربت وغنيت فقال أحسنت يا إبراهيم فازددت غيظا وقلت ما رضى بما فعله فى دخوله بغير اذن واقتراحه علىّ أغنيه حتى سمانى ولم يجمل مخاطبتى ثم قال هل لك ان تزيدنا فندمت وأخذت العود وغنيت وتحفظت وقمت بما غنيته قياما تاما لقوله لى اكافئك فطرب وقال أحسنت يا سيدى وأوثق عددى ثم قال أتأذن لعبدك فى الغناء فقلت شأنك واستضعفت عقله فى أن يغنى بحضرتى بعدما سمعه منى فأخذ العود وجسه فوالله لقد خلت انه ينطق بلسان عربى واندفع يغنى:

ولى كبد مقروحة من يبيعنى ... بها كبدا ليست بذات قروح
أراها على الناس لا يشترونها ... ومن يشترى ذا علة بصحيح
أئن من الشوق الذى فى جوانحى ... أنين غصيص بالشراب جريح

قال إبراهيم فوالله لقد ظننت الحيطان والابواب وكل ما فى البيت يجيبه ويغنى معه من حسن غنائه حتى خلت والله أنى اسمع أعضائى وثيابى تجاوبه وبقيت مبهوتا لا أستطيع الكلام ولا الحركة لما خالط قلبى ثم غنى:

ألا يا حمامات اللوى عدن عودة ... فانى الى أصواتكن حزين
فعدن فلما عدن كدن يمتننى ... وكدت بأسرار لهن أبين
دعون بترداد الهدير كأنما ... شربن حميا أو بهن جنون
فلم تر عينى مثلهن حمائما ... بكين ولم تدمع لهن عيون

فكاد عقلى أن يذهب طربا، ثم غنى شعرا ليزيد بن الطثرية:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد ... فقد زادنى مسراك وجدا على وجد

أئن هتفت ورقاء فى رونق الضحى | على غصن غض النبات من البرد
بكيت كما يبكى الحزين صبابة | وذبت من الحزن المبرح والجهد
وقد زعموا ان المحب اذا نأى | يمل وان الدنى يشفى من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا | على ان قرب الدار خير من البعد

ثم قال يا إبراهيم هذا الغناء الماخورى خذه وانح نحوه فى غنائك وعلمه جواريك فقلت أعده عليّ فقال لست تحتاج قد أخذته وفرغت منه ثم غاب من بين عينى فارتعت وقمت الى السيف فجردته ثم غدوت نحو أبواب الحرم فوجدتها مغلقة فقلت للجوارى أى شىء سمعتن عندى فقلن سمعنا أحسن غناء ما سمع بمثله قط فخرجت متحيرا الى باب الدار فوجدته مغلقا فسألت البواب عن الشيخ فقال أى شيخ والله ما دخل اليوم اليك أحد فرجعت لأتأمل أمرى فاذا هو قد هتف من بعض جوانب البيت وقال لا بأس عليك يا أبا إسحاق أنا ابليس وأنا كنت نديمك اليوم فلا ترع فركبت الى الرشيد وأظرفته بالحديث فقال لى ويحك اعتبر الاصوات التى أخذتها فأخذت العود فاذا هى راسخة فى صدرى فطرب الرشيد عليها وجلس يشرب ولم يكن عزم على الشرب وأمر لى بصلة جزيلة قال وكأن الشيخ أعلم بما قال انك قد أخذتها وفرغت منها فليته أمتعنا بنفسه يوما واحدا كما أمتعك.

قال أبو الفرج الاصفهانى هكذا حدثنا ابن أبى الازهر لهذا الخبر وما أدرى ما أقول فيه.

عن المداينى قال قال إبراهيم الموصلى قال لى الرشيد يوما يا إبراهيم انى قد جعلت غدا للحرم وليلته للشرب مع الرجال واقتصرت من المغنين عليك فلا تشتغل غدا بشىء ولا تشرب نبيذا وكن بحضرتى فى وقت العشاء الآخرة فقلت السمع والطاعة لأمير المؤمنين فقال وحق أبى لئن تأخرت أو اعتللت بشىء لاضربن عنقك قلت نعم يا أمير المؤمنين وخرجت فما جاءنى من أحد الا احتجبت عنه ولا قرأت رقعة لاحد حتى اذا صليت المغرب ركبت قاصدا اليه فلما قربت من داره مررت بفناء قصر واذا زنبيل كبير مستوثق منه بحبال وأربع عرى ادم قد دلى من القصر وجارية قائمة تنتظر انسانا قد وعد ليجلس فيه فنازعتنى نفسى الى الجلوس فيه ثم قلت هذا خطأ فلعله ان يجرى سبب يعوقنى عن الخليفة فيكون الهلاك فلم أزل أنازع نفسى حتى غلبتنى فجلست فى الزنبيل فرفع حتى صار فى أعلا القصر ثم خرجت فنزلت فاذا جوار كأنهن أقمار جلوس فضحكن وطربن وقلن قد جاء والله فلما رأيننى من قريب تبادرن الى الحجاب وقلن يا عدو الله ما أدخلك الينا

فقلت ياعدوات الله الذى أردتن ادخاله خير منى ولم كان أولى منى ولم يزل ذلك دائرا وهن يضحكن وأضحك معهن فقالت احداهن أما من أردتن فقد فات وما هذا الا ظريف فهلمن نعاشره معاشرة جميلة فأخرج الى طعام ولم يكن فى فضل الا أنى كرهت أن أنسب الى سوء العشرة فأصبت منه ثم جيء بالنبيذ وجعلت أشرب وأخرجن ثلاث جوار لهن فغنين غناء حسنا فغنت احداهن صوتا لمعبد فقالت إحدى الثلاث من وراء الستر أحسن إبراهيم هذا له فقلت كذبت هذا لمعبد فقالت يا فاسق وما يدريك الغناء ما هو ثم غنت الاخرى صوتا للغريض فقالت تلك أحسن إبراهيم هذا له أيضا فقلت كذبت يا خبيثة هذا للغريض فقالت اللهم اخزه ويلك ما يدريك ثم غنت الجارية صوتا لى فقالت تلك هذا لشريح وأحسن فقلت كذبت هذا لإبراهيم وأنت تنسبين غناء الناس إليه وغناءه إليهم فقالت وما يدريك فقلت أنا إبراهيم فتباشرن بذلك وظهرن كلهن لى وقلن كتمتنا نفسك وقد سررتنا سرورا عظيما فقلت أنا الآن أستودعكن الله فقلن وما السبب فأخبرتهن بقصتى مع الرشيد فضحكن وقلن الآن والله طاب حبسك علينا ان خرجت أسبوعا فقلت هو والله القتل فقلن الى لعنة الله فأقمت والله عندهن أسبوعا لا أزول فلما كان بعد أسبوع ودعننى وقلن ان سلمك الله فأنت بعد ثلاث أيام عندنا قلت نعم فأجلسننى فى الزنبيل وسرحت فمضيت لوجهى حتى أتيت دار الرشيد فاذا النداء قد أشيع ببغداد فى طلبى وأن من أحضرنى فقد سوغ مالى وملكى فاستأذنت فتبادر الخدم حتى أدخلونى على الرشيد فلما رآنى شتمنى وقال السيف والنطع انك يا إبراهيم تشاغلت عنى وجلست مع السفهاء أشباهك حتى أفسدت على لذاتى فقلت يا أمير المؤمنين أنا بين يديك وما أمرت به غير فائت ولى حديث عجيب ما سمع بمثله وهو الذى قطعنى عنك ضرورة لا اختيارا فاسمعه فان كان عذرا فاقبله فقال هاته فحدثته فوجم ساعة ثم قال ان هذا لعجيب أفتحضرنى معك قلت نعم وأجلسك معهن ان شئت قبلى حتى تحصل عندهن وان شئت فعلى موعد فقال بلى على موعد قلت أأفعل قال انظر قلت ذاك حاصل فلما أصبحت أمرنى بالانصراف وان أجيئه من عندهن فمضيت اليهن وقت الوعد فوجدت الزنبيل على حاله فجلست فيه ومدت الجوارى وصعدت فلما راينني تباشرن بى وحمدن الله على سلامتى وأقمت ليلتى فلما أردت الانصراف قلت ان لى أخا هو عندى عدل نفسى وقد أحب معاشرتكن ووعدته بذلك فقلن ان كنت ترضاه فمرحبا بذلك فوعدتهن ليلة غد وانصرفت وأتيت الرشيد فأخبرته فلما كان الوقت خرج معى متخفيا وقد كان الله وفقنى أن قلت لهن اذا جاء صديقى فاسترن عنى وعنه ولم يسمع لكن لفظة وليكن ما تخترنه من الغناء أو تقلنه من قول مراسلة فلم يتعدين ذلك وأقمن على أتم

ستر وخفر وشربنا شربا كثيرا وقد كان أمرنى الا أخاطبه بأمير المؤمنين فلما أخذ النبيذ منى قلت سهوا يا أمير المؤمنين فتواثبن من وراء الستارة حتى غابت عنا حركاتهن فقال لى يا إبراهيم قد أفلتً من أمر عظيم والله لو برزت لك واحدة منهن لضربت عنقك قم بنا فانصرفنا فاذا هن له وقد كان غضب عليهن فحبسهن فى ذلك القصر ثم وجه من غد بخدم فردوهن الى قصره ووهب له مائة ألف درهم وكانت الهدايا والالطاف تأتينى بعد ذلك منهن.

حكاية: تناظرت المغنون يوما عند الواثق فذكروا الضراب وحذاقهم فقدم إسحاق ابن إبراهيم الموصلى ربربا على ملاحظ ولملاحظ فى ذلك الرياسة عليهم كلهم فقال الواثق هذا حيف وتعد منك فقال إسحاق يا أمير المؤمنين اجمع بينهما وامتحنهما فان الامر سينكشف لك فيهما فأمر بهما فأحضرا فقال له إسحاق ان للضراب أصواتا معروفة فامتحنهما بشىء منها قال افعل فسمى ثلاثة أصوات كان أولها:

علق طيبة السكب جهلا فقد أغرى بتعذيبى
نمت عليها حين مرت بنا محاسن ينفحن بالطيب
تصدها عنا عجوز لها منكرة ذات أعاجيب

الشعر والغناء لإسحاق فضربا عليه فتقدم ربرب وقصر ملاحظ فعجب الواثق من كشفه عما ادعاه فى مجلس واحد فقال ملاحظ فما باله يا أمير المؤمنين يحيلك على الناس ولا يضرب هو فقال يا أمير المومنين انه لم يكن فى زمانى أضرب منى ولكنكم أعفيتمونى من الضرب فثقلت على ومع ذلك ان معى بقية لا يتعلق بها أحد من هذه الطبقة ثم قال يا ملاحظ شوش عودك وهاته ففعل ملاحظ ذلك فقال إسحاق يا أمير المؤمنين هذا خلط الاوتار خلط متعنت وهو لا يألو افسادها ثم أخذ العود فجسه ساعة حتى عرف مواقعه ثم قال يا مخارق غن أى صوت شئت فغنى مخارق صوتا وضرب عليه إسحاق بذلك العود الفاسد التسوية فلم يخرجه من لحنه فى موضع واحد حتى استوفاه عن نقرة واحدة ويده تصعد وتنحدر على الدساتين فقال له الواثق والله ما رأيت مثلك قط ولا سمعت به اطراحه على الجوارى فقال هيهات يا أمير المؤمنين هذا شىء لا يفى به الجوارى ولا يصلح لهن ألبتة وانما بلغنى ان الفليهد ضرب يوما بين يدى كسرى أثر وتر فأحسن فحسده رجل من حذاق أهل صناعته فرقبه حتى قام لبعض شأنه فخالفه الى عوده فشوش بعض أوتاره فرجع وضرب وهو لا يدرى والملوك لا تصلح فى مجالسها العيدان فلم يزل يضرب بذلك العود

حتى فرغ ثم قام على رجله وأخبر الملك بالقصة فامتحن العود فعرف ما فيه فقال له زه وزه ورهان زه ووصله بالصلة التى كان يصل بها من يخاطبه بهذه المخاطبه فلما تواطأت الروايات بهذا أخذت نفسى به وروبها عليه وقلت لا ينبغى أن يكون الفلهيد أقوى على هذا منى فما زلت أستنبطه بضع عشرة سنة حتى لم يبق فى الاوتار موضع على طبقة من الطبقات الا وأنا أعرف نغمته كيف هى والمواضع التى تخرج النغم كلها من أعاليها الى أسافلها وكل شىء منها يجانس شيئًا غيره كما أعرف ذلك فى مواضع الدساتين وهذا شىء لا يفى به الجوارى فقال له الواثق لعمرى لقد صدقت ولئن مت لتموتن هذه الصناعة معك وأمر له بثلاثين ألف درهم.

الباب الثالث والعشرون

فى الغلمان

كان يقال العبد من لا عبيد له وقال دعفل السابة فى المماليك همٌّ غير مستفاد وغيظ فى الاكباد وقال سعيد بن مسلم لابد للعميد من عبيد وقال جعفر بن سليمان العبيد ان اكلوا من مالك زاد فى جمالك وقال غيره العيش فى سعة الدار والعز فى كثرة العبيد وقال آخر عز الملوك فى كثرة المماليك وقال آخر رب عبد خير من الولد لان الولد فى أكثر الاحوال يرى صلاحه فى موت والده والعبد يرى صلاحه بقاء مولاه.

كان يحيى بن أكتم يقول قد أكرم الله تعالى أهل جنته بأن أطاف عليهم الغلمان فى وقت رضاه عنهم وافضاله عليهم وبره بهم لفضلهم فى الخدمة على الجوارى وما الذى يمنعنى عاجلا فى طلب هذه المزية المخصوص بها أهل القربة عند الله تعالى والزلفة لديه.

وقال مطيع بن إياس لو لم يكن للمرد فضيلة لما كان الله جعل ملائكته مردا وأهل الجنة مردا وهذا فيه كفاية وانما عنى الحديث أهل الجنة جرد مرد مكحولون، وكان والبة ابن الحباب يقول الغلام هو الرفيق فى السفر والصديق فى الحضر والمعين على الشغل والنديم عند الشرب وهو سبب الانس.

وقيل لمسلم الاصفرى لم فضلت الغلام على الجارية فقال لانه فى السفر صاحب ومع الاخوان نديم وفى الخلوة أهل.

ومن رسالة الشيخ جمال الدين بن نباتة وكان فى فرجة يحدث مرآها الحسن أحاديث جنان امامه عشرة مماليك من الترك ليس الخبر فى محاسنهم المبدعة كالعيان جلبهم الى مصر تاجر لحظته السعادة فاستنزلت له البدور من آفاقها وأصحبته الشموس بشرفها واشراقها فصار الى مصر بيوسف وبمن سجد له فى المنام وأتى بلاد القبلة بجماعة ما منهم الا من هو فى الحسن امام وما فيهم الا من يقول له المتأمل بلسان الاعتراف يا بشرى هذا سيد وبلسان العرف يا بشرى هذا غلام قد وشحوا بالدقة خصورهم وحموا بأسياف الجفون كما تحمى الثغور ثغورهم من كل لدن القوام مهفهفة ساجى الطرف أوطفه حلو الجناية والمجانى طيف العين لا يجود على العانى منسوب الى أرض القان أصله فيا حزنا من خده

القانى قد أفضح البدور فى الدياجى ورمى القلوب من حبه ولهها بين هاجره وهاجى وعلا بعنق يجلب من أرض الثرات فعطل عنق الغزال بأرض حاجى ونضى من جفن عينيه حساما وقسم من لحظاتها على القلوب سهاما وطال قده عن قصر الاغصان ودنا عن الرماح فكان بين ذلك قواما فسبحت حين رأيت الأقمار واقفة على الأرض وتفاءلت بوجوه حب التفاؤل بمثلها كاد يكون من الفرض وقلت:

فجئت من الاتراك سرجا آذر ... يعلم زهاد الورى كيف تعشق

لهم منظر فى الحسن يفتح خاطرا ... ولكن سهم اللحظ فى القلب مفلق

دخلت بقلبى فى مجال عيونهم ... فأودى به ذاك المجال الضيق

وكم قمر فى القوس عاينت منهم ... فما لك يا طرفى المسافر تعلق

واستقبلنا دمشق على هذا الفأل الجليل وفاصلنا السفرة ـ بحمد الله ـ على وجه جميل.

فصل: فى المنظوم من ذلك قول لسان الدين ابن الخطيب فى غلام ساقى قال:

كيف أمنتما على الشرب ساق ... لحظه فى القلوب غير أمين

راح يسقى فصب فى الكأس نزرا ... ثقة منه بالذى فى العيون

وقال الشيخ شمس الدين الرئيس فيه:

مدير الكأس حدثنا ودعنا ... بعيشك من كئوسك والحثيث

حديثك عن قديم الراح يغنى ... ولا يسقى الانام سوى الحديث

وقال صلاح الدين الصفدى فى غلامه يشوى أوزا:

قلت لما شوى الحبيب أوزا ... واكتسى باللهب ثوب سناء

لو يعيش الجزار مات معنى ... فى معانى محاسن الشوائى

وله أيضا فيه:

شوى الاوز فأضحت ... فى خمرة الخد بسطه

فقلت تشوى أوزا ... أم كنت تشوى بطه

قال الشيخ برهان الدين القيراطى فى غلام يلعب بالعود:

غنى على العود شاد سهم ناظره ... أضحى به قلبى المضنى على خطر

دنا الى وحببت كفه وترا ... فراحت الروح بين السهم والوتر

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة فى ساقى معذر:

مبقل الخد أدار الطلا ... فقال لى فى حبها عاتبى

عن أحمر المشروب ما تنتهى ... قلت ولا عن أخضر الشارب

وقال في غلام تركي أهيف
علقته من بني الأتراك مقترنا ... من خا ري وهو منى غير مقترب
حمالة الحلى والدبياج قامته ... تبت غصون الربا حمالة الخطب
وقال الشيخ صفى الدين الحلى في راقص :.
جاء وفي قده اعتدال ... مهفهف ماله عديل
قد خففت عطفه شمال ... وثقلت جفنه شمول
ثم انثنى راقصاًبقد ... حف به اللطف والدخول
يجول ما بيننا بوجه ... فيه مياه الحيا تجول
ورنح الرقص منه عطفاً ... تثنى إلى نحوه العقول
فعطف داخل خفيف ... وردفه خارج ثقيل
وقال آخر في راقص وراقص
أبصرته مرة ... فلم أزل بالرقص مفتوتاً
لو قيل شعر بين كسرى ... أخرجه بالرقص موزوناً
وقال ابن خروف النحوي الأندلسي فيه
ومنوع الحركات يلعب بالنهى ... لبس المحاسن عند خلع لباسه
متأودا كالغصن بين رياضه ... متلاعباً كالظبى عند كناسه
بالعقل يلعب مقبلا أو مدبرا ... كالدهر يلعب كيف شاء بناسه
وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة في غلام يرمي في بالقوس
فديتك أيها الرامي بقوس ... ولحظ يا ضنا جسدي عليه
لقوسك نحو حاجبك انجذاب ... وشبه الشيىء منجذب إليه
وقال محيي الدين بن قرناص في غلام يرمي في الإماج
أتى الماج مائسا والردف قد أقلقه ... يرشق ثم ينثني بالله ما أرشقه
وقال بدر الدين حسن العربي في غلام يرمر في الايك
أهواه في الأيك يرمي دائماً ... وسواد قلب الصب من اعراضه
أطلقت لحظى نحوه فأصابني ... سهم وما عاينت كشف بياضه
قلت ما أحسن قول الشيخ الموصلي من قصيدة
أصاب فؤادي المستهام بعينه ... فكلمه سهم له غير ناطق

ولبعضهم فى غلام يقوّم سهما:

وافى وفى يده سهم يقومه | يومى اليه بعينيه ويرمقه
وذاك ابداع سر من لواحظه | فيه ليزداد فعلا حين يرشقه

نكتة حسنة: عزم الملك المعظم على الصيد فقال له بعض الجماعة يا مولانا القمر فى العقرب والسفر فيه مذموم والمصلحة الصبر الى أن ينزل القمر القوس فعزم على الصبر فبينما هو مفكر اذ دخل مملوك له من أحسن خلق الله وجها يقال له آى دغدى فوقف قدامه وقد توشح بقوس فقال له بعض الحاضرين يا مولانا بالله اركب الساعة فهذا القمر فى القوس حقيقة فقام لوقته وركب استبشارا وتفاؤلا بالقول فلم ير أطيب من تلك السفرة ولا أكثر من صيدها.

وقال بدر الدين حسن بن حبيب الحلبى فى غلام تركى يطلب وردا شعرا:

رام ظبى الترك وردا | قلت أقصر خاب ضدك
عندك الورد المربى | قال فأنى قلت خدك

وقال الشيخ زين الدين العجمى ونقلتها من خطه فى غلام نثر وردا من أكمامه:

وافى وفى كميه ورد أحمر | حيى به مذ بت تحت لثامه
فرشفت صرف الراح من خرطومه | وجنيت غض الورد من أكمامه

وقال برهان الدين القيراطى فى غلام مطاوع:

أباح لى من نرجس أحداقه | فى مجلس ما فيه ما نكره
فقلت ورد الخد جد لى به | أيضا فقال الكل فى الحضره

وقال شمس الدين بن الصائغ فى غلام ذى خال:

بروحى أفدى خاله فوق خده | ومن أنا فى الدنيا فأفديه بالمال
تبارك من أخلى من الشعر خده | وأسكن كل الحسن فى ذلك الخال

وقال شهاب الدين بن أبى حجلة فى غلام يدعى مقبل:

يا من تحجب عن محب صادق | ما زال عنه كل يوم يسأل
من لى بيوم فيه يسمح باللقا | ويقال لى هذا حبيبك مقبل

وقال برهان الدين القيراطى فى غلام يبكى شعرا:

لم يبك حسن بكيت من | هجرانه منحدرا

وقد ذكرتهما فى باب البركة والشاذروان والفوارة وأنشدنى من لفظه لنفسه الشيخ شمس الدين الرئيس فى غلام مليح وله لآلاء مضمنا:

ومليح لآلائه قد حكاه فهو كالبدر فى الدجى يتلالا
قلت قصدى من الانام مليح هكذا هكذا والا فلالا

وأنشدنى من لفظه لنفسه سيدى وأخى المولى الكامل شمس الدين محمد الشهير بابن الكفتى - أبقاه الله تعالى - لاحبابه حسبما اقترحته فى غلام يعتز على من يهواه:

وارحمتاه لقلبى كان يمنحنى حبى وصالا وكان الحب مستترا
وحين باحت بسرى أدمع هملت درى بعشقى له فاعتز واقتدرا

وقال الشيخ المحدث الفصيح الترحال صلاح الدين خليل الاقفهسى قال أنشدنى الشيخ العارف الناسك المحقق الصوفى إبراهيم بن الشيخ أحمد العربى الشهير بابن رقاعة أعاد الله من بركته من لفظه لنفسه فى غلام معذر:

رسم العذار بعارضيه بنفسجا فوق الخدود فصار كالمرقوم
قبلت مرسوم العذار تأدبا ومن التأدب قبلة المرسوم

وكتب الى القاهرة المحروسة من بعض متجدداته سيدى الجناب المجدى بن مكانس أبقاه الله تعالى فى غلام أبيض:

دعنى وحالى فى هوى أبيض كالبدر أو أحسن من ذلك
وعش معنى فى هوى أسمر أو مت اذا ما شئت فى حالك

وقال شمس الدين محمد بن العفيف فى غلام جرحت كفه السكين:

لم تجرح السكين كف معذبى الا لمعنى فى الهوى يتحقق
هى مثلما قد قيل جارحة غدت ولكل جارحة إليه تشوق

وكتب الى القاهرة من بعض متجدداته سيدى القاضى شهاب الدين أحمد ابن حجر - سلمه الله تعالى - فى غلام مر بروضة مزهرة:

ولم آنس اذ مر الحبيب بروضة فغارت من المحبوب أعينها المرضى
ولاحت بخد الورد فى الروض حمرة حياء وسمت أطراف نرجسه غضبى

وقال محيى الدين بن قرناص فى غلام شد بوسطه بندا أحمر:

من لقلبى من جور ظبى هواه لى شغل عن حاجر وعتيق
خصر تحت أحمر البند يحكى خنصرا فيه خاتم من عقيق

وقال صلاح الدين الصفدى أنشدنى من لفظه لنفسه المولى شهاب الدين أحمد بن مهاجر بحلب المحروسة فى غلام لابس لامة حرب:

ما لاح فى درع يصول بسيفه والوجه منه يضىء تحت المغفر

الا حـــبـت البـحـر مـد بجـدول والشـمس تـحت سحائب من عـنبر

وقال جمال الدين بن نباتة فى غلام يدعى خليل مضمنا:

يغـيـب خليل الحـسـن عنى لـيلة فـأسـأم من ليل طويـل أراقـبـه
وكيـف يطيب الليل عندى والكرى وليـس الـى جنبى خـليل ألاعـبـه

وأنشدنى الشيخ عز الدين الموصلى لنفسه فيه:

قـال حـبى خليلى غـيـرت ودى وتركـت الفـؤاد منى عـليـلا
بعـد عـشق المـلاح صرت تقـيـا مـا تـراعى من الانـام خليـلا

وأنشدنى سيدنا ومولانا القاضى صدر الدين بن الآدمى حسبما ورد اقتراحه من السادة المخاديم فضلاء الديار المصرية لنفسه:

يا متـهـمى بالـقـسم كن منجـدى ولا تطـل رفـضى فـانى علـيل
أنت خليلى فـبـحق الهـوى كن لشـجـونى راحـمـا يا خليل

وقال سيدنا القاضى بدر الدين الدمامينى فى غلام يسقى الماء:

بروحى سـاق همت اذ طاف بيننا باكـوابه اللاتى سـقـين أنامـا
ورمت ارتشاف الريق منه فلم يجد ولكن كـا جـسمى ضنا وسـقاما

ولنختم هذا الباب بحكاية لطيفة ونكتة غريبة ذكرها أبو الفرج المعروف بالببغاء قال:

تأخرت بدمشق عن سيف الدولة بن حمدان مكرها وقد سار عنها فى بعض وقائعه وكان الخطر شديدا على من أراد اللحاق به من أصحابه حتى ان ذلك كان مؤديا الى النهب وطول الاعتقال فاضطررت الى اعمال الحيلة فى التخلص والسلامة بخدمة من بها من الرؤساء والاخشيدية وكان سنى فى ذلك الوقت عشرين سنة وكان انقطاعى منهم الى أبى بكر على بن صالح الروزبادى لتقدمه فى الرياسة ومكانته من الفضل والصناعة فأحسن مقبلى وبالغ فى الإحسان الى وفضلت تحت الضرورة فى المقام فتوفرت على قصد البقاع الحسنة والمتنزهات المطروقة تسليا وتعللا فلما كان فى بعض الأيام عملت على قصد دير مران وهذا الدير مشهور الموضع فى الجلالة وحسن المنظر فاستصحبت من كنت آنس به وأمرت بحمل ما يصلح وتوجهنا نحوه فلما نزلنا أخذنا فى شأننا وقد كنت اخترت من رهبانه لعشرتنا من توسمت فيه رقة الطبع وسماحة النفس والخلق حسبما جرى به الرسم فى غشيان العمار وطروق الديرة من الطرق بعشرة أهلها والأنسة بسكانها ولم تزل الأقداح دائرة بين مطرب الغناء وزاهر المذاكرة الى أن فض اللهو ختامه ولوح السكر لصحبى أعلامه وحالت منى نظرة الى بعض الرهبان فوجدته الى خطابى متوثبا ولنظرى اليه مترقبا

فلما أخذته عينى أكب على يزعجنى بخفى الغمز ووحى الإيماء فاستوحشت من ذلك وأنكرته ونهضت عجلا واستحضرته فأخرج الى رقعة مختومة وقال لى قد ألزمك فرض الامانة فيما تتضمنه هذه الرقعة دونى وسقط زمام كتابها فى استرهانك عنى ففضضتها فاذا فيها بأحسن خط وأملحه وأقواه وأوضحه:

بسم الله الرحمن الرحيم لم أزل فيما تؤديه هذه المخاطبة يا مولاى بين حشم يحث على الانقباض عنك وحسن ظن يحض على السانح بنفيس الحظ منك الى أن استنزلتنى الرغبة فيك على حكم الثقة بك من غير خبره ورفعت بينى وبينك سحب الحشمة فأطعت بالانبساط أوامر المؤانسه وانتهزت فى التوصل الى مودتك فأبت الفرصة والمستماح منك جعلنى الله فداك زورة ارتجع بها ما اغتصبتنيه الايام من المسرة مهنأة بالانفراد الامن غلامك الذى هو مادة مسرتك وأنشد:

وما ذاك عن خلق يضيق بطارق ولكن لآخذ باحتياط على حالى

فان صادف ما خطبته منك أيدك الله قبولا ولدبك نفاقا فمنية غفل الدهر عنها وان فارق مذهبه فيما أهداه الىّ منها جرى على رسمى فى المضايقة فيما أوثره وأهواه وأترقبه من قربك وأتمناه فزمام المروءة يلزمك رد هذه الرقعة وسترها وتناسيها واطراح ذكرها واذا أنا بأبيات تتلو الخطاب:

يا عامر العمر بالفتوة والقصف وحث الكئوس والطرب

هل لك من صاحب يناسب فى الغربة أخلاقه وبالادب

أوحشه الدهر فاستراح الى قربك منتصرا على النوب

فإن تقبلت ما أتاك به فلم يشب الظن فيه بالكذب

وان أبى الزهد دون رغبتنا نكن كمن لم يقل ولم يجب

قال أبو الفرج ورد على ما حيرنى واسترد منى ما كان الشراب حاره من تميزى وحصل لى فى الجملة أن أغلب الاوصاف على صاحبها الكتابة خطا وترسلا ونظما فشاهدته بالفراسة فى ألفاظه وحمدت أخلاقه قبل الاختيار من رقعته وقلت للراهب من هذا ويحك وكيف السبيل اليه فقال أما ذكره فاليه اذا اجتمعنا وأما السبيل الى لقائه فسهل ان شئت قلت دلنى قال فكيف تعمل بالغلمان قلت لا أدرى قال تظهر فتورا وتنصب عذرا تفارق به أصحابك مصرفا فاذا حصلت بباب الدير عدلت بك الى باب تدخل منه فرددت الرقعة اليه وقلت أدفعها اليه ليتأكد أنسه وسكونه الىّ وعرفه ان التوفر على اعمال الحيلة فى المبادرة

الى حضرته على مـا أوثره من التفرد أولى من التشـاغل باصدار جواب وقطع وقت بمكاتبة ومضى الراهب وعدت أصحـابى بغير النشـاط الذى ذهبت به فأنكروا ذلك فـاعتذرت اليهم بشىء عرض لى واسـتدعيـت ما أركبـه وتقدمت الى من كان مـعى من الخدم بالتـوفر على خدمتهم وقد كنا عملنا على المبيـت فأجمعوا تعجل السكر والانصراف وخرجت من باب الدير ومـعى غلام صـبى كنت آنس به وبخدمـته وتقـدمت الى الشاكـرى برد الدابة وسـتر خبـرى ومباكـرتى فتلقانى الـراهب وعدل بى الى طريق مضـيق وأدخلنى الى الدير من باب غامض وصار بى الى باب قلاية متميز عما جاوره من الابواب نظافة وحـسنا فقرعه بحركات مخـتلفة كالعلامـة فابتدرنا منه غـلام كأن البدر ركـب على أزراره مـهفهف الكشح مـخطفه معتدل القـوام أهيفه تخال الشـمس برقعت غرته والليل نـاسب أصداغه وطرته فى غلالة تنم على ما يـسـتره وتجفو مع رقتها عـما يظهره وعلى رأسه مجلسـيته بصمت فبهر عقلى حـسنا فاستوقف نظرى ثم جـفل كالظبى المذعور فتلوته والراهب الى صحـن القلاية فاذا أنا ببيت فضـى الحيطان رخـامى الأركان مـفروش بحـصيـر قد اتعب صـانعه منقـوش كأنـه روضة مزخـرفة بالنور أضـحكها سـقوط الندى فـوثب الينا منه فتى مـقبل الشـباب حسـن الصورة والإهاب ظاهر النبل والهيئة فلقـينى حافيا يعثر فى سراويله واعتنقنى ثم قـال انما استخدمت هذا الغلام الى تلقيك يا سيدى لاجعل ما لعلك استحسنته من وجهى مصانعا عما يرد عليك من مشـاهدتى فاستحـسـنت اختصارة الطريق الى بـسطى وارتجاله النادرة على نفسه حرصا فى تأنيسى وأفـاض فى شكرى على المـسـارعة أمره وأنا أواصل فى خـلال سكتاته المبـالغة فى الاعتـدال به ثم قال يا سيدى أنت مـكدود بمن كان معك والاسـتمتاع بمـحادثتك لا يتم الا بالتوصل الى راحتك وقـد كان الامر على ما ذكر فـاستلقيت يـسيـرا ثم نهـضت فخدمت فى حالتى النوم واليـقظة الخدمة التى ألفـيتهـا فى دور أكابر الملوك وأجلة الرؤساء وأحـضر لنا خادما له لم أر أحـسن وجهـا منه يحمل طبقا يضم ما يتخذ للعـشـاء مما خف ولطف وقال الا كل منى يا سيدى للحاجـة ومن لك للمالحة والمساعدة فأكلنا شيـئا وأقبل الليل وطلع القمر ودخل من مناظر ذلك البيـت الى فضـاء ادى الينا محاسن الغوطة وحيانا بذخـائر رياضها من المنظر الجـانى والنـسـيم العـطرى وجاءنـا الراهب من الاشـربة بمـا وقع عليـه اتفـاقنا على المختار منه ثم غالب اللذة وجرينا فى ميدان المفاوضة فلم نزل نتناهب نوادر الاخبار وملح الاشعـار ونمزج ذلك من المزج بأظرفه ومن التـودد بألطفه الى أن توسطنا الشراب فـالتفت

الى غلامه وقال يا مترف ان مولاك ليس مما يدخر عنا السرور بحضوره وما يجب ان ندخر ممكنا فى مسرته فانتقع وجه الغلام حياء وخفرا فأقسم عليه بحيانى وأنا لا أعلم ما يريد فمضى وعاد يحمل طنبورا وجلس وقال لى يا سيدى أتأذن لى فى خدمتك فهممت بتقبيل يده لما تداخلنى من السرور بذلك فأصلح الطنبور وضرب وغنى هذه الابيات:

يا مالكى وهو ملكى وسالبى ثواب نسكى

نزه بقين الهوى فيك عن تعرض الشك

لولا ما كنت أبكى الى الصباح وأبكى

فنظر الى الغلام وتبسم فعلمت ان الشعر له فكدت والله أطير فرحا بملاحة خلقه وحسن خلقه وقوة حذقه وجودة ضربه وعذوبة ألفاظه وتكامل حسنه فاستدعيت كثيرا فأحضر الخادم عدة قطع من فاخر البلور وجيد المحكم فشربت سرورا بوجهه وشرب بمثل ما شربت ثم قال لى أنا والله يا سيدى أحب ترفيهك ولا أقطعك عما أنت متوفر عليه ولكن اذا عرفت الاسم والنسب والصناعة واللقب فلا بد ان نشى ليلتنا بشىء يكون لها طرازا ولذكرها معلما فجذبت الدواة وكتبت ارتجالا وقد أخذ الشراب منى هذه الأبيات:

وليلة اوسعتنى حسنا ولهوا وأنسا

ما زلت الثم بدرا بها وأشرب شمسا

اذ أطلع الدبر سعدا لم يبك منذ كان نحسا

فصار للروح روحا وصار للنفس نفسا

فطرب على قولى ألثم بدرا وأشرب شمسا وجذب غلامه فقبله وقال ما جهلت ما يجب لك من التوقير وانما اعتمدت تصديقك فيما ذكرته فبحياتى الا ما فعلت ذلك بغلامك فاتبعت ايثاره خوفا من احتشامه وأخذ الابيات وجعل يرددها ثم أخذ الدواة وكتب اجازتها:

ولم أكن لغرمى والله أبذل فلسا لو ارتضى لى غريمى بدير مران حبسا

فقلت اذا والله ما كان يؤدى أحد حقا ولا باطلا وداعبته فى هذا المعنى بما حضر وعرفت فى الجملة انه متستر من دين وقال لى قد خرج اليك أكثر الحديث فان عذرت والا ذكرت لك الحال لتعرفها على صورتها فبينت ما يؤثره من كتمان أمره فقلت له يا سيدى كل من لا يتعرف بك نكرة وقد اغنت المشاهدة عن الاعتذار وبانت الخبرة عن الاستخبار وجعل يشرب ويتحب من غير استكراه ولا حث ولا استبطاء الى أن رأيت الشرب قد دب

فيه وأكب على مجاذبة غلامه والفطنة تثنيه فى الوقت بعد الوقت فأظهرت السكر وحاولت النوم وجاء الغلام بفرش حسن ففرش لى بازاء فرشه فنهض اليه وقام يتفقد أمرى بنفسه فقلت له ان لى مذهبا فى تقريب غلامى منى واعتمدت بذلك تسهيل ما يختاره من هذا الحال فى أمر غلامه فتبسم وقال لى بسكره جمع الله لك شمل المسرة كما جمع جمعه لى بك وأظهرت النوم وعاد الى محادثة غلامه وعاتبه بأعذب لفظ وأحلى معاتبة ويمزج ذلك بمواعيد تدل على سعة وانبساط يد وغلامه تارة يقبل يده وتارة فمه وغلبتنى عيناى الى ان أيقظنى هواء السحر وانتبهت وهما متعانقان بما كان عليهما من اللباس فأردت توديعه فخفت انتباهه وازعاجه فخرجت فلقينى الخادم بريد ايقاظه وتعريفه بانصرافى فأقسمت عليه ألا يفعل ووجدت غلامى قد بكر بما أركبه كما كنت أمرته فركبت منصرفا وعاملا على العودة اليه والتوفر على مواصلته وأخذ الحظ منه فى معاشرته ومتوهما ان الذى كنت فيه مناما لطيبه وقرب أوله من آخره واعترضتنى أسباب أدت الى اللحاق بسيف الدولة فسرت على أتم حسرة لما فاتنى من معاودة لقائه وقلت فى ذلك هذه الابيات:

ويوم كان الدهر سامحنى به ... فصار يسمى بيننا هبة الدهر
جرت فيه افراس الصبا بارتياحنا ... الى دير مران المعظم ذى القدر
فمن روضة بالحسن توقد روضه ... ومن نهر بالفيض يجرى الى نهر
وفى الهيكل المعمور منه اقترعها ... وصحبى حلالا بعد توفية المهر
ونزهت عن غير الدنانير قدرها ... فما زلت منها أشرب التبر بالتبر
وحل لنا ما كان منها محرما ... وهل يحظر المحظور فى بلد الكفر
فأهديت لى الايام فيه مودة ... دعتنى فى ستر فلبيت فى ستر
أتى من شريف الطبع أصدق رغبة ... فخاطبنى من معدن النظم والنثر
وكان جوابى طاعة لا مقالة ... ومن ذا الذى لا يستجيب الى اليسر
فلاقيت من العينين نبلا وهمة ... محلى السجايا بالطلاقة والبشر
وأحشمنى بالبر حتى حسبته ... يريد اختداعى عن حياتى ولا أدرى
ونزه عن غير الصفاء اجتماعنا ... وكنت واياه كقلبين فى صدر
وشاء السرور ان يلينا بثالث ... فلا طفنا بالبدر أو بأخى البدر
يمعط العيون ما أسهمت من جماله ... ومضت القلوب بالتحبى وبالهجر
جنينا جنى الورد فى غير حينه ... وزهر الربا من روض خديه والثغر

وقابلنا من وجهه وشرابه بشمسين فى جنحى دجى الليل والشعر
وغنى فصار السمع كالطرف أجدا بأوفر حظ من محاسنه الزهر
وأتبعنا فى وجنتيه بمثل ما تمزج كفاه من الماء والخمر
سرور سكرنا منه لا صحو اذ دعا اليه ولم نشكر به منة السكر
كأن الليالى نمن عنه فبعدما تنبهن يبكين الوفا الى العذر
مضى وكأنما كنت فيه مناما فحدثت عن طيف الخيال اذا يسر
وهل يحصل الانسان من كل ما به تسامحه الايام الا على الذكر

ولم أزل على أتم قلق وأعظم حسرة وأشد تأسف على ما سلبت من عظيم النعمة بفراق الفتى لا سيما ولم أحصل منه على حقيقة ولا يقين بر يؤديانى الى الطوع فى لقائه الى أن عاد سيف الدولة الى دمشق وأنا فى جملته فما بدأت بشىء قبل المصير الى الراهب وقد كنت حفظت اسمه فخرج الىَّ مرعوبا ولا يعرف السبب فلما رآنى استطار فرحا وأقسم لا يخاطبنى الا بعد النزول والمقام عنده يومى ذلك ففعلت فلما جلسنا للمحادثة قال ما لى أراك لا تسألنى عن صديقك قلت والله ما لى فكر منصرف عنه ولا أسف يتجاوز ما حرمته منه ولا سررت بعودى الى البلد الا من أجله ولذلك بدات بقصدك فاذكر لى خبره فقال أما الآن فنعم هذا فتى من أولاد عظماء مصر جليل القدر عظيم النعمة كان قد ضمن من سلطانه بمصر ضياعا بمال كثير فخاسر به ضمانه لعقود السعر وأشرف على الخروج من نعمته فاستتر ولما اشتد البحث عنه خرج متخفيا الى أن ورد دمشق بزىء تاجر وكان استاره عند بعض اخوانه ممن له عادة بخدمته فأتيت عنده يوما اذ ظهر لى وقال لصديقه أريد الانتقال الى هذا الراهب ان كان مأمونا فذكر له صديقى مذهبى وأظهرت السرور بما رغب فيه من الأنس بى وأنا لا أعرفه غير ان صديقى قد أمرنى بخدمته وحصل فى قلايتى وواصل الصوم فلما كان بعد أيام جاءنا الرسول من عند صديقنا هو والغلام والخادم قد لحقا به ومعهما سفاتج وعليهما ثياب رثة فلما نظرت الى الغلام قال يا راهب قد حل الفطر وجاء العيد ووثب اليه واعتنقه وجعل يقبل عينيه ويبكى ووقف على السفاتج وأنفذها مع درج رقعة منه الى صديقه فلما كان بعد يومين حمل اليه ألفى دينار وقال له ابتع لنا ما نستعمله فى هذه الضيعة فابتاع آلة وفرشا ولم يزل مكبا على ما رأيت الى أن ورد عليه كتاب أهله بتدبير حاله مع سلطانه وأخذ خط السلطان بحطيطة المال وطيب قلبه وتحقق رضى السلطان فلما عزم على المسير قال لغلامه سلم جميع ما بقى معك من نفقتنا الى الراهب ليصرفه فى

مصالح الدير وسار وماله حـــرة غـيرك ولا أسف الا عليك يقطع جميع الاوقات بذكرك ولا يشرب الا على مـا يغنيه الغلام من شعـرك وهو الآن بمصر على أحسن الاحـوال وأجلها ما بخل بتفقدى وخف بعض ما عندى من الحزازة بما عـرفت من حقيقه خبره وأتممت يومى عند الراهب وكان آخر العهد منه ومن الغلام والسلام.

الباب الرابع والعشرون
فى الجوارى ذوات الألحان

قال الثعالبى فى تحفة الأرواح وموائد السرور والأفراح إن غناء الجوارى ذوات الحسن والدلال له موقع فى القلب أحسن من موقع غناء الرجال وإن كان أجود منه وذلك مع الرويه وقال افلاطون: غناء الملاح تحرك فيه الشهوة والطرب وغناء القباح يحرك فيه الطرب لا الشهوة وقد قيل أحسن الناس غناء من تشبه بالنساء من الرجال ومن تشبه بالرجال من النساء وما أحسن قول القائل:

جاءت بوجه كأنه قمر　　على قوام كأنه غصن
غنت فلم تبق فى جارحة　　الا تمنيت أنها أذن

وقال يزيد بن الوليد: إياكم والغناء فإنه يسقط المروءة وينقص الحياء ويبدى العورة ويزيد فى الشهوة وإنه لينوب عن الخمر ويصنع بالعقل ما يصنع به السكر وإن كان ولا بد فجنبوه النساء فإن الغناء داعية الزنا، وقال بعض أهل الأدب لا يكون الملك ملكا حتى يلبس من طرازه وينكح من بلاده ويركب من نتاجه ويسمع الغناء من جاريته وغلامه وقال بعضهم فى جارية عواده:

وكأنه فى حجرها ولد لها　　تحنو عليه عند كل أوان
أبدا تدغدغ بطنه فاذا هفا　　عركت له أذنا من الآذان

وقال ابن تميم فيها أيضا:

ومهات قد راضت العود حتى　　عاد بعد الجماح وهو ذلول
خاف من عرك أذنه اذ عصاها　　فلهذا كما تقول يقول

وقال آخر فيها وأجاد:

أشارت بأطراف لطاف كأنها　　أنابيب در قمعت بعقيق
ودارت على الأوتار حتى كأنها　　بنان طبيب فى محبس عروق

وقال ابن حجاج فيها وأجاد:

هذا ومحسنة بالعود عاشقها　　بذلك الطيب فى الأحيان مسرور
إذا تثنت وغنت خلت قامتها　　غصنا عليه قبيل الصبح شحرور

وقال صلاح الدين الصفدى فيها:

حبت مثانى عودها بأنامل عبثت بلب الخشاع المتورع
وشدت فلو شاءت عذوبة لفظها عطفت عنان البارق المسرع
وعجبت من ريح الصبا إذ لم يقف طربا ولكن ما لها اذن تعى
أبصرت يا عيناى ما لم تبصرى وسمعت يا أذنى ما لم تسمع

وقال جمال الدين بن نباتة فيها:

بروحى هيفاء المعاطف حلوة تكاد بألحاظ المحبين تشرب
لقد عذبت ألفاظها وصفاتها على أن قلبى فى هواها معذب
تجاسر عود اللهو يشبه صوتها فمن أجل هذا أصبح العود يضرب
وأجرى دموع العاشقين بلعبها نقال الآس دعها تخوض وتلعب

وقال النور الاسعردى فى جارية جنكية:

لبنت شعبان جنك حين تنطقه يغدو بأصناف ألحان الورى هازى
لا غرو أن صاد ألباب الرجال بها أما تراه يحاكى مخلب البازى

وقال الصلاح الازيلى فى الجنك:

الجنك مركب عقل فى تشكله والرق قلع له الاوتار أطناب
يجرى بريح اشتياق فى بحار هوى يؤم ساحل وصل فيه أحباب

وقال سيدى شهاب الدين أحمد بن حجر فى جارية تلعب بالكمنجا:

ما بالها هجرت وكم قد مر لى منها الرضا فى سالف الأعصار
وقضيت معها اذ شذت بكمنجة ما بين سالف نغمة أوطار

وقال سيدنا القاضى بدر الدين الدمامينى فى جارية تدق بالكف:

لقد دقت بكفيها فتاة صفت فينا خلائقها ورقت
فأفديها مغنية رأينا بها الافراح حلت حين دقت

وقال شمس الدين بن دانيال فى جارية تضرب بالدف وأجاد:

ذات القوام الذى يهتز غصن نقا لو مر يوما عليه طائر صدحا
تبدى على الدف كالخمار معصمها أناملاً بنان تشبه البلحا
غناؤها برقيق الفنج تمزجه فما ينقط الاكل من رشحا

وقال شمس الدين الكوفى الواعظ فى جارية مشبية كذا ذكره الصفدى فى تضميخ التضمين:

لقد حصلت لى ليلة لا تقوم وعندى من أهوى بها وأتنعم

وفى كفها شبابة تجمع المنا فنحن سكوت والهوى يتكلم

وينفخ فيها الروح روح بأمرها وما هو جبريل وما هى مريم

وما الدهر إلا صورة دمها الطلا فحرم اذ شرب الدماء محرم

وما زلت شيعيا إلى أن أتوا بها عتيقا فناديت العتيق المقدم

وهذا التضمين أغار عليه القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر وقد ذكرته فى الحذاق المطربين.

وقال كمال الدين جعفر الادنوى فى تاريخه البدر السافر عن أُنس المسافر فى ترجمة القاضى تقى الدين عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن خلف ينعت بابن البيت الأعز الشافعى ومن شعره ملغزا فى شبابة:

ومحبوبة مهما خلت مع حبيبها

يقبلها لثما وينظرها شزرا

منقبة عريانة وهى فتنة

لمن أصبحوا من شرب كأس الهوى سكرى

وتصحيفها فى كف من شاء منهم

ومن شاء فى اليمنى ومن شاء فى اليسرى

وكتب إلى شرف الدين بن الحلاوى ملغزا فيها مضمنا:

وناطقة خرساء باد شجوها تكنفها عشر وعنهن تخبر

يلذ إلى الاسماع رجع حديثها اذ سد منها منخر حاش منخر

فأجاب بهذا البيت وأجاد

نهانى النهى والعلم عن وصل مثلها فكم مثلها فارقتها وهى تصفر

قلت: تكرير لفظة مثلها غير طائل.

وألم بهذا التضمين مجير الدين بن تميم فقال:

وشبابة قد كنت أهوى سماعها وقد صرت منها عندما بت أنفر

وها أنا قد فارقتها غير نادم وكم مثلها فارقتها وهى تصفر

قلت: كان المذكور لهجا بالتضمين مكثر منه حتى قال فى نفسه وظرف:

أطـــالــع كــل ديـــوان أراه ولم أزجر عن التضمين طيرى
أضـمن كـل بيت فـيـه مـعنى فـشعرى نصفه من شعر غيرى

وقال إبراهيم بن المعمار فى جارية مغنية:

وجـارية مـغـنيـة بلطف على الإيقاع بالكعبين دقت
فـغنت ثم رقت لى بوصل فـقمت قطعتها من حيث رقت

وقال بدر الدين بن الصاحب فيها:

غنت فـأغنت عن كـئوس الطلا بالسكر من لذات تلك اللحـون
فـقلت اذ هيـمنى صـوتها فى مـثل ذا الحلق تروح الذقـون

وقال صفى الدين الحلى فى جارية ترقص بالشراب:

والراقصات وقد شدت ما آزرها على خصور كأوساط الدنانير
كأن فى الشبر بمناها وقد رقصت صبحا تقلقل فيه قلب ديجور
ترعى الضروب بكفيها وأرجلها وتحفظ الاصل من نقص وتغيير
وتعرب الرقص من لحن فيلحقه ما يلحق النحو من حذف وتقدير

وقال جمال الدين حسن بن على بن داود الفارقى:

لله راقـصـة تـميس كـأنها ظل القضيب إذا تمايل مزهرا
تزهو وترجع كـالخيال فلا ترى حـركاتها إلا كطارقة الكرى
لانت معاطفها فكيف تلفتت وتفلتت لا يستطاع بأن ترى

وقال أبو الحسن على بن أبى اليسر فيها:

هيفاء إن رقصت فى مجلس رقصت قلوب من حولها من حذقها طربا
خفيفة الوطء لو جالت بخطرتها فى جفن ذى رمد لم يعرف الوصبا

وقال الشيخ عز الدين الموصلى لنفسه فيها:

هيفاء راقصة للزهر قد كشفت فى الكون ما مثلها نجم على الكرة
كالغصن أن خطرت يا ليتها عطفت مذ أمرضتنى وعادت باللمى شفتى

وقال الوجيه المناوى فى جارية تلعب بخيال الظل:

وجارية معشوقة اللهو أقبلت بحسن كزهر الروض تحت كمام
إذا ما تغنت قلت شكوى صبابة وان رقصت قلنا حباب مدام
أرتنا خيال الظل والستر دونها فأبدت خيال الشمس خلف غمام

تلعب بأشخاص من خاف سترها كما لعبت أنمالها بأنامى

فصل: فيما يتعلق بكتابة المتظرفات منهن على آلاتهن:

كتبت مزنة على مضرابها:

* من نظر إلى سوانا لم يصدق فى هوانا *

وكتبت ظبية مغنية ابن يزداد على ملهاتها:

* احفظ سرك عن غيرك *

وكتبت ظوافر على ملاويها:

وافق من ترافق * وقارب من تصاحب *

وكتبت ضوء الصباح على عودها بالذهب:

* من خالفنا فليس منا *

وكتبت تحفة:

* ومن أرادنا لا يصبر عنا *

وكتبت قينة جارية الملك الظاهرية على بابها:

* صل من قطعك وأعط من حرمك *

وكتبت نزهة جارية الجصاص على إحدى جانبى مضرابها:

* من ورد عودها غير حياء به صدر ندائه *

وعلى الجانب الآخر:

* السعيد من وعظ بغيره *

حاشية: قال على بن الجهم اشتريت جارية فقلت لها ما أظنك بكرا فقالت كثرت الفتوحات فى زمن المعتصم وقلت لها كم بيننا وبين الصبح فقالت عناق مشتاق ونظرت إلى الشمس كاسفة فقالت احتشمت محاسنى فتنقبت وقلت لها نجعل مجلسنا فى القمر فقالت ما أولعك بالجمع بين الضرائر وكانت تكره الحلى وتقول يستر المحاسن كما يغطى القبايح.

فصل: فى المولدات من الجوارى وغيرهن:

قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فى جارية تدعى وردة:

بابى دمية مولدة الـ حسن دعوها بوردة البستان

فى التصاوير مثلها ليس يلقى فيقولون وردة كالدهان

وقال شهاب الدين بن أبى حجلة فى جارية تدعى حكم الهوى:

حكم الهوى صدت فبت لاجل ذا ... ولهان من فرط الصبابة والجوى
يا عاذلى لا تلمنى فى حبها ... نفذ القضاء وهكذا حكم الهوى

وقال بدر الدين بن الصاحب فى جارية تدعى صباح:

وقينة تدعى صباحا قد غدت ... فى حسنها تباهة فى مراح
تصد والطرف لها ساهر ... تقول ليلى ما له من صباح

وقال الشيخ نجم الدين الفخفارى فى جارية تدعى قلوب:

عاتبنى فى حبكم عاذل ... بزعم نصحى وهو فيه كذوب
وقال ما فى قلبك اذكره لى ... فقلت فى قلب المعنى قلوب

وقال القاضى شهاب الدين بن فضل الله العمرى فى جارية تدعى حدق:

سكرت فى حب من أهوى معاطفه ... نطوع الضلوع على التبريح والحرق
قالوا فجد بدموع العين قلت لهم ... لا تسألوا ما جرى منها على حدق

وقال أبو حفص جعفرَ الشطرنجى فى جارية سوداء:

أشبهك المسك وأشبهته ... قائمة فى حسنها قاعده
لا شك إذ لونكما واحد ... انكما من طينة واحده

وقال ابن قلاقس فيها وابدع:

رب سوداء وهى بيضاء معنى ... نافس المسك عندها الكافور
مثل حب العيون تحسبه النـ ... ـناس سوادا وإنما هو نور

وقال أبو تمام الحجام الطيطلى وأجاد:

يا كعبة بذوى الألباب لاعبة ... فى أصل حسنك معنا غير متفق
خلقت بيضاء كالكافور ناصعة ... نصرت سوداء من مثواك فى

وقال شهاب الدين بن فضل الله فى جارية سوداء مغنية:

يا رب سوداء لأجفانها ... كما لبيض الهند تأثير
يطربنى ترجيع ألحانها ... وكيف لا يطرب شحرور

ولا بأس بإيراد نبذة يسيرة من ذمهم:

قال جماز لعلى الرازى وقد أراد شراء حبشية تمنعها الدهر مزمن وإبطها منتن وجدها لا يقبل الطيب وإذا شربت احمرت عيناها واخضرت وجتاها وإذا كبت فنخاعة على جد اسود.

وقال الماهانى لصديق له لما أولعت بالسودان فقال لانهن أسخن فقال الماهانى أسخن للعير.

نادرة: تزوج مدنى سوداء فعوتب فقال عتق ما يملك إن لم يكن ضراطها فى الليلة الشاتية أنفع من عدل فحم.

وقال الصنوبرى يهجو زامرة سوداء:

كأنما المزمار فى أشداقها ... غرمول عير فى حيا أتان
وترى أناملها على مزمارها ... كخنافس دبت على ثعبان

وقال السراج المختار الحلبى فيها:

ولرب زامرة تهيج بزمرها ... ريح البطون فليتها لم تزمر
شبهت أنملها على ضرباتها ... وقبيح مبسمها الشنيع الابخر
بخنافس قصدت كنيفا واغتدت ... تسعى إليه على خيار الشنبر

ولنختم هذا الفصل بلطائف من حكايات الجوارى الحسان وما خصوا به من فصاحة اللسان:

قال بعض الرواة الأخيار ومن يوثق به فى الأخبار: رأيت بالبقاء ثلاث جوار كأنهن أقمار أو كأنما أفرغن فى قالب الحسن أو ملكن أنفسهن فتصورن كما اشتهين قلت يا ضرائر الشمس أخوات أنتن قلن لا ولكنا الاف مودات وعقائل حبيبات نجتمع فى هذا المكان لسبب ما تشتمل عليه القلوب من دفائن العيون ونحن نصف لك حالنا فاقض علينا بما تسمع من أشعارنا قلت قلن فقالت الأولى:

يقولون طعم الحب مر وإننى ... أظن بأن الهجر مر من الحب

فقلت المريض أعلم بدائه فقالت سبحان من ستر خلقه بثوب عفوه ولم يعلم غيره ضمائرهم بثاقب علمه.

وقالت الثانية:

أظن بأن الحب يقتل أهله ... إذا لم يكن فى الحب قرب ولا وصل

فقلت من جرب أمرا عرفه فأظفر حياءها تورد خديها.

فقالت الثالثة:

أخال الهوى داء يعز دواؤه ... إذا غاب من يهوى وعانده الدهر

فقلت من خاف شيئًا حذر منه وإلا وقع فيه فتنفست الصعداء وقالت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وقمن فما رأيت أغصانا تحملن أقمارا أسافلها كثبان إلا هن.

وحكى سيار بن المعتمر قال زرت مخارقا وكنت أهوى جاريته معين وكانت أديبة مسمعة فأُخرجها وجعلت تغنى وطرفها يضحك فوهمتنى سرورها بمحبتى إليها فبقيت فى لذة من غنائها تتجاوز الوصف فلما قرب وقت الانصراف دخلت ثم خرجت وعليها عصابة فيها مكتوب:

تبسم طرفى فاستهام فؤاده إلى ضحك عين صيرته له سحرا
إلا أن حسن الطرف ما كان ضاحكا فلا يوهمنك الضحك فى مقلتى أمرا

فاختلط عقلى وتمرر على ما كان حلا من تمتعى معها فلما رأت ما قد نزل بى قلبت العصابة فإذا عليها مكتوب:

مزحت فلا تجعل مزاحى علة لصرف الهوى عنى فتجعله هجرا
منحتك من قلبى مكانا وقربة عليك فلا تأسى لما حكيته شعرا

وقرأت فى كتاب منازل الأحباب ومنارة الألباب تأليف العلامة شهاب الدين محمود الحلبى ـ رحمه الله تعالى ـ حكى أبو الفرج الاصبهانى عن بعض بنى حمدان قال كنت مع المتوكل لما شخص إلىَ الشام فلما وصلنا إلى حمص قال أريد أن أطوف هذه الكنائس والمواضع التى تعرف بالفراديس فإنى كنت أسمع بطيب هذا المكان فقلت الرأى ما رأى أمير المؤمنين فلما استراح من الركوب دعانى وأخذ بيدى ولم يزل يستقرئ تلك الكنائس والأديرة وما فيها من الصور واحداث الرهبان وبنات القسيين فرأينا وجوها كأنها الاقمار على غصون تنثنى على تلك الاروقة والحصون وكلما مر بنا شيء من ذلك قال أتدرى ما نحن فيه وخلونا براهب من قوام الكنيسة فجعل المتوكل يسأله عن اسم كل من مر به ونسبه فبينما نحن كذلك اذ مرت بنا جارية ما رأيت لها شبها فى يدها مبخرة تبخر بها فقال لها المتوكل تعالى يا جارية فأقبلت بحسن أدب وكمال حسن فقال للقس من هذه قال ابنتى قال وما اسمها قال شعانين فقال لها المتوكل يا شعانين اسقنى ماء فقالت ماؤنا ههنا من الغدران ولست استنظف لك آنية الرهبان ولو كانت روحى ترويك لجدت لك بها ثم جاءت بكوز من فضة فيه ماء فأومت إلىّ أن أشربه فشربته فازداد عجبه بها وقال لها يا شعانين إن أنا هويتك تساعدينى فتنفست الصعداء وقالت يا مولاى أما الآن فأنا أمتك وأما كونى عرفت صدق محبتك وتمكنها من قلبك فلا فما أخوفنى من حدوث الطغيان عند تملك السلطان أما سمعت قول الشاعر:

كنت لى فى أوائل الامر عبدا ثم لما ملكت صرت عدوا
أين ذاك السرور عند التلاقى صار منى تجنبا ونبوّا

فطرب المتوكل حتى كاد يشق ثوبه وقال لها هبى لى نفسك أشرب أنا وأنت اليوم فقالت على الرحب والسعة ثم أصعدتنا إلى علية مشرفة على تلك الكنائس فرأينا منظرا عجيبا ثم جاءت بأدب حسن ورقاق وكان المتوكل عاف ما جاءت به واستأذنها فى احضار طعام فأذنت فأتى بخرفان مشوية وأشياء غريبة الأنواع فاستظرفت ما جيء به واستهولت الآلة وفطنت لامر المتوكل وقامت بين يديه وهمت بالسجود له فمنعها ثم جاء القس من بيت الرهبان بشراب ذكر المتوكل أنه لم يشرب مثله قط فشرب وشربت معه ثم استعفيته من أجل حمى لحقتنى فأعفانى وشربها بحديثها فلما أخذ منه الشراب قالت يا سيدى أغنيك عن ضعف الصنعة فقال إن فعلت كمل والله ظرفك فأتت بشيء يشبه العود فاندفعت تغنى بهذه الأبيات:

يا خاطبا من المودّة مرحبا	نفسى فداؤك لا عدمتك خاطبا
أنا عبدة لهواك فاشرب واسقنى	واعدل بكأسك عن جليك إن أبى
قد والذى رفع السماء ملكتنى	وتركت قلبى فى هواك معذبا

فصاح المتوكل وقال أميت أنت وذلك لأنى كنت أخطأت فى ترك مساعدته فأخذت رطلا وشربته حتى لحقته ومضى لنا من الايام الافراد ثم أرغبها المتوكل واستسلمها ونزوجها ولم تزل عنده حظية إلى أن قتل فى داره.

كتب بعض المجان إلى صاحب له يستهديه جارية حفظك الله وحفظ النعمة عليك أن بين كل أمر يطلبه الرجل وبين المطلوب منه ذريعة يتوسل بها إلى معروفه ولى بالرجاء فيك درجة توجب قضاء الحقوق وحاجتى أبقاك الله ظريفة من الجوارى لم تتداولها أيدى التجار ولم تمتهنا خدمة الموالى ولى فيها شريطة أعرضها عليك وأذكرها لديك لترى رأيك فيها أنه كان يقال إذا اتخذت جارية فاستحد شعرها فإن الشعر أحد الوجهين وتكون رابعة البياض تامة القوام فإنه يقال إن البياض والطول نصف الحسن كله وتكون مليحة المضحك فإنه أول ما يستجلب من المرأة به المودة ومتقاربة الخطوة وتكون جيداء العنق غيداء اللبب كحلاء العين لها طرف أدعج وحاجب أزج موردة الخدين سهلتهما واضحة الجبين قنوب الانف حمراء الشفتين مفلجة الثنايا نقية الثغر مشرقة النحر ولست أكره الانكسار فى الثديين لأنه لا لذة للنهود عندى الا لذة النظر وهى أيضا تحول بين المعانق وبين ارادته وإن قال الشاعر:

حال الوشاح على قضيب زانه	رمان صدر ليس يعطف ناهد

واكره العجيزة الضخماء ولا أحب الرشحاء أريدها وسطا لأن خير الامور أوساطها وتكون سبطة البنان فتلى الساعد ممتلئة الذراع فخمة العضد قبياء البطن نحيفة الخصر يطويها الضجيع طى الحمالة عبلة الفخذين بردية الساقين لطيفة القدمين ولولا افراط الغيرة لذكرت ما أحبه مما هو مستور إلا عند الحاجة إليه وأريدها رخيمة الصوت شهية النغمة عذبة الألفاظ بها غنة الحداثة وبحة الاحتلام أشجى خلقا من الفريض وأنعم كلاما فى الآذان من مخارق وأثبت حجة من أبى الهذيل العلاف وأبين معنى من النظام ظريفة المجون حسنة الوقار إن أردتها دنت وان كرهتها نأت أطوع من الرداء وأذل من الحذّاء وقدرك أيدك الله يحمل اقتراحى عليك وشكرى لك يستوجب ما سألته منك وأنا بالاسعاف جدير وأنت بالافضال قمير، فأجابه سألت أعزك الله عن هذه الصفة وطلبت هذا النعت فأعينى فى الدنيا وما أرانى أجدها إلا فى الآخرة وقد بعثت لك بالف دينار لتلتمسها أنت وتسأل اخوانك معاونتك على ذلك فمتى وجدتها أو وجدها لك أحد دفعت إليه الدنانير رهين الدلالة وعرفنى بمقدار الثمن لانفذه إليك ـ إن شاء الله تعالى.

الباب الخامس والعشرون

فى الباءة

قال الشيخ الإمام علاء الدين أبو الحسين على بن أبى الحزم القرشى المتطبب المعروف بابن النفيس ـ تغمده الله بالرحمة ـ فى كتابه المعروف بالموجز فى الجملة الثانية من الكتاب المذكور فى قواعد الجزء العملى من الطب فى تدبير الجماع.

قال رحمه الله وسامحه: الجماع أفضله ما وقع بعد الهضم وعند اعتدال البدن فى حره وبرده ويبوسته ورطوبته وخلائه وامتلائه فإن وقع خطأ فضرره عند امتلاء البدن وحرارته ورطوبته أسهل من خلائه وبرده ويبوسته وإنما ينبغى أن يجامع إذا قويت الشهوة وحصل الانتشار التام الذى ليس عن تكلف ولا فكرة فى مستحسن ولا نظر إليه وإنما هاجته كثرة المنى وشدة الشبق وإن تحصل عقيبه الخفة والنوم والجماع المعتدل ينعش الحرارة الغريزية ويهيئ البدن للاغتذاء ويفرح ويحطم الغضب ويزيل الفكر الردىء والوسواس السوداوى وينفع أكثر الأمراض السوداوية والبلغمية وربما وقع تارك الجماع فى أمراض مثل الذوار وظلمة البصر وثقل البدن وورم الخصية أو الحالب فإذا عاد إليه برئ بسرعة.

والافراط فى الجماع يسقط القوة ويضر العصب ويوقع فى الرعشة والفالج والتشنج ويضعف البصر جدا وجماع الغلمان أقل استفراغا للمنى فيكون اضعافه وضرره أقل لكن يحوج إلى حركات متعبة لكونه استفراغا غير طبيعى وليجتنب جماع العجوزة والصغيرة جدا والحائض والتى لم تجامع من مدة طويلة والمريضة وقبيحة المنظر والبكر فكل ذلك يضعف بالخاصية وجماع المحبوب يسر ويقل اضعافه مع كثرة استفراغه المنى.

وأردأ أشكال الجماع أن تعلو المرأة الرجل مستلقيا لتعسر خروج المنى وربما بقى فى الذكر بقية فيتعفن بل ربما سال من الفرج رطوبات إلى الذكر وأفضل أشكاله أن يعلو الرجل المرأة رافعا فخذيها بعد الملاعبة التامة ودغدغة الثدى والحالب ثم حك الفرج بالذكر فإذا تغيرت هيئة عينيها وعظم نفسها وطلبت التزام الرجل أولج الذكر وصب المنى ليتعاضد المنيان وذلك هو الحبل.

ومما يعين على الجماع رؤية المجامعة والنظر إلى تسافد الحيوانات وقراءة الكتب المصنفة فى الباءة وحكايات الاقوية من المجامعين واستماع الرقيق من أصوات النساء

وحلق العانة يهيج الشهوة واطالة العهد بترك الباءة ينسيه النفس والاستمناء باليد يوجب الغم ويسقط الشهوة والانتشار. انتهى كلام ابن النفيس.

وسئل ابقراط كم ينبغى للإنسان أن يجامع فقال فى كل سنة مرة قيل فإن لم يقدر قال فى كل شهر قيل فإن لم يقدر قال فى كل أسبوع قيل فإن لم يقدر قال هى روحة متى شاء أخرجها.

فصل: ولما كان جمال المرأة وحسن تناسب أعضائها هو داعى الرجل إلى وطئها وأجلب لشهوته عند النظر إليه والمد لحواسه فى حال مصاحبتها فلا بأس بايراد نبذة من ذلك:

أجمع أهل المعرفة أن الذى يحمد فى المرأة من السواد أربعة أشياء: الشعر والحاجبان والحدقة والأهداب.

ومن البياض أربعة أشياء: بياض لونها وبياض بياض عينيها وبياض أسنانها وبياض فرقها.

ومن الحمرة أربعة أشياء: حمرة اللسان وحمرة الوجنات وحمرة الشفتين وحمرة الاليتين.

ومن الغلظ أربعة أشياء: العضدان والساقان والشفران والذوائب.

ومن الرقة أربعة أشياء: العظام والانف والخصر وأطراف الانامل.

ومن الطول أربعة أشياء: الشعر والعنق والقامة والحاجب.

ومن التدملج أربعة أشياء: الرأس والعنق والساعدان والساقان.

ومن العراض أربعة أشياء: الجبهة والعينان والصدر والالية.

ومن الصغر أربعة أشياء: الفم والكفان والقدمان والاذنان.

ومن الضيق أربعة أشياء: المنخران ثقب الاذان السرة الموطأ.

ومن الصلابة أربعة أشياء: الثديان الاليتان القبل عضلة الساق.

ومن الملس أربعة أشياء: ظهر الكفين الترقوة الاصابع العنق.

ومن النشافة أربعة أشياء: العينان المنخران الفم الفرج.

ومن الصفاء أربعة أشياء: الحدقتان البشرة الاسنان الاظفار.

ومن الكبر أربعة أشياء: الكتفان الركبتان الفخذان الموطأ.

ومن الأشياء البارزة أربعة أشياء: الارداف الموطأ الكاهل.

ومن الحلاوة أربعة أشياء: الوجه والريق والعينان والنغمة.

ومن اللين أربعة أشياء: اللحظ النفس الكلام البشرة.

ومن الحسن أربعة أشياء: الخلق والخلق والادب والطاعة.

ومن الملاحة أربعة أشياء: الضحك والنغمة والنوم والمشية.

ومن النظافة أربعة أشياء: الوجه والفرج والابطان والاطراف.

ومن الأشياء الشهية أربعة: الملامسة المحادثة المعانقة المعاتبة.

ومن الأشياء الخافية أربعة: الكعبان الزندان المرفقان الترقوة.

ومن الصدق أربعة أشياء: المودة والحياء والعفة والأمانة.

ومن السخونة أربعة أشياء: الموطأ الكفان المجلس باطن القدم.

ومن الطيب أربعة أشياء: النفس النكهة الابطان الفرج.

تمت الاربعات.

ومن الأشياء المهيجة للباءة: التقبيل، قال الاصمعى كل جماع لا قبل فيه فهو خداج يعنى ناقصا، وقال الجاحظ أربعة أشياء ممسوخة البركة: أكل الارز البارد والبوس على النقاب والغناء من وراء الستارة والجماع فى الماء قالوا وأحسن الشفاه وأشدها تهييجا وأوفق ما رق الاعلى منها واحمرت ونظفت وحرفت وكان فى الاسفل منها بعض الغلظ وإذا عض عليها اخضرت فإن القبلة لهذه الشفة احلى وأعذب وقالوا إن ألذا القبل قبلة ينال فيها لسان الرجل فم المرأة ولسان المرأة فم الرجل وذلك أنه إذا كانت الجارية نقية الفم طيبة النكهة فإنها تدخل لسانها فى فم الرجل ادخالا يصيب ريقها وحرارة لسانها لسان الرجل فينحدر ذلك الريق وتلك الحرارة والتسخين إلى ذكر الرجل وفرج المرأة فيثير ذلك شبقهما وغلمهما ويقوى شهوتهما فيزداد لونهما صفاء وحسن.

وما أحسن قول ابن المعتز:

وكم عناق لنا وكم قبل ... مختلسات حذار مرتقب

نقر العصافير وهى خائفة ... من النواطير يانع الرطب

وتلطف بن وكيع فى قوله:

ظفرت بقبلة منه اختلاسا ... وكنت من الرقيب على حذار

ألذ من الصبوح على غمام ... ومن برد النسيم على خمار

وأما كلام المجامع عند الباءة فإنه من كمال المسرة وتمام اللذة لأن كل من حواس الفاعل تكون مشغولة بلذة ما فالعين بلذة النظر والفم بلذة الرشف والانف بلذة الطيب والذكر بلذة الجماع فيحتاج أن تكون الاذن ممتعة بلفظ المحبوب لا سيما إن كان ذلك

الكلام مما يجلب الشهوة فتتكامل اللذة فإن الملتذ يريد أن يجد اللذات المتفرقة فى شخص واحد ليتم باجتماعهما صورة واحدة شريفة.

قال الشاعر:

وفى أربع منى خلت منك أربعا فما أنا أدرى أيها هيج لى كربى
أوجهك فى عينى أم الريق فى فمى أم النطق فى سمعى أم الحب فى قلبى

وقال عمرو بن بحر الجاحظ كان بالهند امرأة تعرف بالالفية وذلك أنه كان قد وطئها ألف رجل وكانت أعلم زمانها بأحوال الباءة وأن جماعة من النساء اجتمعوا إليها فقالوا أيتها الأخت أخبرينا ما نحتاج إليه ونستعمله وما الذى يثبت محبتنا فى قلوب الرجال وما الذى يتلذذون به ويكرهون من اخلاقنا وما ينبغى أن يعمل معهم ليستجلب به محبتهم قالت نعم:

أول كل شيء أقول لكم إنه ينبغى ألا يقع له نظر إلا على زينة.

قالوا وما الذى يجب على الرجل أن يتقرب به إلى قلب المرأة؟ قالت الملاعبة قبل الجماع والرهز بعد الفراغ.

قلن فما الذى يكون سبب محبتهم لبعضهم بعض واتفاقهم؟ قالت الانزالين فى وقت واحد؟

قلن فما الذى يفيد مودتهما وصحبتهما؟ قالت أنى يكون غير ما ذكرت لكم.

ثم سألوها عن أصناف الجماع فذكرت لهن ذلك أضربت عن ذكرها لكثرة أقسامها.

ومن أراد ذلك فليطالع الكتب المؤلفة فيها فإنها مشحونة بها.

وأما ميلهن إلى النكاح وشدة شبقهن فمنه ما حكى أنه كانت امرأة لها يسار وحال فخطبها رجل به يسار وحال وثروة فلم نفعل فقالت لها أمها يا بنية لم لا تتزوجين بهذا الرجل فإنك لا تجدين مثله فقالت لا أريده لأنى سمعت أن فى وسطه ايرا عظيما مثل الوتد ولا طاقة لى به قال فتشفع الرجل إلى أمها وسألها أن تشفع فقالت له قد ذكرت لها أمرك فقالت إنها لا تطيق ايرك فقال زوجينى بها واشرطى لها على شرطا اننى لا أدخل منه شيئًا إلا بأمرها ويكون فى يدك تدخلين منه الذى تشتهين وتتركين الذى لا تريدينه فقالت لابنتها ذلك فقالت رضيت بهذا الشرط فلما كان ليلة العرس قالت له أمها أنت على الشرط قال نعم فلما خلا بها قال لها تقدمى وامسكيه بيدك وأدخلى منه ما تريد ابنتك فأخذته بيدها وأدخلت منه مقدار عقدة وقالت يكفيك هذا قالت زيدى يا أماه عافاك الله فزادتها فلم تزل كذلك إلى أن لم يبق منه شيء فقالت أزيدك يابنية فقالت إى والله يا أمى قالت يا بنية فأنت

قلت لا طاقة لك به فوالله ما بقى معى منه شىء فقالت البنت أسخن الله عينيك والله لقد كان أبى يقول إنك أى شىء وضعت يدك عليه طارت البركة منه وأنا لا أعلم وقد علمت الآن.

صفة شربة نافعة للهوى وعليل النوى: باسم الله اللطيف الحكيم يؤخذ على بركة الله ولطفه: ثلاثة مثاقيل من صافى وصال الحبيب، منقاة من عيدان الجفا وخوف الرقيب، وثلاث مثاقيل من بزر الاجتماع، منخولة من غلث الهجران والانقطاع، وأوقيتين من خالص الود والكتمان، منزوعة من عيدان الصدر والهجران، ويؤخذ من عطر البخور ولثم الثغور وضم الخصور من كل واحد مثقالان، ويؤخذ مائة بوسة رمانية محكوكة مرضوضه منها خمسون صغار سكريه، وثلاثون زق الحمام وعشرون عصافيرية ويؤخذ غنج حلبى وشخير عراقى من كل واحة مثقالان ويؤخذ اوقيتان من مص اللسان ولثم الفم مع الوجنتين، ويدق الجميع ويخلط ويذر على وزن ثلاثة دراهم غلمة مصرية، ويضاف إليها قرص الاعكان المطوية ويغلى بماء المحبة على شراب الشوق وخطب الطرب فى مرحل العجلة ويصفى الجميع على ديبقى سلطانى ويحل فيه أوقيتان من شراب الرضاب ويشرب على الريق من ثغور الاحباب ويكون الغذاء مزورة بقطين الاشتياق ويضاف إليها قلب لوز العناق وماء ليمون الاتفاق ويتناول بعد ذلك ثلاثة أرطال من المدام ثلاثة أيام ويتبعه برطلين من شيل الساقين ويدخل الحمام، نافع مجرب والسلام.

بعث بعض الظرفاء إلى محبوبة له مروحة وبأوقة زهر وسكر نبات وشرابه وعود ففهمت مراده وبعثت إليه خيطا أحمر وقطعة من صباره وثلاث كمونات سود وغاسول وزر ففهم مقصودها وصبر، والمراد من فعله أنه أراد بالمروحة نروح وبالزهر البستان وبالسكر النبات نبات وبالشرابة نشرب وبالعود نسمع الغناء، ومقصودها أنها عرضت بالخيط الاحمر أنها حائض وبالصبارة اصبر وبالثلاث الكمونات ثلاث ليال والغاسول أغتسل وأزورك.

وأهدت بعض القينات إلى الملك العزيز ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف فى بعض الأيام كرة من العنبر فكسرها فإذا فى وسطها زر ذهب وكانا يكتمان أمرهما خوفا من السلطان فلم يفهم معنى ذلك فارسل إلى القاضى الفاضل يسأله عن ذلك فقال ارتجالا:

أهدت لك العنبر فى وسطه	زر من التبر دقيق اللحام
فالزر فى العنبر معناهما	زر هكذا مستترا فى الظلام

كتبت بعضهن على عصابتها أصعد وتمكن على بطن معكن.

وكتبت أم القاسم بنت بلبل العطار وكانت من كبار المساحقات على خاتمها مل من الباطل فرجع إلى الحق.

وأين هذا من قول بعضهن وقد قيل لها ارجعي إلى الحق فقالت الحق بعض مرادي.

وهذا من الاجوبة اللطيفة وما أحقها بقول القائل شعرا:

مغرمة بالسحاق أضحت تبكى عليه بكل عين

كما اتقنت من الهيول إلا تصنيف اسحق فى حسينى

وحكى أن رجلا دخل إلى بيت فوجد امرأتين وهما يتساحقان فجذب التى هى فوق وقعد مكانها وقال هذا عمل يحتاج إلى حبال ورجال.

وقال آخر:

جرح يريد الفتيلة ايش تنفعه اللزقاق

وقال الشيخ زين الدين الوردى:

قولوا لمن تهوى السحاق الذى حرمه الله فما فيه خير

أخطأت يا كاملة الحسن اذ أقمت اسحق مقام الزبير

يحكى أن جدة بنت زياد المؤدب ذكرها المؤرخ الترحال نور الدين بن سعيد فى كتابه المغرب وقال وهى من خنساء المغرب من نظمها وقد خرجت إلى وادى مدينة واد بالقرب مع جوار لها فسبحت معهن وكان لها فيهن هوى:

أباح الدمع اسراري بواد له فى الحسن آثار بوادى

فمن نهر يطوف بكل روض ومن روض يطوف بكل وادى

ومن بين الظباء مهاة أنس لها لبى وقد سلبت فؤادى

لها لحظ ترقده لامر وذا ك الأمر يمنعنى رقادى

إذا سدلت ذوائبها عليها رأيت البدر فى أفق السواد

كأن الصبح مات له شقيق فمن حزن تسربل بالحداد

وقالت ماجنة لمساحقة ما فى الدنيا أطيب من الموز قالت نعم إلا أنه ينفخ البطن.

وقالت ماجنة لمساحقة أين أنت عن الاصلع الاقرع الاحدب المربوق الذى كأنه بوق العظيم الحوق الكثير العروق الذى يخرق الحزوق ويسد البشوق ويفتق الفتوق ويرفو الشقوق ويقضى الحقوق ويأخذ بالخلوق الاجرد الاربد الذى كأنه الوتد أو رقبة الاسد الاحمر الاشقر المعجر الذى رأسه كالمحور وأصله كالانحر وفيه عرق أخضر كأنه عرق

لحم البقر فى رأسه كماة ووسطه قناة وفى أسفله مخلاة ولحيته فى قفاه يراك من حيث لا تراه لو نطح الفيل كوره أو دخل البحر ثوره كأنه غصن بان أو سنف يمان أو صقلانى عريان أو زنجي غضبان بل كأنه شيطان أو راهب بحران أو د.ا.ة هامان أو عنتر فى الحرب أو حارس فى درب أو رأس حمل أو ركبة جمل أو كوكب الذنب أو طن قصب أو ذنب التنين أو شوبك القيارين ينطح بغير قرنين ويمشى بغير رجلين ويبصر بغير عينين يدخل فى الظلمات وهو أحد البليات فى عنه طوق من أسفل إلى فوق إذا ارتفع النهار يكون كالجلنار أتيه من ملك القندهار مدمج كالطومار يغوص فى البحار ويثقب بالابكار ويدخل فى الاحجار إذا جنه الليل أطال القيام والناس نيام.

فقالت المساحقة أما علمت أن اللطف والنظافة والظرف واللياقة والتساحى والبراعة فى السحق الذى هو سبعون ومائة واحدة منها العقبى والاستكلاب والطنبلسب والملح والمعوج والمقرطح والدارتردار والطاق برطاق والمخالف والمؤالف والشراعى وقبضه وبسطه وعقبه وضغطه والغطيط والصفدعى والتفن والرهز وغير هذه، وأما أنتم فكل شىء لكم النوم على القفا والادخال فى الاست فإذا جهدتم جهدكم كان لون آخر وهو القيام على أربع ويسمونه الحمارى وتفتخرون به وأين هذا من أخذه سوقا وعمل وسؤال وعلل ورقدة وخلوة وحديث هند والزرقا ودعنا نبوران.

وقد بلغنا أن رجلا قبض على امرأة فى خزانة الشراب ورفع رجليها ليضعه بين شفريها فغلط وأدخله فى استها فتسنمت ورفسته فانصدع من حلقه ست وثلاثون خابية خمر ونحن فتجتمع منا الغانية الشكل البيضاء القحبة الشطبة الرطبة الغضة البضة التى كأنها ريحان أو قضيب خيزران بثغر كاللؤلؤ وذوائب كالارسان وخدود كشقائق النعمان أو تفاح لبنان وثدى كالرمان وبطن بأربعة أعكان وحر كأنه قبة الدار أربع فى ثمان أو قرنبة عليها شونير أو أرنب جاثم أو بطة سكارية بشفرين أغلظ من شفة البقرة كأنهما سنام نافر فى لون العاج ولين الديباج وبياض الفنك ودهنية الودك كأنه الركوة المنفوخة منتوف محلوق مضمخ بالمسك والخلوق كأنه كسرى أنوشروان فى صدر الايوان منهلل خذلان فرح مرح ومعه من الملاحات ما يخرج عن حد الصفات من الاصابع المطرفة والاصداغ المرزفة والحواجب المزججة والخدود المذبحة والشعور المرجلة والنحور المزينة بالمراسل من الغر والياقوت والمرجان فى الغلائل الممسكة المبخرة بالعود الهندى المعجون بالعنبر مع أخرى تتهادى كالفجر بل كالشمس والقمر فى منازل الصعود على الفرش الديبقية والاردية

القصبية ومطارف الخز المصضربات من رقيق القز المحشوة فوق الاسرة من الابنوس والعاج ومخاد الديباج المحشو فيها زغب الريش المحفوفة باللحالح السليمانية والدسبونات السوسية ويرانى النرجس مع أترج السوسن وتفاح أصبهان والسفرجل والرمان وأطباق الرياحين المشمومة بين تلك الافاويه المقمعة بالعنبر والوصائف الفارغات عليهن العقيان يتضوع من قراطقهن العنبر فيخلو معها بتلك المعاتبات الشجية والنغم العذبة والاشارات اللطيفة والغمز بتلك الحواجب والجفون الساحرة السالبة لألباب ذوى العقول والآداب بالألفاظ الرقيقة المحركة للسواكن المسكنة للحركات بالغنج والشكل والبراعة واللمس الذى تضرب له العروق الهادية وتهدأ له العروق الضارية فإذا صافحت الخدود الخدود وانحدرت الدموع فيما بينهما برقة الشكوى ولطافة النجوى كالطل على ورق الورد وتطابقت الصدور على الصدور وانضمت النحور إلى النحور واصطكت الثغور بالثغور والتفت الساقان المدملجة بأخواتهما وتراكب الشفران على الشفرين واختلج كل جانب منهما على الآخر لم يقع أبقراط ولا جالينوس على بنصته ولا اركاعانيس على مجسه ولا افلاطون وارسطاطاليس عَلى حسنه ولا بطليموس على حسابه ولا قس بن ساعدة على شرحه وبيانه ولا إبراهيم النظام على برهانه ولا النعمان على قياس ولا منصور بن عمار على صفاته حتى إذا علت الانفاس واستغرقت الحواس وارتفعت الحرارة الغريزية إلى الرأس وبطل فيما بينهما كل قياس نظرت إلى الحركات الحسية والضمائر الوهمية والطبائع الغريزية والالحاظ العشقية وقد ضبط كل عضو اقليمه واستكمل فيما هو فيه نعيمه بين مص وقرص ومقابلة ومخايله ومخالبة ومناهبة ومواثبة ومسالبة ورهز وغمز وشهيق ونهيق ونخير ونعير لو سمعه أهل الثغور لصاحوا النفير مع رفع ووضع وجذب ودفع وضم وشم والتزام وقبل وعمل أحسن من كل عمل كل ذلك بأنين وحنين وأدب وأرب حتى إذا حان الفراغ ووصلت اللذة إلى بطون الدماغ شممت روايح الروايح خمار ونظرت إلى اهتزاز غصن البان فى حلى الازهار فلو ابصر الفطناء ما هما فيه لحاروا ولو سمع بها الركبان لساروا فيا لها من لذة كاملة ونعمة شاملة.

قلت: وأنشدنى الشيخ شمس الدين الرئيس من لفظه لنفسه شعرا:

عشاقة النسوان مذ لمتها ... قالت دع اللوم ولن فى المقال

ما فى سويداء القلب إلا النسا ... ما حيلتى ما فى السويداء رجال

ونقلت من الإحاطة بتاريخ غرناطة تأليف الإمام العلامة ذى الوزارتين لسان الدين محمد بن الخطيب ـ تغمده الله بالرحمة ـ قال المصنف المذكور كتب إلى سيدنا ومولانا

قاضى القضاة ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون الحضرمى صبيحة الانبياء بجارية تدعى هند:

أوصيك بالشيخ أبى بكره لا تأمنن فى حالة مكره
واجتنب الشل إذا جئته جنبك الرحمن ما تكره

سيدى لا زلت تنصف بالوالج بين الخلاخل والدمالج وتركض فوقها ركض الهمالج أخبرنى كيف كانت الحال وهل حطت بالقاع من خير البقاع الرحال وأحكم بمرود المراودة الاكتحال واكتحل بالسقيا الامحال وصح الانتحال وحصحص الحق وذهب المحال وقد طولعت بكل بشرى وبشر وزفت هند منك إلى بشر فلله من عشيقة تمتعت من الربيع بفرش موشية وابتذل منها أى وساد وحشية وقد أقبل ظبى الكناس من الديماس ومطوق الحمام من الحمام وقد حسنت الوجه الجميل النظر به وأزيلت عن الفرع الاثيث الابريه وصقلت الخدود فكأنها الامريه وتسلط الدلك على الجلود وأعزبت النورة بالشعر المولود وعادت الاعضاء تزل عنها اللمس ولا ينالها البنان الخمس والسحلة يجول فى صفحتها الفضية ماء النعيم والمسئول بينى من بينه الشعيم والقلب يرمى من الكف للرقيم بالمعقد المقيم وينظر إلى نجوم الوسوم فيقول إنى سقيم، وقد تفتح ورد الخضر وحكم لزنجى الضغيرة بالظفر واتصف أمير الحسن بالصدود المغتفر ورش بماء الطيب ثم أعلق بالله بالعود الرطيب وأقبلت الغادة تهديها الثمن وتزفها السعادة فهى تمشى على استحيا وقد ذاع طيب الربا وراق حسن المحيا حتى إذا نزع الخف وأقبلت الاكف وصحب المزمار وأجاب الدف وداع الازج وتخوّر اللوى والمنعرج ونزل على بشر بزيارة هند الفرج اهتزت الارض وربت وغوصبت الطباع البشرية فأبت.

ولله در القائل:

ومرت وقالت متى نلتقى فهش اشتياقا إليها الخبيث
وكاد يمزق سرباله فقلت إليك بساق الحديث

فلما انسدل الظلام وانتصفت من عريم العشاء الآخرة فريضة الاسلام وخاطت خيوط المنام عيون الانام تأتى دنو الجلسة ومسارقة الخلسة ثم آن عض النهد وقبلة الفم والخد وارسال من الخد الى الوهد وكانت الإمالة القليلة قبل المد ثم الإفاضة فيما يعيط ويرعب ثم الاماطة لما يشوّش ويشغب ثم اعمال المسير إلى السرير وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ورضيت فذلت صعبة أى اذلال هذا بعد منازعة الاطواق بسرة تراها العيد من حسن المسرة ثم شرع فى حل التكة ونزع السكة وتهيأت الأرض الغرار عمل السكة ثم كان

الراى الاستعجال وحمى الوطيس وضاق المجال وعلا الحرة الخفيف وتصافرت الخصور الهيف وتساطر الطبع العفيف وتواتر التقبيل وكان الاخذ الوبيل وامتار الانول من النيل ومنها جائر وعلى الله قصد السبيل فيا لها من نعمة متداركة ونفوس على سبيل القحة متهالكة ونفس تقطيع حروف الحلق وسبحان الذى يزيد فى الخلق وعظمت الممانعة وكثرت باليد المصانعة وطال التراوغ وشكى التجاوز وهناك تختلف الأحوال وتعظم الاهوال وتخسر وتربح الاموال فمتى عصى ينقلب ثعبانا مبينا ونونه تصير سينا وبطل لم يهله المعترك الهائل والوهم الزائل ولا حال بينه وبين قربه الحائل فتعدى فتكة السليك إلى فتكة البراض وتقلد مذهب الاراقة من الخوارج فى الاعتراض ثم شق الصف وقد خضب الكف بعد أن كان يصيب البراء بطعنته وسبق بمقت الله وبعنايته طعنة ابن عبد القيس طعنة ثائر لها نقد لولا الشعاع أضاءها وهناك هدأ القتال وسكن الجبال ووقع التوقع فاستراح البال وتشوق إلى مذهب التنويه من لم يكن للتوحيد بمثال وجعل الجريح يقول وقد نظر إلى دمه يسيل على قدمه إنى له عن دمى المسفوك معتذرا وقول حملته فى سفكه تعبا ومن سبات عاد عيانا وشجاع صار جبانا كلما شابته شائبة ريبة أدخل يده فى جيبه فالحجرة الحية وماتت الغريزة الجبة وتقلب الخضر وخف اللغاب وتظاهر اللعاب ويخفق الفؤاد ويكبو الجواد ويسيل العرق ويشتد الكرب والارق ولبس فى محل الامن الغرق ويدرك فرعون الغرق ولا يزيد الحال الا شدة ولا يعرف تلك الجارحة المؤمنة الا ردة.

اذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده

فكم مغرى بطول اللبث وهو من الخبث يؤمل الكرة ليزيل المعرة ويستنصره الجبال ويعمل باليد الاحتبال.

شعر:

انك لا تشكو الى مصمت فاصبر على الحمل الثقيل أو مت

فقال سيحدث الله بعد عسرا يسرا وبعد عى ثباتا اللهم انا نعوذ من فضايح الفروج اذا استغلقت أقفالها ولم تسم بالنجيع أعقالها ومن معرات الاقدار والنكول عن الابكار ومن النزول عن البطون والسرر والجوارح الحسنة الغرر قبل تشقب الدرر ولا تجعلنا ممن يستحى من البكر بالغداة وتعلم منه كلال الاذاة وهو محل نفضحت فيه رجال وفراش سكنت فيه أوجال وأعملت روية وارتجال فمن قائل:

ارفعه طورا على أصبعى ورأسه مضطرب أسفله
كالحنش المقتول يلقى على عود لكى يطرح فى مزبله

أو قائل:

عــدمت مــن ابرى قــوة حــســه ... يا حــســرة المــرء عـلى نفــســه
تــراه قــــد مــــال علـى أصلـه ... كــحــائط مــــر عـلى أســه

وذكر أبياتا مستكثرة من هذا النمط أضربت عن ذكرها هموم لا تزال تبكى وعلل على الدهر تشكى وأحاديث تقص وتحكى.

قال كنت أعزك الله من النمط الاول ولم يقل وهل عند رسم دار من معول فقد جنيت واستطبت السمر فاستدعى الابواق من أقصى المدينة واخرج على قومك فى ثياب الزينة واستبشر بالوفود وعرف مسمعه المسمع حارفة الجود ونجع بصلاته العود وانجاز الوعود واجن رمان النهود من أغصان القدود واقطف ببنان اللثم اقاح الثغور وورد الخدود وان كانت الاخرى فاخف الكمد وارض الثمد وانتظر الامد واكتد التوسم واستعمل التبسم واستكتم النسوه وأقص فيهن الرشوه وتقلد المغالطة وارتكب وجئ على قميصك بدم كذب واستنجد الرحمن واستعن على أمرك بالكتمان لا تظهر لعاذل أو غادر التبيان واستنشق الارج وارتقب الفرج فكم غمام طبق وما هما وما رميت ولكن الله رمى واملك بعدها عنان نفسك حتى تمكنك الفرصة وترفع اليك القصة ولا بشرى الى عمل لا يفى منه بتمام وخذ عن امام.

ولله در عروة بن حزام:

الله يعلم مــا تركت قــتــالهم ... حتى رموا مهرى بأشقر مزبد
وعلمت انى ان أقــاتل دونهم ... اقبل ولا يضرر عدوى مشهد
ففررت منهم والاحبة فيهم ... طمعا لهم بعقارب يوم مفسد

واللبانات تلين وتجمح والمآرب تدنو وتبرح وتحزن ثم تسمح وكم من شجاع حام ويقظ نام ودليل أخطأ الطريق وأظل الفريق والله عز وجل يجعلها خلة موصلة وسهلا أكتافه بالخير مشمولة وبينت أركانها لو كانت اليمن مأمولة حتى يكثر خدم سيدى وجواريه واسرته وسراريه وتصفو عليه نعمة باريه ما طورد قيص واقتحم عيص وادرك مدام غويص واعطى زاهد وحرم جريص بمنه وكرمه.

فصل: فى بعض ما كتبته المتظرفات:

كتبت طرفة جارية النطاف على عصابتها بالذهب:

* ليس فى الحب مشورة *

وكتبت توفيق جارية ابن حمدان على برقعها:

* كمال المكارم اجتناب المحارم *

وكتبت سلامة حظية عبد الله بن طاهر:

* ليس على القلب حكم *

وكتبت عنان جارية الناطقى على عصابتها باللؤلؤ:

* اذ لم تستحى فاصنع ما شئت *

وكتبت فرحة جارية على بن الجهم على عصابتها بالريش:

* من صبر ظفر *

وكتبت مشتهى جارية القاسم العجلى على معجرتها:

* من واصله الحبيب هان عليه الرقيب *

وكتبت نزهة جارية الخصاص على عصابتها:

* من جاد ساد ومن بخل ذل *

ونقشت على فص خاتمها:

* من حن أن *

وكتبت كنوز جارية ابراهيم بن اسحاق على جبينها بالمسك:

* العشق والكتمان ضدان لا يجتمعان *

وكتبت نسيم جارية جميلة المدنية على جبينها بالغالية:

* مراغمة الرقباء فى مصالحة الاحباء *

وكتبت خلف جارية ابن حمدان على طرازها:

* من عشق ولم يصبر هلك ولم يعلم *

وكتبت المستحسنة جارية اللاحقى على طرازها الايمن بالذهب:

* من دارى خليله داوى عليله *

وعلى الايسر:

* من كشف الغطاء استحق العطاء *

وكتبت وشاح المؤيدية على طراز معجرها بالذهب:

* الوفاء مليح والعذر قبيح *

قال على بن الجهم كنت عند اسحاق بن ابراهيم الموصلى فدخلت جاريته مهج الموصوفة بالجمال وقد كتبت على أحد خديها بالغالية:

من يكن صبا وفيا فمعنانى فى يديه

وعلى الآخر:

خذ مليى بمعنانى لا أمانعك عليه

وعن الجاحظ قال رأيت نشوان جارية زلزل قد كتبت على عصابتها:

ان للنرجس حسنا وعيونا أشتهيها
فأراها فتريني عين من أهواه فيها

وكتبت ترشف جارية هارون بن اسحاق على عصابتها:

أليس عجبا ان بيتا يضمني واياك لا نخلو ولا نتحدث

وكتبت جارية المتوكل زاجر على عصابتها:

اذا خفنا من الرقباء يوما تكلمت العيون عن القلوب
وفى غمز الحواجب مغنيات لحاجات المحب الى الحبيب

وكتبت نظيفة جارية يحيى بن خالد بن برمك على طوق لها:

ما ذاق بؤس معيشة ونعيمها فى النار من فى عمره لم يعشق
والحب فيه حلوة ومرارة فاسأل بذلك من تطعم أو ذق

وكتبت هاجر جارية محمد بن على على خمارها:

اذا نظرت نحوى تكلم طرفها فيجاوبها طرفى ونحن سكوت
فكم نظرة منها تقرب بى الرجا وأخرى لها حى تكاد تموت

وكتبت حسانة البدوية جارية المعتز على برقعها بالذهب:

ألاحظها خوف المراقب لحظة فأشكو لطرفى ما ألاقى من الوجد
فتفهم عن لحظتى عظيم صبابتى فتومى بطرف العين انى على العهد

وكتبت ملاعب على جبينها بالمسك:

تحمل عظيم الذنب ممن تحبه فان كنت مظلوما فقل أنا ظالم
فانك ان لم تحمل الذنب يا فتى يفارقك من تهوى وأنفك راغم

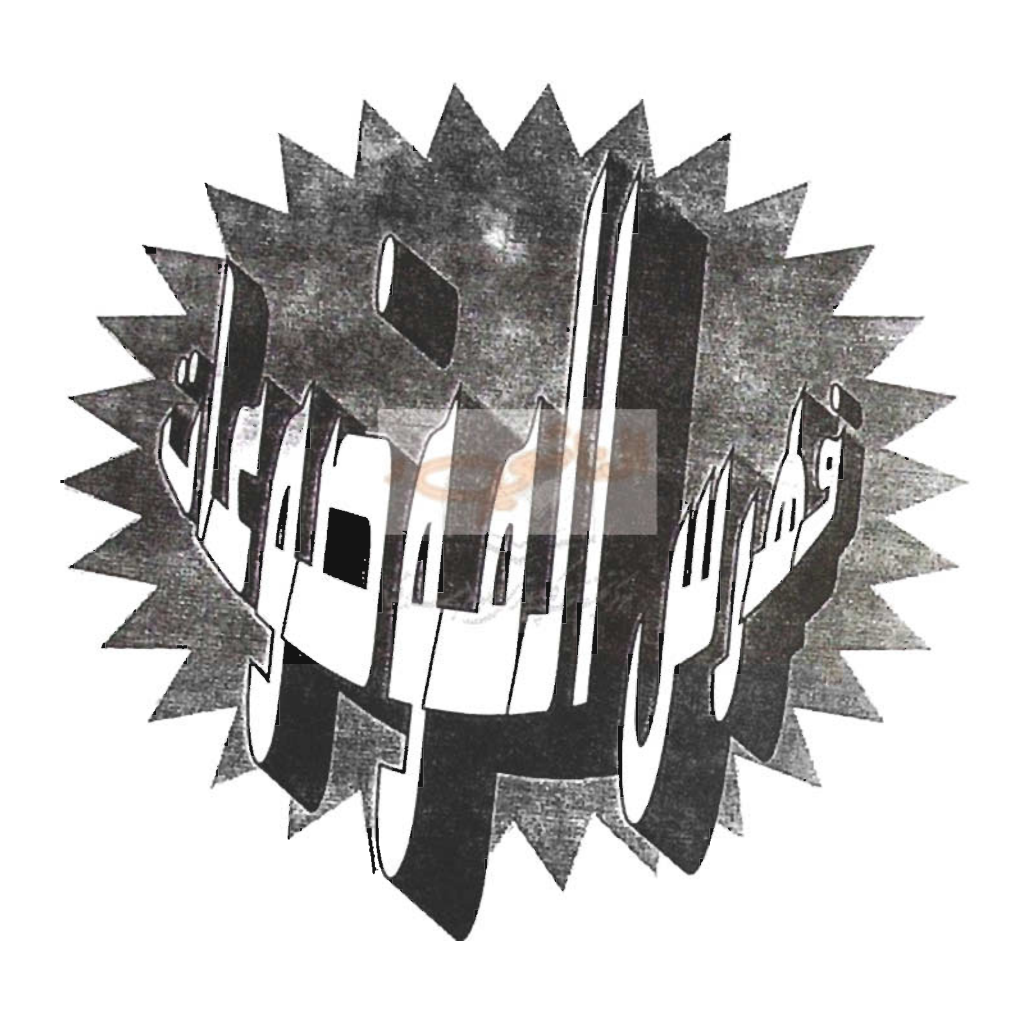
تم الجزء الاول من

مطالع البدور في منازل السرور

ويليه الجزء الثاني أوله

الباب السادس والعشرون

في الحمام وما غزى مغزاه


فهرس الموضوعات

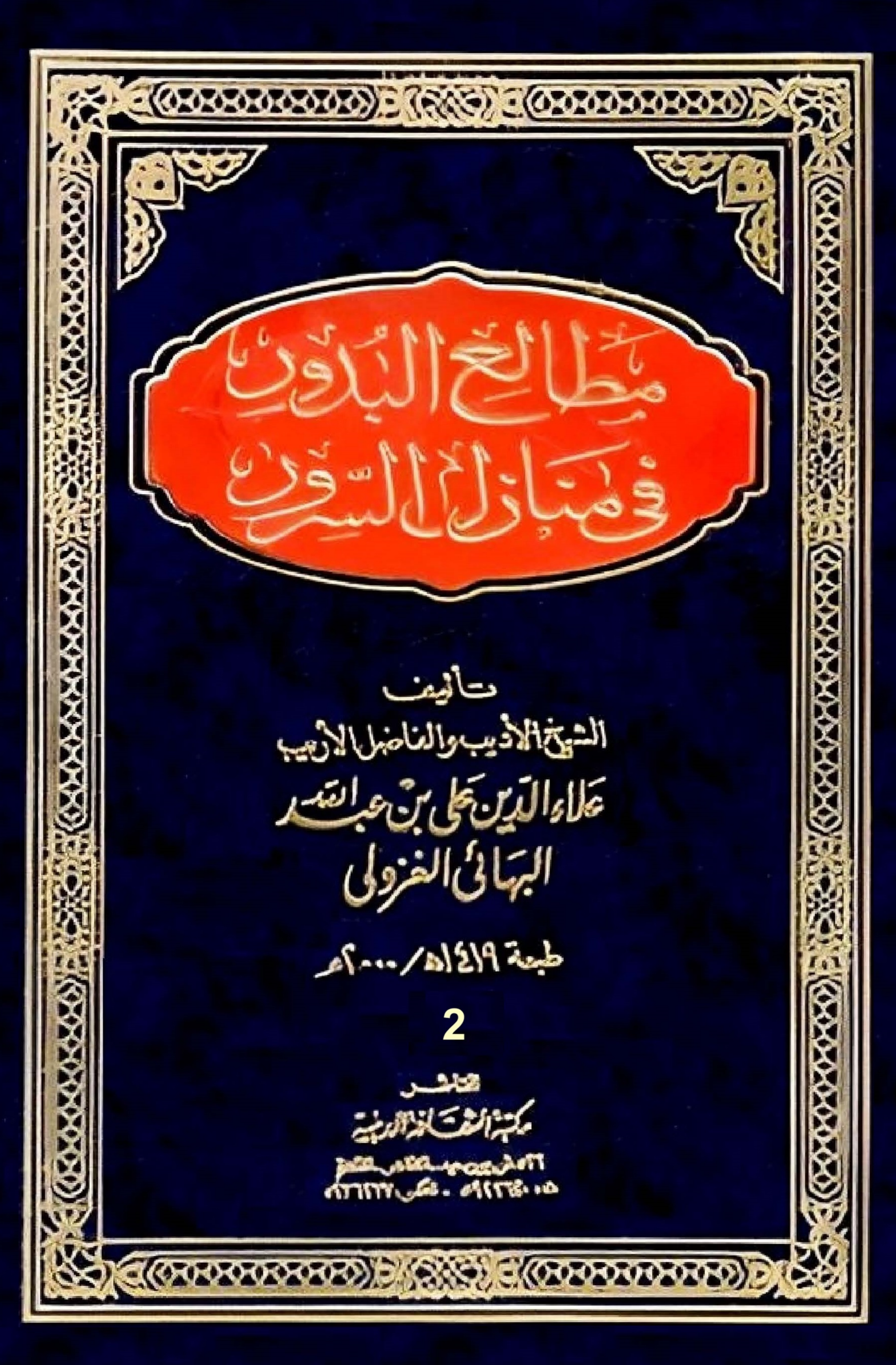
فهرس موضوعات الجزء الأول من كتاب مطالع البدور

الموضـــــوع | الصفحة

الموضـــــــــوع | الصفحة

تمت الفهرسة




مطالع البدور
في منازل السرور
تأليف
الشيخ الأديب والفاضل الأريب
علاء الدين علي بن عبد الله
البهائي الغزولي
طبعة ١٤١٩هـ/٢٠٠٠م
2
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

مطالع البدور في منازل السرور

تأليـــف

الشيخ الأديب والفاضل الأريب

علاء الدين علي بن عبد الله

البهائي الغزولي

طبعــة

١٤١٩هـ / ٢٠٠٠م

الجـــزء الثاني

الناشــــر

مكتبــة الثقافــة الدينيــة

٥٢٦ ش بورسعيد ـ الظاهر

ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب السادس والعشرون

فى الحمام وما غزى مغزاه

الحمام بالتشديد واحد الحمامات المبنية وهو مذكر، قال ابن الخباز فى شرح الالفية نادرة عن بعض الكتاب كتب يوما هذه الحمام فقيل له الحمام مذكر فقال أردت حمام النساء وهذا ظريف، وحكى فيه التأنيث أيضا وأنشد.

* واذا دخلت سمعت فيها رنة *

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: الحمام من النعيم الذى أحدثوه، وروى عن أبى الدرداء وأبى ذر أنهما قالا: نعم البيت الحمام يطهر البدن ويذكر بالنار، وقال أبو هريرة يرفعه نعم البيت الحمام يدخله المسلم يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار، وأول من دخل الحمام ووصفت له النورة سليمان بن داود عليهما السلام، فلما وجد حرها قال أوّاه من عذاب النار، قال الغزالى فى الاحياء ومن جهة الطب قيل ان الحناء بعد النورة أمان من الجذام وقيل ان النوره فى كل شهر تطفئ الحرارة وتنقى اللون وتزيد فى الجماع، وقيل بولة فى الحمام قائما أنفع من شربة دواء وغسل القدمين بالماء البارد بعد الخروج من الحمام أمان من النقرس، وذكر السمعانى فى كتاب الحمام باسناده الى الفضل بن الفضل الكندى قال ذكر فى قوله تعالى ﴿ونعمة كانوا فيها فاكهين﴾[1] انها الحمام وقت الضحى، وبسنده الى يونس بن عبد الاجل أنبأنا وهب قال سمعت مالكا يقول من أدخل رجلا الحمام وجب غذاؤه شاء أو ابى وروى عن مجاهد عن على أنه كان يغتسل من مس الابط والحجامة، وعن جابر مرفوعا نهى أن يغسل البدن بشيء يؤكل، وبسنده قال الحرث بن كلدة أربعة أشياء تهزم البدن: الغشيان على البطنة ودخول الحمام على الامتلاء وأكل القديد ومجامعة العجوز، وبسنده الى محمد بن عبد الحكيم قال سمعت الشافعى يقول رأيت فى الطب عجبا لمن

(١) الآية: ٢٧ من سورة الدخان.

يدخل الحمام قبل ان يأكل ثم يؤخر الاكل بعدما يخرج كيف يموت وعجبت لمن احتجم ثم بادر الاكل كيف لا يموت وذكر بعض الحكماء ان غسل الوجه بالماء البارد عقيب الخروج من الحمام يبقى طراونه مع كبر السن، قال الشيخ هبة الله أبو انمكارم بن جميع الاسرائيلى الطبيب فى كتاب الارشاد.

الفصل: الخمسون فى الاستحمام ومنافع الحمام ومضاره وكيفية استعماله منافع الحمام كثيرة وذلك لموافقتها لسائر الامزجة من الحارة والباردة والرطبة واليابسة اذا استعملت على ما ينبغى وقد أشار جالينوس الى ذلك بقوله ان الحمام نافع فى الشتاء والصيف ولمن مزاجه حار أو بارد أو رطب أو يابس وقال أيضا: ان الحمام علاج البدن من الضدين ان أخذه حار المزاج عدّله بترطيبه وان اخذه بارد المزاج أدفأه بحرارته وهى توسع المسام وتستفرغ الفضول وتحلل الرياح وتدر البول وتحبس الطبيعة وتنظف الوسخ والعرق وتذهب الحكة والجرب والاعياء وتلين بشرة البدن وتجوّد الهضم وتنشط الاعضاء المتشنجة وينضج الزلات والزكام وينفع من حميات يوم ومن الدق والربع والبلغمية بعد نضجها وينفع من وجع الجنب والصدر وينضج الربو ويسمن المهزول ويهزل السمين ويرقق الدم والفضول الغليظة اللزجة بحرارته ويرطب الابدان اليابسة الخشنة برطوبته وقد قال جالينوس ان الحمام يحلل الكيموس اللذاع ويفيد البدن والاعضاء الاصلية نداوة ورطوبة صافية كل ذلك اذا استعمل على القانون الطبى ولها أيضا مضار وهى أنها تسهل انصباب الفضول الى الاعضاء الضعيفة وترخى الجسد وتضعف الحرارة الغريزية والاعضاء العصبية وتسقط الشهوة وتضعف الباءة، قال وأفضل الحمام ما كان قديم البناء كثير الاضواء مرتفع السقوف واسع البيوت عذب الماء طيب الرائحة وكانت حرارته بقدر مزاج الداخل اليه وكان وقوده بما ليس له كيفية ردئة وقد أحسن الذى قال: خير الحمام ما قدم بناؤه واتسع فناؤه وعذب ماؤه وقدّر الاتان وقوده بحسب مزاج من أراد وروده، وقد قسم الحمام الى ثلاث بيوت كل بيت أسخن من الذى قبله لئلا يكون الانتقال من البرد الى الحرّ أو من الحر الى البرد فجأة: فالبيت الاول مبرد مرطب والثانى مسخن مرطب والثالث مسخن مجفف وكذلك ينبغى أن يكون الانتقال فى بيوتها على تدريج، قال بختيشوع اياك أن تدخل الحمام أو تخرج بغتة بل البث فى كل بيت هنيئة واغسل رأسك بالسدر والطخه بقليل ملح وادخل الحمام كل جمعة مرة فانك تأمن انتشار الشعر واستعمل المشط فانه

يقوى البصر ويحدث أريحة وزهوا واخرج الى المسلخ متدرجا ثم صب عليك ثوبا نظيفا طيب الرائحة وتجنب النساء يوما وليلة، وقال ابن جميع فأما أصحاب الامزجة الحارة فينبغى ان يقعدوا فى البيت الاول قليلا وفى الثانى دون الاول وفى الثالث دون الثانى وأصحاب البلغم والسوداء بالضد فان قصد بالحمام الترطيب أطيل المقام فى الحوض ويكثر من رش الماء على أرض الحمام ليكثر البخار فيترطب الهواء وليتمرخ بالدهن ليزيد فى الترطيب ويكون الخروج من الحمام قبل أن تلحقه منه مشقة مثل ضعف أو غشيان أو غشى أو شذر أو دوار أو سكتة أو صرع أو ما شابهها مثل هذه الاعراض الردئة فان كان القصد بالحمام التجفيف أطيل المقام فى البيت الحار ويقتصر على هوائه دون مائه ولاستعمال الماء البارد عقيب الحار منافع عظيمة وقال جالينوس: الاغتسال بالماء البارد عقيب الحار يقوى الاعضاء حتى القوى الجوهرية التى فى الاعضاء لكن ينبغى ان لا يكون استعمال الماء البارد عقيب الحار بغتة بل بتدريج يستعمل الماء أولا ممزوجا بالبارد ثم ينتقل بعده الى البارد ومن قصد تسمين بدنه فيدخل الحمام بعد تناوله الطعام ومن قصد تهزيله يدخل الحمام على خلو المعدة ويطيل اللبث فيه ومن قصد حفظ صحته فيدخل الحمام عند آخر الهضم بحيث أنه اذا خرج منها يكون محتاجا الى الغذاء ويجب أن يجتنب الجماع فى الحمام والنوم والفصد والحجامة فان فى ذلك خطرا بينا وكذلك ينبغى أن يجتنب فى الحمام وبعده استعمال الاشياء الباردة بالفعل لان المسام حيتئذ تكون مفتوحة فلا يلبث يندفع البرد الى جوهر الاعضاء الرئيسية فيفسد قواها وكذلك ينبغى اجتناب استعمال الاشياء الحارة الشديدة الحرارة بالفعل أيضا وخصوصا الماء فان ذلك يورث السل والدق وأما الدلك فى الحمام فان الضعيف منه يحلل ويوسع المسام ويذوب الاخلاط والقوى يصلب الاعضاء ويحلل الرطوبات والمعتدل يجلب الدم الى ظاهر الجلد وأما التمريخ بالدهن بغير ذلك فيسد المسام ويمنع ما يتحلل وبعد الماء الحار يحفظ الحرارة من التحلل ويسخن ويرطب وبعد الماء يبرد ويرطب، وقال مهذب الدين بن هبل فى كتاب المختار: خير الحمام ما كان قديم البناء فان الحمام قريب العهد بالبناء تكون حيطانه ندية فتكون أرابيح صهاريجه مضرة، قال بعض الشراح لهذا الفصل الحمام الجديد البناء يتحلل من حيطانه رطوبات ممتزجة بجوهر الكلس والجص والقار وتبخر بحرارة الحمام فيضر استنشاقها بالروح والنفس لانها كيفيات ردئة خانقة بتصحب النفس ويهجم

به على القلب فيغير قوام صحته بسبب رداة الهواء الواصل به بهذه الكيفيات الرديئة الجوهر فأما اذا عتقت الحمام قبل تحليل الابخرة الرديئة منها ومن حيطانها فيؤمن الضرر الحاصل منها ومن الواجب أيضا أن يكون الفناء متسعا لان أبخرة الحمام رديئة وكثيرة ومحتبسة لانها تتحلل من أبخرة أبدان الناس ومن أنفاسهم ومن مجارى الحمام النافذة الى فضاء الحمام فيكثر ويتراكم ويختلط بهواء الحمام فيزيده رداءة الى رداءته المكتسبة بحرارة الحمام فاذا استنشقه الانسان أضر بحرارته الغريزية وأنهكها بسبب خروجه لها عن الاعتدال فى كمه وكيفيته أما كمه فهو كثرة الابخرة المخالطة له وأما كيفيته فرداءات الابخرة مع سخونة هواء الحمام فاذا كانت الحمام واسعة الفضاء تعلقت الابخرة باعالى الحمام وتبدّدت وتفرقت فتلطف الهواء المستنشق فيها فيكون أقل ضرراً من الحمام الصغير ويجب أيضا أن تكون الحمام عالية البناء فان ذلك معين على تقليل ضرر أبخرتها المستنشقة قال: وأما عذوبة مائها فلا تحتاج الى تعليل لظهوره لان المياه اذا كانت عذبة طيبة ليس فيها شيء من الكيفيات الغريبة عدلّت غالب الامزجة وصححتها فان كانت كيفية غريبة مثل أن تكون مالحة أو كبريتية أو نحاسية أو حديدية أو لها مرور على معادن رديئة الجوهر أو على منابت أشجار خبيثة أو على مطابخ وأجام مبنية كثيرة الحيوانات الرديئة كأنواع الدود والضفادع والحيات وما أشبه ذلك أخرجت المزاج عن اعتداله الى حكم هذه الكيفيات الرديئة قال الشارح ومنافع الحمام كثيرة وأعظمها منفعة هو أنها اذا كانت معتدلة الهواء والماء فانها تفتح مسام البدن فيسهل بذلك خروج الفضل منه ويكسبه رطوبة عذبة يصير بها البدن الى نشاط وقوة وتفريح، وقال الرئيس أبو على الحسين بن سينا رحمه الله فى كتاب سماه حفظ الصحة لم يذكر فيه سوى أحكام الاسباب الستة الضرورية لا غير وينبغى ان يكون للحمام ثلاثة بيوت بيت معتدل وهو الذى لا يحس فيه بحر ولا برد وبيت يحس فيه بحرارة معتدلة وبيت يحس فيه بحرارة زائدة عن الثانية بشرط أن يكون النفس فيه مستقيما غير متواتر فالبيت الاول لا يضر كبير مضرة والثانى والثالث فلا يمكث فيهما الا بقدر ما يتحلل من الرطوبة ما من شأنه أن يتحلل فان طال المكث بها أكثر من المقدار المعتدل وخصوصا ان اقترن معه حركات قوية فانه يوقع فى الدق لاشتداد سخونة القلب أو الاستسقاء لتحلل الحار الغريزى فيرد مزاج الاحشاء قال وينبغى أن يجتنب الحمام على الامتلاء من الطعام فانه يولد سددا فى الكبد والعروق لانجذاب المواد الغذائية غير

منبضمة الى ظاهر البدن فيكون ذلك سببا لحدوث أنواع الحميات العفينة والاسهال الكائن بأدوار ويجتنب فيه الاشياء الباردة مثل الفقاع والماء البارد لان فيه خطرا عظيما جدا لان الشيء البارد السيال اذا حصل فى المعدة هجم دفعة على الكبد والقلب فبردهما وأنهك حرارتهما الغريزية وأضعف الاحشاء وهيأها للاستسقاء ويجتنب فيه الجماع أيضا فانه يسقط القوة ويوقع فى أمراض خطرة واعلم ان الحمام الحار جدًا يسيل الاخلاط الجامدة الى أعماق الاعضاء فيحدث اما سددا واما اوراما ويصعدها الى الدماغ ويحدث اما صداعا شديدا أو برساما، والحمام البارد يحرك المادة التى تحركت بالعرق حركة ناقصة فتنجذب المواد الى جهة سطح البدن فربما أحدثت شبيها بالورم والحكة وربما أحدث الزكام والمغص، ورش الماء البارد أو بله بعد الحمام فانه ينعش القوة المسترخية من الكرب ومن لهيب الحميات وعند المغشى وخصوصا بماء الورد والخل وربما صحح الشهوة وآثارها ونصر أصحاب النوازل والصداع وأما سكب الماء البارد على الرجلين فأحكامه أحكام ما تقدم فى الرش على الوجه والحمام النافع على سبيل الاجمال وهو الحمام المعتدل فى حره وبرده الطيب الرائحة العذب الماء والتى أضواؤه كثيرة مشرقة وفناؤه واسع وفيه تصاوير بديعة الصنعة بينة الحسن مثل عاشق ومعشوق ومثل رياض وبساتين وطرد خيل ووحوش فان فى تصوير مثل هذه تقوية قوية بليغة لجميع قوى البدن الحيوانية والطبيعية والنفسانية وقال الحكيم بدر الدين بن مظفر قاضى بعلبك فى كتاب مفرح النفس قد أجمع الأطباء والحكماء والألباء قاطبة على أن النظر إلى الصور الجميلة البديعة الجمال يفرح النفس وينشطها ويزيل عنها الافكار والوساوس السوداوية ويقوى القلب قوة لا مزيد عليها بسبب ازالة الافكار الرديئة عنه ثم قالوا فان تعذر حصول النظر الى الصور الجميلة فليكن النظر الى صور جميلة متقنة الصنعة مصورة فى الكتب أو فى الهياكل أو فى القصور الشريفة وهذا المعنى قد ذكره الحكيم محمد بن زكريا الرازى رحمه الله وبالغ فى ملازمة فعله لمن يجد فى نفسه أفكارًا رديئة ووساوس فاسدة غير موافقة للنظام الطبيعى وقال فان الصور الجميلة اذا جمعت الى صورتها حسن الاصباغ المألوفة من الاصفر والاحمر والاخضر والابيض مع ضبط نسبة المقادير فى أشكالها فانها تشفى الاخلاط السوداوية وتزيل الهموم الملازمة لنفس الانسان وتزيل الكدورة عن الارواح لان النفس تلطف وتشرق بالنظر الى مثل هذه الصور فيتحلل ما فيها من الكدورة قال وتذكر فى الحكماء المتقدمين الذين

استنبطوا الحمام فى مدد من السنين كيف علموا بدقة فكرهم وصائب عقلهم ان الحمام اذا دخله الانسان يتحلل من قواه شئ كثير فأفيضت حكمتهم أن استخرجوا بعقولهم ما يجبر ذلك سريعا فرسموا فى الحمام صورا بديعة الصنعة بأصباغ حسنة مفرحة وقسموا ذلك الى ثلاثة أقسام ولم يجعلوه قسما واحدا لانهم علموا أن أرواح البدن ثلاثة أصناف: حيوانية ونفسانية وطبيعية فجعلوا كل قسم من التصوير سببا لتقوية قوة من القوى المذكورة والزيادة فيها وصوروا للقوة الحيوانية القتال والحرب وطرد الخيل واقتناص الوحوش وصوروا للقوة النفسانية العشق والتفكر فى العاشق والمعشوق وتصوير معاتبة بينهما أو معانقة وما أشبه ذلك وصوروا للقوة الطبيعية البساتين وصور الاشجار البهية المنظر مع كثرة تصوير الازهار والالوان المشوقة فهذه التصاوير وأمثالها هى جزء من أجزاء الحمام الفاضل ولو سألت المصور المصير عن خصوصية أن الحمام لم لا يصور المصورون فيها الا هذه الاقسام الثلاثة لما علم لها تعليلا لكن بذكر هذه الصفات الثلاثة لا تعلل وسبب ذلك تقادم السنين على تعليل مبادئ الاشياء فما خلوا شيئا سدا ولا يجعل شيء هدرا، وقال الحسن المتطبب ورأيت ببغداد فى دار الملك شرف الدين هرون بن الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن محمد الجوينى حماما متقن الصنعة حسن البناء كثيرالاضواء قد احتفت به الانهار والاشجار فأدخلنى اليه سائسه وذلك بشفاعة الصاحب بهاء الدين على بن الفجر عيسى المنشى الاربلى وكان سائس هذه الحمام خادما حبشيا كبير السن والقدر ففرجنى فى ميائه وشبابيكه وأنابيبه المتخذة بعضها من الفضة المطلية بالذهب وغير مطلية وبعضها على هيئة طائر اذا خرج منها الماء صوت بأصوات طيبة ومنها أحواض رخام بديعة الصنعة والمياه تخرج من سائر الانابيب الى الاحواض ومن الاحواض ترمى جميعها الى بركة حسنة الاتقان ثم منها يخرج الى البستان ثم فرجنى فى خلوة نحو عشر خلوات كل خلوة صنعتها أحسن من أختها ثم انتهى بى الى خلوة عليها باب مقفل بقفل حديد ففتحه ودخل بى الى دهليز طويل كله مرخم بالرخام الابيض السادج وفى صدر الدهليز خلوة مربعة تسع بالتقريب نحو أربعة أنفس اذا كانوا قعودا وتسع اثنين اذا كانا جالسين أو نائمين ورأيت من العجيب فى هذه الخلوة أن حيطانها الاربعة مصقولة صقالا لا فرق بينه وبين صقال المرآة يرى الانسان سائر بشرته فى أى حائط شاء منها ورأيت أرضها مصورة بفصوص حمر وخضر ومذهبة وكلها متخذة من بلور مصبوغ بعضه أصفر وبعضه أحمر فاما الاخضر

فقيل انه حجارة تأتى من الروم والمذهب فهو زجاج ملبس بالذهب مصورا فى غاية الحسن والجمال وهم على هيئات مختلفة فى نومهم وهم بين فاعل ومفعول به اذا نظر اليهم الانسان تتحرك شهوته قال الخادم هذا صنعوه هكذا المخدومين حتى اذا نظر الى ما يفعله هولاء بعضهم مع بعض من المجامعة والتقبيل ووضع أيدى بعضهم على أعجاز بعض تتحرك شهوته سريعا فيبادر الى مجامعة من يحب قال وهذه الخلوة دون سائر الخلوات التى رأيت هى مخصوصة بهذا الفعل اذا أراد الملك هرون أن يجتمع بأحد من مماليكه أو خدمه الحسان أو جواريه أو نسائه فى الحمام ما يجتمع به الا فى هذه الخلوة فانه لما يرى كل محاسن الصور الجميلة مصورة فى الحائط ومجسمة بين يديه يرى كل واحد منهما صاحبه على هذه الصفة ورأيت فى صدر الخلوة حوضا رخاما مضلعا وعليه مركب فى صدره أنبوب من ذهب يفتح ويغلق بلولب يدار وفوقه أنبوب آخر مثله برسم الماء الحار وفوقه أنبوب آخر برسم الماء البارد والانبوب الاول برسم الماء الفاتر وعن يمين الحوض ويساره عمودان صغيران منحوتان من البلور يوضع عليهما مباخر الند والعود ورأيتها خلوة شديدة الاضاءة مفرحة بديعة قد أنفق عليها أموال كثيرة وسألت الخادم عن هذه الحيطان المشرقة المضيئة من أى شىء صنعت فقال ما أعلم فما رأيت فى عمرى ولا سمعت بأحسن من هذه الخلوة ولا أحسن من هذه الحمام مع أنتى ما أحسن أصفها كما رأيتها فانه لم تتكرر رؤيتى لها ولا اتفق لى الظفر بصناعتها ومباشرتها وفى الذى ذكرت كفاية. انتهى كلام الحكيم بدر الدين حسن بن زفر الاربلى ومن خطه نقلت هذه الفوائد:

وقال بعضهم فيه ملغزا:

ومنزل أقوام اذا ما تقابلوا	تشابه فيه وغده ورئيسه
تنفس كربى اذ تنفس كربه	ويعظم أنسى اذ يقل أنيسه
اذا ما أعرت الجوّ طرفا تكاثرت	على من به أقماره وشموسه

وقال العفيف التلمسانى:

مررنا بحمام كأنا نحجه	وقد عقدت منا المآزر نحرم
فلما حللنا منه صدرا كأنما	غدت فيه نيران الصبابة تضرم
بكت منه أجفان الانابيب بيننا	كأنا له اللوام وهو المتيم

وقال محاسن الشوّاء الحلبى:

شدوا المآزر فوق كثبان النقا بأنامل حلوا بها عقد التقى
وتجرّدوا فرأيت بان معاطف نشروا ذوائبهم عليه فأورقا
وبدوا فأطلع كل وجه منهم بدرا فأضحى كل قطر مشرقا
ونضوّع الحمام مسكا عندما فرطوا من الاصداغ نظما معبقا
من كل أهيف حل عقدة بنده وغدا بلحظ عيوننا متمنطقا

وقال جمال الدين يوسف الصوفى فى مليح تركى دخل الحمام وبخ ماء ورد:

ولم أنسه لما تعرًى ثيابه وجاء الى حمامه يتخطر
ولما أفاض الماء فوق قوامه وفى وجهه نور من الحسن يظهر
رأيت هلالا تحته غصن فضة يلوح عليه لؤلؤ يتحدرً
أتانا بما ورد ذكى فبخه بثغر له كالمسك بل هو أعطر
فقلت أظبى الترك قد فاح مسكه أم الورد من خديه يحمى فيقطر

دخل ابن بقى الحمام وفيه الطليطلى الاعمى فقال له ابن بقى أجز:

حمامنا كزمان القيظ محترم وفيه للبرد برد غير ذى ضرر

فأجازه بقوله:

ضدان ينعم جسم المرء بينهما فالغصن ينعم بين الشمس والمطر

وقال ابن رشيق:

ولم أدخل الحمام ساعة بينهم طلاب نعيم قد رضيت ببوسى
ولكن لتجرى عبرتى مطمئنة فأبكى ولا يدرى بذاك جليسى

أخذه صدر الدين بن الوكيل فقال:

ولم أدخل الحمام من أجل لذة فكيف ونار الشوق بين جوانحى
ولكننى لم يكفنى فيض مقلتى دخلت لابكى من جميع جوارحى

وأنشدنى من لفظه لنفسه الشيخ الورع الزاهد الثقة شمس الدين محمد بن سمنديار الذهبى مضمنا:

لم أبغ بالحمام طيب تنعم أفنى البكاء دموع عينى أجمعا
فبكيت فيه أسى بجسمى كله حتى كأن لكل عرق مدمعا

وأنشدنى سيدى ومولاى القاضى صدر الدين بن الآدمى فسح الله فى أجله:

ان حمامنا التى نحن فيها أى ماء بها وأية نار
قد نزلنا بها على ابن معين وروينا عنه صحيح البخارى

كتب الشيخ صلاح الدين الصفدى فى حواشى المقامات عند ذكر ابن سكرة وذكر كافاته هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن سكرة الهاشمى من ولد على بن المهدى قال دخلت يوما إلى حمام وخرجت وقد سرق مداسى فعدت إلى دارى حافيا وأنا أقول:

اليك أذم حمام ابن موسى وان فاق المنا طيبا وحرّاً
تكاثرت اللصوص عليه حتى ليحفى من يطيف به ويعرى
ولم أفقد به ثوبا ولكن دخلت محمدا وخرجت بشرا

نادرة: اتفق ان اثنين سبحا فى نهر فلما خرجا صفع أحدهما صاحبه فقال له بعض الحاضرين اين فلوس الحمام فقال أنزلتها فى القرعة.

وقال النصير الحمامى:

لى منزل معروفه ينهل جودا كالسحب
أقبل ذا العذر به وأكرم الجار الجنب

ووعده السراج الوراق وتأخر فقال:

وكدّرت حمامى بغيبتك التى تكلر من لذتها صفو مشربى
فما كان صدر الحوش منشرحا به ولا كان قلب الماء فيه بطيب

وقال:

ومذ لزمت الحمام صرت فتى لطف يدارى من لا يداريه
أعرف حر الاشيا وباردها وأخذ الماء من مجاريه

وقال يستدعى:

من الرأى عندى أن تواصل خلوة لها كبد حرا وفيض عيون
تراعى نجوما فيك من نار قلبها وتبكى بدمع فائض كحزين
غدا قلبها صبا عليك وانت ان تأخرت أضحى فى حياض منون

وقال صدر الدين بن عبد الحق الحنفى رحمه الله تعالى:

وجنة لا تنطفى نارها ندخلها وهى لنا مقصيه
نعيمنا فيها بلا طاعة عذابنا فيها بلا معصيه

وقال أيضا:

جـهـنم حـمـامكم نـارها تقطع أكـبـادنا بالـظمـا
وفـيـها عـصـاة لهم ضـجـة وان يـسـتـغـيـثـوا يغـاثوا بمـا

وقال شهاب الدين بن فضل الله:

وحـمـامنا كـعـبـة للوفـو د حج اليـهـا حـفـاة عـراه
يكـرر صـوت أنابيـبـه كـتـاب الطهـارة باب المـيـاه

وقال الشهاب محمود مضمنا:

قل لى عن الحـمـام كـيف دخلته يا مـالـكى لتـسـر خـلا مشـفـقا
أدخلتـه وأولئك الاقـوام قـد شـدّوا المـآزر فـوق كـثـبـان النقا

وقال محيى الدين بن تميم مضمنا:

لو كنت فـى الحـمـام والحـنا على أعطـافـه ولـجـسـمـه لألأ
لرأيت مـا يـسـبِيك منه بقـامـة سـال النضـار بهـا وقـام المـاء

وقال مضمنا:

عـاينت فى الحـمـام أسـود واثبـا من فـوق أبيض كالهـلال المـسفـر
فكـأنمـا هـو زورق من فـضـة قـد أثقلـتـه حـمـولة مـن عنبـر

وقال جمال الدين بن نباتة مضمنا:

تأملت فـى الحـمـام تحت مـآزر روادف غـيـد مـا سـناها بغـائب
كـأنـى من هذى وهـاذيك نـاظر بيـاض العطايا فـى سـواد المطالب

وقال آخر فى تعجيل الخروج منها:

خـذ من الحـمـام واخـرج قـبل ان يـأخـذ منكـا
حـدثـن عـنـه والا حـدّث الحـمـام عـنكـا

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة فى المفاضلة بين حمامات مصر وحمامات الشام:

أحـواض حـمـامـات شـام تـسـمـعى لى كـلمـتـين
لا تذكـرى أحـواض مـصـر فـأنت دون القـلـتـين

وأنشدنى من لفظه لنفسه الشيخ عز الدين الموصلى معاكسا للشيخ جمال الدين:

اليك حيـاض حـمـامـات مـصـر ولا تـكـبـرى عـندى بـمـين
حـيـاض الشـام احلى منك مـاء وأطهـر وهـى دون القلـتـين

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

ولم أنسه كالغصن يمطره الحيا على اثر حمام ويعطفه الصبا
ويلثم بالمنديل أبيض ساذجا فصار بضوء الخد أحمر مذهبا

ولـــه:

دعانى صديق لحمامه فأوقعنى فى العذاب الاليم
فشر مزيد وماء قليل فبئس الصديق وبئس الحميم

وقال زين الدين بن الوردى:

وما أشبه الحمام بالموت لامرء يذكر لكن أين من يتذكر
يجرد من أهل ومال وملبس ويصحبه من كل ذلك مئزر

وقال ابن وزير يشبه الماء على الرخام:

لله يوم بحمام نعمت به والماء من حوضه ما بيننا جارى
كأنه فوق شقات الرخام ضحى ماء يسيل على أثواب قصار

فقال ابن الوردى يهجوه:

وشاعر أوقد الطبع الذكاء له فكاد يحرقه من فرط اذكاء
أقام يجهد أياما قريحته وفسر الماء بعد الجهد بالماء

وقال المعمار أيضا:

فى صاحب الحمام ايرى قال لى أيلوم فى حبى له وملامى
لا يشتفى اير عليه طهارة الا بقلب الماء فى الحمام

قال ابن وزير مثل قول الآخر:

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

وقال إبراهيم المعمار فى المجون:

عاتبت ايرى اذ جاء ملتثما من عقله بالخرا فما اكترثا
بل قال لى حين نكته قسما ما جزت حمام قعره عبثا
كيف وفيه طهارتى وبه أقلب مائى وأرفع الحدثا

وقال شيخ الشيوخ بحماه:

وقيم كلمت جسمى أنامله من غير ألسنة تكليم خرصان
ان أمسك اليد منى كاد يخلعها أو سرح الشعر أنكانى وأبكانى
فليس يمسك امساكا بمعرفة ولا يسرح تسريحا باحسان

وأنشدنى الجناب المخدومى بن مكانس للشيخ بدر الدين بن الصاحب:

وقـيم قـيم فى حـسن صنعتـه حاز الجمـال على لطف من الترف
لو يخدم البدر أنقى البدر من كلف لكنه لم يـزل مـا بـى من الكـلف

وقال شهاب الدين بن العطار فى بلان يدعى موسى:

هيـا البـلان مـوسى خلوة تحـيى النفـوسـا
قلت مـا أصنع فيـهـا قـال تسـتعـمل مـوسى

وعلى ذكر موسى ذكرت واقعة لطيفة اتفقت لركن الدين الوهرانى وهى أنه لما قدم إلى القاهرة المعزية مدح الامير عز الدين موسك بن حكو الهدبانى خال صلاح الدين يوسف بن أيوب فأمر له بشىء لم يرضه فحضر مجلسه يوما وفيه حفل كثير من الناس فقالا يا مولانا احتجت إلى أن أحلق رأسى هذه الساعة وأنه الأمر إلى بعض الجمدارية أن يحضر الساعة ليحلقه لى بحضرتك فكاد الامير أن يأذن له فى ذلك ثم فهم مقصده فقال لبعض مماليكه أعطه مائة دينار وقل له خذ هذه واحلق رأسك فى الحمام فأخذها ومضى شاكرا فقال له بعض الحاضرين يا مولانا ما معنى هذه الحركة فقال أنه أراد اذا حلقه يقول يا مهتار موسك رديء فيشتمنا فى وجوهنا.

ولا بأس بايراد نبذة مما قيل فى المشط إذا كان من لوازم الحمام وقال شرف الدين بن الحلاوى وقد طلب منه ثلاث أبيات تكتب على مشط برسم سلطان حلب الملك العزيز محمد بن الظاهر غازى:

حللت من الملك العزيز براحة غـدا لثمـهـا عندى أجل الفـرائض
وأصبحت مفتر الثنايا لاننى حللت بكف بحرها غير غـائض
وقبلت سامى خده بعد كفه فلم أخل فى الحالين من لثم عـارض

وللشيخ بهاء الدين الموصلى ولد الشيخ عز الدين ملغزا فيه من أبيات

ظننتم تصحيف مقلوبه يخـ ـفى وليس الظن بالكاذب

قلت: ورد علىّ من سيدنا ومولانا أقضى القضاة بدر الدين محمد المخزومى المالكى الشهير بابن الدمامينى رحمه الله كتاب من مكة المعظمة المشرفة بتاريخ تاسع عشر المحرم سنة احدى وثمان مائة وفيه أنه اجتمع بمكة بالقاضى شهاب الدين بن حجر رحمه الله

ووجد صحبته شخصا يقال له ابن المرجانى وذكر القاضى شهاب الدين ان المشار إليه كان رفيقا له من اليمن إلى مكة المشرفة وأنشدنا له:

يا اماما سألته حل لغز ... شاطط عن مزار أهل الذكاء

اهمل الثلث باعتناء وقلب ... تره جاء قائد الشعراء

وذكر لى القاضى بدر الدين فى مشرّفته أنه من الالغاز الصعبة فينبغى أن تقع الفكرة فى حله.

قلت: اشتغلت الفكرة فى حله فاذا هو لغز فى مشط فتأمله ولقد أجاد قائله.

قال السراج الوراق ملغزا:

وبيضاء قد عانقتها وضممتها ... ولا قبح فى جهرى بهذا واسرارى

على أنه لا عار فيها محقق ... وما سلمت والله قط من العارى

وقال بعض المتأخرين:

الارب حمام بدا لى حميمه ... فظاهره ماء وباطنه نار

كاخوان هذا العصر من تلق منهم ... فللودّ اعلان وللحقد اسرار

وكتب القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر يستدعى إلى حمام هل لك أطال الله بقاك فى المشاركة فى جمع بين ماء ونار وأنواء وأنوار وزهر وأزهار قد زال فيه الاحتشام فكل عار ولا عار نجم سمائه لا يعتريه أفول وناجم رخامه لا يعتريه ذبول تتنافس العناصر على بلوغ مآربه فأرسل البحر ماء جده من زبده لتقبيل أخمصه اذ قصرت همته عن تقبيل يده ولم ير التراب له فى هذه الخدمة مدخلا فتطفل وجاء وما علم أن التسريح لمن جاء متطفلا وأعلمت النار ضدها الماء فدخل وهو حر الانفاس وغلت من أجله فلاجل ذلك داخله من صوب تشاكله الوسواس ورأى الهواء أنه قصر عن مطاولة هذه النار فأمسك متهيبا ينظر من وراء زجاجة إلى تلك الدار ثم إن الاشجار رأت أن لا شائبة لها فى هذه الخطوة ولا مساهمة فى تلك الخلوة فارسلت من الامشاط أكفا أحست بما يدعو اليه الفرق ومرّت فى سواد العذار الفاحم كما يمر البرق وذلك بيد قيم قيم بحقوق الخدمة عارف بما يعامل به أهل النعيم أهل النعمة خفيف اليد مع الامانة موصوف بالمهابة عند أهل تلك المهانة لطف أخلاقا حتى كأنها أعناب بين جحظة والرمان وحسن صنعة فلا يمسك يدا الا بمعروف ولا يسرح تسريحا الا باحسان أبدا يرى مع طهارته وهو ذو صلف ويشاهد مزيلا لكل أذى حتى

لو خدم البدر لأزال ما بوجهه من الكلف بيده موسى كأنها صباح تنسخ ظلاما أو نسيم ينفض عن الزهر كماما إذا أخذ صابونة أفهم من يخدمه ما يمرّ على جسده أنه بحر عجاج وأنه يبدو منه زبد الاعكان التى هى أحسن من الأمواج فهلم إلى هذه اللذة ولا تعد الحمام دعوة أهل الحراف فربما كانت هذه بين تلك الدعوات فذة.

وكتب فى محضر قيم حمام الصوفية يقول العبد الفقير إلى الله تعالى فلان أن أبا الحجاج يوسف ما زال لاهل الصلاح حميمًا وله جودة ذهن يستحق بها أن يدعى قيما كم له عند كل جسد من صباح من جسيم وكم أقبل مستعملوه ﴿تعرف فى وجوهم نضرة النعيم﴾(١) كم تجرد مع شيخ صالح فى خلوة وكم قال ولىّ الله يا بشراى لأنه يوسف حين أدلى فى حوضه دلوه كم خدم من الصلحاء والعلماء انسانا وكم ادّخر ببركتهم لدنيا وأخرى فحصل من كل منهم شفيعين عريانا ومؤتزرا كم حرمة خدمة له عند أكابر الناس وكم له يد عند جسد ومنة على رأس كم شكرته أبشار البشر وكم حك رِجل رَجل صالح فحقق أن السعادة لتلحظ الحجر قد ميز بخدمة الفضلاء أهله وقبيله وشكر على ما يعاب به غيره من طول الفتيلة تتمنع الاجساد من تنظفه لحمامه بظل ممدود وماء مسكوب ويكاد كثرة ما يخرجه من المياه أن يكون كالرمح أنبوبا على أنبوب كم رأس انشدت موساه:

ولو أن لى فى كل منبت شعرة لسانا يبث الشوق كنت مقصرا

وكتب الشيخ جمال الدين بن نباتة إلى ابن معبد وكان متولى دمشق يشكو من حمام سرق فيها شاشه يقبل الأرض مستجيرا بهذا البيت الذى لا يذل جاره مستغيثا بكرمه الذى ملأت الاقطار أخباره فما عبر المملوك فى عمره أحر من هذه الحمام ولا نكس فى رأسه العلية مثل هذه الأيام فياللعواطف العربية وياللمراحم النفوس الابية فوالله لقد خف رأس المملوك من الجهتين عقله وشاشه ولقد تعوّض من تاج عمته العربية مخدّة فراشه ولقد أخذت منه هذه الحمام المتلفة ولقد نشفته بالمناشف فبئس الحمام والمنشفة وهذا وقت اغاثة الملهوف والرغبة فى اسداء المعروف لا قطع الله عن أرواح المضطرين ترويح هباته ولا عطل من منته المنتظمة أجياد عفاته بمنه وكرمه * وكتب الشيخ برهان الدين القيراطى وقد استدعى إلى الحمام:

قد أجبنا وأنت أيضا فصحت بتلاقيك سالف وسلاف
وبساق تسبى العقول بساق وقوام وفق العناق خلاف

---

(١) الآية: ٢٤ من سورة المطففين.

يقبل الأرض وينهى ان المملوك ما خرج عن الاهتمام لدخول الحمام فإنه متشوّق لما لمولانا تشوّق إليه وموجه وجه فكرته عليه وكيف يمكن الرقوع فى الخلاف والميل إلى الاخلاف:

وحمامكم كعبة للوفود ... تحج اليها حفاة عراه
يكرر صوت أنابيبها ... كتاب الطهارة باب المياه

فلا عدمت التنبيه من مولانا على هذا المنهاج ولا فقدت آداب ألفاظه الممدوحة التى ما لها منهاج ولا حرمت عند الحمام هذا النصير ولا عاقنى عند ارادة التخليق بمطالها تقصير ولا زلت أمحو بها أية ليل الشعر وأخلع بها بعد ثياب البدن ثياب الوضر وأتنعم بها حسنا لها من جامها فى كل ناحية من وجهها قمر ولا يخفى أن الرأس تروى الآن عن الاشعث بن أبى الشعثاء أخباره والجسد كأنما كانت على أب وزير المعتصم أطماره فالأولى أن يلقى ويعتاض عنها بما هو أبقى ومولانا أجل ساع فى إسداء المعروف وأفعال بر أعيذها بالاسماء الحسنى ما اشتملت عليه من الحروف لا زال بحر احسانه الطهور سالما من الخوض وخزائن فضائله الجمة محروسة الجناب بجاه صاحب الحوض.

فصل: فيما ورد فى ذمها قال الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه بئس البيت الحمام تكشف فيه العورات وترتفع فيه الأصوات ولا يقرأ فيه آية من كتاب الله، ودخل بعض الامراء مع الرقاشى الحمام فقال ذمه فقال يهتك الاسرار ويؤلف الاقذار ويذهب الوقار، فقال امدحه فقال يذهب القشافة ويعقب النظافة ويفش التخمة ويطيب النغمة.

قيل ويكره الحمام بين العشاءين وقريب من المغرب قال الزمخشرى ويكره أن يعطى الرجل امرأته أجرة الحمام لأنه يكون معينا لها على المكروه وقال أيضًا الحزم ترك الحمام اذ لا يخلو من عورة مكشوفة ولا سيما من تحت السرة إلى العانة.

ومن آدابه أنه إذا دخله رفع رجله اليسرى عند الدخول وقال بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الرجس والنجس والخبيث المخبث من الشيطان الرجيم وذكر السمعانى فى كتاب الحمام عن مجاهد عن على أنه كان يغتسل من مس الابط والحجامة وماء الحمام، وبسنده إلى فرقد السبخى أنه قال ما دخل نبى حماما قط ولا أكل ثوما ولا بصلا ولا كراثا.

الوصف قال بعضهم:

وحمام سوء وخيم الهواء ... قليل المياه كثير الزحام
فما للقيام به من قعود ... ولا للقعود به من قيام
حنياته عطفات القسى ... وقطراته صائبات السهام

وقال شعرا:

حمامنا من ضيقها تشتكى ... كأنها صدر وقد أخرجوه
فهى لظى نزاعة للشوا ... وماؤها كالمهل يشوى الوجوه

وقال ابن شرف القروانى:

كأنما حمامكم فقحة النـ ... ـتن والظلمة والضيق
كأننى فى وسطها فيشة ... ألوطها والعرق الريق

وقال ابن رشيق:

وأنت أيضا أعور أصلع ... فصادف التشبيه تحقيق

الباب السابع والعشرون

فى النار والطباخ والقدور

النار مؤنثة من ذوات الواو لأن تصغيرها نويرة والجمع نور وانوار ونيران انقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها وليس فى الأرض شجرة إلا وتقدح منها النار إلا العناب، وهى على أنواع عند العرب نار القرى وهى أعظم النيران ونار السلامة توقد للمسافر إذا قدم سالما غانما، ونار الزائر والمسافر وذلك أنهم إذا لم يحبوا الزائر والمسافر أن يرجع أوقدوا خلفه نارا وقالوا أبعده الله وأسحقه ونار الحرب يوقدونها على مكان عال لمن بعد عنهم ونار الصيد يوقدونها للظباء فتغشى أبصارهم ونار الاسد كانوا يوقدونها إذا خافوه لأنه إذا رآها حدق إليها وتأملها ولم يستطع الهجوم على ما حولها ونار الحلف لا يعقدون إلا عليها يطرحون فيها الملح والكبريت فإذا استشاطت قالوا هذه النار قد تهدّدتك ونار الغدر كانوا إذا غدر الرجل بجاره أوقدوا له نارا بمنى أيام الحج وقالوا هذه غدرة فلان ونار الفداء كانت ملوكهم إذا سبوا قبيلة وطلب منهم الفداء كرهوا أن يعرضوا النساء نهارا لئلا يفتضحن ونار الوسم التى يسمون بها الابل لتعرف ابل الملوك فترد الماء أولا ونار الحرتين كانت ببلاد عبس تسطع من الحمرة بالليل فبعث الله خالد بن سنان وهو أول نبى بعث من ولد إسماعيل وقد قدمت ابنته على النبى ﷺ فبسط لها رداءه وقال بنت نبى ضيعه قومه فحفر لتلك النار بئرا فأدخلها فيها والناس ينظرون ثم اقتحم فيها حتى غيبها وخرج منها، وقد بالغ مهيار الديلمى فى وصف نار القرى:

ضربوا بمدرجة الطريق خيامهم يتقارعون على قرى الضيفان

ويكاد موقدهم يجود بنفسه حب القرى حطبا على النيران

وقال أبو طاهر البغدادى:

خطرت فكاد الورق يسجع فوقها انّ الحمام لمغرم بالبان

من معشر نشروا على هام الربا للطارقين ذوائب النيران

وقال صردر:

قوم إذا حيى الضيوف جفانهم ردّت عليهم ألسن النيران

وقال ابن سنا الملك:

لنيرانه فى الحى أى تحرق على الضيف ان أبطأ وأى تلهب

وأين هؤلاء القوم الكرام من الذين يقول فيهم الاخطل:

قوم إذا استنبح الاضياف كلبهم قالوا لامّهم بولى على النار
فتحبس البول شحا أن تجود به فما تبول لهم إلا بمقدار

لا يخفى ما فى هذا البيت الأول من المعائب وقد ولع الادباء بحلها وما فيها من المعانى وقال مجير الدين بن تميم:

وكأنما النار التى قد أوقدت ما بيننا ولهيبها يتضرم
سوداء أحرق قلبها ولسانها بشفاهة للحاضرين تكلم

وقال آخر:

انظر إلى النار وهى مضرمة وجمرها بالرماد مستور
شبه دم من فواخت ذبحت وفوقه ريشهن منشور

وقال آخر:

كانون يطفى برده كانوننا ما بين سادات كرام حذق
بأراقم حمر البطون ظهورها سود ينضنض باللسان الازرق

وقال ظافر الحداد:

تأمل ففى الكانون أعجب منظر إذا سرحت فى فحمه جمرة النار
كما ميل الزق المروّق ساكب فدب احمرار الخمر فى قلل القار

وقال آخر:

كأن كانوننا سماء والجمر فى وسطه نجوم
ونحن جن بجانبيه والشرر الطائر الرجوم

وقال آخر:

كأنما دخاننا اذ بدا لعين من ينظره من قريب
ذوائب من غادة سرحت وقد بدا فيها بياض المشيب

وقال آخر:

كأنما النار فى تلهبها والفحم من فوقها بلظيها
زنجية شبكت أصابعها من فوق نارنجة تغطيها

وقال آخر:

كـأن نضـيـد الفـحم فـوق شـراره ... إذا النـار ... ست جلده فـ تلونا

يذكـر أيام الـسـحـاب التى جـرت ... بمـنيــنـــه لـمـا تأوّد أغـصـنـا

فـأنبت منهـا الأبنـوس بنفـسـجـا ... وأثمــر عـنابا وأورق ســوسـنا

وقال الشيخ صفى الدين الحلى:

البـحترى منذ مـا فارقـتـموه غـدا ... يحثـو التراب على كـانونه الخرب

لو شـئـتـم أنه يضـحى أبـا لهب ... جـاءت بغـالكم حـمـالة الحطب

وقال ظافر الحداد:

كأن سـواد الفحـم من فوق جـمره ... وقد جمعا فاستحسن الضدّ بالضدّ

غـدائر خـود فرقـتـهـا وقد غـدت ... على خـفر من تحـتهـا حمرة الـخد

فلمـا تنـاهى صـبـغـه خلت أنه ... فصـوص عقـيق أو جنى زهر الورد

إلى أن حكى بعـد الخـمـود رمـاده ... غـبـارا من الكـافـور فى قـطع الند

كتب النصير الحمامى ملغزا إلى السراج الوراق:

ومـا اسـم ثلاثى به النفع والـضـرر ... له طلعـة تغنى عن الشـمس والقـمر

وليـس لـه وجـه وليـس له قـفـا ... وليـس لـه سـمع ولـيس له بصـر

يمـد لسـانا يخـتـشى الرمح بأسـه ... ويسخر يوم الحرب بالصارم الذكر

يموت إذا مـا قمت تسقيه قـاصدا ... وأعـجب من ذا أن ذاك من الشجـر

أيا سـامع الابيـات دونك حلهـا ... وإلا فنم عنـهـا ونبـه لهـا عـمـر

ومن التغزلات اللطيفة بذكر النار قول الشيخ شمس الدين بن الصائغ:

قد أودعـوا القلب لما ودّعوا حـرقا ... فظل فى الليـل مـثل النجم حيـرانا

راودته يسـتعـيـر الصـبـر بعـدهم ... فـقـال انى اسـتعـرت اليـوم نيـرانا

قال علاء الدين الوداعى:

يا مـودعـا بوداعـه فـى مـهـجـتى ... نارا تؤجـجـهـا يد التـذكـار

أبكيـت طرفى بعـد ادمـعـه دمـا ... وكـــذا يكـون بـكاء أهـل النـار

قال صفى الدين الحلى:

لا غـرو أن يصلى الفـؤاد بـعـدكم ... نارا تؤجـجـهـا يد التـذكـار

قلبى إذا غبـتم بصـورّ شـخـصكم ... فـيـه وكـل مـصـوّر فى الـنار

وأنشدنى الشيخ عز الدين الموصلى لنفسه:

يا مــقـلة الحب مــهــلا	فـقـد أخـذت بثـارك
وأنت يا وجنتـــبــه	لا تحـرقـيـنى بنارك

وكتب الشيخ جمال الدين بن نباتة مع منقل أهداه ونهى أنه تهجم ونقل منقلا لطيف الصنعة جليلا إذا تأمل نفعه إذا هبت الشرر فى ليل فحمه ولعبت يد الرياح بأزاهر ضرمه فكأنه معدن ياقوت أحمر أو نبت جلنار بزهر يروّق البصائر والابصار والا يكن فيه على الحقيقة جلنار ففيه جلنار طالما جدت معاشرته ولذت فى الليالى الشتوية مسامرته وأطلع من أفقه نجوما سعيدة القران وتلا على الريح والثلج ﴿يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران﴾[١] والرأى أعلا فى قبول اهدائه والله يجعل ما فى قلبه فى قلوب أعدائه، قرأت فى كتاب روضة الجليس ونزهة الانيس تأليف الفاضل بدر الدين حسن بن زفر المتطبب الاربلى حكى عن سليمان بن محمد المهدى الصقلى قال كان بسوسة افريقية رجل نبيه شاعر وكان يهوى غلاما جميلا من غلمانها وقد اشتد كلفه به وكان الغلام يتجنى عليه ويعرض عنه كثيرا فبينما هو ذات ليلة منفرد بشرب الخمر وحده غلب عليه السكر وذكر معشوقه وأجرى بخاطره ما كان يفعله به من التجنى فقام من حينه فأخذ قبس نار وجعله عند باب الغلام ليحرق عليه داره فلما دارت النار بالباب بادر باطفائها وقبضوا عليه واعتقلوه فلما أصبحوا نهضوا به إلى القاضى وأعلموه بفعله فقال له القاضى لاى شىء أحرقت باب هذا الغلام فأنشأ يقول:

لمــا تمــادى على بعــادى	وأضــرم النار فى فــؤادى
ولم أجــد من هواه بدا	ولا مــعــينا على الســهــاد
حـملت نفــى على وقــوفى	بــبـابه حــملة الجــواد
قطـار من بعض نار قلبى	أقل فى الوصف من رقـــادى
فــأحــرق البــاب دون علمى	ولم يكن ذاك من مــــرادى

قال فاستظرف القاضى واقعته وشعره ورحمه وتحمل عنه ما أفسده من باب الغلام وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة فى وصف حصار بالنار فما كان إلا ريثما ابتسمت لهم النار عن الموت العابس وعاملتهم من اعجال وقودها باليابس وجاءت بما ينضج ملابس الجلود وجلود الملابس وعاجلتهم من منفعة الغوث قبل العطب وأصلتهم نارا تبت بها

(١) الآية: ٣٥ من سورة الرحمن.

أيدى الابراج حمالة الحطب وإذا بأبدان البدنات القائمة قد قعدت والابراج لتلاوة الحرب قد سجدت فهنالك هجمها المسلمون هجوم الليث الكرار وقطعت ألسنة السيوف المجادلة حجج رقاب الكفار وقال القاضى الفاضل فى مثله فولجت النار موالج تضيق عنها الفكر ويعجز عنها الابر وخولف المثل فى أن السعادة لتلحظ الحجر وأغنى ضوء نهارها سؤال كل امعة أن تسأل هذا ، ذاك ما الخبر إلى أن بدا ضوء الصباح وكأنه منها امتار وانشق الشرق فكأنه من عصفرها صبغ الازار إلى أن سرى ذا النقوب إلى المقاتل ودب سكرها بين المفاصل وغدت الجدران قائمة والبلا سار فى أعقابها متجلدة والنار تحت ثيابها وقال أيضا وقد أحمته إلى أن أحرقته وصرح الشرك وقد خاضته إلى أن أغرقته وأن الخندق بركة والبرج لها فوّارة وأن الله أعد للعدو نارا فى الآخرة وأحرقهم فى الدنيا بشراره وأن العدو تحصن من البرج بكثيب بنفسج أحرقه الله بجلنار وقال سيدى تقى الدين بن حجة فى حريق دمشق هذا وكم مؤمن قوم خرج من دياره حذر الموت وهو يقول النجاة وطلب الفرار وكلما دعاه قومه لمساعدتهم على الحريق ناداهم وقد عدم الاصطبار ﴿ويا قوم ما لى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار﴾[1] وقال ابن سناء الملك:

يا فالق الصبح من لألاء غرته ... وجاعل الليل من أصداغه سكنا
لا غرو ان أحرقت نار الهوى كبدى ... فالنار حقا على من يعبد الوثنا

القول على الطباخ وينبغى أن يكون عند الرئيس والملك طباخ حاذق إذا لم يشته طعاما صنع له ما يشتهيه وقيل كل طعام أعيد إلى القدر فهو فاسد وكل غناء خرج من تحت السبال فهو بارد قال بعضهم كنت جالسا عند بعض ولاة الطوف وقد جاءه الغلمان برجلين فقال لاحدهما من أبوك فقال:

أنا ابن الذى لا ينزل الدهر قدره ... وان نزلت يوما فسوف تعود
ترى الناس أفواجا إلى باب داره ... فهم قيام حولها وقعود

فقال ما كان أبو هذا إلا كريما ثم قال للآخر من أبوك فقال:

أنا ابن من ذلت الرقاب له ... ما بين مخزومها وهاشمها
خاضعة أذعنت لطاعته ... يأخذ من مالها ومن دمها

فقال الوالى ما كان أبو هذا إلا شجاعا وأطلقهما فلما انصرفا قلت للوالى أما الأول فكان أبوه يبيع الباقلى المصلوقة وأما الثانى فكان أبوه حجاما فقال الوالى:

---

(١) الآية: ٤٢ من سورة غافر.

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يغنيك مضمونه عن النسب
ان الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبى

قلت: وأنشدنى سيدنا ومولانا القاضى شهاب الدين بن حجر رحمه الله للشيخ بدر الدين بن الصاحب فى مليح يطوف بالفول:

أنا ابن الذى فى الليل تسطع ناره كثير رماد القدر للعب يحمل
يدور بأقداح العوافى على الورى ويصبح بالخير الكثير يفوّل

قال محمد بن العفيف فى مليح طباخ:

رب طباخ مليح فاتر الطرف غرير
مالكى أصبح لكن شغلوه بالقدور

وقال الصفدى:

كانى بطباخ تملك مهجتى نعذاب قلبى فى هواه سرمد
وكأنما أنا منصب قدامه نار تشب وزفرة تتصعد

وقال المعمار

كانى بطباخ تنوع حسنه ومزاجه للعاشقين يوافق
لكن مخافى من جفاه وكم غدت منه قلوب فى الصدور خوافق

وقال أيضا مواليا:

هويت طباخًا بالصبحة أخدميه حلو المزاج كانوا بن تركيه
ولو أطارف نواعم بيض زبديه لها معانى على الاخوان مخغبيه

وقال بعضهم ما على الشيخ المسن أضر من أن يكون له طباخ حاذق وجارية حسناء لأنه يكثر من الطعام فيسقم ومن النكاح فيهرم وقال إبراهيم المعمار:

وطباخ بمنصبه افتخار وقدر قد علا فى الناس وافى
أياديه على الاخوان مدّت وكم قلب له بالودّ صافى
وكم آمنوا به من خوف جوع سيعطى الامن فى يوم المخاف

دخل ابن الفضل الشاعر يوما على الوزير ابن هبيرة وكان عنده نقيب الاشراف وكان مبجلا وكان ذلك فى يوم شديد الحرّ من شهر رمضان فقال له الوزير أين كنت فقال فى

مطبخ سيدى النقيب فقال له ويحك أيش عملت فى شهر رمضان فى المطبخ فقال كسرت الحر فيه يا مولانا فتبسم وخجل النقيب الفرزدق:

وقد علم الجيران أن قدورنا ضوامن للأرزاق والريح رفرف

ترى حولهن المعتقين كأنهم على صنم فى الجاهلية عكف

وقال أمية بن أبى الصلت:

وكأنها بفنائه للضيف مترعة زواجر

وكأنهن بما سجن وما حمين به ضرائر

وقال الفرزدق يهجو:

لو أن قدرا بكت من طول ما حبست على الجفون بكت قدر ابن عمار

ما مسها دسم مذ نض مدمعها ولا رأت بعد نار القين من نار

الباب الثامن والعشرون
فى الاسماك واللحوم والجزور

كتب الوزير المرحوم فخر الدين عبد الرحمن بن مكانس إلى الشيخ بدر الدين البشتكى رحمه الله وقد كانوا بمجلس أنس بشاطئ الروضة فى أيام وفاء النيل السعيد فاتفق أن الشيخ بدر الدين صاد حوتا عظيما بالصنارة يداعبه بلغنى رفع الله قدرك على السماك وأعلى محلك وأسماك وأجرى بسعدك وأمرك فى نهر السماء وبحور الأرض الافلاك ولا زالت همم نظمك البدرية ونثرك تعلو على النثرة وفتكات عزماتك الماركية تسمو إلى صيد نسر السماء من وكره وحوتها من المجرة ولا برحت تصرف حروف المحاسن فتخدمك من كل محجر عين ومن كل جانب نون ولا فتت تجمع شمل المعالى إلى أن يفترق الفرقدان ويلتقى الضب والنون ويغدو سهيل فى السماء مصادف الثريا ويصبو الحوت للسرطان أن مولانا مع جماله خلافا للمعز أقلق السابح فى لجه وراع كل حوت حتى حوت الأرض فى تخومه وحوت السماء فى برجه وجاور ذوات البحر فكان لها بئس الجار يطعمه الذى أقامه عليهم فى الحيلة مقام بنجه وأنه شد وسطه للصيد وكان من الحزم وأرسل آلة صيده إلى الاسود والاحمر من أمم البحار فعادت عود أولى العزم فعد بعد ذلك مولانا للصيد بالمرصاد واطاعته حروف النص فكلما تلا لسان البحر نونا تلا لسان العزم صاد (مفرد).

وهى السعادة فى السماء فلو تشا ... لطعنت منها رامحا بالاعزل

فمن ذلك صيد الحوت الذى قدم من أقصى النيل فيا له من سفر بعيد وفارق وطنه وورد مع التيار السريع فى البحر المديد فآوى إلى الشط طالبا غداءه اذ لقى من سفره هذا نصبا وركن إلى البر فليته لو عقل ﴿فاتخذ سبيله فى البحر سربا﴾[1] ولم يعلم أن سيدنا وضع الحبل وجعله لصيده معنى وصورة سببا فاخترمته يد المنية باعوجاج الصنارة التى نصبها لدواب البحر فخا للقهر والضعيفة التى تعامل أقوياء الاسماك فى أعظم البحور السائلة بالنهر كأن هذا المسكين من صالح الاسماك الذى أفنى الايام سبحا طويلا فساح

---

(١) الآية: ٦١ من سورة الكهف.

وأتى يقبل جدارا حل فيه قدم مولانا وبركته مجازاة فجازاه التمساح أو كأنه لجا إلى البر هربا من عوارض الامواج وآمن بمجاورته فأخذ من مأمنه وخاب أمله من لاج فسبح بعد بحار الامن من بحار المنون فى لجج وقالت له الحيتان إذا أعماك القضاء عن رشدك حدث عن البحر ولا حرج وكان ظنه أن عومه فى الشط ينجيه فكان حتفه فى ذلك العوم وعلى الجملة فقد آن أجله ولو آوى إلى جبل لقيل لا عاصم اليوم فأتت به حوتا يلوح بياضه بين هضباب الموج كالبدر من سجف الغمام وتبدو عليه مهابة تشعر أنه من نسل حوت يونس عليه السلام فأعيذ هذا الحوت بالنون وصائده الكاتب الاديب بالقلم وما يسطرون فلقد ظفر بما لا ظفر به الحواريون فى شباكهم المشبكة ووقع له ما لو وقع لابن صياد لتطاول عجبا وانتفخ حتى ملأ الشبكة وحصل به للجماعة من السرور ما يحصل بوفاء النيل وشاهدوا من جزله العظيمة كل خير جزيل ومنحوا من سنه وعظمه بالجوهر النقى وأنياب الفيل وأرخصوه للقرى بعد أن أمسى فى القدور يغلى وقلوه فطاب مأكلا وان كان مما لا يقلى ونوّعوه محلى وحامضا فالمحلى جعلوه نقلا على الكئوس حين تجلى وفازوا على رأى ابن حزم وان لم يكن من أصحاب الرأى بالمحلى والمجلى والحامض فقطعوا عند أكله بالذوق أن ذلك الحوت مر لا محالة وقال آخرون بل هو هالة لتناسب البدور والهالة وحملوا به الموائد وحكموا لصائده بالتقدم على الضفدع الاديب فى مصائد الشوارد وقدّموه على ما عندهم من طرى وبائت وأكلوه من ساعته كيلا يندموا على فائت قائلين لا تؤخروه فللتأخير آفات ولا تبيتوه فكلما بات فات وبادروا طراوته لعلمهم أنه أطيب ما يؤكل من السمك البورى الطرى واستطابوه ضرورة ولا خلاف أن صائد الحوت أكثر تلذذا بأكله من المشترى هذا وأما الاسماك بذلك الشاطئ فقد نادى مناديهم بالرحيل وقال أديبهم للبنية مصحفا يا بنية ليس المقام هنا جميل فكم فرخ حوّل وكر أمه من هناك وشال وكم عصبة من السمك صرخت قاقا وقطعت الجبال وكم طائفة من رشادها فرت إلى البرور الخالية من العباد وكم طائفة تخلفت ووقعت فى الشباك فقيل ضلت عن سبيل الرشاد وكم طائفة أسرعت إلى رءوس الجبال الحركة وكذبت العروضيين فى قولهم لم أر على ظهر جبل سمكة وكم سمكة قالت لفراخها اهجروا ماءكم ومأواكم كما هجرت مأواى واخلوا هذه الديار وان أعشبت وابتغوا صائب الراى ومنهم من عمد إلى عمق البحر نجاه وسارت به سفينة عزمه فى موج كالجبال وكان سبب النجاة وتواصوا لما رأوا طغيان الماء أن لا يأووا

إلى البرور وتحققوا أنه الطوفان لما فار على أخيهم المصاب التنور وكم قائل الحمد لله الذى قطع عنا أثر هذا النون العظيم وأزال عينه وقائلة سبحان من أراح ضعفاء السمك من هذا الجبار وفرق بينهم وبينه فشكرا إذا غدا مولانا شيخ البر والبحر وأضحى فى نسكه ابن السماك وفى صدق حديثه أبا ذر وأمسى ضرع البلاغة مسخرا له فإن جمح لغيره أو أبادر أحياه الله بدرا يشرق فى سماء المعالى وتحلى أجياد الفصاحة من بحور نظمه ونثره بالجواهر واللآلى وجمل به السماء كما جمل به الأرض ولا جعله كأدباء أهل هذا الزمان الذين هم كالاسماك يأكل بعضهم بالغيبة لحم بعض بمنه وكرمه والسمك بارد رطب يولد البلغم وينفع المحرورين ويضر بالمشايخ ودفع مضرته بالافواه الحارة والصعر والملح وصغاره بالخل نافع لاصحاب الامزجة الحارة ومن به يرقان وكبده حار والمالح منه حار يابس يولد السوداء ويضر بالمحرورين

فصل فى اللحوم: عن أبى الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ سيد طعام أهل الدنيا والآخرة اللحم، وفى حديث آخر سيد الادام فى الدنيا والآخرة اللحم وسيد الشراب فى الدنيا والآخرة الماء، وقال ﷺ اللحم يطيب النفس ويفرّح القلب ويحسن الوجه ويشدّ العصب، وكان محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة رضي الله عنه عبلا رخص الانامل يكاد الماء يجرى بين جلده ولحمه فقال له أبو حنيفة ما غذاؤك قال ما أزيد على الخبز واللحم شيئًا قال هذه الشحمة منهما تنعقد، ولحم البقر داء ولبنها شفاء وسمنها دواء، وقالت الاطباء أحمد اللحمان ما خصى من الضأن وكان فتيا ولا خير فيما أسن ولحم الضأن نافع من المرة السوداء إلا أن الممرودين الذين يصرعون إذا أكلوه اشتدّ بهم ذلك ولحم المعز يورث الهم ويفسد ويحرك السوداء ويحدث النسيان ويحيل الاولاد، ولحم الدجاج الهرم أضر اللحمان وأغلظها وقال أبو حاتم قال خالد بن يزيد أطيب الابل لحوما الورق وأطيب البقر لحوما الصفر وأطيب الشياه لحوما الحمر وأطيب الدجاج لحوما السرد وأطيب الفراخ لحوما البيض، وقال عبد الله بن جعفر سمعت رسول الله ﷺ يقول أطيب اللحم لحم الظهر، وعنه ﷺ أنه قال من سره أن يقل غيظه فليأكل لحم الدراج، ولما حضرت الوفاة للحرث بن كلدة قيل له أوصنا بما ننتفع به بعدك فقال لا تتزوّجوا من النساء إلا الشباب ولا تأكلوا من اللحم إلا الفتى ولا من الفواكه إلا ما نضج ولا يتداوين أحدكم بدواء ما احتمل بدنه الدواء وإذا تغذيتم فناموا قليلا وإذا تعشيتم فامشوا خطوات، وقال نجتيشوع للمأمون

أوصيك يا أمير المؤمنين أربعة أشياء: لا تأكل طعاما بين نبيذين ولا تجامع على شبع إلى أن يخلو جوفك من الرياح والنجو ولا تأكل من لحم البقر فوالله إنى أمر به فى الطريق فأغطى عينى وعين برذونى من شدة مضرته.

نادرة: قرأت فى كتاب ملح الكنايات ولمح التعريض والاشارات تأليف جمال الدين يوسف بن مرتفع بن الفقيه فتح الدين مجلد الكتب المعروف بنقانق ووجد الشريف محاسن عريف سوق الكتبيين فى دكانه يتغذى فدعاه للاكل فقال من أى شىء تأكل فقال شىء من لحم جمل صغير رأيته فاشتهيت أن آكل منه فجلس وأكل معه فنظر إليهما الضياء موسى الناسخ فقال يا محاسن احذر أن يراك المحتسب فيؤذيك قال على م قال لأنك تحشى النقانق بلحم الجمل فاستحسن ذلك منه، وفى الحديث من داوم على اللحم أربعين يوما قسى قلبه ومن تركه أربعين يوما ساء خلقه.

فصل: كتب الوزير فخر الدين عبد الرحمن بن مكانس سامحه الله تعالى إلى فتح الدين صدقة بن سعيد الكاتب بديوان الخاص وكان المذكور أسود ينحرف من ذكر العبيد والسواد يقبل اليد الكريمة السديدة الفتحية لا زال فتحها رشيدا وفعلها سديدا وسعدها جديدا وقولها مفيدا ومطلعها صبيحا ومفلح مقاصدها نجيحا واقبال سرورها مستمرا ورواق العز عليها مسبطرا كثر الله عبيدها وألحق مفترها بسعيدها ويصف ولاءه الذى تشهد به ذاته الكريمة بل السواد الاعظم واخلاصه الذى صفا ودّه إلى أن عاد كغرة البدر فى الليل الادهم ويبدى ما يجده إلى مولانا فى نفسه من الميل ويذكر محبته التى لا تتغير ما ولج الليل فى النهار والنهار فى الليل وينهى أنه يبسط عذر مولانا فى تأخير أبقار الاضحية بهذا العيد جعله الله عليك أبرك الاعياد ويتشكر من انعامه بكل كبش ينزل فى سواد وينظر فى سواد ويمشى فى سواد وكيف لا ومولانا انسان عين الزمان والمفدا بسويداء القلوب من طوارق الحدثان فأبقاه الله يجرر فى ميادين الكرم الذيل ويستر بحلمه سقطات الجهال ستر الليل وعلم المملوك أن المقر الاشرف المالك قد اقتدى فى أضحية المملوك خاصة برأى الامام مالك إذ يرى الاضحية بالغنم أفضل وأن القربى بذبحها أكمل وأن الله جعل الابقار لحرث الاراضى ذات الطول والعرض وأنه خصها من أضحية المملوك بكل ذلول تثير الأرض فإذا عوتب على ذلك قال نعم أحلينا بأضحيته فى هذا العيد وقابلناه عن محبته لنا من الحرمان بما لا عنه مزيد وقطعنا مرتبه من الديوان إذ كان عندنا المخلص ﴿وما ربك

بظلام للعبيد﴾[١] ثم تأخذه العزة لانفه المناصب ويتذكر عن المطلوب وذل الطالب فيقول قد منعنا ما سقنا من هدى انعامه إليه وان هو إلا عبد أنعمنا عابه فلو كان الامر لمولانا مستبدا به لبدل البقر بكرائم الخيل وأوضح من فخر الانعام الخيط الابيض من الخيط الاسود ومحا من ظلمة المنع آية الليل وساق أيده الله ما شاء من البقر إلينا وأنعم علينا غير معتذر ولا متعنت يقول ﴿إن البقر تشابه علينا﴾[٢] على أن مولانا إذا لاحظ أنعم لك صفراء فاقع لونها لكن من الذهب العين وإذا نأى نعق بفراق البقر غراب البين وإذا شاء أتحف من ضياء انعامه بكل در نفيس وإذا أتى بقلع من بحر الظلمات فى الريح المريس فطالما أمت شآبيب انعامه مسكوبه وحركات فضله محبوبه والسنة الخواص قائلة الحمد لله الذى كف عنا النوب بأكف النوبة والمملوك ما برح كثير المحبة لمولانا من حين شمله بجزيل الاحسان هاجر مسموع الطير بجملته كرها للقائل منها ما دق قفا السودان، وقال الشيخ زين الدين بن الوردى مضمنا:

بتنا ضيوفا لغادة قصدت ... ذبح خروف قد طاب واعتدلا
حلت رباط الخروف منشدة ... أما ترى الشمس حلت الحملا

وممن ولع بذكر الجزارة والجزور الاديب الفاضل أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم الجزار فمن ذلك قوله:

إنى لمن معشر سفك الدما لهم دأب ... وسل عنهم إن رمت تصديقى
تضىء بالدم اشراقا عراصهم ... فكل أيامهم أيام تشريق

وقوله:

حسن التأنى مما يعين على ... رزق الفتى والخطوب تختلف
والعبد مذ كان فى جزارته ... يعلم من أين يؤكل الكتف

أهدى بعضهم إلى صديق له كبشا فى يوم أضحية وكتب معه رقعة يصف سمنه فأجاب المهدى إليه وصلت رقعتك ففضضتها عن خط مشرق ولفظ مونق وعبارة مضيئة ومعان غريبة وتصرف بين جد أمضى من القدر وهزل أرق من نسيم السحر وتنقلت فى وجوه الخطاب الجامع للصواب إلا أن الفعل قصر عنه القول لا بل ذكرت جملا جعلته بصفتك

(١) الآية: ٤٦ من سورة فصلت.

(٢) الآية: ٧٠ من سورة البقرة.

جملا واتساع فى البلاغة يعجز عنها عبد الحميد فى كتابته وسحبان فى خطابته وكان المعيدى يسمع به لا أن يراه وحضر فرأيت كبشا متقادم الميلاد من نتاج قوم عاد قد أفنته الدهور وتعاقبت عليه العصور وظننته أحد الزوجين الذى جعلهما نوح فى سفينته ليحفظ بهما جنس الغنم لذريته صغر من الكبر ولطف من القدم فبانت زمانته وتقاصرت قامته وعادنا حلا ضئلا باليا هزيلا بادى السقام عارى العظام جامعا للمعائب مشتملا على المثالب يعجب العاقل من حلول الحياة فيه لأنه عظم مخلد وصوف ملبد لا يوجد فوق عظامه سلب ولا تقع اليد منه إلا على خشب لو مر به الكلب لاستجافه أو اطرح للذئب عند الخوى لعافه قد طال فقده الكلاء وبعد عهده بالامتلاء لم ير الغثاء الا نائما ولا الشعير إلا حالما وقد تحيرت بين إن اقتنيته فيكون فيه عنا الدهر أو أذبحه فيكون جيفة على وجه النهر فملت إلى استبقائه لما تعرفه من محبتى التوقير ورغبتى فى التميز وجمعى للولد وادخارى للعدد فلم أجد فيه مستمتعا للبقاء ولا مرفقا للعناء لأنه ليس بانثى فيحمل ولا يثنى فينسل ولا بصحيح فيرعى ولا سليم فيبقى فملت إلى الثانى من رأيك وعملت على الأخرى من قولك فقلت أذبحه ليكون وظيفة للعيال وأقيمه رطبا مقام قديد الغزال فأنشدنى وقد أضرمت النار وحدت الشفار وشمر الجزار:

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فىّ من سمنه ورما

ثم قال وما الفائدة لك فى ذبحى وأنا لم يبق فىّ الا نفس خافت ومقلة أنسانها باهت لست بذى لحم فأصلح للأكل لأن الدهر قد أكل لحمى ولا جلدى يصلح للدباغ لأن الايام قد مزقت أدمى ولا صوفى يصلح للغزل لأن الحوادث قد خصت وبرى وإن أردتنى للوقود فكف بعر أفتى من نارى ولن تفى حرارة جمرى بريح قتارى ولم يبق إلا أن تطالبنى بدحل أو بينى وبينك دم رجل فوجدته صادقا فى مقالته ناصحا فى مشورته ولم أعلم من أى حالة أعجب أم من مماطلته للدهر من أجل البقاء أم من صبره على الضر والبلاء أم من قدرتك عليه مع اعواز مثله أم من تأهيلك الصديق مع ما به خساسة قدره.

الباب التاسع والعشرون
فيما تحتاج اليه الاطعمة من البقول فى السفرة

القول على القرع ويسمى الدباء قال ابن جزلة فى المنهاج أجوده الرطب الاخضر الحلو وهو بارد رطب فى الثانية وقال رومس إنه حار رطب ويتولد منه غذاء شبيه بما يصحبه فإن أكل بالخردل ولد خلطا حريفا وإن أكل بالملح ولد خلطا ملحا ومسلوقه يغذو غذاء يسيرا وينحدر سريعا وهو جيد للصفراء وبين وعصارته تسكن وجع الآذان مع دهن ورد وينفع من أورام الدماغ وسويقه ينفع من السعال ووجع الصدر من حره وهو لقطع العطش جيد ويلين البطن وإذا دفن فى الخمر وشرب مع السكر نقع من الحميات وهو يفسد فى المعدة لمخالطة خلط ردىء ويضر باصحاب السوداء والبلغم. انتهى. رافع الاندلسى.

وقرع تبدى للعيون كأنه خراطيم أفيال لطخن بزنجار

الباذنجان: قال ابن القيس فى الموجز قيل بارد وقيل حار يابس فى الثانية وهو أصح يولد السوداء والسدد والسرطان والجرب السوداوى والبواسير والصلابة والجذام ويفسد اللون ويصفر ويبثر الفم انتهى كلامه.

الوصف: قال ابن المعتز فيه:

وابذنج بستان أنيق رأيته على طبق تحكيه مقلة رامق
قلوب ظبا أفردت من كبودها على كل قلب منه مخلب عاشق

وقال ابن رشيق القيروانى

وإذا صنعت غذاءنا فاجعله غير منبذج
إياك هامة أسود عريان أضلع كوسج

وقال صاحب كتاب ملح الممالحة وكان شيخنا الاسدى يعجبه الباذنجان ويقول فى تفضيله إن الناس يأكلونه ثمانية أشهر من السنة وهم أصحا ولو أكلوا الرمان ثمانية أشهر قلحوا وقيل لرجل ما تقول فى الباذنجان فقال أنوف الزنج وأذناب المحاجم وبطون

العقارب ويزر الرقوم فقيل إنه يحشى باللحم فيكون طيبا فقال لو حشى بالتقوى والمغفرة ما أفلح وقال صاحب المنهاج أجوده الحلو الأوساط والعتيق ردىء والحديث أسلم ولا يبين ضرره كثيرا إلا أنه غذاء مألوف وهو حار يابس فى الثانية وفيه غلظ والمر منه حار يابس بلا خلاف والحديث أقل حرارة وأردؤه ما أكل مشويًا وهو ينفع من عرق الدم لشدة رقته وليس له نسبة إلى إطلاق ولا عقل إليه إن طبخ فى دهن أطلق وإن طبخ فى خل أو سماق عقل وهو يحدث وجع الخواصر والمعدة والعتيق يبثر الفم ويولد السوداء والسدد ويسود البشرة ويولد البواسير وينبغى أن ينقع فى الماء والملح ويسكن فيه ثم يعمل بالدسم الكثير والخل والكراويا .

القلقاس: قال ابن جزلة فى المنهاج حار رطب فى الأولى وقيل إنه معتدل الحرارة رطب فى الثانية يزيد فى الباءة انتهى. وللشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة فى رسالة السجع الجليل فيما جرى من النيل عند ذكر الجزيرة الوسطى وقد أخلق ديباج روضها لانف وترك قلقاسها بمده وجزره على شفى جرف.

بعينى رأيت الماء فيها وقد جرى على رأسه من شاهق فتكسرا

غيره:

طالما تضرع بأصابعه إلى ربه

ولطم برءوسه الحيطان مما جرى على قلبه

وتمثل بقول الأول:

وإن سألوك يوم البين عن قلبى وما قاسى

فقل قاسى وقل قاسى وقلقاسى وقل قاسى

لم يفد تحصينه من ورقه بالدرق والستائر ولا حن عليه حين تضرع باصابعه فصح أن الماء سلطان جائر:

يا ويح قلقاس بمصر يقول لى لما اغتدى فى غيطه غرقانا

النيل مثل دم لفرط زيادة فلذا برأسى يلطم الحيطانا

السلجم: وبالشين أيضا قال ابن جزلة وهو اللفت وهو برى وبستانى وهو حار فى الدرجة الثانية رطب فى الدرجة الأولى يغذو كثيرا ويولد منيا يدر البول ولا يسهل ويشهى الطعام إذا سلق دفعتين وطيب بالخل والخردل وماؤه ينفع من الحصر وفيه غلظ ونفخ وان عرض منه ذلك فليتناول بعده أحد الجوارشنات.

الجزر: فى المنهاج أجوده الاحمر الشتوى وغذاؤه أقل من السلجم وهو حار فى آخر الدرجة الثانية رطب فى الأولى يحرك الباءة ويسهل ويلطف ويدر البول وهو عسر الهضم منفخ يولد ماء رديئا وينبغى أن يكثر انضاجه ويصلح بالمرى والخل والخردل وقال بعضهم:

انظر إلى الجزر الذى يحكى لنا لهب الحريق
كمدية من سندس فيها نصاب من عقيق

الاسفاناخ: قال ابن جزلة أجوده فى المنهاج الممطور وهو رطب بارد فى آخر الدرجة الأولى وقيل معتدل من الحرارة والبرودة فهو ملين ينفع السعال والصدر وفيه قوة التحليل وهو سريع الانحدار عن المعدة يلين الطبع وينفع من أوجاع الظهر الدموية وهو يسىء الهضم ويضر أصحاب الامزجة الباردة.

السلق: قال ابن جزلة هو صنفان أسود لشدة خضرته وأقل لونا منه وأجوده العذب الطعم وهو حار يابس فى الدرجة الأولى وقيل هو مركب القوة وقيل رطب فى الأولى فيه بورقه ملطفة وتحليل وتفتيح وفى الاسود قبض وينفع من داء الثعلب والكلف والخزرة والثآليل إذا طلى بمائه ويقتل القمل وتطلى به القوبا مع العسل ويفتح سدد الكبد والطحال والاسود منه يعقل وخصوصا مع العدس والصنف الآخر المهرا ويحقن بمائه لاخراج الثقل وهو ينفع من القولنج مع المرى والتوابل وهو يمغص ويولد النفخ وهو ردىء الكيموس قليل الغذاء يحرق الدم ويصلحه الخل والخردل وأصله ردىء المعدة انتهى.

وقال ابن زهر فى خواصه عن هرمس ورق السلق وورق العاقر قرحا من كل واحد دانق إذا جعل فى طعام باسم انسان وأطعم عمل فيه روحانية المحبة عملا عجيبا وقال ابن زهروان رض السلق وعاقر قرحا وذر فى مجرى ماء الحمام برد وسكن حره وقال أيضا وإن رض ورقه بدم الحمام ودفن فى إناء رصاص أربعين يوما تولد منه دود أخضر طوال فإذا طبخت بماء السلق وطلى به رأس الأقرع أنبت فيه الشعر وإن شدخت الدودة التى تكون فى السلق ودفنت فى برج حمام أو علقت عليه لم يقرب البرج شىء من الحيوان الضارى انتهى.

فصل البصل: فى المنهاج فيه مع الحرافة المقطعة مرارة وقبض وما كان منه أطول فهو أحرف والاحمر أحرف من الابيض وأجوده الابيض الريان وهو حار يابس فى الثالثة وهو ملطف يقطع ويجذب الدم إلى خارج البدن ويزيد فى الباءة وينفع من تغير المياه ويفتق

الشهوة ويلين الطبيعة وإذا قطر ماؤه فى الاذن ينفع من الطنين وهو يجلو البصر وينفع من ابتداء الماء والبياض اكتحالا بعصارته ويهيج خروج الشعر وإذا دق وعجن بعسل ووضع على الظفر الغليظ والقوابى والبهق قلع ذلك ويطلى به داء الثعلب وينفع من عضة الكلب الكَلِب[١] سقيا بشراب ومن نهش الحيات وهو يصدع للرأس والاكثار منه يشيب ويضر بالعقل ويكثر اللعاب ويفتح أفواه البواسير ويصلحه الخل واللبن الحامض أو مع الهندبا، وقال نصر بن سيار يوما وحوله بنون له هؤلاء بنو البصل لأنه كان يأكل كثيرا منه فيهتاج وقال ابن وكيع يحكى لعينيك احمرار قشره إذا رآه ناظر غلا ثلا حمرا على جسوم بيض رطاب من جسوم الروم.

الشوم: كذا ذكره صاحب المنهاج بالثاء المثلثة منه بستانى ومنه برى ومنه كراثى والكراثى مركب القوة من الثوم والكراث وهو حار يابس فى الدرجة الرابعة وقيل فى الثالثة وهو أقوى حرارة ويبسا من البصل وهو يحل النفخ وينفع من تغيير المياه وطبيخ الجبلى منه إذا شرب قتل القمل ورماده يطلى به البهق مع العسل وكذا الثعلب والجرب والقوابى ويصفى الخلق مطبوخا ويخرج العلق من الحلق وإذا حشى فى طبيخ ورقه وساقه أدر الحيض والبول وأخرج المشيمة وأكله يخرج الديدان ويطلق الطبع وهو نافع من لسع الهوام ونهش الحيات وعضة الكلب الكلب سقيا بشراب وينفع السعال من برد ويصفى الخلق وهو مقرح للجلد مصدع مضعف للبصر جالب بثور العين وإذا طبخ قلت حرارته وحراقته وتصلحه الحوامض والادهان واللحوم السمان والثوم دواء لمن أصابه وجع السعى فى بطنه وإذا شوى ووضع على الضرس المأكول سكنه، وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه أمرنا النبى ﷺ بأكل الثوم وقال لولا أن الملك ينزل علىَّ لأكلته.

وقال بعض الشعراء فيه:

يا حبذا ثومة فى كف ضاهية	بديعة الحسن تسبى كل من نظرا
أبصرتها وهى من عجب تقلبها	كصرة من ديبقى حوت دررا

الكزبرة: ويقال كسبرة منها رطبة ومنها يابسة وقوتها مركبة والغالب فيها أرضية وأجودها البستانى وهى باردة فى آخر الأولى واليابسة منها فى الثانية وأبقراط يقول فيها حرارة وبرودة وعند جالينوس إنها تميل إلى التسخين وفيها قبض وتخدير وهى تزيل روايح

---

(١) الكلب العقور.

البصل والثوم إذا مضغت رطبة أو يابسة وعصارتها مع اللبن تسكن كل ضربان شديد وتنفع من الأورام الحارة مع الخل والاسفيداج ودهن الورد ومعه العسل للبشرى والنار الفارسى وينفع من الجمرة ومن الدوار عن بخار المرار والبلغم وخاصيته أن يمنع البخار من الرأس وكذلك يجعل فى الطعام ورطبه ينفع الرعاف ودرور يابسه والمضمضة بعصارته رطبة تنفع من القلاع وهو ينفع الخفقان عن حرارة ودرهمان منها مع لسان الجمل ينفع نفث الدم وهو يمنع من القيء والجشاء الحامض بعد الطعام والاكثار منه يخلط الذهن ويظلم البصر ويخفف المنى ويكسر الباءة ويصلحه سكنجبين السفرجلى.

وأما البقل فما ورد عن النبى ﷺ أنه قال البقل حلية الموائد وفيما رواه مكحول عن أبى أمامة عن النبى ﷺ أنه قال أحضروا موائدكم البقل فإنها مطردة للشياطين ورو ى عن على رضي الله عنه أنه قال دخلت مع النبى ﷺ إلى حذيفة بن اليمان فتلقانا بنبات يقال له الباذروج فنظر إليه وقال أهلا بك من بقلة ما أطيب ريحك وأحسن منظرك فإنك لمن رياض الجنة ثم نظر إلى الهندباء فقال يا لك من بقلة تهضم الطعام وتحيى الفؤاد وتجلو عن الناظر.

فائدة: منقولة من خط القاضى أمين الدين بن الانفى المالكى رحمه الله تعالى قال ذكر السويدى صاحب التذكرة أن الإمام فخر الدين الرازى ذكر أنه من رأى الهلال أول ليلة وكان موجوع الضرس فقال نذرت لله أن لا آكل الهندباء ولا لحم الفرس سكن وجع ضرسه ذلك الشهر وقال ابن زهر فى خواصه قال يوحنا بن ماسويه إن دق أصل الهندباء وضمد به لسعة العقرب سكن الوجع والبرى منه إذا شرب ماؤه مع الشراب نفع من لدغ الافاعى وقال ابن النفيس فى الموجز يابسه يابس فى الأولى ورطبه رطب فى الأولى يفتح سداد الاحشاء والعروق وفيه قبض صالح يقوّى المعدة والكبد أما الحارة فشديد الموافقة لها وأما الباردة فللخاصية وتنفع مع الخيار شنبر لاورام الحلق وتنفع الرمد وبياض العين.

الكرفس: حار يابس يفتح السدد ويدر البول وهو نافع للمعدة ويبطئ بالهضم ولذلك يجب أن يقدم قبله طعاما يختلط به وهو يطيب النكهة ويحتاج إلى أكله من يداخل السلطان ومن كان خدمته السر وقال ابن النفيس فى الموجز حار فى الأولى يابس فى الثانية يحلل النفخ ويفتح السدد ويسكن الوجع ويطيب النكهة جدا ردىء للصرع تهيجه فى المصروعين وينفع السعال والكبد والطحال والكلى والمثانة وينفع الاستسقاء وعسر البول وتفتت الحصاة وتضر الحبالى الادرارة ويهيج الباءة.

النعناع حار يابس وهو نافع من الفواق قال ابن زهر فى الخواص ان جعل من ورق النعنع الثلث ومن ورق النمام السدس ومن حب القرع النصف وجعل فى طعام واحد باسم آخر عمل فيه روحانية المحبة.

الطرخون: فى المنهاج قيل إن عاقر قرحا هو أصل الطرخون وهو جبلى وبستانى وأجوده البستانى وهو حار يابس فى الثانية وفيه قوة مخدرة وقيل إنه بارد وهو مجفف الرطوبات فإذا مضغ نفع من القلاع ويمضغ قبل شرب الادوية الكريهة وهو يقوى المعدة ويحدث وجع الحلق وهو عسر الهضم ويقطع شهوة الباءة ويعطش ويصلحه الكرفس.

الفجل: من كتاب هاضم الطعام وبزره نافع من الفواق إذا أكل بالعسل واذا شدخ على عقرب ماتت وإن شرب ماء ورقه نفع من اليرقان الحادث من الطحال.

قلت: ومن منافعه ما جربته وصح أنه إذا مضغ ووضع على العين المحمرة من لطم وكرر ذلك فإنه يزيل الحمرة في الحال وقال ابن زهر فى خواصه ورق الفجل معصورا يؤخذ ماؤه وشيء من نشادر فيلطخ به سلة الحاوى فتموت الحيات كلها وورقه يحد البصر وان سحق بزره مع كندس متساويين وطلى به البهق الاسود فى الحمام بالماء الحار والخل أذهبه وإن أخذ ماؤه وخلط بالخل والطين وطلى على لسعة الزنبور أبراها وقال جالينوس عصارة الفجل إذا اكتحل بها جلت البياض من العين وإذا خلط ماء الفجل بماء الورد وسخن وقطر فى الأذن أذهب عسر السمع والطنين منها وإن دق ورقه وصفيّ ماؤه وأسعط به صاحب اليرقان رأيت عجبا وقال ارسطاطاليس مما يبيض الشعر مثقال من ورق الملوخيا والفجل ويعجن بمرارة الثور ويضمد به الشعر بالليل ويغسل بالنهار فإنه يصير الأسود أبيض وإن طلى الوجه بماء الفجل أذهب عنه النمش والكلف وإن دخن بورقه فى بيت هربت منه الهوام (قال) النور الاسعردى يهجو:

أيا مطعما أصحابه إذ دعاهم من الفجل فى أوراقه غير ما يمرى
وحقك ما أكرمتهم مذ لقيتهم بجيش ضراط تحت راياته الخضر

نادرة: كان أبو نواس يوما عند بعض اخوانه فخرجت عليه جارية بيضاء عليها ثياب خضر فلما رآها مسح عينيه وقال خيرا رأيته إن شاء الله قالت ما رأيت؟ قال: رأيت كأنى راكب أشهب عليه ثياب خضر قالت له إن صدقت رؤياك استدخلت فجلة.

الرشاد قال ابن البيطار إذا شرب بالماء الحار حل القولنج وأخرج الديدان وحب القرع

إن سحق نيئا وسف نفع من البرص وإن لطخ عليه وعلى البهق الابيض بالخل نفع منهما وإذا خلط بالعسل ولعق منه نفع من السعال المتولد عن اخلاط غليظة وإذا ضمدت به لسعة العقرب نفعها.

زين الدين بن الوردى:

رب خـــــــولى بـدا مـن	حــــــبــــه وهـو يـنـادى
مـن يـمـت فى ورد خـــدى	أهـده ســـبـل الـرشـــاد

أنشدنى الشيخ عز الدين الموصلى لنفسه ملغزا

مـــا اسـم لـه أحـــرف ثـلاث	تصــحـيـفـه جـمـعـه بقل
عــدتهـــا فى الحـســاب سـبع	وإن تـرد مـــشـلـه فـكـبـل
إن تجـــر مـــا إليـــه يـكـثـر	وإن تـــزد نــقـــطـــة بــقـــل
يـدوى إذا الـمـــاء قـل لـكـن	يـصـح جــــمـــا إذا يـعل

الباب الثلاثون

فى الخوان والمائدة وما فيهما من كلام مقبول

كنية الخوان أبو جامع لاجتماع الناس حوله قال الحريرى فى درة الغواص ويقولون لما يتخذ لتقديم الطعام عليه مائدة والصحيح أن يقال خوان إلى أن يحضر الطعام عليه يسمى حينئذ مائدة يدل على ذلك أن الحواريين حين سألوا عيسى عليه السلام بأن يستنزل لهم طعاما من السماء قالوا هل يستطيع ربك أن ينزل مائدة من السماء بينوا معنى اسم المائدة بقولهم نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا قال الاصمعى غدوت ذات يوم إلى زيارة صديق لى فاستشرت بعض الاخلاء فقال إن كان لفائدة أو عائدة أو لمائدة والا فلا وقد اختلف فى تسميتها بذلك فقيل سميت به لانها تميد بما عليها أى تتحرك مأخوذ من قوله تعالى ﴿وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بكم﴾[1] وقيل بل هى من ماد أى أعطى ومنه قول رؤبة بن العجاج إلى أمير المؤمنين الممتاد أى المستعطى وكأنها تميد من حواليها مما أحضر عليها وقد أجاز بعضهم أن يقال فيها ميدة واستشهد عليه بقول الراجز:

وميدة كثيرة الالوان   تصلح للجيران والاخوان

وقال الكواشى فى تفسير سورة المائدة ولما سأل الحواريون المائدة لعيسى عليه السلام لبس صوفا وبكى وقال ﴿اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء﴾[2] الآية، فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين من فوقها وتحتها وهم ينظرون وهى تهوى منقضة حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى عليه السلام وقال اللهم اجعلنى من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عقوبة ثم قال ليقم أحسنكم عملا فليكشف عنها وليذكر اسم الله تعالى فقال له شمعون أنت أولى بذلك منا فقام عيسى عليه السلام وتوضأ وصلى صلاة طويلة وبكى بكاء كثيرا وكشف المنديل عنها وقال بسم الله خير الرازقين وإذا هو سمكة مشوية ليس عليها فلوس ولا شوك بها يسل منها الدسم وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث وإذا خمسة أرغفة على واحد زيتون وعلى الثانى عسل وعلى الثالث

---

(١) الآية: ٣١ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية: ١١٤ من سورة المائدة.

سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة فقال عيسى ليس شىء مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة ولكنه شىء افتعله الله بالقدرة الغالبة كلوا مما سألتم يمددكم الله ويرزقكم من فضله فقالوا يا روح الله كن أول من أكل منها فقال معاذ الله أن آكل منها ولكن يأكل منها من سألها فخافوا أن يأكلوا منها فدعا لها أهل الفاقة والمرضى وقال كلوا من رزق الله ولكم الهناء ولغيركم البلاء فأكلوا وصدروا وكانوا ألفا وثلاثمائة ما بين رجل وامرأة من فقير ومريض وزمن ومبتلى وإذا السمكة كهيئتها حين نزلت ثم طارت المائدة صعدا وهم ينظرون اليها حتى توارت وما أكل منها مريض الا عوفى ولا فقير الا استغنى وندم من لم يأكل منها فلبثت أربعين صباحا تنزل ضحى فيأكل منها الاغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء حتى إذا فاء الفىء طارت وهم ينظرون فى ظلها وكانت تنزل كناقة صالح فى الحلب فأوحى الله إلى عيسى عليه السلام أن اجعل مائدتى ورزقى فى الفقراء دون الاغنياء فعظم ذلك على الاغنياء حتى شكى الناس فقال أتريدون المائدة حقا تنزل من السماء فأوحى الله تعالى أنى شرطت أن من كفر بعد نزولها عذبته عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين فقال عيسى ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾[1] الآية، فمسخ منهم ثلثمائة وثلاثة وثلاثين رجلا أصبحوا خنازير فلما رأى الناس ذلك بكوا ورغبوا إلى عيسى فلما أبصرت الخنازير عيسى بكت وجعلت تطوف بعيسى وعيسى يدعوهم بأسمائهم يشيرون برءوسهم ويبكى ويبكون وهم لا يقدرون على الكلام ثم هلكوا أجمعين وما أظرف قول ابن حجاج:

يا ذاهبا فى داره جائيا ... بغير لا معنى ولا فائده

قد جن أضيافك من جوعهم ... فاقرأ عليهم سورة المائده

قلت: الشىء بالشىء يذكر أنشدنى الشيخ المحدّث الرحلة الفاضل المفنن الرحال صلاح الدين خليل الاقفهسى نزيل دمشق المحروسة قال أنشدنى الشيخ العارف المحقق المسلك الحكيم برهان الدين إبراهيم الغرى الشهير بابن رفاعة أعاد الله من بركاته من لفظه لنفسه:

لما مرضت أرسلت ... لى صلة وعائده

لعلمها أنى فتى ... أهوى النساء والمائده

جارية وسكرا ... للاكل والمشاهده

(١) الآية: ١١٨ من سورة المائدة.

وقال الشيخ برهان الدين القيراطى:

أميل لاغصان القدود صبابة وإن هى زادتنى جفا وتباعدا
ويعجبنى بين الانام تطفلى عليها إذا شاهدتهن موائدا

رجع: قال حاتم الطائى لغلامه قدم الينا مائدة تتباعد ما بين أنفاسنا قال هدبة بن خالد حضرت أمير المؤمنين فلما رفعت المائدة جعلت ألتقط ما فى الأرض فنظر إلىّ المأمون وقال أما شبعت يا شيخ قلت بلى يا أمير المؤمنين إنما شبعت فى فنائك وفى كنفك ولكن حدثنى حماد بن سلمة عن ثابت بن أنس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول من أكل من تحت مائدته أمن من الفقر فنظر المأمون إلى خادم واقف بين يديه فأشار إليه فما شعرت حتى جاءنى ومعه منديل فيه ألف دينار فناولنى فقلت يا أمير المؤمنين وهذا من ذاك، وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما من أكل ما سقط من الخوان رزق أولادا كانوا صباحا وينبغى أن يصرف عن المائدة السنور والكلب وذو العيون الرديئة من الغلمان ومن يعلم منه الشره أو يشبعوا قبل احضارهم الطعام قال النبى ﷺ من أكل وذو عينين ينظر إليه ولم يواسه ابتلى بداء لا دواء له، قال النيفاشى فى سرور النفس حدثنى من حدثه بعض التجار الذين كانوا يردون إلى خدام القصر فأضافنى فى حجرة له متصلة بالقصر فلما حضرت المائدة كان بين أيدينا سنانير كثيرة فعندما شاهدوا المائدة وضعت لم يبق عندنا منها واحد ومرّت كلها خارجة عن المجلس دون طارد يطردها فعجبت من ذلك كل العجب فلما انقضى الطعام أحببت أن أعرف العلة فى ذلك فسألت الخادم فأخذ بيدى وأدخلنى إلى بيت صغير فيه عدة أوانى فيها طعام والسنانير مجتمعة عليه تأكله فقال عوّدناها إذا حضر الطعام أن تطرد إلى هذا البيت ويعد لها طعام فيه فصارت عادة لها، واتفق فى أمر الكلب وحضوره بالمغرب واقعة عجيبة وذلك أنه كان بمدينة من بلاد المغرب حمال يحمل فى السوق فأتى من حملة ذات يوم فاشترى زلابية وهريسة فى صحفة وصعد بها إلى سطح السوق يأكلها فتبعه كلب فجلس ازاءه وهو يأكل فجعل كلما شال لقمة إلى فيه يشيعها الكلب ببصره حتى يبتلعها الرجل ثم صار يرفع اللقمة ويومى بها إلى الكلب على سبيل العبث به فيقرب الكلب منه فيأكل اللقمة ويزجره فلم يزل دأبه ذلك حتى بقيت لقمة واحدة فروّغها فى الدهن وأومى بها نحو الكلب ثم ألقاها فى فمه فمضغها وابتلعها والكلب محدق نحوه فلما صارت

اللقمة فى حلقومه وثب عليه الكلب فاستل الحلقوم واللقمة فأكلهما وخرّ الرجل ميتا (عبد العزيز بن المهذب):

لله در غــلام جــاء يخــدمنا ... بسـفرة من رفـيع القطن فـوراء
بدائر أزرق من حـول دارتـهـا ... تحار فـيه وفيـها مـقلة الرائى
كـأنهـا روضـة خضـراء مزهرة ... وحـولهـا جـدول من أزرق المـاء

ومن التحف النفيسة: ما ذكره القاضى الرشيد بن الزبير فى كتابه العجائب والظرف أنه أصاب عطية بن مرداس العلاوى لما ملك الرحبة فى سنة اثنين وخمسين وأربعمائة وحازما كان ادّخره أبو الحرث رسلان اليـاسيرى من مال وغيره ومما كان وجده ببغداد من الخليفة إلى جعفر عبد الله القائم ومن ذخائر بنى العباس حين خلعه ونهب داره فى سنة خمسين وأربعمائة وجد فيها مائدة فيروزج بحوافى مكالة بالجواهر لا قيمة لها ولا قدرا يعرف مما انتقل إلى بنى العباس من ذخائر الاكاسرة كتب البرهان الغزولى النحوى السكندرى سحبة ملاعق أهداها للصاحب زين الدين بن الزبير:

لمـا بعـدتم وكـاد اليـأس يقصينا ... من نيلكم ودنت منا أمـانينا
بتنا عـلى سغـب الآمـال فى ظمـأ ... والشـوق ينشـرنا طورا ويطوينا
ثم استنبنا تحيـات السلام عسى ... تعـود منكم تحيـات فتحـيينا
وقـد بعثنـا لكم مـملوءة قبـلا ... مـثل الايادى التى أعـيت أيادينا
مـستطعـمـات طعاما من مطاعمنا ... وافـتكم بلسـان الحـال تحكينا

ومما يكتب على سفرة الأكل:

ألا كل هنيـئـا ولا تحـتـشم ... فـما الاحـتـشـام فعـال الكرم
فـما الجـود والفضـل الا لمن ... تفـضـل الينا بنقـل القـدم

الخبز وما ورد فيه: قال ابن عباس رضي الله عنهما أكرموا الخبز قيل وما اكرام الخبز قال لا تنتظروا به الادم إذا وجدتم الخبز كلوه حتى تؤتوا بغيره قال أبو محمد بن خلاد كان الحسن ابن رجاء يقول السميد طعام الملوك والحوارى طعام الخواص والخشكار طعام العامة والشعير طعام الزهاد وكان حميد لا تخلو مائدته من مائة رغيف سميد فى كل رغيف رطلان وكان خبزه موصوفا ببغداد كأنه المرآة المجلوّة بياضا وحسنا وربما يرى فيه شعر اللحية لشدة بياضه قال أحمد بن أبى داود قال لى الواثق يوما ما جمال الموائد فقلت يا أمير

المؤمنين كـان يقال جمالهـا كثرة الخبـز عليها فـقال أصبت وأحسنت فـإذا اختلفت الألوان وكان الخبز كثيرا شهد لصاحبها بالشرف.

قال الاصمعى كان الرشيد يأكل يومين متواليين خبز السميد والثالث الحوارى والرابع الخشكار والخامس والسادس خبز الارز النقى من خبـز التنور وكـان يقول الارز غـذاء صحيح قال بعض الاطباء الخشكار فيه بعض الحرارة وهو أسرع انحدارا من المعدة لأجل النخالة التى فـيه لأن فـيـه جلى للمعى وهو يولد الحكة وأكله بالادام الدهن يدفع ضـرره والخبز الخمير أحمد الخبز وأوفـقه وأمرأه والفطير بطىء الانهضام يولد الرياح وخبز التنور أغذا وأنفع والخبـز المملوك وخبـز الطابق ثقيلان ضاران والخبـز السـميـد المعتدل الـخبز يخصب الجسم ويجدد السدد وأكله بالاسفندباجـات والطباهجات المالحـة يصلحه وكان جبريل بن بخـيتشوع لا يؤثر على الحوارى شيـئا ويقول هو الواسطة وروى عن على بن أبى طالب ﷺ ﴿ثم لتُسـألن يومئـذ عن النعيم﴾[1] قـال هو خبـز البرّ ومـاء القراح والظل قـال العتبى عن أبيه قال خرج أبو سفيان فى جماعة من قريش وثقيف يريدون بلاد كسرى بتجارة لهم فلما ساروا قـال أبو سفيان إنا لعلى خطر من قدومنا على ملـك لم يأذن لنا بالقدوم عليه فأيكم يذهب بالعير فإن أصيب فعلينا دمـه وإن يغنم فله نصف الربح فقال غـيلان بن سلمة الثقفى أنا أمـضى فى العيـر وكـان أبيض طويلا جعـدا فلما وصـل ديار الملك لبـس ثوبين أصفـرين وشهر نفـسه وقعـد بالباب حتى أذن له فـدخل على الملك وهو جالس فى شباك ذهب فقـال له الترجمـان يقول لك الملك ما أدخلـك بلادى بغير اذنى فـقال لست من أهل عداوة الملك ولم أكُ جاسوسا وإنما حملت تجـارة فإن أرادها فهى له قال فبينا هو يكلمه اذ سمع صوتا فخر ساجـدا فقال له الترجمان يقول لك الملك ما أسجـدك فقال سمعت صوتا مرتفعا حيـث لا ترتفع الاصوات فظننته صوت الملك فسجـدت قال فشكر الملك ذلك له وأمر له بمـرفقة توضع تحتـه فرأى فيهـا صورة الملك فوضعـها على رأسه فقـال الحاجب الملك يقول لك إنما بعثناها لك لـتجلس عليها فقال قد علمت ولكن رأيتهـا وعليها صورة الملك فوضعتهـا على أعظم أعضائى فقال له الملك ما طعامك فى بلادك قـال خبز البز قال هذا عقل الخبز ثم اشترى منه التجارة باضعاف ثمنها ورجع فى أمن وسلامة.

---

(١) الآية: ٨ من سورة التكاثر.

أبو الحسين الجزار فى الخبز:

قسما يلوح الخبز عند خروجه ... من فرنه وله الفداة تجار
ورغائف منه تروقك وهى فى ... سجف التفال كأنها أقمار
من كل مصقول السوالف أحمر الـ ... ـخدين للشونير فيه عذار
وكأن باطنه بكفك درهم ... وكأن ظاهر لونه دينار
كالفضة البيضاء لكن يغتدى ... ذهبا إذا قويت عليه النار

وقال ابن الرومى فى الرقاق:

لا أنسى خبازا مررت به ... يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر
الا بمقدار ما تنداح دائرة ... فى صفحة الما تلقى فيه بالحجر

وله فى الزلابية:

يلقى العجين حينا من أصابعه ... فتستحيل شبابيكا من الذهب

المأمونى فى الكماج:

عندى للاكل اذا ما ... قمت للتسحر
ملتونة بسمنها ... وسمسم مقشر
مثل البدور الطالعا ... ت فى شطور الانهر
آلوجه الترك إذا ... أثر فيها الجدر

وقال بعضهم وأجاد:

خبز شعير بغير ادم ... عند فقير من الكرام
ألذ عندى من ألف لون ... عند غنى من اللئام

وقال مجير الدين بن تميم:

وكأن أرغفة الخوان وحولها ... بقل تهش إليه نفس الآكل
وجنات غيد صففت وجميعها ... يبدو بها خط العذار الباقل

غريبة: ذكرها الحافظ العلامة المؤرخ عماد الدين بن كثير فى تاريخه فى ترجمة الوليد ابن عبد الملك ورواها الحافظ ابن عساكر باسناد رجاله كلهم ثقات عن عبد الرحمن بن يزيد ابن جابر عن أبيه قال خرج الوليد بن عبد الملك يوما من الباب الاصغر فرأى رجلا عند المأذنة الشرقية يأكل نوقف عليه فإذا هو يأكل خبزا وترابا فقال له ما يحملك على هذا

قال القنوع يا أمير المؤمنين فذهب إلى مجلسه ثم استدعى به فقال إن لك لشأنا فأخبرنى به والا ضربت الذى فيه عيناك فقال نعم يا أمير المؤمنين كنت رجلا جمالا فبينا أنا أسير من مرج الصفر قاصدا الكسوة إذا رزمنى البول فعدلت إلى خربة لابول فإذا سرب فحفرته فإذا مال صبيب فملأت منه غرائرى ثم انطلقت أقود برواحلى وإذا بمخلاة فيها طعام فألقيته منها وقلت إنى سآتى الكسوة ورجعت لاملأ تلك المخلاة فلم أهتد إلى المكان بعد الجهد فى الطلب ثم رجعت إلى الرواحل فلم أجدها ولم أجد الطعام فآليت على نفسى ان لا آكل الا خبزا وترابا قال فهل لك عيال قلت نعم ففرض لهم فى بيت المال قال ابن جابر وبلغنا أن الرواحل سارت حتى أتت بيت المال فتسلمها خازنه فوضعها فى بيت المال.

الباب الحادى والثلاثون
فى الوكيرة والاطعمة المشتهاة

الوكيرة طعام البناء كان الرجل إذا فرغ من بنائه يطعم أصحابه يتبرّك بذلك قال النبى ﷺ الوليمة فى أربع فى عرس أو خرس أو اعذار أو توكير، قال الشاعر:

خير طعام تشهد العشيره	الخرس والاعذار والوكيره

قال الشيخ محيى الدين النواوى رحمه الله فى شرح مسلم فى كتاب النكاح قال أصحابنا وغيرهم الضيافات ثمانية أنواع الوليمة للعرس والخرس بضم الخاء المعجمة للولادة وقيل فيه الخرص بالصاد المهملة أيضًا والاعذار بكسر الهمزة والعين المهملة والذال المعجمة للختان والوكيرة للبناء والنقيعة لقدوم المسافر يصنع الطعام وقيل يصنعه غيره والعقيقة يوم سابع الولادة والوضيمة بفتح الواو وكسر الضاد المعجمة الطعام عند المصيبة والأدبة بضم الدال المهملة الطعام المتخذ ضيافة بلا سبب، قال صاحب زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ولما تكامل بناء القصر الابلق الذى أنشأه السلطان الملك الناصر لسكناه بقلعة الجبل المحروسة عمل وليمة عظيمة حضرها الغنى والفقير من كبير وصغير وخلع على الامراء التشاريف على قدر مراتبهم وأنعم عليهم بالبذل من الاموال وكانت عدة الخلع التى خلعت ألفى خلعة وخمسمائة والمال المطلق مائة الف دينار من العين المصرى وذلك سنة أربع عشرة وسبعمائة، وقرأت فى بعض المجاميع الادبية أن الفتح بن أبى حصينة المغربى رحمه الله امتدح نصر بن صالح بحلب فقال له تمنّ فقال أتمنى أن أكون أميرا فجعله بحلب مع الامراء ويخاطب بالامير وقرّبه وصار يحضر فى مجلسه فى جملة الامراء ثم وهبه أرضا بحلب قبلى حمام الواسانى فعمرها دارا وزخرفها وقرنصها وتمم بنيانها وكمل زخارفها ونقش على دائر الدرابزين:

دار بنيناها وعشنا بها	فى نعمة من آل مرداس
قوم محوا بؤسى ولم يتركوا	علىّ للايام من باس
قل لبنى الدنيا ألا هكذا	فليصنع الناس مع الناس

قال فلما انتهى العمل بالدار عمل دعوة وأحضر نصر بن صالح بن مرداس فلما أكل الطعام رأى الدار وحسنها وحسن بنيانها ونقوشها ورأى الابيات وقرأها قال يا أمير كم خسرت على هذه الدار فقال والله يا مولاى ما للملوك علم بل هذا الرجل ولىّ عمارتها فلما حضر المعمار قال كم لحقكم غرامة على بناء هذه الدار فقال المعمار غرمنا ألفى دينار مصرية فأحضر من ساعته ألفى دينار مصرية وثوبا أطلس وعمامة مذهبة وحصانا بطوق ذهب وسرج ذهب ودفع ذلك جمعيه إلى الامير أبى الفتح وقال له:

قل لبنى الدنيا الا هكذا فليصنع الناس مع الناس

قلت: وما أحسن ما ضمن هذا البيت سيدى القاضى شهاب الدين بن حجر يمدح سيدنا ومولانا بدر الدين محمد بن الدمامينى المالكى رحمهما الله:

نسبت أن أمدح بدر العلى فلم يدع برى وايناس

قل لبنى الدنيا الا هكذا فليصنع الناس مع الناس

حكي أن ابن البطريق واسمه على حضر عند ابن السراج بن البجلى ناظر دار الضرب والجيش فى بغداد فى وليمة عملها لاجل دار عمرها فلما خرج من عنده اجتمع بالوزير نصير الدين أحمد بن الناقدى فسأله أين كنت قال فى وليمة ابن البجلى فقال الوزير قيل لى إن داره مليحة فقال نعم وقد عملت فيها:

دار السراج مليحه فيها تصاوير بمكنه

تحكى كتاب كليله فمتى أراها وهى دمنه

الدعوات المشهورة دخول عبد الله بن المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل وكانت النفقة فى يوم ملاكها وعرسها، قال ابن عبدوس فى سنة عشرة وما بين ثمانية وثلاثين ألف ألف درهم وقيل خمسين ألف ألف درهم وكان يجرى فى كل يوم فى جملة الجرايات على ستة وثلاثين ألف ملاح ووصل المأمون فى قواده وحشمه ووهب لاخيها ألف ألف درهم وكساه وأقطعه فم الصلح وكانت عليه ثمانين ألف دينار فى السنة وبلغت نفقة أبيها فى هذه الوليمة أربعين ألف ألف درهم وبلغت نفقة الحسن بن سهل على قواد المأمون وحملتهم فأوصلهم وخلع على الخاصة خلعا قيمتها سبعون ألف ألف درهم وجليت بوران على المأمون وقد فرش لها حصير من الذهب وجاءت جدة بوران بمكيل من الذهب مرصع بالدر والجوهر فيه در كبار فنثر على من حضر من النساء وفيهن أم جعفر وحمدونة بنت الرشيد وغيرهما فلم يمس منه شيئا فقال المأمون شرفن أم محمد وأكرمنها فمدّت كل

واحدة يدها وأخذت حبة وبقى سائر الدر يتدحرج على حصير الذهب فقال المأمون قاتل الله ابن هانئ كأنه رأى ما نحن فيه حيث قال:

كأن صغرى وكبرى من فواقعها   حصباء در على أرض من الذهب

ونثرت أم الفضل بن سهل جدة مروان عليها يوم دخل بها المأمون ألف درهم فى صينية ذهب وأوقد فى تلك الليلة على المأمون شمعة عنبر وزنها أربعون منا ونثر فى ملاكها كل شىء له قدر من الكراع والرقيق والكسى والصياغات والطيب والضياع والعقار والجواهر والدنانير والدراهم وكانت أسماء كل هذا مثبتة فى رقاع وتلقى فمن التقط رقعة مضى إلى الخازن الذى لذلك الصنف فأخذه منه وكان للحسن بن سهل أربعون بغلا مرتبة لحمل الحطب تصرف كل يوم عدة دفعات أقامت تنقل سنة كاملة ولم يكفهم حتى قطعوا سعف النخل رطبا وصبوا عليه الدهن والزيت وأوقدوه.

وحكى: القاضى شهاب الدين بن فضل الله العمرى فى كتابه مسالك الابصار فى ممالك الامصار فى ترجمة الآمر بأحكام الله أبى على المنصور فى المجلد الرابع والعشرين منه أن الآمر بالله بينا هو فى موكبه قبلى بركة الحبش اذ تقدمهم فمر برجل على باب بستان له وحوله عبيد وموال له فاستسقاه ماء فسقاه فلما شرب قال يا أمير المؤمنين قد أطمعتنى فى السؤال فإن رأى أن يكرمنى بنزوله لاضيفه فقال ويحك معى الموكب فقال وأولئك يا أمير المؤمنين فنزل فأخرج الرجل مائة بساط ومائة نطع ومائة وسادة ومائة طبق فاكهة ومائة جام حلوى ومائة زبدية أشربة سكرية كلها فبهت الآمر وقال أيها الرجل خبرك عجيب فهل علمت بهذا فأعددت له فقال لا والله يا أمير المؤمنين وإنما أنا رجل تاجر من رعيتك لى مائة خطية فلما أكرمنى أمير المؤمنين بنزوله عندى أخذت من كل واحدة شيئا من فرشها وبعض أكلها وشربها ولكل واحدة فى كل يوم طبق فاكهة وطبق طعام وطبق بوارد وجام حلوى وزبدية شراب فسجد الآمر شكرا لله وقال الحمد الله الذى جعل فى رعايانا من يسع حاله هذا ثم أمر له بما فى بيت المال من الدراهم ضرب تلك السنة فكان ثلاثة آلاف ألف وسبعمائة ألف ثم لم يركب حتى أحضرها وأعطاها للرجل وقال استعن بهذه على حالك ومروءتك ثم ركب وانصرف، ولما زوج الحجاج محمد بن الحجاج قال لأصنعن طعاما لم يسبقنى اليه الأولون ولا يدركه الآخرون فقيل له لو بعثت إلى المدائن فسألت كيف صنع كسرى فتعمل على مثال ذلك فأرسل إلى بعض من أدرك ذلك فقال أخبرنى عن الطعام الذى

صنعه كسرى فقال ما أكثر ما كان يصنعه من الطيبات قال أطيه قال حين تزوج هند ابنة بهرام كتب إلى عماله فى الآفاق ليقدم،علىّ كل رجل منكم ويخلف والى شرطته على بلده فرأى عنده اثنى عشر الفا فاطعمهم فى ثلاثة أيام كل يوم ألف خوان يقعدون على بسط الديباج المنسوجة بالذهب وكلما أكلوا أتى كل واحد منهم بمثقال مسك فيغسل يده به فلما قاموا بعث بتلك الآنية والبسط فقسمت عليهم فقال الحجاج أفسدت علىّ لعنك الله اذهبوا فاشتروا الجزر فانحروها فى مربعات واسط وكان قد أمر بالنداء بالحضور فحضرها الناس وذلك فى أشد الحر وكثرة الذباب فاستغنى أهل الدعوة عن المراوح ولم يجدوا ذبابة واحدة وكان قد عمد إلى المرافق التى فى المجالس فنصب فيها أحجار الثلج وكانت الريح تفضى اليها من باذهنجات فيخرج نسيمها إلى المجالس والصحون وسئل عن عدم الذباب فقيل إنه اشترى قبل الدعوة من دور الجيران ما يمكن شراؤه واستعار الباقى وطلى حيطانها بعسل قصب السكر فاشتغل الذباب به وانقطع عن داره فلما انقضت أيام الدعوه ردت جميع الدور الى أربابها.

وعلى ذكر الذباب فلا بأس بايراد نكتة غريبة وموعظة عجيبة وهى أن الحاكم الذى كان خليفة بمصر وادعى أنه من ولد فاطمة ﷺ وبنى المسجد الجامع بالقاهرة المعزية المجاور لباب الفتوح فسد حاله فى آخر أمره وادعى الالهية وكتب بسم الحاكم الرحمن الرحيم وجمع الناس للايمان به وبذل لهم نفائس الاموال وان ذلك كان فى فصل الصيف والذباب يتراكم على الحاكم والخدام تدفع الذباب ولا يندفع فقرأ بعض القراء وكان حسن الصوت ﴿يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب * ما قدروا الله حق قدره﴾(١) فاضطرب الحاضرون بسماع هذه الآية حتى كأن الله تعالى أنزلها تكذيبا للحاكم فى دعوى الالهية وسقط الحاكم من على سريره خوفا من أن يقتل وولى هاربا وأخذ فى استجلاب ذلك الرجل إلى أن طمنه وسيره فى صورة رسول إلى بعض الجزائر وأمر الربان أن لا يسير به غير ثلاثة أيام ويغرقه فلما غرق رُئى فى المنام فقيل له ما وجدت فقال ما قصر معى الربان أرسى بى على باب الجنة.

رجوع: ومن الهمم الملوكية والنخوة العربية والنفس الادبية ما ذكره الثعالبى فى كتابه

---

(١) الآيتان: ٧٣، ٧٤ من سورة الحج.

لطائف المعارف عن جميلة بنت ناصر الدولة أبى محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان أنها حجت سنة ست وستين وثلاثمائة فصار عام حجها مثلا وتاريخا وذلك أنها أقامت من المروءة وفرقت الأموال وأظهرت من المحاسن ونشرت من المكارم ما لا يوصف بعضه عن زبيدة وغيرها من حاجات بيت الخلافة والملك ولا عن الخلفاء والملوك والحاجين وهو ما ذكره الثقات أنها سقت جميع أهل الموسم السويق بالسكر الطبرزد والثلج وكانت استصحبت البقول المزروعة فى مراكز الخزف على الجمال فضلا عما سواها وأعدّت خمسمائة راحلة للمنقطعين من رجالة الحاج ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار واستصحبت فيها شموع العنبر فى مدة اقامتها بمكة وأعتقت ثلثمائة عبد ومائتى أمة واغنت المجاورين بالصلات الجزيلة وخلعت على طبقات الناس خمسين ألف ثوب وكان معها أربعمائة عمارية لا يدرى فى أيتها هى ومن قصتها أنها لما رجعت إلى بلدها الموصل وضرب الدهر ضرباته فكان من استيلاء عضد الدولة فناخسرو على أموالها وحصونها وممالك أهل بيتها ما كان حتى أفضت بها الحال إلى كل قلة وذل وتكشفت عن فقر مدقع وكان فناخسرو خطبها لنفسه فامتنعت من اجابته ترفعا عنه فاحتقدها عليها وحين وقعت فى يده تشفى بها وما زال يعسف بها فى المطالبة حتى عرّاها وهتكها ثم ألزمها أحد أمرين اما ان تصحح ما بقته ووقف عليها من المال واما أن تختلف إلى دار القحاب فتكتسب فيها ما تؤدّيه من مال مصادرتها فلما ضاق بها الامر وأشرفت على الفضيحة انتهزت فرصة من غفلة المتوكلين بها وغرقت نفسها فى دجلة رحمها الله تعالى ولا آخذها.

ومن ظريف الاخبار ان زوجة المحسن بن الفرات أرادت اعذار ابنها بعد قتل أبيه فتعذرت عليها النفقة فرأت المحسن فى منامها فذكرت له ذلك فقال ان لى وديعة عند فلان الدين عشرة آلاف دينار فانتبهت وأخبرت بالقصة فسألوا الرجل فاعترف بها وحمل المال اليها، اتخذ)الحجاج وليمة اجتهد فيها واحتشد ثم قال لزاذان فروخ هل عمل كسرى مثلها فاستعفاه فأقسم عليه فقال أولم عبد عبد كسرى فأقام على رءوس الناس ألف وصيفة فى يد كل واحدة ابريق من ذهب فقال الحجاج أف والله ما تركت فارس لمن بعدها شرفا.

قلت: ذكرت بقوله أولم ما أنشدنيه من لفظه لنفسه سيدى المقر المجدى ابن مكانس:

قال خلى لحبيبى صل فتى فيك قد أضحى مغنى مغرما
قال هل يولم ان واصلته قال ان فاز بثغر أولما

وأول من ضيف الضيف وأطعم المسكين وقص شاربه وقلم أظفاره واستحدّ واستاك ورأى الشيب وفرق شعره وتمضمض واستنشر واستنجى بالماء واختتن بالقدوم ولبس السراويل وأسس المحجوج أى بنى أساس البيت الحرام خليل الله ونبيه ورسوله أبونا إبراهيم الخليل عليه أفضل الصلاة والسلام قيل ما خلا مضيفه إلى يومنا هذا من ضيف قط وقيل له ﷺ بما اتخذك الله خليلا قال بثلاث: ما خيرت بين شيئين الا اخترت الذى لله على غيره وما اهتممت بما تكفل الله لى به ولا تعشيت الا مع ضيف، ما أحسن قول صفوان بن ادريس فيمن اسمه ابراهيم:

اسمى من سن القرى رفقا بمن	يغنى عليك صبابة وغراما
أنا ضيف حبك،فاصطنعنى انه	ضيف الهوى يستوجب الاكراما
أفنيت جسم الصب شوقا مثل ما	أفنى سميك قبلك الاصناما
يا زهرة سكنت بقلبى غضة	إنى تبوأت الجحيم كماما
حتى كأن الحب قال لاضلعى	يا نار كن بردا له وسلاما

وكان الحسن بن قحطبة مضيافا له مطبخان فى كل مطبخ سبعمائة تنور هكذا نقل عنه الزمخشرى ، وحدّث عمر بن شيبة قال كان الحجاج يطعم فى كل يوم على ألف مائدة على كل مائدة سمكة مشوية سمينة وجنب مشوى وساقيان يسقى أحدهما اللبن والآخر العسل وكان يطاف به على كرسى فيقول يا أهل الشام مزقوا الخبز الرقيق كيلا يعاد عليكم، وقال الجاحظ كان كسرى ينصب فى كل يوم ألف مائدة على كل مائدة فخذ حمار وحش وبيضة نعامة ومن سائر الاصناف التى توجد فى البر والبحر والسهل والجبل حتى لا تخلو الموائد من سائر الاطعمة.

وكان النبى ﷺ يجيب الوليمة ويجيب دعوة العبد والحر ويقبل الهدية ولو انها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافئ عليها ولا يتأنق فى مأكل ويعصب على بطنه الحجر من الجوع وآتاه الله مفاتيح كنوز الارض فلم يقبلها واختار الآخرة وأكل الخبز بالخل وقال نعم الادم الخل وأكل لحم الدجاج ولحم الحبارى وكان يأكل ما وجده ولا يردّ ما حضر ولا يتكلف ما لم يحضر ولا يتورع من مطعم حلال إن وجد تمرا دون خبز أكله وإن وجد شواء أكله وإن وجد خبز بر أو شعير أكله ولا يأكل متكئا ولا على خوان لم يشبع من خبز بر ثلاثا اتباعا قط حتى لقى الله عز وجل ايثارا على نفسه لا فقرا ولا بخلا وكان يحب الذراع من الشاة والدباء وأكل خبز الشعير بالتمر والبطيخ بالرطب والقثاء بالرطب والتمر بالزبد وكان

يحب الحلوى والعسل وكان يشرب قاعدا وربما شرب قائما وتنفس ثلاثا مثنيا للإناء ويبدأ بمن عن يمينه إذا سقاه ويشرب لبنا وقال من أطعمه الله طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وارزقنا خيرا منه ومن سقاه الله لبنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه وإذا رفع الطعام من بين يديه قال الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وآوانا وجعلنا مسلمين وكان يأكل بأصابعه الثلاث ويلعقهن قال بعض الكرماء من ألطاف الله تعالى بالكريم أنه يسامح المسافر بالفطر فى رمضان فلولا ذلك لخجل الكريم إذ يمر عليه ضيف فيعتذر من أكل طعامه بالصوم وأين هذا من قول بعض البخلاء وقد سئل ما الفرج بعد الشدة فقال أن تدعو الضيف فيعتذر بالصوم، وكان معن بن زائدة إذا أراد أحد من غلمانه أن يرضى عليه بعد الغضب الشديد بادر إلى شيء من طعامه فوضعه فى فيه بحضوره، ووقفت فى أخبار عمارة الشاعر اليمنى قال كنت هجوت ابن دخان وهو يومئذ صاحب ديوان الدست فشكانى إلى السلطان شاور فأعرض عنه ثم شكانى ثانية فأعرض عنه ثم شكانى ثالثة فالتفت إليه وهو محرج وقال له ما تستحى من أن تشتكى إلىّ رجلا يأكل معى على طعامى فى يوم وليلة قال عمارة فلم أشعر الا وقد حضر ابن دخان إلى دارى ليلا وحمل إلى دابتى إلى آخر السنة، وحكى بعضهم قال كنا عند الشيخ الزاهد الورع أبى العباس بن تاميت نفع الله به فقدم لنا طعاما فأكلنا فقال بعض الجماعة يا سيدى قد أسأنا الادب وأكلنا بغير اذن فقال الشيخ فاذن لا ترفع يدك الا باذن.

نادرة: قيل نزل ضيف على بخيل فى ليلة وكان جائعا فقدم له طعاما فأتى على آخره ولم يغادر منه شيئا فحلف البخيل أن لا يبيت الضيف عنده فقال الضيف يا أخى اصبر علىّ إلى الفجر فقال لا وليال عشر فقال أما سمعت أن الضيافة ثلاث فقال البخيل لا وحق الواحد لا يبيت عندى ثلاثا من يأكل بالخمس ولو كان له فضل من أوتى تسع آيات بينات وحسن من سجد له أحد عشر كوكبا فخرج الضيف وقال كيف جمع زوج الثكلى هذه الافراد على الترتيب، كان لعبد الله بن جذعان جفنة يأكل منها الطعام القائم والراكب فوقع صبى فيها فغرق فمات، وذكر أن عطية بن صالح بن مرداس طبخ فى بعض ولائمه تسعمائة خروف مصرية سوى ما طبخ من الالوان، قال على بن الاعرابى قال الحجاج لرجل يوما وهو على خوانه وكان عليلا ارفق بيدك فأجابه على الفور وأنت يا حجاج فاغضض بصرك فقال له إن هذا الجواب المسكت، اعرابى مما يزيد فى طيب الطعام مؤاكلة الكريم الودود حث رجل رجلا على الأكل من طعامه فقال عليك بتقريب الطعام وعلينا تأديب الأجسام، وقال

علىّ كرم الله وجهه إذا طرقك اخوانك فلا تدخر عنهم ما فى المنزل ولا تكلف ما وراء الباب وإذا طرقت فما حضر وإذا دعوت فلا تذر.

قيل لحكيم أى الأوقات أحمد للاكل قال أما من قدر فإذا اشتهى وأما من لم يقدر فإذا وجد، وقال جعفر بن محمد تبين محبة الرجل لاخيه بجودة أكله فى منزله.

نزل الشافعى بمالك رضي الله عنه فصب بنفسه الماء على يده وقال لا يرعك منى ما رأيت فإن خدمة الضيف فرض ، وكان الشافعى رضي الله عنه نازلا بالزعفرانى ببغداد فكان يرقم كل يوم فى رقعة ما يطبخ من الالوان ويدفعها إلى الجارية فأخذها الشافعى يوما وألحق لونا آخر فعرف ذلك الزعفرانى فأعتق الجارية سرورا بذلك.

نادرة: روى عن أبى العباس المبرد فقال ضاف رجل قوما فكرهوه فقال الرجل لامرأته كيف لنا أن يعلم مقدار مقامه عندنا فقالت التى بيننا شرا حتى نتحاكم إليه نفعلا وقالت المرأة بالذى يبارك لك فى غدوك غدا أينا أظلم فقال والذى يبارك لى فى مقامى عندكم شهرا ما أعلم، قيل ويقبح على الكريم أن يغتاظ على غلمانه بحضور ضيوفه وكذلك إذا أبطأ طباخه بالطعام.

حكى أن بعض قواد طولون حضر سماطه يوما وعليه قباء منزل بفضة فجاء بعض غلمانه عجلا فانكب على القباء من الطعام فما ظن أحد منا أنه يجيبه ففهم تخوّف الغلام وانقباض الجماعة فرفع طرفه إلى الغلام وقال يا شيطان قد فهمت غرضك لا شك أنك استحسنت القباء اذهب به فهو لك فسر الغلام وجميع من حضر.

نادرة: قيل لبنان الطفيلى كم عدد صحابة رسول الله ﷺ يوم بدر فقال ثلثمائة وثلاثة عشر رغيفا وكان نقش خاتمه ما لكم لا تأكلون، ونظر طفيلى إلى قوم ذاهبين فلم يشك انهم يذهبون إلى وليمة فقام وتبعهم وإذا هم شعراء قد قصدوا دار السلطان بمدايح لهم فلما أنشد كل واحد منهم شعره وأخذ جائزته لم يبق إلا الطفيلى وهو جالس ساكت فقيل له انشد أنت فقال لست شاعرا قيل فمن أنت قال من الغاوين الذين قال الله تعالى فيهم ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾[1] فضحك السلطان وأمر له بمثل جائزة الشعراء، كان مسلم بن قتيبة لا يجلس لحوايج الناس حتى يشبع من الطيب من الطعام ويروى من بارد الماء ويقول إن الجائع ضيق الصدر فقير النفس والشبعان متسع الصدر غنى النفس، وقال ابن

---

(١) الآية: ٢٢٤ من سورة الشعراء.

الاعرابى كان المحسن الضبى فى الشرف من العطاء وكان ذميما فقال له زياد ذات يوم كم عيالك قال تسع بنات قال فأين هن منك قال أنا أحسن منهن وهن آكل منى فضحك وأمر له بأربعة آلاف دينار، وكتب كسرى أنوشروان باللؤلؤ على مائدة من الذهب ليهنه طعام من أكله من حله وجاد على ذوى الحاجة من فضله ما أكلته وأنت تشتهيه فقد أكلته وما أكلته وأنت لا تشتهيه فقد أكلك.

نادرة: حكى الهيثم بن عدى قال ماشيت أبا حنيفة فى نفر من أصحابه إلى عيادة مريض من أهل الكوفة وكان مبخلا وتواصينا على أنا نعرض بالغداء فلما دخلنا وقضينا حق العيادة قال أحدنا ﴿ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع﴾[(١)] وقال آخر ﴿وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام﴾[(٢)] وقال آخر ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا﴾[(٣)] قال فتمطى المريض وقال ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج﴾[(٤)] فغمز أبو حنيفة أصحابه وقال قوموا فما لكم هنا من فرج.

كان بعض مفاليس الكتاب فى دعوة فلما أخذت الكأس منه قال لهم أنتم عندى غدا فلما أصبح حدّثه غلامه ما بدا منه فسقط فى يده وأخذ يعنف غلامه كيف لم ينبههم على افلاسه وسوء حاله والغلام يعتذر عن ذلك باشفاقه من عربدته لو اطلعهم على ذلك اذ دق القوم الباب فقال لغلامه على بالدواة والقرطاس وكتب إليهم ﴿إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى﴾[(٥)] فلما قرءوا رقعته عرفوا عذره ونفرقوا عنه.

نادرة أيضا: قيل تغدى رجل مع بعض الرؤساء فقدم إليه جديا فجعل يمعن فيه فقال له الرئيس إنك لتمزقه حتى كأن أباه نطحك فقال له وأنت تشفق عليه حتى كأن أمه قد أرضعتك فخجل وانقطع، عمر بن هبيرة عليكم بمباكرة الغداء فإن فى مباكرته ثلاث خصال يطيب النكهة ويطفئ المرة ويعين على المروءة قيل ما اعانته على المروءة قال أن لا تتوق النفس إلى طعام غيرك.

---

(١) الآية: ١٥٥ من سورة البقرة.

(٢) الآية: ٨ من سورة الأنبياء.

(٣) الآية: ٦٢ من سورة الكهف.

(٤) الآية: ٩١ من سورة التوبة.

(٥) الآية: ٢٢ من سورة إبراهيم.

فصل: فى الأطعمة المشهورة ومضارها ومنافعها:

السكباج: حارة معتدلة الرطوبة تنفع الكبد الصفراوية وتولد دما صالحا وتقوّى الشهوة وتحبس البطن وهى بلحم البقر نافعة لمن يتحدر إلى معدته مرارة كثيرة وقال بعضهم السكباج فى البطيخ بمنزلة الفالوذج فى الحلوى وقال الصولى كان بعض الصوفية يقول أول من عمل السكباج آدم ولذلك استوى فى استطابتها ملوك ولده وسوقتهم وكنيتها أم القرى لأن طعامها من أجل الأطعمة وأم الشىء معظمة وجليلة وأم القرآن الحمد وأم القرى مكة وأم الشىء أجله.

المدققات: حارة رطبة مخصبة للبدن تولد دما معتدلا يحتاج لمن ضاق عليه الاستغراق بالجماع وعرض له من الاحداث النفسانية ما بلبل الهضم عليه كالهم والفزع والغم لأن جوهر اللحم انحل أكثره فى المرق ولهذا الحال يخف على الهضم وهى من أطعمة المخمور صالحة لهم جدا.

الرخية: حارة رطبة تزيد فى الباءة تولد غداء كثيرا وهى مضرة بالصفراء مكروهة لمن يعتاده الغثيان ولاصحاب المعدة الحارة لتعطينها وأكلها مع الحوامض صالح وهو غداء شهى موافق لاهل الرياضة والقوة وكثرة البيض فيها صالحة وهى من الالوان المأثورة الموصوفة.

الجزورية: حارة رطبة تحرك الباءة وتدر البول وأصلح ما كانت باللحم السمين والخل والمرى والخردل.

ابن سكرة الهاشمى فى جزورية:

أكلت بالامس جزورية ... تخبر عن خسة أربابها

اللحم فيها أثر دارس ... كأنما مرّ على بابها

الحصرمية: باردة يابسة وأجودها ما عمل بالماء العتيق العذب والذى يعمل بالحصرم الطرى يولد رياحا بالمعدة لأنه ثمرة فجة لم تنضج ويختار فيها استعمال اللون المر لتعديل يبسها وتحسين منظرها.

السماقية: باردة يابسة أيضا.

الرمانية: كذلك ولها فعل فى تقوية المعدة وينفعان من نزف الدم ومن احب تعديل الطبع فيهما الاسفاناخ والسلق.

التفاحية والرياسية: أيضا متناسبان فى البرد واليبس نافعان لاصحاب المزاج الصفراوى والاكباد الحارة والمعدة الضعيفة يكرهان لاصحاب القولنج وهما مضرتان بالعصب والمفاصل والمنى والباءة.

الزيرباج: معتدلة الحرارة نافعة الكبد تولد دما معتدلا وهى مسكنة لحدة الاخلاط مفرحة للقلب وللناس فيها مذاهب وأحمدها السهلة المائعة الورسية وبعضهم يختارها ردعية بالزعفران خثرة جدا وبعضهم يتخيرها سادجة بيضاء وهذه أقل حرارة.

المضيرة: باردة معتدلة الرطوبة قامعة للصفراء تولد غذاء بلغميا واستعمال حلوى العسل بعدها صالح وهى من الالوان المستحبة المأثورة ويختار عملها بالفراخ الجليلة فإنها أوفق لها من سائر اللحمان وللبصل فيها معنى خلاف سائر الطبيخ وكان بشار بن برد الاعمى يقول فيها: ما أظن فى الطعام أطيب من بصلة مضيرة لانى ما سبقت البصر إليها قط ولا هم يؤثرونى بها ويستحب تقديمها فى الصحون الزرق أو ما شاكلها وتكره لها الصحون البيض ويراه بعضهم قبيحا ويعده من سوء الاختيار وكان أبو هريرة ﷺ تعجبه المضيرة جدا فيأكلها مع معاوية فإذا حضرت الصلاة صلى خلف على كرم الله وجهه فإذا قيل له فى ذلك شىء قال مضيرة معاوية أدسم والصلاة خلف علىّ أفضل فقيل له شيخ المضيرة.

حكى ابن شكلة الكاتب صردر امتنع من حمل ما طلب منه وأحتمل غليظ المكروه وكان يؤتى بطبق فيه طعام فرأى يوما مضيرة فى صحن أبيض هذا ما لا يكون أبدا.

القلايا: حارة معتدلة اليبس تختار للذين تجتمع فى معدتهم البلاغم لتقطيعها لا سيما إذا عملت بالابازير الحارة وهى باعثة للشهوة مهيجة لذوى النهمة.

المهلبية: أول من اتخذها بنو المهلب فنسبت إليهم وهى من الالوان المستحسنة المستلذة تنفع لحفظ الصحة وأحمدها منفعة السلسلة والانعقاد بالدجاج الحديث السمان والعسل الخالص الذهبى والسكر النقى وهى معتدلة الحرارة والرطوبة تغذو غذاء صالحا إلا أنها مضرة بالصفراء وتدفع مضرتها بالحصرمية منه قبلها.

الارز باللبن: قال محمد بن خلاد كان كثير من رؤساء العراق يقدمون فى أول الطعام الارز باللبن والسكر المنخول ثم يتبعونه ما شاءوا ايثارا له على غيره وكان الحسن ابن سهل يفضله على كثير من المطعم ميلا إلى رأى المأمون فيه وقال له إنه يزيد فى العمر يا أمير المؤمنين قال من أين قلت هذا قلت لان الاطباء زعموا أن الارز يولد

أحلاما صحيحة فإذا صحت الاحلام فهى من زيادة النوم على اليقظة لأن النوم موت واليقظة حياة.

الشوى: قال أبو عبيد العرب تقول الشوى رئيس الطعام قال ومر الفرزدق بالاخوص فقال له اقترح يا أبا فراس فقال شوى وطلى وغنا فقال ادخل فقد أعدّ لك، والشوى حار رطب وأجوده المشوى على اسهل مثل شى الرءوس فإن ذلك يكسبه فضل ترطيب ونضاج ويلطفه.

الكباب: بفتح الكاف وهو اللحم المشروح وأجوده ما شرح اللحم شريحا خفيفا ونثر عليه الملح ونصب له مقلى على النار بلا دسم وطرح عليه وقلب من جنب إلى جنب حتى ينضج ويحمر هذا هو الكباب الخالص بعينه وهو الذى كان يعمل ليحيى بن خالد ولولده وفيه يقول أبو الفتح البستى:

عليك إذا أنجاب الدجى بكباب وعقبه مرتاحا بكأس شراب
فلم يفتح الاقوام بابا إلى المنى كباب شراب أو كباب كباب

الخيطية: تخصب الجسم وتغذوه وتزيد فى الباءة.

الكشك: قال جالينوس أبوان كريمان انتجا لئيما.

الططماج: عسر الهضم من أجل أنه من خبز فطير فهو يزلق فى المعدة واصلاحه بالثوم ويؤكل معه النعنع ويشرب نبيذا صرفا قويا وعسلا مطبوخا بأفواه إلا أن يكون محرورا فلا يحتاج إلى ذلك.

الملوخيا: غليظة لزجة باردة كثيرا، الاكثار منها يضر بالمرطوبين والمبلغمين واصلاح ضررها أن تطبخ بلحوم الغزلان لخفته وحرارته أو مع الحجل أو مع الفراخ النواهض أو الفراريج السرخية فإن لم يتفق فتلقى فيها الشرايح الجافة المدخنة أو التورية عند خروجها من التنور وكذلك الباذنجان المقلى يلقى عليها ويكمر ساعة ثم تؤكل وماء الليمون يلطف غلظها ويقطع لزوجتها ولا يصلحها اصلاحا تاما إلا هو وإذا قطع ورقها الاخضر ووضع على لسعة الزنبور نفعها وطبيخ ورقه ينفع حرق النار وفيه أكثر منافع الخطمى وهى فرع منه وذكر أنها قديما لم يكن لها ذكر ولا قدر ولا تصريف فى مدينة ولا فى اقليم إلا بعد ثلثمائة وستين سنة مضت من الهجرة النبوية بمصر خاصة وكان السبب فى ذلك أن المعز بانى القاهرة لما دخل مصر استوباها واختلف عليه الهواء الذى كان يعهده

بافريقية ورطوبته لمجاورته البحر فأصابه يبس واستولت عليه أمراض حارة فتدبر له أطباء مصر قانونا من العلاج من جملته الغذاء بالملوخيا فوجد لها نفعا بينا فى التبريد والترطيب وأقلع عنه معظم ما كان يجده من الاعراض الرديئة التى سببها اليبس والحرارة وأدمن أكلها فأبلى من مرضه ووقعت منه بموقع عظيم وأمر باصلاحها له ولخواصه حتى سميت الملوكية وبلغ من اعتنائهم بها أنهم كانوا يجففونها ويطبخونها مجففة السنة كلها وكان باكورها إذا دخل القصر يكون ذلك اليوم موسما عظيما ويعطى مهديها عطاء جزيلا.

ما ورد من المنظوم والمنثور فى هذا الباب: كتب الشيخ جمال الدين بن نباتة يتشكر من بعض الرؤساء وقد أهدى له خروفا مشويا شكر الله احسان مولانا الذى وصل فأوصل إلى القلب جبره وإلى الكف بره وإلى الفم كل شحمة كاهداب الدمقس المفتل وكل فلذة صفراء تسر ناظر المتأمل فما أحسن ما ملأ ذلك الجود فمه وعينيه وتلقاه المملوك قائلا هذا الشرف الذى ينطح النجوم برقيه لقد أربى تواتر هذا البر على ما فى النفس ولقد جدّدت هذه الهدية فخرا حتى كأنما أهدى له حمل البروج على طبق الشمس ولقد آن أن ينثر من الدهر وتنتصف ولقد عرف رجاءه من أين يؤكل الكتف فإنه الكرم الذى لا يحيل الآمال على سوف والفضل الذى أضاف المملوك وآواه فأطعمه من جوع وآمنه من خوف لا برح مولانا يحيى مآثر آبائه الالى ويقيم سنن قراهم التى هى على الدهر كالحلى ولا زال يفتخر فيقول عزمه أنا طلاع الثنايا ويقول بشره أنا ابن جلا، وقال ابن وكيع فيه:

خروف لو أشار إليه وهم ... تقطر جلده بالشحم يجرى
لباطنه قميص من لجين ... تسربل فوقه بقميص تبر

وما أحسن ما كتب به ابن خروف النحوى إلى ابن اللهيب وكان قد دعاه

دعانى ابن لهيب ... دعاء غير نبيه
إن سرت يوما إليه ... فوالدى فى أبيه

نادرة: قدم إلى أبى على الفارسى النحوى شوى غير نضيج فقال هذا لم تعمل فيه العوامل، قدم إلى الفاضل فى دعوة خروف شوى فقال هذا من البهائم التى علمت يريد قوله ﷺ لو تعلم البهائم ما تعلمون من أمر الموت ما أكلتم منها سمينا، قيل عن سليمان بن عبد الملك أنه كان نهما على طعامه وأنه كان يلف على يده بفاضل كمه ليتناول به الكلى من بطون الحملان وهى فى شدة الحرارة ولا يمهل حتى تبرد وقد ذكر ذلك الاصمعى فى أيام

الرشيد لما وجد سفط عليه ثياب مذهبة ثمينة وأكمامه مبتلة بالدهن فى ذخائر بنى أمية والقصة مشهورة ، وصف جحظة دعوة حضر بها فقال أتينا برغفان كالبدور المنقطة بالنجوم وملح كالكافور السحيق وخل كذوب العقيق وبقل كاخضرار العذار وحمل من الفضة جسمه ومن الذهب قشره وجوفه وأرز مدفون فى السكر ثم جاءنا غلام بشراب ألذ من ذكره وأطيب من روحه وأصفى من ودّه وارق من لطفه وأذكى من عرفه وأعذب من خلقه وأشهى من قربه.

سيف الدين المشد فى دجاجة مشوية:

دجاجة صفراء من شيها حمراء كالورد من الوهج
كأنها والجمر من تحتها أترجة من فوق نارنج

وما أظرف قول الشيخ زين الدين بن الوردى:

لى شهوتان أحب أجمعهما لو كانت الشهوات مضمونه
أكباد عذالى مدققة ومفاصل الرقباء مدفونه

نادرة: مرض ابن تقلية المغنى وأشرف على الموت فجاء إليه ابن الصاحب بعوده فقال له أيش حال التقلية فقال ما أخوفنى تبقى مدفونة، وقال كشاجم يصف مائدة وما عليها:

ومن فراريج بماء الحصرم تصلح للمحموم أو للمحتمى
قد شويت أكبادها ببيض فهى كمثل نرجس بروض
وجاءنا فيها بيض أحمر كأنه العقيق ما لم يكسر
حتى إذا أتى به مقشرا أبرز من تحت العقيق الدررا
كأنه اذ حاز أصناف الملح أعاره تلوينه قوس قزح
وجاءنا براضع لم يعتلف كأن قطنا بين جنبيه ندف
وجاءنا فيه بياذنجان مثل قدود اكر الميدان
قد قارن الهليون بالممازجه تقارن الكراة بالصوالجه

وقال ابن القطاع فى البيض:

اسمع عن البيض وصف مضطلع بالوصف ماضى الجنان نحرير
بنادق التبر غشيت ورقا أو مشمش فى صحاف كافور

الرداعى:

تفضل فرمانية العبد آيه ومن حسنها يلتذ تكرارها القارى
فقد ذاب من طول انتظارك لحمها وشوقا إلى لقياك ظلت على النار

ابن تميم:

ولم أنس إذ بيت ليلا هريسة وبت لخوف النار أحمل همها
فلما دنا الاصباح بادرت مسرعا لا كشف من غمى وأكشف غمها
فصادفتها فى حاجم النار قد عصت علىّ فلم أسطع من الحر شمها
وما أنا فى شك بان او بدا بها فتور لغيظى كنت آكل لحمها

السراج الوراق:

وأحمق أضيافنا بيقله لنسبة بينهما ووصله
فمن أقل أدبا من سفله قدم فى وجه الضيوف رجله

وله أيضا:

ومغمومات رءوس باكرتنا تطيب شدى ولا طيب العروس
ونبهنا لها الظامى بليل حكى لون الموح على القوس
فقمنا مائلين له وقلنا يقل لكم القيام على الرءوس

وله:

أتيت أرجيه فى حاجة فلم تنبعث نفسه الجامده
وفتل فى ذقنه والنفوس تعاف المغنلة البارده

وقال ابن نباتة:

يا سيدى عطفا على عصبة أفكارهم للقمح محمبه
قد طبخت بالسوق أحشاؤهم فيا لها طبخة قمحيه

كتب الصلاح الصفدى إلى ابن نباتة وقد كان أهدى له ابن نباتة بسلا:

ظننت العبد عن مصر تسلا فأهدى جودك الوافى بسلا
نعم قد أذكرتنى عيش مصر واقبالا من الدنيا تولى
طعاما فوقه لحم شهى إلى كل النفوس فكيف يقلى
ودهن فوقه قد صار صبا تلظت ناره حتى تسلا

المعمار فى المجون:

وصاحب جئت إلى داره فلم أجد بالباب من يحرس
دخلت للدار على غفلة وجدته منكشا ينعس
فقال ما تبغى فقلت القرا منكم فانى جائع مفلس
فجاد لى بالدهن من رأسه وجادت المرأة بالكسكس

مطاعم شهية وملاذ ملوكية سأل الوزير أبو نصر بن أبى زيد أبا منصور بن سعيد بن أحمد البريدى وكان من أبناء الامراء والسادة بالبصرة عما يحبه ويشتهيه ويختاره من أطايب الاطعمة الملوكية فقال قشور الدجج الفتية المسمنة المشوية والسكباجة التمامة التى يجمع فيها بين لحم البقر والغنم ثم ينفى عنها لحم البقر وتحلى بالطبرزد وتطيب بالعنبر والهريسة بلحوم الحملان التى رضعت شهرين وربعت شهرين ومن اللحم المجذع والملبقة بالارز المدقوق والدهن بالسكر المسحوق المبخر بالند المشرب بالجلاب وماء الورد فقال يا أبا المنصور قد تجلب فمى من هذا الوصف أشهد أنك من أبناء النعم والمروءات وأمر أن يلقيه على طباخه، ولما دخل الرشيد البصرة فى سنة ست وتسعين ومائة زار جعفر بن سلمان بن على الهاشمى وكان يومئذ واليها فأحضر له جعفر بن سليمان على مائدته كل حار وبارد وأحضر البان الظباء وزبدها فاستطاب الرشيد طعومها فسأله عن ذلك فأمر بعض الغلمان فأطلق الظباء فتبعها أخشافها وعليها سملها حتى وقفت فى عرصت الدار تجاه عين الرشيد فلما رآها مفرطة مَخصبة استفزه الفرح لذلك والتعجب حتى قال له جعفر يا أمير المؤمنين هذه الالبان واللبأ ورائب الزبد الذى بين أيدينا من هذه الظبية الفيتها وهى خشفان فتلاحقت وتلاقحت.

نادرة: حضر الغاضرى عند بعض الرؤساء فقدم صحفة فيها أرز مطبوخ وقد قمر وسط الصحفة جلاب فأخذ الغاضرى الملعقة وخرق التقعير إلى ما يليه حتى اختلط بالارز فقال له صاحب المنزل ﴿أخرقتها لتغرق أهلها﴾[1] فقال بل ﴿سقناه لبلد ميت﴾[2] وقال ابن الجصاص الصوفى دخلت على أحمد بن روح الاهوازى فقال ما تقول فى صحفة أرز مطبوخ فيها نهر من سمن على حافتيها كثبان من السكر المنخول فدمعت عيناى فقال ما لك قلت أبكى شوقا إليه جعلنا الله وإياك من الواردين عليه بالغواصة والردادتين فقال يا غلام قدمها فجاء بها تفور فقال لى ما الغواصة والردادتين فقلت الغواصة الابهام والردادتان السبابة والوسطى فقال أحسنت بارك الله فيك.

وكيفية الاكل عند الظرفاء والادباء هو أن يقبض الانسان الخنصر والبنصر ويأكل باصابعه الثلاث وفى مذهب الظرفاء أن البنصر إذا أصابه الزفر فليس بظريف فى الأكل

(١) الآية: ٧١ من سورة الكهف.

(٢) الآية: ٥٧ من سورة الأعراف.

اللهم إلا فى الثريد فإن أكلها باربعة أصابع سوى الخنصر وقالوا الاكل على أربعة انحاء باصبع من المقت وباصبعين من المكر وبثلاث من السنة وبخمس من الشره.

فصل: فيما يشهى المآكل قال بعضهم يصف سكردانا:

وافى السكردان وفى ضمنه مطبخات من فراريج
كأنه بدر قد رصعت فيه ثريا من سكاريج

وقال آخر فى عجة:

وجاءتنا بعجتها عجوز لها فى القلى حس أى حس
فلم أر قبل رؤيتها عجوزا تصوغ من الكواكب عين شمس

وقال ابن تميم فى لبأ وتمر:

يا حبذا لبأ أتانا بكرة يزهى لنا حسنا بانواع الرطب
فكأنما أهدى سماء فضة قد أشرقت فيها نجوم من ذهب

وقال صفى الدين الحلى يطلب جبنا:

خففت عنكم فلم أطلب لمجلسنا من المآكل شيئا غالى القيم
لكن أقصى مرادى من هديتكم ما بالكرائم من لامية العجم

يريد قول الطغراى:

قد زاد طيب أحاديث الكرام بها ما بالكرائم من جبن ولا بخل

وقال صلاح الصفدى ملغزا فى قريشة:

أى شىء يروق للنفس أكلا ذا بياض وأصله من حشيشه
خمسه أثقل الجمادات وزنا فتعجب له وباقيه ريشه

وقال أبو الفرج الاصفهانى يصف بيضة:

فيها بدائع صنعة ولطائف الفن بالتقدير والتلفيق
خلطان ماويان ما اختلطا على شكل ومختلف المزاج رقيق
صنع تدل على حقيقة صانع للخلق طرا ليس بالمخلوق
نبياضها ورق ونبر مخها فى حق عاج بطنت بدبيق

وقال الشيخ جمال بن نباتة مقاضى ملوحة بدرب الحجاز يا مولانا ما كأن الملوحة إلا قد اتخذت سبيلها فى بحار السراب سربا أو تعلمت من تلك الهمة فاتخذت إلى نهر

المجرة سببا وجعل فضلها مقصورا على الاسماع وخلفت من الملائكة فلا يمكن على صورها الاطلاع ولا غرو فانها ذات أجنحة مثنى وثلاث ورباع وتوقفت من المنع والعطاء بين أمرين وحظيت من مولانا ومن الجناب الفخرى بمجمع البحرين وما أظن الظن أن يتفق هذا الظن هذا ولو انها من نسل حوت يونس عليه الصلاة والتسليم وأن عظمها مما يسبح فى بطن آكله إلى يوم يحيى العظام وهى رميم وأن بينها الذ من القرب بعد البين الطويل ورأيها أحسن من رأى عمرو بن العاص فى الامر الجليل وأن قمصها اللؤلؤية مما تنظم فى السلوك وأذيالها المرجانية مما ترصعه فى تيجانها الملوك وعيونها الدرية هى التى دلت الخضر على عين الحياة فوردها وأن بطونها الذهبية غنى من قصدها وعلى الجملة فقد سطر المملوك هذه الورقة ولقم الانتظار تزاحم القلم فى يده وأنامله المستعدة كالصنانير فى تصديه لها وتصيده فمولانا يتدارك هذا الامر قبل أن يفوت ويأمر بانفاذها ولو انها بين السماء والأرض عند الحوت ومكارمه المشهورة لا تقف فى البذل مع احتياط ولا يغير عادتها طريق الحجاز ولولا الغلو لقال ولا طريق الصراط.

نوادر فى هذا الباب: ذكر الشيخ علاء الدين الوداعى فى تذكرته أن الصاحب تاج الدين محمد بن حبا رحمه الله كانت له أخت ذات مال وكان كلما اجتمع بها حضها على طعام الفقراء والمساكين والصدقة وفعل الخير ويقول لها لا تتباخلى فقالت له يوما وقد قال لها لا تكونى بخيلة فقالت له ما تستحى كم تقول أنت بخيلة وأنا كريمتك، قال عبد الملك ابن مروان لبعض الشعراء هل اصابتك تخمة قال أما من طعام الامير فلا، وقال بعضهم أربعة ممسوخة البركة أكل الارز البارد والغناء من وراء الستارة والقبلة فوق النقاب والجماع فى الماء، وقال بعض الصوفية من جلس على مائدة فأكثر الحديث فقد غش بطنه، قيل لطفيلى لم أنت حائل اللون قال للفترة بين الطعامين مخافة أن يكون قد فنى الطعام، أولم طفيلى على ابنته فأتاه كل طفيلى فلما رآهم رحب بهم ثم رقاهم إلى غرفة بسلم وأخذ السلم حتى فرغ من طعام الناس أنزلهم وأخرجهم.

دعا يحيى بن أكثم عدوله فقدم إليهم مائدة صغيرة فتضاموا عليها حتى كان أحدهم يتقدم فيأخذ اللقمة ثم يتأخر حتى يتقدم الآخر فلما خرجوا قيل لهم أين كنتم قالوا كنا فى صلاة الخوف، الحارث بن كلدة إذا تغدى أحدكم فلينم على غدائه وإذا تعشى فليخط

أربعين خطوة، وفى قوله تعالى ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا﴾[١] أفاد الجناب المجدى رحمه الله أن قوله تعالى ﴿على حبه﴾ مما يستشهد به فى البديع، قدم رجل كذاب من سفره وقد أفاد من سفره مالا كثيرا فدعا قومه إلى الطعام وجعل يحدثهم ويكذب فقال أحد القوم نحن كما قال الله تعالى ﴿سماعون للكذب أكالون للسحت﴾[٢] عبر بعض الطفيلية على قوم وهم يأكلون فقال السلام عليكم أيها القوم اللئام فقالوا لا والله الا الكرام فقال اللهم اجعلهم صادقين واجعلنى كاذبا وقعد يأكل، وعبر طفيلى أيضا على قوم وهم يأكلون فقال هل تحتاجون إلى مساعدة فقالوا بالدعاء فقال لا هناكم الله إن لم تأذنوا لى بالاكل معكم، وما أحسن قول ابن دانيال فى شخص يدعى على شير:

إذا ما كنت منخوما فكن ضيف على شير ... فما يخرج منه الخبز إلا بالمناشير

فائدة جليلة: ذكر التوحيد فى كتاب الامتناع والمؤانسة من أدمن الاكل والشرب فى أوانى النحاس أفسدت مزاجه وعرضت له أمراض صعبة وإن أدنيت أوانى النحاس من السمك شممت لها رائحة كريهة وإن كبت آنية النحاس على سمك مشوى أو مطبوخ بحرارتهما ما حدث منه سم قاتل، ومنه قيل لصوفى ما حد الشبع قال لا حد له ولو أراد الله تعالى أن يؤكل بحدٍّ لبين كما بين جميع الحدود وكيف يكون للاكل حد والأكلة مختلفون بالطباع والمزاج والعارض والعادة وحكمة الله تعالى ظاهرة فى إخفاء حد الشبع حتى يأكل من شاء على ما شاء كما شاء، وقيل لفقيه ما حدّ الشبع قال ما نشط على اداء الفرائض وثبط عن اقامة النوافل، وقيل لمتكلم ما حدّ الشبع قال حده ما يجلب النوم ويضجر القوم ويبعث على البكوم، وقيل)لاعرابى ما حد الشبع قال أما عندكم يا حاضرة فلا أدرى وأما عندنا فى البادية فما وجدت العين وامتدت إليه اليد ودار عليه الضرس وطلبت له اللهاة وأساغه الحلق وانتفخ له البطن واستدارت عليه الحوايا واستغاثت منه المعدة وتقوّست منه الاضلاع والتوت منه المصارين وخشيت منه الموت، وقيل لملاح ما حد الشبع قال حد السكر قيل فما حد السكر قال أن لا تعرف السماء من الأرض ولا الطول من العرض، وقيل لمدنى ما حد الشبع فقال لا عهد لى به فأحده فكيف أصف ما لا أعرف، وقيل لسمرقندى ما حد الشبع فقال إذا جحظت عينك وبكم لسانك وثقلت حركتك وازجحن بدنك وزال

---

(١) الآية: ٨ من سورة الإنسان.

(٢) الآية: ٤٢ من سورة المائدة.

عقلك فأنت فى أوائل الشبع قيل إذا كان هذا أوله فما آخره قال أن تنشق نصفين، قيل لحمال ما حد الشبع قال إنى أواصل فما أعرف الحد ولو كنت أنتهى لوصفت الحال فيه أعنى ساعة أعجن الدقيق وساعة أمل الملة وساعة أثرد وساعة آكل وساعة أشرب لبن اللقاح فليس لى قرار فأدرى أنى بلغت الشبع إلا أنى أعلم فى الجملة أن الجوع عذاب وأن الاكل رحمة وأن الرحمة كلما كانت أكثر كان العبد إلى الله أقرب والله عن العبد أرضى، قال إسحاق كنت يوما عند أحمد بن يوسف فدخل علينا أحمد بن أبى خالد فجرى ذكر الغناء فقال لا والله لا أجد شيئا مما أنتم فيه فهان علىّ وخف فى عينى فقلت له كالمستهزئ به جعلت فداك قصدت إلى أرق شيء خلقه الله وألينه على القلب والاذن وأظهره للسرور والفرح وأنفاه للهم والحزن وما ليس للجوارح منه مؤنة إنما يقرع السمع وهو منه على مسافة فتطرب له النفس فذممته ولكنه كان يقال لا يجتمع فى كل رجل شهوة كل لذة وبعد فإن شهوة كل رجل على قدر تركيبه ومزاجه قال أجل أما أنا فالطعام الرقيق أعجب إلىّ من الغناء فقلت أى والله ولحم البقر والجواميس والتيوس الجبلية بالباذنجان المبزر أيضا تقدمه فقال الغناء مختلف فيه قد كرهه قوم قلت فالاختلاف فيه من أطلقه لنا حتى يجتمعوا على تحريمه أعلمت جعلت فداك أن الأوائل كانت تقول من سمع الغناء على حقيقة مات فقال اللهم لا تسمعناه على حقيقته إذن فنموت فاستظرفته فى هذه اللفظة وقدموا إليه الطعام فشغله عن ذم الغناء.

نظر بعضهم إلى مائدة بخيل يوضع عليها دجاجة فلا تمس ثم تردّ من الغد فلما مضت عليها أيام قال يا أخى هذه الدجاجة عمرها بعد موتها أطول من عمرها حال حياتها، ولقى رجل أبا الحرث جمين وقد تعلق به غلام فقال يا أبا الحرث من هذا فقال غلام الفضل بن يحيى كنت عند مولى هذا بالامس فقدم إلينا مائدة عليها رغيفان قد عملا من نصف خشخاشة وثريدة فى سكرجة وخبيص فى مسعط فتنفست الصعداء فدخل الخوان وما علق منه فى أنفى فمولاه يطالبنى بالقيمة قال الرجل أستغفر الله مما تقول فأومى إلى غلام كان معه فقال غلامى هذا حرّان لم يكن ما قلته صحيحا ولو أن عصفورا وقع على بعض قشور ذلك الخشخاش الذى عمل منه ذلك لما رضى مولى هذا حتى يؤتى بالعصفور مشويا بين رغيفين والرغيفان من عند العصفور ثم قال وعليه المشى إلى بيت الله الحرام إن لم يكن إذا عطش بالفرعاء رجع إلى دجلاء العوراء حتى يشرب منها صحيحا ولو أن مولى هذا كلف

فى يوم قائظ أن يصعد على سلم من رمل حتى يبلغ كواكب بنات نعش فيلقطها كوكبا كوكبا لكان ذا أسهل عليه من أن يشم شام تلك الثريدة أو يذوق ذائق تلك الخبيصة فقال الرجل عليك لعنة الله وعليه إن كان سمع بمثل هذا.

فصل: فى الطست والابريق والخلال والمحلب والاشنان والمنشفة وآداب غسل اليد وكيفية الاستعمال ولا بأس بغسل اليد فى الطست وإن ندب إلى ذلك فليقبل الكرامة ولا يردّها، قال دفترخوان:

والطست إن رام إليك المقصدا فلا تخالف من يقول اغسل يدا
وصاحب المرش دعه ساكبا ولا تقل بس اكتفيت كاذبا

وعن ابن مسعود ﷺ: اجتمعوا على غسل الايدى فى طست واحد ولا تستنوا بسنة الاعاجم، وقالوا غسل اليد فى الطست فى حالة واحدة أدخل فى التواضع ويقتضى أن يجتمع الماء فيها، وقال قال ﷺ اجمعوا وضوءكم جمع الله شملكم، وعن أبى هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ من بات وفى يده غمر لم يغسله فأصابه شىء فلا يلومن إلا نفسه وفى حديث آخر: الوضوء قبل الطعام ينقى الفم وبعده ينفى اللمم واللمم مس الشيطان والطست الطس بلغة طيئ أبدل من أحد السينين تاء للاستثقال فإذا جمعت وصغرت رددت السين لأنك فصلت بينهما بالتاء فقلت طساس وطسيس وهو أعجمى معرب أصله طشت بالشين المعجمة فلما عرب قيل بالسين المهملة، الابريق عربى صحيح وهو افعيل من البريق وقال الحريرى فى المقامات إياك واستدعاء المرجفين قبل استدعاء حلول البين أراد بالمرجفين الطست والابريق لأن الاتيان بهما يوذن بالقيام وفراغ الطعام وما أحسن قول القاضى الفاضل فى المقامة العسقلانية يصف المائدة:

وتناوبتها الالوان صنوان وغير صنوان
وأبطأ القوم بالمرجفين فما يرجفان ولا يوجفان

وأتينا بغاسول تحظى به الافواه والانوف ولا يوجد بعده بفم الصائم خلوف، وقيل إن كنية الاشنان أبو إياس وكنية الملح أبو عون وسمعت بعضهم يسميهما البداية والنهاية، ولهذا حكى أن بوران بنت الحسن بن سهل لما تزوجها المأمون وأراد أن يدخل بها جعل الناس يهدون لابيها الاشياء النفيسة وكان بالقرب منهم رجل من الادباء فأهدى إليه مزودا فيه ملح مطيب ومزودا فيه اشنان وكتب إليه معهما أنى كرهت أن تطوى صحيفة أهل البر

ولا ذكر لى فيها فوجهت اليك بالمبدأ به ليمنه وبركته وبالمختوم به لطيبه ونظافته ومع ذلك:

بضاعتى تقصر عن همتى وهمتى تقصر عن مالى

فالملح والاشنان يا سيدى أحسن ما يهديه أمثالى

وذكر القاضى الرشيد بن الزهر فى كتابه العجائب والظرف أن سيد الوزراء أبا محمد اليازورى وجد فى موجوداته طستا وابريقا من البلور فأفرط فى استحسانه لهما ولعظيم قدرهما أن المستنصر وهبهما له ووجد أيضا مدهن ياقوت أحمر وزنه سبعة وعشرون مثقالا أخذه سرا من السلطان فى خزانته حين قبض عليه فى سنة خمسين وأربعمائة ولما أخرج السلطان الذخائر المصرية عند أيام فتنة ناصر الدولة وجد فيما أخرج من دار ناصر الدولة تسعين طستا وتسعين ابريقا من صافى البلور وجيده كبارا وصغارا.

وقال ابن معقل فيما يكتب على سفرة الطست:

لم أصحب الطست من شوق إليه ولا جعلت خدى له أرضا وما شعرا

لولا وصولى به يوما إلى ملك يصيبنى فضل ما ينفى به الغمرا

وغيرة أن يمس الترب مبتذلا ما مس كفيه من ماء إذا قطرا

وقال جلال الدين بن المكرم فى الطست والابريق والمنشفة:

ولى صاحب ينفى الاذى عن جوارحى فيخرجنى منه نقيا مطهرا

وآخر يحويه فيجعل الذى كان لى منه إليه مصيرا

وثالثة غارت لفعلهما فلا تزال تعفى ما لجسمى أثرا

وقال أبو طالب المأمونى:

منشفة خملها تخال بها قد فت كافورة على طبق

كأنما أنبتت خمائلها ما ارتشفت من لآلئ العرق

الأشنان: عمل لهارون الرشيد يؤخذ من القرنفل والسليخة والقرفة والقاقلى والفلنجة من كل واحد جزء ومن المصطكى والاذخر والسعد والميعة اليابسة جزء ومن الموزجوس ثلاثة أجزاء ومن الطين الابيض المكى خمسة ومن الاشنان البارد ضعف ذلك أو ثلاثة اضعافه ومن الارز الابيض المبلول المجفف المنخول مثل الاشنان يدق كل واحد على حدته ويخلط، صفة بنك محمص يؤخذ من البنك الاصفر المخمر وزن ثلاثين درهما ومن القرنفل عشرين درهما ومن الزعفران خمسة دراهم ومن الورد خمسة عشر

درهما ومن السليخة الحمراء الرقاق والسنبل من كل واحد ستة دراهم يدق الجميع بأسره ويطحن ويحمص بماء الورد ويبخر بالعود الند والكافور والزعفران تبخيرا جيدا فانه يجيء غاية من الغايات:

كيفية تناول الاشنان: أشنان الملوك والرؤساء هو طيب من جملة الطيوب وهو يجعل فى اشنان دان له غطاء يحفظ رائحته ويكون له ملعقة يناول بها الغلام الاشنان ولا يلمس باليد البتة ولا سيما يد الغاسل فانه ان أدخل يده فيه زفرة فسد جميعه لسرعة قبول الطيب الفساد بدخول أدنى سبب من الرائحة الكريهة عليه للطف جوهره، كان بعض الظرفاء اذا قدم اليه الطعام تناول بعض الادهان العطرة الطيبة فمسح به يديه فلا يتمكن الزفر من مسامها ولا يعلق بهما طائل منه والذى يعلق يسهل زواله بأدنى غسل، وقالوا كان كسرى فى زمن السفرجل يتناول قطعة سرجل وفى غير زمانه يتناول مرباه فيأكلها عندما يقدم اليه الطعام فينسدّ خلل ما بين أسنانه وعموره بالسفرجل فلا يعلق بهما من مضغ اللحم طائل وكان يستعمل على مائدته بين كل لونين ملعقة رمان ليغسل فمه من الطعام الاول فيذوق الطعام الثانى خالص الطعم من شوب الطعام الأول فيدرك فرق ما بين الطعامين ويلتذ بكل واحد بمفرده ومن آداب الملوك ان لا يغسل الانسان يديه فى مجلس الملك أو بحضرة الرئيس ولا بحيث يراه الا بإذنه وكذلك يصنع فى الخلال فانه من أسوء أدب الجليس وان أذن الرئيس لجليسه فى الغسل فى مجلسه وأحب ان يتخلل فليعتزل بحيث لا يراه ولا يقع نظر الرئيس عليه.

وحكى ان أول غضب المعتصم على الافشين وكان حظيا عنده انه أكل عنده ثم دعا بالطست فغسل يده بحيث يراه المعتصم فقال المعتصم هذا التيس الطويل اللحية يدعو بالطست حيث أراه ثم من آدابه لمن يؤذن له به ان يستقصى ازالة لزفر ولا يقصر فى غسل يده.

ويحكى ان رجلا قصر فى غسل يده فى دعوة بعض الظرفاء فقال له رب الدعوة انق يدك والا دنست منديلنا، وكان عبد الله بن سليمان يبطئ فى غسل يده ويقول من حكم اليد أن يكون زمان غسلها بمقدار زمان أكلها، وسأل المأمون اليزيدى معلم ولده العباس عن أخلاقه فأخبره انه لا يفلح ولا همة له قال كيف علمت ذلك قال رأيته قد ناوله الغلام اشنانا فاستكثر ما وقع فى يده منه فرده فى الاشنان دان ولم يلقه فى الطست فعلمت انه بخيل

والبخيل لا يصلح للملك فكان الامر كما قال وليحترز عند غسل اليدين من الرشش على من يليه أو نفض يديه بالماء اذا فرغ أو التنخع فى الطست أو المخاط فيه

الخلال: روى عن رسول الله ﷺ انه قال تخللوا فانه نظافة والنظافة من الإيمان والإيمان مع صاحبه فى الجنة، وفى حديث عمر رضي الله عنه عليكم بالخشنين يعنى الخلال والسواك، وقال أبو هريرة رضي الله عنه السواك بعد الطعام يذهب وصر الطعام، وفى حديث آخر انه ﷺ أمر بالخلال ونهى عن ان يتخلل بالرمان والقصب وقال انهما يحركان عرق الآكلة وفى رواية يحرك عرق الجذام، وفى كتاب طب أهل البيت عليهم السلام عنه ﷺ الخلال يجلب الرزق، وفيه من تخلل بالقصب لم تقض له حاجة سبعة أيام، وعن أيوب الانصارى عن رسول الله ﷺ قال حبذا المتخللون قالوا يا رسول الله ما المتخللون قال التخلل من الطعام فانه ليس شيء أشد على الملك الذى على العبد ان يجد من أحدكم ريح الطعام، والخلال عمله من الصفصاف وعيدان الخلاف وطبع الصفصاف بارد يابس قليل الاضرار بالاسنان كثير النفع لها وهو أجود ما استعمل وخللت به الاسنان من الزهومات مأمون عليها.

ومن مستظرف المعانى وان لم يكن من غرض هذا الفصل لكن الحديث شجون ما أنشدنيه من لفظه لنفسه ونقلته من خطه بالقاهرة المحروسة سيدنا أقضى القضاة بدر الدين محمد المخزومى المالكى الشهير بالدمامينى رحمه الله:

أفديه من ظبى غزالى	بلواحظ تبغى قتالى
ورآه يضمر بالجفا	فى خاطر منه وبال
مالـلعذول اذا أبحـ	ـت لحسنه روحى ومالى
والجسم من عشق لذا	ك الثغر أصبح كالخلال

رجع الى ما كنا فيه والخلال المأمون هو زهر قضيب نبت فى الصحراء يقال انه الجزر البرى وهو حار يابس بزره اذا استف ألقى الدود من الجوف وانما سمى المأمون لقلة أذاه للاسنان واللثة للينه وهو خلال تستعملها العوام من الناس.

الادب فى الخلال: قال صاحب سرور النفس ورأيت فى زماننا من يغلظ فى تناول الخلال فانى رأيت فى بعض مجالس الوزراء من الطستدارية من يضع الخلال خلف أذنه ويقدم الطست ثم يناوله مخدومه من ذلك الموضع وهو موضع قذر

لا يخلو غالبا من أذى ولو كان حامله أنظف الناس وأظرفهم وأما تناوله فانى رأيت كثيرا بعد الفراغ من الغسل ليده وفمه ورفع الطست يتناول الخلال وذلك خطأ من وجهين: أحدهما انه اذا تخلل وهو مغسول الفم خرج اللحم من عموره وأسنانه الى فمه فعاد الزفر وبطلت فائدة الغسل، والاخرى انه يلقى ما خرج بالخلال على البساط وحيث اتفق من مواضع مجالسه وتلك قذارة وان كانت محقرة المقدار فالتنزه عنها أشبه بذوى الاقدار.

وآداب المناولة فى الخلال ان يكون مع الطستدار ملفوفا فى ورقة بيضاء فاذا اخرجه وضع احدى رأسيه بين أصبعيه السبابة والوسطى ومد به يده للرئيس وهو قائم فيتناوله الرئيس وهو على الطست فيتخلل ويلقى ما يخرج بالخلال فى الطست أيضا ويلقى الخلال فى الطست ثم يغسل يده وفمه، وقال: ومن أقبح ما رأيت فى أخذ الخلال أن بعض الرؤساء يتناول الخلال بيده وهى زفرة فيرشقه فى شعر لحيته ويغسل يديه ويتحدث طويلاً والخلال مغروز فى لحيته وذلك أقبح ما يكون ورأيت هذا الرئيس الذى أشرت اليه يأخذ الخلال بعد غسل يده وتنظيفها ومسحها بالمنشفة فيستعمل الخلال ويضعه فى شعر لحيته تظرّفا منه، قال كناجم وأخذ الخلال من المروءة لتنظيف الاسنان وتنقيتها من زفر اللحم لان اللحم اذا بات فى الاسنان أنتن لا سيما اذا كان فيه صلابة والخبز أيضا اذا بات فى الاسنان أنتن الفم وصفر الاسنان.

استشارت امرأة امرأة فى رجل تتزوجه فقالت لا تفعلى فانه وكلة تكلة يأكل خلله ووكلة وتكلة بمعنى واحد كرر للمبالغة وهو الذى يتكل فى الامور على غيره ولا يباشرها بنفسه والتاء فى تكلة واو كما قالوا فى تراث وهو من وراث والخلل ما يخرج من بين الاسنان عند التخلل قال أبو هلال العسكرى وليس فى اللوم شىء من الكلام أبلغ من هذا.

ولبعضهم فيه:

وناولنى من كفه شبه خصره	وشبه محب ذاب من طول هجره
وقال خلالى قلت كل حميدة	سوى قتل صب حار فيك بأسره

وقال الفقيه أبو الحسن بن عبد الكريم الانصارى:

وخلال صنع السقم به	من نحولى فى الهوى ما قد وجب
اذهب الجسم وأبقى رأسه	وكأن الرأس كالجسم ذهب
مغرم بالبيض يسعى نحوها	لارتشاف الثغر أو ورد الشنب

فى الاحتياط باعتبار الاسباب المتعلقة بغسل اليد المؤدية الى الهلاك ذكر جماعة من المصنفين وفى كتاب شاناق وزنطاح الهنديين صفات مياه تمتزج بماء القراح وتخفى فيه فمن اغتسل بها أو تمضمض منها اتصل به بمسام جلده ولهواته داء مهلك ومنها ما تحمر به الاسنان ومنها ما ينفع فيه الخلال ومنها ما يجعل فى الثياب والمناشف والمناديل ومنها ما يسقى به موضع الفصد ويفعل ذلك وأوصوا واحترزوا وأكثروا فى الاحتراز من ذلك لما يجب من حفظ مهج الملوك ومهج مدبرى دولهم والذى يجب الاحتياط فيه أربعة: الاشنان والماء والمنشفة والخلال ولكل واحد منها نوع من الاحتياط يخصه أما الاشنان والماء فوجه الاحتياط فيهما هو ان الغلام اذا قدم الطست جثا على ركبتيه ثم قدم قدح الاشنان والمحلب أو البنك ففتحه ثم أخذ الملعقة فحرك بها الاشنان جميعه حتى يقلبه ظهر البطن ثم يتناول برأس الملعقة منه يسيرا قدر الدرهم أو ما يقاربه فيجعله فى كفه ثم يستفه ميعمد الى الابريق فيمسكه بيده اليسرى ويبسط يده اليمنى ويجمعها قليلا ويصب فيها الماء من الابريق ويشربه على أثر سَف الاشنان ثم يوضع الابريق ويناول الرئيس الاشنان بالملعقة ويسكب عليه الماء وأما المنشفة فانه يكون مع الغلام منشفنان احداهما يناولها للرئيس عندما يقدم الطست يضعها مبسوطة على حجره تقى ثيابه رش الماء الزفر والاخرى تكون مطوية معلقة فى وسطه على طيها وهى التى يجفف يده بها فهذه اذا وضع الطست بين يدى الرئيس أو الملك وقبل ان يناوله الاشنان يقوم قائما ويأخذها ويجعلها فى يده اليسرى ثم يجمع حواشيها باليمنى إلى آخرها ثم يقيمها قائمة ويقبض عليها بيده اليسرى من تحت اليمنى ويسلتها بيده اليسرى سلتا قويا ثم يمسكها باليسرى من وسطها ويثنيها ويقبض عليها باليمنى من تحت يده اليسرى وهى مثنية كما فعل باليسرى وهى غير مثنية ثم يسلتها باليمنى الى آخرها ثم يجمعها بين يديه ويفركها ثم يقبض عليها من حاشيتها الاخرى ويقيمها قائمة كما جعلها فى المرة الاولى ويسلتها بيده حتى يستوى تجعيدها ثم يعلقها فى وسطه وحينئذ يجثو لمناولة الاشنان وأما الخلال فقد ذكرنا انه يجب ان ينقع ليلة او ليلتين ويعوج عند التخلل لئلا يتشظا بين الاسنان فيكون له قدح صغير من زجاج طول الاصبع بحيث تدخله الاصبع يجعل فيها ماء ورد أو ماء قراح وماء الورد أنفع لان فيه قبضا تنتفع به الاسنان ويشد اللثة ثم يترك فيه الخلال قبل الحاجة اليه فاذا احتيج اليه أخرج الغلام قدح الخلال مغطى بغطاء محكم مغلفا بغلاف من أديم معدود له يعلقه الغلام فى وسطه فيعمد الى ماء الورد

أو الماء الذى يكون فيه الخلال واليسير منه يجرى فيصبه فى راحته ويشربه جميعه ثم يناول الرئيس حينئذ الخلال على الصورة السابقة فى مناولته تم ذلك.

وفى ربيع الابرار للزمخشرى: أول من عمل الصابون سليمان عليه السلام، ولبعض الادباء فى رئيس بيده صابونة:

صابونة فى راحتى ماجد قد أضحت السحب لها حسدا

تلاطم البحران من حولها فزصبح الموج بها مزبدا

الباب الثانى والثلاثون
فى الماء وما جرى مجراه

قالوا وينبغى ان لا يشرب الماء على المائدة ولا بعد الاكل الى ان يجف أعالى البطن الا بمقدار ما يسكن بعض العطش ولا يروى منه ريا واسعا حتى اذا جف البطن وانحدر الطعام استوفى منه ومن المشروب وفى آداب شرب الماء أحاديث نبوية ومنها أدبية حض عليها العلماء فى مراعاتها أما الشرعية فلا يشرب قائما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال لو يعلم أحدكم ما فى بطنه اذا شرب قائما لاستقى، ومنها ان تمز الماء مزا ولا تعبه عبا وروى عن النبى ﷺ انه قال الكياد من العب والكياد داء الكبد، ومنها ان لا يستوفى الماء الى آخره ومنها ان يناول من على يمينه ومنها ان لا يشرب من ثلمة الاناء هذه كلها من احياء علوم الدين ومن آداب الماء ان يجلس ويتناول الكوز بيمينه ويسمى الله عز وجل وينظر فى الاناء قبل الشرب ويضع يده اليسرى من تحته لعله يكون قد وضع على موضع يقطر منه على ثيابه قطرة غير نظيفة ثم يشرب ثلاثة أنفاس ولا يتنفس فى الكوز ويحمد الله تعالى بعد الشرب وان يسر ان كان معه غيره.

آداب شرب الماء فى مجالس الملوك اتفق أكابر العلماء بالادب ان استدعاء الكوز فى مجلس الملك والرئيس وشرب الماء فى مواجهته من سوء الادب وأما مجلس الملك خاصة فلا سبيل الى شرب الماء فيه البتة، ذكر فى سيرة كافور الاخشيدى حكاية ينتفع بسماعها من يلزم مجالس الملوك قالوا كان أبو جعفر مسلم وأبو الفضل جعفر بن الفضل الوزير عند كافور عشية صيف ولم يكن عنده غيرهما فقال لهما قد اشتد الحر وللثلج أيام ما جاءنا من الشام وما كان كافور يذوق الثلج وانما كانت الكيزان توضع عليه فيشرب منها وبهذا سلم من ضرر الثلج فبينما هم كذلك اذا خبر بمجىء الثلج فقال هاتوا ثلاث كيزان فجاءوا بها فأخذ كافور كوزاً فشربه وأخذ أبو الفضل كوزا وشربه وأخذ أبو جعفر كوزا وقام فخرج من المجلس وشربه ثم عاد وأكب على يد كافور ثم قعد أبو جعفر ساعة وانصرف وأراد أبو الفضل ان ينصرف فشاغله كافور ثم قال هاتوا أبا اليمن فجاء فقال زد

فى جزاءة الشريف أبى جعفر ألف دينار فى كل عام وانما أجلس أبا الفضل ليريه مكافأته لابى جعفر عن حسن أدبه معه فى شرب الماء.

كتب أبو الخطاب الصابى الى عمه أبى اسحق الصابى مع كوز ما بعث به اليه شرط المودةً أطال الله بقاء سيدى أن لا أنفرد دونه بلذة ولا اختص قبله بعطية اذ كان لا فرق بين محبتى ومحبته ولا فصل بين مبرتى ومبرته وقد شربت الساعة فى هذا الكوز فوجدته أعذب ارتشافا من الافواه وأحلى مصا من الشفاه وأصفى جوهرا من فاخر الدر وأنقى من الثنايا الغر وأرق طبعا من الهوى وأخف وزنا من الهبا وأعبق طيا من نسيم العنبر وأذكى رائحة من المسك الاذفر:

رقت حواشيه فخف على الانامل والقلوب
فكأنه مستعمل من طيب أنفاس الحبيب

يتم على القذاً ولا يحول بين الماء والهوى يلطف عن صفاء الزجاج ولا يحوج الغلام الى الثلاج ان أفرغ شف وان أترَع رف تساوى المياه فيه عذوبة وتعجب العيون قبل النفوس رؤيه:

اشهى الى الابصار من وجه الحبيب بلا رقيب
تهدى لنا أنفاسه ما فيك من كرم وطيب

حتى كأن طينته من طينتك وعذوبته مشتقة من عذوبتك وقد أنفدته مملوءا اليك لتعلم ان قلبى مملوء من المحبة عليك والسلام.

وقال صالح بن يونس فى كوز ومرفع:

أم الحياة على سرير من نحاس عريانة أبدا بغير لباس
هى فى الممات لدى الورى معدودة لكنها ضمنت حياة الناس

وأهدى رجل لرئيس كيزانا وكتب إليه:

ما بعثت الكيزان إلا احتيالا جعلت مهجتى وروحى فداكا
منعتنى الأيام تقبيل كفيك فارسلتها تقبل فاكا

ولا يسمى الكوز كوزا الا اذا كان له عروة والا فهو كوب وعلى ذلك فسر قوله عز وجل ﴿بأكواب وأباريق﴾[1] ولذلك نظائر فى اللغة وهو ان المائدة لا يقال لها مائدة الا اذا كان عليها الطعام والا فهى خوان كما تقدم ولا يسمى الكأس كأسا الا وفيه شراب والا فهو

---

(١) الآية: ١٨ من سورة الواقعة.

قدح والى ذلك أشار العلامة ذو الوزارتين وامام العروتين لسان الدين أبو عبد الله محمد بن الخطيب وزير صاحب الاندلس وكاتم سره فى قوله لما وقف على كتاب ديوان الصبابة تأليف الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبى حجلة مخاطبا له على قوله فى الكتاب المذكور:

كتاب حوى أخبار من قتل الهوى وسار بهم فى كل شرق ومغرب

مقاطيعه مثل المواصيل لم تزل يشبب فيها بالرباب وزينب

قوله هذه الابيات:

يا من ادار من الصبابة بيننا قدحا ينم المسك من رياه

وأتى بريحان الحديث فكلما صبح النسيم براحة حياه

انا لا أهيم بذكر من قتل الهوى لكن أهيم بذكر من أحياه

أنشدنى هذه الابيات المرحوم فخر الدين بن مكانس وذكر ان شهاب الدين بن أبى حجلة أنشده اياها وانه تبجح بكونه مدح كتابه قال فقلت له يا شيخ شهاب الدين خثر عليك لسان الدين وذكر ان كتابك فارغ من المحاسن قال وكيف ذا قلت لقوله:

يا من أدار من الصبابة بيننا قدحا ينم المسك من رياه

أما علمت أن الكأس لا يقال له كأس الا اذا كان فيه شراب والا فهو قدح فامتغص له شهاب الدين وأخبرنى ان لسان الدين عارضه بكتاب سماه روضة التعريف بالحب الشريف فى التصوف انتهى.

رجع الى ما كنا فيه سأل رجل الشيخ أبا الفرج بن الجوزى رحمه الله ما لنا نرى الكوز الجديد اذا صب فيه الماء نش وخرج منه صوت فما معناه قال له يا ولدى ذاك صوت شكواه يشكو الى برد الماء ما لقيه من حر النار فقال السائل فما لنا نراه اذا ملأناه لا يبرد فاذا نقص برد فقال الشيخ حتى تعلموا أن الهوى لا يدخل الا على ناقص، وذكر الوداعى فى تذكرته قال حدثنى جماعة من أهل عانة وهيت بالعراق انه اذا كان أوان الاربعينيات ملئت فاذا انقضت رفعوها الى زمان الصيف وشربوا فيها الماء فانها تبرده بردا كثيرا يقوم مقام الثلج انتهى.

قلت: وذكر لى الوزير فخر الدين بن مكانس رحمه الله ان ماء طوبا اذا شيل الى الصيف وسكب منه فى آنية الماء برده الى الغاية وان ماء هذا الفصل لا يفسد اذا شيل بخلاف غيره من الفصول، وما أحسن قول ابن عبد الظاهر ملغزا فى شربة:

وذى أذن بلا سمع له قلب بلا قلب

اذا استولى على حب فقل ما شئت فى الصب

قال وأهل مصر تقول للزبر الحب واليه أشار المرحوم فخر الدين بن مكانس فى السبيل الذى أنشأه الوزير الملكى الشهير بالنشو بجامع عمرو بن العاص ﷺ آمين:

أثنى القطيم النشو لما ارتقى وزارة زادته فى وزره
بالجامع العمرى سبيلا وقد قالت لنا عنه بنو مصره
هذا سبيل حاله فاسد وزيره يرشح من قعره

أنشدنى الشيخ شمس الدين الرئيس لنفسه وكتبها على الخوابى:

ترفق أيها الساقى وزد فى اللطف بالصب
وداو القلب لى واعلم بأنى منزل الحب

فصل: فى المحمود من المياه قال ابن النفيس فى الموجز أفضل المياه مياه الانهار وخصوصا الجارية على تربة نقية فيتخلص الماء من الشوائب أو على حجارة فيكون أبعد عن قبول العفونة وخصوصا الجارية إلى الشمال المشرق وخصوصًا المنحدرة إلى أسفل وخصوصا اذا بعد المنبع فان كان مع هذا خفيف الوزن يخيل لشاربه انه حلو ولا يحتمل الشراب منه الا قليلا فذلك هو البالغ وماء النيل قد جمع أكثر هذه المحامد وماء العين لا يخلو من الغلظ وأردأ منه ماء البئر وماء النز أردأ وأما الشرب على الريق وعقيب الحركة وخصوصا الجماع وعلى الفاكهة وخصوصا البطيخ فردىء جدا سواء كان المشروب ماء أو شرابا فان لم يكن بد فقليل من كوز ضيق الرأس امتصاصا وكثيرا ما يكون عطش عن بلغم لزج أو مابح وكلما روعى بالشرب حركه فان صبر عليه انضجت الطبيعة المادة المعطشة واذابتها فيسكن من ذاته وفى مثل هذا كثيرا ما يسكن بالأشياء الحارة كالعسل.

قلت وعلى ذكر النيل فلا بأس بايراد نبذة مما قيل فيه، قال الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة فى كتابه السكردان ذكر المهدوى فى تفسيره عن عبد الله بن عمر ﷺ ان الله تعالى سخر للنيل كل نهر يجرى على وجه الارض فى المشرق والمغرب وذلله له فاذا أراد الله تعالى أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر ان يمده فاذا انتهى جريه الى ما قدره الله تعالى أمر كل نهر أن يرجع الى عنصره ومصداق هذا الا ترى ان النيل مخالف لكل نهر على وجه الارض لانه يزيد اذا نقصت وينقص اذا زادت لانها والله أعلم تمده بمائها، وفى أصل النيل أقول للناس حتى ذهب بعضهم الى أن مجراه من جبال الثلج وهى بجبل قاف وانه يخترق البحر الاخضر بقدرة الله تعالى ويمر على معادن الذهب والياقوت والزمرد فيسير ما شاء الله تعالى الى أن يأتى بحيرة الربح قال الحاكى لهذا القول ولولا ذلك يعنى دخوله فى البحر المالح

وما يختلط به منه لما كان يستطاع ان يشرب منه لشدة حلاوته وقال قوم مبدأه من جبل القمر وأنه ينبع من اثنى عشر عينا واختلف فى سبب زيادته ونقصانه فقال قوم لا يعلم ذلك الا الله تعالى وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب يشتهى أن يعرف أصل هذا النيل فرسم أن تشترى عبيد صغار زنوج وما شاكلهم جلب لم يستعربوا وبسلمهم لصيادى السمك والبحارة ليعلموهم صنعة البحر وصيد السمك وأن يكون قوتهم من السمك لا غير فاذا مهروا فى ذلك تصنع لهم مراكب صغار ليركبوا فيها ويأتوه بخبر النيل وكان فرعون يجبى خراج مصر فى كل سنة ألف ألف دينار فيأخذ الربع من ذلك لنفسه وأهل بيته وبيت ماله والربع الثانى لوزرائه وأمرائه وكتابه وجنده ويكنز الربع الثالث ذخيرة ويصرف الربع الرابع فى حفر الخلجان وسد الترع وعمل الجسور ومصالح الارض وكان فى كل سنة اذا كمل التخضير ينفد مع قائدين من قواده أردبين من قمح فيذهب أحدهما الى أعلى مصر والآخر الى أسفلها فيتأمل القائد كل ناحية وأرض كل قرية فان وجد موضعا بائرا عطلا قد أغفل بذره كتب الى فرعون بذلك وأعلمه اسم العامل وأخذ ماله وولده فربما عاد القائدان ولم يجد أحد منهما موضعا لبذر الاردب لتكامل العمارة واستظهار الزرع وجباها عمرو بن العاص اثنى عشر ألف ألف دينار وكان ذلك أول دخوله اياها والكلام على ذلك طويل (ومما) قالت الفضلاء فى النيل المبارك فمن ذلك قول علاء الدين الوداعى:

روًّ بمصر وبسكانها ... شوقى وجدد عهدى الخالى
وصف لى القرط وشنف به ... سمعى وما العاطل كالحالى
وارو لنا يا سعد عن نيلها ... حديث صفوان بن عسال

وقال الشيخ زين الدين بن الوردى:

ديار مصر هى الدنيا وساكنها ... هم الانام فقابلها بتقبيل
يا من يباهى ببغداد ودجلتها ... مصر مقدمة والشرح للنيل

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدى:

رأيت فى أرض مصر مذ حللت بها ... عجائبا ما رآها الناس فى جيل
تسود عينى فى الدنيا فلم أرها ... تبيض الا اذا ما كنت فى النيل

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

زادت أصابع نيلنا ... وطمت فأكمدت الاعادى
وأتت بكل جميلة ... ما ذى أصابع ذى أيادى

وقال الشيخ برهان الدين القيراطى:

لنيل مصر كمال فى زيادته وفضله غير مخفى ومكتتم
اذا بدت لك من تياره شيم رأيته طاهر الاوصاف والشيم

وقال الشيخ شمس الدين بن الصائغ رحمه الله:

سما النيل اذ يحكى السما فى انبساطه فللّه ما أحلى وأصدقه حاكى
تسير به الافلاك شرقا ومغربا وحافاته أيضا تحف بأملاك

وقال الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة:

نشروا القلوع وبشروا بوفائه الراية البيضاء عليه بالوفاء

وقال الشيخ بدر الدين بن الصاحب:

لله يوم الوفا والخلق قد أجمعوا كالروض تطفو على نهر أزاهره
وللوفاء عمود من أصابعه مخلق تملأ الدنيا بشائره

وقال الشيخ سديد الدين بن كاتب المرج:

يا نيل يا ملك الانهار قد سقيت منك البرايا شرابا طيبا رغدا
وقد دخلت القرى تبغى منافعها فعمها بعد فرط النفع منك أذى
فقال تذكر عنى اننى ملك وتنسى ناسيا ان الملوك اذا

وقال ابراهيم المعمار:

سمعت يوما سد مصر يقل النيل وافى زائدا عندى
فكأن هذا خبر صادق فرحت أرويه عن السدى

وفى هذه النبذة كفاية وعلى الجملة فمحاسن النيل متكثرة ولو استوعبنا ما للفضلاء فى ذلك من النظم والنثر لحفيت من تسطيرها الاقلام وضاقت صدور الاوراق وما أحق هذه المقاطيع ان تسمى مقاطيع النيل.

رجع الى ما كنا فيه أنشدنى من لفظه لنفسه ونقلته من خطه الشيخ الفاضل زين الدين ابن العجمى رحمه الله ملغزا سألتك أعزك الله عن سائل لا حظ له فى الصدقة وان لم يكن متصل النسب بالاشراف كثير الرجفان من غير أن يخاف كم ردّ سائله نهرا وعفر وجه فاقده بالتراب قمرا مذكر كثير الحيض لطيف الانبساط سريع الغيض مطلق التصرف وعليه الحجر وطالما قبل العشاء أبدى لنا الفجر يتشعب ويتكسر ويتعوج ويتدور وله خمسون عينا وأكثر يحمل القناطير المقنطرة ويعجز عن حمل ابرة سريع الاستحالة قلّ ما يثبت على

حاله بعيد الغوص ليس له قرار يعاجل صفاء ورأده بالاكدار يسكن فى تخوم الغبرا وينم على أحوال أهل السما رقيق القلب على كل عديم وكيف لا [illegible] الولى الحميم يجود بأفخر الحلى ولا يردّ من نداه مؤملا كم عمر سبيلا وقطع طريقا وأخاف سبيلا كم طفا واحترق وأظهر الحقائق وهو كثير الملق كم علا درجا وحط قدر الدقائق وقلع بأصابعه عين كل مارق وكم طهر أمما من أرجاسها وأماط عن أرض رديئ أدناسها وكم درأ عن شيخ خبثا ورفع كهلا وحدثا صقيل يجلو الصدا ويظهر على شدّة البرد تجلدا يبلغ فيه بشىء يسير مقاما لا ترقى اليه همة الملك الكبير كم أباح محرما للعباد واكثر الفساد فى البلاد وكم رأينا شموسا تجرى لمستقرها فيه وتجنح وتلوح فى فلكه وتسبح كم خاض فى ذاته خائض مع كثرة سياحته وربما وجد فى الجبال رابض قد جمع فيه الخوف والرجا والكدر والصفا ومن العجائب انه كافر وكم أعان على العبادة أهل الصلاح وأضاف نزيله بالميتة ولم يخش فى ذلك من جناح فسبحان من جمع فيه الاضداد وأرسله رحمة للعباد.

وقال أبو الفضل أحمد بن محمد الخازن فيه:

وخل صفاء زرته بعد هجره	فألقيت شخصى فى حشاه مصوّرا
وأودعته سرا فأفشاه للورى	فيا حسن ما أفشى الغداة وأظهرا
أبو حليف للثريا وأمه	به حامل فى بطن منخفض الثرى
سطح له جسم بغير جوارح	يبارى الرياح الجاريات اذا جرى
تصافح كفى منه كفا رطيبة	يخادع عينى كالخيال اذا سرى
تزر عليه الريح ثوبا مفركا	ويكسوه شهب الليل ثوبا مدثرا

وقال أبو الحسين الباخرزى ملغزا:

لا أحاجى فى زمرة الفضلاء	غير خل خصصته بأخائى
فى شبيه البلور ردّ الى الماء	وقد كان قبل عين الماء
ينذر الحر بالهزيمة بردا	فهو المنذر بن ماء السماء

وأنشدنى المقر الاشرف المرحوم أبو عبد الله محمد بن الانصارى صاحب ديوان الانشاء بالشام لنفسه حكاية حال:

ضلوا عن الورد لما أنهم رحلوا	قومى فظلوا حيارى يلهثون ظما
والله أكرمنى بالورد دونهم	فقلت يا ليت قومى يعلمون بما

وعلى ذكر الماء ذكرت ما أنشدنيه من لفظه لنفسه شيخنا العلامة أقضى القضاة بدر

الدين أبو عبد الله محمد المخزومى المالكى الشهير بالدمامينى ملغزا فى قربة وكتب به إلى المرحوم الامينى صاحب ديوان الانشاء على يد مسطرها:

أكاتب سر الملك والفاضل الذى ثناه على الافكار فرض مرتب
ومن فاه فى فن البديع بمنطق فأمست غويصات المعانى تهذب
تحدّث عن سهل رواة كلامه اذا ما أتاه اللغز يرويه مصعب
فديتك ما ذات أطالعكم بها ويبحث فى الاسفار عنها ويطلب
تشدً وكم فى الارض قارا ما لها فصدق اذا ما قيل تملى وتكتب
وما هى فى التحقيق رواية وكم لها خبر فى الذوق يحلو ويعذب
مليحة شكل يألف الحب صبها زمانا وفى وقت لها يتجنب
ويبلغ منها للحياض حقيقة ولكن رأينا قلبه وهو طيب
يزيد مريدوها اذا ما تصوًفت ويشكرها أهل الزوايا ويطنبوا
لها أربع لكن بساق رأيتها على السعى فى الاحياء بالنقع تدأب
وترضع أحيانا وما حان وضعها وكم من فتى فى حملها راح يرغب
وتحمل ما فيه الحياة لربها فيا حبذا منها البسيط المركب
وترسله فاعجب له من مسلسل غدا مرسلا عنه الرواية تعجب
وكم من خليع سمنه اذ تعنقت يمدُ اليها الراح لهوا ويطرب
وما نال اثما فى تعاطيه بعدما رأيناه من تلك العتيقة يشرب
وسم فمها المفتوح كم راح سائلا وما نطقت حرفا عن القصد يعرب
وكم قد تعبدنا بتحريف لفظها ولم أر بالتحريف من يتقرب
وتصحيفها يا بهجة الدهر بلدة حواها من الاقطار شرق ومغرب
وتوجد فى الافلاك عالية بها ويألفها بعض الحوارى ويصحب
فيا من لرق الفضل أصبح مالكا فما لى الا نحو علياه مذهب
تلفت للغز نحو بابك قد أتى وكل غدا من ظرفه يتعجب

وقال بعضهم ملغزا فى قربة الساحة:

وذات فم يوما تسبح ربها ولم تكتسب أجرا بتسبيحها قط
معانقة الصبيان مضمرة الهوى كأن بقايا قوم لوط لها رهط

الباب الثالث والثلاثون
فى المشروب والحلواء

قال أبو عبيد معمر العرب تقول كل طعام لا حلواء فيه فهو خداج أى ناقص غير تام وقال الزمخشرى عن بعضهم انه قال اللوذنج قاضى قضاة الحلواء والخبيص خاتمة الخير وقيل لبعضهم التمر يسبح فى البطن فقال على هذا التقدير اللوذنج يصلى التراويح، دخل الحمل البصرى على قادم وعنده قوم بين أيديهم طباق حلواء ولا يمدون أيديهم فقال لقد أذكرتمونى ضيف ابراهيم وتلا الآية ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم﴾[1] ثم قال كلوا رحمكم الله فضحكوا وأكلوا، وكان أبو هريرة يقول أكل تمرة أمان من القولنج وشرب العسل على الريق أمان من الفالج وأكل الرمان يصلح الكبد والزبيب يشد العصب ويذهب الوصب والنصب، قيل: لاعرابى على مائدة بعض الملوك وهو يأكل الفالوذج لم يشبع منه أحد الا مات فأمسك وفكر ثم ضرب بالخمس وقال:استوصوا بعيالى خيرا، وكان: عبد الله ابن جذعان سيدا شريفا فى قريش فوفد على كسرى وأكل عنده الفالوذج فسأل عنه فقيل له الفالوذج قيل وما هو قيل لباب البر يلبك مع العسل النحل فابتاع من عنده غلاما يصنعه وقدم به مكة فصنع بها الفالوذج فوضع موائده بالابطح الى باب المسجد ثم نادى من أراد أن يأكل الفالوذج فليحضر فكان ممن حضر أمية بن الصلت وكان يمدحه كثيرا فقال:

لكل قبيلة رأس وهاد ... وأنت الرأس تقدم كل هاد
له داع بمكة مشمعل ... وآخر فوق دارته يناد
الى درج من الشيزى املائى ... لباب البر يلبك بالشهاد

حدّث المحسن عن ابن خلاد باسناده فى كتاب الموائد ان الرشيد وأم جعفر اختلفا فى الفالوذج واللوذنج فحضر أبو يوسف القاضى فسأله الرشيد فقال اذا حضر الخصمان حكمت بينهما فقدما اليه فأكل منهما حتى انتهى فقال له الرشيد احكم فقال كلما أردت أن أقضى على أحدهما أدلى الآخر بحجته فضحك الرشيد وأمر له بألف دينار وبلغ زبيدة فأمرت له بألف دينار الا واحدا.

---

(١) الآية: ٧٠ من سورة هود.

حدثت حماد بن سلمة نبى دخلت على اياس بن معاوية وهو يأكل فالوذجا فقال ادن فكل فان كان شىء يزيد فى العقل فهذا، وأتى اعرابى بفالوذج فأكل منه فقيل له تعرف ما هذا فقال هذا وجدك الصراط المستقيم.

ومن نوادر الصوفية انهم اذا أكلوا طعاما عند أحد فقالوا أكل طعامك الابرار وأفطر عندك الصائمون ولا يقولون وصلت عليك الملائكة الا بعد الحلواء، قيل لابى الحارث جمين ما تقول فى الفالوذج قال وددت انها وملك الموت اختلجا فى صدرى والله لو ان موسى لقى فرعون بفالوذج لامن ولكن لقيه بعصا، وقال أنس يرفعه: من لقم أخاه لقمة حلواء صرف الله عنه مرارة الموقف، اشترى رجل احمالا من السكر وأمر باتخاذ مسجد من السكر ذى شرف ومحاريب وأعمدة منقوشة ثم دعا الفقراء فهدموه ونهبوه ذكر ذلك الزمخشرى فى ربيع الابرار ، قدم فالوذج حار الى مائدة عليها أبو هفان وأبو العيناء فقال له أبو هفان هذا آخر مكانك من جهنم فقال أبو العيناء ان كانت حارة فبردها بشعرك، وعن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ انه قال من لعق العسل ثلاثا فى كل شهر لم يصبه عظيم البلاء أبدا، وعنه ﷺ انه قال شفاء أمتى فى ثلاث: لعقة من عسل أو شرطة من حجام أو آية من كتاب الله، ونقلت من خط القاضى الفاضل واقعة غريبة اتفقت بالديار المصرية وهى انه لما أحرق شاور مصر أيام دخول الفرنج اليها كان بها رجل صالح وله ابنة مليحة احترقت دكانه فى جملة ما احترق فرحل الى البر الغربى وسكن فى بعض القرى وجلس فى حانوت سمان يرتفق به واتفق ان مقطع القرية رأى ابنته فهويها وجعل يروم افسادها فلم يتيسر له نخطبها من أبيها فما رضيه كفؤا لها فشرع فى أذيته وتسخيره وطرح عليه غرامة لا تلزمه وعزم على حبسه فسأل امهاله مدة معينة فقال اكتب لى بها حجة علما منه انه فقير ومتى حلت الحجة أخذ ابنته بتلك الحجة فكتب وأشهد عليه فلما انقضت الحجة جاء شاب واشترى منه عسلا فأخذه فى جرّة ومضى فسقطت منه صرة مشدودة فأخذها الرجل وفتحها فوجد فيها عشرة دنانير فأخذها فلما جاءه المقطع طالبه ورفعه الى القاضى فقال له احضر الحجة فأحضرها فدفع اليه العشرة دنانير واخذ الحجة وتخلص من الظالم فلما عاد الى حانوته جاء الشاب الذى اشترى منه العسل وسقط منه الذهب وقال اجعلنى فى حل وابرئ ذمتى فانى لما اشتريت منك العسل ذلك اليوم وقعت منى صرة فيها عشرة دنانير فاتهمتك بها وظننت انك أخذتها فلما حضرت اليوم وجدتها مرمية فى طريقى فتعجب الرجل من

ذلك وقال اشكر الله الذى ردّ عليك فأنت فى حل من جهتى فلما كان ثانى يوم جاءه الظالم وقال اجعلنى فى حل فإنى رأيت البارحة مناما أزعجنى بسببك وأما الذهب فانه وقع منى وذلك لانى قد أخذته حراما وقد تبت الى الله تعالى مما جرى منى فشكر الله تعالى وتفرقا.

كتب الشيخ شرف الدين عيسى العالية الى سيدنا ومولانا الشيخ بدر الدين محمد الدمامينى ملغزا فى عسل:

يأيها المولى الرئيس ومن له ... ألفت مدحا كالجواهر نظمه
اسمع سمعت الخير لغزا محكما ... يمضى على الالغاز جميعا حكمه
قالوا من الاطيار حقا أصله ... اكرم به أصلا يروقك طعمه
لكنه ما حاز منقارا ولا ... ريشا وأجنحة ولت أذمه
والجسم منه ما حوى عظما ولا ... لحما ويعجب من يراه جسمه
ويفرد عين كم بدا لمعاين ... لم يدر ما هى من تبلد فهمه
يا من له ذكر يفوح لناشق ... كالمسك حين يفض عنه ختمه
قل للذى يبدى الدعاوى قل لنا ... ما أصل هذا فى الطيور وما اسمه
ان قال هذا واضح فهو الذى ... قد غره فيما ادعاه وهمه
من أين يعرف اسم شىء ربما ... أكلته فى وقت المجاعة أمه

فأجابه:

يا فاضلا بين المحاسن نظمه ... ولعزه قد ذل عجزا خصمه
وطرّزت حلل البديع بمنطق ... منه علا بين الافاضل رسمه
شرف لاغراض البلاغة سابق ... ومن الفضائل قد توفر سهمه
ألغزت فى اسم عاطل حليته ... بنفيس در صح فينا يتمه
فاذا أضفت القلب منه لاسمه ... قلنا بهذا الفعل قد وضح اسمه
واذا عكست الاصل منه فهو ان ... أعربت لحنا ليس يجهل حكمه
قد كانت الاذهان منه خلية ... فحوت به شهدا لذيذا طعمه
وروى ابن سكرة حلاوة نظمه ... فقضى بتفطير المرارة همه
ورأى بعين لغزك الحلو الجنى ... عذب المذاق فحار فيه وهمه
وأعاذه بحلى أمير النحل اذ ... أضحى عليا فى انصاحة نظمه
فاسلم وصغ البيان لفهمنا ... يا من تحلى بالنباهة فهمه
واصفح بفضل عن جواب سائل ... يا طالعا فى خير أفق نجمه

ومن تذكرة الوداعى قال الصاحب فخر الدين بن الشيرجى أهدى الامير بدر الدين لولو المسعودى قصب سكر من الغور فأرسلت اليه مع الرسول أبلوجة سكر مكرر وكتب فيها رقعة فيها:

كالبحر يمطره السحاب وما له ... فضل عليه لانه من مائه

أبو الحسين الجزار ملغزا:

أتعرف لى حبلى اذا ما تنفست ... سرى لا نوف القوم من طيها نشر
ويرضع منها الندى ساعة حملها ... أبوها فيغدو وهى من وقتها بكر
تريك جنينا وهو من غير جنسها ... فوجد انه حلو وفقدانه مر
عليه به ستر دقيق وانما ... تجل اذا ما دق من فوقها الستر
اذا كسرت فى القوم تجبر كسرها ... فيحسن بعد الكسر من قلبها الجبر
تروق عيون الناظرين جلالة ... اذا جلت يوما وموضعها الصدر

وقال الشيخ زين الدين بن الوردى:

بعثت قطائفا روى ... حشاها قطرها الغامر
فسكرها أبو ذر ... ومرسل صحنها جابر

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة يستهدى قطرا:

لجود قاضى القضاة أشكو ... عجزى عن الحلو فى صيامى
والقطر ارجو ولا عجيب ... للقطر يرجى من الغمام

وقال الشيخ العلامة أبو محمد بن جابر الاندلسى نزيل حلب:

وقفت للوداع زينب لما ... رحل الركب والمدامع تسكب
مسحت بالبنان دمعى وحلو ... سكب دمعى على أصابع زينب

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة ملغزا:

احاجيك ما حلو اللسان وانه ... لأبكم اذ تعزى اليه المعازف
يرى جالسا فى الصدر ما كان كاملا ... فان نقصوه فهو فى الخلق طائف

وله يستهدى قطرا

مولاى عندى للبنا قصائد ... تريك رياض اللفظ باسمة الزهر
ونشتاق من احسانك الحلو رسمها ... ولا عجب شوق الرياض إلى القطر

ابن نباتة:

أقول وقد جاء الغلام بصحنه ... عقيب طعام الفطر يا غاية المنى
بعيشك قل لى جاء صحن قطائف ... وبح باسم من أهوى ودعنى من الكنى

الصلاح الصفدى:

أتانى صـحن من قطائفك التى غدت وهى روض قد تبت بالقطر
ولا غرو ان صدقت حلو حديثها وسكرها يرويه لى عن أبى ذر

وما أحسن قول القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فى منزلة القطيفة:

هذى القطيفة التى لا تشتهى عقلا ونقلا
حشيت ببرد يابس فلاجل ذاك الحشو يقلى

وقال الشيخ برهان الدين القيراطى وكتب بها إلى القاضى نور الدين بن حجر والد سيدنا القاضى شهاب الدين رحمهم الله:

مولاى نور الدين ضيفك لم يزل يروى مكارمك الصحيحة عن عطا
صدقت قطائفك الكبار حلاوة بفمى وليس بمنكر صدق القطا

وأنشدنى القاضى بدر الدين بن الدمامينى قال أنشدنى شرف الدين عيسى بن حجاج العالية لنفسه:

تهن بنصف كم به من حلاوة وجد لى بفضل لا يضيع ثوابه
فإن لسانى صارم وفمى له قراب وارجو أن يحل قرابه

وأنشدنى من لفظه لنفسه شيخنا زين الدين بن العجمى أحد فضلاء الديار المصرية وقد أهدى له حلواء سكب:

لفضلك يا قاضى القضاة مزية على السحب لا تخفى على من له لب
فأول جود الغيث قطر مبدد وغيث نداك الجم أوله سكب

ابن المنشد:

وقطائف مثل البدور أتت لنا من غير وعد
فحسبتها لما بدت فى صحنها اقراص شهد

السراج الوراق:

قطائفك التى رقت جسوما لماضغها كما كثفت قلوبا
كغيم رق لكن فيه قطر غدا المرعى الجديب به خصيبا

وقال أبو الحسين الجزار يستهدى قطرا:

أيا علم الدين الذى جود كفه براحة قد أخجل الغيث والبحرا
لئن أمحلت أرض الكنافة اننى لأرجو لها من سحب راحتك القطرا

ولـــه:

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر ... وجاد عليها سكر دائم الدر

وتبا لاوقات المخلل إنها ... تمر بلا نفع وتحسب من عمرى

ولى زوجة إن تشتهى قاهرية ... أقول لها ما القاهرية فى مصر

المعلم المرصص:

وحقك ما أوليتنى من قطائف ... الذ وأحلى من وصال القطائف

وقد ضمنت مثل العتاب حلاوة ... ألم ترها ملفوفة كالصحائف

ابن نباتة:

رعى الله نعماك التى من أقلها ... قطائف من قطر النبات لها قطر

أمدّ لها كفى فأهتز فرحة ... كما انتفض العصفور بلله القطر

ولـــه:

شكرا لبرك يا غيث العفاة ولا ... زالت مدائحك العلياء تنتخب

قد جدت بالقطر حتى زدت فى طمع ... وأول الغيث قطر ثم ينسكب

سعد الدين بن عربى:

قال القطائف للكنافة ما ... بالى أراك رقيقة الجسد

أنا بالقلوب حلاونى حشيت ... فتقطعى من كثرة الحسد

ولآخر فى أقرصة البسندود:

أقرصة هشة مدورة ... كأنها فى النقا كافور

كأنها فى الصحاف مطبقة ... دراهم فوقها دنانير

كتب سيدنا القاضى صدر الدين بن الادمى إلى سيدنا ومولانا أقضى القضاة بدر الدين محمد بن الدمامينى ملغزا فى لوذنج يقبل الارض وينهى أنه أصدرها عن صدر محرور وقلب لانقطاعه عن الباب الكريم مكسور فاسبل عليها من فضلك ستور وأعذر فإنها نفثة مصدور:

يا من له فى عروض الشعر ايد ... فاق الخليل بها فضلا وتمكينا

ما اسم دوائره فى نظمه ائتلفت ... والثلم فى صدرها مستعمل حينا

أجزاؤه من زحاف الحشو قد سلمت ... هذا ويقطع مطويا ومخبونا

تصحيف معكوسه لفظ يرادفه ... يا فرد يا رحلة قوم مقيمونا

والعبد منتظر من خله فرجا ... لا زال سعدك بالاقبال مقرونا

وقد جهزها لتنوب عنه فى تقبيل اليد الكريمة وتستمطر من سحائب جوابه الصيب ديمه، فكتب إليه الجواب يقبل الأرض وينهى ورود المشرفة التى عذب معناها وشهد أهل الذوق بحلاوة مجناها وحاول العبد حل لغزها الاسير فأذن دون شهده ابن النحل وقرنه بألغاز المتأدبين فإذا هو مخصب النبات بتوال القطر وإذا تلك مطروقة المحل بالمحل وكادت مرارة الفقير تنفطر لعجزه عن هذه الحلاوة وجرى على عادته فى الاسف المكرر حيث فقد هذا الرونق وتلك الطلاوة لكنه عقد الفضيحة على نفسه بعد أن استقال وتجاسر بعد الخوف على نظم الجواب فقال:

يا مرسلا من شهى النظم لى كلما ... منها ابن سكرة قد راح مغبونا
لله درك صدرا من حلاوته ... وجوهر النظم لم يبرح يحلينا
جليت لغزك إذ أبهمته فلذا ... يا فاتنى رحت بالاعجاب مفتونا
هذا وكم قد رأينا فى دوائره ... للكف قبضا يزيد العقل تمكينا
وليس اضماره مستحسنا فأدم ... بالكشف عنه لمن وافاك تحسينا
وكن لنا هاديا صوب الصواب ودم ... فينا أمينا رشيد الرأى مأمونا

والله تعالى يحلى أفواه ذاكريه بما هو أشهى من اللوذنج وأحلى وأعناق المتأدبين من كلمه بما هو أنفس من الدر وأغلى ويكلؤه فى الاقامة والارتحال ويقى عيشه كل مرّ ويحفظه على كل حال، وقال الشيخ برهان الدين القيراطى ملغزا:

هذان لغزان قد حلا ببابك يا ... قاضى البرية ما هذان خصمان
اسمان كل خماسى إذا كتبت ... حروفه وهما لا شك خدنان
تباينا فى الورى شكلا إذا نظرا ... وصورة وهما فى الاصل مثلان
يرى بكانون اصلاحاك أنهما ... كما لاصلهما نفع بنيان
فى مصر والشأم منسوب لاصلهما ... يضاف يا خير بستان لبستان
لكن إلى الصين منسوب مقرهما ... إن أحضرا فى مكان بين اخوان
لذا كنا وهو بين الناس ليس له ... من كنية ما انتحى فى ذاك اثنان
فى البر يلقى وان فتشت عنه تجد ... فى لجة البحر يلقى خمه الثانى
نبت أرى النار قد أبدت له ورقا ... فاعجب له ورقا ينمو بنيران
يحيى إذا ما سقاه القطر وابله ... وجاده بسحاب منه هتان
كبيتة هو لكن لا يشم ولا ... يضاف يوما إلى أزهار بستان

ذو رقة فإذا صحفته ظهرت كنافة منه فاستره بكتمان
وكم له من بدور كمل طلعت فى سائر الشهر لم تمحق بنقصان
فقدها خيط فجر أبيض عجل بالبرق يسطو عليها سطوة الجانى
واللغز الآخر اسم ذات ألسنة لم يبد منها لنا بالنطق حرفان
يا حسنها ألسنا أضحت حلاوتها يحلو المديح لها من كل ملسان
تطوى على الحشو أحشاء وليس لها فى الاشعرية من رام بنكران
بالطى والنشر فى حال قد اتصفت والطى والنشر فيما قيل ضدان
كم سكرت ففتحنا للدخول بها أبوابها فلقتنا باحسان
حسناء أجمع أهل الحل أجمعهم والعقد منا عليها بعد عرفان
وصالها حل بالاجماع فى زمن فيه الوصال حرام بعد اعيان
ثلثا ثلاثة أخماس لها وجدا شيئا يجىء بإيضاح وتبيان
وما ذكرت من الاخماس كم نطقت صدقا بذكر اسمها من غير بهتان
وخمسها جبل لكن بقيتها فى مكة ترتجى فوزا بغفران
تقلى ولكن لها قلب تقربه ممن قلاها من الاقوام عينان
ما مل ذا من القالى أماليه عنها وما خطر القالى لها شانى
فى الجوف منها قلوب جمة جمعت ولا يكون لجوف الشخص قلبان
كم ظل يطرحها من ليس ذا شرف جهرا ويوصف مع هذا باتقان
جميلة الوصف طابت عنصرا وزكت أصلا وما سلمت من ظعن ظعان
بالحل أنعم سقى القطر المواطئ من اقدام سعيك فى ارواء ظمآن

وكتب الشيخ جمال الدين بن نباتة إلى بعض أصحابه وقد أرسل قطرا رديئا وينهى أن الذى أرسل إليه مولانا الوصول وأحال عليه بالبر المحصول أرسل قطرا ولكن بزيادة حرفين فإذا هو قطران وبكسر أوله فإذا هو لسد الامل الواحد قطران عندما شمه المملوك أنكره وعندما عاينه استغرب كدره حتى حلف بالسجدة ما هو الا دخان وقالت عينه المنتظرة خير من هذا القطر قطر الاجفان وقال الفكر ما هذه إلا فعلة الواسطة التى فعلها وهو من الظالمين وهمته التى بعثها وهو من الآثمين ورد المملوك ذلك المرسل بالعيب لوقته وعجبت من الايادى كيف نقض عليها سواد بخته وعلى كرم مولانا تدبير هذه القضية والله تعالى لا يخل الأمل من وجود سته الشمسية بمنه وكرمه، وكتب إلى الجناب العالى العلائى

ابن القلانسى وقد ارسل إليه سكرا يقبل الارض وينهى وصول البر الذى حلت مواقعه وجلت صنائعه وحلت عن أبهى وأبهر من بدر التمام مطالعه وابيضت به أيادى الكرم وشب شخصه الجميل وإن كان أشبه شىء بالهرم فضمه المملوك كنهد الحبيب وقبله أحلى وأزهر من الثغر الشنيب وابتهج به نظرا وفكرا ونقطه بدمع السرور حتى عاد السكر بالتنقيط شكرا وكرر حديثه فقال هكذا يكون المكرر وهكذا يبعث قطعة من سحابه المسخر وهذا والله البر الذى لا يستبطئ لديه القصد منجحا والفضل الذى هو أحق بقول الأول لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى أمتع الله العفاة بيمين مولانا التى أعادت من العيش حلواء وعتب الدهر خلواء وشكر عوارفه التى ما فتح على مثلها الطالب جفنه وأياديه التى حسنت المدح حتى نسى الناس ما قال حسان فى أهل جفنه.

فصل فى الأشربة: عن ابن عباس رضي الله عنهما سئل النبى ﷺ أى الشراب أفضل فقال الحلو البارد قالوا أراد العسل، وقال ﷺ سيد شراب الدنيا والآخرة الماء، وقيل لبعضهم أى الشراب أحب إليك فقال أعز مفقود وأهون موجود وكان المأمون يقول شراب الماء بالثلج أدعى إلى اخلاص الحمد، قال الحسن لفرقد بلغنى أنك لا تأكل الخبيص قال إنى لا أقوم بشكره قال وهل تقوم بشكر الماء البارد، صفة شراب ينفع من العطش والخمار ولهب المعدة يؤخذ من ماء الرمانين ومن ماء حماض الاترج من كل واحد نصف رطل ومن ماء الاجاص وماء نقيع التمرهندى من كل واحد رطل يطبخ بنار لينة حتى يغلظ ويصير فى قوام الاشربة ويسقى منه أوقيتين بماء بارد وثلج وبماء ورد وماء خلاف.

الفقاع: يتخذ من أصناف من الحلاوات يتخذ من السكر البياض النقى بأن يحل بالماء والماء ورد ويطيب بالمسك ويوعى ويبرد بالثلج ويستعمل ويتخذ من العسل ويتخذ من ماء الزبيب الحلو السمين ويتخذ من الدبس وغير ذلك ومن الناس من يطيبه بالزنجبيل أو الفلفل أو القرنفل مع المسك والماء ورد وهذا يضر المحرورين ومن الناس من يحل شراب التفاح ويصبه فى كيزان الفقاع ويبرده ويستعمله وجميع أنواع الفقاع شربها الواجب النافع أن يكون قبل الطعام ويصبر عليها حتى ينحدر فأما بعده فلا فائدة فيه غير تجشيات يسيرة يلتذ الانسان بخروجها.

فقاع ينفع المحرورين: يؤخذ من الخبز الحوارى مثل ما يؤخذ من الشعير ويصنع منه فقاع ويضاف كرفس ونعنع وماء الرمان المز ويحلى بسكر بياض ويستعمل، وأهل دمشق

يأخذون الفقاع الخرجى ويسمونه المسدب لأنه يعمل فى كيزان محشوة بالسداب البرى فينفضونه فى الاوانى النظيفة ويرمون فيه قطعة سكر بياض ويعصرون عليه ليمونا أخضر قدر ما يطيب لهم حمضه ويحركونه بعيدان نعنع بحيث يظهر طعمه فيه ظهورا يسيرا ثم يبردونه بالثلج ويرش عليه الماء ورد وماء الخلاف ويستعملونه وهذه الصفة تنفع أصحاب الخمار وتشهى وتطيب النفس وتصرف، واعلم أن جميع أنواع الفقاع تطيب بالاشياء المناسبة لمزاج شاربه:إن كان المزاج حارا كانت المطيبات باردة وإن كان المزاج باردا كانت المطيبات حارة.

أنشدنى من لفظه لنفسه الشيخ شهاب الدين أحمد بن الشيخ جمال الدين يوسف الزعيفرانى رحمه الله:

وكيزان من الفقاع جاءت زكت طعما على الشهد المذاب
هدايا من أحبتنا ولكن كما قالوا على ورق السداب

صفة أقسما ملوكية: يؤخذ سكر أبيض يعقد جلابا رقيقا أرق ما يكون ويؤخذ دقيق أبيض مثلث يطبخ مثل العصيدة القوية بغير ملح ويبرد ويجعل فى طست وتضرب باليد ويقلب عليها الجلاب مغرفة بعد مغرفة وكلما زدت ضربها باليد زادت رغوتها إلى أن يصير لها قوام الحريرة الشديدة الثخينة ثم يقلب عليها فقاع خرجى وفى مصر عوض الفقاع أقسما فإذا صارت رقيقة اجعلها فى وعاء نظيف ويكون فيه أثر دبس أو أثر عسل واجعل معها قبضة سداب مربوطة وقبضة نعنع كذلك وأظرف طيب مثل القرنفل والباسل والزنجبيل وجوز الطيب وماء ورد ومسك ويكثر فيها من أظرف الطيب ويجعل فى مكان داف ويغطى بغطاء كبير فإنها تبقى جميعها كالرغوة ثم إنها تطلع فإذا طلعت خذ لها اناء زجاج أو حقا يمنيا وبخره بالعنبر واجعله فيها واستعمله وعند استعمالها انفض عليها فقاعا خرجيا فهذا النوع من الاقسما وهو أطيب من المشروبات.

صفة نقوع مشمش يؤخذ المشمش اللوزى أو غيره يغسل من التراب والغبار غسلا مستقصى ثم يصب عليه ماء اللينوفر وماء لسان الثور وماء ورد ويعصر عليه ماء رمان طرى حامض ويرمى فيه طاقات نعنع ثم يحلى بسكر بياض ويترك حتى ينتقع المشمش فى هذه المياه المذكورة نقعا معتدلا لا يبلغ أن يتهرى فى اناء مبخر بالعنبر فإنه يجىء فى غاية الطيبة واللذة، ومن أراد أن يتنقل بالمشمش اليابس الطيب فيأخذ ماء ورد ومسكا يحلان فى

سكر فائق وقليل ماء ثم ينقع المشمش فيه بعد غسله بحيث لا يتهرى فى نقعه بل يكون فيه قوة ظاهرة ثم يخرج المشمش من الماء المنقوع فيه ويجفف تجفيفا معتدلا فى مكان نظيف ثم يتنقل به فإنه يكون فى غاية الطيبة، ومن الادعية المستعملة بين الناس قولهم هنيئا مريئا فالهنىء الطعام الذى لا يحصل عقيب أكله أو هضمه ضرر والمرىء السريع الهضم.

الباب الرابع والثلاثون

فى بيت الخلاء المطلوب

قال الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد رحمه الله الخلاء بالمد فى الاصل هو المكان الخالى كانوا يقصدونه لقضاء الحاجة ثم كثر حتى تجوز به عن غير ذلك قال أنس بن مالك ﷺ كان النبى ﷺ إذا دخل الخلاء قال اللهم إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث بضم الخاء والباء جمع خبيث والخبائث جمع خبيثة استعاذ من ذكور الشياطين وإناثهم قال بعضهم إذا كمل للانسان فى داره حسن ثلاثة مواضع لم يبال فيما فاته منها وهى: مجلس السكن والدهليز والكنيف.

وفيه يقول المأمونى:

بيت إذا ما زاره زائر فقد قضى أعظم أوطاره

يدخله المولى بيز كما يدخله العبد باطماره

وهو إذا ما كان مستصقا مروّة الانسان فى داره

وكان جعفر الصادق يقول من سعادة المرء سعة داره وحسن مجلسه ونظافة متوضاه.

حكى عن بعض الحمقى أنه استدان سبعمائة درهم وأنفقها على كنيف داره فبلغ ذلك بعض أصحابه الظرفاء فقال ليت شعرى ما الذى يريد يخرى فيه وحكى أبو الفرج الاصبهانى فى أخبار العرجى عن الاصمعى قال مررت بكناس يكنس كنيفا وهو يغنى:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فقلت أما سداد الكنيف فمعلوم وأما سداد الثغر فلا علم لنا بك كيف أنت فيه وكنت حديث السن وأردت العبث به فأعرض عنى مليا ثم أقبل على وأنشد:

وأكرم نفسى اننى إن أهنتها وحقك لم تكرم على أحد بعدى

فقلت له والله ما أكرمتها وما يكون من الهوان أكثر مما أهنتها به فبأى شىء اكرمتها فقال بلى والله إن من الهوان لشر ما أنا فيه فقلت وما هو قال الحاجة إليك وإلى أمثالك فانصرفت وأنا أخزى الناس.

ومن أداب المضيف أنه يرى الضيف بيت الخلاء، قال ملك الهند إذا أضافك أحد فأره الكنيف فإنى قد ابتليت فوضعت فى قلنسونى.

نادرة: قيل إن رجلا حكى قال كنت بائتا فى بيت بين جماعة وكنت ضيفا فتحركت بطنى فى اثناء الليل فقمت فلم أجد موضعا فطفت فى البيت فإذا أنا بمهد فيه طفل فأخذت الطفل فى حجرى ثم خريت فى المهد ثم رجعت لارد الطفل فى المهد فإذا به قد خرى فى حجرى أضعاف ما خريت فى مهده فما جرى على كاتبه أعظم منها.

قلت: الطبيعة مكافئة.

ومثلها حكى أن دعبل بن على الخزاعى دعا أبا هفان فأطعمه ألوانا كثيرة الحبوب وسقاه نبيذا حلوا وغمز الجوارى أن لا يدلوه على بيت الخلاء ثم تركه ونام فلما أجهده الامر قال لبعض الجوارى أين الخلاء فقالت لها الأخرى ما يقول سيدى قالت يقول غنونى فغنت:

خلا من آل عالية الديار فمثوى أهلها منها قفار

فغنت هذه وضربت هذه وزمرت هذه وشربوا أقداحا وسقوه فقال قد أحسنتم وجددتم غير انكم لم تأتوا على ما فى نفسى وسكت فلما أجهده الامر قال لعل الجارية بغدادية لم تفهم ما قلت لها ثم التفت إلى أخرى وقال لها فداك أبوك أين المستراح فقال الأخرى ما يقول سيدى قالت يقول غنونى فغنت:

واستريح إلى ليلى فاذكرها كما استراح عليل من شكيه

فغنت هذه وضربت هذه وزمرت هذه وشربوا أقداحا وسقوه فقال أحسنتم وجددتم غير انكم لم تأتوا على ما فى غرضى ثم قال لعلها ما فهمت ثم قال لاحداهن فداك أبوك أين الحش فقالت الأخرى ما يقول سيدى قالت يقول غنونى فغنت:

وحاشاك أن أدعو عليك وإنما أردت بهذا القول أن تقبلى عذرى

فغنت هذه وضربت هذه وزمرت هذه وشربوا أقداحا فقال أحستم وجددتم غير أنكم لم تأتونى على مقصودى ثم أجهده الأمر فقال لعلها كوفية ثم قال للاخرى فداك أبوك أين الكنيف فقالت الأخرى ما يقول سيدى قالت يقول غنونى:

تكنفنى الواشون من كل جانب ولو كان واش واحد لكفانى

فغنت هذه وضربت هذه وزمرت هذه وشربوا أقداحا فما تمالك حتى وثب وحل سراويله وذرق فى وجوههن فتصارخن فانتبه دعبل فقال ما شأنك يا أبا هفان فقال:

تكنفنى السلاح فأضجرونى على ما بى بنيات الزوانى
فلما قل عن حالى اصطبارى رميت به على وجه الغوانى

فقام دعبل فدله على الخلاء فدخل واغتسل وخلع عليه بعد أن ضحك منه ضحكا عظيما، وما أظرف قول الشيخ جمال الدين بن نباتة:

أمط بالدوا ثياب الاذى وطب فى الرواح به والغدو
وكرر احاديث بيت الخلاء ولكن على رغم أنف العدو

ولبعضهم يتحث:

يا قاعدا متفكرا لمن الولاية بالعراق
ارحم فديتك مدنفا قد لف ساقا فوق ساق

نادرة: قال رجل لآخر يمدحه أنت من بيت الطهارة فقال الرجل دعنى من هذا المدح فقال صدقت الشكر فى الوجه ذم ولكن أنا أذكرك فى الخلاء.

حكى أن بعض الكتاب كان يلقب بجعيص فلقيه بعض حرفائه فقال له أوحشتنى يا جعيص وأين كنت فانشده:

وحيث ما كنت من بلاد فلى إلى وجهك التفات

قلت: وضمن هذا الشيخ بدر الدين بن الصاحب فقال:

يا كعبة الله إن رحلنا وطال ما بيننا الشتات
فحيث ما كنت من بلاد فلى إلى وجهك التفات

(رجع) كان لبعض المغفلين دار فقال له الساكن إن الكنيف قد انفتح فقال له صاحب الدار نظرت إليه من أيام وأردت أن أتفدى به قبل أن يتعشى بى فسبقنى، قلت الشيء يذكر بلوازمه نقلت من خط الفاضل المؤرخ الناظم الناثر الرحال صاحب المؤلفات المبدعة نور الدين على بن سعيد من كتابه الذى سماه بالمغرب فى أجلاء المغرب قال فى ترجمة أبى العباس أحمد بن القاسم وهو الذى يقول فيه ابن تقى فى موشحته المشهورة التى منها أما ترى أحمد فى مجده العالى لا يلحق أطلعه الغرب فأرنا مثله يا مشرق وجرت له معى حكايات أكرمها حكايته وقد وفد عليه مرة فوجده قد عج عن لارتياح وأقلع عن شرب الراح وكانت له عادة باحضاره المجلس راحته عندما يصل فخطب ذلك منه فأعلمه بتوبته وتكلف له مجلسا فيه أصحابه ومن يشرب من أقاربه وحضر هو فيه عازما على المؤانسة دون المشاركة فى شراب فقال ابن تقى موشحته المشهورة:

نديمنا قد طاب غن له وأنشد
وأردد عليه الكأس عساه يرتد

فارتد عن نوبته وشرب كأسه من نوبته وأتى من المطايبة والطرب ما قر به عين الظرف والادب ولما أخذ السكر من ابن تقى قام إلى المستراح وفى وسطه كيس فيه جملة من الذهب الذى جرت عادة أبى العباس أن يصله به فى كل سفرة وما اجتمع له من غيره فحله وحطه فى كوة المستراح حتى يقضى شغله ثم فرغ ومضى ونسى الكيس لما كان فيه من السكر ونام فلما أصبح وصحا قلب وسطه ليطلب الكيس فلم يجد شيئا ونظر إليه أبو العباس فقال له ما لك فأخبره فقال أنا أخذته منك البارحة لئلا يضيع منك وإذا احتجت إليه دفعته لك واستفهمه عن عدد ما فيه فأخبره فلما دخل إلى منزله جعل فى كيس من عنده ذلك العدد ودفعه إليه وابن تقى لا يشك أنه ذهبه ثم ودعه وانصرف ولما اجتاز عليه فى سفرة ثانية حضر فى ذلك المجلس ليلة على مثل تلك الحالة فلما سكر قام إلى المستراح ثم تفكر فى حالة السكر أنه كان قد حل هناك سراويله ووضع الكيس فى الكوة فمد يده إلى الكوة فوجد كيسه بعينه فأخذه وجعله فى وسطه ثم عاد لشربه والمجلس غاص محتفل بالاعيان فبكى ابن تقى وكَدر المجلس فظن أبو العباس أنه جرى عليه ما أوجب ذلك فقال له ما يبكيك هل نابك أمر أكشفه عنك فقال والله ما أبكى إلا حسرة على العالم أنه لا يخلد مثلك فيه وحكى الحكاية فقال أبو العباس ما كان يسعنى فى ذلك الوقت إلا ما فعلته لانى خفت أن يكون ضاع لك فتتهم به أحد ندمائى ويشيع ذلك ولا بد من غرمه لك لئلا تنصرف خائبا فكان الأولى غرمه دون أن يفتضح أحد من أصحابنا فقبل الأرض ودعى له وهذه احدى مكارمه جدد الله عليه الرحمه وجازاه بما هو أهله فى جنة الفردوس من النعمة آمين آمين .

سألنى بعض المخاديم أن أنظم له أبياتا تكتب على الخريشت الذى جدده بعد حريقه وانهدامه فى الواقعة المشهورة الخواجا بدر الدين محمد بن الخواجا شمس الدين محمد ابن المزلق أدام الله سعدهما بباب البريد بالجامع الاموى وكان والده قد بيضه:

يا بقعة لقضا الحوايج أسست ... لا زال سعدك دائما يتزيد
لمحتك من بدر وشمس نظرة ... فغدا قرانا سعده لك برصد
جددت فعل الخير يا بن مزلق ... لا زال فعل الخير منك يجدد
عشرون بيتا قد قصدت رويها ... يا خير من يروى ومن يتقصد
كانت مسودة وقد بيضتها ... فالماء للابيات منها ينشد
وإذا نظرت إلى البقاع وجدتها ... تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

الباب الخامس والثلاثون
فى نبلاء الاطباء

قال الحكيم الفاضل الفيلسوف العارف ابقراط ينبغى أن يكون الطبيب حرا فى جنسه جيدا فى طبعه حديث السن معتدل القامة متناسب الاعضاء جيد الفهم حسن الحديث صحيح الرأى عند المشورة عفيفا شجاعا غير محب للفضة مالكا لنفسه عند الغضب ولا يكون تاركا له فى الغاية ولا يكون بليدا وينبغى أن يكون مشاركا للعليل مشفقا عليه حافظا للاسرار لأن كثيرا من المرضى يوقفونا على أمراض بهم لا يحبون أن يقف عليها غيرهم وينبغى أن يكون محتملا للشتيمة لأن قوما من المبرسمين وأصحاب الوسواس السوداوى يقابلونا بذلك وينبغى لنا أن نتحملهم عليه ونعلم أنه ليس منهم ذلك وان سببه المرض الخارج عن الطبيعة وينبغى أن يكون حلق رأسه معتدلا مستويا لا يحلقه ولا يدعه كالجمة ولا يستقصى قص أظافير يديه ولا يتركها تعلو على اطراف أصابعه وينبغى أن تكون ثيابه نظيفة بيضاء نقية لينة ولا يكون فى مشيه مستعجلا لأن ذلك دليل الطيش ولا متباطئا لأنه يدل على فتور النفس وإذا دعى إلى المريض فليقعد متربعا ويختبر منه حاله بسكون وتأنّ لا بقلق واضطراب فإن هذا الشكل والزى والترتيب عندى أنفضل من غيره وابقراط هذا أول من برهن كيف يكون المرض والصحة فى جميع الحيوان وفى النبات وهو الذى استنبط أجناس الامراض وجهات مداواتها وكانت لها العناية فى نفع المرضى ومداواتهم ويقال له أول من جدد البيمارستان واخترعه وأوجده وذلك أنه عمل بالقرب من داره موضعا من بستان له مفردا للمرضى وجعل فيه خدما يقومون بمداواتهم وسماه أخشندوكين أى مجمع المرضى ولذلك أيضا يقع لفظه البيمارستان وهو فارسى وذلك أن البيمار بالفارسى هو المرضى وستان هو الموضع أى موضع المرضى ولم يكن له دأب فى مدة حياته وطول بقائه إلا النظر فى صنعة الطب واتخاذ قوانينها ومداواة المرضى واتصال الراحة إليهم وانقاذهم من عللهم ولم يكن لابقراط رغبة فى خدمة أحد من الملوك لطلب الغنى ولا فى زيادة مال وكان ابقراط فى زمن بهمن بن اسفنديار بن بستاسب وظهر ابقراط سنة ست

ونسعين لبختنصر وهى سنة أربع عشرة لملك بهمن وأما تفسير اسمه فإن معناه ضابط الحيل وقيل معناه ماسك الأرواح وقيل ماسك الصحة وأصل اسمه باليونانية ابقوقراطيس ويقال هو بقراطيس وإنما العرب عادتها أن تخفف الاسماء فخفف هذا الاسم فقالوا ابقراط وبقراط أيضا وقد جرى ذلك كثيرا فى الشعر ويقال أيضا بالتاء ابقرات وبقرات ومات مفلوجا ومن ألفاظه الحكمية ونوادره المفردة فى الطب قال الطب قياس وتجربة وقال العادة إذا قدمت صارت طبيعة ثانية والزجر والفأل حس نفسانى وقال كل مرض معروف السبب موجود الشفاء وقال لا تأكل حتى تجوع وقال يتداوى كل عليل بعقاقير أرضه فإن الطبيعة تفزع إلى عادتها وقيل له لمَ يكون البدن أثور ما يكون إذا شرب الانسان الدواء قال لأن أشد ما يكون البيت غبارا إذا كنس وقال مثل المنى فى الظهر كمثل الماء فى البئر إن نزفته فار وإن تركته غار وقال إن المجامع يقتلع من ماء الحياة وسئل فى كم ينبغى للانسان أن يجامع قال فى كل سنة مرة قيل فإن لم يقدر قال فى كل شهر مرة قيل فإن لم يقدر قال فى كل أسبوع مرة قيل له فإن لم يقَدر قال هى روحه أى وقت شاء يخرجها وقال العافية ملك خفى لا يعرف قدرها إلا من عدمها وقيل له أى العيش خير فقال الأمن مع الفقر خير من الغنى مع الخوف ودخل على عليل فقال له أنا وأنت والعلة ثلاثة فإن أعنتنى عليها بالقبول لما تسمع منى صرنا اثنين وانفردت العلة فقوينا عليها والاثنان إذا اجتمعا على واحد غلباه وقال للقلب آفتان وهما الغم والهم فالغم يعرض منه النوم والهم يعرض منه السهر وذلك أن الهم فيه فكر فى الخوف بما سيكون فمنه يكون السهر والغم لا فكر فيه لأنه إنما يكون بما قد مضى وانقضى ومن كلامه فى العشق العشق طمع يتولد فى القلب وتجتمع فيه مواد من الحرص وكلما قوى ازداد صاحبه فى الاهتياج واللجاج وشدة القلق وكثرة السهر وعند ذلك يكون احتراق الدم واستحالته إلى السوداء والتهاب الصفراء وانقلابها إلى السوداء ومن طغيان السوداء فساد الفكر ومع فساد الفكر تكون الندامة ونقصان العقل ورجاء ما لم يكن وتمنى ما لم يتم حتى يؤدى ذلك إلى الجنون فحينئذ ربما قتل العاشق نفسه وربما مات غما وربما وصل إلى معشوقه فيموت فرحا وأسفا وربما شهق شهقة فتخفى فيها روحه أربعا وعشرين ساعة فيظن أنه قد مات فيقبر وهو حى وربما تنفس الصعداء فتختنق نفسه فى تامور قلبه فينضم عليها القلب فلا تنفرج حتى يموت وربما ارتاح وتشوّق للنظر أو رأى من يحب فيموت فجأة دفعة واحدة وأنت ترى العاشق إذا سمع بذكر من يحب كيف

يهرب دمه ويستحيل لونه وزوال ذلك عمن هذه حاله بلطف رب العالمين لا بتدبير من الآدميين وذلك أن المكروه العارض من سبب قائم بمفرده بنفسه بتهيىء التلطف فى إزالته بإزالة سببه فإذا وقع البيان وكل واحد منهما علة لصاحبه لم يكن إلى زوال واحد منهما سبيل كما إذا كانت السوداء سببا لاتصال الفكر وكان اتصال الفكر سببا لاحراق الدم والصفراء وميلهما إلى السوداء فالسوداء كلما قويت قويت قوة الفكر والفكر كلما قوى قويت السوداء فهذا الداء العياء الذى تعجز عن معالجته الاطباء ومن كلامه الاقلال من الضار خير من الاكثار من النافع وقال أما العقلاء فيجب أن يسقوا الخمر وأما الحمقاء فيجب أن يسقوا الحريف وقال ليس معى من فضيلة العلم إلا علمى بأنى لست بعالم وقال المالك للشىء هو المسلط عليه فمن أحب أن يكون حرا فلا يهوى ما ليس له وليهرب منه وإلا صار له عبدا وقال لتلميذ له إن أحببت أن لا تفوتك شهوة فاشته ما يمكنك وقال الدنيا غير باقية فإذا أمكن الخير فاصطنعوه وإذا عدمتم ذلك فتحمدوا واتخذ من الذكر أحسنه. انتهى. ما لخصته من ترجمة ابقراط من طبقات الاطباء للعلامة موفق الدين أبى العباس أحمد بن أبى القاسم الخزرجى المعروف بابن أبى أصيبعة رحمه الله.

وذكر الشيخ جمال الدين بن نباتة فى شرح العيون ومن ظرائف حكايات أبقراط أن ولد أحد الملوك عشق جارية من حظايا أبيه فنحل بدنه واشتدت علته وهو كاتم خبره فأحضر ابقراط فجس نبضه ونظر إلى بشرته فلم ير علة فذاكره حديث العشق فرآه يهتز لذلك ويضطرب فاستخبر الحال من حاضنته فلم يكن عندها خبر فقال هل خرج من الدار فقالت لا فقال لابيه مر رئيس الخصيان بطاعتى فأمره فقال أخرج علىّ النساء فخرجن وابقراط أصبعه على نبض الصبى فلما خرجت الجارية اضطرب عرقه وحار طبعه فعلم ابقراط أنها المعينة فصار إلى الملك فقال إن ابن الملك عاشق لمن الوصول إليها صعب قال الملك من هى قال زوجتى فقال انزل عنها ولك عنها بدل فتمنع ابقراط وقال هل رأيت أحدا كلف أحدا إلى طلاق زوجته ولا سيما الملك فى عدله ونصفته يأمرنى بمفارقة زوجتى وهى عديلة روحى فقال الملك إنى أوثر عليك وأعوّض لك أحسن منها فامتنع حتى بلغ الامر إلى التهديد والسيف فقال إن الملك لا يسمى عادلا حتى ينصف من نفسه أرأيت لو كانت العشيقة حظية الملك ففهم الملك المراد وقال يا ابقراط عقلك أتمّ من معرفتك ونزل عن الحظية لابنه وشفى الفتى.

فيثاغورس: قال القاضى صاعد فى طبقات الامم إن فيثاغورس كان بعد بندقليس بزمان وأخذ الحكمة عن أصحاب سليمان بن داود عليها السلام بمصر حين دخلوا إليها من بلاد الشام ومن كلامه وآدابه وحكمه قال كما أن بدء وجودنا وخلقنا من الله سبحانه هكذا ينبغى أن تكون نفوسنا منصرفة إلى الله تعالى وقال الفكرة لله خاصة فمحبتها متصلة بمحبة الله ومن أحب الله سبحانه وتعالى عمل بمحابه ومن عمل بمحابه قرب منه ومن قرب منه نجا وقال الاقوال الكثيرة فى الله تعالى علامة تقصير الانسان عن معرفته وقال ما لا ينبغى أن تفعله احذر أن تخطره ببالك وقال الاشكال المزخرفة والامور المموهة فى أقصر الازمان تتبهرج وقال الاخلق بالانسان أن يفعل ما ينبغى لا ما يشتهى وقال الدنيا دول مرة لك وأخرى عليك فإن توليت فاحسن وان تولوك فألن وكان يقول إن أكثر الآفات إنما تعرض للحيوانات من عدمها الكلام وتعرض للانسان من قبل الكلام وكان يقول من استطاع أن يمنع نفسه من أربعة أشياء فهو خليق أن لا ينزل به مكروه كما ينزل بغيره: العجلة واللجاجة والعجب والتوانى فثمرة العجلة الندامة وثمرة اللجاجة الحيرة وثمرة العجب البغضاء وثمرة التوانى الزلة ونظر إلى رجل عليه ثياب فاخرة يتكلم فيلحن فى كلامه فقال له اما أن تتكلم بكلام يشبه ثيابك أو تلبس لباسا يشبه كلامك وقال استعمل الفكر قبل العمل وقال كثرة العدو تقل الهدو وحضرت امرأته الوفاة فى أرض غربة فجعل أصحابه يتحرقون على موتها فى أرض الغربة فقال يا معشر الاخوان ليس بين الموت فى الغربة والوطن فرق وذلك أن الطريق إلى الآخرة واحدة من جميع النواحى وقيل ما أحلى الاشياء فقال الذى يشتهى الانسان وقال أنكى لعدوك أن لا تريه أنك تتخذه عدوا. انتهى كلامه.

سقراط: كان من تلاميذ فيثاغورس واقتصر من الفلسفة على العلوم الالهية واعرض عن ملاذ الدنيا ورفضها وأعلن بمخالفة اليونانيين فى عبادتهم الاصنام وقابل رؤساءهم بالحجاج والادلة فثوّروا العامة عليه واضطروا ملكهم إلى قتله فأودعه الملك الحبس تحمدا إليهم ثم سقاه السم تفاديا من شرهم مع مناظرات جرت له مع الملك محفوظة وله وصايا شريفة وآداب فاضلة وحكم مشهور ومعنى سقراطيس باليونانية المعتصم بالعدل وبلغ من تعظيمه الحكمة مبلغا أضر بمن بعده من محبى الحكمة لأنه كان من رأيه أن لا يستودع الحكمة الصحف ولا القراطيس تنزيها لها عن ذلك ويقول إن الحكمة طاهرة مقدسة فلا ينبغى أن تستودعها إلا الانفس الحية وتنزهها عن الجلود الميتة ولم يصنف

كتابا ولا أملى على أحد من تلاميذه ما أثبته فى قرطاس وإنما كان يلقنهم علمه تلقينا لا غير وتعلم ذلك من أستاذه طيماوس فإنه قال فى صباه لا تدعنى أدون ما أسمع منك من الحكمة فقال له ما أوثقك بجلود البهائم الميتة وأزهدك فى الخواطر الحية هب انسانا لقيك فى طريق فسألك عن شىء من العلم هل كان يحسن أن تحيله على الرجوع إلى منزلك والنظر فى كتبك فإن كان لا يحسن فالزم الحفظ فلزمه سقراط ومن آداب سقراط وحكمه ونوادره ما ذكره الامير المبشر بن فاتك فى كتابه قال سقراط عجبا لمن عرف فناء الدنيا كيف تلهيه عما ليس له فناء وقال النفس جامعة لكل شىء فمن عرف نفسه عرف كل شىء وقال ما ضاع من عرف نفسه وما أضيع من جهل نفسه وقال ستة لا تفارقهم الكآبة: الحقود والحسود وحديث عهد بغنى وغنى يخاف الفقر وطالب رتبة يقصر قدره عنها وجليس أهل الادب وليس منهم وقال خير من الخير وشر من الشر من عمل به وقال اتقوا ما تبغضه قلوبكم وقال من اهتم بالدنيا ضيع نفسه ومن اهتم بنفسه زهد فى الدنيا وقال طالب الدنيا إن نال ما أمل تركه لغيره وإن لم ينل ما أمل مات بغصة وقال من أحب أن لا تفوته شهوة فليشته ما يمكنه وقال له رجل شريف الجنس وضيع الخلائق أما تأنف نفسك يا سقراط من خساسة جنسك فأجابه جنسك عندك انتهى وجنسى منى ابتدئ وقال لا يكون الحكيم حكيما حتى يغلب شهوات الجسم وكان يقول القينة مخدومة ومن خدم غير ذاته فليس بحر وقال إنما جعل للانسان لسان واحد وأذنان ليكون ما يسمعه أكثر مما يتكلم به وقال أنفع ما اقتناه الانسان الصديق المخلص وقال الصامت ينسب إلى العىّ والمتكلم ينسب إلى الفضول ويندم وقال إذا ضاق صدرك بسرك فصدر غيرك به أضيق وقال من أراد النجاة من مكائد الشيطان فلا يطيعن امرأة فإن النساء سلم منصوب ليس للشيطان حيلة إلا بالصعود عليه وقال لتمليذ له يا بنى إن كان لا بد لك من النساء فاجعل لقاءك لهن كأكل الميتة ولا تأكلها إلا عند الضرورة فتأخذ منها بقدر ما يقيم الرمق فإن أخذ آخذ منها فوق الحاجة أسقمته وقتلته وقيل له ما تقول فى النساء فقال هن كشجر الدفلى له رونق وبهاء فإذا أكله الغرّ قتله وقال من قل همه على ما فاته استراحت نفسه وصفا ذهنه وقال أفضل السيرة طيب المكسب وتقدير الانفاق وقال من يجرب يزدد علما ومن يؤمن يزدد يقينا ومن يستيقن يعمل جاهدا ومن يحرص على العمل يزدد قوة ومن يكسل يزدد فترة وقال القينة ينبوع الاحزان فلا تقتنوا الاحزان وقال لولا أن فى قولى اننى لا أعلم اخبارا أننى أعلم لقلت إنى لا أعلم.

افلاطون: فيلسوفي يوناني طبي عالم بالهندسة وطبائع الاعداد ومعنى اسمه العميم الواسع لزم سقراط وسمع منه خمس سنين ثم مات سقراط فبلغه أن بمصر قوما من أصحاب فيثاغورس فسار إليهم حتى أخذ عنهم وبلغ من العمر احدى وثمانين سنة وكان حسن الاخلاق كريم الافعال كثير الاحسان إلى كل أحد غريبا وقريبا مبتدأ حكيما صبورا ومن كلامه ومواعظه العادة على كل شيء سلطان وقال من لم يواس الاخوان عند دولته خذلوه عند فاقته وقيل له لم لا تجتمع الحكمة والملك فقال لعز الكمال وقال إذا أردت أن تدوم لك اللذة فلا تستوفى الملتذ أبدا بل دع فيه فضلة تدوم لك اللذة وقال غاية الادب أن يستحى المرء من نفسه وقال ما ألمت نفسى إلا من ثلاث من غنى افتقر وعزيز ذل وحكيم تلاعبت به الجهال وقال لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده فإن الناس ليس يسألون فى كم فرغ من هذا العمل وإنما يسألون عن جودة صنعته وقال اطلب فى الحياة العلم والمال تحز الرياسة على الناس لأنهم بين خاص وعام فالخاصة تفضلك بما تحسن والعامة تفضلك بما تملك وقال عَين المحب عمياء عن عيب المحبوب وقال الحلم لا ينسب إلا إلى من قدر على السطوة والزهد لا ينسب إلا إلى من ترك بعد المقدرة وقال الحسن الخلق من صبر على السيء الخلق وقال أشرف الناس من شرفته الفضائل لا من يشرف بالفضائل وذلك أن من كانت الفضائل فيه جوهرية فهى تشرفه ومن كانت فيه عرضية تشرف بها ولم تشرفه وقال الحياء إذا توسط وقف الانسان عما عابه وإذا أفرطه وقفه عما يحتاج إليه وإذا قصر خلع عنه ثوب التجمل فى كثير من احواله وقال لا تصحب الشرير فإن طبعك يسرق من طبعه شرا وأنت لا تدرى وقال من مدحك بما ليس فيك من الجميل وهو راض عنك ذمك بما ليس فيك من القبيح وهو ساخط عليك وقال رب مغبوط بنعمة هى بلاؤه ورب محسود على حال هى دواؤه وقال الامل خداع النفوس لا تستكثرن من عشرة حملة عيوب الناس فإنهم يلتقطون ما غفلت عنه وينقلونه إلى غيرك كما ينقلون عنهم إليك وقال الافراط فى النصيحة يوهم بصاحبها كثيرا من المظنة وقال ليس ينبغى للرجل أن يشغل قلبه بما ذهب منه ولكن يعتنى بحفظ ما بقى عليه وسئل عند موته عن الدنيا فقال خرجت إليها مضطرا وعشت فيها متحيرا وها أنا أخرج منها كارها ولم أعلم فيها اننى لا أعلم.

ارسطاطاليس: وتفسيره تام الفضيلة قال سليمان بن حسان المعروف بابن حلجل فى كتابه عن ارسطاطاليس أنه كان فيلسوف اليونان وعالمها ونحريرها وخطيبها وطبيبها وكان

أوحدا فى الطب وغلب عليه علم الفلسفة قال المسعودى وكان افلاطون يجلس فيستدعى من الكلام فيقول حتى يحضر الناس وربما قال حتى يحضر العقل فإذا حضر قال تكلموا فقد حضر العقل ومن كلامه وحكمه رغبتك فيمن زهد فيك ذل نفس وزهدك فيمن يرغب فيك قصر همة وقال الجاهل عدو نفسه فكيف يكون صديق غيره وقال الحاجة تفتح أبواب الحيلة ونظر إلى حديث يتهاون بالعلم فقال له إنك لم تصبر على تعب العلم وصبرت على شقاء الجهل وقال كفى بالتجارب تأدبًا وبالأيام عظة وقال خير الاشياء أجدها إلا المودّات وقال كلام العجلة موكل بالزلل وأعاد على تلميذ له مسألة فقال له أفهمت فقال التلميذ نعم فقال لا أرى آثار الفهم عليك قال وكيف ذلك قال لا أراك مسرورا والدليل على الفهم السرور.

جالينوس: وكان مولده من بعد زمان المسيح بتسعة وخمسين سنة على ما أرخه إسحاق ابن حنين وأما قول من زعم أنه كان معاصره وأنه توجه ليراه ويؤمن به فغير صحيح وقد أورد جالينوس فى مواضع متفرقة من كتبه ذكر موسى وعيسى وتبين من قوله أنه كان من بعد المسيح بهذه المدة التى تقدم ذكرها ومن ألفاظ جالينوس وحكمه ونوادره ما ذكره حنين بن إسحاق فى كتاب نوادر الفلاسفة والحكماء وآداب المعلمين القدماء قال الهم فناء القلب والغم مرض القلب ثم بين ذلك فقال الغم بما كان والهم بما يكون وفى مواضع أخر الغم بما فات والهم بما هو آت.

ومن كلامه فى العشق قال العشق استحسان ينضاف إليه طمع وقال لن واحكم تتبل تنل ولا تكن معجبا فتمتهن وقال الحياء خوف المستحى من نقص يقع به عند من هو افضل منه وقال يتهيأ للانسان أن يصلح أخلاقه إذا عرف نفسه فإن معرفة الانسان هى الحكمة العظمى وذلك أن الانسان لافراط محبته لنفسه بالطبع يظن بها من الجميل ما ليس عليه حتى أن قوما يظنون بأنفسهم أنهم شجعان وكرماء وليسوا كذلك وأما العقل فيكاد ان يكون الناس كلهم يظنون بأنفسهم التقدم فيه وأقرب الناس إلىٍّ الذى يظن ذلك بنفسه أقلهم عقلا ورأى رجلا تعظمه الملوك لشدة جسمه فسأل عن أعظم ما فعله فقالوا أنه حمل ثورا مذبوحا من وسط الهيكل حتى أخرجه خارجا فقال لهم فقد كانت نفس الثور تحمله ولم يكن لها فى حمله فضيلة وقال إن العليل يتروح بنسيم أرضه كما تتروح الأرض الجدبة ببل القطر وقيل له متى ينبغى للانسان أن يموت قال إذا جهل ما يضره مما ينفعه ومن كلامه أنه سئل عن

الاخلاط الاربعة فقيل له ما قولك فى الدموى فقال عبد مملوك وربما قتل العبد مولاه قيل له فما قولك فى الصفراء قال كلب عقور فى حديقة قيل له فما قولك فى البلغم قال ذلك الملك الرئيس كلما أغلقت عليه بابا فتح لنفسه بابا قيل له فما قولك فى السوداء قال هيهات تلك الأرض إذا تحركت تحرك ما عليها ومن ذلك قال أنا ممثل لك مثالا فى الاخلاط الاربعة فأقول إن مثال الصفراء وهى المرة الحمراء كمثل امرأة سليطة صالحة تقية فهى تؤذى بطول لسانها وسرعة غضبها إلا أنها ترجع سريعا بلا غائلة ومثل الدموى كمثل الكلب الكلب فإذا دخل دارك فعاجله إما باخراجه أو قتله ومثل البلغم فى البدن إذا تحرك مثل ملك دخل بيتك وأنت تخاف ظلمه وجوره وليس يمكن أن تخرق به وتؤذيه بل يجب أن ترفق به وتخرجه ومثل السوداء فى الجسد مثل الانسان الحقود الذى لا يتوهم فيه بما فى نفسه ثم يثب وثبة فلا يبقى مكروها إلا يفعله ولا يرجع إلا بعد الجهد الجهيد.

ومن تمثيلاته الظريفة قال الطبيعة كالمدعى والعلة كالخصم والعلامات كالشهود والقارورة والنبض كالبينة ويوم البحران كفصل القضاء والفضل والمرض كالمتوكل والطبيب كالقاضى.

ابن كلدة الثقفى لما وفد على كسرى أنوشروان أذن له بالدخول فلما وقف بين يديه منتصبا قال له من أنت قال أنا الحرث بن كلدة قال فما صناعتك قال الطب قال اعرابى أنت قال نعم من صميمها وبحبوحة دارها قال فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها وضعف عقولها وسوء أغذيتها قال أيها الملك إنه إذا كانت هذه صفتها كانت أحوج إلى ما يصلح جهلها ويقيم عوجها ويسوس أبدانها ويعدل أمشاجها فإن العاقل يعرف ذلك من نفسه ويميز موضع دائه ويحترز عن الادواء كلها بحسن سياسته لنفسه قال كسرى فكيف تعرف ما تورده عليها ولو عرفت الحكم لم تنسب إلى الجهل قال الطفل يناغى فيداوى والحية ترقى فتحاوى ثم قال أيها الملك العقل من قسم الله تعالى قسمه بين عباده كقسمة الرزق فيهم فكل من قسمته أصاب وخص بها قوم وزاد فمنهم مثر ومعدوم وجاهل وعالم وعاجز وحازم ذلك تقدير العزيز العليم قال كسرى فما الداء الدوى قال ادخال الطعام على الطعام وهو الذى يفنى البرية ويهلك السباع فى البرية قال أصبت قال فما العلة التى تظلم منها الادواء قال هى التخمة إن بقيت فى الجوف قتلت وإن تخللت أسقمت قال صدقت قال فما تقول فى الحجامة قال فى نقصان الهلال فى صحو لا غيم فيه والنفس طيبة والعروق ساكنة

لسرور يفاجئك وهم يباعدك قال فما تقول فى الحمام قال لا تدخله شبعانا ولا تغش أهلك سكرانا ولا تقم بالليل عريانا ولا تقعد على الطعام غضبانا وارفق بنفسك تكن رخى البال وقلل من طعامك يكن أهنى لنومك قال فما تقول فى الدواء قال ما لزمتك الصحة فاجتنبه فإن هاج داء فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه فإن البدن بمنزلة الأرض إن أصلحتها عمرت وإن تركتها خربت قال فما تقول فى الشراب قال أطيبه أهناه وأرقه أمراه وأعذبه أشهاه تشربه صرفا فيورثك صداعا ويثير عليك من الادواء أنواعا قال فاى اللحمان أفضل قال الضأن الفتى والجدى الرضيع والقديد المالح مهلك للآكل واجتنب لحم الجزور والبقر قال فما تقول فى الفواكه قال كلها فى اقبالها وحين أوانها واتركها إذا أدبرت وانقضى زمانها وأفضل الفاكهة الرمان والاترج وأفضل الرياحين الورد والبنفسج وأفضل البقول الهندباء والخس قال فما تقول فى شرب الماء قال هو حياة البدن وبه قوامه ينفع ما شرب منه بقدر وشربه بعد النوم ضرر وأفضله أمراه وأرقه أصفاه قال فاخبرنى عن اصل الانسان ما هو قال أصله من حيث شرب الماء يعنى رأسه قال فما هذا النور الذى فى العينين قال مركب من ثلاثة أشياء فالبياض شحمة والسواد ماء والناظر ريح قال فعلى كم شىء جبل وطبع هذا البدن قال على أربع طبائع المرة السوداء وهى باردة يابسة والدم حار رطب والبلغم بارد رطب والصفراء حارة يابسة قال فلم لم يكن من طبع واحد قال لو خلق من طبع واحد لم يأكل ولم يشرب ولم يمرض ولم يهلك قال فمن طبيعتين لو كان اقتصر عليهما قال لم يجز لانهما ضدان مختلفان يقتلان قال فمن ثلاثة قال لم يصلح موافقان ومخالف فالاربع هو الاعتدال والقيام قال فاجمل لى الحار والبارد فى أحرف جامعة قال كل حلو حار وكل حامض بارد وكل حريف حار وكل مرّ معتدل وفى المر حار وبارد قال فما أفضل ما عولج به المرة الصفراء قال كل بارد لين قال فالمرة السوداء قال كل حار لين قال فالبلغم قال كل حار يابس قال فالدم قال اخرجه إذا زاد.

الشىء بالشىء يذكر كنت أنشدت سيدى القاضى صدر الدين على بن القاضى أمين محمد بن الادمى قول بعض الفضلاء وهو:

أصبحت تخرجنى بغير جريمة	من دار اكرام لدار هوان
كدم الفصاد يراق ارذل موضع	أبدا ويخرج من أعز مكان

فأنشدنى لنفسه بعد أيام:

قد كنت مثل دمى صدقت أجله	وأعزه لابان عن جثمانى
لما فسدت وزدت لم آمن على	روحى فصلت عليك بالهجران

رجع: قال فالرياح قال بـالحقن اللينة والادهان الحارة اللينة قال أفتأمـر بالحقنة قال نعم قرأت فى بعض الكتب للحكماء أن الحقنة تنقى الجوف وتكسح الادواء عنه والعجب ممن احتقن كيف يهرم أو يعدم الولد وأن الجاهل كل الجهل من يأكل ما عرف مضرته ويؤثر شهوته على راحة بدنه قال فما الحمية قال الاقتصاد فى كل شىء فإن الاكل فوق المقدار يضيق على الروح مساحتها ويسد مسامها قال فما تقول فى النساء واتيانهن قال كثرة غشيانهن رديئة وإياك واتيان المرأة المسنة فإنها كالشن البالى تجذب قوتك وتسقم بدنك وماؤها سم قاتل ونفسها موت عاجل تأخذ منك الكل ولا تعطيك البعض والشابة ماؤها عذب زلال وعناقها غنج ودلال فوها بارد وريحها طيب وهنها ضيق تزيدك قوة إلى قوتك ونشاطا إلى نشاطك قال فابهن القلب إليها أميل والعين برؤيتها أسر قال إذا أصبتها المديدة القامة العظيمة الهامة واسعة الجبين قناة العرنين كحلاء لعساء صافية الخد عريضة الصدر مليحة النحر فى خدها رقة وفى شفتيها لعس مقرونة الحاجبين ناهدة الثديين لطيفة الخصر والقدمين بيضاء فرعاء جعدة غضة بضة تخالها فى الظلمة بدرا زاهرا تبسم عن أقحوان وعن مبسم كالارجوان كأنها بيضاء مكنونة ألين من الزبد وأحلى من الشهد وأزهى من الفردوس والخلد وأذكى ريحا من الياسمين والورد تفرح بقربها وتسرك الخلوة بها قال فضحك كسرى حتى اختلجت كتفاه قال ففى أى الأوقات اتيانها أفضل قال عند ادبار الليل يكون الجوف أخلى والنفس أهدى والقلب أشهى والرحم أدفى فإن أردت الاستمتاع بها نهارا لتسرح عينيك فى جمال وجهها ويجتنى فوك من ثمرات حسنها ويعى سمعك من حلاوة لفظها وتسكن الجوارح كلها إليها فتجنب الشبع ووقت القيلولة وهيجان الدم قال كسرى لله درك من اعرابى لقد أعطيت علما وخصصت فطنة وفهما وأحسن صلته وأمر بتدوين ما نطق به.

تياذوق: كان فى دولة بنى أمية وصحب الحجاج بن يوسف الثقفى وخدمه بصناعة الطب ومن وصيته له لا تأكل حتى تجوع ولا تكرهن على الجماع ولا تحبس البول وخذ من الحمام قبل أن يأخذ منك وقال له أربعة تهدم العمر وربما قتلن دخول الحمام على البطنة والمجامعة على الامتلاء وأكل القديد الجاف وشرب الماء البارد على الريق ومجامعة العجوز ببعيد منهن وقيل إن بعض الملوك لما رأى تياذوق شاخ وكبر خشى أن يموت ولا يعتاض عنه لأنه كان أحذق الأمة فى وقته بالطب فقال له صف لى ما أعتمد عليه فأسوس به

نفسى وأعمل به أيام حياتى فلست آمن من أن يحدث عليك حادث الموت ولا أجد مثلك فقال تياذوق أيها الملك أقول لك عشرة أبواب إن عملت واجتنبها لم تعتل مدة حياتك وهى: لا تأكل طعاما وفى معدتك طعام ولا تأكل ما ضعف اسنانك عن مضغه فتضعف معدتك عن هضمه ولا تشرب الماء على الطعام حتى تفرغ ساعتين فإن أصل الداء التخمة وأصل التخمة الماء على الطدم وعليك بدخول الحمام فى كل يوم مرة واحدة فإنه يخرج من جسدك ما لا يصل إليه الدواء وأكثر الدم فى بدنك تحرس به نفسك وعليك فى كل فصل بقيئة ومسهلة ولا تحبس البول وإن كنت راكبا وأعرض نفسك الخلاء قبل نومك ولا تكثر الجماع فإنه يقتبس منك ماء الحياة فلتكثر أو تقل ولا تجامع العجوز فإنه يورث موت الفجأة فلما سمع ذلك أمر كاتبه أن يكتب هذه الالفاظ بالذهب الاحمر ويضعه فى صندوق من ذهب مرصع بالجوهر ويقى ينظر إليه فى كل يوم يعمل به فلم يعتل مدة حياته حتى جاءه الموت الذى لا بد منه ولا محيص عنه.

بختيشوع: طبيب الرشيد من كلامه أربعة تهدم العمر ادخال الطعام على الطعام والشرب على الريق ونكاح العجوز والتمتع فى الحمام.

يوحنا: ابن ماسويه ومن كلامه وقد سئل عن الخير الذى لا شر معه فقال شرب القليل من الشراب الصافى ثم سئل عن الشر الذى لا خير معه فقال نكاح العجوز.

يعقوب: ابن إسحاق الكندى فيلسوف العرب ومن كلامه ما أوصى به لولده أبى العباس قال الكندى يا بنى الاب رب والاخ فخ والعم غم والخال وبال والولد كمد والاقارب عقارب وقول لا تصرف البلاء وقول نعم تزيل النعم وسماع الغناء برسام حاد لان الانسان يسمع فيطرب وينفق فيسرف فيفتقر فيغتم فيعتل فيموت والدينار محموم فإن صرفته مات والدرهم محبوس فإن أخرجته فر والناس سحرة فخذ شيئهم واحفظ شيئك ولا تقبل ممن قال إن اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع.

أوحد الزمان هبة الله أبو البركات ابن على كان يهوديا وأسلم ومن حذقه أن مريضا كان ببغداد قد عرضت له علة الماليخولياء وكان يعتقد أن على رأسه دنا وأنه لا يفارقه أبدا فكان كلما مشى يتخايل أن المواضع سقوفها قصيرة ويمشى برفق ولا يترك أحدا يدنو منه حتى لا يميل الدن عن رأسه أو يقع وبقى هذا المرض مدة وهو فى شدة منه وعالجه جماعة من الاطباء ولم يحصل من معالجتهم تأثير ينتفع به وأنهى أمره إلى أوحد الزمان ففكر أنه ما بقى

شىء يمكن أن يبرأ به إلا بالامور الوهمية فقال لاهله إذا كنت فى الدار فأتونى به ثم إن أوحد الزمان امر أحد غلمانه بأن ذلك المريض إذا دخل إليه وشرع فى الكلام معه وأشار إلى الغلام بعلامة بينهما أن يسرع بخشبة كبيرة فيضرب بها فوق رأس المريض على بعد منه كأنه يريد كسر الدن الذى يزعم أنه على رأسه وأوصى غلاما آخر وكان قد أعد معه دنا فى أعلى السطح أنه متى رأى ذلك الغلام قد ضرب فوق رأسه أن يرمى الدن الذى عنده بسرعة إلى الأرض ولما كان أوحد الزمان فى بيته وأتاه المريض فأقبل إليه وقال له والله لا بد لى أن اكسر الدن وأريحك منه ثم أدار تلك الخشبة التى معه وضرب بها فوق رأسه بنحو ذراع وعند ذلك رمى الغلام الآخر الدن من أعلى السطح فكانت له ويحة عظيمة وتكسر قطعا كبيرة فلما عاين المريض ما فعل به ورأى الدن المنكسر تأوه لكسرهم إياه ولم يشك فيه أنه الذى كان على رأسه بزعمه وأثر فيه الوهم أثرا أبرأ علته من تلك وهذا باب عظيم فى المداواة.

العترى صاحب النورَ المجتبى: كان طبيبا ممارسا مشهورا وعالما مذكورا وافر الفضل فيلسوفيا متبصرا فى علم الادب ومن كلامه الجاهل عبد لا يعتق رقه إلا بالمعرفة وقال الحكمة سراج النفس فمتى عدمتها عميت النفس عن الحق وقال الادب أزين للمؤمن من نسبه وأولى للمرء من حسبه وأدفع عن عرضه من ماله وأرفع لذكره من جماله وقال من أحب أن ينوه باسمه فليكثر من العناية بعلمه وقال الجاهل يطلب المال والعالم يطلب الكمال وقال الغم ليل القلب والسرور نهاره وشرب السم أهون من معاناة الهم ومن شعره:

لو كنت تعلم كل ما علم الورى ... جمعا لكنت صديق كل العالم
لكن جهلت فصرت تحسب كل من ... يهوى خلاف هواك ليس بعالم

يحيى بن إسحاق: كان طبيبا ذكيا وعالما بصيرا بالعلاج صانعا بيده وكان فى دولة عبد الرحمن الناصر لدين الله واستوزره نقل عنه من حذقه أنه أتى إليه بدوى على حمار وهو يصيح على باب داره أدركونى وكلموا الوزير بخبرى فلما خرج إليه قال ما بالك فقال له ورم فى احليلى منعنى النوم منذ أيام كثيرة وأنا فى الموت فقال له اكشف عنه فإذا هو وارم فقال لرجل كان قد أقبل مع العليل اطلب لى حجرا أملس فطلبه فوجده فقال ضعه على كفك وضع عليه الاحليل فلما مكن احليل الرجل على الحجر جمع الوزير يده وضرب على الاحليل ضربة غشى الرجل منها ثم اندفع الصديد يجرى فلما استوفى الرجل صديد

الورم فتح عينيه ثم بال البول فى أثر ذلك فقال له اذهب فقد برئت علتك وأنت رجل عابث واقعت بهيمة فى دبرها فصادفت شعيرة من علفها فى عين الاحليل فورم لها وقد خرجت فى الصديد فقال له الرجل قد فعلت هذا وأقر بذلك وهذا يدل على حدس صحيح وقريحة صادقة.

ابن جميع الاسرائيلى: من الاطباء المشهورين والعلماء المذكورين خدم سلطان مصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وحظى فى أيامه وكان رفيع المنزلة نافذ الامر ونقل عنه من حذقه أنه كان جالسا فى دكانه وقد مرت عليه جنازة فلما نظر إليها صاح يا أهل الميت وذكر لهم أن صاحبهم لم يمت وأنهم إن دفنوه فإنما يدفنونه حيا فصاروا ناظرين إليه كالمتعجبين من قوله ولم يصدقوه فيما قال ثم إنهم قال بعضهم هذا الذى يقوله ما يضرنا إنا نمتحنه فإن كان حيا فهو الذى نريده وإن لم يكن حيا فما يتغير علينا شىء فاستدعوه إليهم وقالوا بين الذى قلت لنا فأمرهم بالمصير الى البيت وأن ينتزعوا عنه أكفانه وقال لهم احملوه إلى الحمام وسكب عليه الماء الحار فاحمى بدنه ونطله نطولا وغطسه فرأى فيه أدنى حس وتحرك حركة خفية فقال أبشروا بعافيته ثم تمم علاجه إلى أن أفاق وصلح فكان ذلك مبدأ اشتهاره بجودة الصنعة والعلم وظهرت عنه ثم إنه سئل بعد ذلك من أين علمت حال ذلك الميت وهو محمول وعليه الاكفان أن فيه روحا فقال إنى نظرت إلى قدميه فوجدتهما قائمتين وأقدام الذين قد ماتوا تكون منبطة فحدست أنه حى وكان حدسى صائبا والله أعلم.

الحكيم صدقة السامرى: هو الفاضل صدقة بن منجا بن صدقة ويعرف بابن الشاعر من الاكابر فى صناعة الطب والمتميزين من أهلها والاماثل من أربابها خدم الملك الاشرف موسى بن العادل بن أيوب إلى أن توفى فى خدمته وكان يحترمه غاية الاحترام ويكرمه غاية الاكرام وخلف من الكتب عشرة آلاف مجلدة غير كراريس وأوراق مفرطة تقدير ألف مجلد ومن كلامه انظر الموت بعين عقلك تره قريبا ولا تره بعين أملك تلحظه بعيدا وقال العلم شجرة فى القلب تزرع ومن السنتنا تظهر ثمارها وقال أنت بنفسك قريب من موجدك ومكونك وبشهواتك وعصيانك أنت بعيد من ربك ومن نظمه:

يا بن قسيم أصبحت تنتحل النحـ	ـو ودعواك فيه منحوله
أمك ما بالها قل وأجب	مرفوعة الساق وهى مفعوله
فاعلها الابر وهو منتصب	مسائل قد أتتك مجهوله
والعين عطل وعين عصعصها	بنقطة الخصيتين مشكوله

ولـــه:

شـــيخ لنا مـن عظمـــه داهيــــه ، مـــا مــثلـه فى الامم الـخــاليـــه
مـــهـنـدس فى طـول أيامـــــه ، مع قــصـــره يبتلع الـــاقـبــه
مـــثلث بدعـــمـــه قـــائم ، لأنـه مـنـفــــــــرج الـزاويـه

نقلت من خط المرحوم فخر الدين بن مكانس كتب صاحبنا فخر الدين عبد الوهاب كاتب الدرجة الشريفة رحمه الله الى ابن صفير المتطبب وقد دعاه فى مرضه ودخل الى الطهارة فعثر فى طست الحقنة فاختضبت رجله رقعة يداعبه بها أولها، الشىء بالشىء يذكر، توجه سيدى بالامس مخضب القدم من هيولاه ذا مأمن محله المعمور لما منه تولاه وما كان من حقه فى أمـــه تكدير نفـــه ولكل شىء آفة من جنسه هذه مسألة عركها أكبر منه لجبين واشتغل بها اشتغال ذى النحيين وأظنه قبل قدمه فخرج على تلك الصورة أو بعض أجزائه خلع صورة ولبس صوره.

مفرد:

فتى غير محجوب الندى عن صديقه ، ولا مظهر الشكوى اذا النعل زلت

على أنه أكثر محافظة وودا وأرعى ذمة وعهدا كم أحرقته نار وجد الى أوطانه وأزعجته من مكانه وهو لا يظهر الا حبا ولا يطلب منه الا قربا:

لا شك اذ لـونكـمـــا واحـــــد ، انـكـمـــا من طـيـنـة واحــــده

وبالجملة فأنا أسأل الله ان يكفيه سوء هذه المحنة كما كفى شمائله اللطيفة شر الابنة انه مجيب الدعاء ولىُّ المنة.

حكى ان بعض الاطباء كان فى بعض خدمة الملوك فى غزوة ولم يكن معه وقت النصرة كاتب برسل فتقدم الى الطبيب ان يكتب الى الوزير يعلمه بذلك فكتب الطبيب أما بعد فانا كنا مع العدوٌ فى حلقة كدائرة البيمارستان حتى لو رميت مبضعا لم يكن الا على تيفال فلم يكن الا كنبضة أو نبضتين حتى لحق العدوّ بحران عظيم فهلك الجميع بسعادتك يا معتدل المزاج.

قلت ما رأيت أحسن من هذا ولا أوجز ووجدت بخط طبيب على بعض الكتب طالعت هذه النسخة فوجدتها تأن سقما فعالجتها بالمقابلة الى ان تمايلت للصحة، ولبعضهم يهجو طبيا يهوديا:

قالوا اليهودى أخو حكمة لا زالت الامراض فى كأسه
لوكان ذا النحس أخا حكمة أزال دا الصفراء من رأسه

وما ألطف قول الشيخ زين الدين بن لوردى مضمنا:

يا من يطبب قوما ثم يهملهم يوما بماذا عداك الشر تعتذر
اذكر فلانا الذى أسهلته سحرا ان الكرام اذا ما أسهلوا ذكروا

ولآخر مفرد:

حكيم لطيف من لطافة وصفه يودُّ المعافى السقم حتى يعوده

كتب المرحوم الوزير فخر الدين بن مكانس الى ابن صفير فى بعض مرضانه يسرع المولى عند الوقوف اليها نقل الخطوة ولا يتأخر فان القوّة على الضعيف ضعف فى القوّة فجاءنى على عاداته:

تغدو المنايا فما تنفك واقفة حتى تراه على عزم فتتبعه

فحين رآنى من الهريرة كالرعديد وشاهد ما بى من البرد قال ما أراك الا جلبدا فقلت له معالجة أم محاججة ومناصحة أم ممازجة ومطايبة أم مداعبة واستوصفته فجرى على المعهود منه فى الجهل بما يقول وعدم التمييز بين المعقول والمنقول ولكنى الظالم على نفسى والمشكك فى حسى فانى أعهده لم يزل مميت الأحيا ومقفر الاحيا فكم له بالديار المصرية من قتلى وأوراقه للمرضى أشرُ من أوراق الدفلى كم شاب عالجه فأكبه الصرع الفالج ولان يسمى مصارعا أليق به من معالج ثلاثة تدخل فى دفعه طلعته والنعش والغاسل لكنه مع ذلك ممن يجمع بين الاقران ويعمل المحرم فى رمضان قد ملك قياد القيادة على الفنين وطالت فيها مدته فاستحق ان يدعى بذى القرنين فاستعذت بالله من الشيطان وسرحته باحسان، كتب)القاضى الفاضل فى الكحالين يباكرنى كل عبرى العناصر يعزينى بالرحمة على بخت ناصر كأنه غاسل يدخل الى انسان العين بحنوطه من كحله الملعون ويدرجه فى كفن من الخرقة السوداء التى يلبسها سواد العيون مردودة عصية ولديها عصى العمى ينقل العين الى بياض الثغور ويسلبها اللمى قد انتهى الى فوق ما ضرب به المثل اذ قيل يسرق الكحل من العين وهذا يسرق العين من الكحل فهذا وأمثاله لص من اللصوص وسموا كحالين وهم صاغة لما يصوغون ويركبون فوق العون من الفصوص بل دباغون يدبغون الجفن أبيضا وما يعدوهم مهك الدباغ بل صباغون يصبغون الأسود أبيض وليس ذلك

الصباغ قد أودعوا حزن يعقوب فى كحلهم مكاحلهم فمن كحل به ابيضت عيناه وجحدوا معجز القميص اليوسفى فلو مروا به على ناظر ما انفجرت جفناه واذا رفعوا أميالهم فانما هى لشمس العيون مزوّلة واذا أولج أحدهم الميل فى المكحلة فهو أولى بالرحم ممن أولج الميل فى المكحلة وما يؤم أهل الكتاب فى التبديل بواحد ولا خطاهم طريق الى الغىّ غير راشد فيوما محوا آية النبى ﷺ من التوراة وهى مسفرة ويوما محوا آية النور من الابصار وهى مسفرة ولا خير فيهم حاربوا فمحوا بالامس الخطوط من الأوراق واستداموا إلى اليوم فمحوا الخطوط من الاحداق.

كتب الحكيم شمس الدين بن دانيال الى السراج الوراق قطعة كحل اصفهانى:

قل لعين الامائل الاعيان ومحل الانسان للانسان
خذه كحلا مثل السيوف جلاء وصقالا يروق فى الاجفان
حجر كسره أجل من الاكسير فعلا فى العين أو فى العيان
ألف عين تقيمَها حبة منه قياسا يصح بالبرهان
ان تعظم مثاله فى حجاز فلهذا التعظيم فى اصبهان

الباب السادس والثلاثون
فى الحساب والوزراء

اعلم ان الوزيرمشتق اسمه من حمل الوزر عمن خدمه وحمل الوزير لا يكون الا بسلامة من الوزير فى خلقته وخلائقه أما فى خلقته فانه يكون تام الصورة حسن الهيئة متناسب الاعضاء صحيح الحواس وأما فى خلائقه فهو ان يكون بعيد الهمة سامى الرأى ذكي الذهن جيد الحدس صادق الفراسة رحب الصدر كامل المروءة عارفا بموارد الامور ومصادرها فاذا كان كذلك كان أفضل عدد المملكة لانه يصون الملك عن التبذل ويرفعه عن الدناءة ويغوص له على الفكرة ومنزلته منزلة الآلة يتوصل بها الى نيل بغيته وبمنزلة الذى يحرز المدينة من دخول الآفة ومنزلة الجارح الذى يصيد لطعمة صاحبه وليس كل أحد وان صلح لهذه المنزلة يصلح لكل سلطان ما لم يكن معروفا بالاخلاص لمن خدمه والمحبة لمن استنصحه والايثار لمن قربه وقال الثعالبى فى يواقيت المواقيت، الوزارة اسم جامع للمجد والشرف والمروءة وهى تلو الملك والامارة والرتب العلياء والدرجة الكبرى بعدهما، قال منصور النميرى يمدح يحيى البرمكى:

ولو علمت فرق الوزارة رتبة تنال بمجد فى الحياة لنالها

والانبياء عليهم السلام لم يستغنوا عن الوزراء فكيف الملوك والامراء وقد نطق القرآن بوزارة هرون لموسى عليه السلام فى قوله تعالى ﴿رب اشرح لى صدرى * ويسر لى أمرى * واحلل عقدة من لسانى * يفقهوا قولى * واجعل لى وزيراً من أهلى * هرون أخى * اشدد به أزرى * وأشركه فى أمرى﴾[1] ثم قال فى نظام الآية الكريمة وعلى نسق الكلام ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾[2] فدل على انه جعله وزيره وصاحب سره وشريكه وافصح عن حسن موقع الوزارة وجلالتها ووقوع الحاجة اليها وكان آصف بن برخيا وزير سليمان ابن داود عليهما السلام والمستولى على أموره وكان نبينا المصطفى ﷺ يقول ان لى

(١) الآيات: من ٢٥ - ٣٢ من سورة طه.

(٢) الآية: ٣٦ من سورة طه.

وزيرين من أهل السماء ووزيرين من أهل الارض فأما اللذان من أهل السماء فجبريل وميكائيل عليهما السلام وأما اللذان من أهل الارض فأبو بكر وعمر ﷺ وقال ﷺ اذا أراد الله بملك خيرا قيض له وزيرا صالحا ان نسى ذكره وان نوى خيرا أعانه أو أراد شرّا كفه وكان انوشر وان يقول لا يستغنى أعلم الملوك عن الوزير ولا أجود السيوف عن الصقال ولا أكرم الدواب عن السوط ولا أعقل النساء عن الزوج.

فصل فيما ينبغى للوزير ان يأتيه: اعلم ان الملوك لا يشبهون الآدميين الا بالصور فأما بالطباع والاخلاق والهمم فلا لانهم لا يشاكلونهم ولا يشابهونهم والملك وان كان كريما سخيا بعيد الهمة كثير المحاسن فانه لا يخلو قط من أربع خصال الحسد والحقد والملال والحرص على المال فينبغى ان يكون الوزير أعقل الناس وأحزمهم وأدهاهم وأبعد غورا فيجب عليه ان يدارى أخلاق الملك كما يدارى السباح الماء المغرق والولدان أولادهم الصغار والحاوى الحية ويتحفظ من غائلته كما يتحفظ من السبع والنار القوية والمجنون الذى بيده السيف المسلول ويجب أن لا يملك ما يصلح للملك من الاعلاق النفيسة الا ما فى نفسه ان يهديه اليه ويخدمه به وينبغى له ان يظهر ويشيع جميع ما يملكه وتحويه يده للملك وانه انما يمسكه ويحفظه من أجله ويجب عليه ان لا يسرف فى الاهداء ولا يتخرق فى بذل ما فى يده وكما لا يشبع النار من الحطب لا يشبع الملك من الاموال ولا بد للوزير من الاستظهار بالذخائر الخفية وقد قال الحكيم لوزير كان يستكثر من اعتقال الضياع ويغالى به عليك بحفظ الدنانير التى تشترى بها روحك من الملك فربما فعل ألف دينار ما لا تفعله ضياع ومستغل بمائتى ألف.

ومن نكت هذا الباب ان الملك يريد كل حسن وطيب لنفسه ويستأثر به على والده وولده ولذلك يقال من ملك استأثر وكان معاوية يقول وددت لو ان الدنيا فى بيضة نيمرشت فأحسوها حسوة واحدة لا يشركنى فيها أحد، ودعا الفضل بن مروان المعتصم الى داره واحتفل واحتشد فى احسان الدعوة فلما حضر المعتصم ورأى مروءته وتجمله عمل فيه الحسد عمله فانقبض ورنى فى عينه ولم ينشط لطعام ولا شراب وزعم انه يشتكى بطنه نفطن الفضل لما دهاه وأراد أن يوهم ان تلك الآلات مستعارة من دار أمير المؤمنين ليطفئ نار حسده فتقدم اليه وقال يا أمير المؤمنين انما استعرت أكثر هذه الاشياء من دار أمير المؤمنين وقد أرهقنى الخزانون والفراشون باسترجاعها فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر

بامهالى فى ردها فعلت فضحك المعتصم وقال قل لهم لا يسترجعونها اليوم ثم نشط للطعام والشراب، ومما ورد فى تجنبها قال المأمون لاحمد بن أبى خالد هل لك فى ان أستوزرك فقال دعنى يا أمير المؤمنين يكون بينى وبين الغاية درجة يرجوها الصديق ويخافها العدوّ فلست أريد بلوغ النهاية لئلا يقول عدوّى قد بلغها وليس الا الانحطاط، وكان ابراهيم بن المدبر اذا أعرضت عليه الوزارة أنشد قول العتابى:

يلوم على ترك الغنى بأهلية	طوى الدهر عنا كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن كالدما	مقلدة أجيادها بالقلائد
يسرك ان قد نلت ما نال جعفر	من الملك أو ما نال يحيى بن خالد
وان أمير المؤمنين أغصنى	بغصتها بالمرهفات البوادر
ذرينى تجتبينى منيتى مطمئنة	ولم اتجشم هول تلك الموارد
وان عليات الامور مشوبة	بمستودعات فى بطون الاساود

فصل فى لطائف كلام الوزراء أبو سلمة الخلال وزير السفاح كان يقول خاطر من ركب البحر وأشد منه مخاطرة من داخل الملوك ، أبو عبد الله وزير المهدى يقول الرجال تحت ألسنة الاقلام خير الكلام ما دل وقل، يحيى بن خالد وزير الرشيد ما رأيت باكيا أحسن تبسما من القلم ما رأى أحد فى ولده ما يحب الا رأى فى نفسه ما يكره، الفضل بن يحيى وزيره أيضا جرى بين يديه يوما مدح الناس أباه لجوده فقال وما قدر الدنيا حتى يمدح من يجود بكلها فضلا عن بعضها ولما عزل بأخيه جعفر قال ما انتقلت عنى نعمة صارت الى أخى ولا عزبت عنى رتبة طلعت عليه، جعفر بن يحيى وزيره أيضا شرّ المال ما لزمك اثم مكسبه وحرمت الاجر فى انفاقه، الفضل بن الربيع وزير الرشيد والامين كما يقول ما أظن النعمة الا مسخوطا عليها أما ترونها أبدا عند غير أهلها، الفضل بن سهل وزير المأمون من توقيعاته الامور بتمامها والاعمال بخواتيمها والصنائع باستدامتها، اخوه الحسن بن سهل وزير المأمون أيضا، عجبت لمن يرجو من فوقه كيف يحرم من دونه وقيل له لا خير فى السرف فقال لا سرف فى الخير ومن كلامه لا يصلح للتصدير الا واسع الصدر، أحمد بن أبى خالد وزيره أيضا بالاقلام تساس الاقاليم وكتب الى صديق له يستدعيه يوم الالتقاء قصير فأعن عليه بالبكور وكتب الى المأمون مع هدية بعثت الى أمير المؤمنين قليلا من كثيره، محمد بن يزداد وزيره ايضا ليس فى الحب مشورة ولا فى الشهوات خصوصة ومن

توقيعاته أبواب الملوك معادن الحاجات وليس لاستنجاحها الا الصبر والملازمة، الفضل ابن مروان وزير المعتصم الكاتب كالدولاب اذا تعطل تكسر، ما رأيت أقرب رضى من سخط ولا أسرع ما بين قرب وبعد من الملوك، محمد بن الفضل الجرجانى وزير المتوكل عاتبه المتوكل يوما على اشتغاله بالملاهى فقال يا أمير المؤمنين ان مقاساة هموم الدنيا لا تتأتى الا باستجلاب شيء من السرور، سليمان بن وهب وزير المهدى، انى أغار على أصدقائى كما أغار على حرمى ونظر يومًا فى المرآة فرأى شيبًا كثيرًا فقال عيبًا لا عدمناه، الحسن بن مخلد وزير المعتمد كان يقول أعوذ بالله من نحس الاربعاء وحد الاحد وكان يقول أمر أمثالنا يأتى جملة ويذهب جملة فلم لا يتعجل اللذات قبل فوتها ويتمتع بصفو الزمان قبل كدره، صاعد بن مخلد وزير المعتمد الموفق، النفس أصل لا عوض عنه والمال فرع يعود اذا تشرب عما قليل، المنع الجميل أحسن من المطل الطويل، أبو الحسن ابن الفرات وزير المقتدر، ما أريد الوزارة الا لصديق أنفعه أو لعدوّ أقمعه وكان يقول إنى لآلف كل شيء حتى الطرَيق ومن كلامه ما رأيت أحدا على بابى وفى دارى ليس لى عنده احسان الا استحييت منه وصرفت غاياتى الى ارفاقه وتحصيل مراده ولولا حب المروءة ما رغبت فى الرياسة والوزارة، أبو على بن مقلة وزير المقتدر والقاهر والرضى كان يقول اذا أحببت تهالكت واذا أبغضت أهلكت واذا أرضيت أثرت واذا غضبت تأثرت وكان يقول أنا فى وزارتى أقدم على العظائم كلها الا على اثنتين ازالة النعم وهتك الحرم، أبو جعفر أحمد ابن سيرزاد وزير المستكفى، الاصاغر يهفون والاكابر يعفون اياك والافراط الممل والتفريط المخل، أبو عبد الله الجبهانى الكبير وزيره أيضا كان يقول جمال المرء فى لسانه وجمال المرأة فى عقلها ومن كلامه حسن الذكر ثمرة العمر، ابو الفضل بن العميد وزير ركن الدولة، خير القول ما أغناك جده وألهاك هزله العاقل من أفتح من كل أمر خاتمته وعلم من بدء كل شيء عاقبته، الصاحب ابو القاسم بن عباد وزير فخر الدولة وعد الكريم الزم من دين الغريم، قد يبلغ الكلام حيث يقصر السهام، الآمال ممدودة والانفاس معدودة، ومن كلامه يا أسفى على رداء من الايام رقيق ما لبسناه حتى خلعناه وروض من الزمان مريع ما حللناه حتى فارقناه .

قلت لم أسمع فى رقة العيش ألطف من قول الشيخ شمس الدين بن الصائغ الحنفى رحمه الله تعالى:

لست انسى رقة العيش الذى زاد فى الرقة حتى انقطعا

رجع ابو نصر بن ابى يزيد الراضى قال فى امتهانه لبعض الاعداء ما عسى ان يبلغ عض النملة ولسع النحلة ووقوع البقة على النخلة ومن كلامه الهدية تردُّ بلاء الدنيا والصدقة ترد بلاء الآخرة ،ابو اسحاق ابراهيم بن حمزة وزير ابى على السمجورى قال ينبغى للاصاغر أن يتقدموا على الاكابر فى ثلاثة مواطن اذا ساروا ليلا واذا خاضوا سيلا أو لقوا خيلا، ابو الحسن الاهوازى العدل أقوى جيش والامن أهنى عيش الاحن حصد المحن، عبد الله بن يحيى بن خاقان كان يقول اذا دهانا أمر تمثلناه فى أصعب حالاته فما نقص منه كان سرورا يتعجله، نقلت من تاريخ الصاحب كمال الدين بن العديم وهو تاريخه الكبير المسمى بغية الطلب فى تاريخ مدينة حلب بسنده الى يحيى بن خاقان قال حضرت الحسن بن سهل وقد جاءه رجل يستشفع به فى حاجة فقضاها فأقبل الرجل يشكره فقال له الحسن بن سهل علامَ تشكرنا ونحن نرى ان للجاه زكاة كما أن للمال زكاة ثم أنشأ يقول:

فرضت علىّ زكاة ما ملكت يدى	وزكاة جاهى أن أعين وأنفعا
فاذا ملكت فجد فان لم تستطع	فاجهد بفضلك كله ان تشفعا

الصاحب عون الدين يحيى بن هبيرة وزير المستنجد صاحب كتاب الافصاح حكى عنه انه لما أدركته الوفاة أغمى عليه ثم أفاق فوجد أهله يبكون فقال ما شأنكم فقالوا بكينا لكونك خدمت الملوك والخلفاء فقال مذ دخلت فى عمل السلطان الى يومى هذا ما خجلت أحدا من خلق الله وأرجو من كرم الله تعالى انه لا يخجل هذه الشيبة.

فصل فى لطائف هذا الباب، قال بعض الفضلاء:

غزال قد غزا قلبى	بالحاظ واحداق
له الثلثان من قلبى	وثلثا ثلثه الباقى
وثلثا ثلث ما يبقى	وثلث الثلث للساقى
وتبقى أسهم ست	تقسم بين عشاق

هذا الشاعر قسم قلبه الى أحد وثمانين سهما جعل لمحبوبه منها الثلثين وذلك أربع وخمسون سهما يبقى الثلث وهو سبع وعشرون زاده ثلثيه وذلك ثمانية عشر فصار له اثنان وسبعون يبقى ثلث الثلث وهو تسعة زاده منها ثلثى ثلثها وهو اثنان بقى من الثلث واحد أعطاه للساقى بقى من التسعة ستة قسمها بين العشاق فحصل لمحبوبه أربعة وسبعون سهما وللساقى سهم وللعشاق ستة الجميع احد وثمانون.

وقال ابو عبد الله محمد بن جابر المغربى نزيل حلب المحروسة:

قسم القلب فى الغرام بلحظ يضرب القلب حين يرسل سهمه
هذه فى هواه يا قوم حالى ضاع قلبى ما بين ضرب وقسمه

وقال شيخنا عز الدين الموصلى:

نسبة قلبى للهوى قسمت فكرى وكم للعين من ضربه
ضاع حسابى ولقيت الاسى بالضرب والقسمة والنسبه

وقال الصلاح الصفدى:

عملت مع الزمان حساب بعدى وسقت الاصل من يومٍ الفراق
وكنت أظننى غلقت قسطى فقد طلعت علىٍّ له بواقى

وانشدنى فخر الدين بن مكانس لنفسه مضمنا:

عملت مالى ارتفاع سقته غلظ الحاصل راح فى مضمونه مالى
وكلما نلت من عِزم ومن نكد من غفلتى ونوالى سوء أعمالى

وأنشدنى من لفظه لنفسه فى نكبة حصلت له وأجاد:

وما تعلقت فى السرياق منتكسا لجرمة أوجبت تعذيب ناسوتى
لكننى مذ نفثت السحر من كلمى عذبت تعذيب هاروت وماروت

وقال المعمارى:

ولى رفيق جمهول خالى من الآداب
أقول لما أراه فى جملة الكتاب
سبحان رازق هذا رزقا بغير حساب

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

لفلان فى الديوان صورة حاضر وكأنه من جملة الغياب
لم يدر ما نحرومه وجريده سبحان رازقه بغير حساب

وأنشدنى الشيخ المحدِّث لفصيح البارع الرحال غرس الدين خليل الافقهسى لابن حربى المغربى:

يا ناصبا علم الحساب حبالة لقناص ظبى ساحر الالباب
ان كنت ترزق بالحساب وصاله فالله يرزقنا بغير حساب

وما أظرف قول حسام الدين الحاجرى:

صح حساب السحر من طرفه ... اذ كان فى جفنيه جمع الكسور

وقال ابراهيم المعمار ولطف:

ومليح قال صفنى ... لازداد سرورا
كم حوى جفنى معنى ... قلت ألفا وكسورا

وقال التقى السروجى

خدمت بذاك الوجه للشفر ناظرا ... لعلى أمسى واليا من ولاته
وأصل حسابى ضبط حاصل وصله ... وتقبيله مستخرج من جهاته

وقال برهان الدين القيراطى:

خدمت بالاغرال أبوابه ... لما تبدى حسنه الباهر
ولى من الدمع على خدمتى ... جراية أطلقها الناظر

وقال ابراهيم المعمار:

لمولانا الوزير ندى بأس ... واحسان به سمحت حياتى
فيرضينا بألفاظ وكذب ... محالات على كل الجهات

وظرف ابن الوردى فى قوله:

وكنت اذا رأيت ولو عجوزا ... تبادر بالقيام على الحراره
فأضحى لا يقوم لبدر تمٍّ ... كأن النحس قد أعطى الوزاره

الباب السابع والثلاثون
فى كتاب الانشاء وهو فصلان

الفصل الأول: فيما يحتاج إليه كاتب الانشاء من الاخلاق والادوات والآلات.

الفصل الثانى: فى أعيان كتاب الانشاء قديما وحديثا ونبذة مما لهم من المكاتبات.

الفصل الأول: قال أبو حيان التوحيدى يجب على الكاتب أن يكون حافظا لكتاب الله تعالى لينتزع من آياته وأن يعرف كثيرًا من السنة والاخبار والسير حافظا لكثير من الرسائل والكتب وأن يكون متناسب الالفاظ متشاكل المعانى متشابه الخط ذكيا عارفا بما يحتاج إليه خبيرا بالحلى والشيات مضطلعا لعب الكتابة له يد فى السواد وعمل فى الحساب وأن يكون له يد فى عمل الشعر نظيف الثوب لطيف المركب ظريف الغلام لقيق الدواة حاد السكين صقيل الكاغد صلب الاقلام متوددا إلى الناس مخالطهم غير متكبر عليهم ولا منقبض منهم دمث الاخلاق رقيق الحواشى ترف الاطراف عذب النجايا حسن المحاضرة مليح النادرة غير قنف ولا متعجرف ولا متكلف للالفاظ الغريبة ولا متعسفا للغة الغويصة. انتهى كلام أبى حيان. وقال أبو الحسين محمد بن أحمد أظنه قدامة منزلة الكاتب التى يستحق بها أن يكون كاتبا فى قوله وفعله ومحاورتة وفطنته وحجاجه وأن يكون مطبوعا على المعرفة محنكا بالتجربة عالما بحلال الكتاب والسنة وحرامهما ومتشابههما وناسخهما ومنسوخهما وبالازمنة والادوار فى اختلافها وتعاقبها وبالملوك فى سيرها واقدارها وبالخطوط وانسابها واقلامها فى تصاريفه وجهاتها وبوادى الكلام ومقاطيعه فى فواتح الوصف وخواتم الوقف وفصول التمام ورسوم الكتب واقدار الرجال وتأليف الاوصاف ومشاكلة الاستعارة واثبات المعنى بشكله من القول والعلم بالنظائر والاشباه والتثبت بالشواهد والامثال حتى ينصب البيان أشخاصا ماثلة ويقيم للقول صورا ناطقة تنبئ عن أحوالها وتدل على منازلها مع التخلق باخلاق الدين والتحلى بحلية الكرم واثبات محاسن الامور والاحمال فى الصبر والطلاقة ولبسة اللب والوفاء واجتناب الدنانا والنقائص فى الشره والارتشاء والقلق والضجر والسخفة والسفه.

عباس ﷺ فى قوله تعالى ﴿إنى ألقى إلىَّ كتاب كريم﴾[1] قال مختوم وفض الكتاب إذا كسر ختمه ومعنى الفض فى اللغة التفريق والكسر ومنه لا يفضض الله فاك.

العنوان فيه خمس لغات أفصحها عنوان ويقال علوان وعينان وعنيان وجمع عنوان عناوين وجمع علوان علاوين والعنوان الاثر وهو أثر الكتاب ممن هو والى من هو صحوا باشمط عنوان السجود به والقلم لا يقال له قلم الا إذا برى وإلا فهو أنبوبة.

ومن أحسن ما قيل فيه قول السيد الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفق الدبن على بن الآمدى نقلته كذا من خط الوداعى:

تمشى البراعة والمداد وراها ... ظل على شمس الطروس ينوع
عوض المعانى لو يلوح لملم ... هذا المعانى راح وهو صريع
لو لم تكن ألفاظه خطية ... ما راح سرب اللفظ وهو منيع
ألفاظه رقت بوجنة طرسه ... فكأنهن وقد جرين دموع
قلم مسحىّ الخطاب لنطقه ... فى المهد من يمناه وهو رضيع
وغدا كليما وقد ضاهى العصا ... فغدا يروق بفعله ويروع
باللفظ حاكته الشموس وبالضيا ... حاكته فى حال المداد شموع
قد لازم القرطاس وهو منور ... والطل يهوى الروض وهو مريع
نور ونور حظه وكلامه ... هذا يضىء به وذاك يضوع

وله أيضا رحمه الله تعالى:

ليمناه ذو طرف كحيل اذا بكى ... تبسم ثغر الخط من دمعه عجبا
وقد راح مشقوق اللسان منى جرى ... بثغر الدوى اللعس أبدى اللما عذبا
وآوته فى سنه سمّ أرقم ... إذا ما ثنى فى الرقم من حمده جنبا
فطورا خطيب والسواد شعاره ... إذا ما علا اعواد كف جلا خطبا
ويحقر فعل الخط بين كتائب ... تلاقت إذا ما خط فى يدك الكتبا
حكى السمر قد احيت للبيض خده ... فطاعن به إن شئت واضرب به ضربا

وقال الشيخ الإمام مجد الدين الروذرا وروى عبد الحميد بن أبى الفرج الهمدانى الفقيه الشاعر المفنن مولده سنة تسع وتسعين وخمسمائة وتوفى بدمشق سنة سبع وستين

---

(١) الآية: ٢٩ من سورة النمل.

وستمائة من نظمه فى وصف القلم من قصيدة مدح بها الوزير القمى مؤيد الدين وزير الدولتين الناصر والمستنصر كذا نقلته من خط محيى الدين بن عبد الظاهر من كتابه المسمى بالنجوم الدرية فى الشعراء العصرية:

لك من نبات الماء أصفر للعدا ... من رأسه المسود موت أحمر
خجل القنا من فعله حتى غدا ... مثل النساء يرى عليه المعجر
يصفونه ورد العلا وورده ... أبدا كعيش الحاسدين مكدر
ظلمات نفس خاضها بروية ... من ماء الحياة كأنه الاسكندر
متقيد يعدو وينطق ساكتا ... متحكم فى الدهر وهو مسخر
يا راكعًا لبس السواد وساجدا ... يتلو بنى العباس وهو مزئر
قد خر رأسك واللسان لبثه ... سر العلا وأسود منك المنظر
هب أن جسمك من جواك نحوله ... أو أن لونك للنحافة أصفر
مركوبك البحر الجواد وما له ... من كبوة تلفى لماذا تعثر

وأنشدنى من لفظه لنفسه سيدى وأخى تقى الدين بن حجة الحموى:

له يراع سعيد فى تقلبه ... ان خط خطا أطاعته المقادير
محبر وبتحرير العلوم إذا ... جرى يرى منه تحرير وتحبير
غصن عليه طيور العلم عاكفة ... وجانس النور من أوراقه النور
واشقر يده البيضاء غرته ... له إلى الرزق فوق الطرس تبيير
بل اسمر عينه السوداء تلحظنا ... وهدب أجفانها تلك التشاعير
أو سهم علم باطراف السطور غدا ... مريشا وله فى الفضل تأثير
كذا محابره سود العيون فإن ... دانت أياديه قلنا الاعين الحور

ومن وقف على رسالة السيف والقلم للشيخ جمال الدين بن نباتة رأى من هذه المعانى العجائب ولولا اطالتها لاثبتها فى هذا الباب ولقد ظرف إلى الغاية شمس الدين الواسطى حيث قال:

ما زال بقلبه لهيب النار ... إذا صير جسمه خيالا سارى
الله بقلبه فما يعلم ما ... قاساه الواسطى الا البارى

وأنشدنى أخى تقى الدين بن حجة الحموى يصف سكينا أهداها له بعض الاصحاب

وقال محمد بن أيوب بن سليمان عميد الرؤساء وأبو طالب وزير للقائم حال كونه أولى عهد كان مترسلا بليغا متفننا صنف كتابا فى الخارج وهو القائل الكتاب سبعة.

أولهم الكامل الذى ينشئ ويملى ويكتب.

الثانى الاعزل وهو الذى ينشئ ويملى وخطه ردىء.

الثالث المبهم الذى يكتب خطا مليحا ولا يد له فى الانشاء.

الرابع الرقاعى يجيد رقعة يكتبها ولا حظ له فى التطويل.

الخامس المختل وهو الذى له حفظ ورواية ويعجز عن الانشاء فهذا نديم.

السادس المخلط وهو الذى يأتى بالدرة والبعرة ويقرن بينهما.

السابع السكيت شبه بالمتأخر فى الجلية فربما جهد نفسه وأتى بمعنى، توفى سنة ثمان وأربعين وستمائة، وقال الشيخ الإمام سيد كتاب الانشاء شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فضل الله العمرى فى كتابه الذى سماه مسالك الابصار فى ممالك الامصار أن كتابة الانشاء كانت فى المشرق خلافة فى بنى العباس منوطة بالقدماء وربما انفرد بها رجل وذكر ابن عبدوس فى مواضع من كتابه من ديوان السر وديوان الترسل ثم كانت آخر وقت افردت واستقل بها كتاب لم يبلغوا مبلغ الوزارة وكان فى المشرق يسمى كاتب الانشاء ثم لما كثر عددهم سمى رئيسهم رئيس ديوان الانشاء ثم بقى يطلق عليه تارة صاحب ديوان الانشاء وتارة كاتب السر وهى إلىّ الاحب وعند ابنه وعند الناس أذل وكان فى دول السلاجقة وملوك الشرق يسمى ديوان الطغراوية وبه سمى مؤيد الدين الطغراى والطغراء هى الطرة وهى التى تكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ تتضمن القاب الملك وهى لفظة أعجمية وكانت تقوم مقام خط السلطان بيده على المناشير والكتب ويستغنى بذلك عن أن يكون للسلطان علامة بخطه لكثرة وثوق الناس بصاحب هذه الرتبة وأهل المغرب يسمون رئيس ديوان الانشاء صاحبَ القلم الاعلى وأهل هذه الرتبة لم يزل لهم الاختصاص والقرب أكثر من كل عام وخاص تحتاج الامراء إلى مداراتهم وتقصر الوزراء مع علوّ الرتبة فى الوزارة عن مباراتهم يجتمعون بالملك إذا أرادوا على عدد الانفاس وهم معنى الدولة وعليهم عولة كل الناس وما كانت الملوك تكاتب الخلفاء ببغداد الا على هذا الديوان أعنى ديوان الانشاء وكانت تسميه الديوان العزيز ولهذا كانت كتبتهم تستفتح أدام الله أيام الديوان العزيز اشارة إلى ديوان الانشاء وعليه كان يطلق هذا الاسم وله بهذا من الشرق ما له ومن الفخر ما يجر

على السماء أذياله انتهى كلام القاضى شهاب الدين، وذكر الثعالبى فى كتابه لطائف المعارف أن ادريس عليه السلام أول من خط بالقلم وكان يوسف عليه السلام يكتب لعزيز مصر وكان هرون ويوشع يكتبان لموسى عليهما السلام وكان سليمان يكتب لابيه داود عليهما السلام وكان آصف يكتب لسليمان عليه السلام، وروى أن النبى ﷺ استكتب عبد الله بن الارقم وكان يجيب عنه للملوك واستكتب أيضا زيد بن ثابت وكان يكتب الوحى ويكتب الملوك وكان إذا غاب عبد الله بن الارقم وزيد بن ثابت واحتاج أن يكتب إلى أمراء الاجناد والملوك أو يكتب لانسان بقطيعة أمر من حضر أن يكتب وكتب له عمر وعثمان وعلى والمغيرة بن شعبة ومعاوية بن أبى سفيان وخالد بن سعيد بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبى سرح وحنظلة بن الربيع.

آداب الكتابة روى عن الشعبى أنه قال كتب النبى ﷺ أربعة كتب أولها باسمك الله ونزلت سورة هود وفيها ﴿بسم الله مجراها ومرساها﴾[1] فكتب بسم الله ثم نزلت سورة بنى اسرائيل وفيها ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾[2] فكتب بسم الله الرحمن ثم نزلت سورة النمل وفيها ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾[3] فكتبها، وروى)أن فصل الخطاب الذى أعطى داود أما بعد وروى أن أول من قالها كعب بن لؤى وهو أول من سمى يوم الجمعة وكان زيد بن ثابت يكره أن يكتب بسم الله ليس لها سين وكان إذا رآها بغير سين محاها وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ضرب عمرو بن العاص لما كتب إليه بغير سين وقيل له فيما ضربك فقال ضربنى فى سين وعن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ أنه قال إذا كتب أحدكم فليتربه فإن التراب مبارك وهو أنجح للحاجة وروى عنه ﷺ أنه كتب كتابين إلى قريتين فاترب أحدهما ولم يترب الآخر فأسلمت القرية التى أترب كتابها وقال الحسن بن وهب كاتب رئيسك بما يستحق ومن دونك بما يستوجب وكاتب صديقك كما تكاتب حبيبك فإن غزل المودة أرق من غزل الصبابة قال الوداعى فى تذكرته إن القاضى تاج الدين ابن بنت الاعز رحمه الله كان إذا كتب كتابا بدأ فى ترميله بالبسملة لتعم بركتها سائر الكتاب وإنه يخزن ذلك الرمل ويحتفظ به ولا يرميه فى الأرض وقال بزرجمهر من لم يختم كتابه فقد استخلق صاحبه وإذا كتبت فاعد النظر فيه فإنما تختم على عقلك وعن عبد الله بن

---

(١) الآية: ٤١ من سورة هود.

(٢) الآية: ١١٠ من سورة الإسراء.

(٣) الآية: ٣٠ من سورة النمل.

وهو سكين قطع الملوك بها أوصال الجفا وأضافها إلى الادوية فحصل بها البرء والشفاء وتالله ما خابت الا وبلغت الاقلام من تغييرها إلى الجفا أنها لسان كل عنوان ما شاهدها موسى الا وسجد فى محراب النصاب وذل بعدما خضعت له الرءوس والرقاب ان هجعت بجفنها كانت أمضى من الطيف وكم لها من خاصية جازت بها على حد السيف تنسى بحلاوة المال ولا يظهر لطوله طائل وتغنى عن آلة الحرب بايقاع ضربها الداخل كم مرت بشكلها المحلى فتركت المعادن عاطلة ولم يكن للحديد فى هذه الواقعة مجادلة فلو لمحها الفاضل لتحقق أن خاطر سكينه كل أو شاهدها ابن نباتة لما أقر برسالة السيف وقل إلى أن دخلت إلى القراب كانت قد سبكت على الدخول أو ابرزت من غيمه كان على طلعتها الهلالية قبول كم أيقظت طرف القلم بعدما خط وعلى الحقيقة ما رأى مثلها قط ما اسفر صبح نصلها فى ليل نصابها الذى دجا الا تغزلت وقلت ما أحسن طرة الصبح من تحت أذيال الدجى تطرف باشعتها الباهرة عين الشمس وباقامتها الحد حافظت الاقلام على مواظبة الخمس وكم لها من عجائب تركت جدول السيف فى بحر غمده غريق ولو سمع بها من قبل ضربه لما حمد التطريق لا زالت صدقات مهديها تحف بما يذبح نحر فقرى وتأتى فى كل حين بما يشفى من داء الفقر ويبرى بمنه وكرمه.

كتب مولانا محمد بدر الدين الدماميني إلى المرحوم أمين الدين صاحب ديوان الانشاء بالشام ملغزا فى دواة:

كتبت وأعذارى اليك تقرر	ونطقى بها يا كاتب السر يجهر
أتتك أبيات المعانى فرضتها	وحكت حبير اللفظ فهو محرر
وحليت أهل الفضل إذ كنت خاتما	لهم فعليك الآن يعقد خنصر
وما أنت الا البحر جاش عبابه	ولكن رأينا منك حلما يجسر
فما كلمة أفديك دام اعتلالها	وفيها دواء إن اعتراها تغير
ويحفظها ذو السر وهى التى وشت	وذلك من عادتها ليس ينكر
وما مسها الا وجاب بنفسها	وصحف تر المقصود بالنفس يظهر
وتحمل سمر الخط رايات ملكها	على الرأس عباسية حين تخطر
كحيلة طرف تعشق العين شكلها	ويحسن مرآها إذا ما تحبر
مؤنثة كم ذكرتنا بلونها	عهود الصبى والشىء بالشىء يذكر
إذا هجرت يبدو المشيب برأسها	وفى الوصل تذرى أدمعا تتحدر

وكم قد أرانا ريقها من مسلسل يلذ به في الذوق ورد ومصدر
وكم لاقت الاحبار منها محاسنا فغادت لها الجهال بالعى تحصر
مسودّة ان ترض فالعيش أخضر وإن سخطت فالموت لا شك أحمر
ويعذب للسمر الرقاق رضابها فتنهل منه موردا لا يكدر
لقد أحكمت والنسح .ا زال دأبها بذلك قد جاء الكتاب المسطر
وما هى الا ذات متربة غدت وكم ذا غنى عن قصدها ليس يفتر
اذا امتدت الراحات وهى مشيرة إلى نحوها أمست على المد تقصر
ولسنا نراها غير سائلة ولم نفه بسؤال فاعترانا التحير
فانعم بحل اللغز يا خير منعم فأنت به والله أجدى وأجدر
ولا زالت الاقلام تسعى لشكركم على رأسها طول المدى لا تقصر

فكتب الجواب إليه بعد أيام:

مواقع أقلام لها الفضل ينشر وروضة آداب لها القلب يجبر
تحرر معنى حسنها نسج وحدة فيا حبذا الاسكندرى المحرر
يطول على الافهام شقة شاوها فكل بليغ عن مداها يقصر
أتت سهلة الالفاظ ممنوعة الذرى حماها من العلياء لا يتسور
تشير إلى الحبلى التى عز وضعها فاحشاؤها فيها الاجنة تقبر
ينامون لا تغشاهم سنة الكرى فإن هب فرد ظل يسعى ويحصر
وإن أرشفته من سلاف رضابها تهادى به نشوان يمشى ويعثر
وأما إذا اعتموا السواد فكلهم خطيب له فوق الانامل منبر
يسيل دموعا فى مجال سجوده فيخضل من رياه روض محبر
وينطق عن علم وطول نباهة وعما أراه فى الانام يعبر
يطاول سمر الخط أنى تشامخت سمّوا ومع هذا على الطول يقصر
وكل بنى الاداب تلقى بيوتهم تقام به بين الانام وتعمر
واكرم بما قد ولدته وأنشأت وربت ويكفيها بذلك مفخر
نجية فكر ان جلست ووجهها تجاهى وجاهى عندها ليس يحقر
وقد فتحت فاها فقالت وقصرت فأما استقالت فهى فى ذاك تعذر
فلا زلتم أهل الكمال وجبركم لذى النقص مثلى منه حظ موفر
بمدحكم الاقلام يضحك سنها بحق وأفواه الدوى تعطر

قال) بعض الفضلاء إذا أردت أن تضمن كتابا سرا فخذ لبنا حليبا واكتب به فى القرطاس فإذا أراد قراءته المكتوب إليه فليذر عليه رماد القراطيس سخنا فإنه يظهر ما كتب وإن شئت كتبت بماء الزاج الابيض فإذا وصل إلى المكاتب فليمر عليه شيئا من ماء العفص وإن شئت بالعكس وإن شئت أن يقرأ ليلا ولا يقرأ نهارا فاكتبه بمرارة السلحفاء.

قال الشيخ شهاب الدين بن العطار فيما يكتب على الدواة:

انا دواة يضحك الجود من بكاء ... يراعى جل من قد براه
دلوا على جودى من شفه ... دا من الفقر فانى دواه

وأنشدنى شمس الدين الجرائحى لنفسه:

أنا دواة كبحر جود ... فى الفضل قل للسخى عنى
فلو غدا كفه سحابا ... عند العطا يستمد منى

وقال ضياء الدين المناوى يصف حبرا:

وعندى حبر ودّت العين لونه ... سوادا وترضاه الحسان خضابا
غدا سائلا من فرط سقم ورقة ... وأصبح للسمر الرقاق رضابا
كأنى لما بت أشكو صبابتى ... إلى الليل بالاشواق رق وذابا

وكتب الشيخ برهان الدين القيراطى صحبة حبر أهداه:

ليراعكم أهديت انسان النظر ... وشباب طرس شاب من فرط الكبر
أرسلته عبدا دعوه عنبرا ... إذا فاح طيب نشره بين البشر
أقلامه أخذنه حال كتابة ... سبحا وألقته على طرس درر
ويودّ مرسله إلى أبوابكم ... لو زاد فيه سواد قلب أو بصر
ليل وإن أبدى لنا ألفاظكم ... فى صبح طرس أبيض قالوا سحر

وأنشدنى المرحوم فخر الدين بن مكانس:

لداود الرئيس الحبر فضل ... وأنس عم ابناء الوجود
أتانا منه حبر فابتهلنا ... وقلنا نعم أحبار اليهود

وقال ابن الوردى فيمن انقلب حبر على ثوبه:

انقلب الحبر على ... ثوبك فأبشرت بالارب
فحبر كل كاتب ... ربح اذا هو انقلب

وأنشدنى القاضى أمين الدين محمد الانصارى صاحب ديوان الانشاء بالشام لنفسه فى لوح الموقعين المرصد للصاق الاوصال على لسانه:

قطعــونى وكنت منبر ســجع طال ما فى الرياض أسبغت ظلا
فبكــرى جبرت بين الموالى ويقطعى جـعلت للوصل أهلا

وفيها له أيضا:

طرحــــوها كــــأنهم ليس يدرون فــــضلهــــا
وهى من أصل دوحــــة أســــبغ الله ظلهــــا

ابن نباتة وكتبها على مرملة:

عـملت لمن جـود اقـلامـه ربيع ومـنطقـــــه بارع
اذا طلـع الخط رملتــــه فـيـا حــبـذ الرمل والطالع

وقال السيد الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفق الدين على بن الآمدى مجاوبا لمن كاتبه فى ورقة رزقا:

أرسلت زهر الروضــة الغناء فى مـثلها من رقـعـة رزقـاء
فكأنمـا هى من أديم سـمـائنا قـدت وفـيهـا أنجم الجـوزاء
رزق جلا درر القريض بحسنه كـالوسم يحلو مـبسم اللميـاء
أو مثل منعطف الخليج وقد صفا فـتـمـثلت أزهاره فى المـاء

ولــه:

أنت أرسلت بالكتـاب سمـا تبرز الشهب قبل وقت الزوال
فـيـه كل نقطة مـثل نجم وبه كل جـزمــة كـهـلال

ولــه:

كلمات لضحكها قد بكى الدر وهل منكر بكا اليـتـيم
حسد المسك نفسه فغدا اسـود ذا زفـرة بخـد لطيم

ولــه:

وذى مقول يخفى الكلام فإن رقى إلى اذن قرطاس ففيها يحدث
عقـود بلا سلك يـحـر طروسه ولا عقـد فى سجره وهو ينفث

وقــال:

جادت رياض الطرس سحب يراعه لما صدرن من النهى عن أبحر
فكـت غصون طروسه ورقابها أكمـام لفظ بالمعانى مثمر

وقال أبو الفتح محمد بن قادوس الدمياطى:

مـــداده فـى الطـرس لمـــا بدا قـــبلـه الطـرس ومـــر يزهـد
كـأنمــا قـد حل فـيــه اللمــا وذاب فـيــه الـحـجـر الاسـود

الفصل الثانى: فى أعيان كتاب الانشاء قديما وحديثا ونبذة مما لهم من المكاتبات، عبد الحميد بن يحيى كان يقول لو كان الوحى ينزل على أحد بعد الانبياء لنزل على بلغاء الكتاب وذكر البلاغة فقال هى ما رضيته الخاصة وفهمته العامة، اسماعيل بن صبيح، كاتب الرشيد لم يسمع فى الجمع بين الشكر والاستزارة أحسن وأوجز مما كتب به إلى يحى بن خالد فى شكر ما تقدم من احسانك شاغل عن استبطاء ما تأخر منه، عمرو بن مسعدة، كاتب المأمون وكان يقول قليل دائم خير من كثير منقطع وكتب إلى المأمون كتابى هذا وفى قبلى من أجناد أمير المؤمنين وقواده فى الطاعة والانقياد على أحسن ما يكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت أحوالهم فقال المأمون لاحمد بن يوسف لله در عمرو ما أبلغه ألا ترى إلى ادماجه المسألة فى الاجناد واعفائه سلطانه من الاكثار، إبراهيم ابن العباس الصولى، كاتب المستعصم والواثق والمتوكل كان يقول المنصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل فيه من منشئه، الحسن بن وهب، سئل عن ميته فقال سريت البارحة على عقد الثريا ونطاق الجوزاء فلما تنبه الصبح نمت ولم أستيقظ الا بلبس قبص الشمس ومدح صديقًا له فقال خلق كما يشتهى إخوانه ووصف مغنيا فقال كأنه خلق من كل قلب فهو يغنى بكل ما يشتهيه ،أحمد بن سليمان، أحسن الكلام ما لا تمجه الآذان ولا تتعب فيه الاذهان، بديع الزمان الهمدانى، من انشائه الحمد لله الذى بيض القار وسماه الوقار وعسى الله أن يغسل الفؤاد كما غسل السواد، وله)قد يوحش اللفظ وكله ود ويكره الشىء وليس منه بد هذه العرب تقول لا ابا لك ولا يقصدون الذم وويل أمه للامر إذا أهم وسبيل أولى الألباب فى هذا الباب أن ينظر فى القول إلى قائله فإن كان وليا فهو المولى وإن كان خشن وإن كان عدوا فهو المبلى وإن حسن من إنشاء أبى القاسم على بن الحسين المعروف بالمغربى، ووصلت الرقعة فاستجفيت النسيم العذب بالاضافة إلى لطافتها واستثقلت محل عقود اللؤلؤ بالقياس إلى خفة موقعها، وله وكتب هذه الاحرف وقد أظل البلاد ثلج ذكرنى قول الصنوبرى ورد الربيع مورد مبيض والورد فى كانون أبيض الا أنه انتقل إلى ضد طباعه معى واستأنس إلى عكس خلقه فإنه مع برده أحدث لى شوقا إلى سيدنا ألهب جوانحي وصبابة

نحوه أضرمت جوارحي حتى عاد بياضه فى عينى سواد التذكرة وسقياه ظمأ برحا قلبى بتصوره على أن قلبى مزحوم من جهته مما يزدحم ثيه من كآبة جفائه وصبابة بعده ونائه، وله)وعرفت فى هواجس الفكر ووسواس الذكر حتى نسيتكم من شدة المذكر ولقيتكم من حدة التصور وحتى عدت كأنى أجد فى فمى عبقا من تقبيل ذلك الوجه الناضر وفى عينى لمعا من سناء ذلك الجمال الباهر والله تعالى اسأل ان يسقط بيننا فى تشاكى ألم الفراق اسناد القلم بمشافهة الفم للفم، القاسم الحريرى، قال الشيخ صلاح الدين الصفدى فى كتابه نصرة الثائر على المثل السائر سمعت الشيخ شهاب الدين محمود حين قرأت المقامات عليه يحكى عن القاضى الفاضل أنه أراد معارضتها ووضع ثلاث عشرة مقامة عارض كل فصل فيها بمثله حتى جاء إلى قوله أعنى الحريرى فى المقامة الثالثة عشرة اعلموا يا مآل الامل وثمال الأرامل أنى من سروات القبائل وسريات العقائل لم يزل أهلى وبعلى يحلون الصدر ويسيرون القلب ويمطون الظهر ويولون اليد فلما أردى الدهر الاعضاد وفجع بالجوارح الاكباد وانقلب ظهر البطن نبأ الناظر وجفا الحاجب وذهبت العين وفقدت الراحة وصلد الزند ووهنت اليمين وضاع اليسار وبانت المرافق ولم يبق لنا ثنية ولا ناب فمذ اغبر العيش الاخضر وازورّ المحبوب الاصفر اسود يومى الابيض وابيض فؤادى الاسود حتى رثى لى العدو الارزق فحبذا الموت الاحمر فقال القاضى الفاضل من أين يأتى الانسان بفصل يعارض هذا ثم أنه قطع ما عمله من المقامات ولم يظهرها أو كما قال وناهيك بمن يقول مثل القاضى الفاضل فى حقه مثل هذا ويعترف له بالعجز وأما أنا فكلما قرأت هذا الفصل أجد له نشوة ولا نشوة الراح وبهجة ولا بهجة السارى بضوء الصباح، أبو الحسن بن بسام عارض إذا سمع استوسلت البحار ونجم إذا طلع تضالت الشموس والاقمار وسائق لا يمسح وجهه الا بهيادب الغيوم وصارم لا يحلى غمده الا بافراد النجوم، القاضى السعيد، هبة الله بن سنا الملك وإن للشوق بحرا وقلبه والله الغريق بأمواجه وجرا وصدره المظلم بسراجه وأقل بد للهموم عنده أنها حلته فى عنفوان الشباب بحلية الاشيب وجعلته سادجا من الشعر الاسود وإن كان فى وسط العمر المذهب كما قال أبو عبادة ذهبية الصبوات من أعوامه، وله فالاسلام من طلقاته والكفر مجاهد ولكن باتقائه وسيوفه تحسن فى الاجسام البسط وفى الارواح القبض ورماحه تكاد لطولها تمسك السماء أن تقع على الارض، وله لا جمع الله عليك المصيبتين فراق الاحباب وفراق الثواب ورزقك من الاعانة على ما تعانيه ما

خضن عنك إلى أن تحلعه علىّ وترسله إلىّ، وله وازهد فى دنيا تنبت الحمام وتحصد الاجسام وتقصف أغصان الاشباح وتقطف ازهار الارواح واذهل عن الذهول وأحسن ضيافة النصح بالقبول.

واذا رأيت جنازة محمولة ... فاعلم بأنك بعدها محمول

وكيف لا يحمل المملوك تلك الاشواق وهى تقربه من المولى بالتخيل إذا أبعدته الايام ويمثل له المقام الكريم فيقابله كل ساعة بالسجود ويشافهه بالسلام ويرفع ناظره فلولا نظرة إليه لكانت عينه مطرقة وستور أهدابه مسبلة وأبواب جفونه مغلقة ولولا اشتغالها بمطالعة طلعته لالتهبت من دموعها بمياه محرقة فهو منها فى نار وجنة مغلول بغله مطوق بمنه، وله ولقد أنساه فراق المولى حروف المعجم فما يعرف منها حرفا وعاقب خاطره الذى كفر بالبلادة فأسقط عليه من سمائه كسفا شوقا ما خطر مثله على قلب بشر ودمع ما مرّ على بصر إلا ومرّ بالبصر ولسان لا ينفك من الدعاء على يوم الفراق ومن دعاء على ظالمه فقد انتصر ضياء الدين بن الاثير الجزَرى ودولته هى الضاحكة وإن كان نسبها إلى العباس وهى خير دولة أخرجت للدهر ورعاياها خير أمة أخرجت للناس ولم يجعل شعارها من لون الشباب الا تفاؤلا بأنها لا تهزم وانها لا تزال محبوة من أبكار السعادة بالوصل الذى لا يضرم، وله يصف بناء مرتفعا إذا أضرم برأسه قبس ظنه المتأمل نجما وإذا استدار عليه قوس السماء كان فى كبده سهما، وله فى القلم فهو الملقب بالجواد المضمر وإذا أخذت السوابق فى احضارها بلغ الغاية وما أحضر وله لون يحقق فيه القول النبوى لو جمعت الخيل فى صعيد واحد لسبقها أشقر فإن الاشواق عن الحمام خليفة وإذا كانت حركة الفلك شوقية فما الظن بالقلوب الضعيفة، القاضى)محيى الدين بن عبد الظاهر يصف بطيخا حلبيا أهدى إليه فشاهد اهابه وكأنما جمع من زهر الاقاح وكأن كل واحد منه قنديل وعروقه فتيلة الاصباح وكأن كبراه بطن خميص من له من مجموع اللب حنين وكأن صفراه رأس كم منها ان فصلت جبين يقسم كل رأس منه رئيس من الاناسى وقصر أيمانه فى الاستحسان عليه فما يقول الا وحق راسى، ومن انشائه نعلمه بفتوحات استطعم الايمان حلاونها من أطراف المران واستنطق الاسلام عبارتها من ألسنة الخرصان ذلك بفتح حصن الاكراد الذى كان فى خلق البلاد الشامية عضه لم تسمع بمياه السيوف المجردة وشجن صدرها لم تقاومه أدوية العزائم المفردة طالما أكسب البلاد رعبا ورهبا وطالما استمارى من أخلاق الامصار حلبا،

ومن إنشائه بكتاب يأمر فيه بابطال الحشيش بعد الخمر بعلم أن المنكرات التى أمرنا أن تملأ الصحائف بأجرها ونفرغ الصحاف وأن لا يخلو بيت من بيوتها من كسر أو زحاف قد بلغنا الآن أنها اختضرت وأن كلمة الشيطان بالتعويض عنها قد نصرت وأن أم الخبائث ما عمقت والجماعة التى كانت ترضع ثدى الكأس قد أرتعت بعدما نطمت وإنها فى النشأة ماحيت ابليس مسعاها وإنها لما أخرج المنع عنها ماءها من الخمر أخرج لها من الحشيش مرعاها وإنها استراحت من الخمار واستغنت لما تشتريه بدرهم عما كانت تبتاعه من الخمر بدينار وإن ذلك فشا فى كثير من الناس وعرف فى عيونهم ما يعرف من الاحمرار فى الكأس وصاروا كأنهم خشب مسندة سكرى وإذا مشوا يقدمون لفساد أذهانهم رجلا ويؤخرون أخرى ونحن نأمر أن تحتث أصولها وتقتلع ويؤدب غارسها حتى يحصد الندامة مما زرع وتطهر منها المساجد والجوامع ويشتهر مستعملها فى المحافل والمجامع حتى تنتبه العيون من هذا الوسن وحتى لا تشتهى بعدها خضرا ولا خضراء الدمن، ومن انشائه من كتاب إلى الفرنج وقد أخذت شوانى السلطان وخيولهم المركب ومراكبنا الخيول وفرق من يجريها كالبحار وبين من يقف به فى الوجول وبين من يتصيد بالصقور من الخيل العراب وبين من اذا افتخر قال تصيدت بغراب فلئن أخذتم لنا قرية مكسورة فكم أخذنا لكم قرية معمورة وقد قال الملك وقلنا والله أعلم أن قولنا هو الصحيح واتكلنا واتكل وأين من توكل على الله وسيفه ممن اتكل على الريح، ول وأما فلان فانه شمر الذيل وامتطى هربا أشهب الصباح وأحمر الشفق وأصفر الاصيل وأدهم الليل، وله فكم شاهدنا من تتلاهم كل مهيب الهامة حسن الوسامة قد فض الرمح فاه فقرع السن على الحقيقة ندامة، وله من منشور كتبه للامير جمال الدين المحمدى عند اخراجه من الاعتقال أوله الحمد لله الذى أظهر جمال الدين المحمدى، وله من منشور كتبه ليسرى عن السلطان المنصور وجرينا فى الاحسان إليه على القياس وإن كان من أكابر أصحاب الظاهر، ومن انشائه يقبل اليد التى لو تجسدت القبل فيها لنظمت سبحا ولو اثرت فيها كتأثير الوضوء كانت حجولا ووضحا ولا برحت القبل التى قبلتها ساجدة والأفواه إلى مسرعتها واردة حتى يقال والمباسم يقبلها أحباب فى حياض أم زهر فى رياض وبروق فى غمام أم درر فى بحر طام، ومن انشاء قوام الدين بن زيادة يهنئ الوزير البلدى، وأفاض عليه من صنوف تشريفاته خلعا خاع بها قلوب الاعادى من أعماق الصدور وطلع فيها من آفاق البدور كأنما أنشئت من

عيون عين الصريم وغزلانه أو غشيت بعصر الشباب وريعانه فألبسها من حلاء سربال الجلال وجرتها على المجرة أذيال الاختيال وقلده سيفا عقد النصر بلوائه وتعلم المضامن آرائه أهدى فى قلوب العدى من الاوجال لا ينصل نصله من خضاب القراب ولا يغمد الا فى قراب الرقاب وأمضاه صهوة صافن أسرع من تأدية الاسماع إلى الافهام وأوحى من مضاحكة البرق خلال سجف الغمام يسبق مطارح نظره بمواقع حافره ويهدى ظلال ظله بأهلة أثره بشكل رأيه فيه اذا تدرع فى شوطه واشتد أطرف ردىء أم طرف يرتد كأن بركة سهم وسنبكة وهم أو يحف بقوادم شهاب أو عنده علم من الكتاب ولاطفه بدواه وهى دوام العدم واداة النعم ومنبع الكرم ومرتع أرزاق الامم يستشف لآلئ الاداء من قرارها ويصفق أمواج الحكمة والبلاغة من أقطار ثنائها تكشف يراعا يردع كل روع ويتبع أمره كل متبوع قد حمل من اعباء الخلافة عظيما وحمى الاسد رضيعا والملك فطيما يصوب بكرم الغيوث الغوادى ويصول بقرم الليوث العوادى:

يمحو ويثبت أرزاق العباد بها فما المقادير الا ما محا ودحا

من انشاء الصدر عز الدين بن سينا من بشارة للديوان العزيز بكسر عساكر الفرنج من عكا عن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سنة اثنين وأربعين وستمائة، فلا روضة الا درع ولا جدول الا حسام ولا غمامة الا نفع ولا وبل الا سهام ولا مدامة الا دما ولا نغم الا صهيل ولا معربد الا قاتل ولا سكران الا قتيل حتى أنبت كافور الرمال شقيقا واستحال بلور الحصباء عقيقا وازدحمت الجنائب فى الفضا فجعلته مضيقا وضرب النقع فى السماء طريقا وعاد الفارس بالدماء عريقا:

وضاقت الارض حتى كاد ربهم اذا رأى غير شىء ظنه رجلا

ومن انشاء القاضى تاج الدين بن الاثير: والمنجنيقات تفوق اليهم سهام قسيها وتخيل اليهم أنها ساعية اليهم بحبالها وعصيها وهى فى الحصون من ألد الخصوم وإذا أمت حصنا حكم بأنه ليس بامام معصوم ومتى امترى خلق فى آلات الفتوح لم يكن فيها أحد من الممترين واذا نزلت بساحة قوم فساء صباح المنذرين تدعى إلى الوغى فتكلم وما أقيمت صلاة حرب عند حصن الا كان ذلك الحصن ممن يسجد ويسلم، ومن انشاء سيد كتاب الانشاء وامام البلغاء القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى: فقم عنا بهذه الفريضة وطر فى تلك المضار ورفه قوادمنا المهيضة وأدر وعلينا أن نشرب وقل وعلينا أن نطرب وانفرد بالحرب وعلينا النظارة وأعطنا السلب وباشر أنت الغارة وأنفذ الينا كل يوم من

أقمصة يوسف قميصا وليكن قميص البشارة، وله من شفاعة وعلى المذكور ديون كثيرة والدين عثرة الصراط والقبر على المطلوب سم الخياط فإن رأى مولانا أن ينظر إليه بما يفك أسره ويغنى فقره فهناك الاطلاق بالحقيقة أو الاسر والغنى بعد العرض على الله أو الفقر فبهذا عرفتم يا أهل المعروف من آل أيوب وكذا كان يوسفكم رحمه الله يقضى كل حاجة فى نفس يعقوب، وله والجو يتنفس عن صدر مسجور كصدر المهجور والحر وصاليه فى نحو هذه الطب جار ومجرور والمهامة قد سرفها ملأ السراب وزخرفها بحر ماء ولد لغير رشده وعلى غير فراش السحاب وحر الرمل قد منع حث الرمل ونحن فى أكثر من جموع صفين الا اننا نخاف وقعة الجمل ووردنا ماء هذه العيون وهو كماء المحابر يغترف منه المجرم مثل عمله ويرسله سهما فلا يخطئ تفرة مقتله وهو مع هذا قليل كأنه حادث به الآماق فى ساحات النفاق لا فى ساعات الفراق فيا له من ماء لا تتميز أوصافه من التراب ولا يرتفع به فرض التيمم كما لا يرتفع بالسراب ولا يعدو ما وصف به أهل الجحيم فى قوله ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب﴾[1] فنحن حوله كالعوائد حول المريض يعللون عليلا لا يرد الجواب بل يندبون ميتا قد حال بينهم وبينه التراب يجهز للدفن ونعشه المراد ويحفر عليه ليقوم من قبره وذلك خلاف المعتاد وفى غير من قد وارت الارض فاطمع على أنه لو كان دمعا لما بل الاجفان ولو كان مالا لما رفع كفة الميزان وإن امرؤ روحه فى جلد غيره وهو المراد وخصمه من غير جنسه وهو النار التى فى غير الزناد لجدير أن يغرى به اغراؤه وان يلام على مفارقة الاحبة ويقال هذا جزاؤه، وله)إلى أن ترد كتب العسكر وأعلامها من مدات ألفانه ورءوس العدى قطعات همزاته والايام التى لا أشاهد فيها الوجه لا أحسبها من العمر والايام التى لا يصل فيها ركابه لا أحسبها من الدهر ولا يختصر علىّ على عمرى ولا يغالطنى فى حساب دهرى، وله وقد أحسنت الحضرة فى بشراى بكتابة فى كتابها فقد طلع طيفا للحبيب الزوار ونجما لفجره ولا أقول الفرار وعليه أبقاه الله سلام أنور مما بعد الفجر وأشرق مما تحت الخمار وأجلب للسرور مما قبل الخمار، وله ذكر الله ذلك العهد بخير ما ذكرت العهود ولعن الله الفرنج المحتدقين وقتل أصحاب الاخدود فقد قطعوا طرقات المسار وأطالوا عمر الأبكار وسبكت نار متاساتهم الدينار فعجل الله أعلام الكافرين لمن عقبى الدار، وله وظننا أننا به بل

---

(١) الآية: ٢٩ من سورة الكهف.

بدعائه قد دخلنا الجنة لما نلناه من خمرها الذى هو لذة للشاربين وأنا خالطنا أهلها فأشخاص المعانى من الحروف على سرر متقابلين ووثقنا بان لنا منه الدعا الذى نأوى منه إلى كنز عتيد والرأى الذى أنزله الله هو والحديد فيهما بأس شديد، وله)رب إنى لا أملك إلا نفسى وها هى فى سبيلك مبذولة وأخى وقد هاجر إليك هجرة نرجوها مقبولة وولدى وقد بذلت لعدوك صفحات وجوههم وها أنا على محبوبك بمكروه فيهم ومكروههم ونقف عند هذا الحد ولله الأمر من قبل ومن بعد فيا عصبة محمد ﷺ أخلفه على أمته بما تطمئن منه مضاجعه ووفه الحق فينا فأنا والمسلمون عندك ودائعه، وله ودعا المسلمون برءوس عدوهم فى رءوس القنا وقد اجتنوا ثمراتها ورواحهم فى صدور الظباء قد أطفئوا لمانها جمراتها فأنبتت سنابك الخيل سماء من العجاج نجومها الأسنة وطارت إليهم عقبان من الخيول قوادمها القوائم ومخالبها الأعنة ونصوبت عيون السمر إلى قلوبهم كأنما تطلب سوادها وتصدت أنهار السيوف أكبادهم فكأنما أرادت أن تروى جيادها ونصبت للملك خيمة حمراء كأنما وضع على الشرك عمادها وتولت حفظ اطنابها الرجال فكأنهم أوتادها، وله وقد كان يقال إن الذهب لابريز لا يدخل عليه آفة وإن يد الدهر البخيل عنه كآفة وأنتم يا بنى أيوب أيديكم آفة نفائس الاموال كما أن سيوفكم آفة نفوس الابطال فلو ملكتم الدهر لامتطيتم لياليه اداهم وقلدتم أيامه صوارم ووهبتم شموسه وبدوره دنانير ودراهم وأيام دولتكم أعراس وكان ما تم فيها على الاموال ما تم والجود فى أيديكم حاتم ونفس حاتم فى نقش ذلك الخاتم، وله)وما أحسب الاقلام جعلت ساجدة الا لان طرسه محراب ولا أنها سميت خرساء الا قبل أن نفث سيدنا فى روعها رائع هذا الصواب ولا أنها اضطجعت فى دويها إلا ليبعثها ما ينفخ فيه من روحه من مرقدها ولا سودت رءوسها الا أنها أعلام عباسية تناولتها الحضرة بيدها لا جرم أنها تحمى الحمى وتسفك دما وتحقن دما وتتوشح بها يده عنانا ويرسلها فيعلم الفرسان أن فى الكتاب فرسانا وتقوم الخطباء بما كتبت تعلم الاسنة أن فى الايدى كما فى الافواه لسانا ولقد عجبت من هذه الاقلام تخر ألسنتها شقا فتنطق فصيحه وتجدع أنوفها بريا فتخرج صحيحة تحلى مليحة وما هى الا آية فى يد سيدنا البيضاء موسومة وما مادتها فى الفصاحة الا علوية ولولا الغلو لقال علوية، وله ففضه عن فضة مسها ذهب وفاوضه عن نار ذكاء لو لم يمازجه ماء الطبع لهب منه أى لهب وخمد له كل ملتهب القريحة وقصرت يده فإن نواه قيل له ﴿تبت يدا أبى لهب﴾[1] وأغاربه على القلوب فرجع

(١) الآية: الأولى من سورة المسد.

وهى بالاشواق محتوية الفضل ماخوذة السلب فكم فيه من نقرة قيل لها يا أخت خير اخ يا بنت خير اب وله وأما الثلوج التى وصفها ذلك البيان فأحجها بل أهداها إلى الصدور فأثلجها فقد ثملت البلاد وكأنما نثر عليها المولى غرضه وسرنى أن يرد لك الفضاء فضة فأرانى النجوم فى هذه السنة وقد ناصحت فى خصبها فنزلت بأنفسها وبرزت ظاهرة فى النهار بجواريها وخنسها وأجدر بها أن تكون سنة يغسل وضر الكفر يصابون ثلجها وتنير العزمة الناصرية من هذه الرغوة صريع فلجها، وله وبينا أنا من الخمول فى مهبط رمس اذ رفىء التمويه إلى مطلع شمس وبينا أنا أندب أفعال بنى الاصفر فى عسقلان وجفوة أبيهم يعنى الدينار لى فى مصر فما يرانى الا وكان عليه من سكته عوذاتها منى يعتصم وكأنما يصفر خوفا منى وهو إلى الغير يبتسم اذ صرت أنفضه من بنان أبى الطيب من دنانير شمسه وربما اثقله بعد الضرب إلى النفى لا إلى اعتقال الكيس وحبسه، وله وان ادعى سحر البيان أنه يقضى أيسر حقوقه ويثمر ما يحب من شكر فروعه وعروقه لكنت أفضح باطل سحره وأذيقه وبال أمره وأصلب الخواطر السحارة على جذوع الاقلام واعقد ألسنتها كما تعقد السحرة الالسنة عن الكلام، وله وأشكو بعد قلبى جسمى فقد ضعفت قوته وقوى ضعفه ونسجت عليه همومى ثوبا دون الثياب وشعارا دون الشعار من الحرب الذى عاد بينى وبينه وأسقم يدى من جسمى واستخدمها تحرث أرضه فإن لم يكن لاضه.

الباب الثامن والثلاثون

فى الهدايا والتحف النفيسة الأثمان

ذكر ابن بدرون فى شرحه لقصيدة ابن عبدون عند ذكر كسرى وبنائه للسور المذكور فى الباب السادس من هذا الكتاب ولما بنى كسرى هذا السور هادنه الملوك وراسلته، فمنهم ملك الصين كتب إليه من يعقوب ملك الصين صاحب قصر الدر والجوهر الذى فى قصره نهران يسقيان العود والكافور والذى توجد رائحة قصره على فرسخين والذى تخدمه بنات ألف ملك والذى فى مربطه ألف فيل أبيض إلى أخيه كسرى أنوشروان وأهدى إليه فارسا من در منضد عينا الفارس والفرس من ياقوت أحمر وقائم سيفه من الزمرد منضد بالجوهرى وثوبا حريرا صينيا وفيه صورة الملك على ايوانه وعليه حلته وتاجه وعلى رأسه الخدام بايديهم المذاب المصورة من ذهب تحمله جارية تغيب فى شعرها يتلألأ جمالها وغير ذلك مما تهديه الملوك إلى أمثالها.

وكتب إليه ملك الهند: من ملك الهند وعظيم ملوك الشرق وصاحب قصر الذهب وابوان الياقوت والدر الى أخيه كسرى أنوشروان ملك فارس صاحب التاج والراية واهدى إليه ألف مَن من عود يذوب فى النار كما يذوب الشمع ويختم عليه كما يختم على الشمع وجاما من الياقوت الاحمر فتح شبر مملوء من در وعشرة أمنان كافور كالفستق وأكبر من ذلك وجارية طولها سبعة أذرع تضرب أشفار عينيها إلى وجنتيها كأن بين أجفانها لمعان البرق مع اتقان شكلها مقرونة الحاجبين لها ضفائر شعر تجرها وفراشا من جلود الحيات ألين من الحرير وأحسن من الوشى وكان كتابه فى لحاء الشجر المعروف بالكاذى مكتوب بالذهب الاحمر وهذا الشجر يكون بأرض الهند والصين وهو نوع من النبات عجيب ذو لون حسن وريح طيبة تكاتب فيه ملوك الصين والهند.

وكتب إليه ملك التبت من ملك تبتان ومشارق الارض المشاخبة للصين والهند إلى أخيه المحمود السيرة والقدر ملك المملكة المتوسطة الاقاليم السبعة كسرى أنوشروان وأهدى إليه انواعا مما تحمل من عجائب أرض تبت منها مائة جوشن ومائة ترس مذهبة وأربعة آلاف من المسك فى نوافج غزلانه.

وأهدى يعقوب بن الليث الصفار صاحب خراسان إلى المعتمد هدية فى بعض السنين

من جملتها عشر بزاة منها بازى أبلق لم ير مثله ومائة مهر وعشرون صندوقا على بغال عشرة فيهم ظرائف الصين وغرائبه ومسجد فضة برواقين يصلى فيه خمسة عشر انسانا ومائة من مسك ومائة من عود هندى وأربعة آلاف درهم.

وأهدت ملكة فرنجية إلى المكتفى بالله فى سنة ثلاث وتسعين ومائتين خمسين سيفا وخمسين رمحا وخمسين فرسا وعشرين ثوبا منسوجا بالذهب وعشرين خادما صقليا حسنا وعشرة كلاب كبار لا تطيقها السباع وست بازات وسبعة صقور ومضرب حرير بجمع ثلاثة وعشرين ثوبا معمولا من صوف يكون فى صدف يخرج من البحر يتلوّن بجميع الالوان كقوس قزح يتلون كل ساعة لونا وثلاثة أطيار تكون فى أرض افرنجية إذا نظرت إلى الطعام المسموم صاحت صياحا منكرا وصفقت بأجنحتها ليعلم ذلك من حالها وخرزا يجتذب النصول فتخرج من غير ألم وقدم الرسول بكتابها وهديتها وكان فى فصل من كتابها وعرفت أن بينك وبين ملك قسطنطينية صلة وأنا أوسع منه سلطانا وأكثر جندا وأشد سطوة وملكى على أربعة وعشرين مملكة لسانها لا يشبه الآخر وفى مملكتى وطاعتى رومية الكبرى.

ومن ظرائف الهدايا ما أهدته شجرة الدر جارية المتوكل وكان يميل اليها ميلا كبيرا ويفضلها على سائر حظاياه فلما كان يوم المهرجان أهدى إليه حظاياه هدايا نفيسة واحتفلن فى ذلك فجاءت شجرة الدر بعشرين غزالا تربية عليهن عشرون سراجا صينيا على كل غزال خرج صغير مشبك حرير فيه المسك والعنبر والغالية وأصناف الطيب ومع كل غزال وصيفة بمنطقة ذهب وفى يدها قضيب ذهب فى رأسه جوهرة فقال المتوكل لحظاياه وقد سرّ بالهدية ما فيكن من تحسن مثل هذا وتقدر عليه فحسدنها وعملن على قتلها بشىء سقينه لها فماتت.

عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب أبو عبد الرحمن الامير ولى المدينة للرشيد ثم ولى الشام والجزيرة للامين وجه إلى الرشيد فاكهة فى أطباق خيزران وكتب إليه أسعد الله أمير المؤمنين وأسعد به دخلت إلى بستان أفادنيه كرمك وغمرته لى نعمك قد أينعت أشجاره وتهدّلت ثماره فوجهت إلى أمير المؤمنين من كل شىء شيئا على القدرة والامكان فى اطباق القضبان ليصل إلىّ من بركة دعائه مثل ما وصل إلىّ من بركة عطائه فقال رجل يا أمير المؤمنين لم أسمع بأطباق القضبان فقال يا ابله كنى عن الخيزران بالقضبان إذ كان اسما لأمنا.

أنشدنى فى المجدى فضل الله بن مكانس وقد أهدى له والده تحفا جليلة:

تناهيت فى برى إلى أن هديتنى	وقد كنت قبل اليوم فى الغى ساريا
وأهديت لى ما حير الفكر حسنه	فلا زلت فى الحالين للعبد هاديا

التحف النفيسة الاثمان ذكر الاصمعى قال حدثت أن برمك جدّ يحيى بن خالد كان زوارا للملوك وكان يتطيب فحدث أنه صار إلى ملك الهند فاكرمه وآنس به وأحضر له طعامه قال فأكلت حتى انتهيت فقال لى كل فقلت لا والله أيها الملك ما أقدر على أن أزداد شيئا فقال يا غلام هات القضيب قال فوهمت وظننت أنى أخطأت فلم يلبث أن جاءه بقضيب فاخذه الملك وأمرّه على صدرى فكأننى لم آكل شيئا قط ثم أكلت أكلا كثيرا حتى انتهيت فقال كل فقلت ما أقدر على ذلك فاخذ القضيب وفعل مثل ما فعل فكأنى لم آكل شيئا قط ثم أكلت حتى انتهيت فقال لى كل فقلت ما أقدر على ذلك فأراد أن يمرّ القضيب فقلت أيها الملك إن الذى دخل يحتاج إلى أن يخرج فقال صدقت وأمسك عنى فسألته عن القضيب فقال تحفة من تحف الملوك ثم خرجت من عنده فأتيت الاصبهد فقربنى وأكرمنى وكان جالسا فى مجلس على البحر وفى يده خاتم ياقوت أحمر يغلب نوره نور الشمس قد أضاء المجلس منه فلم أزل أنظر إليه فلما رآنى أفعل ذلك نزعه من يده ورمى به فى البحر فوردت علىّ أعظم مصيبة وقدّرت أنى قد جنيت جناية ووجمت فلما رآنى قال ما لك قلت أحسب أنك أنكرت نظرى إلى الخاتم فألقيته فى البحر قال لا وضحك ودعا بسفط فأخرج منه سمكة من فضة فى رقبتها سلسلة طويلة فألقاها فى البحر فغاصت ثم ظهرت بالخاتم فى فيها فجذبها وأخذ الخاتم وردّه إلى أصبعه فورد علىّ ما حيرنى ولم أعرف سببه ثم خرجت وأتيت الشام ولقيت هشام بن عبد الملك فأكرمنى ورحب بى وسألنى عن خبرى فأخبرته فأمرنى أن أتخذ له انبجات أرادها ، قال الشيخ الانبجات هى اخلاط تربت فى العسل مثل الاترج والاهليلج ونحوها.

رجع: فتشاغلت بعملها فبينما أنا فى بعض الايام فى منزلى قد نزعت ثيابى وأخذت فى اصلاح حالى وما أمرنى به إذا بغلمانه قد هجموا علىّ وقالوا أمير المؤمنين يطلبك فأردت أن أغتسل وألبس ثيابى فقالوا كما أنت فأخذت بصورتى واحضرت فى مجلسه فلما دخلت من الباب قال اتركوه اذهب اذهب لا تقربنى معك سم الله وأخرجوه فأخرجت وعدت إلى منزلى وأنا على حال حيرة من انزعاجه فاغتسلت وتنظفت ولبست ثيابى ثم رحت إليه دخلت إلى حضرته وسألته عما كان منه فقال لى كان معك سم أو عبثت بشىء من السموم فقلت لا

والله إلا أنى كنت أعمل تلك الانتجات التى أمر أمير المؤمنين بها ولم تدعنى الغلمان إلى أن أغتسل وكان من جملتها الافيون وهو سم قال ما أشك فى ذلك قلت فكيف علم أمير المؤمنين ذلك قال فى عضدى كبشان من الياقوت إذا لقينى انسان معه سم أو قدم إلىّ ما فيه سم انتطحا فلما وقعت عينى عليك انتطح الكبشان فعلمت أن فى يدك شيئا من السم، نقلت هذه الحكاية من مجموعه بخط سيدنا وشيخنا شمس الدين محمد بن الكتبى الشهير بالتريكى رحمه الله.

قال صاحب كتاب المباهج مما وجد فى خزائن الملوك والخلفاء والوزراء من الجوهر النفيس الدرة اليتيمة وسميت بذلك لأنها لم يوجد لها نظير حملها إلى الرشيد مسلم بن عبد الله العراقى فباعها عليه بتسعين ألف دينار وكان للمتوكل فص ياقوت أحمر وزنه ستة قراريط اشتراه بستة آلاف دينار، وكانت له سبحة فيها مائة حبة جوهر وزن كل حبة مثقال اشتريت كل حبة منها بألف دينار.

وأهدى بعض ملوك الهند إلى الرشيد قضيب زمرد أطول من ذراع وعلى رأسه تمثال طائر ياقوت أحمر لا قدر له نفاسة قُوِّم هذا الطائر على حدته بمائة ألف دينار.

ودفع مصعب بن الزبير حين أحس بالقتل إلى مولاه زياد فصا من الياقوت الاحمر وقال له بخ بهذا وكانت قيمته ألف ألف درهم وسقط من يد الرشيد فى أرض كان يتصيد فيها فاغتم لفقده فذكر له فص ابتاعه صالح صاحب المصلى بعشرين ألف دينار فأحضره ليكون عوضا عما سقط منه فلم يره عوضا عنه ووهب المأمون للحسن بن سهل عقدا قيمته ألف ألف درهم وقوّم الجوهر الذى سلم من النهب عند فتنة المأمون بألف ألف ألف ومائة ألف وستة عشر ألف درهم ووجد فى تركة السيدة بنت المعز العبيدى طست وابريق من البلور ومدهن ياقوت أحمر وزنه تسعة وعشرون مثقالا وكان الناس يستعظمون الطست والابريق إلى أن قبض على أبى محمد البازورى وزير المستنصر العبيدى فوجد عنده تسعون طستا بأباريقها من صافى البلور وجيده كبارا وصغارا فهان عليهم ما استعظموه.

وكان لمحمود بن سبكتكين صاحب غرنة كنصاب المرأة من الياقوت الاحمر إذا ركب قبض عليه بيمينه فتبين طرفاه من جانبى يده بحيث ينظر إليهما الناس ووجد فى خزائن مروان بن محمد مائة جذع أرضها بيضاء فيها خطوط سود وحمر سعتها ثلاثة أشبار وأرجلها ذهب فيقال إنها صنعت على شكل المشترى من اكل منها لا يشبع.

ووجد أيضا فى خزانته جام من زجاج فرعونى غلظ أصبع وفتحه شبر ونصف فى

وسطه صورة أسد ثابت وامامه رجل قد برك على ركبتيه وقد أغرق السهم فى القوس وكان فيما أخذ من خزائن قصر العاضد العبيدى بعد وفاته الحبل الياقوتى وكان وزنه سبعة عشر درهما أو سبعة عشر مثقالا ولما انهزم أبو الفوارس بن بهاء الدولة البويهى من أخيه سلطان الدولة قصد يمين الدولة محمود بن سبكتكين فبلغ محمود أنه باع جوهرتين كانتا على جبهة فرسه فاشتراهما نصير الدولة صاحب ديار بكر بعشرة آلاف دينار فقال من غلطكم تركـكم على جبهة الفرس مثل هذا وقيمته ستون ألف دينار.

وأهدى صاحب قلعة اصطخر إلى السلطان الملك العادل ألب رسلان السلجوقى قدح فيروزج فيه منوامسك مكتوب عليه جم شاد أحد ملوك الفرس الأول.

وأخذ يوسف بن تاشفين من عبيد بن المكين الصنهاجي وكان ملك أفريقية لما قبض عليه سبحة فيها أربعمائة حبة جوهر كل حبة قومت بمائة دينار ووجد فى ذخائر العبيديين لما أخذ الملك منهم عشرة آلاف قطعة بلور محكم تفاوتت قيمتها من ألف دينار إلى عشرة دنانير ووجد فيها قطعة بلخش وزنها ثلاثة وعشرون قيراطا.

ووجد فيما أفاء الله على السلطان محمود بن سبكتكين لما فتح الهند قطعة ياقوت أحمر زنتها أربعمائة وخمسون مثقالا، وكان فيما أخذ لمؤيد الملك بن نظام الملك من الجواهر قطعة بلخش وزنها احد وأربعون مثقالا.

وحكى الواقدى فى فتوح السند أن عبيد الله العبيدى عامل معاوية على السند غزا بلد القيفال فأصاب منه مغانم كثيرة وأن ملك القيفال بعث إليه يطلب الفداء وحمل إليه هدايا كان فيها قطعة مرآة يذكر أهل العلم أن الله تعالى أنزلها على آدم لما كثر ولده وانتشروا فى الأرض فكان ينظر فيها فيرى من بعد منهم على الحالة التى هو عليها من خير وشر فحملها عبد الله إلى معاوية فبقيت فى ذخائر بنى أمية إلى أن انتقل الملك منهم إلى بنى العباس فصارت عندهم فى الذخائر.

بدنة عبدة: ذكر أصحاب التواريخ أن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان مات وخلف عاتكة بنت يزيد وكانت تحت عبد الملك بن مروان فلما ماتت عاتكة أوصت بأن يفرق مالها على أولاد أخيها فقسم عبد الملك تركتها بين عشامة وعبدة فتزوج عبد الملك عشامة وتزوج هشام عبدة فرآها يوما هشام وقد ألقت حليها وإذا فى نحرها خال فبكى وقال لأنت هى فقالت وما معنى هذا القول فقال إنا نروى أن امرأة خليفة وابنة خليفة فى جيدها خال تذبح كما تذبح الشاة فقالت لا يجزيك الله إن كان الامر صحيحا فلا حيلة لى فى دفع

القضاء وإن لم يكن فلا معنى لتعجيل الهم فلما قتل عبد الله بن على بن أمية واستباح أموالهم أخذ بدنة عبدة وبعث بجواهر إلى السفاح فعرضها على امرأته أم سلمة بنت يعقوب المخزومية فقالت ما لى لارى بدنة عبدة فكتب إليه بذلك وأمره بانفاذ بدنة عبدة فانفذ إليه بدنة وزعم أنها هى فعرضها على امرأته فقالت ليست هى هذه بدنة الرائقة جارية هشام وحبة واحدة من بدنة عبدة أفضل من هذه كلها وعلامتها أن فى ظهرها وصدرها خطين من كبار الياقوت الاحمر فكتب أبو العباس إلى عبد الله يعزم عليه فى البعث ببدنة عبدة فكتب إليه أنه لا يعرفها فقالت أم سلمة لأبى العباس مره يبعث لنا بعبدة فهى تعرف أين بدنتها فكتب إليه بذلك فكره أن يبعث بعبدة لئلا تقر عليه ولم يجد بدًا فبعث بها ودس بعض أجناده وقال إذا صرت بموضع كذا فاقتلوها فلما صارت بموضع من طريق الشام يعرف اليوم بجب عبدة وأرادوا قتلها قالت لهم إن كنتم عزمتم على هذا فاتركونى حتى أصلى واستتر فتركوها فصلت وشدّت ازارها على يديها ورجليها وأبرزت لهم نحرها فذبحوها وكتب عبد الله إلى السفاح إنى انفذت عبدة فقتلها بعض الاعراب بالطريق فلما أوقع أبو مسلم الخراسانى بعبد الله وهرب منه وأخذ ماله وانفذه إلى المنصور أخذ البدنة فكانت فى خزائن بنى العباس إلى أن صارت إلى زبيدة بنت جعفر ثم بعث بها ذلك المتوكل إلى ابنة عبد الله بن طاهر التى زوجها من المعتز ولده.

وذكر القاضى الرشيد بن الزبير فى كتابه العجائب والطرف كان المعتز بالله قد التمس من أمه قبيحة خمسين ألف دينار ينفقها فى الجند فذكرت أنها لا تملك حبة واحدة فظهر لها بعد قتل ابنها فى سنة خمس وخمسين ومائتين وكانت قبيحة قد استخفت فوجد لها خزانة فيها ألف ألف دينار وثلاثة اسفاط فى أحدهم زمرّد لم ير مثله قط وفى الآخر نصف مكوك حب كبار لؤلؤ وفى الآخر كالجة فصوص ياقوت أحمر فقوّم ذلك فكانت قيمته ألفى ألف دينار وكانت غلتها فى كل سنة عشرة آلاف ألف دينار والله أعلم.

الباب التاسع والثلاثون

فى خواص الاحجار وكيانها فى المعادن

قال الفاضل أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف التيشاء: فى الجوهر اسم عام يطلق على الكبير والصغير منه فما كان كبيرا فهو الدرّ وما كان صغيرا فهو اللؤلؤ المسمى حبا ويسمى أيضا اللؤلؤ الدق ولؤلؤ النظم وحيوان الجوهر الذى يتكوّن فيه كبيره وصغيره يسمى باليونانية اسطوروس يعلو لحم ذلك الحيوان صدفتان ملازمتان لجسمه والذى يلى الصدفتين من لحمه اسود ولهذا الحيوان فم وأذنان وشحم يلى الفم من داخلهما إلى غاية الصدفتين والباقى رغوة وصدفة وماء.

وذكر أرسطاطاليس فى كتابه أن من الحيوان غير الناطق السرطان يشتهى أكل لحم هذه الدابة فلما حال دونه ودون شهوته شىء بمنزلة الحاجز بينه وبين ذلك اللحم الرخص الذى فى الصدفات احتال عليه فلا يزال السرطان راصدا له حتى يراه قد فتح جلدة الصدفة فيأخذ حجرا صغيرا فيرمى به فى جوف الصدفة فلا تقدر عند ذلك على انضمامها كما كانت لأنها لا تلتحم بمنع الحجر من انطباقها فيدخل السرطان قرنيه إلى ذلك اللحم الرخص فيستخرجه ويأكله لالتذاذه به، ويذكر من أكله من الغواصين أنه شبيه بطعم قوانص الطير.

وذكر ارسطاطاليس فى كتاب الاحجار، أن البحر المحيط بالعالم هو الذى فى ظلمات مقيمة يلحق آخره أول البحر المسلوك وأن الرياح تصفق هذا البحر المحيط المسمى أوقيانوس فى أوقات فصل الشتاء فيهيج هيجانا شديدا فيطلبه الصدف الذى يكون فيه الدر فى وقت ريح الشمال فإذا هاجت الرياح والامواج من ذلك البحر المحيط كان لامواجه رشاش فيلتقمه الصدف الكائن فى البحر الذى يسلكه الناس كما يلتقم الرحم المنى فتصير تلك النطفة من ذلك الماء فى اللحم المركب فى الصدف فلا يزال الصدف يعمد إلى ذلك الموضع الساكن من ماء البحر فيفتح فمه ويستقبل بذلك الماء الذى هو مثل النطفة رياح الهواء وحر الشمس عند طلوعها وغروبها ولا يعرض لها فى وسط النهار لشدة حر الشمس وهيجان البخارات التى تهيج من العالم والغبار الذى تهيجه الرياح فإذا انعقدت الدرّة ولو كانت الدرة منها نهاية فى الكبر فلا يكون لها طائل ثمن إذ ليس فيها شىء من أصناف الدر النفيس والله أعلم.

جيده ورديئه: الجوهرة الكاملة خواصها إما فى الكمية فى العظم وكثر الماء وإما فى الكيفية فى شدة البياض وكرة الاشراق واستواء اللون واستواء استدارته واكتنازه وشكله وما لم يكن كذلك فالآفات أفسدته ومنها أنه ربما وجد بعض الدرة لم تتم تربيتها وربما لصق بها قشر من لحم الحلزون صار كالصدا والوسخ فأفسد لونها وربما كانت كدرة أو كان فيها ماء أو كانت فيها دودة أو كانت مجوفة غير مصمتة وكل هذه آفات دخلت على الدرة من مقر التربية وأما فساد شكلها فمن قبل أن الحبة تقع فى موضع من اللحم الذى فى الصدف غير مستوى فتتجسد الدرة على صورة الموضع الذى ضمها فجيد الجوهر على الجملة المدحرج القار الصافى الشفاف الكبير الجرم الكبير الوزن الضيق الثقب وجيد اللؤلؤ النقى من الوسخ.

ذكر خواصه ومنافعه: من خواص الجوهر أنه يتكون قشورا رقاقا طبقة على طبقة وما لم يكن كذلك فليس بجوهر مخلوق والجوهر بالجملة الدر الذى هو كبار اللؤلؤ وحبه الذى لا يمكن ثقبه لصغرهِ كل ذلك معتدل فى الحر والبرد واليبس والرطوبة لطيف يجفف الرطوبة فى العين ويزيل كثرة وسخها ولا سيما العتيق منه الذى يوجد فى الترب وقد جفت رطوباته فانه أصلح فى ذلك ولذلك يخلطه الكحالون فى أكحالهم لنفعه وتشديد أعصاب العين وخاصيته مع ذلك لخفقان القلب ومن الخوف والجزع الذى يعرض فى المرة السوداء ويلطف الدم الذى يغلظ فى الفؤاد ولهذا أيضا يخلطه المتطبون فى أدوية القلب ويحبس نزف الدم ويجلو الاسنان جلاء صالحا وإذا سحق وسقى مع سمن بقر نفع من السموم.

وذكر ارسطاطاليس أن ماء البحر الذى يتكون منه اللؤلؤ على ما قدمناه إذا قطر منه فى الكف أو غمس فيه بعض أعضاء البدن ألبس ذلك العضو صبغا كالفضة المذابة.

وذكر أيضا أنه من وقف على حل الدر من كباره أو صغاره حتى يصير ماء رجراجا ثم طلى به البياض الذى يكون فى الابدان من البرص أذهبه من أول طلية يطليها وإن سعط بذلك الماء من به صداع من قبل انتشار أعصاب العيون أذهبه عنه وكان شفاؤه فى أول تسعيطة.

قال التيفاشى مما جربته واختبرته ووقفت عليه بالعمل أن حماض الاترج يحل الجوهر إلا أنه يحله خاثرا مثل المنى لا يعلق بالاجسام إذا طلى عليها والمياه الحادة الطاهرة القوية الحريفة تحله رجراجا يعلق بالاجسام على ما يوجبه القياس فى حل الحماض له وقد جربته فصح.

عيوبه: التصديف وعدم الاستقرار والصفرة والانبراص وهو قبيح البياض وخصيه وعدم رونقه وسعة الثقب وصغر الجرم وقلة الوزن.

الاشياء التى تضر بالجوهر: الادهان جميعها والحموضات بأسرها لا سيما ماء الليمون ووهج النار والعرق والذفر والاحتكاك بالاشياء الخشنة والله أعلم، الذى يجلوه ويذهب وسخه ماء حماض الاترج إلا أنه إذا لح عليه به قشره ونقص وزنه وهو يحله أيضا خاثرا كما ذكر قبل.

محاسن تليق بهذا المكان:

قال القاضى السعيد بن سناء الملك من قصيدة فاضلية أولها:

نعم هى سعد أو هى لى قمر سعد ... وصال ولا صد وقرب ولا بعد

يعانقها من دونى العقد وحده ... فيا عجبا يا قوم لم يعلق العقد

هى البدر إلا أنها كله سنا ... هى الغصن إلا أنه كله ورد

ولو أبصر النظام جوهر ثغرها ... لما شك فيه أنه الجوهر الفرد

وقال من قصيدة أخرى فاضلية أيضا أولها:

باتت معانقتى ولكن فى الكرى ... أترى درى ذاك الرقيب بما جرى

ونعم درى لما رأى فى بردتى ... ردعا وشم من الثياب العنبرا

بابى وأمى من حلمت بذكرها ... لما انتبهت ومذ رقدت تفسرا

ومن العجائب أن ماء رضابها ... حلو ويخرج حين تبسم جوهرا

وله من مرثية أولها:

كجسمك جسمى أصبح اليوم باليا ... ولكن ما بى عاد للناس باديا

يخيل لى أنى دعيت إلى الردى ... وأنك عنى قد أجبت المناديا

فيا أسفى إذ كنت قبلى ماضيا ... ويا خجلى إذ صرت بعدك باقيا

وغاص فؤادى فى بحور همومه ... فالقى إلى جفنى الدموع لآليا

وقال ابن الحلاوى جوابا عن رقعة من أبيات:

فإن كان زاهرا فهو صنع سحابة ... وإن كان درا فهو من لجة البحر

وقال صفى الدين الحلى من قصيدة أولها:

الست ترى ما بالعيون من السقم ... لقد نحل المعنى المدقق من جسمى

واضعاف ما بى بالخصور من الضنا ... على أنها من ظلمها غصبت قسمى

وما ذاك إلا أن يوم وداعنا ... وقد غفلت عين الرقيب على زعمى

ضممت ضنا جسمى إلى ضعف خصرها لجنبة كانت لها علة الضم
فيا من أقامتنى خطيبا لوصفها أرصع فيه صنعة النثر والنظم
خذى الدر من لفظى وإن شئت نظمه وإن عزت سلكا للنظام فها جسمى

وقال ابن سناء الملك من قصيدة أشرفية أولها:

جسمى كما حكم الغرام وحسبها أن الغرم يزورنى ويغبها
علقت ظبيته وعيشى أخضر فرعته ظنا أن عيشى عشبها

ومنها فى المدح:

وأرى العقود حسدن ما قد سطرت يمناه حتى اصفر منها حبها

ومما ينظم فى هذا السلك قول شيخنا العلامة بدر الدين الدمامينى من قصيدة أولها:

رضيت فيه بقتل النفس مذ سخطا مهفهف سل سيف الجفن واخترطا

ومنها فى المديح:

ونظمه الدر حسناً قد علا وغلا بينا سواه رأينا نظمه سقطا

قال ابن منير وأجاد:

لا تخدعنك وجنة محمرة رقت ففى الياقوت طبع الجلمد

وقال النور الاسعردى:

قد كدت أحرق خده يوم النوى بتنفسى لو لم يكن ياقوتا

وما أحسن قول أبى الحسن على بن عبد العزيز الحلبى المعروف بالفكيك يخاطب بعض التجار:

أبا جعفر انفذت اطلب عمة أفاق عليها الدر رونق حسنه
كرقة دين البابلى ولونها كطاجنه المبيض فى طول قرنه
فأنفذتها بالضد فى لون عرضه وهمته قصرا وفى سلك ذهنه
وفصا من الياقوت أحمر ناصعا كاخوته بردا وفى ثقل ابنه
فأنفذت لى فصا كخفة عقله وسحنة عين قلبت تحت جفنه
نصدت خلافى فى جميع مآربى فأنشرت ميت السخط من بعد دفنه
فلو قلت قبل رأسه وبنانه خربت اعتماد الخلف فى جوف ذقنه

الياقوت: قال بلينوس العلة فى تكوّن حجارة الياقوت هى أن الشمس لما طلعت على الأرض سخنتها بقوتها فسخن من الارض ما لم يحجب منها واشتدت سخونة المكان

بظهور الشمس عليه وغيرت الشمس رطوبة المكان الذى اشتدت حرارتها عليه فلما اشتد يبسه لقلة رطوبته اجتذبت قوته من الشمس وقوتها حرا ويبا فانقلب عن طباعه ولونه وطعمه على قدر الرطوبة التى كانت فيه من كثرتها وقلتها فلما حالت الرطوبة وأقامت عليه اجتذب الماء ما كان فى ذلك المكان من حر الشمس ويبسها وطلعت عليه الشمس وسخنته فحجبت الرطوبة عن ذلك اليبس الذى فيها بحر الشمس فسخن الماء بحرها فتلطف وقوى على تحليل اليبس الذى قبلته الارض من يبس الشمس المتصل بها فى الماء وانحل به واشتدت عليه السخونة حتى ظهرت قوة اليبس المفرطة فيه فكان منه الحجر المسمى بالياقوت ولشدة يبسه ضاقت مسامه لقبض اليبس له ولشدة انحلاله وشدة لطافته رجع منعقدا ولشدة اليبس تكاثفت أجزاؤه بعضها فى بعض وتداخلت.

الياقوت الاصفر: فمنه الرقيق وهو قليل الصفرة كثير الماء ساطع الشعاع والخلوقى وهو أشبع صفرة من الرقيقى والجلنارى وهو أشبع من الخلوقى وأشدها شعاعا وأكثرها ماء وهو أجوده، والاسمانجونى فمنه الازرق واللازوردى والكحلى وهو أشبع من النيلى ويسمى الزيتى، وأما الابيض فمنه المهاى وهو أشد بياضا وأكثر ماء وأقواها شعاعا ومنه الذكر وهو أثقل من المهاى وأقل شعاعا وأصلب حجرا وهو أدونها وثمنه أرخص أثمان الياقوت.

ذكر خالص الياقوت ومعيبه: أجود الياقوت الاحمر البهرمانى والرمانى والوردى النير المشرق واللون الشفاف الذى ينفذه البصر بسرعة السالم من العيوب.

عيوبه: الشعرة والسوس فالشعرة شبه تشقيق يرى فيه والسوس خروق توجد فى باطنه يعلوها شىء من ترابية المعدن وربما وجد فى تلك الثقبة دود حى يتحرك إذا خرجت الدودة منها إلى الهواء ماتت ورأينا من رأى ذلك من الثقات.

عيوب ألوانه: أردأ الالوان الاحمر الوردى الذى يضرب إلى البياض والسماقى الذى يضرب إلى السواد وأردأ منه الازرق الذى يضرب إلى لون الرماد ويسمى السنور وكذلك الذى يسمى الزيتى وأردأ ألوان الياقوت الاصفر ما نقص لونه وضرب إلى البياض وأردأ صفات جميعه فى الجملة قبح الشكل والذى قدمناه.

ذكر خواصه ومنافعه: قوة الياقوت على قدر معادنه المتكون فيها وعلى قدر أصبغته وألوانه فالاحمر منه حار يابس والاصفر أقربها إلى الاحمر وفيه فضل حر وكذلك الاصفر والاسمانجونى أبرد وأيبس والابيض أبرد الياقوت وأرطبها.

خواصه فى نفسه: من خواص الياقوت أنه يقطع كل الحجارة شبيها بقطع الماس وليس يقطعه شىء غير الماس وإنما يثقب بالماس وذلك بأن تركب منه قطعة فى طرف مثقاب حديد ثم يثقب به كما يثقب الخشب ومن خواصه أنه لا ينحك على الخشب الذى يحك عليه كل شىء أما الياقوت فإنه لا يحك على شىء إلا على صفيحة نحاس يكسر الجزع اليمانى ويحرق حتى يصير كالنورة ثم يسحق بالماء حتى يصير كأنه الفراء ثم يحك به على وجه الصفيحة النحاس حجر الياقوت فينجلى حتى يصير أشد الجواهر صقالة، ومن خواص الياقوت الشعاع فإنه ليس لشىء من المشفة شعاع مثله، ومن خواص الياقوت الثقل فإنه أثقل الاحجار المساوية لمقداره فى العظم ومن خواصه صبره على النار فإنه لا يتكلس كما يتكلس غيره من الاحجار المثمنة كالزمرد وغيره ومن خواصه أنه يقبل البرودة بسرعة إذا أخرج من النار بخلاف غيره من سائر الاحجار وليس من ألوانه ما يثبت على النار غير الاحمر فقط، وقد ذكر ارسطاطاليس فى كتاب الاحجار أن الياقوت الاحمر إذا نفخ عليه فى النار ازداد حسنا وحمرة وإذا كانت فيه نكتة شديدة الحمرة ونفخ عليها فى النار انبسطت فى الحجر فسقته من تلك الحمرة وحسنته وإن كان فيه نكتة سوداء نقص سوادها وهو حجر يزداد حسنا وصفاء عند النفخ عليه فى النار وإذا كان الحجر أحمر ونفخ عليه فزالت حمرته فليس بياقوت بل أحد الاشباه أو مصنوع مدلس وقد رأيت بسوق القاهرة جواهر تباع على أنها ياقوت أزرق وأصفر وهى مصنوعة مدلسة كان أصلها ياقوتا أبيض ومن خواصه أنه لا تعمل فيه المبارد والحديد ولا يلصق شىء فى جسمه من جميع ألوانه أحمره وأصفره وسماويه، ومن خواصه قطع الاحجار المشفة غير الماس والاحمر فى جميع هذه الخواص زائد على جميع ألوانه فى القوة، خواصه فى منافعه من خواصه ذكر ارسطاطاليس أنه من تقلد هذا الحجر أو تختم به من أنواع اليواقيت التى وصفنا وكان فى بلد قد وقع الطاعون فيه منعه أن يصيبه ما أصاب أهل ذلك البلد من الطاعون ونبل فى أعين الناس وسهل عليه قضاء الحوايج وتيسر له من أرباب المعاش أمور صعبة ومن خواصه تقوية قلب لابسه وتشجيعه والهيبة له فى قلوب الناس واجلاله ومن خواصه أن ينفع من خفقان القلب والوسواس فى التعليق له ومن خواصه أن الصاعقة لا تقع على من تختم به أو علقه عليه ومن خواصه أنه لم ير فى أصبع غريق قط ومن خواصه أنه يقطع العطش إذا وضع فى الفم ونحت اللسان ومن خواصه أنه يمنع جمود الدم إذا علق ومن خواصه أنه يقطع نزف الدم إذا علق ومن خواصه ما أخبرنى به شريف جوهرى معروف بالخبرة والذكاء فى هذا ودخل

إلى الهند ومارس كثيرا من علم الاحجار أن الهند يقولون إن من كان معه حجر ياقوت جذب قوسا قويا عن طبقته وقوته إذا لم يكن معه ذلك الحجر على شرط أن لا يفعل ذلك على سبيل الخبرة والامتحان بل يكون ذلك بغير قصد له ولا تعمد.

ومحنة أشباه الياقوت باجمعها أن يحك بالياقوت الاحمر فإنه يخرجها كلها ولا تخرجه وليس شيء منها يقوم على النار كما قدمنا فهذه علة تكون الياقوت.

وأما اختلاف ألوانه فإنه بنسبة بقاع الأرض إذا وقع عليها الماء فدام عليها فيتغير الماء بما انحل فيه من يبس الأرض وتسخين الشمس له فيحمى الماء على قدر الحرارة فينعقد أحمر وربما انعقد أصفر لقلة الحرارة فيه وربما اعتدل الحر عليه فى اللين والانحلال فانعقد أبيض صافيا وربما اشتدت يبوسته فعرض فيه البرد لشدة اليبس وتباعد الحر عنه فعرض فيه السواد وظهر على أعلاه لبطون الحمرة فى باطنه وربما طرحت الحمرة نورها إلى خارج مع ظهور السواد فى ظاهره فقام بينهما لون أسود اسمانجونى وذلك أن صفرة الرطوبة إذا التحمت مع سواد اليبس قام من بينهما اللون الاسمانجونى، قال بلينوس والياقوت حجر ذهبى وجميع الحجارة غير الاجساد الذائبة انما انعقدت وابتدأت لتكون ياقوتا فأقعدتها عن الياقوتية كثرة الرطوبة وقلتها وكثرة اليبس وقلته فلم تكن ياقوتا وصارت حجارة حمرا وبيضا وخضرا وصفرا وغير ذلك من الألوان التى لا تذوب فى النار ويقع عليها الحديد فيسحلها وفيها ما لا يسحله الحديد ووضعت عليه اسماء كثيرة خلاف الياقوت.

ذكر معدنه الذى يتكون فيه: الياقوت يؤتى به من معدن يقال له سجران من خربرة خلف سرنديب بنحو من أربعين فرسخا والجزيزة تكون نحوا من ستين فرسخا فى مثلها وفيها جبل عظيم يقال له جبل الراهون تحدر منه الرياح والسيول الياقوت فيلقط وهو حجر من أرض ذلك الموضع وحصباؤه وما تجر سيوله من جبل الراهون ويقال إن الشمس إذا أشرقت على ذلك الجبل أنبتت فيه شعاعات كثيرة لوقوع شعاع الشمس على حصى الياقوت فيسمى ذلك برق الراهون وهذا الجبل هو الذى أهبط عليه آدم عليه السلام من الجنة ومنه خرج إلى الأرض فإذا أصيب ذلك الحصا أصيب وظاهره مظلم يميل أكثره إلى السواد والغبرة كالحصى الموجود فى هذه الالوان عندنا فإذا استشف فى الشمس أشف لونه أحمر كان أو أصفر أو سماويا أو غير ذلك من ألوان الياقوت، قال التيفاشى أخبرنى من دخل جزيرة سرنديب من التجار أن أهل ذلك الموضع إذا لم تحدر السيول والرياح لهم من

حصباء الياقوت فى بعض السنين ما جرت به العادة احتالوا لتحصيله بالحيلة التى تذكرها وذلك أن الجبل الذى فيه الياقوت جبل شاهق صعب المسلك لا يمكن الوصول إلى أعلاه وفى أعلاه نسور كثيرة تعشش فيه وتتخذ مساكنها به لخلوته فيعمد أهل ذلك الموضع إلى حيوان فيذبحونه ويسلخون جلده ثم يقطعونه قطعا كبارا ويتركونه فى سفح الجبل المذكور ويبعدون عنه وهم يرقبونه فتأتى النسور فترفع ذلك اللحم وتنزل به عند أوكارها فإذا وضعته على الأرض علق به من حصى الياقوت ولصق فيه ثم تأتى نسور أخرى فتجتمع على اللحم لتخطفه فيأخذه بعضها وتطير من الجبل فيسقط منه الياقوت لثقله فيلقطه الذين يرقبونه من الموضع الذى يسقط فيه ويذكر أن فى سفل هذا الجبل غياضا عظيمة وخنادق عميقة وأشجارا شاهقة ويسكن بها حيات عظام تبتلع الحية منها الانسان ورأس البقر وغيره صحيحا فإذا ابتلعته عمدت إلى أصل شجرة فالتوت عليها واشتدت فيتكسر فى بطنها ما تبلعه وتندق عظامه فيهضم بها ولاجل ذلك أيضا لا يستطاع سلوك هذا الجبل ولا الوصول إليه وإلى ما فيه من عجائب الاحجار.

ذكر أصنافه: أصول الياقوت أربعة أصناف أحمر وأصفر واسمانجونى وأبيض فالاحمر منه ينقسم إلى أربعة أقسام الوردى وهو يتفاضل فى شدة الصبغ إلى الوردية لا يجاوز ذلك ويقل صبغه إلى أن يقرب من البياض ثم الجمدى وهو مشوب بقرقرية كلون ورد الخيرى وأظهر قرقرية وهو يتفاضل فى قوة الصبغ وضعفه إلى أن يقرب من البياض ثم الاحمر وهو بلون العصفر الشديد الحمرة الناصعها فى القوة إلى القرب من الوردية فى الضعف ثم البهرمانى وهو أحمر نقى الحمرة لا يشوبها شائبة وهو يتفاضل فى قوة الصبغ وضعفه حتى ينتهى إلى لون العصفر الشديد الحمرة الناصعها فى القوة وإلى قريب من لون الورس فى الضعف وأثمن الياقوت الذى فى لون الحمرة البهرمانى وأثمن كل واحد من بقية أصنافه أشدها مستشفا وأشدها شعاعا وأسلمها من العيوب التى تذكر فيما بعد.

وأما الزمرد: قال بلينوس إن الزمرد هو الياقوت لأنه إنما ابتدأ لينعقد ياقوتا فى جميع أجزائه وكان لونه أحمر فلشدة تكاثف الحمرة بعضها على بعض عرض له السواد فصار اسمانجونيا ولثقل اليبس وغلظة بطن الاسمانجونى وارتفع ما صفى على الحمرة على أعلاه فاصفر ولما كان باطنه اسمانجونيا واشتدت عليه الحرارة بطبخها فمزجت اللونين جميعا لون ظاهره بلون باطنه فتولدت الخضرة بينهما فصار لونه أخضر فسمى زمرداً وإنما كان أصله ياقوتا لأن الياقوت هو حجر ذهبى وهو أصل الحجارة كما أن الذهب رأس الاجساد المذابة.

ذكر معدنه الذى يتكون فيه: موضع الزمرد الذى يؤتى به منه، فى التخوم بين بلاد مصر والسودان خلف اسوان يوجد فى جبل هناك كالجسر فيه معادن تحتفر فيخرج منها الزمرد قطعا صغارا كالحصى منبتة فى تراب المعدن وربما أصيب العرق منه متصلا فيقطع وهو جيد، وأما صغيره فإنه يصاب فى التراب بالنخل وذلك أنهم ينخلون التراب ثم يوجد خلاله فيغسل كما يغسل تراب الفضة فيوجد فيه الحجر بعد الحجر ويوجد بعضه عليه أتربة كالكحل الشديد السواد وهو أشد خضرة وأكثر ما وجد من الزمرد فى التراب فهو الفص وما قطع منه من العروق فهو القضيب فى اصطلاح الجوهريين وهو أعتقه وأخلصه.

ذكر جيده ورديئه: أصنافه أربعة الذبابى والريحانى والسلقى والصابونى فأعلاه وأغلاه وأفضله فى سائر الخواص الموجودة فى الزمرد هو الذبابى وهو أخضر مغلوق اللون جدا لا يشوبه فى خضرته شىء آخر من الالوان حسن الصبغ جيد المائية وإنما سمى ذبابيا لشبه لونه بالخضرة التى تكون فى الكبار من الذباب الربعى لا فى صغاره الموجودة فى البيوت وهو أحسن ما يكون من الخضرة بصيصا وذلك اللون غير موجود فى ذباب البيوت وأما بقية الاصناف المذكورة من الزمرد غير الذبابى فانها نازلة مقصرة عن جميع الخواص الموجودة فى الذبابى ولهذا ألغيتها.

عيوب الزمرد: من أكبر عيوب الزمرد الذبابى اختلاف الصبغ حتى لا يكون موضع منه بلون مخالف للون موضع آخر ومن عيوبه عدم الاستواء فى الشكل وهذا عام له وللياقوت ولكل حجر مستشف ثمين أو غير ثمين ومن عيوبه التشعير وهو من لوازمه لا يكاد يخلو منه وهو شبه شقوق خفية تظهر فيه.

خواص الزمرد: الذبابى فى نفسه خواصه الكبرى فى نفسه وهى التى انفرد بها عن سائر الاحجار وبها يمتحن الخالص منه من غيره أن الافاعى إذا نظرت إليه ووقع بصرها عليه انفقأت عيونها على المكان قال أحمد التيفاشى وقد كنت أقف على هذه الخاصة فى الزمرد فى كتب الحكماء ثم جربتها بنفسى فوجدتها صحيحة وذلك أنه كان وقع لى فص زمرد ذبابى خالص أردت امتحانه على عيون الافاعى فاستأجرت حاويا على صيد أفعى وجعلتها فى طست وأخذت قطعة شمع فألصقتها فى رأس سهم ثم ألصقت فيها الفص وقربته من عين الافعى فكانت تثب أولا نحو السهم وكانت لها حركة قوية تروم بها الخروج من الطست فلما قربت الزمرد من عينها سمعت قرقعة خفية كمن يقتل صيبانة على ظفره ثم رأيت عينى الافعى وقد برزتا على وجهها بروزا ظاهرا وبقيت حائرة فى الطست تدور فيه

لتقصد مخرجا ولا تدرى حيث تتوجه وسكنت أكثر حركتها وانقطع وثوبها بالجملة، ومن خواصه الرخاوة وتخلل الاجزاء ومن خواصه خفة الوزن ومن خواصه شدة الملاسة والصقال والنعومة ومن خواصه زيادة الخضرة والماء إذا ركب على البطانة وأخص صفاته به الخفة.

خواصه فى منافعه من خواصه أنه من نظر إليه أذهب عن بصره الكلال ومن خواصه أنه من تقلد بخاتم منه دفع عنه داء الصرع إذا كان لبسه له قبل حدوث الداء ومن أجل هذا كانت الحكماء تأمر الملوك تعلقه على أولادهم عند ولادتهم ليدفع عنهم داء الصرع ومن خواصه أنه من سحل منه وزن ثمان شعيرات وسقاه شارب السم قبل أن يعمل السم فيه خلص نفسه من الموت ولم يتمعط شعره ولم ينسلخ جلده وكان شفاءه ومن خواصه أنه ينفع من نفث الدم واسهاله إذا علق على من به ذلك ومن خواصه النفع من وجع المعدة إذا علق عليها من خارج ومن خواصه أنه ينافى الحيات المسمومة ولا تقرب حامله ومن خواصه أن شرب حكاكته تنفع من الجذام ومن خواصه أن جميع أصنافه كلها تصلح أن تعلق على العضد وعلى الرقبة للتعويذ وعلى الفخذ لسرعة الولادة مجرب.

ومن معانيه الشعرية قول القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر:

ذباب السيف من لحظ إليه	لاخضر صدغه بعد انتساب
فلا عجب إذا ما قيل هذا	له صدغ زمرده ذبابى

البلخش: معدنه الذى يتكون فيه، يؤتى به من بلخشان والعجم تقول بذخشان بذال معجمة وهى من مدن التتر فيما يتاخم الصين وأخبرنى من وصل إلى معدنه من التجار أنه وجد فى المعدن حجرا فى باطنه ما لم يكمل طبخه وانعقاده بعد والحجر مجتمع عليه.

جيده ورديئه: هو ثلاثة أنواع أحمر معقرب وأخضر زبرجدى وأصفر وأجوده الاحمر وليس لجميعه شىء من الخواص التى للياقوت ومنافعه وإنما فضيلته شبهه والمائية والشعاع الاحمر لم يذكر فيه شىء من الخواص البتة.

الماس: قال بلينوس الماس حجر ذهبى وهو أشبه الاحجار بالاجساد المذابة لأنه ليس من الاحجار شىء بسحقه كما تسحق الاحجار بعضها بعضا فلذلك شبهته بالاجساد ولم يفسده شىء من الاحجار غير الابار فلذلك قلت إنه حجر ذهبى وأقول إن الماس إنما كان فى معدنه وابتداء خلقته ليكون ذهبا وذلك أن الماء فى معدنه فلما سخنته الحرارة يبس الماء من الحر الذى سخنته جدا فصار حجرا فلما كثرت عليه الحرارة وعرض فى الماء

غلظ فصارت فيه لزوجة لغلظه وصار أشبه شيء بالزيبق وتولد فيها رطوبة المعدن ويبسه بلطافة الطباع وملح وشغه الماء والريح فغلظ واشتدت عليه الحرارة فقوى الملح على نسف الحر واليبس واشتدت يبوسته فظهرت على وجه الماء اللزج الذى هو يشبه الزيبق فانعقد حجرا بافراط اليبس عليه وإنما انعقد ليكون ذهبا فأقعده عن الذهبية انعقاده باليبس والملوحة فلو انعقد باللين ولم يفرط عليه اليبس وبالحلاوة مكان الملوحة لكان ذهبا فلما انعقد وكان فيه ملوحة وشدة يبس نقص عن كيان الذهب فصار حجرا صلبا يأكل الاحجار كلها بملوحة طبيعته وشدة يبسه وإنما صار يتكسر للملوحة فبقيت الملوحة واليبس فى جسده وإنما صار لا يفسده شيء غير الابار لأنه ذهبى كما أن الابار يفسد الذهب ويسحقه وإنما يسحق الابار الماس لكثرة يبسه وذلك لاجتماع الكبريت الذى فى الابار مع ملوحة الماس لأن الملح الذى فى الماس إذا أحس برائحة الكبريت تفتت وانسحق وإنما صار لون الماس أبيض لانعقاده بالرطوبة ودفع رطوبة الموضع عنه وهج النار فصار لذلك أبيض فهذه علة تكون الماس.

معدنه الذى يتكون فيه، يوجد فى معدن الياقوت ويتكون فيه ويخرج منه كما يخرج الياقوت فهو حصاء معدن الياقوت إذا أخرجته الرياح والسيول من معدنه حسبما بيناه فيما سلف.

جيده ورديئه: الماس نوعان الزيتى والبلورى والزيتى أجودهما والبلورى أبيض شديد البياض كالبلورى والزيتى يخالط بياضه صفرة كلون الزجاج الفرعونى.

خواصه فى ذاته: من خواصه أن جميعه ذو زوايا قائمة ست زوايا وثمان زوايا وأكثر من ذلك وأقل، يحيط بزواياه سطوح قائمة مثلثة الشكل إذا كسر فلا ينكسر إلا مثلثا ومن خواصه أنه يقطع كل حجر يمر عليه وهو فى نفسه عسر الانكسار وإن وضع على سندان حديد ودق بمطرقة لم ينكسر ودخل فى وجه السندان ووجه المطرقة وكسرهما وإنما يكسر بأن يصير فى شيء من الشمع ثم يدخل فى أنبوب قصب وينقر بمطرقة غيرها برفق ومداراة بحيث لا يباشر جسمه الحديد حتى ينكسر أو يصير فى أسربة ويفعل به ذلك.

ومن خواصه أن الانسان إذا ابتلع منه قطعة ولو كانت أصغر ما يكون حرقت امعاءه فقتلته على الفور ومن خواصه ما ذكره ارسطاطاليس من أن بينه وبين الذهب محبة يتشبث به حيث كان حتى يخالط منه الحبة الخفينة بعرف ذلك صباغ الذهب فإنهم إذا بردوه وقعت تلك الحبة تحت مباردهم فأكلت المبارد وأفسدتها ومن خواصه أنه يثقب الدر والياقوت

والزمرد وغيرها من جميع ما لا يعمل فيه الحديد من الاحجار كما يثقب الخشب وذلك بأن تركب فى رأس مثقاب حديد.منه قطعة بقدر ما يراد من سعة الثقب وضيقه ثم يثقب به فيثقب بسرعة وأما طبعه فإنه بارد يابس فى الدرجة الرابعة.

خواصه فى منافعه منها ما ذكره ارسطاطاليس أنه من كانت به الحصاة الحادثة فى المثانة من مجرى البول ثم أخذ حبة من هذا الحجر وألصقها فى مرود نحاس أو فضة بمصطكا الصاقا محكما ثم أدخل ذلك المرود إلى الحصاة فتتها قال أحمد بن أبى خالد المعروف بابن الجزار فى كتابه فى الاحجار وبهذا الفعل عالجت أنا وصيفا الخادم من حصاة عظيمة كانت به وامتنع من الفتح عليها بالحديد فلما فعلنا به هذا الفعل انسلخت الحصاة حتى صغرت وسهل عليه خروج ما بقى منها فى البول ومن خواصه أنه ينفع من المغص الشديد ومن فساد المعدة إذا علق على البطن من خارج.

عين الهر: معدنه الذى يتكون فيه هذا الحجر يوجد فى معدن الياقوت مع الماس فهو حصباء معدن الياقوت كما ذكرناه عن الماس فيما سلف.

جيده ورديئه: هذا الحجر غريب الشكل وذلك أن الغالب على لونه البياض باشراق عظيم ومائية رقيقة شفافة إلا أنه يرى فى باطنه نكتة على قدر عين الهر أعنى الناظر الحامل للنور المتحرك فى فص مقلته وعلى ذلك اللون سواء وتلك النكتة مع ذلك متحركة على الدوام إذا حرك الفص تحركت بخلاف جهة حركته بحيث إن أميل إلى جهة اليسار مالت النكتة متحركة إلى جهة اليمين وذلك فى الاعلى والاسفل فهى كناظر الهر حقيقة ولذلك سمى به فإن كسر أو قطع على أقل الاجزاء ظهرت تلك النكتة فى كل جزء من أجزائه وأجوده ما اشتد بياض أبيضه وشفيفه واشتدت كثرة مائية تلك النكتة التى فيه وسرعة حركتها واشراقها وحسن الشكل وكبر الجرم زائد أن فى جودته كسائر الاحجار.

خواصه ومنافعه: هو أنه يحفظ حامله من عين السوء والانفس الخبيثة ومما أنقله فيه عن ثقات الجوهريين ممن دخل الهند ومارس هذا الفن ومهر فيه أنه يجمع خواص الياقوت البهرمانى فى منافعه ويزيد عليه بمنفعتين احداهما أنه لا ينقص مال محتمله ولا تعتريه فيه الآفات والنكبات والأخرى أنه إذا كان فى يد رجل أو معه وحضر مصاف حرب ثم هزم حربه فألقى نفسه بين القتلى يراه كل من يمر عليه من أعدائه كأنه مقتول متشحط فى دمه فتنفر عنه النفوس حتى لا يقربه بشر منهم وأخبرنى بعض من دخل الهند من الجوهريين أنه رأى هذا الجوهر يعبد فى المعبر كما تعبد الاصنام قال، وثمنه عندهم أغلا من ثمنه ببلاد

العرب وهم به أغبط وهو عندهم أعز وذكر أنه وقف على حجر بيع فى المعبر بمائة وخمسين دينارا ولعله يساوى فى الهند عشر هذا الثمن وذلك لعلمهم بخواصه ووقوفهم عليها بالتجربة.

البازهر: الموجود من هذا الحجر الآن بأيدى الناس نوعان أحدهما حيوانى والآخر معدنى فأما المعدنى منهما فيقال إنه ينفع من لدغة العقرب فقط وهو مقصر عن جميع ما يذكر فى الكتب عن البازهر الحيوانى ويذكر أنه يجلب من الصين وهو حجر خفيف هش أصفر وأغبر منقط نقطة خفيفة توجد طبقات رقاق فى أصل تكونه طبقة فوق طبقة لا توجد إلا كذلك وينحك سريعا إذا حك ومحكه يميل للبياض وأعظم ما يوجد منه من مثقال إلى ثلاثة مثاقيل يؤتى به من بلد فارس من تخوم الصين والحيوان الذى يوجد فيه هو الايل الذى يكون بتلك الجهات ويذكر أن الايل الذى يوجد فيه البازهر يشتهى أكل الحيات لا سيما من صغر من أولادها وهو معظم غذائه يبحث عنها ويستخرجها من حيث كانت فيأكلها وقد اختلف الناس فى أى موضع من الحيوان يتكون البازهر على ثلاثة أقوال:

الأول: أنه يتكون فى عينيه قالوا وذلك أنه إذا أكثر من اكله لفراخ الحيات اعترته حكة فى سائر جسده من سمها فيعمد إلى بركة ماء فيغوص فيها رافعا رأسه عن الماء إلى أن يغيب كله فى الماء حتى لا يظهر منه إلا حدقتاه فيرتفع حينئذ من سائر جسده بخار رطب إلى عينيه ثم يخرج من مأقيه اللذين يليان أنفه يمنة ويسرة ويستحيل ماء فإذا ضربه الهواء جمد وجسده حجرا وبقى معلقا بشعر ناحيتى أنفه ثم يعرض له مثل ذلك العارض فيفعل مثل هذا الفعل فيخرج بخار آخر ويستحيل ماء ويسيل من ذلك الموضع بعينه على الحجر المتكون قبل فيجمد إذا باشره الهواء فوق الحجر الأول كما جمد الذى قبله ولا يزال كذلك حتى يثقل الحجر فيسقط من ذاته أو يحكه الحيوان إذا ثقل عليه إلى حجر أو أصل شجرة فيسقط فتتبع مظانه حتى يوجد فيؤخذ منها وأخبرنى من لا أشك فى صدقه وثقة نقله أن بتخوم الشام فيما بينها وبين بلد الروم بموضع يسمى مرعش وما يتصل به ايل يأكل فراخ الحيات ويعرض له من أكلها ما ذكرناه ويفعل الوصف الذى وصفناه وأن البازهر يتكون فى عيونه على حسب ما ذكرناه.

القول الثانى: أن هذا الحجر يتكون فى قلب هذا الحيوان وأنه يصاد لاجله ويذبح ويستخرج الحجر من قلبه وهذا القول رأيته لبعض أطباء مصر حسبما نورده عنه فيما بعد وهو غير صحيح.

القول الثالث: أن هذا الحجر يتكون فى مرارة هذا الحيوان كما يتكون كثير من الاحجار فى كثير من الحيوان ويذبح فيخرج البازهر من مرارته ومن يقول ذلك يستدل على صحة قوله بأن هذا الحجر إذا ذيق ظاهره باللسان وجد طعم المرارة عليه ظاهرا وأكثر حذاق الجوهريين وأرباب الخبرة منهم على هذا القول وهذا عندى هو الصحيح وأخبرنى بعضهم أنه شاهد حجرا منه انكسر فوجد فيه حشيشة اشتمل عليها الحجر فى أصل تكوّنه.

جيده ورديئه: الخالص الجيد الموجود منه فى هذا التاريخ هذا الحيوانى المذكور قبل وهو الاصفر الخفيف الهش المنقط ذو الطبقات الابيض المحك المر المذاق.

خواصه فى نفسه: منها أنه إذا مر على حمة العقرب أبطل لسعها وإن لسعت لم يؤذ سمها ومنها أنه إن حك على أفواه الافاعى والحيات خنقها وماتت وهذا والذى قبله مما يختبر به البازهر الحيوانى الخالص من المغشوش ومنها أنه إذا جعل مع أجسام خشنة مباشرة لجسمه محتكة معه غيرت صورته وخشنته وغيرت لونه وجميع صفاته حتى لا يكاد يعرف وقد كان عندى حجر بازهر حيوانى خالص فجعلته فى كيس فيه دنانير ذهبا ثم سافرت من موضع إلى موضع آخر فلما استقريت فتحت الكيس واستخرجت الحجر البازهر فلم أعرفه حتى ظننت أنه قد بدل علىّ لتغير جميع صفاته ثم وزنته فوجدته أقل مما كان فزاد تشككى ولم يكن معى من أتهمه فعجبت من ذلك وبقيت متحيرا فى أمره ثم جعلته فى حق صغير بعد أن لففته بابريسم وغفلت عنه مدة ثم أخرجته فوجدته الحجر الذى كنت أعرفه أولا قد زالت عنه الهيئة الرديئة التى اكتسبها من احتكاكه بخشونة الذهب إلا أن وزنه نقص بما انحك منه فى الكيس ولما كان بعد ذلك جرى ذكر البازهر بينى وبين حذاق الجوهريين فعرفنى أن من خاصيته أن احتكاكه بالاجسام الخشنة يغيره فعرفته بما شاهدته فى ذلك بالتجربة تصديقا لقوله.

خواصه فى منافعه أخص منافعه النفع من السم أى سم كان قاتله أو غير قاتله من سموم الحيوان والنبات من السموم الحارة والباردة ومن عض الهوام واللدغ والنهش إذا شرب منه من ثلاث شعيرات إلى اثنى عشرة شعيرة مسحوقة أو مسحولة بالمبرد أو محكوكة على المسن بزيت الزيتون أو الماء فإنه يخرج السم بالعرق من جسد المسموم ويخلص نفسه من الموت ويفعل ذلك بجملة جوهره والخاصية المودعة فيه أنه هو حجر شريف نفيس ليس له فى جميع الاحجار ما يقوم مقامه فى دفع السموم ومن خواصه أنه إذا سحق ونثر على موضع النهش وغيره جذب السم إلى خارجه وابطل فعله.

ومن خواصه ما ذكره ابن جميع فى كتابه الملقب بالارشاد إلى مصالح الانفس والاجساد قال والحيوانى من البازهر وهو الموجود فى قلوب الايائيل افضل فى جميع الاوصاف المذكورة فى البازهر حتى أنه إذا حك بالماء على مسن وسقى منه كل يوم وزن نصف دانق للصحيح على طريق الاستعداد والتقدم بالحوطة قادم السموم القادمة وحسم من مضارها ولم يخش غائلة ولا اثارة خلط حام كما يخشى من المشرود يطوش ولا يضر المحرورين ولا النحيفين لأنه إنما يفعل ذلك بخاصية جوهره ومن خواصه أنه من تختم منه بوزن اثنتى عشرة شعيرة فى فص خاتم ثم وضع ذلك الفص على موضع اللدغ من العقارب والهوام الطيارات وغير الطيارات ذوات السموم وأجناس الزنابير والدراريح نفع منها نفعا بينا ومن خواصه أنه إذا سحق ثم نثر على موضع اللدغ من الهوام الارضية حين تلدغ اجتذب السم وأرشحه وإن عفر الموضع قبل أن يبادر إليه بالدواء ثم نثر عليه من هذا الحجر مسحوقا أبرأه ومن خواصه ما ذكره بعض الحكماء من الأوائل أنه إذا صنع خاتم من ذهب ويكون فصه بازهر ونقش عليه صورة العقرب حين يكون القمر فى العقرب ويكون العقرب وتدا من أوتاد الطالع ثم طبع بهذا الخاتم طوابع من كندر ممضوغ معمول منه قرص والقمر فى العقرب أيضا ويرفع فمن لدغته العقرب وشرب قرصا من هذه الاقراص المختومة بهذا الفص البازهر لم تضره اللسعة وبرأ منها وقد جرب هذا فوجد صحيحا وختم به على غير الكندر لئلا تكون الخاصية للكندر ففعل كما يفعل إذا ختم به على الكندر. انتهى.

الفيروزج: حجر نحاس يتكون من أبخرة النحاس الصاعدة من معدنه على ما نذكره بعد فى تكون غيره من الاحجار النحاسية.

معدنه الذى يتكون فيه الفيروزج يجلب من معدن جبل النيسابور ومنه يحمل إلى سائر البلاد ومنه نوع يوجد فى نشاور إلا أن النيسابورى خير منه.

جيده ورديئه: الفيروزج نوعان سبحانى وقبحانى والخالص منه العتيق وهو السبحانى والاجود منه الازرق الصافى اللون المشرق الصفا الشديد اللمعان المستوى الصبغ وأكثر ما يكون فصوصا وذكر الكندى أنه رأى حجرا زنته أوقية ونصف، خواصه فى نفسه منها أنه حجر يصفو لونه فى صفاء الجو ويكدر مع كدورته وذكر ارسطاطاليس أن كل حجر يستحيل عن لونه فهو ردىء للابسه ومنها أنه إذا أصابه شىء من الدهن أفسد حسنه وغير

لونه وكذلك العرق يفسده ويطفئ لونه بالكلية وكذلك المسك إذا باشره أبطل لونه وأذهب حسنه.

خواصه ومنافعه: منها أنه يجلو البصر بالنظر إليه ومنها أنه ينفع العيون إذا سحق فى الاكحال ومنها أنه إذا سحق وشرب نفع من لدغ العقارب وطبيعته البرد واليبوسة.

العقيق: حار يابس وفيه ثلاث خصال من الخواص:

الأولى: أنه من تقلد بالاحمر منه الشديد الحمرة سكنت روعته عند الخصام.

الثانية: أنه من تختم بالنوع الثانى منه وهو الذى لونه لون ماء اللحم إذا ألقى فيه الملح وفيه خطوط بيض قطع عن حامله نزف الدم من أى موضع كان من الجسد ولا سيما النساء اللواتى يدوم طمثهن.

الثالثة: أنه إذا استيك به من أى أنواعه اتفق أذهب عن الاسنان صداها وبيضها واذهب الحفر ومنع الاسنان أن يخرج من أصولها الدم.

ظرائف تليق بهذا المكان:

قال بعض الفضلاء ممن يعتمد على قوله من تمذهب للشافعى وقرأ لأبى عمر ولبس البياض وتختم بالعقيق وحفظ قصيدة ابن رزيق البغدادى فقد استكمل الظرف ومما سمع عنه قيل إن خاتمه ما وجد فى أصبع قتيل.

وقيل:

وما أحسن استخدام فيه عج بالعقيق فمدمعى يحكيه

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

لا تسل عن حديث دمعى لما ظعن الركب واستقل الفريق
لونته وأمطرته دموعى جرى منها الوادى وسال العقيق

وقال صدر الدين بن عبد الحق:

اذكرها الغضا ولذيذ عيش تقضى بالعقيق دوين سلع
فقالت ما الغضا فأجبت قلبى وقالت ما العقيق فقلت دمعى

وأنشدنى الشيخ تقى الدين بن حجة من قصيدة نبوية أولها:

شدت بكم العشاق لما ترنموا فغنوا وقد طاب المقام وزمزم
وضاع شذاكم بين سلع وحاجر فكان دليل الظاعنين إليكم
وجزتم بوادى الجزع فاخضر والتوى على خده بالنبت صدغ متمتم

ولما روى أخبار نشر ثغوركم أراك الحمى جاء الهوى يتنسم

ومنها فى المديح الشريف:

فيا ساكنى واد العقيق بأحمد خواتم خير قد أتت فتختموا

وهذه القصيدة كلها غرر فسح الله فى وجود قائلها وأنالنا شفاعة ممدوحها ﷺ وكيف لا تكون غرة وهو القائل فيها:

نبى غدا فى جبهة الدهر غرّة بنسبته البيضاء والشرك أدهم

وروضة حسن فى ربيع لنا بدت ومنبتها البيت العتيق المحرم

له النسب الاعلا فيا مادح الورى إذا كان مدح فالنسيب المقدم

ويا من غدا فى حب زينب هائما وكان له عند الرباب ترنم

بحب ابن عبد الله أولى فإنه به يبدا الذكر الجميل ويختم

تأمل ما أحسن هذا التضمين:

اليشم واليشب: حجران فضيان وكيانهما قريب بعضه من بعض ويتكونان من أبخرة مقصرة عن كيان الفضة على ما تقدم القول فيما سلف، معدنه الذى يتكون فيه كاشغر ومنه يجلب إلى البلاد وكاشغر بين الصين وغزنة مسيرة نيف وعشرين يوما من غزنة إلى جهة الشمال لسانهم تركى.

جيده ورديئه: اليشم نوعان أحدهما أبيض والآخر أصفر كلون العاج العتيق ويقال إن هذا هو الخالص.

خواصه ومنافعه من خواصه فى نفسه إذا لفت عليه شعرة من شعر الانسان ثم وضع فى النار لم يحترق الشعر وكثير من المحرفين فى بلاد العجم يحملونه ويفعلون به ذلك ويدعون أنه من شعر النبى ﷺ فيوهمون العوام بذلك وبهذه الخاصية يختبر الخالص من هذا الحجر ممن سواه ومن خواصه ومنافعه أن الصاعقة لا تقع عليه وعلى من حمله البتة وقد أخبرنى ثقات من العجم أنهم شاهدوا ذلك ببلاد العجم حيث تقع الصواعق كثيرا فبنوا فى القلعة منارة وعلوا فيها هذا الحجر فترى الصواعق نازلة من السماء تحيد عن موضع الحجر إلى سائر الجهات البعيدة عنه ويقال إن من تختم به قطع عنه كثرة الاحتلام ومن خواصه ما ذكره جالينوس فى الادوية المفردة أنه ينفع من وجع المعدة بالتعليق عليها من خارج.

البلور: معدنه الذى يتكون فيه ما يوجد بتربة العرب بالحجاز الشريف على ساكنه أفضل الصلاة والسلام وهو أجوده ومنه ما يؤتى به من الصين وهو دون العربى ومنه ما يكون

بلاد أفرنجة وهو جيد أيضا ومنه معادن بناحية أرمينية يميل إلى الصفرة الزجاجية كأنه مطبوخ بالنار وقد ظهر منه بهذا التاريخ معدن بالمغرب الاقصى بمقربة من مراكش حاضرة الغرب نقى اللون إلا أن فيه تشعيرا وهو كثير عندهم حتى فرش منه ملك المغرب مجلسا كبيرا أرضا وحيطانا.

جيده ورديئه: أجوده أنقاه وأصفاه وأشفه وأبيضه وأسلمه من التشعير فإن كان مع ذلك كبير الجرمانية كان أو غير آنية كان الغاية فى نوعه قال التيفاشى أخبرت أن تاجرا من تجار الافرنجة أهدى إلى ملك من ملوك المغرب قبة من البلور قطعتين يجلس فيها أربع نفر ورأيت منه صورة ديك مخروطا إذا صب فيه الشراب ظهر لونه فى أظفار الديك ورءوس أجنحته صنعة بلاد الافرنجة ويصنع منه كل عجيب من الاوانى وقال الكندى إن فى البلور قطعا يخرج فى القطعة منها من المعدن أكثر من مائة من قال التيفاشى وأخبرنى غير واحد من أهل غزنة بنقل متفق على صحته أن بالقرب منها بينها وبين كاشغر بمسيرة ثلاثة عشر يوما واديا بين جبلى ذلك الوادى طريق موصل إلى كاشغر والجبلان اللذان على الوادى من جهته بلور خالص يقطع فى الليل لأن أشعته إذا طلعت عليه الشمس تمنع العمل فيه بالنهار ويصنع منه خواب للماء فى كاشغر وغزنة وأخبرنى من كان متصلاً بشهاب الدين الغورى ملك غزنة أنه رأى فى قصره أربعة خوابى للماء كل خابية تحمل ثلاث روايا ماء من روايا الجمال جميعها على محمل يصعد منها إليها من بلور كل واحد من محمل ثلاث قناطير إلى أربعة.

خواصه فى نفسه: أنه يذوب كما يذوب الزجاج ويقبل الصبغ ومنها أنه يستقبل به الشمس ثم ينظر إلى موضع الشعاع الذى قد خرج من الحجر فيستقبل به خرقة سوداء فتحترق وتوجد فيها النار.

خاصيته فى منفعته من علق عليه لم ير منام سوء تم ذلك.

ذكر القاضى شهاب الدين بن فضل الله العمرى فى تاريخه الذى سماه مسالك الابصار أن شخصا من بعض التجار فى أصناف الجوهر يجهز كل سنة مماليكه وجماعة إلى المغاص ليغوصوا على اللؤلؤ فى الوقت المعتاد وهو فى شهرين فى السنة فاتفق أنه أنفذ جميع ما يملكه فى ذلك ولم يحصل على طائل ولم يطلع له شىء وافتقر ولم يبق له ما يجهز به إلى المغاص فطلب من امرأته معضدة كانت فى عضدها ذهبا فقالت له يا هذا تعمل لك بهذه المعضدة حرفة غير ما أنت فيه من اللؤلؤ فقال ما أرجع عن صنعى ومتجرى

وتجهز هو بنفسه فى جماعة إلى المغاص فغاصوا له فى الوقت المعتاد إلى اليوم التاسع والخمسين ولم يطلع له شيء إلى آخر النهار طلعت درة ما لها قيمة فأحضروها إليه وقالوا له هذه غصنى على اسم ابليس وقد رد الله عليك جميع ما أنفقته فاستدعى بحجرين ووضعها بينهما إلى أن عدمها وكسرها ثم رمى بها فى البحر فلامه الحاضرون رفقاؤه التجار على ما فعل وقالوا: قطعة مثل هذه تقع لك وما عندك مثلها تعدمها فقال: هذه القطعة ما أنتفع بها ولا أجد لها بركة ويجيء كل من يأتى بعدى يقتدى بفعلى ويغوصون له على اسم ابليس ويبقى علىّ أثم ذلك إلى يوم القيامة اذهبوا وغوصوا على اسم الله عز وجل فأصبحوا تمام الستين يوما غاصوا له على اسم الله فطلعت لهم الدرة اليتيمة فوجه بها إلى الخليفة ببغداد وهو ذاك المقتدر فابتاعها عليه بثلاثمائة ألف درهم وحسن حاله ببركة اسم الله عز وجل. انتهى ذلك والله أعلم.

الباب الاربعون
فى خزائن السلاح والكنائن

سأل عمر بن الخطاب ﷺ عمرو بن معدى كرب عن السلاح فقال ما تقول فى الرمح قال أخوك وربما خانك فانقصف، قال فما تقول فى الترس قال هو المجن وعليه تدور الدوائر، قال فالنبل قال منايا تخطئ وتصيب، قال فما تقول فى الدرع قال مفشلة للراجل مشغلة للفارس وإنها لحصن حصين، قال فما تقول فى السيف قال هنالك لا أم لك يا أمير المؤمنين فعلاه عمر بالدرة وقال له تقول لا أم لك قال الحمى أصرعتنى.

القاضى الفاضل من قصيدة:

تمد إلى الأعداء منا معاصما فترجع من ماء الكلى بأساور

وله:

ولرب هاتفة دعتهم للوغى جعلوا صليل المرهفات صداها
هى فى بحار يديه أمواج ترى نفوس من قتلته من غرقاها

العنوى:

كأن على افرنده موج لجة تعاصر فى حافاته وتجول
كأن عيون الذر كرن حوله عيون جراد بينهن دخول
حسام غداة الروح حتى كأنه من الله فى قبض النفوس رسول

أبو العلاء المعرى:

ودبت فوقه حمر المنايا ولكن بعدما مسخت نمالا
غراراه لسانا مشرفى يقول غرائب الموت ارتجالا
يذيب الرعب منه كل عضب فلولا الغمد يمسكه لسالا

النامى:

ذى مدمع من غير ما متعبر وتبسم من ثغره متوالى
ويريك فى لألأته متواقدا حنق المنون به على الآجال

وقال أعلم الرؤساء ابن الصيرفى أبو القاسم على بن منجب من نثره على طريق اللغز يبالغ فى شكره إذا أفسد وبرح ويقبل فى تزكية شهادة المجرح.

ابن قلاقس:

أسرتهم وشهرتها فجموعهم ... مذ أحرمت فى راحتيك حرام
وكلاهما جفن منعت غراره ... لكن ذا عضب وذاك منام

ابن سناء الملك:

له منصل لا ينقضى فرض حجه ... فبالضرب لبى وهو بالسل محرما
تنسك الاسلام لما رأيته ... يحل له فى الشرع أن يشرب الدما
فكم سل لما سل من بطن غمده ... لسان دم من ضربة خلقت فما

وقال وجيه الدين بن الدروى:

نشقت بأجساد الاسود لواحظا ... رنت للمنايا يا عن عيون الثعالب
وأنطقت أفواها على فم العدى ... بألسنة البيض الرقاق المضارب
بحيث الوغى روض تغنى ذبابه ... وسال على نور الطلى كالمذائب
وقد نشقت ورد الكلوم صعاده ... وما شربت الا دماء الترائب

ولـه:

سكران من شربه خمر الدما فان ... حياه نور الطلى غنى لها هزجا

ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب الاندلسى:

وخليج هند راق حسن صفائه ... حتى يكاد يعود فيه الصيقل
غرقت بصفحته النمال وأوشكت ... تبغى النجاة فأوثقتها الارجل
فالصرح منه ممرد والصفح منـ ... ـه مورد والشط منه مهدل

وقال مجير الدين بن تميم:

لما اقتنيت من الصوارم أعوجا ... يجرى القضاء بنهره المتموج
جبت القفار وما حملت اداوة ... للماء من ثقتى بنهر الاعوج

ابن نباتة:

وصارم كعباب الموج ملتطم ... يكاد يغرق رابية ويحترق
لما غدا جدولا تسقى المنون به ... أضحى يشف على حافاته العلق

الشريف البياضى:

وإنا إذا الأرواح ذابت مخافة ... فتحنا باشطان الرماح ركاياها

متى ما أردنا أن يذاق حديدنا خلعنا بحد المشرفية أفواها

ومن كلام تقى الدين بن حجة فى معنى سكون الحرب:

واعتقل الرمح بسجن السلم بعد أن كان على رأسه لواء الحرب معقود وهجعت مقل السيوف فى أجفانها لما علمت أن الزيادة فى الحد نقص فى المحدود.

وللشيخ برهان الدين القيراطى:

قوم مناديلهم بيض فكم مسحت رقاب أعدائهم تلك المناديل

الغزى وأجاد:

وقد سلب الطعن الأسنة لونها فعصفر فى اللبات ما كان أزرقا

وأسيافنا فى السابغات كأنها جداول تجرى بين زهر تفتقا

ابن خفاجة:

موسد تحت ظل السيف تحسبه مستلقيا فوق شاطئ جدول ثملا

الرمح: ذكر القاضى الرشيد بن الزبير فى كتابه العجائب والظرف أنه كان فى خزانة السلاح أيام السفاح خمسون ألف درع وخمسون ألف سيف وثلاثون ألف جوشن ومائة ألف رمح، ومنه قال الفضل بن الربيع لما ولى محمد الامير الخلافة فى سنة ثلاث وتسعين ومائة أمرنى أن أحصى ما فى الخزائن من الكسوة والفرش والآنية والآلة ذكرت الفرش والكسوة فى بابها من هذا الكتاب وأما الآلة فعشرة آلاف سيف محلاة بالذهب وخمسون ألف للشاكرية والغلمان ومائة وخمسون ألف رمح ومائة ألف قوس وألف درع خاصة محلاة وألف درع عامة وعشرون ألف بيضة وعشرون ألف جوشن ومائة وخمسون ألف ترس وأربعة آلاف سرج محلاة خاصة وثلاثون ألف سرج عامة.

القاضى الفاضل:

يقتل حيات الحقود من العدا بحيات سمر بالأسنة نهشا

وينصبها أن يرتقوا السحب سلما ويرسلها أن ينزلوا القلب كالرشا

وله:

أمنصل الرمح الطويل بكوكب من ذا يطاعن والسماك سنان

ابن سناء الملك:

ملوك يحوزون الممالك عنوة بسمر العوالى أو ببيض القواضب

رماح بأيديهم طوال كأنما أرادوا بها تثقيب در الكواكب

ابن قلاقس:

وقد كحلت بأميال العوالى أساة الحرب أحداق الدروع
وشب البأس نيران المواضى وأسبل غيث أمواه الدموع
فللفرسان من محل ووحل حديث عن مصيف أو ربيع

وله:

ومصرف الرمح الطويل سنانه فتحنا له قلما هناك محرفا
حيث العجاجة فوق لامعة الظبى تثنى على الاصباح ليلا مغدفا
فتريك طرف الجو منها أكحلا ومن الطوال السمهرية أوطفا

ابن النبيه:

والنبل فى خال العجاج كأنه وابل تتابع فى خلال سحائب
لعبت أسنته على أعلامها فكأنها شهب ذوات ذوائب

الذروى:

ووراء هاتيك الخيام أهلة هاماتها نبت الوشيج الأعوج
ارتحت حولهم لزرق أسنة حتى كأنك فى رياض بنفسج

ابن المنشد ملغزا فيه:

أى شىء يكون مالا وذخرا راق حسنا عند اللقاء ومخبر
أسمر القد أزرق السن وصفا إنما قلبه بلا شك أحمر

الفاضل:

فيا عجبا للملك قر قراره بمختلفات من قنال الشواجر
طواعن أسرار القلوب نواظر كأنك قد نصلتها بنواظر

لسان الدين محمد بن الخطيب:

وبكل أزرق إن شكت ألحاظه من العيون فبالعجاجة مكحل
متأود أعطافه من نشوة مما يعل من الدماء وينهل
عجبا له أن النجيع بطرفه رمد ولا يخفى عليه مقتل

السيد الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفق الدين على بن الآمدى:

غصون بها طير النفوس تنافرت وعهدى أن الغصن للطير مألف
ولا ورق إلا من التبر حولها ولا زهر إلا من النصر يقطف

وقال فخر القضاة نصر الله بن بصاقة كتب للناصر داود بن عيسى ووزر له وجلس معه فى صدر الايوان ومن نظمه ملغزا:

عصى ثقيل إن أطيل عنانه مطيع خفيف الكل حين يقصر
ترى منه أميا إلى الخط ينتمى ومغزى بغزو الروم وهو مزنر
عجبت له من صامت وهو أجوف ومن مستطيل الشكل وهو مدور
ومن طاعن فى السن ليس بمنحنى ومن أرعن ما عاش وهو موقر

ابن نباتة السعدى:

وولوا عليها يقدمون رماحنا وتقدمها أعناقهم والمناكب
خلقن بأطراف القنا لظهورهم عيونا لها وقع السيوف حواجب

ذكر الثعالبى فى لطائف المعارف أن أول من عمل له سنان من حديد ذو يزن الحميرى وإليه نسبت الرماح اليزنية وإنما كانت أسنة العرب من صياصى البقر.

قلت: قد كان رسم لجماعة من الفضلاء بالمملكة الشامية أن ينظموا أبياتا تكتب على أسنة الرماح وأن تكون البيوت أربعة وذلك برسم المقر العالى الطبنغا الجوبانى كافل الشام المحروس رحمه الله تعالى فنظم سيدنا المقر المرحوم الشهير بابن الشهيد فتح الدين رحمه الله تعالى:

إذا الغبار علا فى الجو غبره فأظلم الجو ما للشمس أنوار
هذا سنانى نجم يستضاء به كأنه علم فى رأسه نار
والسيف إن نام ملء الجفن فى غلق فإننى بارز للحرب خطار
إن الرماح لأغصان وليس لها سوى النجوم على العيدان أزهار

وأنشدنى القاضى المرحوم أمين الدين محمد الأنصارى لنفسه وهو اذ ذاك كاتب السر بحمص المحروسة:

عروس سنانى حين يجلى على العدا وتظهر تبدى ما لهم من بواطن
وقد صيغ من هم فين صدورهم مجال له رحب فسيح المواطن
سيلقون يوم الجمع غبنا لموتهم بطعنى ويوم الجمع يوم التغابن
وإن شهدوا بالجور فىّ وعدلوا فإنى قد بينت فيهم مطاعنى

ونظم سيدنا القاضى صدر الدين على بن الحنفى الآدمى رحمه الله وأنشدنيها من لفظه وهى من مبادئ نظمه:

النصر مقرون بضرب أسنة لمعانها كوميض برق يشرق

سبكت لتسبك كل خصم مارد ... وتطرقت لمعاند يتطرق
زرق تفوق البيض فى الهيجاء إذ ... يحمر من دمه العدو الازرق
ينسخن يوم الحرب كل كتيبة ... تحت الغبار فنصرهن محقق

ونظم الشيخ شمس الدين محمد بن بركة الرئيس وأنشدنيها من لفظه لنفسه رحمه الله تعالى:

أنا أسمر والراية البيضاء لى ... لا للسيوف وسل من الشجعان
لم يحل لى عيش العداة لأننى ... نوديت يوم الجمع بالمران
وإذا تفانمت الكماة بجحفل ... كلمتهم فيه بكل لسان
فتخالهم غنما تساق إلى الردى ... قهر المعظم سطوة الجوبان

لو قال: كلمت كلا منهم بلسان، لكان أحسن الشىء يذكر بلوازمه، نقلت من مجموعة بخط بعض الأفاضل أن بعض الأمراء بالأندلس وأظنه المنصور بن عامر رحمه الله كان إذا قصد غزوة عقد لواءه بجامع قرطبة ويجعل مسيره إلى الغزوة من الجامع فاتفق أنه فى بعض حركاته للغزوات توجه إلى الجامع لعقد اللواء واجتمع عنده القضاة والعلماء وأرباب الدولة فرفع حامل اللواء فصادف ثريا من قناديل الجامع فانكسرت على اللواء وتبدد عليها الزيت فتطير الحاضرون من ذلك وتغير وجه المنصور فقام رجل وقال أبشر يا أمير المؤمنين بغزوة هينة وغنيمة سارة قد بلغت أعلامك الثريا وسقاها الله من شجرة مباركة فاستحسن ذلك المنصور واستبشر وكانت تلك الوجهة من أبرك غزواته.

وما أظرف وألطف قول الشيخ صدر الدين بن الوكيل متغزلا:

كم قال معاطفى حكتها الأسل ... والبيض سرقن ما حوته المقل
فالآن أوامرى عليهم حكمت ... البيض تحد والقنا تعتقل

ابن تميم:

لو كنت تشهدنى وقد حمى الوغى ... فى موقف ما الموت عنه بمعزل
لترى أنابيب القناة على يدى ... تجرى دما من تحت ظل القسطل

ابن شرف القيروانى:

وقد وخطت ارماحهم مفرق الدجى ... فبات بأطراف الأسنة شائبا

القوس: حدث العتبى عن بعض أشياخه قال كنت عند المهاجرين عبد الله والى اليمامة فأتى بأعرابى كان معروفا بالشرف فقال له أخبرنى عن بعض عجائبك قال عجائبى كثيرة ومن

أعجبها أنه كان لى بعير لا يسبق وكان لى خيل لا تلحق فكنت أخرج محاربا فخرجت فاحترشت ضبا فعلقته على قتبى ثم لا أرجع خائبا فمررت بخبأ ليس فيه إلا عجوز وليس معها غيرها فقلت يجب أن تكون لها رائحة من غنم وابل فلما أمسيت إذ أنا بإبل مائة فيها شيخ عظيم البطن شثن الكفين ومعه عبد أسود فلما رآنى رحب بى ثم قام إلى ناقة فحلبها وناولنى العلبة فشربت ما يشرب الرجل فتناول الباقى فضرب به جبهته ثم حلب تسع أنيق فشرب ألبانهن ثم نحر حوارا فطبخه ثم ألقى عظامه بيضاء ثم جثى على كومة من بطحاء وتوسدها ثم غط غطيط البكر، فقلت والله هذه الغنيمة الباردة ثم قمت فحل ابله فخطمته ثم قرنته ببعيرى وصحت به فأتبعنى واتبعته الابل أربا كأنها فى قطار فصارت خلفى كأنها حبل ممدود فمضيت أبادر ثنية بينى وبينها مسيرة ليلة للمسرع فلم أزل أضرب بعيرى مرة بيدى ومرة برجلى حتى طلع الفجر فأبصرت الثنية فإذا عليها شىء أسود، فلما دنوت إذا الشيخ قاعد وقوسه فى حجره فقال أضيفنا قلت نعم قال أتسخو بنفسك عن هذه الإبل قلت لا فأخرج سهما كأنما نصله لسان كلب ثم قال أبصره بين اذنى الظبى المعلق متى ألقينة فرماه فصدع عظمه عن دماغه، ثم قال ما تقول قلت أنا على رأيى الأول ثم قال أبصر هذا السهم الثانى فى فقارة ظهره الوسطى ثم رمى فكأنما غرسها فيه ثم قال ما رأيك قلت أحب أن أستثبت، قال انظر هذا السهم الثالث فى علوة ذنبه والرابع والله فى بطنك ثم رماه فلم يخطئ العكوة، قلت آنزل آمنا قال نعم ثم دفعت إليه خطام فحله وقلت هذه ابلك لم يذهب منها وبرة وأنا أنتظر متى ترمينى بسهم تقصد به قلبى فلما تباعدت قال أقبل فأقبلت والله فرقا من شره لا طمعا فى خيره فقال أحسبك ما جئت الليلة إلا من حاجة قلت أجل والله قال فاقرن من هذه الابل بعيرين وامض لمطيتك فقلت لن والله حتى أخبرك عن نفسك فلا والله ما رأيت أعرابيا قط أشد ضرسا ولا أعدى رجلا ولا أرمى يدا ولا أكرم عفوا ولا أسخى نفسا منك، قال فاستحى وترك الإبل جميعها.

قلت: ذكر هذه الحكاية الشيخ جمال الدين بن نباتة فى سرح العيون بخلاف هذه الالفاظ وأن الشيخ المذكور زيد الخيل واسمه مهلهل، عزم الملك المعظم على الصيد فقال له بعض الجماعة يا مولانا القمر فى العقرب والسفر فيه مذموم والمصلحة الصبر إلى أن ينزل القمر القوس فعزم على الصبر فبينما هو يفكر اذ دخل مملوك كان له من أحسن

الناس وجها يقال له ايدغدى فوقف قدامه وقد توشح بقوس فقال بعض الحاضرين يا مولانا اركب الساعة فهذا القمر فى القوس حقيقة فقام لوقته وركب استبشاراً فلم ير أطيب من تلك السفرة ولا أكثر من صيدها.

الشهاب الاعزازى ملغزا فيها وفى النشاب:

ما عجوز كبيرة بلغت عمـ ـرا وتنفيها الرجال
قد علا جسمها صفار ولم تشـ ـك سقاما ولا عراها هزال
ولها فى البنين سهم وقسم وبنوها كبار قدر نبال
وأراها لم يشتهوها ففى الام اعوجاج وفى البنين اعتدال

الحلى ملغزا:

وما اسم تراه فى البروج وإنما يحل به المريخ دون الكواكب
إذا قدر البارى عليه مصيبة عدته وحلت فى صدور الكتائب

بدر الدين بن الصاحب ملغزا:

لله مملوك إذا ما قام فى الشغل اعترض
لكنه فى لحظه محصل لك الغرض

أيدمر يرثى سهما انكسر:

ياسهم هاج رداك لى بلبالا وأطار نومى والهموم أطالا
مذ نبت ما راع الحمام حمامه يوما ولا علق المنون غزالا
ولطال ما شوشت من سرب المها الفا ومن سطر الكراكى دالا
قد كنت أعجب للقسى سقيمة صفرا تئن كأنهن ثكالا
فإذا بها علما بيومك فى الردى كانت عليك تكابد الاهوالا
عجبا من الآجال كيف تقسمت فيه وكان يقسم الآجالا

وقال الإمام كمال الدين اسماعيل بن جمال الدين عبد الرزاق الاصفهانى رحمه الله: ﴿ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا * إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً * فأتبع سببا﴾[1] حكيم جبل على السداد يهدى إلى سبل الرشاد آثار بأسه مشهورة على ذرى الأعواد بطشه شديد ومرماه بعيد أيد فى مغزاه بالتعقيب يأخذ فى التشريق بعد التغريب فشدد بكل شديد الاغارة أسره ووسد إلى كل مشبوح الذراعين نصره

---

(١) الآيات: ٨٣ - ٨٥ من سورة الكهف.

فأنفذ رسله تترى شغعا ووترا فطير برده إلى الأطراف بنوع من الاستعطاف واثبت ما فى ضميره فى القرطاس اظهاراً للباس وانذاراً للناس وأغرق قوس عزائمه فى الركض وحرم على جنبه القرار فى الأرض فأعين بقوة جمع بها بين اليدين ثم قبض فى البين عند ملتقى لحدين وكان من دعائه فى انحنائه رب اشرح لى صدرى واشدد أزرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى وأخى أفصح منى لسانا فارسله معى واشركه فى أمرى نعم ويسألونك عن الأهلة صفراء من غير علة حنانة حنت ولا تهنت حية اذا انطلقت رحجنت مرتان لا عن مرض يشهب إلى غرض هلال يطلع بحلول الأجل المضروب استهلاله دليل الوقائع والحروب، مجرة تنقض منها نجوم الرجوم، برج ذو جسدين يطلع بالطائر الميشوم ثابت يقارن السيارات، وقع بنهض من وكره الطيارات ذات الحبك لا تراجع كواكبها، برج معوج الضلوع تغور فى أسرع زمان غواربها معنى أحكمت مبانيه ورفعت مجنيه حائطه مائل وعماده زائل لا يقوم مناده ولم ينقص وكاده نبأنا بساكنه فترحل منه، وبيت أزعج نازله فتحول عنه رباط موقوف على المارة لا تلبث فيه السيارة بيت منزحف ينفر عنه الطبع السليم ويفر عنه النبع المستقيم محل النزاع ينظر فيه عند المجادله متحرف للقتال يولى الظهر عند المقاتلة، سورة محكمة ذكر فيها القتال يتمسك به أصحاب الجدال شديد القوى ذو مرة يواتر بين رسله من غير فترة منى بذات الجنب يقلقه انبعاث مرته لا يسكن الا اذا دسع بحربته شيطان نطلع شمس النصرة من قرنيه مارد لا يسكن الا بتعريك أذنيه صورة مركبة ليس لها من تركيب النظم الا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم اضلاع على الوتر تطوى أكباد تحن إلى القد من الطوى متأسر شدت إلى العقب أذقانه بضيق صدره ولا ينطلق لسانه بطل شد حيازيمه للموت ويجزع من خوف الفوت بأعلى الصوت مقدام من بنى الأصفر قدم فى دار الحرب وشد عليه الوثائق حتى شكا ضيق الخناق وجرى عليه سهم الاسترقاق فصار ملك اليمين باستحقاق ولا غرو إن مال إلى أصحاب الشمال فهو فرع أصله ضال متكبر يأبى السجود للبشر فى صلبه مثل صياصى البقر مفشى عليه، جمع إلى الاصفرار نحولا وحنينا فقبض وكان فى النزاع حينا مطية تخالف سائر الانعام قيامها باليد وقيامهن بالأقدام، وكلما كانت أثبت على المقام كان راكبها أقرب إلى بلوغ المرام مضيرة يمتطيها الراكب إذا كانت معقولة وينزل عنها إذا أرسلت محلولة أعوجى يشد فى مراكض الساق أعجمى يلوى الأشداق شاكية تودع شغرا لا تعود عقيلة تحن إلى زوج من عود عاتكة شبقى شديدة العرامة أعجب بها حدباء مديدة القامة عنقاء تزف افراخ النسور تزيد

فى مرتها الدهور سلس القيادة صعب إلى ذى مرة غير مستوى، مقبوض جمع البارى عظامه فصوره وأحسن نظامه فقامت عليه القيمة ألف ونون جمعا للتثنية لا يرميه أهل القياس بالتخطئة بل بألف، قارون نون مشددة فإذا حركته أن واذا تركته اطمأن، حرف اذا رفع نصب للجر ولا يستعمل جزما بعدما دخله الكسر وحرف آخر معطوف عليه ومجرور بالاضافة إليه حرف أدغم فيه غيره بتسكين وجعل منه تشديد وتنوين هيئته شبه علامة اذا عطلت وتشاكل الباء إذا استعملت ذو نيرب مشاء بنميم عتل على الجفاء مقيم مغرق يتنكب على موارد الماء مغرق عند جر النسب والانتماء وأخوه دعى به لاحق عيص ألف ونبعه ممطورة ينمى إذا اتصل الدعى اللاصق مقيد يحمل عليه المطلق طويل العنق من حبل عاتقه معلق خفيف الرأس يميل إلى كل طياش عارى المناكب فى حبالته ذوات الرياش نحيف يرى أثر المحاجم بظهره يبتسم لفصد غيره أجش يرفع صوته بين الرماة بارز يفت فى أعضاد الكماة لمرماتنا درك الرقاة ونكب عن مراشقك الرماة كان شظيته من فرع ايك تسنمها النسور الطاويات أعجوبة جمعت بين أضدادها تمنعا فى خضوع وإباء فى خشوع وتعطفا فى قساوة وصلابة فى رخاوة اشباه أعناق الجمال طابقها زمامها أضلاع انضاء توسطها سنامها كأن قرنيه صل انسلخ من اهابه فخلع عليه بعض ثيابه مضمار جمع بين الانسى والوحشى عاطل يرفل فى اللباس موشى وثنوى يغشى النار ولا يخشى العار موتور نشر أذنيه لدرك الثار موتر أخذ فى الركوع وهو قائم خميص البطن يبتلع ذراعا وهو صائم محدوب بلغ قاب قوسين فى الارتياض متقشف ابلى طمريه فى التذلل والانخفاض منقبض جمع للانزواء أطرافه مرابط يهز عند اللقاء أعطافه متحرج يعض على ناجذ التصبر فى الشدة والرخاوة من صاحبه طرفة عين مشى على الهواء فقل فى إن التقم مرسلا فنبذه بالعراء راكع اوّاه يشكو وزره الذى أنقض ظهره يطوف على من مد إليه يد الاجتذاب ثئول ولو أن السيف جواب مجرم ألزم طائره فى عنقه وعرض على النار لسوء خلقه وسوف يؤخذ بالنواصى والأقدام ويجزىٰ بما تحمله من الاوزار والحطام ويستنطق جلوده قسرا وقهرا فينطق بما يخفيه جهرا وأنى له التناوش من مكان بعيد وقد تمكن من حز رقبته من هو أقرب إليه من حبل الوريد ناحل ألصق بطنه بظهره حتى بدت للناظرين ذات صدره وغارت كلاء فى خصره لاستيلاء قوته الدافعة الهالكة على قوتيه الجاذبة والماسكة وانقطاع حبل وريده عن شريانه وتجافى جنبه عن مصرانه ثعبان إذا أنشط من عقاله أمن الناس عادية أفعاله جموح يعثر بالراكب معرقب تحمله المناكب ضرس شرس يتمطى ويتثاوب لتمدد أعضائه متجرد يستظهر ويدل بأولاده

وأعقابه ظرف مظروفه يخالف الظرف هذا لا يقبل العدل وذا لا يقبل الصرف هيفاء متنها مجدول وفروعها مفتول خصرها دقيق وقدها رشيق توية العلياء محطوطة المطاء ناشرة اكتادها قب الكلى يضمها صاحبها إلى الصدر فتتنكب عنه وتزور مزاوج مطلاق يودع صاحبه عند الاعتناق مكلف خلق فى كبد طموح لا يذعن إلا لمن عنده مديد مقبوض يقارب السريع ويفارقه عند التقطيع صحيح معلول ممدود فى العرض مقصور فى الطول قرناء أحصنت فرجها وأبعدت من نفسها زوجها محب ذو أناة تعود وأراد البنات غيور إذا لاقى بناته الاتراب زوى حاجبه للاضراب فيمسكه على هون أم يدسه فى التراب عرق من عروق الشريان إذا جسته البنان ينبض وله ضربان قوسه حين دائرة السوء يحيط بالأعداء متعصب ينشط للمنازعة بعد الاغراء دهرى أتى عليه قرن بعد قرن فانحنى مطاه لا ينتصب إلا وعلى اليد متكاه وينشد اذا فتح فاه:

سلبت عظامى لحمها وتركتها ... مجردة تحظى لديك وتحضر

خذى بيدى ثم اكشفى الثوب تنظرى ... ضنا جسدى لكننى أتستر

عظامى إذا انتسب عصابى اذا انتصب مكاشح أولع بضرب غيره وربما رد كيده فى نحره منحدب يظهر الحنو ويضمر السوء من عصبته هى بالقوة بنو ميالة الاعطاف تسند العود إلى صدرها وتمكنه بين سحرها ونحرها وتدنى من الأسماع أوتارها فيضر بها فتغنى فتفشى أسرارها قرنان يسمح بأزواجه على الاعداء ويقذف بنات صلبه بالنكراء غليظ الكبد يجفو أفلاذ كبده ويشمئز من تحمل أعباء ولده فينفيه عن حجره ثم يحن على أثره فقيل له يا هذا أسوقا وشوقًا أجمعا:

حننت الى ريا ونفسك باعدت ... مزارك من ريا وشعبا كما معا

فما حسن أن تأتى الامر طائعا ... وتجزع ان داعى الصبابة أسمعا

وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى ... على كبدى من خشية أن تصدعا

مشاجر مشجر النسب يطاوع من يمدد إليه بسبب غدق بشمر الشوك دون الرطب منحنى الظهر حمله الحطب وثيقة جامعة لأسباب اللزوم والاحكام عرية عن النواقص مطوية على النفوذ والانبرام يتشبث بها عند الخطام متمرد كلما قيد الاستلام بأسبابه نكص وارتد على أعقابه أمين غير مأمون على الودائع وكلما استودعته فهو ضائع ظلوم يقبل الأمانة بجهله ويؤدى ما قبل إلى غير أهله نافذ الامر ليس بعادل ثانى عطفه ليجادل مكبود بعالج بالكى مطالب يدافع باللى مسدد غير سديد جمع بين المد والتشديد قاتل له فى سهم

الفرائض نصيب يأخذ ما يأخذ بالتعصيب معشش أفراخ العقاب صرت عليه رجل الغراب متجلد لا يتضعضع لريب الدهر ولو رمى بقاصمة الظهر يساهمنى فى مكابد الشدائد ويسعد فى التحنن على الأولاد والولائد:

لنا كل يوم رنة خلف ذاهب	ومستهلك بين النوى والنوائب
وقلعة إخوان كأنا وراءهم	نرامق أعجاز النجوم الغوارب

منحنى الظهر يتوكأ على العصا فيلقيها فإذا هى حية تسعى مجاهد يرجى دهره بين شدة وراحة وكد واستراحة ولين ووقاحة وقبض وسماحة وهو بين ولى ظاهر وعدو مجاهر جذوب يميل إلى من يجذب بضبعه وينازع من خالفه بطبعه وان نحت من نبعه مفتت اذا أتاه ابن السبيل فاغرا فاه أطعمه من عنده ثم ضرب قفاه وأبعده ونفاه جانية مختضبة سليطة دربه عارية كأنها أفعى جارية رقيق فيه شدة بليد فيه حدة فاتك تأبط شرا ملاعب الأسنة يقتل صبرا متلف مخلف وهارب لا يمسك سخى بما يملك لذى اليدين بذول كأنما عناه من يقول يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما محاكم يعاضد ذا اليدين على صاحب الرقبة مترسل لا يبالى باقتحام العقبة حاجب غمرات الحاظه كالعين تدخل الرجل القبر مبذر يده مغلولة إلى عنقه للحجر كوماء معقولة هوجاء مغلولة حاجب مقرون لا يوجد مثله فى القرون كالحية الرقشاء مسها لين وخطبها غير هين نائم العين بصره حديد كالجمل الانف ينقاد اذا قيد شاحب محقوقف سائق لا يتوقف بطل شد للموت حيازيمه وشحذ للقاء العدو غرار العزيمة طائفة تنبو عن سرعة الأصحاب كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب.

ومن آخر رسالة القوس للشيخ كمال الدين الأصفهانى شيخنا زين الدين بن العجمى محاجيا فى لامة:

يا سيد الحجاه	سر المحاجاة يكشف
ما مثل قول المحاجى	للنهى والامر بالكف

ومن انشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ومن الجواشن حسنه التامى والتامت لا يرى فى حلق سمائها من تفاوت قد رفع بعضها فوق بعض درجات وبنيت أسوار الحفظ المهجات قد زينت سماؤها بزينة الكواكب وفاق غمامها المتراكم وراق موجها المتراكب كم أحسنت دفاع البؤس عن النفوس عدة وقوع وكم حنت حين حنيت أضالعها على الضلوع كم دخلت جنة جنتها بسلام وكم بدت كأنها طلع نضيد ولا عجب فإنها ذوات الاكمام.

كتب إلى الجناب المجدى فيما ينقش على طير:

لئن لحت طوراً كالهلال شكاله ... فلى من غبار النقع يا صاحبى سما
فإن لحت مثل البرق فى ساعة الوغى ... فعما قليل بعده تمطر الدما

وله فيه:

ألا انظر إلى شكلى واتقان صنعتى ... وروح عن بديع الحسن عنى مخبرا
طلعت هلالاً فى سما النقع نيرا ... بتقصير أعمار البغاة مبشرا

الباب الحادى والأربعون
فى الكتب وجمعها وفضل اتخاذها ونفعها

قال ابن الخشاب ملغزا فيها:

وذى أوجه لكنه غير بايح ... بسر وذو الوجهين للسر يظهر
يناجيك بالأسرار أسرار وجهه ... فتسمعها ما دمت بالعين تنظر

وقال أبو زيد الدبوسى:

اذا ما خلا الناس فى دورهم ... بزهر الندامى وعز الصحاب
وأكل الطعام وشرب المدام ... وتم السرور بخود كعاب
خلوت وصحبى كتب العلوم ... فكان الانيس لقلبى كتابى
ودرس العلوم شراب العقول ... فطوفوا علىّ بذاك الشراب
ومن كان فى دهره جامعا ... سوى العلم جمعه للذهاب

أبو النصر الفارابى:

لما رأيت الزمان تنكسا ... وليس فى الصحبة انتفاع
كل رئيس به ملال ... وكل رأس به صداع
لزمت بيتى وصنت عرضا ... به من العز اقتناع
أشرب ممن اقتنيت راحا ... لها على راحتى شعاع
لى من قواريرها ندامى ... ومن قراقيرها سماع
وأجتنى من حديث قوم ... قد اقفرت منهم البقاع

غيره:

وما شغفى بالكتب إلا لانها ... تسامرنى من غير عى ولا ضجر
وأحسن من ذا أنها فى صحابتى ... تخفف تكليفى وتقنع بالنظر

ابن نباتة:

لله مجموع له رونق ... كرونق الحبات فى عقدها
كادت مجاميع الورى عنده ... تموت بالهيبة فى جلدها

قال الجاحظ الكتاب وعاء ملىء علما وحشى ظرفا وإناء شحن مزاحا وجدا ان شئت كان أعيى من باقل وإن شئت كان أبلغ من سحبان بن وائل وإن شئت ضحكت من نوادره وإن شئت اشجتك مواعظه والكتاب نعم الظهر والعدة والكنز والعقدة ونعم الذخر والعمدة ونعم النزهة والنشرة ونعم الشغل والحرفة ونعم الأنيس ساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ونعم القرين فى الرحيل ونعم الوزير والنزيل والكتاب هو الجليس الذى لا يطريك والصديق الذى لا يغريك والرفيق الذى لا يملك والمستميح الذى سماحته لا تستزيدك وهو يعطيك بالليل طاعته وبالنهار يطلب العطاء ويفيد فى السفر كإفادته فى الحضر.

ثم قال فمتى رأيت بستانا يحمل فى ردن وروضة تقلب فى حجر ينطق عن الموتى ويترجم كلام الأحيا ومن لك بواعظ مُلْه وبزاجر مغر وبناسك فاتك وبساكت ناطق وحار بارد ومن لك بطبيب أعرابى وبرومى هندى.

قال وسمعت حسن اللؤلؤى يقول عمرت أربعين عاما ولا بت ولا اتكأت الا والكتاب موضوع على صدرى وكان يقال انفاق الفضة على كتب الآداب يخلف عليك ذهاب الالباب.

وقرأ أبو الحسن بن طباطبا فى بعض الكتب، الكتب حصون العقلاء إليها يلجئون وبساتنهم فيها يتنزهون.

وقال بديع الزمان الهمدانى ما رأيت جارا أبر ولا رفيقا أطوع ولا معلما أخضع ولا صاحبا أظهر كفاءة ولا أقل خيانة ولا أزهد فى مال ولا أكف عن قتال من كتاب.

وقال الزمخشرى ما رأيت قرينا أحسن موافاة ولا أعجل مكافأة ولا أخص معرفة ولا أخف مؤنة ولا أطول عمرا ولا أجمع أمرا ولا أطيب ثمرا ولا أقرب مجتنى من كتاب.

وكتب ابن نباتة إلى بعض الأجلاء يستعيد كتابا فى عاريته ويسأل ارسال الكتاب الذى أشرقت بمولانا حروفه وأينعت فى الأوراق قطوفه وأصبح لفظه الباسم، كما قال العباس يكون أجاجًا دونكم فإذا انتهى وقد عزم المملوك على السفر حيث يجلى صدأ الغياهب ويتسلم الغرب وديعة الشرق من در الكواكب ويسحب ذيل الفجر المجرور ويتلو لسانه على الافق سورة النور والله تعالى الخليفة على مجد مولانا الغريب وفضله القريب وشخصه الذى لولاه فى هذا البلد لم يلف بها غريب.

وكتب لشخص أهدى كتابا فى فضائل الاعمال يقبل الباسطة لازالت بادية الاجمال

وافية الكرم على ما فى الآمال هادية مهدية بما أولته من فضائل الأقوال وفضائل الأعمال وينهى ورود كتابيه اللذين ملأ بأكبر يديه وبالنور قلبه وعينيه ونعماه نظرا ومسمعا وأرياه القمرين فى وقت معا فلله مكاتبته التى جنت نسماتها السحرية وغازلت عيون فضائلها السحرية وتضوعت حتى أرخصت الغوالى بنفحاتها الشجرية تركت والحسن يأخذه ينتعى منه وينتحب ولله كتابه الذى جمع الأعجاز والأعجاب وجالس الملوك فكأنه المعنى بقول أبى الطيب:

* وخير جليس فى الأنام كتاب *

ما أبهج عقوده المتسقة وما أحسن ما تدخل النواظر عذبا من أبوابه المنفرقة وما أجمع فصوله لحسن وإحسان وما أطيب أحاديثه عن جنان الخلد اذ طابت الأحاديث عن جنان لقد أضاء حتى حسبه مشارق الانوار وتأمله فإذا عجائب الحسن من نفسه وطرسه فى ليل ونهار وغنى فهو للطرف معنى وتلمح من فنون أفنانه الجنة صورة ومعنى فهذه الاسطر المبدعة أشجارها وهذه الألفاظ المتنوعة أزهارها وهذه الثمرات المرتفعة اطيارها وهذه الطريق المترقرقة بين السطور أنهارها وما كان المملوك قبله يحسب أن جنة تهدى فى أوراق ولا أن حديقة تسير على البعد فتعرض على أحداق فشكر الله لمولانا هذه المنن الباهرة ونفع بهداياه التى تجمع للأولياء بين خيرى الدنيا والآخرة.

استعار الصنعانى كتابا «سفينة» من صاحب له فكتب اليه لما ردها على معيرها رأيت السفينة مشحونة علوما وصاحبها الحبر بحرا وكان من الرأى ردى اليه سفينته فهى بالبحر أحرى.

وعلى ذكر المجموع فما أحسن قول الحكيم موفق الدين المعروف بالورن:

لله أيامنا والشمل منتظم	نظم به خاطر التفريق ما شعرا
والهف نفسى على عيش ظفرت به	قطعت مجموعه المختار مختصرا

ابن الوردى فى شخص أخذ له كتبا ولم يرده:

اذا لم يرد فلان الكتاب	ودافعنى عنه بالباطل
ندبت له قاضيا فاضلا	وخلصت حقى بالفاضل

ابن نباتة مع كتاب أهداه:

أرسلته نعم الجليس	اذا تغيرت البشر
يبقى على سنن الوفا	أبدا ويقنع بالنظر

وخير جليس فى الآنام كتاب هو النديم الكريم والخدن الامين البرىء من الذنوب السليم من العيوب الذى إن أدنيته لم يباعدك وإن أقصيته لم يعاودك وإن واصلته حمدته وإن هاجرته أمنته وإن استنطقته أسمعك وإن استكفيته أقنعك وإن استكفته كف وإن استثقلته خف وإن دعوته لباك وإن استعفيته أعفاك لا يعصى لك أمرا ولا يحملك اصرا عرضك معه وافر وهو لسرك غير ناشر أنيق المنظر طيب المخبر جميل المشاهد كثير المحامد يملأ العيون قرة والنفوس مسرة يضحك الحزين اللهف ولهى الغضبان الاسف يجتلب السرور ويشرح الصدور ويطرد الهموم والأحزان وينفى بواعث الأشجان مجاورته أحسن مجاورة ومسامرته أحلى مسامرة ومجالسته أنفع مجالسة ومؤانسته أمتع مؤانسة فيه مدعاة إلى الطرب ومسلاة من الوصب وثعلة لذى الغرام وتلهية لقلب المستهام وأنس للمستوحش ورى للمتعطش وعمارة للمجالس وحلية للمؤانس تلقى القلوب محبتها عليه وتميل النفوس بكليتها إليه ليس بينه وبين حبات القلوب حجاب ولا يغلق بينه وبين سويداواتها باب.

كتب شيخنا زين الدين بن العجمى على مناسك قاضى القضاة بن جماعة:

ألفت يا أزكى الورى مناسكا	فقت بها من قبلكا
قد وضحت لكل سار بهجة	ولم تدع للناقدين مدركا
وقد نلت أحكامها على الورى	لكل أمة جعلنا منسكا

الديوان: الأصل الذى يرجع إليه ويعمل بما فيه قال ابن عباس: اذا سألتمونى عن شىء من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر فإن الشعر ديوان العرب أى أصله ويقال دوّن هذا زى أثبته وأجعله أصلا وزعم بعضهم أن أصله أعجمى وذكره سيبويه فى كتابه وقال: إن أصله دوّان.

الدفتر: عربى لا يعلم له اشتقاق وحكى دفتر بالكسر ويقال أيضا تفتر وأما الكراسة فمعناها الكتب المضمومة بعضها إلى بعض والورق الذى الصق بعضه إلى بعض مشتق من قولهم رسم مكرسى إذا ألصقت الريح التراب به كما قال العجاج:

يا صاح هل تعرف رسما مكرسا	قال نعم وأعرفه ملبسا

أبليس تحير ولم تكن له حجة وقال الخليل بن أحمد الكراسة من الكتب مأخوذة من أكراس الغنم وهى أن تبول فى الموضع شيئا بعد شىء فيقلبه.

شمس الدين العفيف كان عنده مجموع فطلبه منه بعض الرؤساء فأرسل إليه وكتب له:

يأيها الصدر الذى وجه العلا	منه يزان بمنظر مطبوع
لا تعتقد قلبى بحبك وحده	هاقد بعثت لسيدى مجموعى

اجتمع لسيف الدولة بن حمدان ما لم يجتمع لغيره من الملوك كان خطيبه بن نباتة الفارقى ومعلمه ابن خالويه ومطربه الفارابى وطباخه كشاجم وخزان كتبه الخالديان والصنوبرى ومداحه المتنبى والسلامى والوأواء الدمشقى والسفاء والنامى وابن نباتة السعدى والصنبوبرى وغير ذلك.

قال مجير الدين بن تميم فيما يكتب على خزانة كتب:

انظر إلى ترى فى صورتى عجبا — شخصا حوى العلم فى صدر من الخشب
وفيه من كل فن غير أن له — وجدا يميل به شوقا إلى الأدب

وله:

يا حسنها نسخة يلهو مطالعها — وطالما قد حوت من رائق الكم
صحت وقد لطفت فى حجمها فحكت — لطف النسيم وحاشها من السقم

ولبعضهم:

ان مجموعى البديع لحلى — قد تنقيت دره المختارا
واذا لم أعره ليس عجيب — شغل الحلى أهله أن يعارا

قلت ولا بأس بايراد نبذة من التورية بأسماء الكتب فمن ذلك قول بعضهم:

ياسائلى من بعدهم عن حالتى — ترك الجواب جواب هذى المسألة
حالى اذا حدثت لا لمعا ولا — جملا لايضاحى لها من تكلمه
عبد حوى بدر الفصيح منكدا — فاترك مفصله ودونك مجمله
القلب ليس من الصحاح فيرتجى — اصلاحه والعين سحب مثقله

ومنه للشيخ أبى عبد الله بن جابر المغربى نزيل دمشق المحروسة:

عرائس مدحى كم أتين لغيره — فلما رأته قلن هذا من الاكفا
نوادر آدابى ذخيرة ماجد — شمائل كم فيهن من نكت تلفى
مطالعها هن المشارق للعلى — قلائد قد راقت جواهرها رصفا
رسالة مدحى فيك واضحة ولى — مسالك تهذيب لتنبيه من أغفى
فيا منتهى سؤلى ومحصول غايتى — لانت أمرين حاصل الوجد مستصفى

وقد اشتملت هذه الأبيات الخمسة على التورية بعشرين كتابا وهى العرائس للثعالبى والنوادر لابى على القالى وغيره والذخيرة لابن بسام وغيره والشمائل للترمذى والنكت لعبد الحق الصقلى وغيره والمطالع لابن قرقول وغيره والمشارق للقاضى عياض ولغيره والقلائد لابن خاقان وغيره ورصف المبانى فى حروف المعانى للاستاذ ابن عبد النور كتاب

لم يصنف مثله فى فنه والرسالة لابن أبى زيد ولغيره والواضحة لابن حبيب والمسالك للبكرى وغيره والجواهر لابن شاش وغيره والتهذيب فى اختصار المدونة وغيره والتنبيه لأبى إسحاق ولغيره ومنتهى السؤال لابن الحاجب والمحصول للإمام والغاية للنووى ولغيره والحاصل مختصر المحصول والمستصفى للغزالى ولغيره تم ذلك.

ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب:

ولما رأت عزمى حثيثا على السرى وقد رابها صبرى على موقف البين
أتت بصحاح الجوهرى عيونها فعارضت من دمعى بمختصر العين

ولما أنشدنهما لشيخنا العلامة أقضى القضاة بدر الدين الدمامينى أسبغ الله ظلاله أنشدنى ولم يسم قائله:

فى نصف الاستذكار أعطيته مختصر العين فأرضاه

قلت هما لابن شعيب المغربى والأول منهما:

وبائع للكتب يبتاعها بأرخص السعر وأغلاه

مأمون بن مأمون خوارزم سمع يقول همنى كتاب أنظر فيه وحبيب أنظر إليه وكريم أنظر إليه.

نادرة: مر العلم بن الصاحب بن شكر المعروف بالاجوبة على بعض الأكابر من المصريين ومعه كتاب مجلد فقال له شيخ العلم أرنى أنظر فى كتابك هذا فقال لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب.

استعار الصدر تاج الدين أحمد بن سعيد بن الاثير الكاتب مجموعا من مجاهد الدين ابن شقير وأطال مطله فاتفق أن حضر يوما إلى ديوان المكاتبات فقال ابن الاثير: كيف أنت يا مجاهد الدين والله قلبى عندك وخاطرى عليك، فقال وأنا والله مجموعى عندك فطرب لهما الحاضرون.

قال الفاضل كل كراسة لا يخرم أنفها ولا يكون الجلد دفها عرضة للضياع وما مكانها من الخزانة الا مسترق الوداع لالصفدى:

ملكت كتابا أخلق الدهر جلده وما أحد فى دهر بمخلد
اذا نظرت كتبى الجديدة جلده يقولون لا تهلك أسى وتجلد

كتب سيدى وأخى القاضى شهاب الدين بن حجر سامحه الله على جزأى تذكرتى التى سميتها ثمرات الاوراق:

نظرت لما سطرته من مجامع لها الفضل اذا راقت محاسنها تعزى

وقـد لذ منهـا ما كـتبت بخـاطرى ولم يكف طرفى منه جـزء ولا أجزا

ابن نباتة:

رب مـليـح رأى كـتـابـا فـقـال مـا هذا الـمليح عـندك

فـقلت فى الـحـال يـا كـتـابى غـيـب والا سـلـخـت جلـدك

ووجدت على ظهر كتاب هذا البيت:

وما الكتـب الا كالضـيـوف وحقـها بأن تـلقى بالقـبـول وان تقـرى

ابن الوردى وكتبها على كتاب الشمائل للترمذى:

يا أشـرف مـرسل كـريـم مـا ألطف هـذه الشـمـائل

مـن يـسـمع لفـظهـا تـراه كـالـغـصن مع الـنـسيم مـائل

الباب الثانى والأربعون
فى الخيل والدواب ونفعها

قيل: أول من اتخذ الخيل وركبها اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وكان داود وسليمان عليهما السلام يحبان الخيل وورث سليمان عن أبيه ألف فرس، وكان للنبى ﷺ فرس يقال له السكب.

نادرة: كانت مغنية عند رجل فلما أرادت الانصراف : اسرجوا لها الاشهب فقالت لا أريده هو يمشى إلى خلف قال لها فحولى ذنبه إلى ناحية بيتكم.

القول فى طبائع الفرس: وإنما بدأت به لأنه قريب من الاعتدال الخالص وأحسن ذوات الأربع صورة وأفضل من سائرها وأشبهها بالانسان لما يوجد فيه من الكرم وشرف النفس وعلو الهمة وتزعم العرب أنه كان وحشيا وأول من ذلل صعبه وركبه اسماعيل عليه السلام وهو جنان عتيق وهو المسمى فرسا وهجين وهو المسمى برذونا والفرق بينهما أن عظم البرذون أحسن من عظم الفرس وعظم الفرس أصلب وأثقل من عظم البرذون والبرذون أحمل من الفرس والفرس أسرع من البرذون والعتيقى بمنزلة الغزال والبرذون بمنزلة الشاة ولكل واحد منهما نفس تليق به وآلات مناسبة له وفى طبع الفرس الزهو والخيلاء والعجب والسرور بنفسه والمحبة لصاحبه ومن أخلاقه الدالة على كرمه شرف نفسه ومن شرفها أنه لا يأكل بقية عليق غيره وعلو همته كما حكى المؤرخون أن أشقر مروان كان سائسه لا يدخل عليه الا باذن يحرك له المخلاة فإن حمحم دخل وان دخل ولم يحمحم شد عليه وناهيك بهذا الخلق فى علو الهمة والأنثى من الخيل ذات شبق شديد ولشدة شبقها تطيع الفحل من غير نوعها ويقال إنه متى اشتد شبقها وقص من عرفها سكن عنها والذكر يشتد به الشبق ويزيد حتى يؤثر أن يأتى لفرط شهوته وقصور آلته عن الوفاء بتسكين ما يجد وربما اقتتل الفحلان بسبب الانثى حتى تكون لمن يغلب منهما ويقال إن الإناث تمتلئ فى أوان السفاد ريحل واذا أصابتها هذه الآفة ركض بها ركضا شديدا متابعا ،ولا يؤخذ بها إلى الشرق ولا إلى الغرب بل إلى الشمال والجنوب حتى يخرج من أرحامها بشىء كما يخرج عند ولادتها وهى فى زمان السفاد تطأطئ برءوسها وتحرك أذنابها ويسيل

من قبلها شىء يشبه المنى غير أنه رقيق وإذا تودقت الرمكة فأفرطت وكان بها هزال أو ضعف من علة ولم يمكن أن تبرأ علتها لتلك أنزى عليها بغل لأنه لا يلحقها وهو يبلغ أقصى شفائها وغاية شهوتها بالذى معه من الطول والغلظ فيسكن ذاك عنها، والذكر يكون مع ثلاث إناث وأكثر وإذا دنا ذكر آخر من الأنثى التى اختارها قاتله وطرده والطمث يعرض للاناث لكنه أقل من طمث النساء والذكر ينزو اذا تمت له سنتان وكذلك الإناث والإناث تحمل أحد عشر شهرا وتضع فى الثانى عشر وهى تضع ولدا واحدا وربما وضعت فى النادر اثنين والذكر ينزو إلى تمام أربعين سنة وربما عمر إلى تسعين سنة والأنثى تأنف من نزو الحمار عليها فإذا أريد ذلك منها أخذت بعرفها فتذل وتستكين وكذلك الفحل يأنف أن ينزو على أخته وعلى أمه ولقد حكى أنه أريد أن يحمل على رمكة ولد لها يريدون بذلك العتق فأنف فلما سترت بثوب نزا عليها فلما رفع الثواب ورآها من محضر ألقى نفسه فى بعض الأودية فهلك، والخيل قد ترى الأحلام وتحتلم كبنى آدم وذلك لفرط الشهوة فيها ومتى ضلت الانثى أو هلكت وكان لها فلو أرضعته الإناث وربته وإذا لم يكن فيها ما يرضع عطف عليه العواقر وتعاهدنه ولكنه يهلك إذ ليس فيها لبن وربما ضل الفلو عن أمه فرضع من غيرها فإذا فعل ذلك ماتت أمه، ويعترى الفرس داء شبيه بالكلب وعلامته استرخا أذنيه إلى ناحية عرفه وامتناعه من العلف وليس لهذا الداء علاج الا السكين، وفى طبع الفرس أنه لا يشرب الماء الا كدرا حتى أنه يرد الماء وهو صاف فيضرب بيده حتى يكدره ويبين عكره وربما ورد الماء الصافى وهو عطشان فيرى فيه خيالا له ولغيره فيتحاماه ويأباه وذلك لفزعه مما يراه ويوصف بحدة البصر حتى أن بعض المغالين فيه يقول لو أجرى فرس من شوط بعيد فى يوم ضباب واعترضت بين يديه شعره لتوقف عندها ولم يتعهدها وفى طبعه أنه إذا وطئ على أثر الذئب خدرت قوائمه حتى لا يكاد يتحرك وخرج الدخان من جلده واذا وطئه الحامل منها ازلقت.

فصل: والعلامات الجامعة للنجابة فى الفرس ما ذكره أيوب بن الفريه وقد سأله الحجاج عن صفة الجواد من الخيل فقال: القصير الثلاث الصافى الثلاث الطويل الثلاث الرحيب الثلاث، فقال صفهن فقال: أما الثلاث الصافية فالعينان والأديم والحوافر، وأما الثلاث القصار: فالعسيب والساق والظهر، وأما الثلاث الطوال: فالأنف والعنق والذراع، وأما الثلاث الرحبة: فالجوف والمنخر والجبهة.

ومما قيل فيه قول عبد الجبار بن حمديس الصقلى:

ومجرر فى الأرض ذيل عسيبه حمل الزبرجد منه جسم عقيق
يجرى فلمع البرق فى آثاره من كثرة الكبوات غير مفيق
ويكاد يجرى سرعة من ظله لو كان يرغب فى فراق رفيق

القول فى طبائع البغل قال أصحاب الكلام البغل حيوان مركب من الفرس والحمار ومتولد من فساد منهما ولما كان ممتزجا بينهما صار له صلابة الحمار وعظم آلات الخيل وكذا سحيحه مولد بين نهيق الحمار وصهيل الفرس، وقال الجاحظ: البغل يخرج بين حيوانين يلدان مثلهما ويعيش نتاجهما ويبقى بقاءهما وهو لا يعيش له ولد وليس بعقيم ولا يبقى للبغلة ولد وليست بعاقر وهو أطول عمرا من أبويه وأصبر على الأفعال من طرفيه كابن المذكرة من النساء و المؤنث من الرجال فإنه يكون نتاجهما أخبث من البغل وأفسد اعراقا من السبع وأكثر عيوبا من الثعبان وشر الطباع ما تجاذبته الأعراق المتضادة والأخلاق المتعادية والعناصر المتباعدة ويقال إن أول من أنتجها قارون وقيل أفريدون ومن أخلاقه الالف لكل دابة ويذكر بالهداية فى كل طريق يسلكه مرة واحدة ويقول أصحاب الكلام فى الطبائع أن أبوال إناث الأبغال تنقية لأجسادها كما تنقى النساء بدم الطمث.

محائل النجابة فى هذا النوع: قال بعضهم إذا اشتريت بغلة فاشترها طويلة العنق تجده فى نجابتها مشرقة الهادى تجده فى طباعها مجفرة الجوف تجده فى صدرها، والاحسن فى مدحها قول عبد الرحمن بن أبى ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب جوابًا لصفوان بن عمرو بن الاهتم وقد أنكر عليه ركوب البغل قال: تطأطأت عن خيلاء الخيل وارتفعت عن ذلة العير وخير الأمور أوسطها، ويقال كم فى السواحج من أسحج الخدين شهير الحدين شؤمه شؤم العناق ويومه شهر لذوات الأعناق راكبه يركب أبدا وطيا وتحسبه وهو يمر مر السحاب طيا، والاناث منها أحمد أثرا ولذلك قيل: عليك بالبغلة دون البغل فإنها جامعة للشمل مركب قاض وإمام عدل وعالم وسيد وكهل تصلح للرحل وغير الرحل.

وساير عبد الحميد مروان بن محمد الجعدى على بغلة فقال له طالت صحبة هذه الدابة لك فقال يا أمير المؤمنين من بركة الدواب طول صحبتها، فقال صفها فقال: همها أمامها وسوطها زمامها وما ضربت قط إلا ظلمًا.

القول فى طبائع الحمار الاهلى: قال المتكلمون فى طبائع الحيوان ليس فى الحيوان شيء ينزو فى غير نوعه ويلقح ويأتى فيه شبهه إلا الحمار وهو ينزو إذا مضى له ثلاثون شهرا

ولا يولد له قبل أن يتم ثلاث سنين ونصف قالوا وهذا النوع صنفان: صنف عاس حاس وهو يصلح لحمل الاثقال، والآخر لدن دمث أحر وايبس من نفس الفرس فتراه كثير الشغب والحركة بمنزلة النار المتوقدة التى لا يهدأ اضطرابها فهذا يصلح أن يرفه للركوب فى قضاء الأوطار والحاجات وأجود الحمر المصرية وأهلها يعتنون بتربيتها والقيام عليها لما يجدونه من الفراهة وسرعة الحصر والنجابة ويبالغون فى أثمانها بحسب فراهيتها حتى بيع منها فى بعض السنين حمار بمائة دينار وعشرة دنانير فقد كان صاحبه يسمع أذان المغرب بالقاهرة فيركب ويسوقه فيلحقها بمصر وبينهما ثلاث أميال، ومن عادة الحمار أنه إذا شم رائحة الأسد رمى بنفسه عليه من شدة خوفه له يريد بذلك الفرار منه قال حبيب بن أوس الطائى فى أبيات يخاطب بها عبد الصمد بن المعدل وقد هجاه حيث يقول:

أقدمت ويلك من هجوى على خطر كالعير يقدم من خوف على الاسد

ويوصف بالهداية لأنه لا يضل عن طريق سلكه ولو مرة واحدة ولا يخطئه فإن ضل راكبه هداه إلى طريق وحمله على المحجة وربما غاب عن الموضع الذى كان فيه السنين العديدة فاذا مر بالزقاق الذى فيه الموضع دخله وربما سرق فتكون معرفته للموضع عونا لصاحبه على معرفة من سرقه، ويوصف بحدة حاسة السمع بحيث انه ينذر راكبه بما يتوقع خوفه فيحذر منه وإن بعُدَ مثواه، وهذا الحيوان يحس بالبرد ويؤذيه أكثر من غيره ولهذا لا يوجد فى بلاد موغلة فى الشمال وبلاد الصقالبة ويعتريه داء الدماغ كالزكام يعرض له البرد فى دماغه ويسيل من منخره بلغم كثير حار فان انحط الى الرئة مات والطريق العجيب انه اذا نهق أضر بالكلب حتى يقال ان أهون نهيقه يحدث بالكلب مغسا فلذلك يطول نباحه:

طريقتان رأيت ألا أتركهما لأنهما أعجوبتان:

إحداهما: أنى ركبت حمارا من مصر إلى القاهرة فلما كنت فى أثناء الطريق حاد بى عن السكة فجهدت أن أردَّه فلم أطق حتى انتهى الى جدار بستان فوقف وبال وعاد إلى الطريق، وكذا جرى لى مع حمارين آخرين.

والأخرى: انه كان عندنا رجل بمصر يضرب حلقة على حمار قد علمه وكان يجمع له عدة مناديل من المتفرجين عليه ويلقيها على ظهره ويأمر بان يعطى كل منديل لصاحبه فيدور فى الحلقة ولا يقف إلا على من له فى ظهره منديل فإن أخذه ذهب عنه وإن أخذ غيره لا يذهب ولو ضربه مائة ضربة ويأخذ الخاتم من أصبع الرجل ويسأله عن وزنه ويقول له كم وزن الخاتم فان كان وزنه درهما مشى خطوة واحدة وان كان درهما ونصفا مشى خطوة ونصفا وان كان أكثر من ذلك فبحسابه، وبينما هو واقف إذ قال له شخص الوالى يسخر

الحمير فما تم كلامه إلا وقد ألقى بنفسه على الأرض ونفخ بطنه وقطع نفسه كأنه ميت منذ زمان، ثم قال له بعد ذلك ما بقيت سخرة فنهض قائمًا ذكر ذلك صاحب المباهج.

ما قيل فيه من الأوصاف:

قال أبو العيناء لبعض سماسرة الحمير: اشتر لى حماراً لا بالطويل اللاحق ولا بالقصير اللاصق إن خلا الطريق تدفق وإن كثر الزحام ترفق لا يصادم بى السوارى ولا يدخل بى تحت البوارى إن أكثرت علفه شكر وإن أقللته صبر وإن ركبته هام وإن ركبه غيرى نام فقال له: إن مسخ الله بعض قضاتنا حمارا أصبت حاجتك وإلا فليست موجودة.

وقال شيب بن شبة لقيت خالد بن صفوان على حمار فقلت له: يا صفوان أين أنت عن الخيل؟ فقال تلك للطلب والهرب ولست طالبا ولا هاربا، قلت فأين أنت عن البغال؟ فقال تلك للانزال والاثقال ولست ذا نزل ولا ثقل، قلت فأين أنت عن البراذين؟ قال تلك للمعدين والمسرعين ولست معدا ولا مسرعا، قلت فما تصنع بحمارك؟ قال أدب عليه دبيبا وأقرب عليه تقريبا وأزور اذا شئت عليه حبيبا، ثم لقيته بعد ذلك على فرس فقلت له يا صفوان ما فعلت بالحمار؟ قال بئس الدابة إن أرسلته ولى وإن استوقفته أدلى قليل القوة كثير الروث بطىء عن الغارة سريع إلى الغرارة لا ينكح به النسا ولا ترقى به الدما.

ويروى أن سليمان بن على رآه على حمار فقال له زين الخيل يا أبا صفوان فقال الخيل للجمال والبغال للأثقال والإبل للأحمال والحمير للإمهال، وقال جرير بن عبد الحميد لا تركب الحمار فإنه إن كان حديدا أتعب بدنك وإن كان بليدا أتعب رجليك .

ومما قيل فيه قول أحمد بن أبى طاهر:

شية كأن الشمس فيها أشرقت	وأضاء فيها البدر عند تمامه
وكأنه من تحت راكبه اذا	ما لاح برق لاح تحت غمامه
ظهر كمجرى الماء لين ركوبه	فى حالتى اتعابه وحمامه
سفهت يداه على الثرى فتلاعبت	فى حزنه وسهوله واكامه
عن حافر كالصخر إلا أنه	أقوى وأصلب منه فى استحكامه
ما الخيزران اذا انثنت أعطافه	فى لين معطفه ولين عظامه
فكأنه بالريح منتقل وما	جرت الرياح كجريه ودوامه
أخذ المحاسن آمنا من عيبه	وحوى الكمال مبرأ من ذامه

الجزار يصفه بالبلادة والعجز:

هذا حماري فى الحمير حمار ... فى كل خطوة كبوة وعثار
قنطار تبن فى حشاه شعيرة ... وشعيرة فى ظهره قنطار

القول فى طبائع الإبل: وهذا النوع ثلاثة أصناف: عرابى ويمنى ونجيبى فاليمنى هو النجيب وينتزل منها منزلة العتيق من الخيل والعرابى كالبرذون والنجيبى كالبغل ويقال النجيب ضأن الإبل وهى متولدة من فاسد منى العرابى فقط فان منى النجب منجب فكأنه حصل له نصف البغل فأما النجيب فزعم من حكى عن الجاحظ قوله: إن فى الإبل ما هو وحشى وأنه يسكن أرض وبار وهى غيرمسكونة وقالوا ربما بدا الجمل فى الهياج فيحمله ما يعرض له على أن يأتى أرض عمان فيضرب فى أذنى ما هجمه من الإبل فالمهرية من ذلك النتاج وتسمى الإبل الوحشية الحوس ويقولون إنها بقايا إبل عاد وثمود ومن أهلكه الله تعالى من العرب العاربة والمهرية منسوبة الى مهرة قبيلة باليمن وهى لا يعد لها شيء فى سرعة عدوها يعلفونها بسمك يصاد فى بحر عمان يصاد ويقدّد، وأما النجيب فمنها ما يرهون مثل البراذين ومنها ما يجمز جمزا ويرقل ارقالاً والجمز فى الإبل كالخبب فى الخيل.

وحكى أبوهلال العسكرى فى كتاب الأوائل إن أول من ريضت له الإبل على الحمر أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور لما حجت، وقال الجاحظ اذا ضربت الفوانح فى العرب جاءت بالجوامر والنجب الكريمة وفى البخت ما له سنامان فى ظهره كالسراج ولبعضها سنامان فى عرض ظهرها أحدهما فى ذات اليمين والآخر فى ذات الشمال وتسمى الخراسانية، وقد يشق عن سنام البعير ويكشط جلده ثم يجتث من أصله ويعاد على موضعه الجلد فيلتحم عليه ويؤخذ السنام فيؤكل كما يفعل بعض الناس ذلك بالكباش اذا عظمت إلياها وعجزت عن النهوض فيقطعونها، ويقول أصحاب السير لطبائع الحيوان: إنه ليس لشيء من الفحول مثل ما للجمل عند الهياج من الارباد وسوء الخلق وهجران المرعى وترك الماء حتى ينضم ابطاه ويتمم رأسه ويكون كذلك الأيام الكثيرة وهو فى هذا الوقت لا يدع إنسانا ولا جملا يدنو منه ولو حمل على ظهره حينئذ، مع امتناعه شهرا من الطعام ثلاثة أضعاف حمله لحمله وهو لا ينزو إلا مرة واحدة يقيم فيها النهار أجمع ينزل فيها مرارا كثيرة يجيء منها ولد واحد ويخلو فى البرارى حالة النزو ولا يدنو منه غير راعيه الملازم وذكره صلب جدّا لأنه من عصب، والأنثى تحمل اثنى عشر شهرا وتلقح اذا مضى عليها ثلاث سنين وكذلك الذكر ينزو فى هذه المدة ولا ينزو عليها إلا بعد

أن تضع بسنة وفيه من كرم الطباع انه لا ينزو على أمهاته ولا إخوته ومتى حمل على أن يفعل حقد على من ألزمه ذلك إلى أن يقتله.

وحكى أن جملا احتيل عليه بتغيير صورة أمه حتى نزا عليها ثم عرفها عند فراغه فألقى نفسه من شاهق حتى مات وليس فى الحيوان من يحقد حقده وانه يترصد من حقد عليه الفرصة والخلوة لينتقم منه فاذا أصاب ذلك لم يبق عليه، وفى طبعه الاهتداء إلى الطريق التى اعتاد سلوكها لا يضل فيها ليلا ولا نهارا والعرب تضرب به المثل فى ذلك فيقولون أهدى من جمل، والغيرة والصولة والصبر على الحمل الثقيل وعن الماء الزمن الطويل الخمسة أيام والستة والعشرة اذا كان الزمان ربيعا، والعرب تسمى الأيام التى ترد فيها الإبل الخمس والسدس والسبع والثمن والتسع والعشر وكلها بالكسر ويقال إن البعير اذا صعب وخافته رعاته استعانوا عليه فتركوه وعقلوه حتى يلومه فحل آخر فاذا فعل به ذلك ذل والإبل تميل إلى شرب الماء الكدر الغليظ وهو الماء النمير فهى أبداً اذا وردت مياه الأنهار حركتها بأرجلها حتى تتكدر وهى عشاق الشمس فلهذا ترى أبدا تصوب إليها فى أى جهة كانت من المشرق أو المغرب.

ومن عجيب ما ذهبت إليه العرب فى الإبل إذا كثرت فبلغت الألف فقئوا عين الفحل فان زادت على الألف فقئوا عينه الأخرى ويزعمون أن ذلك يطرد العين عنها، ومما قيل فيها قول بعضهم لم تخلق نعم خير من الإبل إن حملت أثقلت وإن سارت أبعدت وإن حلبت أروت وإن نحرت أشبعت.

الشيخ عز الدين الموصلى فى حادى:

حـــاد لنا كـــالشـــادن الربيب   لحظنـــه بالمنظر المـــريب

فـــقـــال فـى السكرة عند نومـــه   يا رب سلمـــهـــا من الدبيب

وعلى ذكر الحادى قال الشيخ شمس الدين بن الصائغ أحسن ما سمعته من الحداة يحدون به جمالهم فى طريق الحجاز قولهم:

يا خـــودان طال المـــدى تنسينى   ينـــى الذى ينســـاك نـوم العـــين

وآخر يقول:

كم لـيلة ســـهـــرتـهـــا لم أرقـــد   إلا رقـــادا كـــرقـــاد الأرمـــد

القاضى الفاضل فى وصف الخيل:

جنائب فى بحر العجاج سفائن   فان حركت للركض فهى جنائبه

وقـــد خـــفـــقت راياته فكأنـــهـــا   أنامل فى عمر العدو تحاسبه

وله من قصيدة:

لها غرر يستضحك النصر وجهها	فتفهم منها العين معنى البشائر

وقال النبى ﷺ: «بطونها كنز وظهورها حرز وأصحابها معونون عليها.

صفة جياد الخيل: سأل معاوية من صعصعة بن صوجان أى الخيل أفضل؟ فقال الطويل الثلاث، القصير الثلاث، العريض الثلاث، الصافى الثلاث، فقال فسر لنا قال أما الطويل الثلاث: فالأذن والعنق والحزام وأما القصير الثلاث: فالصلب والعسيب والقضيب وأما العريض الثلاث: فالجبهة والنحر والورك وأما الصافى الثلاث:فالأديم والعين والحافر، كان محمد ابن السائب الكلبى يحدّث إن الصافنات الجياد المعروضة على سليمان بن داود كانت ألف فرس ورثها عن أبيه فلما عرضت عليه ألهته عن صلاة العصر حتى توارت الشمس بالحجاب فعرقبها إلا فرسا لم تعرض عليه فوفد عليه قوم من الازد وكانوا أصهاره فلما فرغوا من حوائجهم قالوا: يا نبى الله إن أرضنا شاسعة فزوِّدنا زادا يبلغنا فأعطاهم فرسا من تلك الخيل، وقال فاذا نزلتم منزلا فاحملوا عليه غلاما واحتطبوا فانكم لا ترون ناركم حتى يأتيكم بطعام فساروا بالفرس فكانوا لا ينزلون منزلاً إلا ركبه أحدهم للقنص ولا يفلت شىء تقع عينه عليه من ظبى أو بقرة أو حمارة إلى أن قدموا بلدهم فقالوا ما لفرسنا هذا اسم إلا زاد الراكب فسموه زاد الراكب فأصل فحول العرب من نتاجه، وطلب البحترى الشاعر من سعيد بن حميد الكاتب فرسا فوصف له انواعا من الخيل فى شعره فقال:

لأكلفن العيس أبعد همة	يجرى إليها خائف أو مرتجى
وإلى سراة بنى حميد انهم	أموا كواكب أشرقت فى مدحج
والبيت لولا أن فيه فضيلة	تعلو البيوت بفضله لم يحجج
فأعن على غزو العدو بمنطو	أحشاؤه طىّ الرشا المتدرج
اما بأشقر ساطع أغشى الوغى	بمثل الكوكب المتأجج
متسربل شية طلت أعطافه	بدم فما تلقاه غير مضرج
أو أدهم صافى الأديم كأنه	تحت الكمىّ مظهر بالنبرج
صرم يهيج السوط من شؤبوبه	هيج الجنائب من حريق العرفج
خفقت مواطئ وقعه فكلونه	يجرى برملة عالج لم يرمج
أو اشهب يقق يضئ وراءه	متن كمتن اللجة المترجرج
يخفى الحجول ولو بلغن لبانة	فى أبيض متألق كالدملج
أوفى بعرف أسود متعرف	فيما يليه وحافر فيروزجى

أو أبلق يملأ العيون اذا بدا من كل لون معجب بنموذج
جذلان تحسده الجياد إذا مشى عنقا بأحسن حيلة لم تنسج
وعريض أعلا المتن لو عليته بالزيبق المنهال لم يتدحرج
خاضت قوائمه القويم بناؤها أمواج بجنيب بهن مدرج
ولانت أبعد فى السماحة همة من ان يضن بملجم أو مسرجِ

نادرة: ذكرها أبو حيان التوحيدى فى الامتاع والمؤانسة قال الاصمعى مر اعرابى على قوم وهم على ماء لهم فقال: من رأى جملا أحمر بعنقه غلاط وفى أنفه خزامة يتبعه بكرتان سمراوان عهد العاهد به عند البئر؟ فجعل القوم يقولون حفظ الله علينا وجمع عليك لا والله ما أحسنا وجويرية على حوض لها تمدر وهى تقول لاجمع الله عليك يا فاسق فقالوا ما تريدين من الرجل، قالت إنما ينشد سوأتيه قال فتبعته فقلت له يا هذا ما تنشد قال ايرى وخصيتى.

نادرة: اشترى رجل من رجل برذونا فقال له المشترى سألتك بالله هل فيه عيب قال لا الا أن فيه قليل مشش كأنه سفرجله وقليل جرد كأنه تناية وكليل دبر كأنه بطيخة، فقال له المشترى يا بن الفاعلة جئنا نشترى منك برذونا أو بستانا.

قال المدائنى كان ابن أبى هريرة يساير سنان بن مكمل النميرى فتقدمت بغلة النميرى ابن هبيرة فقال غض من بغلتك فالتفت اليه النميرى وقال أصلح الله الأمير إنها مكتوبة وإنما أراد ابن هبيرة قول الشاعر:

فغض الطرف انك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وأراد النميرى قول سالم بن دارة من بنى فزارة:

لا تأمنن فزاريا خلوت به على قلوصك واكتبها باسيار

وكتب الوهرانى على لسان بغلته إلى الأمير عز الدين موسك المملوكة ريحانة بغلة الوهرانى يقبل الأرض بين يدى الأمير عز الدين حسام أمير المؤمنين نجاه الله من حر السعير وعطر بذكره قوافل العير ورزقه من القرظ والتبن والشعير وسق مائة ألف بعير واستجاب فيه صالح أدعية الجم الغفير من الخيل والبغال والحمير، وننهى إليه ما نقاسيه من مواصلة الصيام وسوء القيام والتعب فى الليل والناس نيام، قد أشرفت مملوكته على التلف وصاحبها لا يحتمل الكلف ولا يوافى بالخلف ولا يقول بالعلف لأنه فى بيته مثل المسك والعنبر والاطريفل الأكبر أقل من الأمانة فى الاقباط والعقل فى رأس قاضى سنباط فشعيرة

أبعد من الشعرى العيور ولا وصول اليه ولا عبور وقراطه أعز من قرط مارية لا يخرجه صدقة ولا هبة ولا عارية والتبن أحب إليه من الابن والجلبان أعز من دهن البان والقصيم بمنزلة الدر النظيم والقضة أجمل من سبائك الفضة وأما الفول فمن دونه ألف باب مقفول فما يهون عليه ان يعلف الدواب إلا بعيون الآداب والفقه اللباب والسؤال والجواب وما عند الله من الثواب ومعلوم يا سيدى أن البهائم لا توصف بالحلوم ولا تعيش بسماع العلوم ولا تطرب إلى شعر أبى تمام ولا تعرف الحرث بن همام ولا سيما البغال التى تشتغل فى جميع الاشغال شبكة من الفصيل أحب إليها من كتاب التحصيل وقنة من الدريس أشهى إليها من فقه ابن ادريس لو أكل البغل كتاب المقامات مات وإن لم يجد إلا كتاب الرضاع ضاع وإن قيل له أنت هالك إن لم تأكل موطأ مالك ما قبل ذلك وكذلك الجمل لا يتغذى بشرح أبيات الجمل وحزمة من الكلاء أحب إليه من شعر أبى العلاء وليس عنده طيب شعر أبى الطيب وأما الخيل فلا تطرب إلا لسماع الكيل وإذا أكلت كتاب الذيل ماتت فى النهار قبل الليل والويل لها ثم الويل ولا تستغنى الاكاديش عن الحشيش وكل ما فى الحماسة من شعر أبى الحريش واذا أطعمت الحمار شعر ابن عمار حل به الدمار وأصبح منفوخا كالطبل على باب الاصطبل وبعد هذا كله فقد راح صاحبها الى العلاف وعرض عليه مسائل الخلاف فطلب من تبنه خمس قفاف فقام اليه بالخفاف يخاطبه بالشعير وفسر عليه آية التعبير وطلب منه ويبة شعير فحمل على عياله ألف بعير فانصرف الشيخ منكسر القلب مغتاظا من الثلب وهو أنحس من ابن بنت الكلب فالتفت الى المسكينة وقد سلبه الغيظ ثوب السكينة وقال لها إن شئت أن تكدى فكدى لا ذقت شعيرا ما دمت عندى فبقيت المملوكة حائرة لا قائمة ولا ثائرة فقال لها العلاف لا تجزعى من خباله ولا تلتفتى على سباله ولا تنظرى الى نفقته ولا يكون عندك أخس من عنفقته هذا الامير عز الدين سيف أمير المؤمنين عز المجاهدين أندى من الغمام وأمضى من الحسام وأبهى من البدر ليلة التمام يرثى للمحروب ويفرج عن المكروب وهو من بنى أيوب ولا يرد قائلاً ولا يخيب سائلا فلما سمعت المملوكة هذا الكلام جذبت الزمام ورفصت الغلام وقطعت اللجام وشقت الزحام حتى طرحت خدها على الاقدام ورأيك العالى والسلام.

ذكر القاضى الرشيد بن الزبير فى كتابه العجائب والظرف انه لما مات أحمد بن طولون ترك فى بيت ماله عينا عشرة آلاف دينار وفى حاصله ألفى ألف وسبعمائة ألف درهم

سوى ما كان مودعًا عند حميد الطويل وهو ألف دينار سوى ما حمل إلى المعتمد فى أربع سنين أولهن سنة اثنين وستين ومائتين ما نفدت به الفاتح لم يظهر بعضه وهو ألفا ألف ومائتا ألف دينار، وكان له أربعة وعشرون ألف غلام مملوكا، وخمسة وعشرون ألف أسود، وتطبق جريدته على سبعة آلاف حر مسترزق، وخلف من الخيل الميدانية سبعة آلاف رأس وثلثمائة وثلاثين رأسا، ومن البغال ستمائة بغل، ومن الجمال ألفين ومائة جمل، ومائة مركب حربية، ومن الدواب المركوب مائة ألف وثلاثين دابة وكان خراج مصر فى السنة التى مات فيها أربعة آلاف ألف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار مع ما يضاف إليها من ضياع الأمراء بالحضرة وأنفق على الجامع مائة وعشرين ألف دينار وعلى البيمارستان ومستغله ستين ألف دينار وأنشا فى سنة تسع وخمسين ومائتين وحبس عليه سوق الرقيق وغيره ولم يكن قبل بمصر بيمارستان وكان قد شرط ألا يعالج فيه جندى ولا مملوك وكان يباشره ويشارفه بنفسه ويركب اليه فى كل أسبوع مرة وأنفق على عين المصنع ببركة الجيش مائة وأربعة وأربعين ألف دينار وعلى شرر الجزيرة ثمانين الف دينار ولم يتممه وعلى الميدان مائة الف دينار وخمسين ألفا وكانت صدقاته فى كل شهر ثلاثة آلاف دينار ورسم مطبخه فى كل يوم مائة وعشرون دينارا ومات فى سنة سبعين ومائتين وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا ومن الاناث سبعة عشر أنثى.

فائدة جليلة: قال ابن عباس ﷺ: من هرب من عدو أو خاف فكتب بسوطه بين أذنى دابته لا تخاف دركا ولا تخشى أمنه الله من خوفه وحال بينه وبين عدوه.

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى فى كتابه غيث الأدب ويحكى أن بعض الرؤساء قال لشهاب الدين القوصى أنت عندنا مثل الاب وشدَّد الباء فقال لا جرم أنكم تأكلونى وأقول لا يخفى ما فى هذا التنذير من اللطف لان الاب مشدد الباء هو المرعى، قال بعضهم هو للدواب بمنزلة الخبز الذى للاناسى ومن يشدد الباء من الاب الذى هو الوالد ما يكون الا دابة، قال الشيخ بدر الدين الدمامينى رحمه الله تعالى رادا عليه قصد الصفدى بهذا الكلام الرد على من شدد باء الأب المراد به الوالد وفيه دليل على قصوره فان الامام جمال الدين بن مالك نص فى التسهيل على ذلك قال فى أوائله: وقد تشدد نون هن وبا أب وخا أخ وحكى فى الشرح عن الازهر أن تلك لغة كوفية ويقال استأبيت فلانا بباءين أى اتخذته أبا واذا كان كذلك فلا وجه للانكارعلى الرئيس الذى شدد الباء من أب.

قلت: ولو قال القوصى فى جوابه لا جرم انكم ترعونى لكان ألطف فى التنذير وأحسن موقعا مما قاله والله أعلم انتهى كلام أقضى القضاة بدر الدين المخزومى.

الشيخ جمال الدين الزملكانى:

وفى حلبة الخد من أدمعى خيول تجول ولا تركب
فسبق الكميت بها بين ولكن تقدمه الاشهب

وعلى ذكر البغال: ذكرت قول شمس الدين الضفدع الخياط فى وقعة القاضى شهاب الدين محمد بن المجد عبد الله الاربلى الدمشقى الشافعى الذى مات فيها:

بغلة قاضينا اذا زلزلت كانت له من فوقها الواقعه
تكاثر ألهاه من عجبه حتى غدا ملقى على القارعه
وأظهرت زوجته عندها ضايقة بالرحمة الواسعه

أبو الحسين الجزار وقد رآه بعضهم ماشيا عقيب موت حماره:

كم من جهول رآنى أمشى لا أطلب رزقا
وقال لى صرت تمشى وكل ماش ملقى
فقلت مات حمارى تعيش أنت وتبقى

المعمار:

ان ابن الاطروش حوى رتبة باع بها الجنة بالنار
تنصرت بغلته تحته وأصبحت تمشى بزنار

ابن دانيال مضمنا:

ولقد ركبت من الحمير مكمدا مكرا بطيا للحران مصاحبا
رجلاى فى جنبيه منذ ركبته لن يفترا فغدوت أمشى راكبا

ابن نباتة:

أصبحت يا سيدى ويا سندى أقص فى أمر بغلتى القصصا
بالأمس كانت لفرط سرعتها طيرا وفى اليوم أصبحت قفصا

الحلى مضمنا:

رأى فرسى اصطبل عيسى فقال لى قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
به لم أذق طعم الشعير كأننى بسقط اللوى بين الدخول فحومل
تقعقع من برد الشتاء أضالعى لما نسجتها من جنوب وشمأل
اذا سمع السواس صوت تحمحمى يقولون لا تهلك أسى وتجمل

أعــولٌ فى وقـت العلوق علـيــهم | وهل عند رسـم دارس من مـعــوّل

حكى أن العماد الكاتب قال للقاضى الفاضل: سر فـلا كبا بك الفرس، فقال له دام علا العماد.

ولبعض أهل عصره أعنى الحسين الجزار:

مــات حـــمــار الاديب قلت لهم | مـضى وقــد فـات منه مــا فــاتا

من مــات فى عـزه اسـتــراح ومن | خلف مــثل الاديب مـــا مـــاتا

وقال شرف الدين البوصيرى ناظم البردة فيه:

فـــلا تيـــأسن لـهـــذا الأديب | عليـــه فللمــــوت مـــا يـولد

اذا عـــــشــت أنت لـنا بـعــــده | كـــفـــانا وجـــودك مـــا نفـــقــد

قـال الشيخ فـتح الدين بن سـيد الـناس كان للشــيخ شـرف الدين البوصـيـرى حـمـارة استعارها منه ناظر الشرقية فأعجبته فأخذها وسير له ثمنها مائتى درهم فكتب على لسانها الى الناظر المذكور المملوكة حمارة البوصيرى:

يأيـهـــا المـــولـى الذى أبـــتـت | أخـــــلاقـــــه بأنـه الفـــــاضــل

مـــا كــــان ظنى ان يـبـــيـعـــوننى | قط ولـكن صـــاحــــبى جـــاهل

لو جـــرصـــوه علـى من سـفـــه | لقلـت غـيظا عليــه يـسـتـــاهل

أقــصـى مـــرادى لوكنت فـى بلدى | أرعى بهـــا فى جـانب الـســاحل

وبعــــد هذا فــــمـــا يحل لـكم | لاننـى من ســــبـــدى حــــامل

فردها الناظر ولم يأخذ الدراهم منه، لناصر الدين بن النقيب:

نفـقت لى رأسـا من الخـيل كـانت | تـسـبق الـبـرق والـرياح الزعـازع

وابتلى الله فـى المـشـاعــر اخرى | بشــقـاق لـهـا عن المـشى مـانع

فــــاذا قــيـل كـم بقـى لك رأس | قلـت رأس بغـــبـــــر كــــوارع

وللشـيخ جمال الدين بن نباتة وأفحش فى السرقة فى فرس له ثمل الأربعة:

يـقـــول لـى صــــاحب وفـىٍّ | والخــيـل تحـت الورى تـســارع

كـم لك فـى ذا الـزمـــــان رأس | فــــقلـت رأس بلا كـــــوارع

ابن دانيال:

قـد كـمـل الله برذونى بمنـقـصـة | وشـانـه بعـدمـا أعــمـاه بالـعـرج

أسـيـر مـثل أسـيــر وهو يعـرج بى | كـأنه مـــاشــيـا ينحط من درج

فـإن رمـانى على مـا فيـه من عـرج | فـمـا عليـه اذا مـا مـت من حـرج

صلاح الدين الصفدى فيمن وعده ببغل:

طلبت البغل منك فقلت إنى ... أسيره وما كذب الكلام

نعم أتعبته ركضا ولما ... أتى الاسطبل سيره الغلام

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى أنشدنى لنفسه المولى جمال الدين محمد بن نباتة بدمشق المحروسة سنة تسع وعشرين وسبعمائة:

ورد من العرب منسوب ولا قطعت ... أيدى الحوادث من انشائه شجره

إذا امتطى ظهره رامى السهام مضى ... والسهم حذوا فلولا سبقه عقره

عجبت كيف يسمى سابحا وله ... وثب لو البحر أمسى دونه ظفره

كأنه فى هضاب الحسن صاعدة ... أولا فصاعقة فى الحسن منحدره

لما ترفع عن ندٍّ يسابقه ... أضحى يسابق فى ميدانه نظره

قال صلاح الدين وأنشدنى من لفظه لنفسه المولى جمال الدين يوسف بن سليمان بن ابى الحسن الصوفى بدمشق فى جمادى الاولى سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة وهو:

وأدهم اللون فات البرق وانتظره ... فغارت الريح حتى غيبت اثره

فواضع رجله حيث انتهت يده ... وواضع يده أنى رمى بصره

شهم تراه يحاكى السهم منطلقا ... وما له غرض مستوقف خبره

يعفر الوحش فى البيداء فارسه ... ويثنى وادعا إذ يستر غبره

شرف الدين أحمد الحلاوى وأجاد:

جاء غلامى وشكا ... أمر كميتى وبكى

وقال لى لا شك بر ... ذونك قد تشكى

قد سقته اليوم فما ... مشى ولا تحركا

فقلت من غيظى له ... مجاوبًا لما حكى

ابن الحلاوى أنا ... فلا تكن مملكا

لو أنه مبر ... لما غدا مشبكا

ابن نباتة:

وأدهم اللون حندسى ... فى جريه للورى عجائب

يقصر سعى الرياح عنه ... فكلها خلفه جنائب

ابن سعيد المغربى فى فرس أغر أصفر:

وعسجدىّ اللون أعددته ... لساعة تظلم أنوارها

كأنه فى رهج شمعة ... مصفرة غريبة نارها

وله فى أدهم أغر:

وقد أغتدى والليل قد سل صبحه ... بليل بجلباب الصباح ملثما

وأحسبه خال الثريا لجامه ... فصيرها دية إلى الافق سلما

ولابن خفاجة فى أشقر أغر:

وأشقر يضرم منه الوغى ... بشعلة من شعل الباس

وتطلع الغرة فى شقرة ... حبابة تضحك عن كاس

النامى:

ومصفية كأن الحرب تلقى ... إلى آذانها بشرى الجلود

ترى آذانها ألفات سطر ... قياما فى صحائف من بنود

الارجانى:

وحرف يجوب القاع والوهيد والربى ... لحرف مديم الرفع والجر والنصب

نجائب يقدحن الحصى كل ليلة ... كأن بأيديها مصابيح للركب

ابن سعد فى فرس لونانيا أغر أكحل الحليلة:

وأجرد تبرى أثرت به الثرى ... وللفجر فى خصر الظلام وشاح

عجبت له وهو الاصيل بعرفه ... ظلام وبين الناظرين صباح

ابن نباتة السعدى فى فرس محجل بغرة:

وكأنما لطم الصباح جبينه ... فاقتص منه فخاض فى أحشائه

الشىء بالشىء يذكر قال ابن الحجاج فى المجون:

غضبت صباح وقد رأتنى قابضا ... ابرى فقلت لها مقالة فاجر

بالله الا ما لطمت جبينه ... حتى يصدق فيك قول الشاعر

أشار إلى البيت المتقدم الاديب الفاضل الكامل الرحال إبراهيم الساحلى المنبوذ بطويجن مولده بعرفة، ووفاته بعد سنة تسع وثلاثين وسبعمائة من قصيدة:

ذهبوا إلى الهيجا بكل طمرة ... من نسل أعوج أو بنات الابجر

من كل مخضوب الشوى عبل القرى ... عارى النواهق مستدير المحجر

ألوى بقادمتى جناجئ أفتخ ... ولوى بسالفتى غزال أعفر

وأدار جفنا أشوسيا مبصرا ظل الفوارس فى الظلام المعكر
من أحمر كالورد أو من أصفر كالورس أو من أشهب كالعنبر
وبكل صهوة أجرد متقطب الا إذ اضحك السنان السمهرى

لسان الدين بن الخطيب:

قال جوادى عندما همزت همزا أعجزه
إلى متى تهمزنى ويل لكل همزه

أحمد بن سعيد بن غازى البستى يصف ناقة:

حرف كمثل الصاد الا أنها بعد السرى جاءت كحرف النون
كالبدر قدره الاله منازلا فى الأفق حتى صار كالعرجون

ما أحسن قول الشريف العقيلى وإن لم يكن مما نحن فيه:

وأدهم من خيول الجووافى فثار من الضباب له غبار
إذا أبدى صهيل الرعد منه لوحش المحل داخله نفار
أشبهه ولمع البرق فيه بحراق تمشت فيه نار

نادرة: ذكرها العلامة شهاب الدين أحمد بن فضل الله فى كتابه مسالك الامصار فى ترجمة موفق الدين عبد الله المعروف بالوزن الواغط الكحال المتطبب أنه كان بالقاع والى من أهل الادب يعرف بابن درباس واسمه علىّ وكان ينظم الشعر ويتوالى والوزير بدمشق اذ ذاك بدر الدين جعفر بن الامدى وكان يتوالى أيضا فاتفق أنه ولى عنده بالقاع كاتبا ممن سلم من التسمير من ديوان المطابخ وكان من حديث هؤلاء أنهم سرقوا قندا كثيرا كان قد حمل من غور الكرك ليطبخ بدمشق للسلطان فبلغ ذلك الملك الظاهر بيبرس فأمر بهم فسمروا وطيف بهم على الجمال الا هذا الكاتب فإنه شفع فيه فأطلق بعد أن قدم له الجمل ليسمر فلما استخدمه ابن الآمدى بالبقاع ضيق على ابن درباس فأقام يعمل قريحته فيما يكتبه إلى ابن الآمدى فلم يأت بشىء فسأل الوزن فى ذلك فكتب:

شكية يا وزير العصر يرفعها ما كان يأمل هذا من ولاك على
لم يبق فى الارض مختار فتبعثه الا فتى من بقايا وقعة الجمل

فضحك ابن الآمدى وعزله، ومن انشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى وينهى وصول ما أنعم به من الخيل التى وجد الخير فى نواصيها واعتد حصنها حصونا يعتصم من الوغى بصياصيها فمن أشهب غطاه النهار بحلته وأوطاه الليل على أهلته يتموج أديمه ريا

ويتأرج رئيا ويقول من استقبله فى حلى لجامه هذا الفجر قد أطلع الثريا إن التفت للمضايق انساب انسياب الأيم وان انفجرت المسالك مر مرور الغيم كم أبصر فارسه يوما أبيض بطلعته وكم عاين طرف السنان مقاتل العدا فى ظلام النقع بنور أشعته لا يسير داحس فى مضماره ولا تطلع الغبراء فى شق غباره ولا يظفر لاحق من لحاقه بسوى آثاره تسابق مداه مرامى طرفه ويدرك شوارد البروق ثانيا عطفه ومن أدهم حالك الأديم حالى الشكيم له مقلة غانية وسالفة ريم قد ألبسه الليل برده وأطلع بين عينيه سعده يظن من نظر إلى سواد طرته وبياض حجوله وغرته أنه توهم النهار نهرا فخاضه والقى بين عينيه من رشاش تلك المخاضة ومن أشقر وشاه البرق بلهبه وغشاه الاصيل بذهبه يتوجس ما لديه برقيقتين وينفض وفرتيه عن عقيقتين وينزل عذار لجامه من سالفتيه على شقيقين له من الراح لونها ومن الريح لينها إن جرى فبرق خفق وإن أسرج فهلال على شفق ومن كميت نهد كأن راكبه من مهد عند مى الاهاب شمالى الذهاب يزل الغلام الخف عن صهواته وكأن نغم الفريض ومعبد فى لهواته فسيح قصير المطا إن ركب لصيد قيد الاوابد وأعجل عن الوثوب الوحوش اللوابد ومن حبشى أصفر بروق العين ويشوق القلب بمشابهة العين كأن الشمس ألقت عليه من أشعتها جلالا وكأنه نفر من الدجى فاعبق منه عرفا واعتلق حجالا ذو كفل زين سرجه وذيل يسد اذا يرتد منه فرجه قد أطلعته الرياضة على مراد راكبه وفارسه وأغناه نضار لونه ونضارته عن ترصيع قلائده وتوشيع ملابسه له من البرق خفة وطيه وخطفه ومن النسيم طروقه ولطفه يطير بالغمز ويدرك بالرياضة مواضع الرمز ويعد كألف الوصل فى استغناء مثلها عن الهمز ومن أخضر حكاه من الروض تفويفه ومن الوشى تقسيمه وتأليفه قد كساه النهار والليل حلتى وقار وسنا واجتمع فيه من البياض والسواد ضدان لما استجمعا حسنا ومنحه البارى حلية وشيه ونحلته الرياح ونسماتها قوة ركضه وخفة مشيه ومن أبلق ظهره حرم وجريه ضرم ان قصد غاية فوجود القضاء بينه وبينهما عدم وان طرف فى حرب فعمله ما يشاء البنان والعنان وفعله ما يريد الكف والقدم قد طابق الحسن البديع بين ضدى لونه فى جنسه عن الاوصاف وعدل بالرياح عن مباراته سلوكها من الاعتراف له بجادة الانصاف وترقى المملوك إلى رتب العز من ظهورها وأعدها لخطبة الحسان اذ الجياد عليها من أنفس مهورها وكلف بركوبها فلما أكمله عاد وكلما أمله سره فلو أنه زيد الخيل لما زاد ورأى من آدابها ما دل على أنها من أكرم الاصائل وعلم انها ليومى حربه وسلمه جنة الصائد

وجنة الصائل وقابل احسان مهذبها بثنائه ودهائه وأعدها فى الجهاد لمقارعة أعداء الله وأعدائه والله تعالى يشكر بره الذى أفرده الندى بمذاهبه وجعل الصافنات الجياد من بعض مواهبه بمنه وكرمه ان شاء الله تعالى.

ومن انشاء الشيخ محيى الدين بن عبد الظاهر وسير من الخيول الرهاوين كلما هو على الحسن مشتمل ومع سرعته يمشى الهوينا كمشى الشارب الثمل من كل أشقر كأنه النجم السريع لا البطى وكل أحمر كالشفق وغرته ما يتخلل الشفق من النور المضى وكل أشهب كالنار وما فى هذا من السواد ما بذلك من أواخر الليل وأوائل العشى وكل أصفر حبشى يحسن أن يكون الركاب المقر خادما وكيف لا وهو الخصى الحبشى ومن البغال كل فارهة الوثبة كارهة ألا تكون دون رتبة الجياد فى حلبه كم قاست بذراعها شقة أرض فعلمت طولها من عرضها وكم لحقت بمشيتها ما تلحقه الجياد بركضها كم حسب راكبها أنه من وطئ ظهرها على فرش مرفوعة وكم بويع لها بالخلافة عن الجرد المطهمة على أنها مخلوعة يشهد بتمام حسنها العقل ويصدقه على ذلك منها صحة النقل ما ضرتها هجنة أمها مع أصالة أبيها وأمها هجينة وما شانها ذلك والله تعالى ساوى بينهما بقوله تعالى: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾[1] تسبق الطرف والطرف يأمها خالها وما هى حرف.

ومن انشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة وأما الخيل المسيرة فقد وجد المملوك لذة أنسها وأوجب على نفسه فروض خمسها واستنهض لشكر محاسنها براعته فسعت ولكن على رأسها واستنزلت له الآمال من صياصيها وحلت منه محل الخير المعقود فى نواصيها وأمده بالاسعاف مددها وقبلها عوض أنامله الشريفة لأنها عددها وما هى الا زهرات أنبتتها سحب كفه الكريمة وعقود من طوق بها جيد العبد فسبح بمدايح نعمها العميمة ومنابر قام عليها خطيبا بمحاسنه التى من كتمها فكأنما كتم من المسك نظيمه فمن أشهب كأنه طلعة نحج أو قطعة صبح أو غرة فما تغرب بأشعته أبدار جنح قد تزينت منه الأوضاع وانقطعت دون غايته الاطماع واعتذرت له الريح فصوب أذنيه للسماع وأصبح لصاحبه نعم العون فى يوم السبق والغوث فى يوم القراع وكاد يكون من الملائكة فكم له من غبار السبق أجنحة مثنى وثلاث ورباع ما خفيت مصلحة الا قبضها ولا ادلهمت سحابة نقع إلا أقام بنفسه وبيضها وما حدث عن حسن إلا رآه ولا امتطاه عازم إلا حمد عند صباح لونه مسراه تقرب

(١) الآية: ٨ من سورة النحل.

الطلب سفارة عزائمه المسفرة ويختال فى الخيل كالنهار فلا جرم أن آيته مبصرة كم ثنى عنانه كبرا عن مسابقة الرياح وأعرض وكم تعب عليه عازم حتى فاز منه بالعيش إلا أنه الابيض يتلوه أشقر كلمعة برق أو غزالة شرق فسيح اللبان رقيق مجرى العنان بروق الابصار ويدنى الاوطان والاوطار ويسمع بوقع حوافره صم الاحجار يضعف البصر عن اقتفاء ماله من السنن ويعجز عن بلوغ غايته السيل إذا هجم والغيث إذا هتن وتقصر عن شأوه الرياح فمن عذر إذا حثت فى وجهها التراب للحزن فكأنما صعد لأشعة النجوم فكسبها أو راهن البرق على حلته فلبسها وسلبها قرنت حركاته بحسن الاتفاق وحكته فى تطلعها الشموس عند الاشراق وامتدت كف الثريا تمسح وجهه من غبار السباق يتبعه كميت يسر الناظر ويشوق الخاطر كأنه جذوة نار أو كأس عقار أحلى من الضرب له من نفسه طرب كم خدمه من النصر أعوان وأسكره اسمه فاختال تحت راكبه كالنشوان وزاد لونه حتى كأنما هو بهرام وأجله عن أن أقول بهرمان أسرع الاشياء شوطه وأضيع ما فى عدته سوطه يجمع لراكبه ما بين الطرب والجلالة وتحتجب الشمس إذا تصدى لصيد خوفا من تسميتها بالغزالة كم أرعد صهيله وأبرق وكم لقى منه الموت الاحمر العدو الازرق قصرت عن معاناته الهمم واسود ذنبه وعرفه فكأنهما لذوب نار جسمه حمم يوسع أهل الحمى برا ويعقد بخنجر نعله أديم الارض سيرا يقفوه أصفر يسر النظار ويسمو على النظار ويشوق البصائر وربما شق سعيه على الأبصار ويمحو ورد... سى تلب البرق إذا ذكرهما السبق فى مضمار كم أوسع وقعه فى ليل السرى من سمر وكم نقش نعله ظهر جبل فجاء كما قيل نقش فى حجر يطلع بسماء الطلب أهلة هو عيدها وإذا امتطاه عازم رأى الأرض تطوى له ويدنو بعيدها كم حسن خبرا وخبرا وتأثير وأثرا وكم عشا إلى نار سنابكه طارق فأجزل له من قصده القرى كأنما خلع عليه الدهر حلة ذهب وهبته صفرة لونها الراح حين تجلى بالحبب لو أمكن أول فجر لما سمى فى زمنه بالسرحان ولو كتب اسمه على مقدمة طليعة قرنها اليمن واليمان يصحبه أدهم كأنما التحف سبجا أو دخل تحت ذيل الدجى تخضع عواصى الذرى لعزته وينشق الصباح غيظا من تحجيله وغرته كأنما لطمته يد الفجر فخاض فى أحشائه وورد نهر المجرة فطارت لجبهته نقطة من مائه فسبح المنتشق متدرع ملابس حب القلوب والحدق كم عنت شوامخ الجبال لجلاله وقصرت عنه الخيل حتى لم تسابق الا ظل ادباره واقباله وخاف سطوته الليل فحياه بمثل أنجمه وأنعله بهلاله يسر

الموالى ويسوء المناصب ويأتى من صباح تحجيله وليل تكوينه بالعجائب وتكبو الريح دون شأوه فكلها من خلفه جنائب ولا برح سيدنا يجيد فى القول ويجود فى العمل ويتطول من خفى كرمه ومفيد كلمه بما لا تترقى إليه همة أمل إن شاء الله تعالى تم ذلك.

وقال مجير الدين بن تميم مضمنا:

بعثت عندى جوادا لا حراك به … يكاد من همزه بالركض ينخرم

فلا يغرنك منه سنه غلطا … إن الجواد على علاته هرم

ابن النبيه من قصيدة:

فهى مثل القسى شكلا ولكن … هى فى السبق أسهم لا محاله

تركتها الحداة فى الخفض والرفـ … ـع حروفا فى جرها عماله

علاء الدين ابن أيبك من قصيدة:

له خطبة الخيل العتاق كأنها … نشاوى تهادت تطلب العزف والقصفا

عرائس أغنتها الحجول عن الحلى … فلم تبغ خلخالا ولا التمست وقفا

فمن يقق كالطرس تحسب أنه … وإن جردوه فى ملاءته التفا

وأبلق أعطى الليل نصف اهابه … وغار عليه الصبح فاحتبس النصفا

وورد تغشى جلده شفق الدجى … فمذ حازه دلى له الذيل والعرفا

وأشقر مج الراح صرف أديمه … وأصفر لم يسمح بها جلده صرفا

وأشهب فضى الانام مدثر … عليه خطوط غير مفهمة حرفا

كما خطر الزاهى بمهرق كاتب … فجر عليه ذيله وهو ما جفا

تهب على الاعداء منها عواصف … لتنسف أرض المشركين بها نسفا

سرى كل طرف كالغزال فتمترى … أطيبا ترى تحت العجاجة أو طرفا

وقد كان فى البيداء يألف سربه … فربته مهر وتحسبه خشفا

تناوله لفظ الجواد لأنه … متى ما أردت الجرى اعطاكه ضعفا

ابن خفاجة:

ولم أر الا غرة فوق شقرة … فقلت حباب يستدير على خمر

نادرة: وقف اعرابى على أبى عبيدة فقال له ما يعنى الشاعر بقوله:

ولقد علوت بمشرف يا فوخه … يأتى المجسة ماؤه يتغصد

حـــتى علوت بـه مـــشق ثنيـــة طورا أغـــور به وطـورا أنجـــد

فقال يصف فرسا فقال الاعرابى حملك الله عليه.

برهان الدين القيراطى فى حماره:

تراه أولا فـى الأكل ســـبـــقـــا وعند الســير يـأتى فى الاخـيـر

وكم وضـــعــوا سكرجــة بفـيــه فـمـا منعـته عن صحن الشعيـر

عرض شريح ناقـة ليبيعهـا فجاء إليه رجل من قريش فـقال له يا أبا أمية كيف لبنهـا فقال احلب فى أى اناء شئت، قال فكيـف الوطأ قال افرش ونم، قال فكيف قوتهـا قال احمل على الحائط مـا شئت، فـاشتراها فلم يجـد شيئًا ممـا وصف فرجع إليه فـقال له لم أر شيئا مـما وصفتها به قال ما كذبتك، كـتـب الصابى عن بختيار إلى أبى تغلب فى وصف فرس أهداه له أما الفـرس الذى سألت ايثارك به فقـد تقدمنا نقوده إليك والله يبـارك لك فيه ويجعل الخيـر معقودا بناصيته والاقبال غـرة وجهه وادراك المطالـب تحجيله ونيل الامانى طلق شأوه وفتح الفتوح غاية شده وسلامة العواقب مشى عنانه.

ابن حمديس الصقلى:

وكـــأنهـــا نون تمـط وعـــينهـــا مـيم لطول نحـــولهـــا بالفـــدفـــد

كحلت جفون الليـل منها بالـسمرى وتكـحلـت منه بلـون الاثمـــــد

فلجـــســمـــهـا والصبح يـتبع نوره من جـفن ليلتـهـا انـــلال المـرود

يا ليـتـهـا كـانت ســفـينة زاجـر فـتخـوض بى مد العباب المـزبد

فـأرى ابن حـــمـــدان ونور جـبـينه يجلو سناه قـذى جـفـون الارمـد

وله فيهن:

قـلاص حـــبـاهن الـهـزال كـأنـهـا حنيـات نبـع فى أكف جـــوادب

إذا وردت من زرقـة المـاء أعـــينا وقـفن على أرجـائها كـالحـواجب

وممـا جاء فى رقية الدابة عن سحيم بن نوفل قال كنا نـعرض المصاحف عند عبـد الله فجاءت جارية اعرابـية إلى رجل من القوم فقالت أطلب راقيا فان فـلانا قد لفع فرسك بعينه فتـركه يدور كأنه فلـك، فقال عـبد الله لا تطلب راقـيا اذهب فانفث فى منخـره الايمن أربعا وفى الايـسر ثلاثا ثـم قل: بسم الله لا بأس أذهب البـأس رب النـاس وأشف أنت الشـافى لا يذهب الضر إلا أنت قال فذهب الرجل ثم رجع، فقال فعلت الذى أمرتنى فأكل وبال وراث وعن ابن عباس ﷺ إذا استـعصبت دابة أحدكم أو كانت شموسـا فليقرأ هذه الآية فى أذنها

﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه ترجعون﴾[1].

نادرة: قال أبو العنبس دخل اعرابى السوق ليبيع ناقة له فقال له بعض المجان تبيعها يا أعرابى باير بغل فقال الاعرابى اقعد على عطيتك فإن زادونا وإلا أنت أحق بها.

الاسعد بن مماتى:

أصبح بغلى مثلا ... يضرب وهو سائر

ناصر الدين بن النقيب:

لى بغلة من ضعفها ... حزامها يثقلها

كأنها رجلى كما ... تحملنى أحملها

بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى:

ترحلت عن ناديك لا عن ملالة ... وقد لفعتنى بالهجير البسابس

على بغلة أمطيتنيها قصيرة ... كأنى بلا شك على الأرض جالس

وتحسبنى من فوقها الناس راجلا ... ولكننى فيما ترى العين فارس

البازهير فى بغلة شهاب الدين القوصى:

لك يا صديقى بغلة ... ليست تساوى خردلة

تمشى فتحسبها العيون ... على الطريق مشكله

وتخال مدبرة إذا ... ما أقبلت مستعجلة

مقدار خطوتها الطويـ ... ـلة حين تسرع أنمله

تهتز وهى مكانها ... فكأنما هى زلزله

أشبهتها بل أشبهتـ ... ـك كأن بينكما صله

تحكى خصالك فى الثقا ... لة والمهانة والبله

القيراطى:

لى بغلة قد أتعبت راحتى ... والرجل من فخذى إلى كعبى

طباعها خارجة كلها ... وقط لا تمشى على الضرب

الجزار يرثى حمارة:

ما كل حين تنجح الاسفار ... نفق الحمار وبارت الاشعار

---

(١) الآية: ٨٣ من سورة آل عمران.

خـرجى على كـتـفـى وها أنا دائر | بيـن البـيـوت كـأننى عـطار
مـاذا علىّ جـرى لاجل فـراقـه | وجـرت دمـوع العـين وهى غـزار
لم أنـس حـدة نفـسه وكـأنه | من أن تـسـابقـه الرياح يغـار
وتخـاله فى القـفـر جنا إنـمـا | مـا كل جن مـثـله طيـار
وإذا أتى لـلـحـوض لـم يخلـع له | فى المـاء من قـبل الورود عـذار
وتـراه يحـرس رجلـه من زلـة | برشـاشـهـا يتـنجس الحـظار
ويلين فى وقت المـضـيق فـيلتـوى | فكـأنمـا بيـديك منه سـوار
ويـسـيـر فى وقت الزحـام برأسـه | حـتى يحـيـد أمـامك الحـضـار
لم أدر عـيـبـا فـيـه إلا أنه | مع ذا الذكـاء يقـال عنه حـمـار
ولقـد تحامتـه الكلاب وأحجـمت | عنـه وفـيـه كـلمـا تخـتـار
راعت لصاحبـه عـهودا قـد مضت | لـمـا عـلمـن بـأنه جـزار

ومن انشاء المقر الفتحى بن الشهيد تغمده الله برحمته من رسالة كتبها عن حضور أكـديش أدهم وينهى وصـول الجـواد المنعم به على المـملوك فـأضافـه إلى مـا فى يده من الصدقات العميمة يقدر قدرها ويضـاعف بالخدمة والنصيحة شكرها وفرح المملوك أنه ما خص بالفرس إلا وقـد ثبت عند سيده أنه غلام ومـا أجراها له من ديوان الخاص إلا لتمـيز قدره على الـعوام ووصل هذا الجواد أدهـم من الخيل كأنـما ألبـسه الليل حلة سابغـة الكم والذيل وفهم المملوك من بعثه حالك الـسـواد أن الامر العالى اقتضى أن المملوك يكتم هذا الاحـسان فى سـواد الفؤاد ويـستره عن الحـسـاد كما سـتر الليل عن الرقبا اجـتماع أهل الوداد فـتـسلمه الـمملوك كـما تـسلمت الجـفون طيف الحـبيب وأسـر السرور به لمـا علم أنه من صدقـة السر التى أخفتـها اليد الكريمـة ولا يعزب عن الله مثقـال ذرة فيها ولا يغـيب واتخذ المملوك ظهر هذا الجـواد حرزا لأنه من الهياكل وتصيد بعنانه غـزلان الاعنة فكانت لصيد العز حبائل وجعله ذخيرة وعزا لأنه أدهـم لا يندم صاحبه إن نابت النوائب أو غالت الغوائل، ومنها وصل الظهـر قد أعوز والـسفـر قد أحفز وجـلت دهمته الغمـة وجاءت باليد البيـضاء فكذبت القائلين لا خير فى الظلمة فـرأيت منه العطايا فى سـواد المطالب وركبت من سرجه المحلى بالذهب فما جزت فى نيل اهابه إلا اهتديت من تلك الحلى بانوار الكواكب وقرّت به عـينى كـأنما حل من سـوادى واسـتـوطـأت ظهره فى الـسـرى فنمت لمـا طرق كـأنه يريد

رقادى، أدب حسن قيل لاعرابى له ابل كثيرة لمن هذه الابل فقال لله فى يدى وقيل لاعرابى أنت راعى هذه الابل فقال الله راعيها وأنا مراعيها.

فائدة جليلة: قال الامير علاء الدين الدواداری فی بعض مجاميعه بخط القاضی شمس الدين بن خلكان للمغل يكتب على حافر الفرس الايسر بقلم حديد وكل حرف من هذه الكلمات على حدته وهى النيل والفرات ودجلة أودية وقال لى شخص أنه جربه وجده نافعا والله تعالى أعلم

ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب من قصيدة:

صبحتهم غرر الجياد كأنما ... عند الثنية عارض متهلل
من كل منجرد أغر محجل ... يرمى الجياد به أغر محجل
زجل الجناح إذا أجد لغاية ... وإذا تغنى بالصهيل فبلبل
جيد كما التفت الظليم وفوقه ... أذن ممشقة وطرف أكحل
وكأنما هو صهوة فى هيكل ... من لطفه وكأنما هو هيكل

ومن كلام سيدى المقر المجدى حسبما اقترحه السادة المخاديم بالقاهرة المحروسة البلاغة جعل الله تعالى كف موالينا للمقبل والمؤمل ككرائم الخيل ظهورها عزا وبطونها كنزا وآيات كرمه إذا تليت نهز أعطاف كل جواد هزا وينبعه فى مجاراتها كزا تعلى الهمم وتغلى القيم ويحوز صاحبها قصب السبق بالقلم غير أنها تلجئه فى اقتراح الاخوان إلى ركوب الاهوال وتمطيه فى اتباع أوامرهم صهوة الخطر إذا كان لا خيل عنده يهديها ولا مال فإنهم أبقاهم الله تعالى رموا العبد من اقتراحهم بما لا يطاق ودفعوه من أوصاف الخيل إلى حلبة سبق إليها جماعة فكيف للمملوك بعدهم باللحاق نعم كيف له بلحاق تلك الفحول وأنى يمكنه مجاراتهم فى هذه الليالى العواطل وقد كانت أيامهم لها غرر معلومة وحجول فاستقلت من هذا الامتحان واعتذرت أنى لست فى أمر الخيل من الفرسان، فقالوا بل أمطينا الطرف راكبه وأعطينا المال واهبه فإنك ريب متونها ومهذب شامسها وحرونها فجلت فى ميدان الفكر وجذبت أعنة الحفظ والذكر إلى أن أنتجا لى ما لو أوقفت لسترته ولو تركت لتركته فابتدأت بوصف أخضر مليح الشبات كامل الادوات يحمل الراكب ويزين المواكب ويرضى الشهم الشديد ويسبق السهم السديد لا يخرج عن طوع فارسه ولا يعدو اختيار ممارسه كأن أديمه تجعد من نور خلاف أو لف من جنات ألفاف وكميت أصم اللون مليح الكون بعيد الصفات سريع الالتفات تثنى على همته الركبان وبطنه تحت

العجاجة نار علاها دخان فسيح الخطوة شديد القوة سبط الأديم معظم لدى الكرام ولا عجب إذا عظم الجواد كريم كأنما صبغ بعقار أو ألبس جل نار وقير كلون الحرباء وخيال أزاهر على صفحة الماء ووجنة حب تكالمت بعرق ونهر صاف طفا بوجهه علق وبهجة حباب على كئوس مدامه وأشعة شمس تألفت فى طوق حمامة لا تنثث العين معرفته ولا يوفى البليغ وإن أطنب صفته ولا يدركه الطير إذا طار ولا يلحقه الريح إذا اشتدت غير الغبار لا يمل السباق ولا يزعج راكبه إذا قام على قدم وساق وأبلق كريم الاصل محمود الخصل مجتمع من ظلمة الهجر وضياء الوصل يرى الناظر من لونيه بياض العطايا فى سواد المطالب وتحقق للمتعجب من تضادهما أن فى الليل والنهار عجائب لا يجليه البصر إذا سار ولا ينجو من راكبه عدو وكيف ينجو من خلفه الليل والنهار تفرد فى جنسه وكاد يدرك المعقولات بضياء حسه عظم خبره وخبره واشتهر بين الانام قدره وعز على من رامه وطال وكيف لا وهو الأبلق الفرد الذى شاع ذكره وأدهم بهيّ المنظر جميل المخبر تخاله خالا على وجنة الزمان وتظنه بين جفنى السماء والأرض انسان أسرع من السهم وأنفذ من الوهم يطوى شقة الفلا بيديه ويجتذب سويدات القلوب إلى حبه وشبه الشيء منجذب إليه تنبئك بالظفر مخائله ولا ينشدك لونه الأبلق الا بليل من تواصله وبالجملة فكأنما حلفت على اقتراح الرياضة واختبار الانفس المرتاضة فكلها حسن وكل منها جاء من الصفات الغريبة بفن يأتى من المشى بما لم يكن فى حساب ويتلو لسان السرعة على مستعظم أشكالها ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب﴾[1] فالله تعالى يبقى المخدوم ما انتخبت القرايح وسيرت الخيول بين غاد ورايح ويكفيه ما تسعى من أجله ويجعل بابه جنة لاوليائه اذا زحف عليهم الدهر بخيله ورجله بمحمد وآله.

المولى الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفق الدين على بن الآمدى:

وكميت يلقى الصخور إذا اشتـ ... ـد جريا بأربع من حديد
رق جلدا واحمر حتى حسبنا ... أنه اختال فى رداء الخدود

وله فى فرس أدهم أغر محجل:

وأدهم خص بأوضاحه ... اعلاه بالغرة أو أسفله
كالليل فى أوله آخر اليـ ... ـوم وفى آخره أوله

وله:

بكل جواد سر حتى كأنما ... له السيف حد والسنان له أذن

(١) الآية: ٨٨ من سورة النمل.

ولبعضهم:

قم بنا نركب طرف اللـ ـهو سبقا للمدام
واثن يا صاح عنانى لكميت ولجام

ولآخر:

ويوم كسته الشمس غرة مهجة كما ذهبته بالعشى تخيلى
ركضت به فى حلبة اللهو سابقا فيا لك من يوم أغر محجل

ابن المعتز فى وصف مطلق الواحد محجل الثلاث:

ومحجل غير اليمين كأنه متبختر يمشى بكم مسبل

فخر الدين بن مكانس:

يا عصبة الجود الذى يرضيهم فرسى العتيق ومهرى السباق
أما العتيق فلا نرجو تملكه واليكم هذا الحديث يساق

وضمن هذا فى الغزل شيخنا عز الدين الموصلى:

لحديث بنت العارضين طراوة وطلاوة هامت بها العشاق
فإذا نهانى المراد قلت تمهلوا فاليكم هذا الحديث يساق

قلت وفى مقطوعة الشيخ فخر الدين زيادة حسنة على الشيخ عز الدين وهو قوله يساق واستعمل الشيخ عز الدين لفظة حديث فى عدة أماكن من مقاطيعه ولعمرى أجاد فى جميعها فمنها قوله:

حديث عذار الحب باد وساقه له أوجه تبدى لقلبى اشتياقه
درى اننا نشتاق لطف حديثه فأبدى لنا ذاك الحديث وساقه

وقوله:

حديث عذار الحب فى خده جرى كمسك على الورد الجنى تسطرا
فقبلته حتى محوت رسومه كأن لم يكن ذاك الحديث ولا جرا

ولغيره وليس مما تقدم لكن ذكرناه لموافقة المعنى:

ولما اجتمعنا والسلو جليسنا على اننا نسلو الهوى ونميل
وخيل غرام قد أتتنا مغيرة فلم ندر الا والسلو قتيل

ومنه:

وحياة من أمست لدى حياته أشهى إلى من اتصال حياتى
ما سافرت لحظات طرفى نحوكم الا على خيل من العبرات

ومنه قول عز الدين الموصلى شعرا:

يستطرد الشوق خيل الدمع سابقة ... تفضل السحب فضل العرب للعجم

وما ألطف قول بدر الدين بن الصاحب:

بالله يا بدر زرنى ... وعد محبا سقيما

واكتم محبك واركب ... من الظلام بهيما

وأنشدنى شيخنا زين الدين بن العجمى لنفسه:

لمظلمات الليالى ... أشكون شجونى الاليمه

وكيف تفهم معنى ... شكواى وهى بهيمه

فخر الدين بن مكانس:

لله أشكو ما جرى ... وهو بشكواى عليم

ان بهيما كان لى ... فضاع فى الليل البهيم

ولمؤلف الكتاب:

ولرب ليل طال من تذكارهم ... أرعى الدجى فيه وليس ببارح

قرح الجفون السهد فى ظلماته ... فلذاك يدعى بالبهيم القارح

وعلى ذكر البهيم فما أحسن ما أنشدنى لنفسه مجد الدين بن مكانس:

لله عصبة عشق ... طيب الكرى حرموه

عذولهم كحمار ... لا بدع ان صرموه

وأنشدنى صدر الدين بن الآدمى لنفسه:

قلت وليلى لونه حالك ... وجنحه فى ليله كالسقيم

الصفدى فى أدهم بغرة:

واعجبا للصبح من أشقر ... ما آن أن يلحق ليلا بهيم

وغيره:

تردى أديم الليل تيها بنفسه ... وأطمع حتى فى منال الكواكب

وأبدى لرائيه بغرة وجهه ... بياض العطايا فى سواد المطالب

وأنشدنى فخر الدين بن مكانس:

لنا فرس نلاقى منه رفقا ... كرفق الوالدين إذا شملنا

ترانا حين نركبه سكارى ... نميل على جوانبه كأنا

حدث أحمد بن أبى خالد قال خرج الفيض بن أبى صالح وأحمد بن الجنيد وجماعة من وجوه الكتاب يوما من دار المأمون منصرفين إلى منازلهم وكان يوما مطيرا فتقدم الفيض ابن أبى صالح وتلاه أحمد بن الجنيد فنضخت دابة الفيض على ثياب أحمد بن الجنيد برجلها من ماء المطر فتأفف أحمد بن الجنيد وقال للفيض هذه والله مسايرة بغيضة وما أدرى حقا أوجب لك التقدم علينا فأمسك الفيض حتى صار إلى منزله ثم دعا وكيله فأمر باحضار مائة تخت فى كل تخت قميص وسروال ومبطنة وعمامة وطيلسان ففعل ذلك وقال احمل هذه التخوت على مائة حمال وسر بها إلى دار أحمد بن الجنيد وقل له أوجب لنا التقدم عليك أن لنا مثل هذا نهديه إليك إذا أفسدنا ثيابك فإن أهديت لنا مثلها قدمناك علينا.

قال مؤلف الكتاب رحمه الله تعالى ضمنا مجلس أنس بزربية قيصون بمنزل المرحوم فخر الدين بن مكانس وكان فيه اذا ذاك جماعة من أعيان متأدبى الديار المصرية فأطلقنا عنان المذاكرة وتجار ينافى ميدان المحاضرة إلى أن استطردنا إلى ذكر الخيول وما قيل فيها من منظوم أزهى من المنثور المطلول، فقال المرحوم فخر الدين سدوا عنا المقاطيع واطربونا بالمواصيل اشارة إلى ذكر ما قيل فيها من الرسائل التى أزرت بزهر الخمائل فذكر بعض الحاضرين رسالة القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر التى أولها وسير من الخيول الرهاوين كلما هو على الحسن مشتمل وذكر المرحوم فخر الدين رسالة الشيخ شهاب الدين محمود التى أولها وينهى وصول ما أنعم به من الخيل التى وجد الخير فى نواصيها وذكر المملوك رسالة الشيخ جمال الدين بن نباتة التى أولها وأما الخيل المسيرة وذكر الشيخ بدر الدين البشتكى رسالة العلامة لسان الدين بن الخطيب التى أولها

وذكر القاضى مجد الدين بن مكانس حسب سؤال الجماعة رسالته التى أولها البلاغة جعل الله أكف مولانا ككرائم الخيل ظهورها عزا وبطونها كنزا فما من الجماعة إلا من استحسنها وبالغ فى شكرها، فقال المرحوم فخر الدين ينبغى أن تجمع هذه المقاطيع والرسائل فى كراريس ويسميها مجرى السوابق. انتهى.

الباب الثالث والأربعون
فى مصائد الملوك وما فيها من نظم السلوك

ولبعضهم فى الفهد:

وأهرت الشدق فى فيه وفى يده ... ما فى الصوارم والعسالة الذبل
تنافس الليل فيه والنهار معا ... فقمصاه بجلباب من المقل
والشمس مذ لقبوها بالغزالة لم ... تطلع على وجهه الا على وجل

ابن المعتز فيه:

وعابس الوجه لا لقادحة ... تحسبه من قبائل الترك
تخال أثوابه مصندلة ... نقطها الغانيات بالمسك

الارجانى فيه:

وأهرت أدم بدت كاسمها ... به الدهر أدم لنا يؤتدم
من النمر خيط على جسمه ... أديم تعين لا عن حلم
به علقت شرر لو حتـ ... ـه من نار خد له يضطرم
ففى كل عضو له أعين ... تراصد إن هو بالصيد هم
تراه رديفا وراء الغلام ... وبالشمس الوجه منه التأم
شبيه سبية جيش غدت ... تذيق الكرى مقلة لم تنم
جرى الدمع بالكحل من عينها ... فنمنم جلبابها اذ سجم
وقد كاد يخرج من جلده ... وراء الطريدة لما اقتحم
فقد شمر الجلد خوفا عليـ ... ـه أول ما الخلق منه استتم

ابن الاثير الجزرى فى الفهود: فخرجنا والشمس قد نقص مشرقها عن مغربها وأمنت حمة حرها وإن صارت إلى برج عقربها بكل فهد قد حيك اهابه من ضدين بياض وسواد وصور على اشكال العيون فتطلعت إلى انتزاع الارواح من الاجساد يبلغ الامد الاقصى فى أدنى وثباته ويسبق الفريسة ولا يقصها الا عن التفاتة.

القول فى طبائعه: زعم ارسطو أنه متولد بين أسد ونمرة أو بين لبوة ونمر وفى طبعه مشابهة لطبع الكلب فى أدواته وذواته والنوم الذى يعتريه ويقال إن الفهدة إذا حملت وثقل

حملها حتى عليها كل ذكر يراها من الفهود ويواسيها من صيده فإذا أرادت الولادة هربت إلى موضع أعدته حتى إذا علمت أولادها الصيد تركتها وبهذا الحيوان يضرب المثل فى شدة النوم فيقال أنوم من فهد.

قال الشاعر وقد عيره بكثرة النوم:

رقدت مقلتى وقلبى يقظا	ن يحس الامور حسّا شديدا
يحمد النوم فى الجواد كمالا	يمنع الفهد نومه أن يصيدا

وليس شىء فى جرم الفهد من الحيوان الا والفهد أثقل منه وأحطم لظهر الدابة والاناث أصعب أخلاقا واكثر جراءة واقداما وفى أخلاقه الحياء وذلك أن الرجل يمر بيده على سائر جسده فيسكن لذلك حتى تصيب يده مكان النفر فيقلق حينئذ ويغضب ومن خلقه الغضب وذلك أنه إذا وثب على طريدة لا يتنفس حتى ينالها فيحمى لذلك وتمتلئ رئته من الهوى الذى حبسه وسبيله أن يراح ريثما يخرج النفس وتبرد تلك الغلة ويشق عن قلب الطريدة ويشمم إياه ثم يطعمه منه ويسقى رى ماء ان كان الزمان قيظا ودون الرى إن كان الزمان بردا وان لم يروح لم يفلح بعد ذلك واذا أخطأ صيده رجع مغضبا وربما قتل سائسه، ومن أخلاقه أنه يأنس لمن يحسن إليه ويقال أنه لص من لصوص السباع وهو وان كان وحشيا فإنه يقبل الادب الا أن كبارها أقبل وان تقادمت فى التوحش وإناثها أصيد من ذكورها ومن طبعه أنه يحب الصوت الحسن ويصغى إليه وربما كان سببا لصيده، ومما ركب فيه أن ما عجز عن التكسب منها الهرم يجتمع على فهد يصيد لها فى كل يوم شبعها وقال ارسطو: السباع تستنشق رائحة الفهد وتستدل بها على مكانه تعجب بلحمه أشد التعجب فهو يتغيب عنها لذلك وربما قرب بعضها من بعض فيطمع فى نفسه فإذا أحس السبع منه ذلك وثب عليه فأكله وهو ألطف شما لأراييح السباع القوية من شم السباع لرائحته الشهية ولا يكاد يكون على علاوة الريح أبدا وهو يستخفى فى الشجرة فإذا مر به ايل فاجأه وثب عليه وانشب مخالبه فى اكتافه ومص دمه حتى يضعف الايل ويسقط فتجتمع عليه الفهود فتأكله فإن اجتاز به أسد نهض وترك الفريسة له تقربا إليه والفهد يعتريه داء يسمى خناقة الفهود وقد ألهم أنه إذا اعتراه ذلك يأكل العذرة فيبرأ وينبغى إذا صيد أن يغط رأسه ويدخل فى جوالق ويجعل فى بيت قد وضع فيه سراج ويلازمه سائسه ليلا ونهارا ولا يدخل عليه غيره فإذا آنس أركبه ظهر دابة ويطعمه على يده وأول من صاد به

كليب بن وائل ويقال همام بن وبرة وكان صاحب لهو وطرب وأول من حملها على الخيل يزيد بن معاوية واكثر من اشتهر باللعب بها أبو مسلم الخراسانى وأول من استسن الحلقة فى الصيد وأولع بها كثيرا المعتضد والمواضع التى يوجد فيها هذا الحيوان مما يلى بلاد الحجاز إلى اليمن وما يليها إلى بلاد العراق ومما يلى بلاد الهند إلى تبت والله تعالى أعلم.

القول فى طبائع الكلب: قال المتكلون فى طباع الحيوان الكلب لا سبع تام ولا بهيمة تامة حتى كأنه من الخلق المركب لأنه لو تم له طباع السبعية ما ألف الناس واستوحش من البرارى وجانب القفار ولو تم له معنى البهيمة فى الطبع ما أكل لحم الحيوان وكَلِب على الناس وإنما جعلناه تبعا للفهد وهذه حالته لمشاركته له فى حرفة الصيد واعتناء الناس بتربيته وتعليمه كما اعتنوا بالفهد فى ذلك وهو نوعان أهلى وسلوقى ومما يختص به الكلب السلوقى من الطباع وسبب نتاج السلوقى كما حكاه أهل الكلام فى الكلبزة أن الكلاب تسفد الذئاب فى أرض سلوقة من أرض اليمن فيتولد بينهما السلوقى وقال آخرون الثعالب والكلب السلوقى له نفس مولعة بتناول ما يرسل عليه ويطلبه بالاحضار خلفه حتى يدركه فيأخذه لهم لأن حرصه على الصيد وغضبه ليس من أجل نفسه كما يغضب الفهد لان الجوارح تعمل لانفسها الا الكلاب فإنها تكتسب لاصحابها وهى اذا كثرت عليها الآثار واختلطت تنكب لذلك وتذهب فى كل جهة حتى تستثبت الاثر وتتحقق جهته وذلك من حرصها على مطاوعة ربها واستعدادها لنكاية أعدائه ومسارعتها تحصيل غرضه الذى ارسلها بسببه ومن أعجب الاحوال فيه أنه اذا عاين الظباء قريبة منه كانت أو بعيدة عرف المقبل منها والمدبر وعرف العنز من التيس، وإذا أبصر القطيع لم يقصد غير التيس لعلمه أنه اذا عدا شوطين لم يستطع البول مع شدة الحصر ورفع القوائم فينقص مدى خطاه ويعتريه الهير فيلحقه الكلب والعنز اذا اعتراها البول فى العدو ولم تمسكه وقذفت به لسعة السبيل فلاجل ذلك لا يطلبها ومن عجيب أمره أنه يعرف الميت من المتماوت حتى يقال ان الروم لا تدفن ميتا حتى يعرضونه على الكلاب فتظهر من شمه اياه علامة يستدلون بها على حياته أو موته ويقال ان هذا الحذق لم يوجد الا فى كلب يسمى القلطى وهو صغير الجرم قصير القوائم جدا ويسمى الصينى وهو مع هذا لا يبلغ رتبة الذنب فى الشم والاسترواح واناث الكلاب السلوقية أسرع تعلما من الذكور والفهد بالعكس، وهذا النوع يعيش عشرين سنة على ما زعم ارسطو وربما لم يبلغ الاناث هذا العمر.

دلائل النجابة والفراهة فى الكلاب السلوقية: أما فى الخلقة فطول ما بين الرجلين واليدين وقصر الظهر وصغر الرأس وطول العنق وغضف الاذنين وبعد ما بينهما وسعة العينين وبعد ما بينهما وزرقة العين ونتوء الجبهة وعرضها وقصر اليدين، وأما الالوان فيقال السود أقل صبرا على الحر والبرد والبيض أفره إذا كن سود العيون وقد قال قوم إن السود أصبر على البرد وأقوى وكذلك السود من الحيوان.

الفراهة فى الجرو: اذا ولدت الكلبة واحدا كان افره من أبويه وان ولدت ذكرا وانثى كان الذكر أفره وان ولدت ثلاثة فيها أنثى فى شبه الام كانت أفره من أبويه الثلاثة وإن كان فى الثلاثة ذكر واحد فهو أفرهها قال ابن خفاجة:

ومورس السربال يخلع قده ... عن نجم رجم فى سماء غبار
يستن فى سطر الطريق وقد عفا ... فيما فيقرأ أحرف الآثار
عطف الضمور سربه فكأنه ... والنقع يحجبه هلال سرار
يفتر عن مثل النصاب وإنما ... يمشى على مثل القنا الخطار

الارجانى:

وعصف يسابق عصف الريا ... ح فيسبقه خصرها ان تسم
رياح مجشمة للعيو ... ن مستقلدة فى طلاها رمم
لهن من البيض مصقولة ... تسل وتغمد من كل فم
فمن أبيض مثل لون الدمقـ ... ـس ومن أصفر أملس كالزلم
وآخر ذى لمع فى السوا ... د حكى لونها نفخة فى فحم
يقرط مخلبه اذنه ... ويسبق ناظره حيث أم

القول فى العقاب: وهذا الصنف يؤنث ولا يذكر ويسمى العنقاء على ما ذهب اليه أهل اللغة وبهذا القول فسر قول أبى العلاء المعرى:

أرى العنقاء تكبر أن تصادا ... فعاند من تطيق له عنادا

ولا خلاف عند أهل اللغة فى ذلك وهو ينقسم إلى صنفين عقاب ورمح فأما العقاب فمنها فى اللون السود والخوخية والصقع والسقع والبيض والشقر ومنها ما يأوى الجبال ومنها ما يأوى الصحارى ومنها ما يأوى البياض ومنها ما يأوى حول المدن ويقال ان ذكورها من طير آخر لطيف لجرم لا يساوى شيئا والعقاب يبيض فى الغالب ثلاث بيضات ويحضنها ثلاثين يوما وما عداها من الجوارح يبيض بيضتين فى كل سنة ويحضن عشرين يوما وفى

طبع الذكر انه يمتحن اناثاه هل هى محافظة له أو موافية لغيره من جنسه بأن يصوب بصر فرخيه إلى شعاع الشمس فإن ثبت عليه تحقق أنهما فرخاه وإن لم يصبر عليه ونبأ عنه ضرب الانثى كما يضرب الرجل المرأة الزانية وطردها من وكره ورمى بالفرخين وهى تربى فراخها إلى أن تقوى على الطيران فتخرجها وتنفيها عن جميع مواضعها ومن حقوقها لفراخها أنها لا تحمل على نفسها فى الكسب عليها ومتى كان الذكر والانثى فى مكانين مجتمعين لا يدعان غيرهما من جنسهما يأوى قريبا منه ولا يصيد فيه وهى اذا صادت شيئا لا تحمله على الفور إلى مكانها بل تنقله من موضع إلى موضع ولا تجلس الا على الاماكن المرتفعة لانها لا تستقل من الارض إلا ببطء وعسر وإذا صادت الارنب تبدأ بصيد الصغار ثم تصيد الكبار وهى أشد جراءة من سائر الجوارح وأقواها حركة إلى الغضب وأسرعها اقداما وأيبسها مزاجا ولذلك هى أحدها وهى خفيفة الجناح سريعة الطيران فهى إن شاءت كانت فوق كل شىء وان شاءت كانت بقرب كل شىء تتغذى بالعراق وتتعشى باليمن وريشها الذى عليها فروتها فى الشتاء وحيسها فى الصيف وربما صادت حمر الوحش وذلك أنها اذا نظرت الحمار رمت نفسها فى الماء حتى تبتل جناحاها ثم تتمرغ فى التراب ثم تطير حتى تقع على هامة الحمار ثم تصفق على عينيه بأجنحتها فتملأهما ترابا فلا يبصر حيث يذهب فيؤخذ وهى مولعة بصيد الحيات ولوعها بها كولوع الحيات بالفار وفى طبعها تبل ان تدرب ان لا تراوغ صيداً ولا تعنى فى طلبه ولا تزال موفية على شرف عال فإذا رأت سباع الطير قد صادت شيئا انقضت عليه فيتركه له وينجو بنفسه ومتى جاعت لم يمتنع عليها الذئب وهى شديدة الخوف من الانسان تنظر إليه بقرب منها ويقال إنها إذا شاخت وهرمت وثقل جناحها وأظلم بصرها التمست غديرا فاذا وجدته حلقت طائرة فى الهواء ثم تقع فى ذلك الغدير وتنغمس فيه مراراً فيصح جسمها ويقوى بصرها ويعود ريشها ناشئ إلى حالته الأولى ومتى ثقلت عن النهوض وعميت حملتها الفراخ على ظهورها ونقلتها من مكان إلى مكان لطلب الصيد وتعولها إلى ان تموت ومن عجيب ما أُلهمته انها إذا اشتكت كبدها من رفع الارانب والثعالب فى الهواء أكلت أكبادها فتبرأ وهى تأكل الحيات إلا رءوسها والطير الا قلوبها ويدل على هذا قول امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطبا يابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

ومنقارها الاعلى يعظم ويتعقف حتى يكون سبب هلاكها لانها لا تنال به الطعم حينئذ

وأول من صاد بها أهل المغرب وإنما رغبتهم فيما رأوا من شدة شرهها وعظم سلاحها وصفة المحمود منها وثاقة الخلق وثبوت الاركان وحمرة اللون وغنور الحماليق وان تكون صقعا عجزا وهى التى تكون على علوتها بياض وأجودها ما جلب من سرب وجبال المغرب.

ابن نباتة:

أتيت إليها وهو كالفرخ راقد	فيا خجلى لما دنوت واقلالى
فقلت امرسيه بالاصابع فالتقى	لدى وكرها العناب والحشف البالى

القول فى طبائع البازى: وتنقسم إلى خمسة أصناف البازى والزرق والباشق والعفصى والبيدق والبازى أحرها مزاجا لأنه قليل الصبر على العطش ومأواه مساقط الشجر العادية الملتفة والظل الظليل ومطرد المياه وهو لا يتخذ وكراً إلا فى شجرة لها شوك مختلفة الحجون يطلب بذلك الكن ولا يقع فى شتاء ولا صيف على أغصانها ولا أطرافها وإذا أراد أن يفرخ بنى لنفسه بينا وسقفه تسقيفا لا يصل إليه منه مطر ولا ثلج اشفاقا على نفسه من البرد والحر ولهذا إذا أخطأ صائده وكان فى برية لا شجر فيها طار ممنعا حتى يلج كهفا من جبل أو جدار من الأرض ليسكن فيه ولذلك علق عليه الجرس كيما يدل على موضعه إن خفى وهو لا يطيق البرد ولا الحر لرقة جوانحه فسبيله فى البرد أن تقرب منه النار ليدفأ ويجعل تحت كفيه فى الشتاء وبر الثعلب واللبود وسبيله فى الحر أن يجعل فى كن كنين من السموم بارد النسيم ويفرش له الريحان والخلاف، وهو خفيف الجناح سريع الطيران يلف طيرانه كالتفاف الفاختة ويسهل عليه أن يزج نفسه صاعداً وهابطا وينقلب على ظهره حتى يلتقم فريسته وسبيله أن يضرأ على صيد الدراج والنبح إن كان طويل المنسر وإذا كان قصير المنسر فسبيله أن يضرأ على طير الماء والحبرج والاناث من هذا الصنف أجرأ على عظام الصيد من ذكورها ،قال أصحاب البيزرة فى الكلام على الاناث من البزاة اذا كان وقت سفادها وهياجها يغشاها جميع أجناس الحيوان الضوارى كلها الزرق والشاهين والصقر وإنما تبيض من كل طير يغشاها ولهذا تجىء مختلفة الاخلاق من الحسن والجراءة والخبث والغدر والذكاء والقوة والضعف والحسن والقبح والشراهة ولهذا البازى لا يترك ما بين العصفور إلى الدراج والكراكى وصفة الفاخر منه أن يكون قليل الريش أحمر العينين حادهما وأن يكونا مقبلتين على منسره وجؤجؤهما مطلان عليهما لا يكون وضعهما فى

جنبى رأسه كوضع عين الحمام والاورق دون الأحمر العين والاصفر دونهما وسعة الاشداق دليل على قوة الافتراس.

ومن صفاته المحمودة أن يكون طويلا عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين شديد الانخراط إلى ذنبه وإن تكون فخذاه طويلتين مسرولين بريش وذراعاه قصيرتين غليظتين وأشاجع كفيه عارية وأصابعه متفرقة لا تكون مجتمعة ككف الغراب ومخلبه اسود ومنسره اسود رقيقا وأفخر الالوان البيض ثم الشهب وهما لونان يدلان على الفراهه والكرم وأما الاسود الظهر المنقش الصدر بالسواد و البياض فهو يدل على الشدة والصلابة فإن اتفق أن يكون أحمر العينين وكثيرا ما يتفق كالنهاية وهذا اللون فى البزاة كالكميت من الخيل لأنه يدل على الشدة والاحمر من هذا الصنف أحسن البزاة لانه فيها كالسوسى من الخيل بعيد من الصلاح، وأول من صاد بهذا الجارح لزرتق أحد ملوك الروم الأول وذلك أنه رأى بازيا إذا علا كنف وإذا أسفل أخفق وإذا أراد يسمو ذرق فاتبعه حتى اقتحم شجرة ملتفة كثرة الدغل فأعجبته صورته فقال هذا طائر له سلاح تتزين بمثله الملوك فأمر بجمع عدة من البزاة فجمعت وحصلت فى مجلسه فعرض لبعضها اثم فوثب عليه فقتله فقال ملك يغضب كما تغضب الملوك ثم أمر به فنصب على كندرة بين يديه وكان هناك ثعلب فمر به مجتازا فوثب عليه فما أفلت منه الا جريحا فقال هذا جبار يمنع حماه ثم أمر به فضرى على الصيد واتخذته الملوك بعد ذلك.

ابن الايثر فى البزاة: وأطلقت لك البزاة بعد أن ذكر اسم الله على اطلاقها وتعلقت بما فوقها من الطيور حتى كأنما هى أطواق فى أعناقها.

ومن رسالة لأبى اسحاق إبراهيم بن خفاجة يصف بازيا طائرا يستدل بظاهر صفاته على كرم ذاته طورا ينظر نظر الخيلاء فى عطفه كأنما يزهى به جبار وتارة يرمى نحو السماء بطرفه كأنما له هناك اعتبار وأخلق به أن ينقض على قنبصة شهابا ويلوى ذهابا ويحرقه مواقد والتهابا حميد العين والاثر حديد السمع والبصر يكاد يحس ما يجرى ببال ويسرى فى خيال قد جمع بين عزة مليك وطاعة مملوك فهو بما يشتمل عليه من علو الهمه ويرجع إليه بمقتضى الخدمة مؤهل لابراز ما تقتضيه شمائله وايجاب ما تعديه مخائله وخليق بمحكم تأديبه وجودة تركيبه أن لو مثل له النجم قنصا أو جرى للبرق قنصا لاختطفه أسرع من لحظه وأطوع من لفظه وانتشبه أمضى من سهم وأجرى من وهم وقد أقسم بشرف جوهره

وكرم عنصره لا بوجه مسفرا الا وعاد قنيصه معفرا وآب إلى يد من أرسله مظفرا مورد المخلب والمنقار كأنما اختضب.نحبا أو كرع فى عقار.

وصفاته المحمودة: أن يكون صغيرا فى المنظر ثقيلا فى الميزان طويل الساقين قصير الفخذين عظيم السلاح بالنسبة إلى جسمه.

القول على الصقر: وهو من الجوارح بمنزلة البغال من الدواب لأنه أصبر على الشدة وأحمل لغليظ الغذاء وأحسن إلفا وأشد اقداما على جملة الطير من الكراكى والجوارح ومزاجه أبرد من سائر ما تقدم وأرطب وذلك معروف من ركوده وقلة حركته وعدم التفات ريشه وبهذا السبب يضرأ على الغزال والارنب ولا يضرأ على الطير لانها تفوته وفعله فى صيده الانقضاض والصرم وهو غير صاف بجناحه ولا خافق به ومتى خفق بجناحه كانت حركته بطيئة بخلاف البازى وتقول أصحاب البيزرة أنه أهدى نفسا من البازى وأسرع أنسا بالناس وأكثرها رضا وقناعة وهو يغتدى بلحوم ذوات الاربع ولبرد مزاجه لا يقرب المياه ويعافها ولو لم يجدها الدهر ما أرادها ولاجل ذلك يوصف بالبخر ونتن الفم، وفى طبعه أنه لا يركب الشجر ولا شوامخ الجبال ولا يأوى الا المقابر والكهوف وصدوع الجبال وفيه جبن ونفسه دون سدته ولذلك يضرب الغزال والارنب ويهرب منه ولا يكاد يعلق بفريسة فإذا فارقها عاد إليها منقضا فيضر بها ويرقى هاربا وكلما تقدم ذكره ينقى بالماء ويغتسل وهو ينقى بالتمعك فى الرمل.

وصفاته المحمودة أن يكون أحمر اللون عظيم الهامة واسع العينين تام المنسر طويل العنق والجناحين رحب الصدر ممتلئ الزور عريض الوسط جليل الفخذين قصير الساقين والذنب قريب الفقرة سبط الكف غليظ الاصابع فيروزجيها أسود اللسان، وأول من صاد به وضراه الحارث بن معاوية بن ثور بن كندة فإنه وقف يوما على صياد قد نصب للعصافير شبكة فانقض صقر على عصفور قد علق فجعل يأكله والحارث يعجب فأمر فأتى وقد اندق جناحاه فرمى به فى كسر بيت ووكل به من يطعمه قدرته حتى صار اذا أتى إليه باللحم ودعاه أجاب ثم صار يطعمه على اليد ثم صار يحمله لانسه به فبينما هو يوما يحمله اذ رأى حمامة فطار عن يده إليها فأخذها وأكلها، فأمر الحارث باتخاذها والتصيد بها فبينما هو يوما يسير اذ لاحت له أرنب فطار الصقر إليها وأخذها فلما رآه يعاقب بين الطيور وبين الارانب ازداد الحرث فيه محبة واغتباطا واتخذته العرب بعده.

وقال كشاجم فيه:

عدونا وطرف النجم وسنان غائر ... وقد نزل الاصباح والليل سائر
بأجدل من حمر الصقور مؤدب ... وأكرم ما قربت منه الاحامر
جرى على قتل الظباء واننى ... ليعجبنى أن يكسر الوحش طائر
قصير الذبانى والقدامى كأنها ... قوادم نسر أو سيوف بواتر
ونقش منه جؤجؤ فكأنه ... أعارته أعجام الحروف الدفاتر
فما زلت بالاضمار حتى صبغته ... وليس يحوز السبق الا ضوامر
وتحمله منا أكف كريمة ... كما زهيت بالخاطبين المنابر
وعن لنا من جانب السفح ربرب ... على سنن تستن منه الجآذر
فحلى وحلت عقدة السير فانتحى ... لأولها اذ أمكنته الاواخر
يحث جناحيه على حر وجهه ... كما فصلت فوق الخدود المعاجر
وما تم رجع الطرف حتى رأيتها ... مصرعة تهوى اليها الحناجر

القول على الشاهين: تقول أصحاب البيزرة: الشاهين من جنس الصقر الا أنه أبرد منه وأيبس ولاجل ذلك تكون حركته من العلو إلى السفل شديدة وليس يحلق فى طلب الصيد على خط مستقيم وإنما يحوا لثقل جناحه حتى إذا سامت فريسته انقض على فريسته هاويا من علو إلى سفل فضر بها وطار بها يطلب الصعود وإن سقطت على الأرض أخذها وإن لم تسقط عاد وضر بها لتسقط وذلك دليل على جبنه وفتور نفسه وبرد مزاج قلبه وعلى كل حال فالشاهين أسرعها وأخفها وأشدها ضراوة على الصيد إلا أنهم عابوه بالاباق وربما يعتريه من الحرص حتى أنه ربما ضرب بنفسه الارض فمات، ويقولون إن عظامه أصلب من عظام سائر الجوارح ولذلك هو يضرب بصدره ويعلق بكفه وقال بعض حذاق هذا الفن الشاهين كاسمه يعنى الميزان لأنه يحمل أدنى حال من الشبع ولا أيسر حال من الجوع.

والمحمود من صفاته: أن يكون عظيم الهامة واسع العينين حادهما تام المنسر طويل العنق رحب الصدر متملئ الزور عريض الوسط جليل الفخذين قصير الساقين قريب الفقرة من الظهر قليل الريش تام الخوافى رقيق الذنب اذا صلبت عليه جناحاه لم يفضل عنهما شىء منه فإن كان كذلك فهو يقتل الكراكى ولا يفوته صيد كبير وزعم أهل الاسكندر أن السود منها هى المحمودة وأن السواد أصل لونها وإنما قلبته التربة فحال ويكون فيها الململع، ويقال إن أول من صاد بها قسطنطين ملك عمودية حكى أنه خرج يوما يتصيد بالبزاة

حتى انتهى إلى خليج القسطنطينية وهو المسمى بحر ينطش فعبر إلى مرج بين الخليج والبحر فنظر إلى شاهين ينكفئ على طير الماء فأعجبه ما رأى من سرعته وضراوته والحاحه على الصيد فأمر له أن ينصب له حتى صيد فأخذه وضراه ثم ريضت له بعد ذلك الشواهين وعلمت أن تحوم على رأسه إذا ركب فتظله من الشمس فكانت تنحدر مرة وترتفع أخرى فإذا نزل وقفت حوله.

الوصف والتشبية قال صلاح الدين الصفدى ملغزا فى بجع:

ما طائر فى قلبه	يلوح للناس عجب
منقاره كبطنه	والرأس منه فى الذنب

محيى الدين بن عبد الظاهر:

بى من أمير شكار	هو يذيب الجوانح
لما حكى الظبى حسنا	حنت إليه الجوارح

نقلت من كتاب المصائد والمطارد لأبى الفتح كشاجم قيل لمن كان مدمنا للصيد من حكماء الملوك إنك قد أدمنت هذا وهو من خير الملاهى وفيه مشغلة عن مهم الامور ومراعاة الملك فقال إن للملك فى مداومة الصيد حظوظا كثيرة أقلها تنبه فى أصحاره مواقع العمارة من بلاده فى النقصان والزيادة فإن رأى من ذلك ما يسره بعثه الاغتباط به على الزيادة فيه وإن رأى أمرا ينكره جرد عنايته له ووفرها على تلافيه فلم يستتر عنه حال ورأس الملك العمارة ولم يخرج ملك للصيد فيرجع بغير فائدة، أما حداثة خيله فيمرنها ويكف من غرب جماحها، وأما شهوته فينشيها، وأما فضول بدنه فيذيبها، وأما مراودة ومفاضلة فيسلسها، وإما أن يكون قد طويت عنه حال مظلوم فيتمكن من لقائه ويرجع إليه ظلامته فيسلم من مأثمه وإما أن ينكفئ بصيد يتفاءل بالظفر به إلا خلال كثيرة لا يجهل ما فيها من الربح ومنه من فضل العلم بالصيد والعادة ما حكاه لى أبى عن أبى إسحاق إبراهيم بن السدى عن الملك بن صالح الهاشمى عن خالد بن برمك أنه كان نظر وهو مع صالح صاحب المعلى وغيره من رجال الدعوة وهو على سطح قربه نازل مع قحطبة حين قفلوا من خراسان وبينهم وبين عدوهم مسيرة ليال وأيام إلى أقاطيع ظباء مقبلة من البر حتى كادت تخالط العسكر، فقال لقحطبة ناد فى الناس بالاسراج والالجام وخذ الاهبة فتشوف قحطبة فلم ير شيئا يروعه، فقال لخالد ما هذا الرأى فقال أما ترى هذه الوحوش قد أقبلت إن

وراءها لجمعا يكشفها فما تمالك الناس أن تأهبوا حتى رأوا طليعة ولولا علم خالد بالصيد لكان الجيش قد اصطلم، ووقف بعض الملوك بصومعة حكيم من الرهبان فاستجاب له فقال له ما اللذة قال كبائر اللذات أربع فعن أيهن تسأل قال صفهن لى قال هل تصيدت قط قال لا قال ألك حظ بالسماع والشراب قال لا قال فهل فاخرت ففخرت أو كاثرت فكثرت قط قال لا قال وما بقى من اللذات.

الجوارح أربعة البازى والشاهين والصقر والعقاب وما يضاف إليها فنقتصر على ذكر هذه الأربعة إذا كانت أركان الجوارح ومعتمد الملوك عليها فالمبدأ به منها البازى يقال باز وبزاة مثل قاض وقضاة وبيزان كغاز وغيزان وبازى وبوازى قال لبيد بن ربيعة:

لقيت لنا بوازى صائدات وطيرك فى مكامنها لبود

وأول من تهدى إلى الصيد به تقدم ذكره ولا يعرف كحرصه حرصا ولا كجده جدا وفى أخبار نصر بن سيار أن بعض كبراء الدهاقين غدا عليه بطبرستان ومعه منديل فيه شىء ملفف فكشف عنه بين يديه فإذا فيه هيئة شلو باز ودراجة محترقين فقال نصر ما هذا فقال الرجل خرجت ومعى هذا البازى وثارت دراجة فاضطرب عليها وأحست به وقد كنت مررت بقصباء أفسدت أرضا لى فأمرت باحراقها فاضطرمت فتحاملت الدراجة حتى اقتحمت النار هاربة واشتد قربه إليها فلم تثنه النار عنها واقتحم فى أثرها فأسرعت فيهما فأدركتهما النار واحترقا فأحضرتهما للامير ليرى بهما ثمرة افراط الحرص وافراط الجبن وما أحسن صورة اجتمع فيها ثلاث بزاة على ظهر فرس فى كف رجل واختلف رأى الملوك فيما مثلته فى تيجانها ولباسها، فكانت أمثلة تاج ملك جيلان ولباسه صورة بزاة فقيل له فى ذلك فقال وجدت الانسان يحمله الفرس ووجدت البازى يحمله الانسان لينال عليه لذته وبغيته وطرده ووجدته أيضًا ملك نوعه وإذا كنت أحمله جسما فى الحقيقة فلا أعاب به فانا فى تمثيله وحمله مثالا فى لباسى وحلتى أعذر.

ومن فضائله: أن الصيد فيه طبع لأنه يؤخذ فرخا من وكره من غير أن يكون حذق ولا تصيد مع أبويه فيصيد ابتداء من غير تضرية ولا استجابة وليس ذلك فى الصقر والصقر بعكسه ومن ملح أخباره وأمثاله أن خالد بن برمك قال بينما أبو أيوب الكاتب جالس فى أمره ونهيه إذ أتاه رسول المنصور فامتقع لونه فلما رجع تعجبنا من حاله، فقال أنا أضرب لكم مثلا زعموا أن البازى قال للديك ما فى الأرض حيوان أقل وفاء منك قال وكيف ذلك

قال أخذك أهلك بيضة فحضنوك ثم خرجت على أيديهم وأطعموك فى أكفهم ونشأت بينهم حتى إذا كبرت صرت لا يدنو إليك أحد الا طرت مرة كذا ومرة كذا وصوتت وحذرت، وأنا مسونى من الجبال فعلمونى وألقونى فى الهواء فآخذ صيدى فأجىء به إلى صاحبى، فقال له الديك إنك لو رأيت من البزاة فى سفافيدهم مثل الذى من الديوك لكنت أنفر منى ولكنكم أنتم لو علمتم ما أعلم ما تعجبتم من خوفى مع ما ترون من تمكن حالى وأقول إن هذا المثل يتصل به معنى حسن لكفاءة السلطان وأعوانه وهو أنه ينبغى لتابع السلطان أن يجتهد فى توفير الحظ واجتلاب المنافع إليه حتى يكون كالبازى الذى دفع عن نفسه ما وقع الديك فيه برغبة صاحبه فى كسبه ووده ولم يقنع له بالسلامة حتى اكرمه بالدستيان وأركبه يده وحلاه الجلجل وأطعمه من خالص كسبه ومن غير كسبه وعجز الديك عن هذه الفضائل والمكاسب واقتصر على شهوة الفساد والترفه واللفظ فحل به ما حل.

أمارات الجراءة فيه: يمتحن ذلك بان ينصب فى بيت مضىء ثم يقطع عنه الضوء ويسد ما يدخل اليه من النور فإذا أظلم البيت دنوت من البازى فلمسته مسرعا فإن وثب على يدك وقبضها فهو جرىء بصيد عظام الطير وان تقبض وسكن فليس كذلك، ومن أمارات القوة أن يشد فى زاوية البيت وينظر أين يبلغ بزرقه من الحائط فأرفعها زرقا أشدها قوة وتدل قوته على طيرانه وصيده.

ومن ملح ما ورد فى التعريض باسمه ما قاله بعض التميميين لرجل من نمير ما أحسن صيد البازى فقال له النميرى لا سيما اذا أرسل على القطار اراد التميمى:

أنا البازى المطل على نمير ... أتيح من السماء لها انصبابا

وأراد النميرى:

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ... ولو سلكت سبل المكارم ضلت

قلت وما أحسن جواب بعض الشعراء وقد حضر بين يدى أمير يمدحه فقال له الامير ممن الرجل فقال من بنى تميم فقال الذين يقول فيهم القائل:

* تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا *

فقال بتلك الهداية جئتك فخجل الامير وسأله كتمانها بعد الاجازة.

الاوقات المحمودة للصيد يوم الغيم الذى لا مطر فيه ويوم المطر للقصف ويوم

الصحو للقاء الناس والملوك تغلس للطرد لأن الطرائد فى ذلك الوقت تكون رابضة فتستار وفيها أثر النوم وأما يوم الصيد فالسبت، وقد قيل فى ذلك:

لنعم اليوم يوم السبت حقا لصيد إن أردت بلا امتراء

والاختيار فى باب النجوم فهو اختيار الحرب والوجه أن يكون صاحب السابع فى الطالع فيكون المتبوع مأسورا ويكون القمر مناظراً لاحد السعدين أو متصلا به فى برج ذوات أربع قوائم، قال أبو سهل النوبختى وصاحب الطالع فيه الزهرة والمشترى يسعدها بنظره وهذا معدن من معادن علم النجوم.

الشيخ جمال الدين بن نباتة يقرض رسالة بندقية ومن بندقية لها الشرف الرفيع على كل قول والطرف البعيد على كل ذى صوغ من اللفظ وصول وصف فيها الرياض فكأنما وصف كلامه وذكر فيها الواجب فكأنما ذكر بحقوق هذه الصناعة قيامه فما قوس السماء بدا فى مصباغات غلائله ورمى ببندق برده الجذب فى مقاتله بأبهج من وصفه لتلك القسى المذبحة الجافية المتعطفة الجانية الا على الطير الممتنع الصائبة بعيون أوتارها شمله المجتمع قسى قاسية الجوانح لينة الا على الجوارح طالعة أهلتها بفناء السوانح والبوارح ومبتذلة مكرمه صامتة الا انها لذوات الجوارح مكملة قادرة على العطاء والعطب باهرة الفضائل التى لولا بدائع الصنع لما نبتت منها فى عصب قد ألفت الرياض فلبست بعض بردوها وطلبت شأو السماء فنثرت مثل عقودها تقوم بالواجب وتعين بعين وحاجب وتأخذ على الطير المطار وتذكر قيامها تحته وهى غصن فتطالبه بأوتار كأن كل قوس منها حاجبان وقبضته البلج وكأن بيدقها طالب ما فتح باب نجاح وجناح الا ولج ولج ومن غزالية غزلية براعية أسلية تقنص فيها شوارد الحكم وقيد أو ابدأ المعانى بجناح القرطاس ومخلب القلم وتصرف من تقريظ مواطن الصيد فى باب المنايا والمنايح وتلطف فى الاقوال التى لو شاء لعطف عليها الظباء السوانح وأتى بعيون الدرر التى نظمت وفنون الحلل التى رقمت لا بالجزع الذى لم ينقب من عيون الوحش ولا بمناديل أعراف الجياد التى غيرها المس والمش حتى عرف البلغاء أنها أقوى على دفع الخطب وسجع الخطب وأن أقلامهم إذا شاركت قلمه فى المعانى كان منه الصيد ومنها الخطب وان غزالا وصفه قد سرف على الغزالة وزهى بما حشد من التقريظ وغزاله فلو استطاع الشكر منه كرما لسطر مدحه فكان الخط دواة والقرن قلما على أن عدل قلمه لو شاء لم ترع ظبية فى مداها ولم تخف من مناسر البزاة حد مداها ولم تبلغ يد منهم من ريم مراما ولكانت عينه بل كل عين فى جسده من أعين الظباء حراما وله فيها:

اسعد بها يا قمرى برزة ... سعيدة الطالع والغارب
صرعت طيرا و سكنت الحشى ... فما تعديت عن الواجب

وللشيخ جمال الدين بن نباتة من رسالة طردية حاملين قسيا كالأهله لا جرم أنها تقصر لذوات الجناح عمرا متأبطين حرا وآت يقول الطير عن حواملها هذا الذى تسميه العرب تأبط شرا.

ومن انشاء القاضى شهاب الدين محمود الحلبى:

وبرزنا وشمس الاصيل تجود بنفسها وتسير من الافق الغربى إلى موضع رمسها، وتغازل عيون النور بمقلة أرمد وتنظر إلى صفحات الورد نظر المريض، إلى وجوه العود فكأنها كئيب أمسى من الفراق على فرق، أو عليل تقضى بين صحبة بقايا مدة الرمق، وقد اخضلت عيون النور لوداعها وهم الروض بخلع حلته المموهة بذهب شعاعها.

والطل فى أعين النوار تحسبه ... دمعا تحير لم يرقى ولم يكف
كالؤلؤ ظل عطف الغصن متشحا ... بعقده وتندى منه فى شنف
يضم من سندس الاوراق فى صرر ... خضر ويجنى من الازهار فى صدف
والشمس فى طفل الامساء تنظر من ... طرف غدا وهو من خوف الفراق خفى
كعاشق سار عن أحبابه وهفا ... به الهوى فتراهم على شرف

إلى ان نضا المغرب عن الافق ذهب قلائدها وعوضه عنها من النجوم بخدمها وولائدها فلبثنا بعد آداء الفرض لبث الأهلة ومنعنا جفوننا أن ترد النوم الا نحلة ونهضنا وبرد الليل موشع وعقده مرصع واكليله مجوهر وأديمه معنبر وبدره فى خدر سراره مستكن وفجره فى حشا مطالعه مستجبن كأن امتزاج لونه بشفق الكواكب خليط مسك وصندل وكأن ثرياه لامتداده معلقة بامراس كتان الى صم جندل:

ولاحت نجوم الليل زهرا كأنها ... عقود على خود من الزنج تنظم
محلقة فى الجو تحسب أنها ... طيور على نهر المجرة حوم
اذا لاح بازى الصبح ولت يؤمها ... إلى الغرب خوفا منه بسر ومزرم

إلى حدائق ملتفة وجداول محتفة إذا جمش النسيم غصونها اعتنقت عناق الاحباب واذا فرك من المياه متونها انسابت فى الجداول انسياب الحباب ورقصت فى المناهل رقص الحباب وان لثم ثغور نورها حيته بأنفاس المعشوق وان أيقظ نواعس ورقها غنته بألحان المشوق فنسيمها وان وشميمها بعرف الجنان عنوان ووردها من سهر نرجسها غيران وطلها فى خدود الورد مهتد وفى طرز الريحان حيران وطائرها غرد وماؤها مطرد وغصنها تارة

يعطفه النسيم إليه فينعطف وتارة يعتدل تحت ورقائه فيظنها قوم همزة على ألف مع ما فى تلك الرياض من توافق المحاسن وتباين الترتيب اذ كلما اعتل النسيم صح نشر الروض وكلما خر الماء شمخ القضيب:

وكأنما تلك الغصون وقد ثنت ... أعطافها رسل الصبا أحباب

فلها اذا افترقت من استعطافها ... صلح ومن سجع الحمام عتاب

وكأنها حول العيون مسوايا ... شرب وهاتيك المياه شراب

فغديرها كأس وعذب نطاقها ... راح وأضواء النجوم حباب

تحيط بملق ماؤها صاف وظلال دوحها ضاف وحصباؤها بصفاء مائها فى نفس الامرار كدو فى رأى العين طاف اذا دغدغها النسيم العليل حسبت ماءها بتمايل الظلال فيه يتبرج ويميل وإذا اطردت عليه أنفاس نسيم الصبا ظننت أفياء تلك الغصون هوى بمثلها فى قلبه وكأن النسيم أيضا كلف بها غار من دنوها إليه فميلها عن قربه والسرو مثل عرائس لفت عليهن الملاء شمرن فضل الازر عن سوق خلاخلهن ماء والنهر كالمرأة تبصر وجهها فيه السماء وكأن صواف الطير المبيضة بتلك الملق خيام أو قباب على الرقمتين قيام وأباريق فضة رءوسها لها فدام ومناقيرها المحمرة أول ما أنسكب من المدام وكأن رقابها رماح أستها من ذهب أو شموع أسود رءوسها ما انطفى وأحمره ما التهب وكنا كالطير الجليل عدة وكطراز العمر الأول جدة:

من كل أبلج كالنسيم لطافة ... عف الضمير مهذب الاخلاق

مثل البدور ملاحة وكعمرها ... عددا ومثل الشمس فى الاشراق

ومعهم قسى كالغصون فى لطافتها ولينها والأهلة فى نحافتها وتكوينها والازهار فى ترافتها وتلوينها بطونها مدبجة ومتونها مدرجة كأنها كوكب الشولة فى انعطانها أو أوراق الظباء فى التفافها لأوتارها عند القوم أوتار ولبنادقها فى الحواصل أوكار إذا انتصبت لطير ذهب من الحياة نصيبه وإذا انتضت لرمى بدت لها أنه أحق بها أن تصيبه ولعل ذلك الصوت زجر لبندقها أن يبطىء فى سيره أو يخطئ الغرض إلى غيره أو وحشة لمفارقة افلاذ كبدها وأسف على خروج بنيها عن يدها على أنها طالما نبذت بنيها بالعراء وشفعت لخصمها التحذير بالاغراء:

مثل العقارب أذنابا معقدة ... لمن تأملها أو حقق النظرا

إن مدها قمر منهم وعاينه ... مسافر الطير فيها وانبرى سفرا

فهو المسيء اختياراً اذ نوى سفرا ... وقد رأى طالعا فى العقرب القمرا

ومن البنادق كرات متفقة السرد متحدة العكس والطرد كأنما خرطت من المندل الرطب أو عجنت من العنبر والورد تسرى كالشهب فى الظلام وتسبق إلى مقاتل الطير مسددات السهام:

مثل النجوم إذا ما سرن فى افق عن الأهلة لكن نونها راء
من فاتها من نجوم الليل إن رمقت الا ثبات يرى فيها وأضواء
تسرى ولا يشعر الليل البهيم بها كأنها فى جفون الليل اغفاء
ويسمع الطير اذ تهفو قوادمه خوافقا فى الدياجى وهى صماء

تصونها جراؤه كأنها درج درر أو درج غرر أو كمامة ثمر أو كنانة نبل أو غمامة وبل حالكة الاديم كأنما رقمت بالشفق حلة ليلها البهيم:

كأنها فى وضعها مشرق تنبت منه فى الدجا الانجم
أو ديمة قد أطلعت قوسها ملونا وانبعثت تسجم

فاتخذ له كل مركزا وتقاضى من الاصابة وعدا منجزا وضمن له السعد أن يصبح لمراده محرزا:

كأنهم فى يمن أفعالهم فى نظر المنصف والجاحد
قد ولدوا فى طالع واحد وأشرفوا من مطلع واحد

فمرت علينا من الطير عصابة أظللتنا من أجنحتها سحابة من كل طائر أقلع يرتاد مرتعا فوجدوا الكن مصرعا وآشف يبغى ماء حماما فورد ولكن السم منقعا وحلق فى الفضاء يبغى ملعبا فبات هو وأشياعه للقسى سجدا ركعا فتبركنا بذلك الوجه الجميل وتداركنا أوائل ذلك القبيل فاستقبل أولنا ثم بدره وعظم فى نوعه قدره كأنه برق كرع فى غسق أو صبح عطف على بقية الدجى عطف النسق تحسبه فى أسداف المنى غرة نحج وتخاله تحت أذيال الدجى طرة صبح عليه من البياض حلة وقار وله كرة من عنبر فوق منقار من قار له عنق ظليم والتفاتة ريم وسرى غيم بصرفه نسيم:

كلون المشيب وعصر الشبا ب ووقت الوصال ويوم الظفر
كأن الدجى غار من لونه فأمسك منقاره ثم فر

فأرسل إليه عن الهلال نجما فأسقط منه ما كبر بما سقط حجما فاستبشر بنجاحه وكبر عند صباحه وحصله من وسط الماء بجناحه وتلاه كى نقى اللباس مشتعل شيب الراس كأنه فى عرانين يشبه لأوائله كبير اناس إن أسف فى طيرانه فغمام ،وإن خفق بجناحه قطع له بيد

النسيم زمام ذو عيبة كالجراب ومنقار كالحراب ولون ثغر فى الدجى كالنجم ويخدع فى الضحى كالسراب ظاهر الهرم كأنما بخبر عن عاد ويحدث عن أرم:

ان عام فى زرق الغدير حسبته ... مبيض غيم فى أديم سماء
أو طار فى أفق السماء ظننته ... فى الجو شيخا عائما فى ماء
متناقض الاوصاف فيه خفة الجـ ... ـهال تحت رزانة العلماء

فثنى الثانى إليه عنان بندقه وتوخاه فيما بين أصل رأسه وعنقه فخر كمارد انقض عليه نجم من أفقه فتلقاه الكبير بالتكبير واختطفه قبل مصافحته من الماء وجه الغدير وقارنته أوزة حلتها دكنا وحليتها حسنا لها فى الفضاء مجال وعلى طيرانها خفة ذوات التبرج وخفر ربات الحجال كأنما عبت فى ذهب أو خاضت فى لهب تختال فى مشيتها كالكاعب وتتأنى فى خطوها كاللاعب وتعطو بجيدها كالطير البهير وتتدافع فى سيرها مشى القطاة إلى الغدير:

إذا قبلت تمشى فخطرة كاعب ... رداح وان صاحت فصولة خادم
وإن أقلعت قالت لها الريح ليت لى ... خفا ذى الخوافى أو قوى ذى القوادم
فأنعم بها فى البعد زاد مسافر ... وأكرم بها فى القرب تحفة قادم

فلوى الثالث جيده إليها وعطف بوجه قوسه عليها فلحت فى ترفعها ممعنة ثم نزلت على حكمه مذعنة فأعجلها عن استكمالها الهبوط ورفعها قبل استقرارها السقوط واستولى عليها بعد استمرارها القنوط وحاذتها الغلغة تحكى لون وشيها وتصف حسن مشيها وترى عليها بغرتها وتنافسها فى المجالس كضرتها كأنها مدامة قطبت بمائها أو غمامة سفت عن بعض نجوم سمائها:

بغرة بيضاء ميمونة ... تشرق فى الليل كبدر التمام
وان تبدت فى الضحى خلتها ... فى الحلة الدكنا برق الغمام

فنهض الرابع لاستقبالها ورماها عن فلك سعده بنجم وبالها فجدت فى العلو مدة وطارت أمام بندقه ولولا اطراد الصيد لم تك لذة وانقض عليها من يده شهاب حتفها وأدركها الاجل لخفة طيرانها من خلفها فوقعت من الافق فى كفه وفرت من ثنايا واصفها عن صفة وأتت فى اثرها أنيسة آنسة كأنها العذراء العانسة أو الارماء الكانسة وعليها خفر الابكار وخفة ذوات الاوكار وحلاوة المعانى التى تجلى على الافكار ولها أنس الربيب واذلال الحبيب وتلفت الزائر المريب من خوف الرقيب ذات عنق كالابريق أو الغصن الوريق قد جمع صفرته النهار إلى حمرة الشفق وصدر بهى الملبوس شهى إلى النفوس

كأنما رقم فيه النهار بالليل أو نقش العاج بالابنوس وجناح ينجيها من العطب يحكى لونه المنديل الرطب لولا أنه حطب مدبجة الصدر تفويفه أصناف إلى الليل ضوء النهار لها عنق خاله له من رآه شقائق قد سبحت بالبهار.

فوثب الخامس منها إلى الغنيمة ونظم فى سلكه تلك الدرة اليتيمة وحصل بتحصيلها بين الرماة على الرتبة الجسيمة وأتى على صياحها حبرج تسبق همته جناحه ويغلب خفق فؤاده صياحه مدبج المطا كأنه خلع حلة منكبيه على القطا ينظر من ذهب ويخطو على عود من لهب:

يزور الرياض ويجفو الحياض	ويشبه فى اللون كدر القطا
ويهوى الزروع ويلهو بها	فلا يرد الماء الا خطا

فبدره السادس قبل ارتفاعه وأعان قويه بامتداد باغه فخر على آلائه كبسطام بن قيس وانقض عليه راميه فحصله بحذق وحمله بكيس.

وتعذر على السابع مِرامه ونبأ به عن بلوغ الارب مقامه فصعد هو وترب له إلى جبل وثبت فى موقفه من لم يكن له بمرافقته قبل فعن له نسر بقوادم شداد ومناسر حداد وخوافى مداد كأنه من نسور لقمن بن عاد تحسبه فى السماء ثالث أخويه وتخاله فى الفضاء قبته المنسوبة اليه قد حلق كالفقراء رأسه وجعل مما قصر من الدلوق الدكن لباسه واشتمل من الرياش العسلى ازارا واختار العزلة ولا تجد له الا فى قنن الجبال الشواهق مزاراً قد شابت نواصى الليالى وهو لم يشب ومضت الدهور وهو من الحوادث فى معقل أشب:

مليك طيور الارض شرقا ومغربا	وفى الفلك الاعلى له أخوان
له خال فتاك وحلية ناسك	واسراع أقدام وفترة وان

فدنا من مطاره وتوخى ببندقة عنقه فوقع فى منقاره فكأنما قد هد منه صخرا توخى أو هدم به بناء مشمخرا ونظر إلى رفيقه مبشرا له بما امتاز به عن فريقه واذا به قد أظلته عقاب كاسر كأنما قد أظلت صيدا قد أفلت من المناسر إن حطت فسحاب انكشف وان اقامت فكأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف بعيدة ما بين المناكب اذا أقطعت لجت فى علو كأنما تحاول ثارا عند بعض الكواكب:

ترى الطير والوحش فى كفها	ومنقارها ذا عظام مزاله
فلو أمكن الشمس من خوفها	اذا طلعت ما تسمت غزاله

فوثب اليها الثامن وثبة ليث وثق من حركاتها بنجاحها ورماها بأول بندقية فما أخطأ

قادمة جناحها فأهوت كعود صرع أو طود صدع قد ذهب بأسها وتذهب بدمها لباسها وكذلك القدر تخادع الجو عن عقابه ويستنزل الاعصم من عقابه فحملها بجناحها المهيض ورفعها بعد الترفع فى أوج جوها من الحضيض ونزلا إلى الرفقة جزلين بربح الصفقة فوجد التاسع قد مر به كركى طويل السفار سريع النفار شهى العراق كثير الاغتراب يشتو بمصر ويصيف بالعراق لقوادمه فى الجو هفيف ولأديمه لون سماء طرأ عليها غيم خفيف تحن إلى صوته الجوارح وتعجب من قوته الرياح البوارح له شية حمراء فى رأسه كوميض جمر تحت رماد أو بقية جرح تحت ضماد أو فص عقيق سفت عنه بقايا ثماد ذو منقار كسنان وعنق كعنان كأنما بنوس على عود من أبنوس:

اذا بدا فى افق مقلعا ... والجو فى الماء تفاويفه
حسبته فى لجة مركبا ... رجلاه فى الانق محاذيفه

فصبر عليه حتى جازه مخلبا وعطف عليه مصلبا فخر مضرجا بدمه وسقط مشرفا على عدمه ولطالما أفلت لدى الكواسر من أظفار المنون واصابه القدر بحبة من حماء مسنون فكثر التكبير من أجله وحمله راميه من على وجه الارض برجله وحاذاه غرنوق حكاه فى زيه وقدره وامتاز عنه بسواد رأسه وصدره له ريشتان ممدودتان من رأسه إلى حلقه مفقودتان من أذنه إلى مكان سبقه له من الكراكى أوصافه سوى سواد الصدر والرأس إن شال رجلا وانبرى قائما ألفيته هيئة برجاس.

فأصغى العاشر له منصتا ورماه ملتفتا فخر كأنه صريع الأشجان أو نزيف بنت الجان فأهوى إلى رجله بيده وأيده وانقض عليه انقضاض الكاسر على صيده وتبعه فى المطا رضوغ كأنه من النضار مصبوغ تحسبه عاشقا قد مد صفحته أو بارقا قد بدت لفحته:

طويلة رجلاه مسودة ... كأنما منقاره خنجر
مثل عجوز رأسها اشمط ... جاءت وفى رقبتها معجر

فاستقبله الحادى عشر ووثب ورماه حين حازاه من كثب فسقط كفارس تقنطر عن جواده أو وامق احتسب حبة فؤاده فحمله بساقه وعدل به إلى زقاقه واقترن به مرزم له فى السماء سمى معروف ذو منقار كصدع معطوف كأن رياشه فلق اتصل بشفق أو ماء صاف علق بأطرافه علق له جسم من الثلج على رجلين من نار إذا أقلع ليلا قلت صبح فى الدجى نار.

فانتحاه الثانى عشر ميممًا ورماه مصمما فأصابه فى زوره وحصله من فوره وحصل له

من السرور ما خرج به عن طوره والتحق به شبيطر كأن مدته مسطر ينحط كالسيل ويكر على الكواسر كالخيل ويجمع من لونه بين ضدين يقبل منهما بالنهار ويدبر بالليل يتلوى فى منقاره الايم كتلوى التنين فى الغيم:

تراه فى الجو ممتدا وفى فمه ... من الافاعى شجاع أرقم ذكر
كأنه قوس رام عنقه يدها ... وراسه رأسها والحية الوتر

فصوب الثالث عشر إليه بندقه فقطع الحبة ودق عنقه فوقع كالصرح الممرد أو الطرف الممدد وأتبعه عنان أصبح فى اللون ضده وفى الشكل نده كأنه ليل ضم الصبح إلى صدره وانطوى على هالة بدره:

تراه فى الجو عند الصبح حين ندا ... مسود أجنحة مبيض حيزوم
كأسود حبشى عام فى نهر ... وضم فى صدره طفلا من الروم

فنهض تمام القوم إلى التتمة وأسفرت عن نحج الجماعة تلك الليلة المدهمة وغدا ذلك الطير الواجب واجبا وكمل العدد به قبل ان تطلع الشمس غيبا أو تبرز حاجبا فيا لها حصرت بابها الصوادح فى الفضاء المتسع ولقيت فيها الطيرما طارت من قبل على كل شمل مجتمع وأصبحت أشلاؤها على وجه الارض كفرائد صانها النظام أو مشرب كأن رقابهم من اللين لم يخلق لهن عظام وأصبحنا مثين على مقامنا منثنين إلى مستقرنا ومقامنا.

كتب القاضى شهاب الدين بن فضل الله العمرى وهو بين يدى السلطان إلى نائب الشام المحروسة صحبة طيور أرسلها إليه من رأس قلمه ولا زالت مواهبنا تخصه بالمزيد وتتحفه بما يريد وتجعل له من الجوارح ما تعترف له السهام بأنها بغير جناحيه لا تصيب ولا تصيد صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى بسلام جميل الافتتاح وثناء يطير إليه وكيف لا يطير قادمه بجناح ونعلمه ان مكاتبته المتقدمة الورود تضمنت التذكار من الجوارح بما بقى من رسمه وجرت عادة صدقاتنا الشريفة أن تحسب فى قسمه وقد جهزنا له الآن منها ثلاثة طيور لا يبعد عليها مطار ولا يوقد للقرى فى غير حماليقها جذوة نار ولا نؤم صيدا الا وترش الارض بدمه فلا يلحق لها بغبار وهى طائر كم لها من فتك أخذ الطير من منامه وسلب ما تحلى به من رياش الريش ثم تزيا بأحسنه ومنها شاهين كم قيل له عن عزيز من الطير فقال شاهين قد أبدعت قوادمه فى وسمها ورسمت فى أجنحتها معانى النصر فبكت عيون الوحش دماء على رسمها فالجناب يتسلمها من الواصل بها ويتوصل إلى الطيور

المحلقة فى السماء بسببها وليشكر نعمنا التى اقرت النعم لديه وبسطت فى الأرض بالتمكين بين يديه ونوعت له من كرمنا من الخير وخولته فيما تقلدناه من الملك حن سليمان حتى تفقد الطير والله تعالى يجدد سعوده فى شطور الصدور تقرا وجوده بها يقرى وعهوده فى البطش تارة تريش سهما وتارة تجرد صقرا أن شاء الله تعالى.

نظر رجل إلى رام قصير اليد فى صنعته فقعد فى مواضع الهدف فقال له ما هذا فقال له لم أر منك مكانا سالما الا هذا.

خرج الحيص بيص الشاعر ليلة من دار الوزير شرف الدين أبى الحسن على بن طراد الزينى فنبح عليه جرو كلب وكان متقلدا سيفا فوكزه بعقب السيف فمات وكان هبة الله بن الفضل القطان بينه وبين الحيص بيص وقائع فكتب رقعة وعلقها فى عنق كلبة لها جرو ورتب معها من طردها وأولادها إلى باب الوزير كالمستغيثة به فأخذت الورقة وقرئت على الوزير فإذا فيها مكتوب:

يا أهل بغداد ان الحيص بيص أتى	بفعلة اكسبته الخزى فى البلد
هو الجبان الذى أبدى تشاجعه	على جرو ضعيف البطش والجلد
وليس فى يده مال يفديه به	ولم يكن لسواء عنه فى القود
فأنشدت جعدة من بعد ما احتسـ	ـبت دم الابيلق عند الواحد الصمد
تقول للنفس يأسى وتعزية	احدى يدى اصابتنى ولم تكد
كلاهما خلف من بعد صاحبه	هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى

قلت ومن ملح المداعبات ما كتب به الشيخ جمال الدين بن نباتة إلى الشيخ بدر الدين حسن الغزى الشهير بالزغارى صورة اجازة أما بعد حمد الله الذى جعلنا ممن كرم من البشر والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاسئ من فجر وعلى آله وصحبه ما نبح الكلب ضوء القمر فقد قرأ على لازال صائدا للحمد من مكمنه صائلا على القرن من مأمنه نازلا منازل العواء فى أحسن افق وأحصنه هذه الفلذة من شعرى قراءة أبتغ بها الاحسان أثرا ودل على جودة القراءة وطالما دل على جود القرى ووحدته قد فاق جرو لا خطابا وافتخر على الكلبى وابنه نسبا وآدابا وبلغت مفاخر قومه على زعم القائل فلا عمر ابلغت ولا كلابا وعلا ذروة لو سامها ابن كلاب لما قرعها بل ولو نبحها كوكب الكلب المقدم لما بلغها صوته ولا سمعها والتقى صوت الآداب منه غاد ورايح وامتزج عليها بجوارحه فحبذا ما علم من

الجوارح وسمى على ظفر سعيه السريع المديد ونام على المجاراة قرناؤه منام أهل الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد.وعلمت أن مكاسب آدابه عظام وأكثر فوائده لباب اذا اختلفت فوائد أهل اليسار والنظام وأن جل ملابسه من حمده وكل عزائمه زائدة عن طوقه وجهده وكل رافع طوع طلبه وكل خير صحبه من عنده لو قارب كلاب بن ربيعة لسلم إليه زمام المكارم ولو حاور جريرا لما قال للاخطل هجوت كليبا اذا آل دارم ولو دعى الوحش بلفظه لعطف عليه ذوو النفار ولو سابق البرق لما لحق من بديهته الغبار ولو فاخر الدرر وحاكمها إلى البحور لأفامته وأقعد بها عن الفخار ولو ميز حال أضداده لكان الكلب خيرا منها عند ذوى البصائر والابصار تكاد الحمائم تقول أين ضعف سجعنا من قوة هذا النطق الضارى والتبر فى غبار معدنه ينادى أين جوار هذه الطرق من جوار غارى فأجزت له رواية هذه الابيات وحمايتها وحفظها ورعايتها اتباعا لاسارته واعجابا بما امتاز به على اشباهه من زى النطق واشارته وتمسكا بوفاء بيته الجلية انسابه المغشية أنديته حتى ما تهر كلابه عالما بأنه المفتش على خبايا الفضائل الحامى لمرعى القول حتى ما يذكر الحمى وكليب وائل المتسرع فى تصيد شوارد الآداب الناهض بنصرتها وقد قطع بها الدهر لديه أذناب الكلاب السابق حين يفتر سواه ويلبث المتحمل لاعبائها لا كالقرين الذى إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث وذلك عند سفره الحافز وبكوز عزمه الذى هو عن استيفاء القول حاجز وحركته فى أوقات الشتاء الجامدة ورحلته فى ليلة من جمادى لا ينبح الكلب فيها غير واحد والله تعالى يجمع له بين الغنيمة والاياب ويفيض على القلوب ثياب مودته الثابت فضلها على كثير ممن لبث الثياب.

ذكر أديسم بن إبراهيم صاحب ادريجان قال كنت مجتازا على قنطرة الرى فى عسكرى فلما صرت فى وسط القنطرة رأيت امرأة تمشى وقد حملت طفلا لها فى قماطة فصدمها بغل محمد فطرحت نفسها فزعا ووقع الطفل من يدها فى الماء فلما وصل إلى الماء غاض زمانا لبعد ما بين القنطرة والماء ثم طفا وسلم من الحجارة والماء يجرى به وأجراف النهر بعيدة عن الماء وفيها أوكار عقبان فحين طفا الطفل رأته عقاب هناك فانقضت عليه ومسكت بمخالبها فى قماطه وخرجت إلى الصحراء فأمرت جماعة أن يركضوا خلف العقاب نفعلوا وثبت أنا فاذا العقاب قد وصلت إلى الارض واشتغلت بخرق القماط فأدركه القوم وركضوا خلفها حتى شغلوها عن خرق القماط فطارت وتركت الطفل على الأرض فاذا هو سالم يبكى فرددناه إلى أمه.

من انشاء المجيد أبى على بن أبى النحناء العسقلانى رسالة طردية نقلتها من خط الوداعى من أصبحت نعمه سوارح واستعبدت منه القلوب والجوارح فأصبح لها المجد مقرا ولغرائب السودد والثناء مقرا مثل حضرة مولاى أطال الله بقاءه تطلبت له الانفس النار ونغصت له الملاذ و المسار ومما يظرف به العبد مولاه أسنى الله قدره وأعلاه أنه خرج يوما مع أناس قد وصلوا برهم بايناس كل منهم يهتز للاكرومة ويأوى إلى شرف الارومة على خيل مسومة مثقفة مقومة من بين جون أدهم أذكى من فارسه وأفهم أغر محجل وعدة معجل كان اسوداد اهابه اذا ضاهى به ليل رمت البلاد شهبه شبهة العين والارض نهبه اذا زاغ عن سنان أو تعطف لعنان ظننته صد عن مواصله وانفصل عن مفاصله واشقر كالطراف عبل الاطراف نهد كريم له سالفة ريم كأنما خرط من عقيق أو تردى برداء من شقيق يجرى كهوج ويعلو كموج وينزل كوابل ان قرعت عرفه سابق طرفه وان أوردته الطراد أوردك المراد وكميت كالطود ذى وطيف كذراع العود يلطم الأرض بزبر وينزل من السما بخبر وهملاج أشهب إن زجرته الهب أديمه روضة بهار ينظر من ليل فى نهار ينساب انسياب الايم ويمر مرور الغيم لا ينبه النائم لو عبر به ولا يحرك الهواء فى مسربه أخفى وطأ من طيف واوطى ظهرا من مهاد ضيف فلم يزل بنا المسير وكل فى طاعة صاحبه أسير إلى أن صادفنا واديا كان لعيوننا باديا فما قطعناه عرضا حتى أتينا أرضا كأنما فرش قرارها بزبرجد وصيغت أنوارها من لجين وعسجد قد رقرت فيها السحاب دمعها وأحسنت قيعانها جمعها نسيمها سقيم وظلها مقيم وماؤها جورى وتربها شجرى فهى تهدى للناشق أنفس المعشوق إلى العاشق كأن غدرانها فى اخضرار رياضها وجداولها فى اسوداد بياضها وبدور سماء كملت وبروق فى متون غمام تسلسلت طائرها مكسال وظباؤها ارسال ذات قرون معقفة كأذناب العقارب وبطون مبيضة كالنهار السارب مضمخة الاجساد بخليط صندل وجساد قد اكتست أطيارها فأغربت وتغنت بلغاتها فأطربت كأن الامانى فتحت لها أبوابا والرياض خلعت عليها أثوابا إذا شنجت للبكاء وأعلنت بالمكاء أبت الطباع على نغمات الموصلى فى نفثات البابلى ومجت الاسماع شدو الفريض بمرقق القريض فعند ذلك يممنا ظل شجرة هنالك ذات جدول منكمر فى مسلك متيسر وكأن أعلاه بطن جان وقرارته مساقط در ومرجان فلما وردنا عليها وانضغنا إليها حنت علينا أغصانها حنو الوالد وألحفتنا أوراقها بظل خالد وأتحفتنا من ثمارها بطارف وتالد فأصبنا من ثمرها قليلا ونقعنا بماء جدولها غليلا ثم

نهضنا نطلب الاوابد نستثير كوامنها واللوابد وقد يسرنا مقاود الكلاب وشركنا فى البحث والطلاب كل كلب منها غلوب ولارواح الطرائد سلوب ذو خطم مخطوف ومخلب كصدغ معطوف بقوائم كالذوابل ومتن كالغصن الذابل غائب الخصر حاضر النصر كأنما لملمت هامته من فهر وخرط ما دون عينيه بجهر له طاعة تهذيب واخلاس ذيب وتلفت مريب وحذاقة تدريب له من الطرف أوراكه ومن الطرف ادراكه ومن الاسد صوله وعراكه اذا طلب فهو متون واذا انطوى فهو نون واذا استرسل فهو خط على الارض مظنون فسنح لاحدها غزال والمقود عنه مزال فاسترسل عليها وهرب وجد فى طلبه فانسرب فأنبرا فى أسلوب ما بين سالب ومسلوب اذا مرق الاول كالسهم تبعه الثانى كالوهم فللظبى حد على جناح وحل وللكلب انبساط أمل فى سرعة أجل إلى أن جعجعه وبنفسه فجعه دامى الجروح بادى القروح مستسلما لسلب الروح فعاجلناه بالذكاة وأيقنا بحلول البركات ثم انتحى بعضنا بفهد ذى صدر رحب نهد كأن قرار ثمرته فى اختلاط بياضه بسمرته ثوب مصمت معتق مطلق قد فرشت فوقه أقراص عنبر صففتها يد صانع خبير فنبهه ففج فجيج ثعبان وأطلقه على ظبية تدب دبيب عقران فلما أدركه ناظر الصيـه ومرت مرور عيه فآت أبصارنا بنفرته وسبق أفكارنا بظفرته ولطمها عند الادراك من الكتف إلى فرجة الاوراك فشقها شق المزاد ضاقت أفواهها عن خروج المراد وضرعها يضطرب كأن قوائمها تجترب فبادرنا مهللين وذكيناها محللين ثم ملنا إلى الطيور وجوارحنا مطلقة السيور فقال رجل من أصحابنا أتبعنا عند أصحابنا ذلك الغدير فيه طير يستدير ينظر من خراة ابره ويحتال فى بروز خبره فاستدللنا عليه بالبراهين إلى أن ارتكض قوم من الشواهين أطلقه حامله واقترحت عن شباقته أنامله فمر فى الهواء يتصرف فى الاهواء يذكى جدا واعمالا ويطعن يمينا وشمالا كأنما أضل فريقا أو جهل طريقا حتى إذا دنى أفق السماء مسامتا للماء كأنه يمسح الفلك أو يطلب شيئا هلك طرق من خوفه فانحدر وهو يسابق القدر كأنه صخرة منجنيق أو حجر ارسل من رأس بيق له دوى كدوى الرعد نطق عن الغيث بوعد فانتحى احداهن وقد قرن مداهن فقنعها بيسراه وقد أضحت من يسراه وشيعها بيمناه وقد بلغ منها مناه فدحاها كأنها كره طوحت بها ضربة منكره فذكيناها تحليلا وأذقناه منها تعليلا ثم ملنا إلى قسى البنادق من كل ناطقة بالوعد الصادق يعطيك المراد لكرم اعراقها ويمنعك الفياد عن استغراقها ذات بطن كالحاجب المقرون وظهر قد أثرت فيه الجنادب القرون قد تعصفر أعلاها فرحا باستعلائه

وأحد لرداها أسفا على استيلائه ترن عند الرشق رنين مصابها ويشكى اليم أو صابها بل يسجع للنبض سجع الحمامة وينظر عند النقص نظر زرقاء اليمامة ألوان أوعيتها مختلفة وأكوان تسيرها مؤتلفة كأنها مجارى أنهار بين طرائق أزهار فسرنا صفوفا فوافينا الطيور رفرفًا فلما قطعت فى عراضنا وصارت منا كما عراضنا قلبت نحوها القسى أبصارا واتخذت من البندق رسلا وأنصارا فرشقناها مبسملين ولصرع أكثرها مؤملين فجرت تتهافت وأجنحتها تنقبض وتتكافت كأنما أسبقت إلى أقواتها واستنزلتها الفراخ بحسن أصواتها فبادرناها مكبرين ولنعم الله عليها مكثرين وواجرناها غصص المنايا بمدى معوجة كالحنايا وأصليناها نارا تلظى تشقى بحميمها وتحظى كأنها عبدة أوثان أو متخذة لها ثان فسبحان من أحل سفك دمائها وأحل للبشر سبك ذمابها والسلام.

السيد الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفق الدين ابن الأمدى فى الفهد:

اذا طلب الغزلان فهو منون وان دار فى طرس الفلاة فنون
وكيف يضل الوحش عنه وجلده بمسود ذاك النقط فيه عيون

وله فى الصقور:

وكأنما فوق الاكف فوارس فى الخافقين يجلن بين خوافق
أكثرن لبس السابغات أما ترى الصـ ـدأ الحديد لهن فوق عوائق

من الكلام الفاضلى أنى رغبت إلى مولانا لا زالت المرغبات إليه مرفوعة وثمراتها كثمرات الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة فى الاحسان بشاهين يجعل وكيل مطبخى لكثرة ما يجلب إليه من الخير واستنيبه عن صاحب صالح فهو قدار الطير لا يعتصم منه بغير فجها ولا تلوذ الحمامة بعوسجها قدر قمت يد القدرة على جؤجؤه ديباج أسطره وعرفت أقلامها نون منسره فكأنما عقد ليحسب ما صاد لمرسله ويوفيه حساب عمله وكأنه منجل أرسل على الطير بحصاد أجله تأتى بالرزق رغدا وتتخذ عند كل فم يدا ان عاش فأجنحته للطيور كالقيود وان نوى ورث السهام ريشه فهو ولى عهده فى الصيود وما أجدر الطير بأن تقول لا تجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدما ومن لا يقنع برزقه فى الأرض حتى يطالب به فى السما، طردية الشيخ جمال الدين بن نباتة التى سماها فرائد السلوك فى مصائد الملوك، وزهر يضحك فى الاكمام إن كانت الأرض لها ذخائر فهى لعمرى هذه الازاهر قد بسطتها راحة الغمائم بسط الدنانير على الدراهم احسن بوجه الزمن الوسيم تعرف فيه نضرة النعيم

وحبذا وادى حماة الرحب حيث زهى العيش به والعشب أرض السنا والبها والمرح والأمن واليمن ورايات الفرح ذات النواعير سقات الترب وأمهات عصفه والاب تعلمت نوح الحمام الهتف أيام كانت ذات فرع أهيف فكلها من الحنين قلب وكيف ولا والماء فيها صب لله ذاك السفح والوادى الفرد والماء معسول الرضاب مطرد يصبو بها الرائى فكيف السامع ويحمد العاصى فكيف الطائع اذا نظرت للربى والنهر فار وعن الربيع أو عن جعفر محاسن تلهى العيون والفكر ربيع روضات وشحرور صفر أمام كل منزل بستان وبين كل قرية ميدان أما رأيت الورق فى الاوراق جاذبة القلوب بالاطواق فبادر اللذة يا فلان واغنم متى أمكنك الزمان ولا تعل مشتى ولا مصيف فكل أوقات الهنا شريف كل زمان ينقضى بالجدل زمان عيش كيف ما دار اعتدل أحسن ما أذكر من أوقاته وخير ما انعت من لذاته مرورنا بالصيد فيه والقنص وحوزنا من مزه أحلى الفرص وأخذنا الوحش من المسارب وفعلنا فى الطير فوق الواجب لما دنا زمان رمى البندق سرنا على وجه السرور المشرق فى عصبة عادلة فى الحكم وغلمة مثل بدور التم من كل مبعوث إلى الاطيار تظلمه غمامة الغبار وكل معسول الرضاب أغيد منعطف عطف القضيب الاملد قد حمد القوم به عقبى السفر عند اقتران القوس منه بالقمر لولا حذار القوس من يديه لغنت الورق على كفيه فى كفه محينة الاوصال قاطعة الاعمار كالهلال زهراء خضراء الأهاب معجبة مما نوت بين الرياض المعشبة فاغرة الافواه للاطيار طالبة لهن بالاوتار كأنها حول المياه نون أو حاجب بما تشاء مقرون لها بنات بالمنى مغدوقة من طينة واحدة مخلوقه سامعة لما تشير الام مع أنها مثل الحجار صم كأنها والطير منها هارب خلف الشياطين شهاب ثاقب وأهالها شهب كرات تخطف شاهدة بالعزم وهى تقذف حتى نزلنا بمكان مؤنق اخوان صدق أحدقوا بالملق فيا له فى الحسن من محل مراد جد ومراد هزل للطير فى أملاقه مواقع كأنها لمائه فواقع فلم تزل فى منزل كريم تروى حديث الرمى عن قديم حتى طوى الافق رداء الورس والتقم المغرب قرص الشمس وابتدر القوم عن المراصد من ساهر ليل التمام شاهد كالليث يسطو كفه بأرقم والبدر يرمى فى الدجى بألحم بينا الطيور فى مداها سائرة اذا هم من عينه بالساهرة وأقبلت مواكب الطيور على طروس الجو كالسطور فحبذا السطور فى المهارق مسقوطة الاحرف بالبنادق من كل حق ان يسمى ضياؤه للشرق بدر التم تخاله من تحت عنق قد سجا طرة صبح تحت أذيال الدجى وكل تم حسن الوسامة تخاله فى أفقه

غمـامه كى يتبـعه اوزه دكنا من دونهـا لفلغة غـرا يقدمهـا انيسة ملونة تـابعة من كل وصف أحسنه وربما مر عليها حبـرج كأنه على نضار يدرج وانقض من بعض الجبال نسر له بأبراج النجوم وكر مضـبر الخلق شديد الايد يبنى على الكسر حروف الصيد بحث مـــراه عقاب كاسبه خافضه لحظ الطيور ناصبة إذا مضت جملتها المعترضة تواصلت خيوطها المفترضة بكل كركى عـجيب السـيـر كأنه طيف خيال الطير يحسن غـرنوقا لهى المجـتلا مقـدما على الغرانيق العـلا وأبيض الغيم يسـمى مرزما كـم بات مثل نوئه مـنـجـما يحـفه شبـيطر قوى معجـزه فى الطيرة وسوى كم حاش ثعـبانا وحم حواه كأنه فى يده عـصاة هذا وكم من طائر ممتاز ينعت فى الواجب بالعناز اسود الا لمعة فى الصدر كأنه نور الهدى فى الكفر فلم تزل قسينا الضوارى تصيـبها بأعين الاوتار حتى غدت دامية النحور ساقطة منا على الـخبير كأنما وهى لدينا وقع لدى محاريب القسى ركع وأصبحت أطيارنا قد حصلت ولم تـسأل بأى ذنب قتلت مستبعا وجه العشى وجه السحـر وكل وجه منهما وجه أغر يا لك من صيد مقر العين مرضى الصحـاب وهو ذو وجهين لم يرض ما وفى من الامـان حتى شفعناه بوجـه ثان صيد الملوك الصيد بالكواسـر والخيل فى وجه الصباح السافر ذاك الذى تصـبو له الجوارح فهى إلى طلابه طوامح واثقـة بالرزق حيث كـان تغـدو خمـاصا وتجىء بطانا سـرنا على اسم الله والمباحج نعوم فى الاقطار بـالسـوابح خيل تحاذى الصيـد حيث مـالا كأنها أضحت له ظلالا تسعى بها قوائم لا تتبع وكيف لا وهى الرياح الأربع تحففنا من فوقها غلمان كأنهم من فوقها أغصان ترك تريك فى سماء الملبـس كواكبا طالعة فى الاطلس منظومة الاوساط بالـسلاح من كل شـهم زجل الجناح وكل عـضب درب المـقـاطع يحـرف الهـام عن المـواضع على يد السـائر منهم زاده من كل باز قـرم فؤاده قـد كتبت فى صـدره حروف تقـرى بما تقـرى به الضيـوف وكل شاهين شـهى المرتمى كبـارق طار وصوب قـد همى بينا تراه ذاهبا بصـيده معتصما بأيده وكيده حتى نراه عـائدا من أفقه ملتزما طائره فى عنقه أفلح من كان على يسراه حتى غدت حاسدة يمناه وكل صقر مسبل الجناح مواصل الغدو والرواح ذو مقلة لها ضرام واقد تكاد تشوى ما يصيـد الصائد كأنما المخلب منه منجل لحصيـد أعمار الطيور مرسل يا حبـذا طيور جد ولعب تهوى إلى الأرض وللافق تثـب من سنقر عالى المدا والشـان معظم الاخبار والعيان يصعد خلف الرزق ليس يمهله كأنه من السـماء يستعجله ومن عقاب بأسها مروع كـأنهـا للطير حـين تصرع كم جليت لطـائر ومن وهن فكم وكم قد أهلكت مـن قرن

وحبذا كواسر اللواهى عديمة الانظار والاشباه مخصوصة بالطرد القويم حدباء ظهر الذنب الرقيم ذاك لعمرى جذب للرائى تعدل ملك القلعة الحدباء هذا وقد تجهزت اعداد يجمعها الكلاب والفهاد من كل فهد عنترى الحمله اذراى شخص مهاة عيله مبارك الاقبال والاعراض مستقبل الحال بناب ماض كأنه من حدة اكتسابه قد أخرق الانجم فى اهابه له على مسائل الجفون خط كخط الالفات الجون ما أبصر الباصر خطا مثله وكيف لا والخط لابن مقلة وكل منسوب إلى سلوق أهرت وثاب الخطا ممشوق طاوى الفؤاد ناشر الاظافر يا عجبا منه لطاو ناشر يعض بالبيض ويخطو بالقنا ويسبق لوهم لادراك المنى كالقوس إلا أنه كالسهم والغيم يجلو عن شهاب رجم اذا رأى بقر الوحش اندفع كأنه المريخ فى الثور طلع قاصرة عن يده عيناه مشروطة برجله اذناه يشفعه من كل عور عارى مخالب الصيد على الاوكار وأهالها من أكلب طوارد معربة عن مضمر المصائد قد بالغت من طمع فى كسبها ففتشت عن أنفس لم تحبها حتى اذا تمت بها الامور حفت بنا لصيدها الطيور ما بين روضات صمدنا نحوها وحول آفاق ملكنا جوها واستقبلت أطيارها البزاة معلمة كأنها غزاة فلم تزل تسطو سطا الحجاج على الكراكى إلى الدراج حتى غدت تلك السراة صرعى مجموعة على التراب جمعا على الربى من دمها خلوق كأن كل نبتها شقيق ثم عطفنا للوحوش السانحة فاستقبلت تلك الضوارى الطامحة كلاب صيد بينها سناقر يفعل فى الوحش الفواقر يخشى بها العفر على نفوسها فالطير لا شك على رءوسها وللكلاب حولها مغار يكاد أن يقدح منها النار من نهم لسانه يلوب يقول هذا كوسج مخضوب يعانق الظبى عناق الوامق ما كان أغنى الطير عن معانق والفهد يشتد على الآجال شد وصى السوء فى الآمال لا يهمل القصد ولا يخون كأن كل جسمه عيون وللزغاريات خلف الارنب حقائق تبطل كيد الثعلب كم مرحت بالهارب الممدود وطوحت بصاحب الاخدود وربما مرت ظباء ومهى للنبل أكل فى حشاها مشتهى قد نسجت ملاءة من عنبر تخاط من فروتها بالابر فابتدرت أجنحة السهام صائبة الاعراض والمرامى تجرح كل سانح نفور كأنه بعض شهود الزور كأن أقطار الفلاة مجربره أو روضة من الدماء مزهرة كأن صرعى وحشها كفار الموت عقبى أمرها والنار للمرء فيها منظر أحبه يملأ من شحم ولحم قلبه لله ذاك المنظر المهنا أى معاد عن ذراه عدنا قد ملئت من ظفر أيدينا وقد شكرنا فضل ما حبينا نسير حول الملك المنصور كالشهب حول القمر المنير.

من كلام القاضى زين الدين بن الوردى رحمه الله وينهى وصول الصقرين فسر العبد بهذين الجزئين اللذين تحن الجوارح اليهما من وجهين ويعز على ابن المعتز ان يذكر لهما فى تشبيهاته شبهين فوقع الصقران من المملوك بموقع يفوق النسر وتأمل نحوهما فإذا هما منصوبان لبناء ما ارتفع وانخفض من الصيد على الكسر مثلهما حمر كبوفه وأجنحتهما مسبلة كغمائم بره على رعاياه وضيوفه مخالبه كالمناجل لحصاد أعمار أعدائه وأعمار الطير ومناقيرهما كالاهلة المبشرة له ولأوليائه بكل خير فلسان حال كل منهما يقول لمرسليه تفرقوا فيكسبى أجمعكم أجمعكم ويخطف لهم الخطفة ويعود بسرعة فبينما ينظرون بغيته قالوا طائركم معكم فما أحسن ما يعود يرجع كل واحد منهما من أفقه وقد التزم طائره فى عنقه كم للاقى الطير من حرون وكم أهلكنا فى الوحش من قرون فما أحق هذا الخبر بمقابلة الثناء عليه وان تمد المملوك لها بين اليدين كلتا يديه ومن كرامات مولانا أنه أصبح جابرا بكاسرين فمرحبا برسوله الذى إن قدم رسول بأيمن طائر فقد قدم هو بأيمن طائرين والسلام.

منقول من كتاب الفوائد الجليلة فى الفوائد الناصرية وهو ما جمعه الملك الامجد من شعر والده الملك الناصر صلاح الدين داود بن مولانا السلطان الملك المعظم شرف الدين أبى المظفر عيسى بن السلطان الملك العادل أبى بكر محمد بن الملك الافضل نجم الدين أيوب رحمهم الله تعالى:

وظباء كأمثال العذارى سنح ... تأوى إلى حزن اللوى وسهوبه
فأجابها وهنا وهن روانع ... ما بين واديه وبين كثيبه
والروض كهل قد تضوح نبته ... فشبابه متلفع بمشيبه
يبكى تداويه الغمائم رحمة ... والبرق يضحك رحمة بقشيبه
متسبق صحب الجلاجل أجدل ... يرتاح رائيه إلى تقليبه
تغنى شمائله وحسن صفاته ... عن نعت مطربه وعن تجريبه
ومخصر الخصر اغتدى فى عدوه ... ترفا مختلف ضيائه بوثوبه
عاناه فى تهذيبه ذو فطنة ... وبصارة فأجاد فى تهذيبه
فقنصت منها ظبية كانت إلى ... قلبى ألذ من المدام وطيبه
أو قبلة ممن ابرنى صده ... خالستها منه برغم رقيبه

الباب الرابع والأربعون
فى حظائر الوحوش الجليلة المقدار
المتخذة لنزهة الابصار

القول على بقر الوحوش: قال ابن أبى الاشعب فى كتابه الذى وضعه فى طبائع الحيوان البقر والاراوى واليحامير والظباء وجميع هذه الانواع ليس بأرضى خالص وينبغى أن يسمى الحيوان الهوائى الارضى لأنه خفيف الحركة متململ شديد العدو على الارض لان حرارة الهواء ليست فيه ذاتية ولا برودة الارض كذلك إلا ان برودتها غالبة لحر الهواء لأنها فيه اكثر ولما كان كذلك صار بينه وبين الطائر ممازجة ومناسبة وذلك أنه إذا أراد العدو انتصب فى وقفته وطلب مهب الريح ثم استنشقها استنشاقا حال طيرانه ثم زج نفسه مستقبلا للريح وربما أصابه مخيف وكانت الريح تجىء من جهته فيحمل نفسه على الجهة التى فيها المخيف وأيضًا فإنه يؤثر الهواء صيفا وشتاء ولا يستر منه ميلا إليه ومحبة فيه.

وأما المها فيقال إن من طباعها الشبق والشهوة واذا حملت الانثى هربت من الذكر خوفا من عينه بها وهى حامل والذكر لفرط شهوته يركب ذكرا آخر وإذا ركب واحدا منهما شم الباقى روايح المانية فينى عليه ولا يمنع من يثب عليه بعد والبقر الوحشية أشبه شىء بالمعز الاهلية ولذلك تسمى نعاجا وقرونها صلاب جدا وتمنع بها عن أنفسها وأولادها كلاب الصيد والسباع التى تطيح بها، ويقال أن أول من طرد البقر الوحشية ربيعة بن نزار بن معد وأنه لما كدها لجأت منه إلى حالة فاسترت منه بها فرق لها ورجع عنها.

الوصف كاتب أندلسى يصف بقرة وحشية:

عن لنا سرب نعاج يمشين زهوا كمشى العذارى ويثنين زهوا تثنى السكارى كانما تخلجت بالكافور جلودها وضمخت بالمسك قوائمها وخدودها وكأنما لبسن الدمقس سربالا واتخذن السندس سروالا:

من كل مهضمة الحشا وحشية	تحمى مداريها دماء جلودها
وكأنما أقلام خيبر كتبت	بمداد عينيها طروس خدودها

والوصف البديع فى سرعة عدوه قول الطرماح:

يبدو وتضمره البلاد كأنه سيف على شرف يسل ويغمد

وأما الايل فان أصحاب البحث عن طبائع الحيوان يقولون أن ذكره من عصب لا لحم ولا غطروف ولا عظم وأن قرنه مصمت لا تجويف فيه والانثى تقلق للذكر قلقا شديدا ولهذا لا تثبت لنزوه الا فى الفرط مرة واحدة وإذا حملت لا تضع الا على السبل والطرق لهرب السباع من الجادة الملوكة وإذا أرضعت أكلت الجعدة لاصلاح لبنها وهى تحب الكينونة فى القمر وتأتى بولدها إلى أماكن الماء وتعرفه المواضع التى تهرب اليها إذا احتاجت إلى الهرب وهى صخور فيها صدوع وتجويفات ليس لها مدخل الا من مكان واحد وتقف على ذلك المكان وتقابل بجهدها كل حيوان يطلب ضرر ولدها والايل يسمن جدا فإذا سمن اختفى فى موضع لا يعرف خوفا من أن يصاد لسمنه وهو مولع بالحيات وأكلها يطلبها فى كل موضع فإذا انحجرت منه أخذ فى فمه ماء ثم مجها فى الجحر فتخرج له ذنبها فيأكلها حتى ينتهى إلى رأسها فيتركها خوفا من السم وربما لسعته فتسيل دموعه إلى نقرتين تحت محاجر عينيه يدخل الاصبع فيهما فتجمد تلك الدموع وتصير كالشمع يتخذ درياقا لسم الحيات وهو البازنهر الحيوانى واذا لسعه أكل السرطانات فيبرأ وكذلك يأكل التفاح الحامض إن كان زمانه أو ورقه ان لم يكن زمانه فيبرأ ولا ينبت له قرن الا بعد أن يمضى عليه ستان من عمره وإذا نبت قرناه نبتا مستقيمين كالوتدين وفى الثالثة يتشعب ولا تزال الشعب فى زيادة إلى تمام ستة وستين وحينئذ يكونان كالشجرتين على رأسه، ثم بعد ذلك يلقى قرونه فى كل سنة مرة ثم تنبت واذا نبتا له تعرض للشمس لتصلب فإذا صارا كالشجرتين منعا الاحصار ولا يكاد يفلت إذا طردته الخيل وهو إذا ألقاهما ادخرهما حتى ينبت خلافهما لانهما آلته وليس له سلاح غيرهما يدافع بهما عن نفسه كالترس للجبان لأنه لا ينطح بهما إلا إذا صلحا لذلك.

وزعم ارسطو أن هذا النوع يصاد بالصفير والغناء وهو لا ينام ما دام يسمع ذلك والصيادون يشغلونه بالتطريب ويأتون إليه من خلفه واذا رأوه مسترخية أذناه وثبوا عليه وان لم يكن كذلك فليس لهم عليه سبيل، واذا اشتد عليه العطش من أكل الحيات أتى غدير الماء فاشتمه وانصرف عنه يفعل ذلك أربعة أيام ثم يشرب الماء فى اليوم الخامس وإنما يمتنع من شربه لخوفه على نفسه من سريان السم فى الجسد مع الماء.

قال الشاعر يصفه بصده عن الماء بحاجز إليه ويذكر محبوبته:

هجـــرتك لا قلى منى ولكن رأيت بقـــاء ودك فى الصـــدود
كهجر الظاميات الماء لما تيـــقنت المنايا فى الورود
تذوب نفـــسها ظمـأ وتخشى هلاكـا فهى تنظر من بعيـد

انتهى من المناهج.

القول فى الحمار الوحشى: ويسمى العير والفراء وهو لا ينزو الا اذا بلغ ثلاثين شهرا ويوصف بشدة الغيرة فهو يحمى غابته الدهر كله ويضرب فيها كضربه لو أصاب اناثا من غيرها ويقال ان الانثى إذا ولدت جحشا كره الذكر الاناث تصيبها فالاناث تعمل الحيلة فى الهرب منه حتى تسلم وهكذا حتى لا يكون فى الغابة غيره ذكر.

وحكى الجاحظ أن أبا الاخضر ذكر عن فحل الغابة أنه يستهيم الأنثى ويحملها وان الولد لم يجئ منه عن طلب ولكن النطفة البريئة من الاسقام انتجت وذكر أن نزوه على قدر ما يحضره من الشبق لأنه لا يلتفت إلى دبر من قبل ولا إلى ما يلقح مما ينتج فهو لا يريد الولد ولا يعزل ويقال إن الحمار الوحشى يعمر مائتى سنة وأكثر وكلما بلغ مائتى سنة كانت له مبولة ثانية وشوهد منها ما له ثلاث مباول وأربع وهو كشكل الحصير المحشو بين المبولة والمبولة حتى كأن بينهما حاجزا مسدودا ومعادنه بلاد النوبة ويوجد منه ما تكون سنه مغمدة ببياض وسواد يستطيلان فيما استطال لمن عصى به ويستديران فيما استدار بأصح قسمة وأحسن ترتيب ومن الحمر الوحشية صنف يقال له الاخدرى وهو أطول الحمير عمرا ويقال إنه نتاج الاخدرى وهو فرس كان لازدشير بن بابك أفلت من خيله فصار وحشيا فحمى عدة غابات فضرب فيها فكان أولاده منها أعظم من سائر الحمير وأحسن وخرجت أعمارها من أعمار الخيل وفى هذه الحكاية نظر لذوى الفكر لأنه لا يتولد من نوعين مختلفين من الحيوان حيوان يشبه أحدهما وإنما يكون ممتزجا كالبغل بين الحمار والفرس والضبع والذئب.

وحكى القولين أبو الحسن على بن رشيق فى كتاب العمدة.

ومن رسالة كتبها أبو الفرج الببغا يصف فيها أتانا مغمدة ببياض وسواد كان لصاحب اليمن كيخار وأما الاتان الناطقة فى كمال الصنعة بأفصح لسان فإن الزمان لاطف مولانا أيده الله منهما بأنفس مدخور وأحسن منظور وأعجب مرأى وأغرب موسى وأفخر مركوب

وأشرف محبوب وأعز موجود وأبهى محدود وكأنما وسمها الكمال بنهايته أو لحظها الفلك بعنايته فصاغها من ليله ونهاره وحلاها بنجومه واضماره ونقشها ببدائع آثاره ورمقها بنواظر سعوده وجعلها أجل حدوده ذات اهاب منير وقرى محير وذنب مشجر وسوى مسور ووجه مزجج ورأس متوج يكتنفه اذنان كأنهما زجان سجية الانصاف بلورية الاطراف جامعة شبها بالربيب بين زمن الشبيبة والمشيب فهى قيد الابصار وأمد الافكار ونهاية الاعتبار غنى عن الحلى عطفها مزرية بالزهر حللها واحدة جنسها وعالم نقشها صنعة المنشئ الحكيم وتقدير العزيز العليم.

القول فى طباع الظباء من المباهج وهى ألوان تختلف بحسب مواضعها فصنف منها يسمى الاروام وألوانها بيض ومساكنها الرمل وهى أشد حصرا، وصنف يسمى العفر وألوانها حمر، وصنف يسمى الادم وهى تسكن الجبال وفى هذا اللون من أسرار الطبيعة أنه ما رأى ذا روح الا ويعلم ما يريده منه من خير وشر واذا فقد الماء استنشق النسيم فاعتاض به واذا طلب لم يجهد نفسه فى حصره من أول وهلة واذا رأى طالبه وقد قرب منه زاد فى الحصر حتى يفوت الطالب وهو يهشم الحنظل حتى يرى ماؤه يسيل من شدقيه ويرد البحر فيشرب من الماء الاجاج كما تغمس الشاة لحييها فى الماء العذب تطلب النوى المنقع فيه وهو لا يدخل كناسه الا مستدبرا يستقبل بعينيه ما يخافه على نفسه وله نومتان فى مكنين مكنس الضحى ومكنس العشاء واذا أسن الظبى وبقيت لقرونه شعب تنح واذا هزل ابيض وهو شنج النساء لا يسمو بالمشى فإذا أراده العدو فإنما هو الفر والوثب ورفع القوائم معا كما يفعل الغراب فهو أبدا يحجل كما يحجل المقيد وليس له حصر فى الجبال ويصاد بنار توقد له فيذهل لها سيما إذا أضيف إلى ذلك تحريك اجراس فإنه ينخذل ويرقد ويصاد بالعطش الشديد بأن يحولوا بينه وبين الماء فينخذل ولا يبقى به حراك البتة وبين الظباء والحجل الفة ومحبة والحذاق فى الصيد يصيدونها ببعضها البعض، ويوصف بحدة البصر ويسمى باليونانية اسما معناه النظارة والمبصرة ويلحق بهذا النوع غزال المسك وهو أسود ولونه أسود ويشبه ما تقدم فى القد ودقة القوائم وافتراق الاظلاف وانتصاب القرون وانعطافها غير أن لكل واحد منهما نابين خفيفين أبيضين خارجين من فيه فى فكه الاسفل قائمين فى وجهه كنابى الخنزير كل واحد منهما دون الفتر على هيئة ناب الفيل ويكون بالتبنت والهند ويقال إن الغزال يسافر من التبنت إلى الهند بعد أن يرعى من حشيش التبنت

وهو غير طيب فيلقى ذلك المسك بالهند فيكون رديئا ثم يرعى حشيش الهند الطيب ويعقد منه مسكا ويأتى بلاد التبنت فيلقيه فيكون جيدا والمسك فضل دموى يجتمع من جسدها إلى سررها فى وقت من السنة معروف بمنزلة المواد التى تنصب إلى الاعضاء وهذه السرر جعلها الله معدنا للمسك فهى تثمره بمنزلة الشجرة التى تؤتى أكلها كل حين فإذا حصل هذا الدم فى السرر ورمت وعظمت فتمرض لها الظباء وتألم حتى تتكامل فإذا بلغ وتناهى حكته بأظلافها وتمرغت فى التراب فتسقطه فى تلك المفاوز والبرارى فيخرج الجلابون ويأخذونه ويقال أن أهل التبنت يضربون لها أوتادا فى البر تحتك بها إذا ألمها السرر فتنقطع وتسقط فإذا سقطت عن الظبى كان فى ذلك افاقته وصحته فانتشر حينئذ فى المرعى وورد الماء.

الوصف: قد ينبغى أن يعلم أن هذا قليل جدا لان الشعراء نقلوا محاسن الغزال إلى الغزال وشرحوا بها حال من جد به الحب وهزل والصفة التى يصفون بها الظبى وصفوا بها الجارية والغلام وصرفوا الحقيقة إلى المجاز فيما أراده من الكلام قال بعضهم:

فما مغزل تعطو بجيد كأنه ... يمان بأيدى الناظرين صقيل
هضيم الحشا مغضوضة الطرف عالها ... بذات الاراك مربع ومقيل
إذا نظرت من نحوه أو تفرست ... دعاها احم المقلتين كحيل
بأحسن منها حين قالت صرمتنا ... وأنت صروم للخيال وصول

وقال آخر:

وصالية بالحسن والجيد عاطل ... ومكحولة العينين لم يكتحل قط
على رأسها من قرينها الجعد وفرة ... وفى خدها من صدغها شاهد بسط
يخللها من غيرة الجلد وفرة ... ويجمعها من بيض آباطها مرط
وقد أدمجت بالشحم حتى كأنما ... ملأتها من فرط ما اندمجت قمط

خواص الايل ومنافعه: من المصائد والمطارد فمنه ان ذكره من عصب لا لحم فيه وأن دم كل حيوان يجمد الا دمه ولحمه غليظ مائل إلى كموسوة السواد وليس للانثى قرن واذا بخر بقرنه مع كبريت أحمر ذهبت الحيات وكذلك دمه بطحين الكرسنة وقرنه تبخر به الحامل فتيسر ولادتها.

خواص حمار الوحش: الجحش البرى أحمدها لحما ولحم الهرم يولد دما رديئا ومن

داوم على أكله لم يكد يبرأ وسرته أطيب ما فيه وكثير من الناس يأكلون الحمار مسموطا ويستطيبون جلده مشويا ويجدون فيه طعم لحم الدراج وشحمه نافع من الكلف فى الوجه اذا طلى به ومن وجع الظهر والكلى العارض من البلغم واذا أحرق حافره وسحق فى الكحل نفع من الغشاوة ودفع وجع العين وزبله اذا خلط بمخ وطلى به الجبين قطع الرعاف ويقال إن الخاتم إذا خرط من حافره وعلق على من يعتريه الصرع نفع منه ودماغه يضاف بماء الكرفس والعسل ويغلى ويسقى من به السل فى الحمام بماء حار على الريق فيبرأ.

خواص بقر الوحش: لحمها غليظ يولد دمًا رديئًا قريبا من السواد وبطنها أطيب ما فيها ودمها أسرع إلى الجمود من دم سائر الحيوان ويطبخ لحمها بخل فإذا غلى جدد خل آخر واناثها المها والعين والنعاج وأولادها البراعز والواحد برعز والجآذر جمع جؤذر والذرعان جمع ذرع والبحازج جمع بحزج والفرافر جمع فرفر والفرائر جمع فرير وهو ساعة يولد طلاء وأقاطيعها الاجل والرنب والسرب والصوار.

خواص الظبى: والظبى أول ما يولد طلاء ثم خشف ثم شادن اذا طلع قرنه فإذا تمت قوته فهو شصر ثم جذع ثم ثنى ولا يزال كذلك إلى أن يموت لا يزيد على هذا وسأل جعفر ابن محمد النعمان بن ثابت أبا حنيفة فقال له: ما على محرم كسر رباعية ظبى فقال: يا ابن رسول الله ما أعلم ما فيه فقال له: أنت تتداهى ولا تعلم أن الظبى لا يكون له رباعية هو ثنى أبدا ولحمه يولد دما قريبا إلى السواد وهو أقل ضرراً من لحم البقر وطبخه بالماء والملح أحمد والقديد منه أكثر ضرراً وأكثر لتحريك السوداء لأنه يزداد يبسا ويجود فعله ويقوى وأطيب ما يؤكل فيه كبده مشوية وشحوم الظباء تغذو غذاء كثيراً وزعمت الحكماء أن دم التيس منها عن شكل ماعز من السموم وأنه إذا صب حارا على الحجر الذى يضرب عليه النحاس فتته واذا خلط مع الزنجفر صبغ الياقوت ويخلط معه وهو يابس قرطاس محرق ويعجن بشيرج ويضمد به البواسير فتنفع ومرارته تنفع من الغشاء فى العين وكبده إذا شويت واكتحل بها وكبد جميع الماعز نفعت واذا دهن الرجل مذاكيره بشحم خصى التيس مع شىء من عسل عند الجماع وجد له لذة ويعجن بعر التيس بخل ودقيق شعير ويضمد به الطحال فينفع واذا حرق وسحق بالخل نفع داء الثعلب وإن شرب مع الخل نفع من لدغ الهوام ويخلط دمه يابسا بلاذن ويدهن به الشعر فيغلظه ويطوله.

القول على طبائع الارنب من المباهج: تقول أصحاب الكلام أن قضيب الذكر من هذا

النوع كذكر الثعلب أحد شطريه عظم والآخر عصب وربما ركبت الانثى الذكر حين السفاد لما فيها من الشبق وتسفد وهى حبلى وهى قليلة الدرور على ولدها ويزعمون أنه يكون شهرين ذكرا وشهرين أنثى وكنت استبعد هذا وأقول أنه من الخرافات حتى وقفت عند مطالعتى للكتاب الذى وضعه ابن الاثير فى التاريخ وسماه الكامل على حكاية أوقفتنى على الاعتراف بعد الانكار.

ذكر فى حوادث سنة ثلاث وعشرين وستمائة فقال وفيها اصطاد صديق لنا أرنبا فرآه وله انثيان وذكر وفرج أنثى ولما شقوا بطنه رأوا فيه حريفين فان كان كما زعموا من أن يكون تارة ذكرا وتارة أنثى فيكون كذلك والا فيكون فى الارانب كالخنثى فى بنى آدم يكون لاحدهما فرج الرجل وفرج الانثى ثم أعقب هذه بما هو أعجب منه فقال كنت بالجزيرة ولنا جار له بنت اسمها صفية فبقيت لذلك نحو خمس عشرة سنة فإذا قد طلع لها ذكر رجل ونبتت لها لحية فكان لها فرج امرأة وذكر رجل والارانب تنام مفتوحة العين وربما جاء القناص إليها حتى يأخذها من جهة وجهها وهى لا تبصر وسبب ذلك أن حاجبى عينيها لا يلتقيان فهما مفتوحتان فى النوم واليقظة.

قلت: ما أحسن ما أنشدنى الشيخ بدر الدين البشتكى أحد شعراء العصر بالديار المصرية للشيخ العلامة شهاب الدين بن أبى حجلة مضمنا قول المتنبى:

وقوم بالحشيشة ذاب منهم فؤاد ما يسليه المدام
أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام

قلت هذا التضمين ما سمع مثله لشاعر فإنه ضمن عجز البيت الأول والبيت الثانى بكماله ولم يكن للشيخ شهاب الدين فيها غير صدر البيت الأول فتأمله، ويقال إن الأرانب اذا رأت البحر ماتت ولذلك لا توجد بالساحل وتزعم العرب أن الجن تهرب منها لموضع حيضها، قالوا وهى كالمرأة وتأكل اللحم وغيره وتجتر وتبعر وفى باطن أشداقها شعر وكذلك تحت رجليها وليس شىء قصير اليدين أسرع منها حصرا ولقصرهما يخف عليها الصعود والرقل وهى تطأ فى الأرض على زمعانها وهى مؤخر قوائمها مغالظة للطالب حتى لا يعرف اثرها الا أن الكلب الفاره والقانص الحاذق لا يخفى عليهما ذلك لأنها لا تفعل ذلك إلا فى السهل الذى يثبت فيه الاثر وربما مشت فى الثلج فيقتفى أثرها بكثرة الترداد فيه واذا قربت إلى الموضع الذى تريد أن تجثم فيه وثبت إليه.

خواصه من المصائد لحمها أطيب ما يؤكل بنار لأن النار يضعفها هواء الزمان ولحمها من أخف اللحوم وله خاصية فى الماليخولياء والصرع وإن طلى بدمها الكلف أذهبه وان طبخ أو شوى فى جوف قرن نفع من القرحة فى الامعاء ويحرق رأسها فيكون سنونا جيد للجلاء ووبرها يشد به الشريان إذا انقطع وتعلق الاعراب كعبها على الصبيان للعين وأنفحتها تدفع السم إذا شربت بماء السلق وسداب واذا أخذتها المرأة حملت ومخها ودماغها يمنع الشعر المتوف من النبات وبعرها يدق بالخل للقوباء ومرارتها تطرح فى الشراب فتنوم.

الوصف لبعض الاندلسيين من المباهج افراد حران كأنهن أولاد غزلان بين رواع ينعطف انعطاف البره ووثاب يجتمع اجتماع الكره حال العصب ازاره وصاغ التبر طوقه وسواره قد غلل بالعنبر بطنه وحلل بالكافور متنه كأنما نضح بعبير وتلفع فى حرير ينام بعينى ساهر ويفوت بجناحى طائر قصير اليدين طويل الساقين هامان فى الصعود تجده وبابك عند الوثوب تؤيده.

القول فى النعامة: من المباهج وإنما ذكرناه مع ذوات الاربع من الوحوش وإن كان ذا جناح لأنه عند المتكلمين فى طباع الحيوان ليس بطائر وإن كان يقنص وله جناح وريش ويعدون الخفاش طائرا وإن كان يحبل ويلد وله اذنان بارزان وليس له ريش لوجود الطيران فيه ومراعاة لقوله تعالى: ﴿واذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى﴾[1] وهم يسمون الدجاجة طيرا وان كانت لا تطير والنعامة تسمى بالفارسية استرموك وتأويل استرجمل وموك طائر فكأنهم قالوا جمل طائر ولما وجد هذا الاسم ظن الناس أنها نتاج ما بين الابل والطير وبهذا أجرى عليها المثل فى قولهم: قيل للظليم أحمل قال أنا طائر قيل فطر فقال أنا جمل، وربما أكد عندهم القول بالتوليد أنهم رأوا فيه من الجمل الميم والوظيف والعنق والكرش والخف والجرامة، ومن الطير الريش والجناح والمنقار والبيضة و يشبه النعام بالابل فتسمى الانثى منها قلوصا وفى طبعها انها تحضن أربعين بيضة وثلاثين ومن أعاجيبها أنها تضع بيضها طولا حتى لومد عليها خيط لما وجد لشىء منها خروج عن الاخر ثم تعطى كل بيضة منها نصيبها من الحضن اذا كان بدنها لا يشتمل على عدد بيضها وهى تخرج لطلب الطعام فتمر ببيض نعامة أخرى فتحضنه وتنسى بيضها ولعلها تصاد ولا ترجع إليه فتهلك ولهذا توصف بالمرق والحمق ويضرب بها المثل فى ذلك، وعلى هذا ينشد قول ابن هرمة:

(١) الآية: ١١٠ من سورة المائدة.

فـــانى وتركى نـدى الا كــرمـــيـ ـــن وقـدحًا بكـفى زند اشـجاحـا
كـتـــاركــــة بيـضــهـــا بـالعـــرا ء وتلحــقـه بيض أخرى جناحــا

ويقال إنها تقسم بيضـها اثلاثا منه ما تحضنه ومنه ما تجعل صغاره غـذاء ومنه ما تفتحه وتتركـه للهواء حتى يعـفن ويتولد من عفنه دواب فـتغذى بهـا فراخهـا إذا خرجت وهو من الحيوان الذى يزاوج ويعاقب الذكر فى الحضن وهـو لا يأنس بالابل ولا بالطير مع مشاركته لهما وكل ذى رجلين اذا انكـسرت له احداهما استعان بالأخرى ما خلا النعامة فانها تبقى فى مكانها جاثمة حتى تهلك جوعا، ويقال إن الـحيوان الوحشى ما لم يعرف الانسان لا ينفر منه اذا رآه ما خلا النعام فإنه شارد أبدا وبه يضرب المـثل فى الشـرود وعظامه وإن كانت عظيمة وشديد العـدو بها لا مخ فـيها ولا مجرى لهـا وتزعم العرب ان الظليم أصلح وأنه لمـا كان كذلك عوض عن الـسمع بالشم فإنه يعرف بأنفه ما لا يحـتاج معه إلى الـسمع فربما كان على بعد فشم رائحة القناص على اكثر من غلوه والعـرب تضرب به المثل فى حاسة الشم وفـسر بعض الـمـعتنين بتفـسـيـر أمثال العـرب، قوله أحـمق من نعامـه، أن من حمقـها اذا أدركـها القناص أدخلت رأسـها فى الرمل تقدر أنهـا قد اسـتخفت منه، وهو قـوى الصبـر عن الماء شديد العدو وأشـد ما يكون عدوا اذ اسـتقبل الريح وكلما أشد لغـضوفها كان أشـد حصرا وهو فى عـدوه يضع عنقه على ظـهره ثم يخـرق الريح وهو يبتـلع العظم الصلب والحجـر والدر والحديد فيمـيعه بحر قانصته حتى يصـير كالماء ويبتلع الجمر حتى ينفذه إلى جوفه فـيكون جـوفه هو الـعامل علـى اطفائه ويـكون الجمـر هو العـامل على احـراقـه وفى ذلك أعجوبتـان احداهما التغذى بما لا يغـذو والاخرى الاسـتمراء والهـضم وهذا غير منكر لان الـسمندل وهـو كما زعم بعـضهم دابة توجـد بـلاد الهند وبلاد الـسـند دون الـثعلب خليخية اللون حـمـراء العين ذات ذنب طويـل ينـسج من وبرها مناديل اذا اتـسـخت ألقـيت فى النار المتأججة فيزول منها الزهم ولا تحترق وبـلاد الترك جرذان تسلخ جلودها ويتخذ من وبرها مناديل اذا اتـسخت غـسلت بـالنار بان تلقى فيها ولا تحتـرق وزعم آخرون أن الـسـمندل طائر ببلاد الهند يـبيض ويفرخ وفيـه من الخاصـية أنه يدخل الـنار ويخرج منها ولا يحتـرق ريشـه ويعمل من جلده مناديل الغمر فكما أن خاصيـة هذا الحيوان فى ظاهره كانت خاصية النعام فى باطنه والباطن فى الحيوان كله أنعم من الظاهر.

وقد حكى أبو عـبيد الـبكرى فى كتاب المـسالك والممـالك لما ذكـر قابس أن بعض

البادية دخل على أميرها بطائر على قدر الحمامة ذكر أصحابه أنهم لم يروه قبل وما عهدوه وكان فيه من كل لون وهو أحمر المنقار فأمر بقص جناحيه وأن يرسل فى قصره فلما كان الليل أوقد بين يدى الامير مشعل فلما رآه الطائر قصده وأراد الصعود إليه فلم يستطع النهوض فلم يزل يجهد نفسه حتى صعد إليه وجلس فى وسطه وجعل يتفلى فيه كما يتفلى الطائر فى الشمس فلما قضى وطره منه نزل، والنعام تصاد بالنار كما تصاد سائر الوحوش فإنه اذا رآها دهش لها واعتراه فكر فيها فيقف وقوف حيرة فيتمكن منه الصائد.

خواصه من المصائد لم يذكر منها شيئًا.

الوصف أبو إسحاق ابراهيم بن خفاجة:

ولرب طيار خفيف قد جرى	مثلا بحار خلفه طيار
من كل قاصرة الخطا مختالة	مشى الفتاة تجر فضل ازار
مخضوبة المنقار تحسب أنها	كرعت على ظمأ بكأس عقار
لا يستقربها الاداحى خشية	من ليل وبل أو نهار بوار

قال الزمخشرى:

يا سائلى اننى أصبحت فى بلد	لا عطله ترجى لى ولا عمل
ولا غريب ولا لى فيه من أحد	مثل النعامة لا طير ولا جمل

الطاووس: قال أصحاب البحث عن طبائع الحيوان أن الطاووس فى الطير كالفرس فى الدواب عزا وحسنا غير أن الناس لا يتبركون به ويكرهون كونه فى دورهم وفى طبعه العفة وحب الزهو بنفسه والخيلاء والاعجاب بريشه وعقده لذنبه كالطاق لا سيما إذا كانت الانثى ناظرة إليه والانثى تبيض بعد أن يمضى لها من العمر ثلاث سنين وكذلك لا يحصل التلوين فى ريش الذكر الا بعد هذه المدة وهى نهاية البلوغ والانثى تبيض مرة واحدة فى السنة اثنتى عشرة بيضة وأقل وأكثر ولا تبيض متابعا ويسفد فى زمن الربيع ويلقى ريشه فى زمن الخريف كما تلقى الشجر ورقها وهى كثيرة العبث بالانثى اذا حضنت وربما كسر البيض ولهذا يحضن بيضه تحت الدجاج والدجاجة لا تقوى على حضن أكثر من بيضتين منها وينبغى أن يتعاهد الدجاجة بجميع ما تحتاج إليه مخافة أن تقوم عنه فيفسده الهواء والفرخ يخرج من البيضة كاسيا كما يخرج الفروخ والطاووس من الطير الذى يبيض بيض الريح ويقال: ان عبث الطاووس بأنثاه وان حضنها غيرة منه أن يخرج من البيض ما يشبهه فى حسن ريشه وبهاء خلقه وزعم ارسطو أن الطاووس يعيش خمسا وعشرين سنة وهذا منه حكم لا يعينه الاستقراء.

الوصف أبو الصلت أمية بن العزيز الاندلسى:

أهلا به لما بدى فى مشبه — يختال فى حلل من الخيلاء
فالروضة الغناء أشرق فوقه — ذنب له كالروضة الغناء
ناديته لو كان يفهم منطقى — أو يستطيع اجابة لندائى
يا رافعا فوق السماء ولابسا — للحسن روض الحزن غب سماء
أيقنت أنك فى الطيور مملكا — لما رأيتك منه تحت لواء

ولـه:

أبدى لنا الطاووس عن منظر — لم تر عينى مثله منظرا
متوج المفرق إن لا يكن — كسرى بن ساسان يكن قيصرا
فى كل عضو ذهب مفرغ — فى سندس من ريشه أخضرا
نزهة من أبصر فى طيها — عبرة من فكر واستبصرا
تبارك الخالق فى كلما — أبدعه منه وما صورا

الباب الخامس والاربعون
فى الاسد النبل والزرافة والفيل

وانما بدأنا به أولا لأنه أشرف فى هذا النوع لان منزلته فيه منزلة الملك المهيب لقوته وشجاعته وقساوته وجهامة خلقه وشراسة خلقه، قال أصحاب الكلام فى طبائع الحيوان إن اللبوة لا تضع الا جروا واحد وتضعه بضعة لحم ليس فيها حس ولا حركة فتحرسه من غير حضان ثلاثة أيام ثم يأتى أبوه بعد ذلك فينفخ فى تلك البضعة المرة بعد المرة حتى يتحرك ويتنفس ويتفرج الاعضاء ويتشكل الصورة ثم تأتى أمه فترضعه ولا يفتح عينيه الا بعد سبعة أيام من تخليقه وهى ما دامت ترضع لا يقربها الذكر البتة فإذا مضت على الجرو ستة أشهر كلف الاكتساب لنفسه بالتعليم والتدريب وطارد الذكر الانثى فإن كانت صارفة أمكنته من نفسها وإن لم تكن دفعته ومنعته ونفته مع شبلها بقية الحول وستة أشهر من الثانى وحينئذ تألف الذكر وتمكنه من نفسها وللاسد من بعد الوثبة واللصوق بالارض والاسراع فى الحصر اذا هرب والصبر على الجوع وقلة الحاجة إلى الماء ما ليس لغيره من السباع وربما سار فى طلب القوت ثلاثين فرسخا ولا يأكل فريسة غيره من السباع وهو إذا شبع من فريسة تركها ولم يعد اليها ولو جهده الجوع ولا يأكلها وإذا أكل يقيم يومين وليلتين بلا طعام لكثرة امتلائه ويلقى بعد ذلك شيئا يابسا مثل جعر الكلب واذا بال رفع احدى رجليه كالكلب واذا فقد أكله صعب خلقه واذا امتلأ بالطعام فهو ودع وأكل الخفيف أحب إليه من اللحم العريض الغض وهو لا يثب على الانسان للعداوة ولكن للطعم فإنه لو مر به وهو شبعان لم يتعرض له وهو مع ذلك حريص بهم واسع النحر ينهش ولا يمضغ قليل الريق ولهذا يوصف بالنجر ولحم الكلب أحب اللحوم إليه ويقال إنما ذلك لحنقه عليه فإنه اذا أراد الطواف فى جنبات الحى ألح الكلب بالنباح عليه والانذار به فيرجع خائبا لنهوض الناس عليه فإذا أراد ذلك بدأ بالكلب حتى يأمن انذاره ومن شأنه إذا أكثر من حسو الدم وأكل اللحم وحلت نفسه منها طلب الملح ويجمله كالحمضة بعد الحلة فيطلبه ولو كان بينه وبينه خمسون فرسخا وهو يوصف بالجبن والجراءة فمن جبنه أنه يذعر لصوت الديك ومن

نقر الطست وضرب الطنبور والحبل الاسود والديك الابيض والنور والفأرة وقد تكون النار من أسباب اغتراره واغتياله لأنه يعتريه ما يعترى الظباء والوحوش عند رؤية النار من الحيرة والعجب بها وادمان النظر إليها والفكر فيها حتى يشغله عن التحفظ والتيقظ ومن حرارته أنه يقدم على المعتب الكبير والجمع الكثير ويقابل ولا يرجع من الضرب والجراح ولا يذله ما يصيبه من ذلك بل يقابل بعضه حتى يموت وهو إذا كر لا يفر الا فرا خفيفا مخالسا والاسود أكثر جراءة وجهالة ويقال إن الانثى أجرأ من الذكر والجاحظ لا يعجبه هذا القول ويقول إنما هى أشرف ومن عاداته أنه اذا عاين أحدا لا يفزع ولا ينهزم فإن ألجأ إلى ذلك وأحس بالصيادين تولى وهو يمشى رفيقا وهو مع ذلك يتلفت ويضمر الخوف ويظهر عدم الاكتراث وان تمكن منه الخوف هرب عجلا حتى يبلغ مكانا يأمن فيه فإذا علم أنه أمن مشى مارا وان كان فى سهل والجأ إلى الهرب جرى جريا شديدا كالكلب وان رماه أحد ولم يصبه شد عليه فإن أخذه لم يضره وإنما يخدشه ثم يخليه كأنه من عليه بعد الظفر به واذا شم رائحة الصيادين أخفى أثره بذنبه وفيه من شدة البطش ما أنه يأبى الجمل الهايج البازل فيضربه بيده فيثنى الجمل عنقه إليه كأنه يريد عضه فيضرب بيساره إلى مشفره فيجذبه جذبة يفصل بها بين ذوات عنقه وإن ألفاه قائما وثب عليه فإذا هو فى ذروة سنامه فعند ذلك يضربه كيف شاء ويتلعب به كيف أحب ومن عجيب أمره أنه لا يألف شيئا من السباع لأنه لا يرى فيها ما هو كفؤ له فيصحبه ولا يطأ على أثره شيء منها ومتى وضع جلده مع سائر جلودها تساقطت شعورها ولا يدنو من المرأة الطامث ومتى مس قوائمه لحا شجر البلوط خدر ولم يتحرك من مكانه واذا غمره الماء جاء الصبى حتى يركب على ظهره ويقبض على أذنه ولا تفارقه الحمى ولذلك الاطباء يسمون الحمى داء الاسد وعظامه عاسية جدا واذا طلب نارا دلك عظامه بعضها ببعض فيخرج منها كما يخرج من الحجارة ولذلك فى جلده من القوة والصلابة ما لا يعمل فيه السلاح الا من مراق بطنه وقد يطول مثوى الواحد منها مع الناس حتى يهرم وهو فى جميع حالاته صعب شديد الغرام لا يؤمن شروده إذا انفرد من سواسه وابصر غيضة بين يديها صحراء ويبلغ من العمر كثيرا وعلامة ذلك أنه يصاد فيوجد مهتوم الاسنان وليس ذلك الا من الكبر.

خواصه: يقال إن خصيته اذا ملحت بنورق أحمر ومصطكى وجففت وقليت بزئبق نفعت من البواسير والزحير ووجع الارحام ويقال إن من يمسح بشحم كليته يؤمن من أكل

السباع ومرارته بعسل تنفع الخنازير ودمه يطلى به السرطان وصيده بأنواع من الحيل فمنها أن تصنع له العرب الزباء وهى حفائر فى نشر من الأرض وتغطى وفى وسطها جرو كلب فيأتى الاسد ليأخذ الجرو فيسقط فيها، وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: بلغ الماء الزباء أى أعظمها.

الوصف والتشبيه: وصفه أبو زيد الطائى فى حكاية حكاها لعثمان بن عفان رضي الله عنه وقد لعنه فقال أقبل يتضالع من بغيه ولصدره نحيط ولبلاغيمه غطيط ولطرفه وميض ولأسارغه نفيض كأنما يخبط هشيما أو يطأ صريما ذا هامة كالمجن وخد كالمن وعينان سحراوان كأنهما سراجان وقصره رمله وهرمه وهله وساعد مجدول وعضد مفتول وكف شبيه البراثن ومخالب كالمحاجن فم أشدق كالغار الاحرق يفتر عن معاول مصقولة غير مفلولة فهجهجنا به فرفر وبربر ثم زأر فجرجر ثم لحظ فخلت البرق يتطاير من جفونه عن شماله ويمينه فأرعشت الايدى واصطكت الارجل وجحظت العيون وساءت الظنون ولصقت الظهور بالبطون وأنشد عبوس شموس مثل جد مكابر جرىء على الاقدام للقرن قاهر:

براثنه شثن وعيناه فى الدجى ... كجمر الغضا فى وجهه الشر طائر
يدل بانياب حداد كأنها ... اذا قلص الاشداق عنها خناجر

وقال أبو الطيب يصفه من أبيات:

ورد اذا ورد البحيرة وارد ... ورد الفرات زئيره والنيلا
متخضب بدم الفوارس لابس ... فى غيله من لبدتيه غيلا
فى وحدة الرهبان الا أنه ... لا يعرف التحريم والتحليلا
ما قوبلت عيناه الا ظنتا ... تحت الدجى نار الفريق حلولا
يطأ الثرى مترفعا من تيهه ... فكأنه أس يحس عليلا
ويرد عقرته إلى يافوخه ... حتى يصير لرأسه اكليلا
ويظنه مما يزمجر نفسه ... عنها لشدة غيظه مشغولا
قصرت مخافته الخطى فكأنما ... ركب الكمى جواده مشكولا

ثم خرج إلى ذكر الممدوح الحسين بن عبد الله بن طغج أمير مصر كان قد خرج متصيدا فرأى أسدا على فريسته فهاجه فوثب الاسد على كفل فرسه فأعجله عن استلال السيف فضربه بالسوط فألقاه عن كفل الفرس، فقال المتنبى القصيدة التى أولها:

فى الخدان عزم الخليط رحيلا ... مطر يزيد به الخدود محولا

وجاء منها:

أمعفر الليث الهزبر بسوطه ... لمن ادخرت الصارم المسلولا

وقال عبد الجبار بن حمديس الصقلي:

وليث مقيم فى غياض منيعة ... أمير على الوحش المقيمة فى القفر
يوسد شبليه لحوم فوارس ... ويقطع كاللص السبيل على السفر
هزبر له فى فيه نار وشقرة ... فما يستوى لحم القتيل على الجمر
سراجاه عيناه اذا أظلم الدجى ... فإن بات يسرى باتت الوحش لا تسرى
له جبهة مثل المجن ومغطس ... كأن على أرجائه صبغة الحبر
يصلصل رعد من عظيم زئيره ... ويلمع برق من حماليقه الحمر
له ذنب مستنبط منه سوطه ... ترى الارض منه وهى مضروبة الظهر
ويضرب جنبيه به فكأنما ... له فيهما طبل محيص على الكر
ويضحك فى التعبيس فكيه عن مدى ... بنوب صلاب ليس يهتم بالفهر
يصول بكف عرض شبرين عرضها ... خناجرها أمضى من القضب البتر
يجرد منها كل ظفر كأنه ... هلال بدا للعين فى أول الشهر

وأحسن ما ورد فى قتل الاسد قول بشر بن عوانة الفقعسى يصف ملاقاته للاسد وما اتفق له معه وحكايته أنه تزوج ابنة عمه فخرج يبغى مهرها فلما كان ببعض الطرق عارضه أسد فكر بمهره عليه فتقاعس ولم يتقدم عليه فنزل عنه وأقبل نحو الاسد مصلتا سيفه فقتله وقال:

أفاطم لو شهدت ببطن خبت ... وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا
اذا لرأيت ليثا رام ليثا ... هزبرا أغلبا يبغى هزبرا
تمهس اذ تقاعس عنه مهرى ... محاذرة فقلت عقرت مهرا
أبل قدمى ظهر الارض إنى ... وجدت الارض أثبت منك ظهرا
وقلت له وقد أبدى نصالا ... مذربة ووجها مكفهرا
يدل بمخلب وبحد ناب ... وباللحظات تحسبهن جمرا
وفى يمناى ماضى الحد ألقى ... لمضربه غداة الروع أثرا
ألم يبلغك ما فعلت ظباه ... بكاظمة غداة لقيت عمرا
وقلبى مثل قلبك لست أخشى ... محاذرة ولست أخاف ذعرا

وأنت تـروم للاشـــبـــال قـــوتا وأبغى لابنة الاعـــمـــام مـــهـــرا
فـــفـــيم تروم مـــثلى ان يـولى ويتـــرك فى يديك النفس قـــســـرا
نصـحـتك فالتـمس يا ليـث غيـرى طعـامـــا إن لحـمى كـــان مـــرا
ولمـــا ظـن الغـش نصـــحى وخـــالفنى كـأنى قـلت هجـــرا
دنا و دنـوت من أسـدين رامــا مـــرامـــا كـــان اذ طلـبـاه ذعـــرا
يكـفكـف غـيـله إحـــدى يديه ويـبــسـطه الوثوب عـلى أخـــرى
هززت له الحـــســـام فـخلت أنى هززت له لـدى الظلمـاء فـجـــرا
حـــامـــا لو رمــيت به المنايا لجـاءت نحـوه تعطيـه عـذرا
وجـــدت له بـخـــافـــقـــة رآها كـــمـن لديه مـــامنه قـــدرا
بضـربة فـيـصل تركـتـه شـفـعـا وكـــان كـــأنه الـجلمـــود وترا
فـخـر مـضـرجًـا بدم كـأنى هدمت به بناء مـــشـــمـــخـــرا
وقـلـت له يـعـــــز على أنى قـتلت مناسبى جلدا وقـهـــرا
ولكن رمت شـيـئـا لم يـرمـه ســواك فلـم أطق يا ليـث صـبـــرا
تحـــاول ان تـعلمنى فـــرارا لعـــمـــر أبى لقـــد حـــاولـت نكرا
فـلا تبـعـد فـقـد لاقـاك حـر يحـــاذر ان يعـــاب فـــمت بحـــرا

نادرة: قيل تعرض أسد لقافلة وصال على رجل منها فبادروا حتى حالوا بينهما وقالوا للرجل كيف حالك قال صالحة ولكن الاسد قد خرى فى سراويلى ولمؤلفه رحمه الله:

سـألتك يـا جـمـيل الـسـتـر سـتـرا أغـيـب به عن الخـصـم الظـلوم
وذاك الـسـتـر سـتـر مـعنوى يرانـى منه كـالاسـد العظـيم

القول فى طبائع الفيل: زعم بعض الباحثين عن طبائع الحيوان أن الفيلة مائية الطباع بالجاموسية والخنزيرية التى فيها وبعضها يسكن الماء وبعضها لا يسكنه وزعم آخرون أن الفيلة ضربان فيل ورندفيل وهما كالبخت والغراب والبقر والجواميس والبراذين والخيل والفأر والجرذان والنمل والذر وبعضهم يقول الفيل الذكر والرندفيل الانثى وهذا النوع لا يتلاقح إلا فى بلاده ومعادنه ومغارس أعراقه وإن صار أهليا وهى تتوالد بأرض السند والهند وهى أعظمها خلقا وبجزيرة سرنديب وينتهى فى عظم الخلق إلى أن يبلغ فى الارتفاع عشرة أذرع وفى ألوانها الاسود والابيض والازرق والابلق وهو إذا غتلم أشبه الجمل فى ترك

الماء والعلف حتى ينضم إبطاه ويتورم رأسه ولم يكن لسواسه غير الهرب منه وربما صار وحشيا وجهل جهلا شديدا والفيل ينزو إذا مضى له من العمر خمس سنين واذا حملت لا يقربها الذكر ولا يمسها ولا ينزو الذكر عليها إذا وضعت الا بعد ثلاث سنين ولا ينزو الا على فيلة واحدة وله عليها غيرة شديدة وإذا تم حملها وارادت الوضع دخلت النهر حتى تضع ولدها فى الماء لانها تلد قائمة اذ لا فواصل لقوائمها فتبرك والذكر بعد ذلك يحرسها وولدها من الحيات وذلك لعداوة أصيلية بينهما ووضع ذكر الفيل شبيه بالفرس لكنه صغير عنه جثة وهو فى الفرس العتيق صغير أيضًا وأنثيا الفيل داخل ذنبه قريب من كليتيه ولذلك يسفد سريعا كالطير لان كونهما داخلا قريبا من القلب ينضج المنى بسرعة ويقال ان الفيل يحقد كما يحقد الجمل ويحفظ الشيء الذى يكرهه القيم عليه حتى يقابله عند تمكنه منه وربما قتله وزعم أهل الهند ان لسان الفيل مقلوب ولولا ذلك لتكلم وهو صغير جدا ويجعلون أن قرنيه هما ناباه يخرجان مشتطين حتى يخرقا الحنك وعلم ذلك من تسريحه ويوجد فيه الاعقف والمستقيم.

قال المسعودى: وربما بلغ الناب منه مائة وخمسين منا وأكثر من ذلك والفيل يحمل بهما على الجدار الوثيق البنيان فيقلبه على الأرض وقد فتح به محمود بن سبكتكين مدينة الطاق وهى من أعظم الحصون التى ببلاد سجستان فإنه جعل نابيه تحت بابيها فأقلعه وهو من أسرع الحيوان الوحشى أنسا بالناس وسرعة الانس دليل على حسن الطباع ودماثة الأخلاق وخرطومه من غطروف أنفه وهو يده التى يوصل بها الطعام إلى فيه ويقاتل بها وبها يصيح وليس صياحه على مقدار جثته لأنه كصياح الدبك يتنزل منه منزلة عنقه وله فيه من القوة بحيث يقلع به الشجرة من منابتها وفى طبعة أنه اذا سمع صوت الخنزير ارتاع ونفر واعتراه الفزع والجزع واذا ورد الغدران والانهار للشرب وكان الماء صافيا فهو أبدا يثيره ويكدره كالخيل لانها ترى صورها على سطح الماء فتتوهم أنه غيرها فتنفر منه وهو قليل الاحتمال للشتاء والبرد ويقوم ويسير فى الماء منغمسا ما عدا خرطومه لأنه منه يتنفس ولا يقدر على السباحة لثقل جثته وفيه من الفهم ما به يقبل التأديب ويفعل ما يأمره سائسه من السجود للملوك وغير ذلك من الخير والشر فى حالتى السلم والحرب وفيه من الاخلاق أنه يقاتل بعضه بعضا قتالا شديدا والمقهور منها يخضع ويتعبد للقاهر ويخاف سطوته ويقال: إنه يصاد باللهو والطرب واللعب والزينة وريح الطيب والنساء يصيدونه بذلك وربما احتيل

على صيده بأن يترقب حال سكونه وهدوّه وذلك أنه لا ينام الا متعمدا على ساق شجرة اذ لا يمكنه الاضطجاع لكون قوائمه لا فواصل لها لكنها كالاساطين المصمتة والسوارى الوثيقة والصيادون يأتون الشجرة التى غالب أوقاته يعتمد عليها فيضعفون أصلها فإذا أتى على عادته اليها ليعتمد عليها انكسرت فسقط وبقى عاجزا لا يقدر لنفسه بشىء فيصيدونه كيف شاءوا، والهند تعظم الفيل وتشرفه لما اجتمع فيه من الخصال المحمودة من علو سمكه وعظم صورته وبديع منظره وطول خرطومه وسعة أذنه وطول عموده وثقل حمله وخفة وطئه، فإنه ربما مر بالانسان وهو لا يشعر به لحسن خطوته واستقامته وللهند طيب يجمعونه من جباه الفيلة ورءوسها فإنه اذا اغتلمت عرقت هذه الاماكن عرقا كأنه المسك ويستعملونه لظهور الشبق فى الرجال والنساء ويزعمون أنه يشجع القلب ويقوى النفس ويبعثها على الاقدام والفيل يشب إلى تمام ستين سنة ويعمر مائتى سنة وأكثر وحكى ارسطو أن فيلا ظهر عمره أربعمائة سنة.

وحكى بعض المؤرخين أن فيلا سجد لابرويز ثم سجد للمعتضد وبينهما زمان ذكره ارسطو واعتبر ذلك بالوسم وهذا الحيوان يعتريه من الامراض وجع المفاصل لطول قيامه وثقل جثه لأنه لا يضطجع.

الوصف والتشبيه، قال عبد الكريم البهشلى:

وأضخم هندى النجاد تعده ... ملوك بنى ساسان إن نابها دهر
يجىء كطود جائل فوق أربع ... مصيره يلب كما يلب الصخر
له فخذان كالشثين لبد ... وصدر كما أوفى الهضبة الصدر
ووجه به أنف كرا وورق خمرة ... ينال به ما يدرك الانمل العشر
وجنبان لا يروى القليب صداهما ... ولو أنه بالباع منهرب حفر
وأذن كنصف الرد يسمعه الندا ... خفيا وطرف ينقص الغب مزور
ونابان شقا لا يريد سواهما ... قيامين سمراوين لمعهما تبر
له لون ما بين الصباح وليله ... اذا نطق العصفور أو صوت الصقر

صلاح الدين الصفدى رحمه الله ملغزا:

أيما اسم تركيبه من ثلاث ... وهو ذو أربع تعالى الإله
حيوان والقلب منه نبات ... لم يكن عند جوعه يرعاه
فيك تصحيفه ولكن اذا ما ... رمت عكسا يكون فى ثلثاه

قد جعل الله فى طبع الفيل الهرب والوحشة من السنور واذا احتملت المرأة من نجوها مع العسل لم تحبل أبدا وكذلك اذا علق على شجرة لم تحمل تلك السنة.

القول على طبائع الكركدن: وتسميه الهند النوسان ويسمى أيضا الحمار الهندى وهو عدو الزبرقان والفيل ومعادنه ببلاد الهند والنوبة والبجا وهو دون الجاموس ويقال إنه متولد بين الفرس والفيلة وله ظلف واحد غير مشقوق وقرن واحد عظيم على أنفه بارز ولا يستطيع لثقله أن يرفع رأسه وهذا القرن مصمت قوى الاصل حاد الرأس مرهفه يقاتل به الفيل فلا يفيده معه ناباه، ويقال: إنه اذا نشز رؤى فى داخله صورة بياض فى سواد صفة انسان ودابة وسمكة وما يشاكل ذلك واهل الصين يتخذون منه المناطق ويغالون فى ثمنه ويقال: إن حمل الانثى من هذا النوع كأيام حمل الانثى من الفيلة والانثى تأكل ولدها ولا يسلم منها الا القليل والولد يخرج قويا ثابت الاسنان والقرن قوى الحافر وقد زعم أنه إذا كان فى بطن أمه وقارب الوضع يخرج رأسه من فرجها ويرعى من أطراف الاشجار ما يقوته ثم يرجع به، وقد أنكر الجاحظ هذا القول وقد جعله ضربا من الخرافات وتزعم الهند أنه اذا كان فى ناحية من البلاد لا يقربها حيوان أصلا ويكون بينها وبينه من البعد مائة فرسخ من أربع جهاته هيبة له وهربا منه وليس كذى القرن مشقوق الظلف وهو يجتر كما يجتر البقر والغنم والابل ويأكل الحشيش والهند تأكل لحمه وكذلك فى بلادها من المسلمين لأنه نوع من البقر والجواميس ويقال: إنه شديد العداوة للانسان حتى أنه اذا شم رائحته أو سمع صوته جد فى طلبه فإذا أدركه قتله وان لم ينتفع به لانه لا يأكل اللحم وهذا الحيوان لا يبرك ولا ينام اذ ليس له مفصل فى ركبتيه ولا فى يديه بل هو من ظلفه إلى ابطه قطعة واحدة.

القول فى الزرافة: والزرافة فى كلام العرب الجماعة لأنها اجتمع فيها صفات كثيرة من الحيوان وهى عنق الجمل وجلد النمر وقرن الظبى وأسنان البقر ورأس الابل ولهذا زعم بعض المتكلمين فى طبائع الحيوان أنها متولدة من حيوانات وقيل: إن السبب فى ذلك اجتماع الوحوش فى حماوة القيظ على شرائع المياه فتسافد فيلقح منها ما يلقح ويمتنع ما يمتنع فربما سفد الانثى من الحيوان ذكور كثيرة فتختلط مياهها فيجىء خلق مختلف الصور والالوان والاشكال، والفرس تسمى الزرافة استر كاو بليك فتأويل استر بعر وكاو بقرة وبليك الضبع وهذا كما رأيت موافق لكلام العرب من كونها مركبة الخلق من حيوانات شتى.

والجاحظ لا يعجبه هذا القول ويقول إنه جهل شديد لا يصدر عن من لديه تحصيل لأن الله يخلق ما يشاء وهو نوع من الحيوان قائم بنفسه كقيام الخيل والحمير ومما يحقق ذلك أنه ببلد مثله وقد شوهد وهى طويلة اليدين والعنق جدا حتى يكون فى مجموعها عشرة أذرع وأكثر قصيرة الرجلين جدا وليس لها ركب وإنما الركب ليديها كسائر البهايم وإذا أكلت مما على الارض تفحجت لقصر عنقها عن بطنها ومن عادتها أن تقدم عند المشى اليد اليمنى والرجل اليسرى بخلاف ذوات الاربع فإنها كلها تقدم اليد اليمنى والرجل اليمنى وفى طبعها التآلف والتودد والتآنس وهى تجتر وتبعر.

الوصف ابن حمديس:

ونوبية فى الخلق منها خلائق ... متى ما يرق العين فيها تسهل

اذا ما اسمها ألقاه فى السمع زاجر ... رأى الطرف ما عنى عناه بمقول

لها فخذ الرم وأظلاف قرهب ... وناظرتا ريم وهامة أيل

كأن الخطوط البيض والصفر أشبهت ... على جسمها ترصيع عاج مصندل

ودائمة الاقعاء فى أصل خلقها ... اذا قابلت ادبارها غير مقبل

تلفت أحيانا بعين كحيلة ... وجيد على طول اللواء المطلل

وتنفض رأسا فى الزمام كأنما ... تريك له هاد على السحب مفتل

وعرف رقيق الشعر تحسب نبته ... اذا الريح هزته ذوائب سنبل

وتحسبها من نفسها إن تبخترت ... تزف إلى بعل عروسا وتنجلى

فكم منشد قول امرئ القيس عندها ... أفاطم مهلا بعض هذا التدلل

ومن أبيات الفقيه عمارة اليمنى:

وبها زرافات كأن رقابها ... فى الطول ألوية تؤم العسكرا

نوبية المنشا تريك من المها ... زرقاء ومن بزل المهارى مشفرا

جبلت على الاقعاء من اعجابها ... فتخالها للتيه تمشى القهقرا

والجاحظ لا يعجبه هذا القول ويقول إنه جهل شديد لا يصدر عن من لديه تحصيل لأن الله يخلق ما يشاء وهو نوع من الحيوان قائم بنفسه كقيام الخيل والحمير ومما يحقق ذلك أنه يلد مثله وقد شوهد وهى طويلة اليدين والعنق جدا حتى يكون في مجموعها عشرة أذرع وأكثر قصيرة الرجلين جدا وليس لها ركب وإنما الركب ليديها كسائر البهايم وإذا أكلت مما على الارض تفحجت لقصر عنقها عن بدنها ومن عادتها أن تقدم عند المشى اليد اليمنى والرجل اليسرى بخلاف ذوات الاربع فإنها كلها تقدم اليد اليمنى والرجل اليمنى وفى طبعها التآلف والتودد والتآنس وهى تجتر وتبعر.

الوصف ابن حمديس:

ونوبية في الخلق منها خلائق	متى ما يرق العين فيها تسهل
اذا ما اسمها ألقاه في السمع زاجر	رأى الطرف ما عنى عناه بمقول
لها فخذ القرم وأظلاف قرهب	وناظرتا ريم وهامة أيل
كأن الخطوط البيض والصفر أشبهت	على جسمها ترصيع عاج مصندل
ودائمة الاقعاء في أصل خلقها	اذا قابلت ادبارها غير مقبل
تلفت أحيانا بعين كحيلة	وجيد على طول اللواء المطلل
وتنفض رأسا في الزمام كأنما	تريك له هاد على السحب مفتل
وعرف رقيق الشعر تحسب نبته	اذا الريح هزته ذوائب سنبل
وتحسبها من نفسها إن تبخترت	تزف إلى بعل عروسا وتنجلى
فكم منشد قول امرئ القيس عندها	أفاطم مهلا بعض هذا التدلل

ومن أبيات الفقيه عمارة اليمنى:

وبها زرافات كأن رقابها	في الطول ألوية تؤم العسكرا
نوبية المنشا تريك من المها	زرقاء ومن بزل المهارى مشفرا
جبلت على الاقعاء من اعجابها	فتخالها للتيه تمشى القهقرا

الباب السادس والأربعون
فى الحمام وما فى وصفها من بديع النظام

قد جرت عـادة الكبراء والعظماء باتخاذ الحـمام فى منازلهم ولا سيمـا فى أيام الخلفاء فكثر ذلك فى أيام الناصر لدين الله أحمد بن الامام المستضىء فإنه اهتم بأمرها وبأمر انشائها وما زالت الخلفاء والملوك يطيـرون الحمام ويـسابقون به ولا يختص بذلك بـنو العباس قال صاحب روض الاذهان: كان الوزير أبو الفرج يعقوب وزير الـمعز أجل الخلفاء المصريين وأفخمهم وكان له حمام يـسابق فاتفق أنه سابق بها طـيور الخليفة العزيز فسبق حمامه فعظم ذلك على الخليفة ووجد أعداء الوزير الطعن عليه من أن هذا الوزير يختار الجيد لنفـسه من كل شىء ويختار للخليفة الادنى فبلغ ذلك الوزير فكتب إلى الخليفة:

قل لأمـــيـــر الـمـــؤمنين الذى	له الـعـــلا والـكوكـب الـثـــاقب
طـائـرك الـســـــابق لـكـنـه	جـاء وفـى خـدمـتـه حـــاجب

فسكن غيظ الخليفة ولما مات هذا الوزير خلف أربعة آلاف مملوك وحارة الوزيرية فى القاهرة وتعرف به وبـساتين الوزير بالقرب من بركة الجـيش ولما مات نزل الخليفة وألحده فى قبره وبلغ كفنه وما يدخل فيه عشرة آلاف دينار.

قال الجاحظ: وقد تباع الحمامة بخمـسمائة دينار ولـم يبلغ ذلك شىء من الطير ومن دخل بغداد والبصرة عرف ذلك وتباع البيضـة بخمـسة دنانير والفرخ بعـشرين دينارا روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجـهه أنه اشتكى إلى رسـول الله ﷺ الوحشة فـقال: «اتخذ حمـاما تؤنسك وتصيب من فراخها وتوقظك للصلوة بتـغريدها» وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : «الحـمام فـإنها تلهى الجن عن صـبـيـانكم» روى جابر أنه كـان رسول الله ﷺ يعجبـه النظر إلى الحمام والابراج وكـان فى منزله ﷺ حمام أحمـر اسمه وردان، وكان إبراهيم بن بشـار معجبـا بالحمام وكـان اذا ذكرها يقول ان الله جـمع فيهـا حـسن النظر وكريم المخبر تكفـيك مؤنتها فهى للطارق عدة وللمـسـتـوطن لذة تطعم فى الصحراء وتعود اليك فى الـســراء يأنـس الوحـيد بحـركاتـها وتغنيـه عن الاوتار بنغـماتهـا وغـيرها من الطيـر

يستعجم وهى ناطقة وتنفر عنك وهى داجنة وفى طبعها السكون إلى الناس والاستئناس بهم وهى طير عفيف يبقى الذكر بعد الانثى منفردا والانثى مثل ذلك مع شدة اتفاقهما على المحبة إن طارا طارا معا وإن وقعا وقعا معا لها سرعة طيران لا تكاد سباع الطير تصيدها الا بحيلة ولم تزل العرب تستحسن سجع الحمام وتغريد البلبل والورشان واعراب وادى القرى إذا ظفروا بشراب الطائف أتوا حوائط من النخل عند استواء الظهيرة اذا صارت الوراش والفواخت إلى ذلك الظلال فيشربون ويأنسون بتغريدهن ويقيمون أصواتهن مقام المزامير والاوتار وفى ذلك يقول بعضهم:

أحن إلى حوائط ذات عرق	لتغريد الفواخت والحمام
ألم بها وكل فتى كريم	من الفتيان مخلوع الزمام

وقد ألف القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر كتابا أسماه تمائم الحمائم وذكر فيه أنسابها وأنواعها وغير ذلك ومنه قول القاضى الفاضل لا زالت أجنحتها تحمل من البطائق أجنحه وتجهز جيوش المقاصد والاقلام أسلحة وتحمل من الاخبار ما تحمله الضمائر وتطوى الارض اذا نشرت الجناح الطائر وكادت تكون ملائكة لأنها رسل اذا نيطت بالرقاع طارت أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع وقد باعد الله بين أسفارها وقربها وقرها وجعلها طيف اليقظة الذى صدق العين وما كذبها وقد أخذت عهود اداء الامانة فى رقابها أطواقا وأذنها من أذنابها أوراقا فصارت خوافى وراء الحوافى وغطت سرها بكتمان سحبت عليه ذيول ريشها الصوافى ترغم النوى بتقريب العهود وتكاد العيون تلاحظها تلاحظ أنجم السعود وهى أنبياء الطير لكثرة ما تأتى به من الانباء وخطباؤها لانها تقوم على منابر الاغصان قيام الخطباء وسماها القاضى الفاضل فى مكان آخر ملائكة الملوك فرحمه الله ما كان أقدره على الكلام وما أحسن ما وصف الحمام وتسميته إياها أنبياء الطير، قال الشيخ تاج الدين بن الاثير من فصل: طالما جارتها لرياح فأصبحت مخلفة وراءها تبكى على السحب وصدق من سماها أنبياء الطير لانها مرسلة بالكتب وقال الشيخ السديد علم الرؤساء من رسالة فى تقدمته بالبشائر يكون المعنى بقولهم أيمن طائر ولا غرو أن فارق رسل الارض وفاتهم وهو مرسل والعيان عيانه والجو ميدانه والجناح مركبه والرياح موكبه وابتداء الغاية شوطه والشوق إلى أهله وقال الاسعد بن مماتى من صدر رسالة:

أعـوامل بـالفـلات مـمـا بـدلنا عنى أن معنى القلب من عادة القلب
ومن لم يجد شخصا من الانس كاملا يثبت له الشكوى تشاغل باللعب

بلغنى أن الحضرة قد أطاعت سلطان نفسها واسترجعت شيطان أمسها وعزمت على انفاق كيس الايام بالاشتغال بالحمام.

وللشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة: وفرضنا أعزك الله ان ذلك الواشى فى كلامه مصيب فالمملوك أولى بالتقاط فوائد مولانا ابن أبى حجلة وللطير فى دار الكرام نصيب.

صلاح الدين الصفدى وكتبها إلى بعض أصحابه:

هـذى بطاقـة قـادم قـد جـاء يلهج بالمـدح
حـملهـا قـلبى الذى قـد طار نحـوك بالفـرح

قلت ما ألطف قول الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة:

شكرت افتراحى فى المديح فلمتنى وقلبى أناس كان يشكر ما اقترح
ولو كان من شعرى المحجل ريشة لكل بنى الآداب طارت من الفرح

القاضى الفاضل:

ليـنهك طائر الفـتح المـبين ومـا أدى من الخبـر اليـقين
وأشـرق فـى الخيـام على رياض وخط من الرمـاح على الغـصون
وأطرب بالكتـاب وزاد حـتى ظـنـناه يـغنى بـاللحـون
وسـرك باليـقين بغـير وعـد ترجـيـه الظنون بـقـد وسـين
بمـا أسـهرت جـفن السـيف حتى جـعلت السـيف غـمدا للجفـون

وله تغمده الله برحمته:

وقـد ألف التخليق ريش جناحـها فـجـاءت الينا فى رداء العـرائس
ومـا خلقـت بالزعـفـران وانمـا نضخن دما من أكل قتلى الفوارس
مـلائكة الرحـمن تزجى كـتـابها اليـهم ببـشـراهم بقـتلى الأبالس

وله رحمه الله:

ذكر ابن مندى فى معجمه: قال سمعت أبا الحسن محمد بن نصر الله بن عنين يقول كنت بخراسان بمجلس الفخر الرازى إذ أقبلت حمامة يتبعها جارح فسقطت فى حجر الفخر الرازى وعادت به على منبره فقمت وأنشدت بديها:

يا بن الكرام المطعمين اذا شتوا ... فى كل مسغبة وثلج خاسف
والعاصمين اذا النفوس تطايرت ... بين الصوارم والوشيح الراجف
من نبأ الورقاء أن محلكم ... حرم وأنك ملجأ للخائف
وافت اليك وقد تدانى حتفها ... فحبرتها ببقائها المستأنف
ولو انها تحبى بمال لانثنت ... من راحتيك بنائل متضاعف
جاءت سليمان الزمان حمامة ... والموت يلمع من جناحى خاطف

فخلع عليه جبة كانت عليه وكل هذا سببا لاقبال السعود عليه.

من انشاء الشيخ زين الدين بن الوردى: فبينما الباز سكران بما بان من البان واذا بحمامة قد وقعت أمامه وقالت كم تفتخر وأنت عظم نخر أنت من آلة اللعب والصيد وأنا من آله الجد والكبد أنا مع الطوق والخضاب من جملة حملة الكتاب ومع خوفى من شرك الشرك وحذرى ممن فح الافك حملت الامانة التى أبت الجبال عن حملها وامتثلت مرسوم ﴿ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾[1] فلما أوصلت الحقوق أمنت العقوق وتزينت بالبشائر والخلوق ومما أعجب العالمين أننى مخضوبة البنان ولى يمين أقول للملك دع الاهتمام ولا تحزن فإنى أنا الحمام مهما حدث عليك من البعد من أخصامك أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك كتمت عن الناس سرى وأبهمت فى الغناء والنوح أمرى:

روى خضابى وطرقى ... فاستنكفوا من بكائى
ثم ادعوا أن نوحى ... مناسب لغنائى
فقلت كفوا فدمعى ... باد بغير اختفاء
الخضب من فيض دمعى ... والصبر عقد ولائى

قال القاضى علاء الدين الوداعى: كان القاضى الفاضل يسمى الحمام ملائكة الملوك فسميت انا البريدية شياطين السلاطين.

---

(١) الآية: ٥٨ من سورة المائدة.

الباب السابع والأربعون
فى الحصون والقصور والآثار
وما قيل فيها من رائق الاشعار

ما أحسن قول القاضى الفاضل ووردنا حصين كوكب وهو نجم فى سحاب وعقاب فى عقاب وهامة لها الغمامة عمامة وأنملة اذا خضبها الاصيل كان الهلال لنا قلامة، وقال الشيخ شهاب الدين محمود: حصن قد تفرط بالنجوم وتقرطق بالغيوم وسما فرعه إلى السماء ورسى أصله إلى التخوم تخال الشمس اذا علت أنها تنتقل فى أبراجه ويظن من سها إلى السها أنها ذبالة فى سراجه لا يعلوه من مسمى الطير غير نسر السما وزمامه ولا يرمق متبرجات بروجه غير عين الشمس والمقل التى تطرف من أنجمه وحوله كل شامخ تهيب عقاب الجو قطع عقابه وتقف الريح حسرى اذا توقلت فى هضابه تخفق العيون اذا رمقته سلوك ما دونه من المحاجر ويحيل الفكر صورة الترقى اليه لا يبلغها حتى تبلغ القلوب الحناجر وحوله من الاودية خنادق لا تعلم منها الشهور الا بأنصافها ولا تعرف فيها الاهلة الا بأوصافها.

قال الشيخ جمال الدين بن نباتة من باب محرم الخاطر واذا هى سماء يتقاعس الفكر عن محاولة شهبها وحسناء كلما رمت أن تنظر وجهها الحسن فكان قرص الشمس مرآة وجهها تزاحم بروجها السماء بالمناكب وتضىء اضاءة نجومها الثواقب وتلقى اذا عطشت كوكب الدلو بأرشية البروق فى قليب السحائب لا تسامى ولا تسام ولا يحصل منها قادم سفر الا على معانقة العوالى ومصافحة السهام، وقال علاء الدين بن غانم: ذات أودية ومحاجر لا تراها العيون لبعد مرامها الا شزرا ولا ينظر ساكنها العدد الكثير الا نزرا ولا يظن ناظرها الا أنها طالعة بين النجوم مما لها من الابراج ولها من الفرات خندق يحفها كالبحر الا ان هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ولها واد لا يقى لفحة الرمضاء ولا حر الهواجر وقد توعرت مسالكه فلا يداس فيه الا على المحاجر وتفاوت ما بين مرات العلا وقراره العميق ويقتحم راكبه الهول فى هبوطه فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى

به الريح فى مكان سحيق، وقال سيدى الاخ العزيز الفاضل تقى الدين أبو بكر بن حجة الحموى سلمه الله تعالى فى وصف قلعة دمشق عندما حوصرت فى الوقعة المشهورة ونظرت بعد ذلك إلى القلعة المحروسة وقد قامت قيامة حربها حتى قلنا أزفة الآزفة وقد ستروا بروجها من الطارق وهم يتلون ليس لهما من دون الله كاشفة واستجليت عروس الطارمة عند زفتها وقد تجهزت للحرب ولم نرض بغير الارواح مهر وقد أعقدت على رأسها تلك العصائب وقد توشحت بتلك الطوارق وأدارت على معصمها الابيض سوار النهر وغازلت بحواجب قسيها ورمت القلوب من عيون مراميها بالنبال وأهدت إلى العيون من مكاحل نارها أكحالا كانت السهام لها أميال وطلبها كل من الحاضرين وقد غلا دست الحرب وشمخ وهو على فرسه بنفسه الغالية وراموا كشفها وهم فى رقعة الارض كأنهم لم يعلموا بأن الطارمة عالية وتالله لقد حرست بقوم لم يتدرعوا بغير آية الحرس فى الاسحار وقد استيقظوا لحمل قسيهم ولم تنم أعينهم عن الاوتار فأعيد رواسيها التى كالجبال الشامخة بمن أسس المحجوج وأحصنها قلعة بالسماء ذات البروج.

قلت ويحسن ذكر المنجنيق فى هذا الموطن نقلت من خط القاضى صلاح الدين الصفدى قال نقلت من خط السراج الوراق لنفسه يصف حجارة المنجنيق:

ترقى بمكر المنجنيق إلى السها	وتعود تطلب مركز أرباها
وحمت بها الاسوار ثم تكلمت	لم لا وقد فتحت بها أفواها
وتولت السمر الطوال سواكها	وثغورها لا تنجلى بسواها

وقال ابن النبيه من قصيدة يمدح بها الاشرف ويصف دارا بناها بقلعة أخلاط:

سقى الله من أعلام أخلاط قلعة	يحوم بها نسر السها على وكر
ودار على خير الطوالع أسست	فمن حل فيها فى أمان من الدهر
تجلى مدى الابصار لمع بياضها	فأحسبها قد ألبست بهجة الدر
وقد أثبتت أركانها من نقوشها	تماثيل روض لم يزل يانع الزهر
تكاد تشم المسك من نسماتها	ويقطر من أرجائها ورق التبر
تسر وتلهى ساكنيها بحسنها	فإن شئت أغنت عن غناء وعن خمر
اذا فتحت أبواب مستبشر بها	جلت لك نور البحر والوحش فى البر
فإن شئت للاخرى فمحراب ناسك	وان شئت للدنيا فريحانة العمر
وان جمعا فالله ما زال جامعا	شتيت العلا للاشرف بن أبى بكر

وللشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة فى مدرسة القاضى بدر الدين بن الجزولى بمصر:

تأمل ففضلى سار فى البر والبحر ... ولى خبر فى مصر يغنى عن الخبر
يقابلنى المقياس يوم وفائه ... بوجه فتاة لاح من خلل الستر
فشباكه يرنو إلىّ بأعين ... جلبن الهوا من حيث أدرى وما أدرى
أهيم بها فى مصر حتى كأنها ... عيون المها بين الرصافة والجسر
فلا عذرى عندى للنسيم اذا سرى ... وكم فى الهوى العذرى للصب من عذر
تداوى بشرب الماء عندى جماعة ... كما يتداوى شارب الخمر بالخمر
مماتى من عين الحيوة لانه ... من الروض يأتينى على قدم الخضر
وبسطى روضى والقناديل زهرها ... وثغر حباب الماء يبسم عن در
فلا تعجبا من زائرى إن توقدت ... عليه مصابيح الطلاقة والبشر
تشاهد منى العين فى مصر روضة ... ترى زهرها فى الماء كالانجم الزهر
وكم وردة أبدى دهانى حسنها ... يبيت بها قلب الحسود على الجمر

وله فيها:

دار يصان الجار فى أرجائها ... ويذل فيها صين الاموال
نسيت بها الاهرام لما إن غدت ... بضيائها هولا من الاهوال

الشيخ شمس الدين بن القريه السكندرى فيمن له غلام اسمه ريحان:

ان الامير حباه رب الـ ... ـعرش احسانا ومنه
هو والغلام وداره ... روح وريحان وجنه

حكى عن سنمار أنه كان رجلا حاذقا بالبنيان فأمره النعمان بن امرئ القيس بن عمرو ابن امرئ القيس اللخمى ان يبنى له حصنا بظاهر الجزيرة وهو الذى يقال له الخورنق فلما فرغ من بنائه عجبوا من حسنه واتقان عمله فقال له لو وفيتمونى أخرى لبنيته بناء يدور مع الشمس كيفما دارت، فقال النعمان أقدرت على أحسن منه ولم تفعل فأمر بقذفه من أعلاه وقيل إنما قتله لأنه لما فرغ من بنائه خلا به وقال له ان هذا البنيان كله مردود إلى هذا الحجر فاحتفظ به فإنه ان نزع سقط البناء كله فقتله لئلا يطلع على ذلك غيره، فضربت به العرب المثل وأكثرت فيه فقالوا: جزاه الله جزاء سنمار.

وقال الشاعر أنشده ابن مالك:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر ... وحسن فعل كما يجزى سنمار

وقال عبد العزيز بن امرئ القيس:

جزانى جزاه الله شر جزائه ... جزاء سنمار وما كان ذا ذنب

قال ابن الشجرى يقال رجل سنمار اذا كان حسن الوجه أبيضه، ويقال للقمر سنمار ولما أراد المنصور أن يبنى بغداد فى سنة أربعين ومائة سأل راهبا كان فى صومعة فى مكان بغداد عندما أراد أن يختطها أريد أن أبنى هنا مدينة فقال له الراهب إنما يبنيها ملك يقال له الدوانى فضحك المنصور وقال أنا هو وشرع فى بنائها سنة أربعين ومائة ونزلها سنة ست وأربعين، وفى سنة ست وأربعين تم بناؤها وهى بغداد القديمة التى بالجانب الغربى على دجلة وهى بين الفرات ودجلة كما جاء فى الحديث لا بغداد الثانية وهى الجديدة التى فى الجانب الشرقى وفيها دور الخلفاء وبغداد عبارة عن سبع محال لا تفتقر منها محلة إلى غيرها على شاطئ دجلة فالذى فى الجانب الشرقى الرصافة، بناها المهدى بن المنصور حين ضاقت بالرعية والجند سنة قلت: إحدى وخمسين وهى مدينة مسورة، والثانية مشهد أبى حنيفة مسورة، والثالثة جامع السلطان غير مسورة، والرابعة مدينة المنصور فى الجانب الغربى وتسمى باب البصرة وكان بها ثلاثون ألف مسجد وخمسة آلاف حمام، والخامسة مشهد موسى بن جعفر مسورة، والسادسة الكرخ مسورة، والسابعة دار المقر مسورة، قلت: مكتوب على ظاهر المدرسة التى أنشأها الشيخ الامام العالم أوحد القراء أبو عبد الله شمس الدين محمد بن الجزرى تغمده الله برحمته بعقبة الكتاب عمرها الله ببركته وأظن أنها من نظمه:

يا دار علم للمآثر تقصد ... وبصدرها تروى العلوم وتسند
خلعت عليك الكائنات جمالها ... فلذاك سعدك دائما يتجدد
أضحيت للراجين قبلة قاصد ... لكمالها تعنو الوجوه وتسجد
نظرتك شمس العلوم منيرة ... منها لطلاب الفضائل منجد
يا باذلاً للمال غير مذمم ... حاشاك من ذم وأنت محمد
كم قلد الناس اجتهادك منة ... فحمدت مجتهدا وأنت مقلد
طربت بذا المعنى العقول فيا له ... من دار قرآن وفيه معبد
بالامس كان على الطريق قمامة ... واليوم فهو على الحقيقة مسجد

مـا ان تراه مـشـاهدًا لجـمـاله الا وتعـجب من سناه فـتنشـد
واذا نظرت الى البـقـاع وجـدتهـا تشـقى كمـا تشقى الرجـال وتسـعـد

وقال الشيخ بدر الدين ابن الصاحب فى عمارة السلطان الملك الظاهر برقوق التى بناها بين القصرين عمرها بحياته عمارة الظاهر قد أصبحت أركانها شاهقة كالعلم وبشرت أحجارها بالبقاء وأنه يبلغ سن الهرم.

وله فى رباط المعشوق الذى بمصر المحروسة المشرف بالآثار الشريفة:

لنا رباط وبالمعشوق شهرته أثار خير الورى فيه بتحقيق
يصبو فؤادى لمرآة ولا عجب ان هام قلبى فى أثار معشوق

غيره:

أتيت إلى المعشوق من بعد فرقة وهجر وقلبى بالنوى يتضرم
فقابلنى والثغر بالزهر باسم وما أحسن المعشوق للصب يبسم

قلت وأنشدنى من لفظه لنفسه الشيخ الامام الفاضل اللغوى جلال الدين أبو المعالى ابن خطيب داريا:

يا عين ان بعد الحبيب وداره ونأت مرابعه وشط مزاره
فلقد حظيت من الزمان لطائل ان لم تريه فهذه آثاره

صلاح الدين الصفدى رحمه الله:

أكرم بآثار النبى محمد من زارها استوفى السعود مزاره
يا عين ويحك فانظرى وتمتعى ان لم تريه فهذه آثاره

وقال الشيخ شمس الدين بن الصائغ الحنفى موريا به وبغيره من منارة مصر المحروسة:

وليلة مرت بنا حلوة ان رمت تشبيها لها عبتها
لا يبلغ الواصف فى وصفه حداً ولا يلقى لها منتهى
بت مع المعشوق فى خلوة ونلت من خرطومه المشتهى

وقرأت فى شرح قصيدة بنى الافطس التى شرحها الكاتب أبو القاسم عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمى السلمى رحمه الله عند ذكر كسرى هو كسرى أنوشروان بن ساسان كان ملكه ثمانية وأربعين سنة وقيل سبعا وأربعين سنة وثمانية أشهر وهو الذى بنى

سور الباب والايوان وجعل هذا السور من جوف البحر مقدار ميل وبناه على الزقاق بلين الحديد والرصاص وكلما ارتفع البناء نزلت إلى أن استقرت فى قرار البحر وارتفع السور على الماء فغاصت الرجال بالخناجر والسكاكين إلى ذلك الزقاق فشقتها وتمكن السور على وجه الأرض فى قاع البحر وذكر المسعودى أن هذا السور كان باقيا سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة ويسمى هذا السور الذى فى البحر القيد وصعد هذا السور فى أكر على جبل الفتح أربعين فرسخا حتى انتهى إلى طبرستان وجعل على كل ثلاثة أميال من هذا السور بابا من الحديد وأسكن من داخله أمة من الناس تراعى ذلك الباب وما يليها من السور وذلك لدفع الامم المتصلة بذلك الجبل وهم أنواع من الامم منهم اللان والجرز والترك والبرغز وغيرهم وذكر فى كتابه هذا عند ذكر المأمون ومن تسمى باسمه فمنهم يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة يحكى أنه بنى قصر طليطلة وتأنق فى بنائه وأنفق فيه أموالا كثيرة وصنع فيه بحيرة وبنى فى وسطها قبة وسيق الماء إلى رأس القبة حواليها محيطا بها متصلا بعضه ببعض فكانت القبة فى غلالة من ماء تسكب ولا تفتر والمأمون بن ذى النون قاعد فيها لا يمسه فيها شىء ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل فبينما هو نائم فيها اذ سمع منشدا ينشد:

أتبنى بناء الخالدين وإنما بقاؤك فيها لو عقلت قليل
لقد كان فى ظل الاراك كفاية لمن كان يوما يقتضيه رحيل

فما لبث بعد هذا الا يسيرا حتى قضى نحبه.

أنشدنى الشيخ شمس الدين الجرائحى من لفظه لنفسه وقد أمره القاضى فتح الدين بن الشهيد أن ينظم شيئا يكتبه على طراز فى صدر ايوانه:

أيا من يطرز الدر أكمامهم سمت قفوا وانظروا دار الطراز على خصرى
وصدرى لاسرار الممالك حائط من الفضة البيضاء والذهب المصرى
فمن ذا يضاهنى افتخار وقد غدت خزائن اسرار الممالك فى صدرى

نقلت من خط الشيخ بهاء الدين الموصلى والد شيخنا العلامة عز الدين أبى الخير الموصلى من مقامة وسماها بسلوة الغريب وخلوة الحبيب منها فى وصف القصر الابلق بدمشق وقصرها الابلق ليس بالعقوق من شاهد بديع معانيه لنهى عن العاشق والمعشوق قد شام فى غمده مشهور عمدان وأسبل على ايوان كسرى ستر النسيان يبهر الناظر حسن معناه ولا يقدر على وصف محاسنه من يراه الماء مرفوع فى اقطاره ونواحيه منتصف فى فوار

بركه لتميز ناظريه يتكسر جمعه على شاذرواناته مجرورا باضافته إلى مجاريه فقد اجتمع لقاطنه اضافة المعنى والحسن الباهر ولم يكمل ذلك البهاء الا بكمال جمال الظاهر أعين شبابيكه إلى ميدانه الاخضر ناظرة قد جمع الصادح والباغم واللاقط والطاغم به الظباء الاوانس والمها الكوانس أقطاره عريضة طويلة لا ترجع الابصار من السفر فى زمنه الا كليلة أخجلت خمائله الأيك والغصون ولاذ القائف بالسلوان عن اقتفاء أثر السلوك فى معانيه التى كلها عيون وقف الابلق حين جرى إلى منتهاه وأدركه الاعياء فسكن بأقصاه وشاهد الشقراء تمرح فى ميدان واديها فأراد الوصول اليه فعاوده الاضطراب فقطعت على الانهار الطريق وضرب بينهما بسور له باب.

الايوان: من بعد هدمه بناه كسرى أبرويز فى نيف وعشرين سنة ومائة ذراع فى عرض خمسين فى سمك مائة من الآجر الكبار والجص وثخن الجدار الازج خمس أجرات وطول الشرف خمسة عشر ذراعا ولما بنى المنصور بغداد حب ان ينقضه ويبنى به فاستشار خالد بن برمك فنهاه وقال هو آية الاسلام ومن علم أن هذا بناؤه لا يزيل أمره الا نبى وهو مصلى على بن أبى طالب ﷺ والمؤنة فى نقضه أكثر من الارتفاق به فقال أتت الأمثلاء من العجم فهدمت ثلمة منه فبلغت النفقة عليها مالا كثيرا فأمسك فقال خالد أنا لا أشير بهدمه لئلا يتحدث بعجزك عنه فلم يفعل وعلى ذكر الايوان فما أحسن ما أنشدنى من لفظه لنفسه أجازة شيخنا العلامة عز الدين أبو الخير الموصلى محاجيا:

يا من له الطول فى المعالى ... وبالمعانى لنا بصر
أنى كما قلت فى سؤالى ... ما مثل قولى نعم مقصر

القاضى فتح الدين بن الشهيد على لسان مجلس داره وقد بنى لبعض الاجلاء فى داره مجلس عال:

يا من ينزه فى حسنى نواظره ... اسمع صفات بها قد فقت أمثالى
أنى مقام مقر عز جانبه ... ودون قدر جناب المجلس العالى

أنشدنى من لفظه لنفسه الاديب الفاضل الكامل شمس الدين أبو عبد الله الجراحى فى مجلس بناه سيدنا ومولانا قاضى القضاة وشيخ الشيوخ خطيب الخطباء أبو الحسن علاء الدين بن أبى البقاء السبكى الشافعى تغمده الله برحمته:

ومجلس قد قال لى منشى ... ما مثله فى الفضل قاضى القضاه

قد أسس البنيان منى على ... تقوى من الله وأرضى الاله
فصرت كالكعبة من أجله ... تسعى إلى نحوى الحفاة العراه
فما سعى نحوى أخو شدة ... الا ومن ربى لاقى رضاه
فالاسم منى فى الهجا معرب ... وإنما للمدح قصدا بناه
خص بخفض العيش من أمنى ... ورفعه يبقى بقصد النحاه
قاض قضى بالحق لكنه ... جار على ما ملكته يداه
فما اشتكى الفقر اليه امرئ ... الا ونادى المال كن فى رضاه

وأنشدنى لنفسه فسح الله فى أجله فى منزل القاضى فتح الدين بن الشهيد:

يا منزلا بالبهاء والحسن ناظر من ... طرز الملوك طرازى لست من طرزى
والناس دون محل الغير تقصدنى ... من القبول لان السر فى حرزى

ومن المبانى العظيمة المذكورة فى القرآن العظيم ارم ذات العماد قال أصحاب الآثار ورواة الاخبار لما سمع شداد بن عاد بن أرم وصف الجنة سولت له نفسه أن يبنى مثلها فبنى مدينة بين حضرموت وصنعاء طولها اثنى عشر فرسخا وعرضها مثل ذلك وأحاط بها سورا ارتفاعه خمسمائة ذراع وغشى خارجها فضة مموهة بالذهب وبنى داخلها مائة مائة ألف قصر بعدد رؤساء أهل مملكته بلبن الذهب والفضة وكذلك جذوع سقوفها وأساطينها وأجرى فى وسطها نهرا صفح أرضه بالذهب وجعل على حافتيه أنواع الجواهر واليواقيت بدلا من الحصباء وألقى فيه المسك الغبر عوضا عن الحمأة وفرع منه جداول إلى تلك القصور والمنازل وغرس على شطوطها من الاشجار ما كان لزهره عرف ورائحته ذكية وزعموا أنه أقام فى بنائها ثلاثمائة سنة فلما تم بناؤها زاد فى طغيانه ولم يعبأ بربه فبعث الله هودا عليه السلام يدعوه إلى الله تعالى ويحذره سطوته ويخوفه نقمته فلم يجبه إلى ما دعاه إليه وخرج من حضرموت إلى ذات العماد ليبلغ نفسه مناها بسكناها فلما أشرف عليها جاءته صيحة من السماء فأهلكته وجنوده وأفاتته أمله ومقصوده.

ويروى أن عبد الله بن قلابة خرج فى طلب ابل ندت له فوقع عليها فحمل ما قدر عليه مما تم فبلغ خبره معاوية فاستحضره فقص عليه فبعث إلى كعب فقال هى ارم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وفى عنقه خال يخرج فى طلب ابل ندت له ثم التفت فرأى ابن قلابة فقال هذا والله ذلك

الرجل وزعم الاحباريون أنه كان بها أربعمائة ألف وأربعون ألف عمود ولهذا سميت ذات العماد.

ومن المبانى العظيمة سد ذى القرنين الذى بناه على يأجوج ومأجوج وصفته على ما حكاه ابن حردأدبه أن مكانه جبل أملس مقطوع بواد عرضه مائة وخمسون ذراعا وفى جانبى الوادى عضادتان مبنيان عرض كل عضادة خمسة وعشرون ذراعا كل ذلك مبنى بلبن الحديد مغيب فى نحاس فى سمك خمسين ذراعا وعلى العضادتين دروند حديد طرفاه فى العضادتين طوله مائة وعشرون ذراعا وفوق الدروند بناء بتلك اللبن الحديد المغيبة فى النحاس إلى رأس الجبل وارتفاعه مد البصر وفوق ذلك شرافات من حديد فى طرف كل شرافة قرنان ينبي كل واحد منهما إلى صاحبه وبين العضادتين باب من حديد بمصراعين وبين كل مصراع خمسون ذراعا فى خمسة أذرع وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع فى غلظ باع فى الاستدارة وارتفاع القفل من الارض خمسة وعشرون ذراعا وعتبة الباب عشرة أذرع بسط مائة ذراع سوى ما كان تحت العضادتين ويقال ان آلة البناء التى بنى بها هذا السد موجودة بحصون بناها ذو القرنين ورتب فيها حراسا يحرسون هذا السد وهى مغارف وبقية لبن كل ذلك من حديد وان كان لبنة ذراع ونصف فى مثل ذلك فى سمك شبر قد ألصق الصداء بعضها ببعض.

ومن المبانى المشهورة قصر غمدان وكان بصنعاء قال الجاحظ أحبت العرب أن تشارك الفرس فى البناء وتنفرد بالشعر فبنوا غمدان وكعبة بحران وحصين مارد والابلق ويزعم بعض الاحباريين أن بانيه حام بن نوح ويزعم آخرون أن بيوراسف بناه على اسم الزهر وذكر ابن هشام ان الذى أسه قحطان بن يعرب واكمله بعده واصله وائل بن حمير ابن سبأ بن يعرب وخربه عثمان بن عفان ﷺ وكانت صفته على ما نقلته من الكتب المدونة فى العجائب مربعا أحد أركانه مبنى بالرخام الابيض والثانى بالرخام الاصفر والثالث بالرخام الاخضر والرابع بالرخام الاحمر فيه سبع سقوف طباقا ما بين السقف والآخر خمسون ذراعا وجعل على كل ركن تمثال أسد من النحاس إذا هبت الريح دخلت من دبره وخرجت من فيه فيسمع له صوت كزمير الاسد وقال ابن الكلبى كان على ركن من أركان غمدان مكتوب بالحميرية اسلم غمدان معاديك مقتول بسيف العدوان، وذكر الجاحظ فى كتاب الامصار أن قصر غمدان كان أربعة عشر غرفة بعضها فوق بعض ويروى

أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لا يستقيم أمر العبوب ما دام فيها خمداتها وهذا القول الذى حطى عثمان على هدمه وأثره باق على كل حال مطل على البلد قريب الجامع.

ومن المباني التى تبلى الزمان ولا تبلى وتندرس معالمه وأخبارها لا تندرس ولا تبلى الاهرام التى بأعمال مصر وهى أهرام كثيرة أعظمها الهرمان اللذان بجزيرة مصر غربى النيل يقال ان بانيها شوندبر بن سلهوب بن شرناق قبل الطوفان ويقال ان هرمس المثلث بالحكمة وهو الذى تسميه العبرانيون أخنخ وهو ادريس عليه السلام استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان فأمر ببناء الأهرام وايداعها الأموال وصحائف العلوم وما يخاف عليه من الذهب والدثور وكل هرم منها مربع القاعدة مخروطى الشكل ارتفاع عموده سبعة عشر ذراعا يحيط به أربع سطوح متساويات الاضلاع كل ضلع منها أربعمائة ذراع وستون ذراعا ويرتفع إلى أن يكون سطحه ستة أذرع فى مثلها ويقال إنه كان على أعلاه حجر شبه المكبة فرمته الرياح والعواصف وهو مع هذا العظم من الصنعة واتقان الهندام وحسن التقدير بحيث لم يتأثر إلى الآن بعصف الرياح وهطل السحاب وزعزعة الزلازل وهذا البناء ليس بين حجارته منابر البلدان المشهورة الكعبة فوق المحراب وسائر الاقاليم يمنة ويسرة وما فى البلدان من الاشجار الحسنة المثمرة والمزهرة وغير ذلك وسقفه مقرنس بالذهب والسلاسل المعلقة فيه من ذهب وفضة وأنوار الشمع فى أماكن متفرقة قالوا وكان فى محراب الصحابة منه حجر من بلور ويقال حجر من جوهر وهى الدرة وكانت تسمى القليلة وكان اذا طفئت القناديل تضيء لمن هنالك بنورها فلما كان زمن الامين بن الرشيد وكان يحب البلور بعث إلى سليمان والى شرطة دمشق أن يبعث بها إليه فسرقها وسيرها إلى الامين فلما ولى المأمون أرسل بها إلى دمشق ليشنع بذلك على الامين، قال الحافظ ابن عساكر ثم ذهبت بعد ذلك فجعل مكانها برنية من زجاج وقد رأيت تلك البرنية ثم انكسرت بعد ذلك فلم يجعل مكانها شيء وكانت الابواب الشارعة من الداخل إلى الصحن ليس عليها أغلاق وإنما عليها الستور مرخاة وكذلك الستور على سائر جدراته إلى حد الكرمة التى فوقها الفصوص المذهبة ورءوس الاعمدة مطلية بالذهب الكثير وعملوا له شرافات تحيط به وبنى الوليد المنارة الشمالية فيه التى يقال لها مأذنة العروس فأما الشرقية والغربية فكانتا قبل ذلك بدهور متطاولة وقد كان فى كل زاوية من هذا المعبد صومعة شاهقة جدا بنتها اليونان للرصد فسقطت وبقيت القبليتان إلى الآن وقد احترق بعض الشرقية بعد

الاربعين وسبعمائة ونقضت وجدد بناؤها من أموال النصارى حيث اتهموا بحريقها فقامت على أحسن الاشكال بيضاء بذاتها والله أعلم، الشرقية التى ينزل عليها عيسى ابن مريم فى آخر الزمان بعد خروج الدجال كما ثبت فى صحيح مسلم عن النواس بن سمعان والمقصود أن الجامع الاموى لما اكمل بناؤه لم يكن على وجه الارض أحسن بناء منه ولا أبهى ولا أجل منه بحيث اذا نظر الناظر فى أى جهة منه أو إلى بقعة أو إلى مكان منه تحير فيما ينظر إليه لحسنه جميعه وكانت فيه طلسمات من أيام اليونان فلا يدخل هذه البقعة شىء من الحشرات بالكلية لا من الحيات ولا من العقارب ولا الخنافس ولا العناكب ويقال ولا العصافير أيضًا تعشش فيه ولا الحمام ولا شىء مما يتأذى به الناس واكثر هذه طلسمات أو كلها كانت مودعة فى سقف الجامع مما يلى السبع فاحترقت لما وقع فيه الحريق وكان ذلك ليلة النصف من شعبان بعد العصر من سنة احدى وستين وأربعمائة وما زال سليمان بن عبد الملك فى تكميله وزيادته مدة ولايته وجددت له فيه المقصورة رحمه الله فلما ولى عمر بن عبد العزيز عزم على أن يحرد ما فيه من الذهب ويقلع السلاسل والرخام والسقوف ويرد ذلك كله إلى بيت المال ويطين ذلك كله فشق ذلك على أهل البلد واجتمع أشرافهم إليه وقال خالد بن عبد الله القشيرى أنا أكمله لكم فلما اجتمعوا قال خالد: يا أمير المؤمنين بلغنا أنك تريد أنك تصنع كذا وكذا قال نعم قال خالد ليس ذلك لك يا أمير المؤمنين قال ولم يا بن الكافرة ـ وكانت أمه نصرانية رومية ـ فقال يا أمير المؤمنين ان كانت كافرة فقد ولدت رجلا مؤمنا قال صدقت واستحى عمر، قال فلم قلت ذلك قال يا أمير المؤمنين لان غالب ما فيه من الرخام إنما حمله المسلمون من أموالهم من سائر الاقاليم وليس هو من بيت المال فأطرق عمر رحمه الله قالوا واتفق فى ذلك الزمان قدوم جماعة من الروم رسلا من عند ملكهم فلما دخلوا من باب البريد وانتهوا إلى الباب الكبير الذى تحت النسر فلما رأوا ذلك النور الباهر والزخرفة التى لم يسمع بمثلها صعق كبيرهم مغشيا عليه فحملوه إلى منزلهم فبقى أياما مدنفا فلما تماثل سألوه عما عرض له فقال ما كنت أظن أن تبنى المسلمون مثل هذا البناء وكنت أعتقد أن مدتهم تكون أقصر من هذا فلما بلغ ذلك عمر بن عبد العزيز قال وان هذا ليغيظ الكفار دعوه.

والمقصود أن الجامع الاموى كان حين تكامل بناؤه وليس له فى الدنيا نظير فى حسنه وبهجته قال الفرزدق أهل دمشق فى بلدهم قصر من قصور الجنة يعنى به الجامع الاموى.

وقال أحمد بن أبى الحوارى عن الوليد بن أبى مسلم عن أبى ثوبان ما ينبغى أن يكون أحد أشد تشوقا إلى الجنة من أهل دمشق لما يرون من حسن مسجدها ولما دخل المهدى أمير المؤمنين العباسى دمشق يريد زيارة بيت المقدس فنظر إلى جامع دمشق قال لكاتبه أبى عبد الله الاشعرى سبقنا بنو أمية بثلاثة بهذا المسجد لا أعلم على ظهر الارض مثله وبنيل الموالى وبعمر بن عبد العزيز لا يكون فينا والله مثله أبدا ثم لما أتى بيت المقدس فنظر إلى الصخرة وكان الوليد بن عبد الملك بناها فقال لكاتبه وهذا أربعة أيضًا ولما دخل المأمون دمشق نظر إلى جامعها وكان معه أخوه المعتصم وقاضيه يحيى بن أكتم قال ما أعجب ما فيه فقال أخوه هذا الادهان التى فيه وقال ابن أكتم الرخام وهذه العقد فقال المأمون إنما أعجب من بنيانه على غير مثال متقدم وقال المأمون لقاسم التمار أخبرنى اسما حسنا أسمى به جاريتى هذه فقال سمها مسجد دمشق فإنه أحسن من كل شىء وقال عبد الرحمن بن الحكيم عن الشافعى عجائب الدنيا خمسة أحدها منارتكم هذه يعنى منارة ذى القرنين التى بالاسكندرية والثانية أصحاب الرقيم وهى بالروم اثنا عشر رجلا أو ثلاثة عشر رجلا والثالثة مرآة بباب الاندلس على باب مدينتها يجلس الرجل تحتها فينظر فيها صاحبه من مسافة مائة فرسخ والرابع مسجد دمشق وما يوصف من الاتقان عليه والخامس من الرخام والقيقسا فإنه لا يدرى له موضع ويقال إن الرخام معجون والدليل على ذلك أنه مذوب على النار قال الحافظ ابن عساكر وذكر إبراهيم بن أبى الليث الكاتب وكان قدم دمشق سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة فى رسالة قال أمرنا بالانتقال إلى البلد فانتقلت منه إلى بلد تمت محاسنه ووافق ظاهره باطنه أزقته أرجه وشوارعه فرجه فحيثما مشيت شممت طيبا وأين سعيت رأيت منظرا عجيبا وأمضيت إلى جامعه فشاهدت منه ما ليس فى استطاعة الواصف أن يصفه ولا الرائى أن يعرفه وجملته أنه بكر الدهر ونادرة الوقت وأعجوبة الزمان وغريب الاوقات ولقد أبقنت به ذكرا يدرس وجليت به أمرا لا يخفى ولا يدرس.

ومما قيل فى الساعات قال القاضى عبد الله بن أحمد بن زين إنما سمى باب الجامع القبلى باب الساعات لأنه كان عمل هناك بلكار الساعات يعلم بها كل ساعة تمضى من النهار عليها عصافير من نحاس وحية من نحاس وغراب فإذا تمت الساعة خرجت الحية فصفرت العصافير وصاح الغراب وسقطت حصاة فى الطست.

قلت هذا الكلام على أحد شيئين إما أن الساعات كانت فى الباب القبلى من الجامع

وهو باب يسمى بباب الزيادة اليوم ولكن قد قيل إنه محدث بعد الجامع وهو لا ينفى أن الساعات كانت عنده فى زمن القاضى ابن زبر وإما أنه قد كان فى الجانب الشرقى من الجامع فى حائطه القبلى فى باب آخر فى محاذاة باب الزيادة وعنده الساعات ثم نقلت بعد هذا كله إلى باب الوراقين اليوم وهو باب الجامع من الشرق والله أعلم.

وأما القبة التى فى وسط الجامع التى فيها الماء الجارى ويقال لها قبة أبى نواس فكان بناؤها فى سنة تسع وستين وثلاثمائة أرخه الحافظ ابن عساكر عن خط بعض الدماشقة.

وأما القبة الغربية التى فى وسط الجامع التى يقال لها قبة عائشة فسمعت شيخنا أبا عبد الله الذهبى يقول إنها بنيت فى حدود سنة ستين ومائة فى أيام المهدى بن المنصور العباسى وجعلوها لحواصل الجامع وكتب أوقافه.

وأما القبة الشرقية التى على باب مشهد فقال بنيت على زمن الحاكم العبيدى فى حدود سنة أربعمائة.

وأما الفوارة التى تحت درج جيرون عملها الشريف فخر الدولة أبو يعلى حمزة بن الحسين العباسى الحسينى وكأنه كان ناظر الجامع وجر اليها قطعة من حجر كبير من قصر حجاج وأجرى فيها الماء ليلة الجمعة لسبع خلون من ربيع الأول سنة سبعة عشر وأربعمائة وعمل حولها قناطر وعقد عليها قبة ثم سقطت القبة بسبب جمال احتكت فيها وذلك فى صفر من سنة سبع وخمسين وأربعمائة فأعيدت ثم سقطت عمدها وما عليها فى حريق اللبادين ودار الحجارة فى شوال سنة اثنين وستين وذكر ذلك كله الحافظ ابن عساكر.

قلت وأما القصعة التى كانت فى الفوارة فما زالت فى وسطها وقد أدركتها كذلك ثم رفعت بعد ذلك وكان بطهارة جيرون قصعة أخرى مثلها فلم تزل بها ثم لما انهدمت اللبادين بسبب حريق النصارى فى سنة احدى وأربعين وسبعمائة استوثق بناء الطهارة على أحسن مما كانت وذهبت تلك القصعة فلم يبق لها أثر وعمل الشاذروان الذى هو شرقى الفوارة بعد الخمسمائة أظنه سنة أربع عشرة وخمسمائة.

فصل: وكان ابتداء عمارته فى أواخر عام سنة ست وثمانين وهدمت الكنيسة فى ذى القعدة منها فلما فرغوا من الهدم شرعوا فى البناء وتكامل فى عشر سنين فكان فى هذه السنة أعنى سنة ست وتسعين ووضع العمودان اللذان فى صحن الجامع لاجل التنوير فى ليالى الجمع فى شهر رمضان سنة احدى وأربعين وأربعمائة بأمر قاضى البلد أبى محمد فيما

ذكره بنو عساكر فى بعض تواريخهم نقلت هذه الترجمة فى بناء جامع دمشق من تاريخ الحافظ عماد الدين بن كثير الذى اسماه البداية والنهاية.

ومن المستحسن مما قيل فيه قول الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله تعالى:

يا حسن ترخيم بجامع جلق متناسب التركيب والتقسيم
بزيادة التحسين خالف قول من قد قال ان النقص فى الترخيم

غيره:

أرى الحسن مجموعا بجامع جلق وفى صدره معنى الملاحة مشروح
فإن يتغالى فى الزيادة معشر فقل لهم باب الزيادة مفتوح

وقال بعضهم:

دمشق لها منظر رائق وكل إلى حسنها تائق
وكيف يقاس بها بلدة أبى الله والمسجد الفارق

قلت: أحسن منه قول من قال:

إنى أدل على دمشق وطيبها من حسن وصفى بالدليل القاطع
جمعت جميع محاسن فى غيرها والفرق بينهما بنفس الجامع

وما أحسن قول الشيخ برهان الدين القيراطى:

دمشق فى الحسن لها منصب عال وقدر فى الورى شائع
فحد من قاس بها غيرها وقل له ذا الجامع المانع

ذكر أبو الفرج الاصفهانى قال حدثنى بذلك جماعة منهم أبو عثمان يحيى بن عمر قال قرأت فى بعض الدواوين أن المتوكل أنفق على أبنيته وقصوره والمسجد الجامع ومنتزهاته فى خلاوته يسر من رأى وأعمالها من الاموال ما لا يعلم أن أحدا أنفق على بناء مثله ومبلغ ذلك من العين مائة ألف وخمسين ألف دينار ومن الدراهم مائتى ألف ألف وثلاثة وتسعون ألف ألف وخمسين ألف درهم من ذلك القلايا مائة ألف وخمسون ألف دينار العروس ثلاثون ألف ألف درهم الشاة عشرون ألف درهم البرج ثلاثون ألف ألف درهم البركة ألفا ألف درهم الجوسق الابراهيمى ألفا ألف المختار خمسة آلاف ألف الجعفرى ثلاثة وعشرون ألف ألف البديع عشرة آلاف ألف المليح خمسة آلاف ألف الصبيح خمسة آلاف ألف التل خمسة آلاف ألف الجوسق فى الميدان خمسمائة ألف بركوازاء عشرون ألف ألف المسجد

الجامع خمسة عشر ألف ألف الغراء بدجلة ألف ألف القصر بالمتوكلية خمسة عشر ألف ألف لؤلؤة خمسة آلاف ألف النهر بالمتوكلية خمسون ألف ألف وبنى المعتز بعد ذلك البيت المعروف بالكامل ولم أعرف مبلغ النفقة عليه وبنى المعتمد المعشوق والبيتين المعروفين بالفتح والبهج.

كتب الشيخ جمال الدين ابن نباتة إلى الجناب القطبى بن شيخ السلامية يصف: يقبل الارض ويسأل الله تعالى أن يديم أيام مولانا التى غفرت ذنوب الايام والليالى وعمرت الوجود بما سمع عن أهل العصور الخوالى وينهى أنه سطر هذه الخدمة وقد ترادفت عليه معانى الشكر فلم يدر ما يذكره ولا ما يحصيه ويحضره إلى أن ألقى السلاح وغض الجماح وأنشد:

تعالى عن المداح قدرك رتبة   فاقصارهم عن مدحه غاية المدح

هذا على أنه الآن فى نشو سكره وذهول فكره باستجلاء هذه المنازل كل شمال فيها شمول لابل الرياح الاربع على أرجائها قبول فهى الجنة وثناء مولانا مسكها الارج والهالة وأوصافه بدرها المبتلج والدنيا إلا أنها المحبوبة من العيش النضر ومحلة موسى وكل غصن من أغصانها الخضر ما شئت من صدحات مسجوعة وبيوت معمورة وسقف مرفوعة وثمرات كثمرات الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة وعقود على أجياد القضب من الازاهير وسوق أشجار على نهر كأنه صرح ممرد من قوارير وكل دوحة تنحفر كما تنحفر العذراء ومرجة هى نفس اللذة بدليل أن النفس خضراء وجداول تتلوى فى الروض تلوى الاراقم فى الصعيد وأبكار وورد كما أشارت شفاه الملاح بالبقل من بعيد راواوين كأنما طارت إلى الافق بأجنحتها وشبابيك كأنما أصابت القلوب من فتكات الهم بحديد أسلحتها وشرافات دلت على همة الأمن بمبانيها وعلت حتى كأن الثريا عقدت على تراقيها وتجرى ماء ترق بمحواتها القلوب الجافية ولا عيب فيها الا النسيم الواشى والعين الصافية قد مرج الله تعالى بهما البحرين يلتقيان وأخرج منهما فى أعطاف الغصون اللؤلؤ والمرجان ولو أخذ المملوك فى وصف المحاسن المبدعة والاصول المتفرعة لكاثر غصونها بأقلامه وأزهارها بنثاره ونظامه ولا بلغ معشارها ولا حدث بأخبارها ولكن ليس فيها ما يقال له كملت لو أن ذا كملا فجعلها الله أول منازل نعيم مولانا المستمر وعمر ببقائه أرجاها التى ينعم الامل ويعتمر بمنه وكرمه.

صلاح الدين الصفدى مضمنا:

تقول دمشق اذ تفاخر غيرها بجامعها الزاهى البديع المشيد
جرى للتهانى حسنه كل جامع وما قصبات السبق الا لمعبد

وضعف الحال وضيقه على الناس ثم لما توفى ﷺ بعث الصديق الجيوش قبل الشام وإلى العراق كما تقدم فى كتابنا هذا ولله الحمد والمنة ففتح الله على المسلمين الشام بكمالها ومن ذلك مدينة دمشق باعمالها، كتب أمير الجيوش اذ ذاك وهو أبو عبيدة وقيل خالد بن الوليد لهم كتاب أمان وأقروا أيدى النصارى على أربع عشرة كنيسة كما ذكرنا وأخذوا منهم نصف هذه الكنيسة التى كانوا يسمونها كنيسة مرتحيا بحكم ان البلد فتحه خالد من الباب الشرقى بالسيف وأخذت النصارى الامان من أبى عبيدة وهو على باب الجابية بالصلح فاختلفوا ثم اتفقوا على أن جعلوا نصف المسجد صلحا ونصفه الآخر عنوة فأخذوا نصف هذه الكنيسة الشرقى فجعله أبو عبيدة مسجدا وكان قد صارت له امرة الشام فكان أول من صلى فى هذا المسجد أبو عبيدة رضي الله عنه ثم الصحابة بعده فى البقعة التى يقال لها محراب الصحابة ولكن لم يكن الجدار مفتوقا بمحراب محنى وإنما كانوا يصلون عند هذه البقعة المباركة والظاهر ان الوليد هو الذى فتق المحاريب فى الجدار القبلى وكان المسلمون والنصارى يدخلون من باب واحد وهو باب المعبد الاعلى الذى كان من جهة القبلة مكان المحراب الكبير اليوم فتنصرف النصارى إلى جهة المغرب إلى كنيستهم ويأخذون المسلمون يمينه إلى مسجدهم ولا يستطيع النصارى أن يجهروا بقراءة كتابهم ولا يضربوا بناقوسهم اجلالا للصحابة ومهابة وخوفا وقد بنى معاوية رضي الله عنه فى أيامه على الشام داراً للامارة قبلى المسجد الذى كان للصحابة وبنى فيها قبة خضراء فعرفت الدار بكمالها بهاء فسكنها معاوية أربعين سنة كما قدمنا ثم لم يزل الامر كما ذكرنا من سنة أربع عشرة إلى سنة ست وثمانين فى ذى القعدة منها وقد صارت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك فى شوال منها فعزم على أخذ بقية الكنيسة واضافتها إلى ما بأيدى المسلمين منها وجعل الجميع مسجدا واحدا وذلك لتأذى بعض المسلمين بسماع قراءة النصارى الانجيل ورفع أصواتهم فى صلواتهم فأحب أن يبعدهم عن المسلمين ويضيف ذلك المكان إلى هذا المسجد الجامع فطلب النصارى وسألهم أن يخرجوا عن هذا المكان ويعوضهم منه اقطاعات كثيرة عرضها عليهم وأن يقر لهم أربع كنائس لم تدخل فى العهدة وهى كنيسة

مريم وكنيسة المصلبة داخل باب شرقى وكنيسة تل الحين وكنيسة حميد بن درة التى بدرب الصقيل فأبوا ذلك أشد الاباء فقال ائتونا بعهدكم الذى بأيديكم فاتوا بعهدهم الذى بأيدهم فى زمن الصحابة فقرئ بحضرة الوليد فإذا كنيسة توما التى خارج باب توما عند النهر لم تدخل فى العهدة وكانت فيما يقال أكبر من كنيسة مرتحيا فقال أنا أهدمها وأجعلها مسجدا فقالوا يتركها أمير المؤمنين وما ذكر من الكنائس ونحن نرضى بأخذ بقية هذه الكنيسة فأقرهم على تلك الكنائس وأخذ بقية هذه الكنيسة ويقال غير ذلك والله أعلم، ثم أمر أمير المؤمنين باحضار الآلات للهدم واجتمع إليه الامراء والكبراء من رءوس الناس وجاءت أساقفة النصارى وقساقسهم قالوا يا أمير المؤمنين إنا نجد فى كتبنا أن من يهدم هذه الكنيسة يجن فقال أنا أحب أن أجن فى الله والله لا يهدم فيها أحد قبلى ثم صعد المنارة الشرقية ذات الاضالع المعروفة بالساعات وكانت صومعة فإذا راهب فأمره بالنزول منها فاكبر الراهب ذلك قال فأخذ الوليد بقفاه ولم يزل يدفعه حتى أحدره منها ثم صعد الوليد على أعلا مكان فى الكنيسة فوق المذبح الاكبر منها الشاهد وأخذ أذيال قبائه وكان لونه أصفر سفرجليا فغرزها فى المنطقة ثم أخذ فأسا فى يده فضرب فى أعلاه حجرا فألقاه وتبادر الأمراء إلى الهدم وكبر المسلمون ثلاث تكبيرات وصرخت النصارى بالعويل على درج جيرون وقد اجتمعوا هنالك فأمر الوليد أمير الشرطة وهو أبو نائل رباح الغسانى أن يضربهم حتى يذهبوا من هنالك ففعل ذلك وأمر نائبه على الخراج يزيد بن تميم بن حجر السلمى باحضار اليهود ليساعدوا فى هدم الكنيسة فجاءوا فكانوا كالفعلة ذكره الحافظ ابن عساكر فى ترجمة يزيد بن تميم هذا فهدم المسلمون واليهود والوليد جميع ما جددته النصارى فى تربيع هذا المكان من المذابح والابنية والحنايا حتى بقى صرحة مربعة ثم شرع فى بنائه بفكرة جيدة على الصفة الحسنة الأنيقة التى لم يشهد مثلها قبلها على ما سنذكره ونشير إليه وقد استعمل الوليد فى بناء هذا المسجد خلقا كثيرا من الصناع والمهندسين والفعلة وكان المستحث على عمارته أخوه بعده وولى عهده من بعده سليمان بن عبد الملك ويقال ان الوليد بعث إلى ملك الروم يطلب منه صناعا فى الرخام وغير ذلك ليعمروا هذا المسجد على ما يريد وأرسل يتوعده لئن لم يفعل ليغزون بلاده بالجيوش وليخربن كل كنيسة فى بلاده حتى كنيسة القدس وكنيسة الرها وسائر آثار الروم فبعث الملك صناعا كثيرة جدا وكتب اليه يقول له إن كان أبوه فهم هذا الذى تصنعه وتركه فإنه لوصمة عليك وإن لم يكن فهمه

وفهمته أنت فإنه لوصمة عليك فلما وصل ذلك إلى الوليد أراد أن يجيب عن ذلك واجتمع الناس عنده وكان فيهم الفرزدق الشاعر فقال أنا أجيبه يا أمير المؤمنين من كتاب الله قال وما هو ويحك قال قوله تعالى: ﴿ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما﴾(١) فأعجب ذلك الوليد فأرسل به جوابا لملك الروم ولما أراد الوليد بناء القبة التى فى وسط الرواقات عن يمينها وشمالها كالاجنحة لها حفروا لاركانها حتى وصلوا إلى الماء وشربوا منه عذبا زلالا ثم انهم وضعوا فيه جرار الكرم وبنوا فوقه بالحجارة فلما ارتفعت الاركان بنوا عليها القبة فسقطت فقال الوليد لبعض المهندسين آمر لك أن تبن لى هذه القبة فقال على أن تعطينى عهد الله وميثاقه أن لا يبنيها أحد غيرى ففعل فبنى الاركان ثم غلفها بالبوارى وغاب سنة كاملة لا يدرى الوليد أين ذهب فلما كان بعد السنة حضر فهم الوليد به فأخذه ومعه رءوس الناس فكشف البوارى عن الاركان فإذا هى قد هبطت بعد ارتفاعها حتى ساوت الارض فقال له من هذا أبيت ثم بناها فانعقدت وقال بعضهم أراد الوليد أن يجعل بيضة القبة من ذهب خالص ليعظم بذلك شأن المسجد فقال له المعمار انك لا تقدر على ذلك فضربه خمسين صوتا وقال ويلك أنا أعجز عن ذلك قال نعم قال فبينا ذلك فأمر فأحضر من الذهب ما سبك منه لبنة فإذا هى قد دخلها ألوف من الذهب فقال يا أمير المؤمنين أنا أريد من هذا كذا وكذا ألف لبنة فإن كان عندك ما يكفى ذلك عملناه فلما تحقق الوليد صحة قوله أطلق له خمسين دينارا ولما سقف الوليد الجامع جعل لسقفه جملونات وباطنها مسطح مقرنص بالذهب فقال له بعض أهله أتعبت الناس بعدك فى تطيين هذا المسجد كل عام فأمر الوليد أن يجمع ما فى بلاده من الرصاص ليجعل عوض الطين ويكون أخف على السقف فجمع من كل ناحية من الشام وغيره من الاقاليم فعازوا فاذا عند امرأة منه قناطير مقنطرة فساوموها فيه فأبت أن تبيعه إلا بوزنه فضة فكتبوا إلى أمير المؤمنين بذلك فقال اشتروه منها ولو بزنته فلما بدا لها ذلك قالت أما إذا قلتم ذلك فهو صدقة لله تعالى يكون فى سقف هذا المسجد فكتبوا على ألواحها بطابع لله ويقال إنها كانت اسرائيلية وأنه كتب على الالواح التى أخذت منها الذى أعطتهم الاسرائيلية وقال محمد بن عائد سمعت المشايخ يقولون ما تم المسجد بدمشق الا باداء الامانة لقد كان يفضل عند الرجل من القرمة يعنون الفعلة الفلس ورأس المسمار فيجىء حتى يضعه فى الخزانة وقال بعض المشايخ بدمشق ليس بالجامع من

---

(١) الآية: ٧٩ من سورة الأنبياء.

الرخام شيء الا الرخامتان اللتان فى المقام من عرش بلقيس والباقى مرمر وقال بعضهم اشترى الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين العامودين الاخضرين اللذين تحت النسر من حره بن خالد بن معاوية بألف وخمسمائة دينار وقال دحيم عن الوليد بن مسلم حدثنا مروان ابن جناح عن أبيه قال كان فى مسجد دمشق اثنا عشر ألف مرخم وقال أبو قصى عن دحيم عن الوليد بن مسلم عن عمرو بن مهاجر الانصارى أنهم حسبوا ما أنفق على الكرمة التى فى قبلة المسجد فإذا هو سبعون ألف دينار وقال أبو قصى انفق فى مسجد دمشق أربعمائة صندوق فى كل صندوق أربعة عشر ألف دينار، قلت وذلك خمسة آلاف ألف دينار وستمائة ألف دينار وفى رواية فى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار.

قلت: فعلى هذا يكون المصروف فى عمارة الجامع الاموى أحد عشر ألف ألف دينار ومائتى ألف دينار، والله أعلم.

قال أبو قصى وأتى الحرس إلى الوليد بن عبد الملك فقالوا يا أمير المؤمنين إن الناس يقولون أنفق الوليد أموال بيت المال فى غير حقها فنودى فى الناس الصلاة جامعة فصعد المنبر وقال إنه بلغنى عنكم كذا وكذا ثم قال عمرو بن مهاجر قم فأحضر أموال بيت المال فحملت على البغال وبسطت على الانطباع تحت القبة وفرغ عليها المال ذهبا وفضة حتى كان الرجل لا يرى الآخر من الجانب الآخر وجيء بالقبانيين وقبنت فإذا هى تكفى الناس ثلاث سنين مستقبلة وفى رواية ستة عشر سنة مستقبلة لو لم يدخل للناس فيه شيء بالكلية ففرح الناس وكبروا وحمدوا الله عز وجل على ذلك ثم قال الخليفة يا أهل دمشق انكم تفتخرون على الناس بأربع بهوائكم ومائكم وفاكهتكم وحماماتكم فأحببت أن أزيدكم خامسة وهى هذا الجامع فحمدوا الله وانصرفوا شاكرين وذكروا أن أرضه كانت مفصصة كلها والرخام فى جدرانه إلى قامات وفوق ذلك كرمة عظمية من ذهب وفوقها الفصوص المذهبة والخضر والحمر والزرق والبيض قد صور بها ملاط ولا يتخلل بينهما الشعر وطول الحجر منه خمسة أذرع فى سمك ذراعين ويقال إن بانيها جعل لها أبوابا على ازاج مبنية بالحجارة فى الأرض طول كل أزج عشرون ذراعا كل باب من حجر واحد يدور بلولب اذا طبق لم يعلم أنه باب والازج الشرقى فى ناحية الجنوب والازج الغربى فى ناحية المغرب يدخل من كل باب منها إلى سبعة بيوت كل بيت منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة وكلها مقفلة بأقفال وحذاء كل بيت صنم من ذهب مجوف احدى يديه

على فيه وفى جبهته كتابة بالقلم المسند اذا قرئت انفتح فوه فيوجد فيه مفتاح ذلك القفل فيفتح به والقبط تزعم أنها والهزم الصغير الملون قبور فالهرم الشرقى فيه سوندير الملك والهرم الغربى فيه أخوه هرجيب والهرم الملون قبر صاب بن هرمس واليه ينسبون على قول من زعم ذلك وهم يحجون إليها ويذبحون عندها الديكة ويزعمون أنهم يعرفون عند اضطرابها عند الذبح ما يريدون به من الامور المغيبة ولم تزل همم الملوك قاصرة عن أن تعرف ما هذين الهرمين إلى أن ولى المأمون وورد مصر وأمر بفتح واحد منها ففتح بعد عناء طويل وأنفق بسعادته المعينة له على تحصيل غرضه إلى أن فتح مكانا يسلك منه إلى الغرض المطلوب وهو زلاقة ضيقة من الحجارة الصوان المانع الذى لا يعمل فيه الحديد بين حاجزين ملتصقين فى الحائط قد نقرا فى الزلاقة لئلا تزلق وأسفل الزلاقة بئر عظيمة بعيدة القعر ويقال إن أسفل البئر ايوانا يدخل منه إلى مواضع كثيرة وبيوت ومخادع وعجائب وانتهى بهم الطريق إلى مواضع مربع فى وسطه حوض من رخام مغطى فلما أزيل عنه غطاؤه لم يوجد فيه الا رمة بالية قد أتت عليه العصور الخالية فأمر المأمون بالكف عما سواه.

رأى بعض الفضلاء هذه الاهرام فقال كل بناء أخاف عليه من الدهر الا هذا البناء فانى أخاف على الدهر منه.

ومما قيل فيه من الشعر قول الفقيه عمارة اليمنى:

خليلى ما تحت السماء أبنية تماثل فى اتقانها هرمى مصر
بناء يخاف الدهر منه وكلما على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر

وبالقرب من الاهرام صنم على صورة وجه انسان تسميه العامة أبو الهول لعظمه ويقال ان اسمه بالقبطية بلهونه ويقال بلهيب وتزعم القبط أنه طلسم للرمل لئلا يغلب على أرض الجزيرة وعنده أحقاف من الرمال كأنها الجبال مما يلى الطين الابليز.

ومن العجائب منارة اسكندرية وهى مبنية بحجارة مهندسة مضببة بالرصاص على قناطر من زجاج والقناطر على ظهر سرطان من نحاس فيها نحو من ثلثمائة بيت تصعد الدابة بحملها إلى سائر البيوت من داخلها وللبيوت طاقات ينظر منها إلى البحر وبين أهل التاريخ خلاف فيمن بناها فزعم قوم أنها من بناء الاسكندر بن فيلبس المقدونى وزعم آخرون أنها من بناء دلوكاء ملكة مصر ويقال انه كان على جانبه الشرقى كتابة وأنها نقلت

فوجدت بنت هذه المنظرة قرثباء بنت مرسوس اليونانية لترصد الكواكب ويقال ان طولها كان ألف ذراع وفى أعلاها تماثيل من نحاس منها تمثال قد أشار بسبابته اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك يدور معها حيثما دارت ومنها تمثال وجهه إلى البحر متى صار العدو منهم على نحو من ليلة سمع له صوت هائل تعلم به أهل المدينة طروق العدو ومنها تمثال كلما مضى من الليل ساعة صوت صوتا مطربا ويقال انه كان بأعلاها مرآة يرى منها قسطنطينية وبينهما عرض البحر وكلما جهز الروم جيشا رؤى فيها.

وحكى المسعودى أن هذه المنارة كانت فى وسط الاسكندرية وأنها تعد من بنيان العالم العجيب بناها بعض البطالمة من ملوك اليونان بعد الاسكندرية لما كان بينهم وبين الروم من الحرب فى البر والبحر فجعلوا هذه المنارة مرقبا وجعلوا فى أعاليها مرآة من الاحجار المشفة فيكشف بها مراكب العدو اذا أقبلت من رومية على مسافة تعجز الابصار عن ادراكها فاحتال ملك الروم لما انتفع به المسلمون فى مثل ذلك على الوليد بن عبد الملك بأن أنفذ خواصه ومعه جماعة إلى بعض ثغور الشام على أنه راغب فى الاسلام وأخرج كنوزا ودفائن كانت فى الشام ما حمله على أن صدقه أن تحت المنارة أموالا وأسلحة دفنها الاسكندر فجهز معه جماعة إلى الاسكندرية فهدم ثلث المنارة وأزال المرآة ثم فطن الناس أنها مكيدة منه واستشعر ذلك فهرب فى مركب كانت له معدة ثم بنى ما هدم بالجص والآجر ثم قال المسعودى وطول هذه المنارة اليوم فى هذا الوقت الذى وضع فيه هذا الكتاب وهو سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ثلاثون ذراعا وكان طولها قديما نحوا من أربعمائة ذراع وبناؤها فى عصرنا ثلاثة أشكال فقريب من الثلث مربع مبنى بحجارة بيض ثم بعد ذلك مثمن الشكل مبنى بالآجر والجص نحو نيف وستين ذراعا وأعلاها مدور الشكل وكان أحمد بن طولون قد بنى فى أعلاها قبة من الخشب ثم هدمت وبنى مكانها مسجدا فى أيام الملك الكامل صاحب مصر ثم أن وجهها البحرى تداعى وكاد أن ينقض فرمم وأصلح وكذلك الرصيف وذلك فى أيام الملك الظاهر بيبرس رحمه الله.

قلت ذكرت هنا ما أنشدنيه من لفظه لنفسه ومن خطه نقلت المرحوم الوزير فخر الدين ابن مكانس فى صاحبه الشيخ سراج الدين القوصى السكندرى يداعبه:

يا ذا السراج اشترى ايرى فأنت به أولى وذلك للأمر الذى وجبا
سكندرى وتدعى بالسراج وذا مثل المنار إذا ما قام منتصبا

وأنشدنى من لفظه لنفسه سيدنا مولانا المقر المجدى فضل الله ولد المرحوم المشار إليه أولا أدام الله نعمته محاجيا وكتب إلى سيدنا ومولانا أوحد المتكلمين نادرة الدهر المقر الاشرف الامينى كاتب الاسرار الشريفة بدمشق المحروسة أسبغ الله ظلاله:

يا من سمى قدره نحو النجوم علا فأوقع الضد قسراً فى مهالكه
ما بلدة أن تحاجى فى اسمها فطنا مصحفا قلت يشكو مكر مالكه

فكتب إليه الجواب الجناب المشار إليه:

أحجية بديعة أن صحفوا خمسة أجزاء لها على قدر
وعكسوا باقيها وقدموا فإنما هى طفلة كقمر

قلت: هذه الطريقة غريبة جدا ووجه الحل فيها أن يأتى بالمرادف ثم يصحفه فيكون المقصود ومثاله فى قول المقر المجدى يشكو مكر مالكه فإن مرادف يشكو يبث ومرادف مكر كيد ومرادف مالكه ربه فيصير مجموع ذلك يبث كيد ربه فإذا صحفت هذه الكلمات تجدها سكندرية وهى البلدة المعمى بها فافهمه وأما الثانية فقوله فإنما هى طفلة كقمر فالمراد أن مرادف طفلة بنت ومرادف كقمر كبدر فيحصل من ذلك بنت كبدر ثم تضيف إلى ذلك معكوس هى وهويه فإذا صحفت ذلك جميعه وجدته سكندريه وهذا من المعمى الغريب ولم يحلها أحد من متأدبى دمشق والقاهرة غير سيدنا ومولانا أقضى القضاة بدر الدين المخزومى المالكى الشهير بابن الدمامينى أعز الله أحكامه وذلك بتاريخ سنة ست وتسعين وسبعمائة وأنا بالقاهرة المحروسة.

رجعنا إلى ما كنا بصدده ومما قيل فى المنارة من الشعر قول الوجيه الدورى:

وشامية الارجاء تهدى أخا السرى ضياء اذا ما حندس الليل أظلما
لبست بها بردا من الأنس صافيا فكان بتذكار الاحبة معلما
وقد طلبتنى من ذراها بقية ألاحظ فيها من صحابى أنجما
تخيلت أن البحر تحت غمامة وأنى قد خيمت فى كبد السما

وللقاضى الفاضل لوصفه لبناء بيت المقدس من الرخام الذى يطرد ماؤه ولا ينطرد لألاؤه قد لطف الحديد فى تجريعه وتفنن فى توسيعه إلى أن صار الحديد الذى فيه بأس شديد كالذهب الذى فيه نعيم عتيد فما ترى الا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقراق وعمد كالاشجار لها من النبت أوراق.

وقال أبو عبادة البحترى يصف قصرا بناه المتوكل يسر من رأى وسماه الكامل:

غرف من ميادن فيه دنيا يوجب الله فيه أجر الإمام
شوقنا إلى الجنان فزدنا فى اجتناب الذنوب والآثام

وله يصف قصرا آخر بناه المتوكل وسماه الجعفرى:

قد تم حسن الجعفرى ولم يكن ليتم الا بالخليفة جعفر
ملك تبوأ خير دار أسست فى خير بدو للأمام ومحضر
فى خيره مشرفة حصاها لؤلؤ مبيضة والليل ليس بمقمر
رفعت بمنخرق الرياح وجاوزت ظل الغمام الصيب المستعبر

وهذان القصران من جملة قصور بناها المتوكل وهى بركوانا والعروس والبركة والجوسق والمختار والغريب والبديع والصبيح والمليح والقصر والبرج والمتوكلية والقلايا.

حكى المؤرخون أنه أنفق فى بنائها مائتى ألف ألف وأربعة وسبعين ألف ألف درهم ومنها ذهب بصرف الوقت مع ما فيه من العين ثلاثة عشر ألف ألف وخمسمائة ألف وخمسة وعشرون ألف دينار وكان البرج من أحسنها وكانت فيه صور عظيمة من الذهب والفضة وبركة عظيمة غشى ظاهرها وباطنها بصفايح الفضة وجعل عليها شجرة ذهب فيها كل طائر يصوت ويصفر سماه طوبى بلغت النفقة على هذا القصر ألف ألف وستمائة ألف دينار.

ومن المبانى العظيمة جامع دمشق ذكر الشيخ عماد الدين بن كثير فى تاريخه البداية والنهاية وفى سنة ست وتسعين من الهجرة تكامل بناء الجامع الاموى بدمشق المحروسة على يد بانيه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان جزاه الله عن المسلمين خيرا وكان أصل موضع الجامع قديما معبدا بنته اليونان والكلدانيون الذين كانوا يعمرون دمشق وهم وضعوها أول ما بنيت وقد كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيزة وكانت أبواب دمشق سبعة وهى القمر الذى فى سماء الدنيا وعطارد فى السماء الثانية والزهرة فى الثالثة والشمس فى الرابعة والمريخ فى الخامسة والمشترى فى السادسة وزحل فى السابعة وكانوا قد صوروا على كل باب من أبواب دمشق هيكلا للكوكب من هذه الكواكب السبعة وكانت أبواب دمشق سبعة وضعوها قصدا لذلك وكان لهم عند كل باب عيد فى السنة وهؤلاء هم الذين وضعوا الارصاد وتكلموا على حركات الكواكب واتصالاتها ومقارناتها وبنوا دمشق

واختاروا لها هذه البقعة إلى جانب الماء الوارد بين هذين الجبلين وصرفوه أنهارا تجرى إلى الاماكن المرتفعة والمنخفضة وسلكوا الماء اليها فى أفنية الدور وبنوا هذا المعبد وكانوا يصلون إلى القطب الشمالى فكانت محاريته تجاه الشمال وبابه يفتح إلى جهة القبلة خلف المحراب اليوم كما شاهدنا ذلك عيانا وهو باب حسن من الحجارة المنحوتة وعن يمينه ويساره بابان صغيران بالنسبة إليه وكان غربى المعبد قصر منيف جدا تحمله هذه الاعمدة التى بباب البريد وشرقيه قصر حيزون داران يكونان لمن تملك دمشق قديما ويقال إنه كان مع المعبد ثلاث دور عظيمة يحيط بالجميع سور واحد وهى دار المطبخ ودار الخيل ودار كانت تكون مكان الخضر التى بناها معاوية.

قال الحافظ ابن عساكر فيما حكاه عن كتب بعض الاوائل انهم مكثوا يأخذون الطالع لبناء هذه الاماكن ثمانى عشرة سنة وقد حفروا أساس الجدران حتى أتاهم الوقت الذى طلع فيه الكوكبان اللذان أرادوا أن المسجد لا يخرب أبدا ولا يخلو من العبادة، قال كعب الاحبار وان هذه الدار اذا بنيت لا تخلو من أن تكون دار التملك والسلطنة قال الشيخ أما المعبد فلم يخل من العبادة قال كعب الاحبار ولا يخلو حتى تقوم الساعة والمقصود ان اليونان استمروا على هذه الصفة التى ذكرنا بدمشق مدداً طويلة تزيد على أربعة آلاف سنة حتى انه يقال ان أول من بنى جدران هذا الجامع الاربعة هود عليه السلام وقد كان هود قبل إبراهيم الخليل بمدة طويلة وقد ورد ابراهيم عليه السلام شمالى دمشق عند برزة وقاتل قوما من أعدائه فظفر بهم وكان مقامه لمقاتلتهم عند برزة وهذا المكان المنسوب اليه بها منصوص عليه فى الكتب المتقدمة وكانت دمشق اذ ذاك عامرة آهلة بمن فيها من اليونان وهم خصماء الخليل وقد ناظرهم الخليل فى غير موضع فى عبادتهم الكواكب كما قررنا ذلك فى التفسير وفى قصة ابراهيم الخليل عليه السلام والمقصود ان اليونان لم يزالوا يعمرون دمشق ويبنون فيها وفى معاملاتها من حوران وغيرها البنايات الغريبة العجيبة حتى كان بعد المسيح عليه السلام بمدة نحو من ثلاثمائة سنة فتنصرت أهل الشام على يد قنيطين بن قسطنطين الذى بنى المدينة المشهورة فى بلاد الروم وهو الذى وضع لهم القرابين ووضعت بتاركة النصارى له دينا مخترعا مركبا من أصل دين النصرانية ممزوجا بشىء من عبدة الاوثان وصلوا إلى المشرق وزادوا فى الصيام وأحلوا الخنزير وعلموا أولادهم الامانة الكبيرة فيما يزعمون وهى فى الحقيقة خيانة كبيرة وقد تكلمنا على ذلك فيما سلف وبناء

وبنى لهم هذا الملك الذى تنسب إليه الطائفة الملكية منهم كنائس كثيرة بدمشق وغيرها حتى يقال انه بنى فى زمانه اثنتى عشر ألف كنيسة من ذلك كنيسة بنت نجم ومن ذلك قمامه بنتها أمة هيلانة الفندقانية والمقصود أنهم حولوا بناء هذا المعبد الذى هو بدمشق معظما عند اليونان فجعلوه كنيسة وبنوا له المذابح فى شرقية وسموها كنيسة مرتحبا ومنهم من يقول كنيسة يوحنا وبنوا بدمشق كنائس غيرها مستأنفة واستمر النصارى على دينهم هذا بدمشق وغيرها نحو ثلاثمائة سنة حتى بعث الله محمداً ﷺ وكان من شأنه ﷺ ما ذكرنا بعضه فى كتاب السيرة وقد بعث ﷺ إلى ملك الروم فى زمانه وهو قيصر ذلك الوقت واسمه هرقل يدعوه إلى الله عز وجل فكان من مراجعته ومخاطبته لابى سفيان صخر بن حرب ما تقدم ثم بعث ﷺ أمراءه الثلاثة: زيد بن حارثة، جعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة إلى البلقاء نحو الشام فبعث الروم اليهم جيشا كبيرا فقتلوا هؤلاء الثلاثة وجماعة ممن معهم فعزم ﷺ على قتال الروم ودخول الشام عام تبوك ثم رجع ﷺ عامه ذلك لشدة الحر.

ابن سناء الملك من قصيدة صلاحية:

كل القلاع تروم السحب فى صعد	الا العواصم تبغى السحب فى صبب
لو رامها النجم لم يظفر ببغيته	ولو رماها بقوس الافق لم يصب
ملقى اذا عطشت والبرق أرسية	كواكب الدلو فى بئر من السحب
جليسة النجم فى أعلا مراتبه	وطالما غاب عنها وهى لم تغب

شهاب الدين ابن حجر:

أهوى الجلوس بمقعد الصدق الذى	فرشت به بسط الزهور وزخرفا
حفت به أيدى السعود وأبصرت	عينى به طير المسرة رفرفا

ذكر أبو عبد الله بكر بن عياش كاتب المنصور أبى يوسف يعقوب قال كان لأبى بكر محمد بن مجير وفادة على المنصور فى كل سنة فصادف المنصور فى احدى وفاداته فراغه من احداث المقصورة التى كان أحداثها بجامعه المتصل بقصره فى حضرة مراكش وكانت قد وضعت على حركات هندسية ترفع لخروجه وتخفض لدخوله وكان جميع من بباب المنصور يومئذ من الشعراء والادباء قد نظموا أشعارا أنشدوها اياه فى ذلك فلم يزيدوا على شكره وتجرئته الخير فيما جدد من

معالم الدين وآثاره ولم يكن فيهم من تصدى إلى وصف الحال حتى قام أبو بكر بن مجير فأنشد قصيدته التى أولها:

أعلمتنى ألقى عصا السيار ... فى بلدة ليست بدار قرار

واستمر فيها حتى ألم بذكر المقصورة فقال يصفها:

طورا تكون بمن حوته محيطة ... فكأنها سوراً من الاسوار
وتكون طوراً عنهم مخبية ... فكأنها ستر من الاستار
وكأنما علمت مقادير الورى ... فتصرفت لهم على مقدار
فإذا أحست بالامام يزورها ... فى قومه قامت إلى الزوار
يبدو فبدو ثم تخفى بعده ... كتكوّن الهالات بالاقمار

فطرب المنصور لسماعها وارتاح لاختراعها والتفت إلى الجراوى وكان يعلم قلة تسليمه لأبى بكر وكثرة غضبه منه فقال سلم له الجر ثم أنشده إذا لم تستطع شيئا فدعه قال أبو عبد الله بن عياش فخرج أبو بكر بن مجير والشعراء يومئذ يلومونه ان لم تكن أول منشد لا تخفى أشعارهم وتستر أعوارهم.

السيد الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفق الدين على الآمدى:

وحصن قد أناف برأس هضب ... منيف ذاهب فى الجو سامى
تنفس فى مرآة الافق حتى ... كسا فولادها صدأ الغمام

محيى الدين بن عبد الظاهر يصف الجامع الاموى فى ليلة نصف شعبان وايقاده حيث لا تلمع الاعين مصباحا وتود أنها لا ترى لتلك الليالى صباحا اذ تمنطقت أركانه فى اللهب بمناطق الذهب وبدت أشعتها فى صفائه كما يبدو فى الكأس وحاشاه الحبب لا سيما فى ليلة النصف التى كم رفرف عليها النعيم وكم خدمها الا من النسيم:

كم للناس فيها لاح بدر ... يروق العين منظره الوسيم
بدا وبدا الوقود فقلت بدر ... لخدمته ترجلت النجوم

كم أضاء بوجهه ديحور وكم انعكست أشعة تلك الأضواء على وجهه المنير فكانت نورا على نور:

فى خده للورى ربيع ... ونصف شعبان فى فؤادى

أو كما قال الآخر:

وحلت مناطق خصره فكأنه ... شعبان كل حلاوة فى نصفه

من كلام الاخ الحبيب أبى بكر بن حجة وأومـيت بعد ذلك إلى الجامع الاموى فإذا هو لأشتات المـحاسن جامع وأتيتـه طالبا لبديع حسنه فظفـرت بالاستضاءة والاقـتباس من ذلك النور الساطع وتمسكت باذيال حسنه لما نشقـت تلك النفحات الشحرية وتشوقت إلى النظم والنثر لما نظرت تلك الشـذور الذهبية وآنست من جانب طوره نارا فرجع إلى ضـياء حسى واندهشت لذلك الملك السليمانـى وقد زهى بالبـساط والكرسى وقلت هذا ملك فـاز من وقف فى خدمته خـائفا وشقى من لـم يدس بـساطه ويأتيه طـائعا ومن الكلام الفاضـلى قلعة تحـر العـيون أن تتقضـاها ويتوعر الامل أن يترقاها قـد ضربت فوق الحبل جـرائها ولبست لقبة النجوم ويحق فإنها ما برحت جـيرانها وتطلعت للناظرين سحابة الا أنها عزت أن تكون الـسماء عنانها.

الباب الثامن والأربعون

فى الحنين إلى الأوطان وتذكر من بها من القطان

روى أن النبى ﷺ سمع صوتا فارتاع فقيل له فى ذلك فقال ظننت أن ساكنا أزعج من منزله، وجاء أيضًا حب الوطن من الايمان وقال ابن عباس ﷺ لو قنع الناس بأرزاقهم قناعتهم بأوطانهم ما اشتكى أحد الرزق وكانت العرب إذا سافرت أخذت معها من تربة بلدها تستنشق ريحها وتطرحه فى الماء إذا شربته وهكذا كان المتفلسف من البرامكة إذا سافر أخذ معه من تربة مولده فى جراب يتداوى به ولما غزا اسفندبار بلاد الحرز اعتل بها فقيل له ما تشتهى قال شربة من دجلة وشميما من تراب اصطخر فأتى بعد أيام بماء وقبضة من تراب وقيل له هذا من ماء دجلة ومن تربة أرضك فشرب واشتم بالوهم فنقه من علته.

القاضى الفاضل:

بالله قل للنيل عنى اننى لم أشف من ماء الفرات غليلا
وسل الفؤاد فإنه لى شاهد ان كان طرفى بالبكاء بخيلا

قال الاصمعى:

يا قلب كم خلفت ثم بثنية وأظن صبرك أن تكون جميلا

دخلت البادية فنزلت على بعض الاعراب فقلت أفدنى فقال اذا شئت ان تعرف وفاء الرجل وحسن عهده وكرم أخلاقه وطهارة مولده فانظر إلى حنينه إلى أوطانه وتشوقه إلى اخوانه وبكائه على ما مضى من زمانه ولما أشرف الاسكندر على الموت أوصى أن يحمل فى تابوت ذهب إلى بلد الروم حبا فى وطنه ولما أدركت يوسف عليه السلام الوفاة أوصى أن يحمل إلى مقابر آبائه فمنع أهل مصر أولياءه فلما بعث الله موسى عليه السلام وأهلك فرعون حمله إلى مقابرهم فقبره عليه السلام بأرض المقدس وروى أن أبان قدم على رسول الله ﷺ المدينة فقال له يا أبان كيف تركت مكة قال تركتهم وقد حيدوا وتركت الاذخر وقد أغدق وتركت الثمام وقد خاص فاغرورقت عينا رسول الله ﷺ وقيل لاعرابى أتشتاق إلى وطنك قال كيف لا أشتاق إلى رملة كنت جنين ركامها ورضيع غمامها:

وكنا ألفناها ولم تك مألفا وقد يؤلف الشىء الذى ليس بالحسن
كما تؤلف الارض التى لم يطب بها هواء ولا ماء ولكنها وطن

آخـــر:

طيب الهـواء ببـغداد يؤرقنى شوقا اليها وان عاقت مقادير
فكيف أصبر عنها اليوم اذ جمعت طيب الهواء بين ممدود ومقصور

ذكرت بهذين البيتين ما أنشدنيه من لفظه لنفسه الوزير العلامة فخر الدين بن مكانس وهو من مخترعاته:

ان الهوائين يا معشوق قد عبثا بالروح والجسم فى سر وفى علن
فالروح تكفيك بالمدود قد تلفت والجسم حوشيت بالمقصور فيك فنى

وقال الشيخ بدر الدين الدمامينى:

أقول لمهجتى كم ذا ألاقى من البلوى بظبى فيك قاسى
أذكره بأشجانى فينسى فأفديه غزالا فى كناس

أعرابى:

وتشكو إلىّ الدار فرقة أهلها وبى مثل ما بالدار من فرقة الأهل

سليمان المحاربى:

اذا لم تكن ليلى بنجد تغيرت بشاشة دنيا أهل نجد وطيبها

آخـــر:

فما أحسن الدنيا وفى الدار خالد وأقبحها لما تجهز غازيا

ذو الرمة:

وقفت على ربع لمية ناقتى فما زلت أبكى عنده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبثه تكلمنى أحجاره وملاعبه

بشار:

وقفت بها صحبى تطلب عراصها بدمعى وأنفاسى براح وتمطر

آخـــر:

منازل لم تنظر بها العين نظرة فتقلع الا عن دموعى سواكب

البحترى:

أرى بين ملتف الآراك منازلا موائل لو كانت مهاها موائلا
فكن مسعدا فيهن ان كنت عاذرا وسر مبعدًا عنهن ان كنت عاذلا

الوائلى وهو أحسن ما قيل فيه):

سقيت ربوع الظاعنين فإنه ... غنى لك عن ما العيون الهواطل

ولمؤلفه:

وقفنا بربع الحب والحب راحل ... نحاول رجعماه لنا ونحاول
وألقت دموع العين فيه سائلا ... لها من عبارات الغرام دلائل
اذا نفحة الاحباب منها تقسمت ... تطيب بها أسحارنا والاصائل
تثير غرامى ساجعات غصونها ... فمنها على الحالين هاجت بلابل
مراتع الا فى مرابع لذاتى ... مطالع أقمارى بها والمنازل

قال ابن حمديس الصقلى:

ذكرت صقلية والاسى ... يهيج للقلب تذكارها
فإن كنت أخرجت من الجنة ... فإنى أحدّث أخبارى
ولولا ملوحة ماء البكا ... حسبت دموعى أنهارها

الكفيك لما فارق بغداد:

لهفى على بغداد من بلدة ... كانت من الاسقام لى جنة
كأننى عند فراقى لها ... آدم لما فارق الجنة

القاضى عبد الوهاب المالكى:

سلام على بغداد منى تحية ... وحق لها منى السلام المضاعف
لعمرك ما فارقتها قاليا لها ... وانى بشط جانبيها العارف
ولكنها ضاقت على برحبها ... ولم تكن الاقدار ممن يساعف
فكانت كخل كنت أهوى دنوّه ... وتأتى به أخلاقه فيخالف

وللعلامة ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب عند فراقه للاندلس فى واقعته المشهورة:

أموطنى الذى أزعجت عنه ... ولم أرزى به مال ولا دم
لئن أزعجت عنك بغير قصد قصد ... فقبلى فارق الفردوس آدم

وقال ابن الرومى:

بلد صحبت بها الشبية والصبى ... ولبست ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثل فى الضمير رأيته ... وعليه أغصان الشباب تميد

قال على بن عبد الكريم الصبى تأتى ابن الرومى بقصيدته التى مدح بها سليمان بن عبد الله بن ظاهر وقال انصفنى وقل الحق أيما أحسن قولى فى الوطن:

ولى وطن آليت أن لا أبيعه ... وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا
عهدت به شرخ الشباب ونعمة ... كنعمة قوم أصبحوا فى ظلالكا
وحبب أوطان الرجال اليهم ... مآرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم ... عهود الصبا فيها فجنوا لذلكا

أم قول الاعرابى:

أحب بلاد الله ما بين مدعج ... إلىّ وسلمى أن يصوب غمامها
بلاد بها عشق الشباب تمائمى ... وأول أرض مس جلدى ركامها

فقلت بل قولك لأنه ذكر الموطن ومحبته وأنت ذكرت العلة فى ذلك.

وللشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة من رسالة كتبها إلى السيد زين الدين عمر الجعفرى خطيب جامع التوبة بدمشق وينهى بعده الذى أضرم به من شوقه الشهابى تارة وأخلى من زكانه لحجلية مطاره وتركه ملقى فى الصهريج كأنه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة فلا بد والحالة هذه من آه على دمشق التى هى جنة من تاه وباهى وحيران جيرونها الى اغار داء لسان الحب سماها:

فما قلت ايه بعدها لمسامر ... من الناس الا قال قلبى آها

غيره:

فيا وطنى ان فاتنى بك سالف ... من الدهر فلينعم لساكنك البال

أى والله طالما حن المملوك اليها وأنشد ودمعه كالمطر سلام الله يا مطر عليها:

مطر من العبرات خدى ارضه ... حتى الصبا ومقلتى سماؤه

وقال الشيخ جلال الدين بن خطيب داريا فسح الله فى أجله ونقلتهما من خطه:

خليلىّ ان وافيتما الشام ضحوة ... وعاينتما الشقراء والغوطة الخضرا
قفا واقرآ عنى سلاما كتبته ... بدمعى على مقرى ولا تنسيا مطرا

يكتب أبياتى الرائية:

يا صاحبىّ اذا الثنايا أشرقت ... ولمحتما منها ثغور أزاهر
استنشقا ذاك النسيم فإنه ... مما تحمل من شمائل هاجر

وقال الشيخ شرف الدين بن عنين:

ألا ليت شـعـرى هل أبيـتن لـيلة وظلـك يا مـقـرى علىّ ظليل
وهل أرينـى بعـدمـا شطت النوى ولى فى ذرى روض هناك مقـيل
دمشق فـبى شـوق اليـها مبرح وان لـج واش أو ألح عـــذول
بلاد بهـا الحـصـبـاء در وتربـهـا عـبيـر وأنفـاس الشـمـال شـمول
تـلـسل فـيـهـا ماؤهـا وهو مطلق وصح نـسـيـم الروض وهو عليل

ولما خرج الرشيد إلى أخذ أخته علية معه فلما صارت بالمرج عملت شعرا وصاغت فيه لحنا من الرمل وكتبت الابيات ليلا على بعض الفساطيط فى طريق الرشيد فلما دخل إلى مضرب الحرم بصر به نقرأه فاذا هو:

ومـغـترب بالمـرج يشكو شجـوه وقد غاب عنه المعدون على الحب
اذا مـا أتاه الركب من نحـو أرضـه تنشق تـسـتشـفى برائحـة القـرب

فلما قرأه علم أنه من فعل علية وإنها قد اشتاقت إلى العراق وإلى أهلها فأمر بردها.

الوليد بن زيدون يتشوق إلى مكان يدعى بالزهراء وكان اجتماعه وولادة محبوبته:

إنى ذكـرتك بالزهراء مـشـتـاقـا والافق طلق ومرأى الروض قد راقا
وللنـسـيـم اعـتـلال فى أصـائله كـأنه رق لى فـاعـتـل اشـفـاقـا
والروض عن مـائه الفضى مـبـتـسم كـمـا حللت عن اللبـات أطواقـا
لا أسكن الله قـلبـا عن تـذكـركم فلم يطر بجناح الشـوق خفـاقـا
لو شاء حملى نسيم الريح حين سرى وافـاكـم بفـتـى أضناه مـا لاقـا
فـالآن أحـمـد مـا كنا بعـد كم سلو تـم وبقـينـا نحن عـشـاقـا

وقال الشيخ مهذب الدين أبو الفرج عبد الله بن أسعد الموصلى الشافعى الدهان رحمه الله يتشوق إلى دمشق المحروسة:

سـقى دمـشق وأيامـا مضت فيـهـا مـواطر السحب ساريها وغـاديهـا
من كل أدهـم صـهـال له شـيـبة صـفـراء يـسترها طورا و يـبديهـا
ولا يزال جنين النبـت ترضـعـه حوامل المـزن فى أحشـاء أرضيـها
فـمـا قـضى حبـه قلبى لـربهـا ولا قـضى نحبـه ودى لواديهـا
ولا تـسليت عن سلسـال ربوتهـا ولا نـسيت بيـتى جـار جـاريهـا

كـأن أنـهـارها مـاضـى ظبـأ حـشـيت خناجـرا من لجين فـى حـواشـيـهـا
وأمالهـا حـين حلى الغـيث،عـاطلهـا مكـللا واكـتـسى الاوراق عـاريهـا
وحاك فى الارض صوب المزن مخمله ينيـرهـا بغـواديه ويسـديهـا
ديبـاجـة لـم تدع حـسنـا مـفـوقـهـا الا أتاه ومـا أبقى مـواشـيـهـا
ترنـو اليك بـعـين النور ضـاحـكة اذ بات عـين من الـوسمىّ يبكيـهـا
والدوح ريا لـهـا ريا قـد اكـتـملت شبابها حين مـا شـابت نواصيـهـا
نشـوى تغنى لها ورق الحـمـام على أوراقـهـا وبد الانـواء تـسـقـيـهـا
صفـا لها الشـرب فاخـضرت أسافـلها حـتى صـفـا الظل فـابيـضت أعـاليـها
وصـفق النهر والاغـصـان قد رقـصت فـنقطتـه بـدر من تـراقـيـهـا
كـأنمـا رقـصـهـا أوهى قـلائدها وخـانهـا النظـم فـانثـالت لآلـيـهـا
وأعـين المـاء قـد أجـرت سـواقـيـهـا والاعـين النحل قـد جارت سـواقـيها
وقـابل الغـصن غـصن مثله وشـدت أقـمـارهـا فـأجـابتـهـا قـماريهـا
فللحـاظ وللاسـمـاع مـا اقـتـرحـت من وجـه شـادنهـا أو صـوت شـاديها
اذا العـزيمـة عن فـرط الغـرام ثنت قلبـا تثنى لـه غـصن فـيـثنيـهـا
ريـم اذا جلـيت حـسـنا لـواحظه للنفـس حـتى بخـديه فـيـحـيـيـهـا
جناية طرفـه المـخـمورّ جـانـبـهـا وآس عـارضـه الـمـخـضـر آسـيـهـا
تقبل الـكأس خـجلى كلمـا شـرعت فى مـاء فـيـه فـقـاسـتـه بمـا فـيـهـا
اشـتـاق عـيـشـى بهـا قدمـا فـتـذكـرنى أيامى الـسـود بيـضـا فى لـيـاليـهـا
ونحـن فى جنـة لا ذاق سـاكنهـا بؤسـا ولا عـرفت بأسـا مـغـانيـهـا
سـمـاء دوح تردّ الشـمس صـاغـرة عنا وتبـدى نجـومـا من نواحـيـهـا
ترى الـنجـوم بهـا من كـل ناحـيـة ممـدودة كنجـوم الزهر أيديـهـا
اذا الغـصـون هززناها لـنيل جنى صـارت كواكـبـهـا حصبـا أراضيها
من كل صـفـراء مثل المـاء يانعـة كـأنهـا جـمـر نـار فى تلظيـهـا
شـهـيـة الطعم تحـلو عند أكـلهـا بهـيـة اللون تجلى عـند رائيـهـا
يا ليت شـعـرى على بعـداء ذاكـرتى عـصـابة لست طول الـدهر ناسيـهـا
عندى أحـاديث وجـد بـعـد بعـدهم أظل أجـحـدهـا والعـين ترويهـا
كم لى بـهـا صـاحب عندى لـه نعم كـثـيـرة وايـاد لا اؤديهـا

فـارقـتـه غـيـر مـخـتـار فـصـاحـبنى ... صـبـابة منه تـخـفـينى وأخـفـيـهـا
رضيت بالكتب بعد القرب فانقطعت ... حتى رضـيت سلامـا فى حواشيـها
ان يعلنى غـيـر ذى فضل فـلا عـجب ... يسمى على سـابقات الخيل هانيـها
والمـــاء يـعلوه أقـــداؤهـا رجل ... أخـفى الكواكب نورا وهو عـاليـهـا
لو كـان جـد بحـد مـا تقـدمنى ... عـصـابة قصـرت عنى مـسـاعيـهـا
مـا فى خـمـولى من عـار على أدبى ... بل ذاك عـار على الدنيـا ومـا فيـهـا

الاديب الفاضل الكامل صفوان بن ادريس المريسى يتشوق إلى مرسية وطنه:

لعل رسـول البـرق يغنـم الاجـرا ... فـيـنثـر عـنى مـاء عـبـرته نثـرا
مـعـاملة أربو بهـا غـيـر مـذنب ... فأقـضيه دمع العـين عن نقطة بحرا
ليـسقى من تدمير قطرا محـببـا ... يقـر بعين القطرات يشـرب القطرا
وتقـرضـه دون اللـجـين وإنمـا ... توفـيـه عـينى مـن مـدامـعـهـا تتـرا
ومـا ذاك تقـصـيـر به غـيـر أنه ... سجـية مـاء البحـر أن يروى الزهرا
خليلى قـوما فـاحبسا طرق الصبـا ... مـخـافة أن يحـمى بزفـرتى الحـرا
فـإن الصــاريح علىّ كـريمـة ... بآية مـا يجرى من الـجنة الصغـرى
خليلى أعـنى أرض مـرسـيـة المنى ... ولولا توخى الصدق سمبتها الكبرى
ووكـرى الذى منه درجت فـليتنى ... فجـعت بريش العزم كى ألزم الوكرا
وما روضة الخضـراء قد مثلت بها ... مـجـرتهـا نهـراً وأنجـمـهـا زهرا
بأبهـج منهـا والـخليج مـجـرة ... وقد فضحت أزهار ساحتها الزهرا
هنالك بين الغصن والقطر والـصبا ... وزهر الـربى ولدت آدابى الغـرا
اذا نظم الغصن الـحيا قـال خاطرى ... تعلم نـظام النثـر مـن ههنا شـعـرا
وان نثـرت ريح الصـبـا زهر الربى ... تعلمت حـل الشـعـر تـكبـه نثـرا
فـوائد أشـجـار هناك اقـتبـسـتـهـا ... ولـم أر روضـا غيره يقرئ الـسحرا
كـأن هزيز الريـح يمـدح روضـهـا ... فـمـلأ فـاهـا من أزاهيـره درا
أيا رتعـات الحـسن هل فـيك نظرة ... من الجرف الاعلى إلى السكة الغرا
فـانظـر من هذى لـتلك كـأننى ... أغـير اذا غـازلتهـا أختـها الاخـرى
هى الكاعب الحسناء تمم حسنها ... وقـدت لها أوراقـهـا حللا خضـرا

اذا خطبت أعطت دراهم زهرها ... وما عادة الحسناء ان تنقد المهرا
وقامت بعرس الأنس قينة أيكها ... أغاريدها تسترقص الغصن النضرا
وقل فى خليج بلبس الحوت درعه ... ولكنه لا يستطيع بها نصرا
اذا ما بدا فيها الهلال رأيته ... كصفحة سيف وسمها نبعة صفرا
وان لاح فيها البدر شبهت متنه ... بسطر لجين ضم من ذهب عشرا
وفى جرفى روض هناك تجافيا ... لنهر تود الافق لو زاره فجرا
كأنهما خلان صفيا معا وقد ... بكيا من رقة ذلك الهرا
وكم بأبيات الحديد عشية ... من الانس ما فيه سوى أنه مرا
عيانا كأن الدهر عض بحينها ... فاحلت بساط البرق أفراسها الثغرا
عليهن أجرى خليل دمعى بوجنتى ... اذا ركبت حمرا يادينها الصفرا
أعهدى بالفرش المنعم دوحه ... سقتك دموعى إنها مزنة شكرا
فكم فيك من يوم أغر محجل ... نقضت أمانيه فحليتها ذكرا
على مذنب كالبحر من فرط حسنه ... تود الثريا أن يكون لها نحرا
سقت أدمعى والقطر أيهما انبرى ... بقا الرملة البيضاء فالنهر فالجسرا
واخوان صدق لو قصدت حقوقهم ... لما فارقت عينى وجوههم الزهرا
ولو كنت أقضى حق نفسى ولم أكن ... لما بت استجلى فراقهم المرا
وما اخترت هذا البعد الا ضرورة ... وهل تسجر العين أن تفقد السفرا
قضى الله أن تنأى بى الدار عنهم ... أراد بذاك الله أن أعتب الدهر
ووالله لو نلت المنى ما حمدتها ... وما عادة المشغوف أن يحمد الهجرا
أيأنس باللذات قلبى ودونهم ... مرام بحد الركب فى طيها شهرا
فديتهم بانوا وضنو بكتبهم ... ولا خبرا منهم لقيت ولا خبرا
ولولا علا هماتهم لعنبتهم ... ولكن عراب لخيل لا تحمل الزجرا
ضربت غبار البيد فى مهرق السرى ... بحيث جعلت الليل فى ضربه حبرا
وحققت ذاك الضرب جمعا وعدة ... وطرحا وتجميلا فأخرج لى صفرا
كأن زمانى حاسب متعسف ... يطارحنى كسرا أما يحسن الجبرا
ولست وان طاشت سهامى يائس ... فان مع العسر الذى لم يبق يسرا

ولمؤلفه عفا الله عنه:

تذكرت أوطانى ويا حبذا الذكرى ... لتلك القصور البيض والربوة الخضرا
وأشجار واديها وبهجة جنسكها ... وقد نقرا الشجر ورفى دفه نقرا
وتجعيد ذاك الما وميل غصونه ... فهذا به كسر وهذا به سكرى
وما أحسن الميعاد ممن تحبه ... بمقسمه الاسنى وليلته القمرا
اذ الناس فى هرج ومرج بلهوهم ... وقلبى بمن أهواه فى بلدة أخرى
ترى كل حزب لاهيا بسروره ... وكل له شغل به قد غدا مغرى
اذا أصبحوا هزوا الشمائل بالندا ... فينظر منه فوق أعطافهم درا
كرام اذا ولوا وطار نداهم ... وللبائس المسكين يبغى به الاجرا
فآه على تلك المشايا وطيبها ... وآه على حلو الزمان الذى مرا
فيا عاشق المعشوق لا تبد سلوة ... عن المزة الفيحاء والجبهة الغرا
اذا زرع اللوان واخضر أرضه ... فلا تذكروا مصر ولا تذكروا الاهرا
ويا من يجارى أو يضاهى بغيرها ... تأمل فذا الميدان دونك والشقرا
خليلى أحيا من ذكرت ومنزلى ... بعيشكما قولا قفا نبك من ذكرى

ولمؤلفه أيضًا يرثى دمشق المظلومة ويصف ما جرى بها من التيار فى سنة ثلاث وثمانمائة:

أجريت جمر الدمع من أجفانى ... حزنا على الشقراء والميدان
وتلاعبت أهدابها بمدامعى ... لعب الكماة بأرؤس الفرسان
وتوقدت نيران حزنى اذ رأت ... تلك الربوع مواقد النيران
لهفى على تلك البروج وحسنها ... حفت بهن طوارق الحدثان
لهفى على وادى دمشق ولطفه ... وتبدل الغزلان بالثيران
نزلوا ظلال الدوح فلا تسل ... ما حل بالأغصان والكثبان
سقطت غصون البان من قاماتها ... لما سمعن نواعق الغربان
وشكا الحريق فؤادها لما رأت ... نور المنازل أبدلت بدخان
جناتها فى الماء منها أضرمت ... فعجبت للجنات فى النيران
كانت معاصم نهرها فضية ... والآن صرن كذائب العقبان
ما ذاك الا تركهم نت بها ... فتخضبت منها بأحمر قان

كرهت جداولها حوافر خيلهم فتسابقت هربا كخيل رهان
خافت خدود الارض من أفعالهم فتلثمت بعوارض الريحان
أذكيت نار الصدر يا ورقاؤها وتأثرت بلواعج الاشجان
تبكى على غصن وأندب قامة فجميعنا نبكى على الاغصان
واحسرتاه على دمشق وقولها سبحان من بالمغل قد أبلان
عادانى الدهر الخئون بمغله والعجم منه وقبلهم غازانى
فعساك تأخذ ثأرها من مغلهم بالحل ثالث سبعة وثمان
لو عاينت عيناك جامع تنكز والبركتين بحسنها الفتان
وتعطش المرجين من أورادها وتهدم المحراب والايوان
لأتت جفونك بالدموع ملونا دمعا حكى اللؤلؤ على المرجان
قطرات جفن ترجمت عن حرقتى فكأنهن قلائد العقبان
أبنى أمية أين عين وليدكم والمغل تفتل فى ذرى الاركان
شربوا الخمور بصحنه حتى انتشوا ألقوا عرابدهم على النسوان
لم يرحموا طفلا بكى فقلوبهم فى الفتك صخر لا أبو سفيان
قصوا جناح النسر بعد نهوضه يا ليته لو فاز بالطيران
الواحه أجرت دموعى أسطرا كتبت على اللوحين من أجفانى
إن أنكروا يوم الحساب فعالهم فشهيدنا عثمان ذو القرآن
لهفى على كتب العلوم ودرسها صارت معانيها بغير بيان
أعروسنا لك أسوة بحماتنا فى ذا المصاب فأنتما أختان
غابت بدور الحسن عن هالاتها فاستبدلت من غرّها بهوان
ناحت نواعير الرياض لفقدهم فكأنها الافلاك فى الدوران
شتتهم أيدى سبايا دهرنا وتلوت آى الجمع بالفرقان
حزنى على الشهباء قبل حماتنا هو أول وهى المحل الثانى
لا تدع الأحزان يا شقراءنا السبق للشهباء فى الاحزان
رتعت كلاب المغل فى غزلانها وتحكمت فى الحور والولدان
لهفى على تلك الشعور وطولها جرت بها الاعناق كالارسان
لهفى عليك محاسنا لهفى عليـ ـك عرائسا لهفى عليك مغانى

لهـفى عليك منازلا ومنازها ... ومقام فردوس وباب جنان
ان قال لحظى قال سيفى ضارب ... أو قال طرفى قال حد سنان
أدمشق آهاتى عليك كثيرة ... كالدمع فى جفن الكئيب العانى
حسراتها لا تنقضى من خاطرى ... هى شغل أفكارى ونصب عيانى
لى أنة لى حرقة لى لهفة ... لى حسرة لى لوعة وكفانى
أمنازل الاحباب كيف تبدلت ... تلك الربى بمقاتل الفرسان
ان لم أسل ماء العيون مجاريا ... ماء الغمام بها فما أجفانى
لا تنه جفن الصب فى جريانه ... دعنى وشأنك يا غمام وشانى
العين والانسان قد فقدا معا ... أبكيك يا عينى ويا انسانى
لم أدر من أبكى وأندب حسرة ... للقصر للشرفين للميدان
للجبهة الغراء أم خلخالها ... للمزة الفيحاء أم للوان
لا يحجر المشتاق عن تذكارها ... يا حاجرى بالظلم والعدوان
شوّق بها قلبى أقل لك منشدا ... لك ان تشوقنى إلى الاوطان
واذا أتيت بما جرى فى ربعها ... فعلىّ أن أبكى بدمع قانى
ما كان أهنى العيش فى ساحاتها ... والدار دارى والزمان زمانى
أسفى على أيامها لا تنقضى ... ما كان أهناها وما أهنانى
أيام لا ماء السرور مكدر ... أرعى نضير العيش بل يرعانى
ولقد وقفت على ربوع حبائبى ... فندبتهن نوادب الاحزان
ولقد وقفت على الديار مناديا ... بلسان مغترب وعبرة عانى
يا دار أين حبائبى فأجابتنى ... عنها الحريق بألسن النيران
حكم القضا فيهم ونفذ حكمه ... فتشتتوا فرقا بكل مكان
يا رب لم شتاتهم بمحمد ... سر الوجود وبهجة الاكوان
ان لم نلذ فى أمرنا بجنابه ... فبمن يلوذ ويستجير الجانى
أترى الاله مؤيدا سلطاننا ... حتى أقول وعشت بالسلطان
يا رب فعل الذنب أصل بلائنا ... فاصفح وجد للذنب بالغفران
واغسل بماء الامن وجه رجائنا ... واصرف بفضلك حاضر الطغيان
واجمع على جسماننا أرواحها ... يا جامع الارواح بالجسمان

تقى الدين السروجى يقول:

وافى رضيع النبت من ذاك الحمى نجبا تدور على الربى كاساته
سفح سفحت عليه دمعى فى ثرى كالمسك ضاع من الفتاة فتاته

وفى المثل لولا حب الوطن لخرب بلد السوء الكريم يحن إلى جنابه كما يحن الاسد إلى غابه، وما أرق قول مزار بن هباش الطائى:

سقى الله أطلالا بالية الحمى وان كن قد أبدين للناس ما بيا
منازل لو مرت بهن جنازتى لقال صداها حاملا أنزلا بيا

لسان الدين بن الخطيب:

يا جنة فارقت من غرفاتها دار القرار بما اقتضته ذنوبى
أسفى على ما ضاع من حظى بها لا تنقضى زفراته ونحيبى
إن أشرقت شمس شرقت بعبرتى وتفيض فى وقت الغروب غروب
حتى لقد علمت ساجعة الضحى شجوى وجانحة الاصيل شجونى
وشهادة الاخلاص توجب رجعتى لنعيمها من غير مس لغوب

ولـه:

سلام على تلك المعاهد انها مراتع الاوفى وعهد صحابى
ويأنسة العهد أنعمى فلطالما سكبت على مثواك ماء شبابى

أنشدنى صاحبنا الاعز الشيخ محمد الاندلسى الخياط رحمه الله تعالى قال أنشدنى الشيخ شمس الدين أبو عبد الله المشرقى رحمه الله:

اشتاق للغرب وأصبو الى معاهد فيها وعصر الصبا
يا صاحبى نحواى والليل قد أرخى جلابيب الدجى وأحتبا
لا تعجبا من ناظر ساهد بات يراعى أنجما غيبا
القلب فى آثارها طائر لما رآها تقصد المغربا

ورد علىّ من سيدى وأخى الجناب الشهابى ابن حجر أعزه الله تعالى كتاب من مكة المشرفة إلى دمشق المحروسة وفى أثنائه من متجدداته:

أسر غرامى من عزول وحاسد فاعلان صبرى لا يشابه أسرارى
بليت بمن لم يدر مقدار صبوتى فوا لهفى بعد الرحيل على الدارى

نقلت من كتاب فوات الوفيات تأليف صلاح الدين الكتبى فى ترجمة طراد بن على بن عبد العزيز أبى فراس السلمى الدمشقى الكاتب المعروف بالبديع مات متولى مصر سنة أربع وعشرين وخمسمائة:

يا نسيما هب مسكا عبقا ... هذه أنفاس ريا جلقا
كف عنى والهوى ما زادنى ... برد أنفاسك الا حرقا
ليت شعرى نقضوا أحبابنا ... يا حبيب النفس ذاك الموثقا
يا رياح الشوق نحوهم ... عارضا من سحب عينى غدقا
وانثرى عقد دموعى طالما ... كان منظوما بأيام اللقا

واشتهرت هذه الابيات وغنى بها المغنون، قال بعضهم: مررت يوما بشوارع القاهرة وقد ظهرت جمال كثيرة حمولها تفاح من الشام فعبقت روايح تلك الحمول فاكثرت التلفت وكانت أمامى امرأة سائرة ففطنت لماذا داخلنى من الاعجاب الى تلك الرائحة فأومأت إلى وقالت هذه أنفاس رياجلقا.

ونقلت من مجموع بخط العلامة المؤرخ قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان تغمده الله برحمته قال النبى ﷺ لاصيل الخزعى يا أصيل كيف تركت مكة قال تركتها وقد أحجن ثمامها وأثمر سلمها وأغدق اذخرها فقال النبى ﷺ دع القلوب فى أماكنها.

تفسير ما فيه من الالفاظ الغريبة أحجن الثمام اذا خرجت حجنته وهى خوصه والثمام نبت ضعيف له خوص وأثمر السلم اذا خرج والسلم شجر من الغضا الواحدة سلمة وأغدق الاذخر اذا ظهرت ثمرته والاذخر نبت، ونقلت من خط الحافظ اليغمورى كانت الامتعة الثمينة والذخائر النفيسة تأتى إلى مصر وتباع ولا ينظر إليها يوسف عليه السلام وإذا جاءت أحمال صوف من كنعان لا تحل الا بين يديه.

مرض عمار بن عباد حين ولى الرقة فما كاد ينجح فيه دواء فقال له طبيبه سببه الهواء فبعث إلى بغداد فحمل الهواء فى جراب فكان يفتح كل يوم فى وجهه جراب الى أن برئ.

الباب التاسع والأربعون

فى دار سكنت كثيرة الحشرات قليلة الخير عديمة النبات

وأبلغ ما سمع فيها قول كمال الدين بن الاعمى:

دار سكنت بها أقل صفاتها ... أن تكثر الحشرات من حشراتها
الخير عنها نازح متباعد ... والشر دان من جميع جهاتها
من بعض ما فيها البعوض عدمته ... كم أعدم الاجفان طيب سناتها
وبنات تسعدها براغيث متى ... غنت لها رقصت على نغماتها
وقص بتنقيط ولكن فاقته ... قد قدمت فيه على أخواتها
وبها ذباب كالضباب يسد عـ ... ـين الشمس ما طربى سوى غناتها
أين الصوارم والقنا من فتكها ... فينا وأين الاسد من وثباتها
وبها من الخطاف ما هو معجز ... أبصارنا عن حصر كيفياتها
تغشى العيون بمرها ومجيئها ... ويصم سمع الخلد من أصواتها
وبها خنافس تطير نهارها ... مع ليلها ليست على عاداتها
شبهتها بقنافذ مطبوخة ... نزع الطهارة نصحها شوكاتها
شوكاتها فاقت على سمر القنا ... فى لونها وتمامها وثباتها
وبها من الجرذان ما قد قصرت ... عنه العناق الجرد فى حملاتها
وترى أبا غزوان منها هاربا ... وأنا الحصين يروغ عن طرقاتها
وبها خنافس كالطنافس أفرشت ... فى أرضها وعلت على شرفاتها
لو شم أهل الحرب منتن فوها ... أردى الكماة الصيد عن صهواتها
وبنات ورادان واشكال لها ... مما يفوت العين كنه ذواتها
متزاحم متراكب متحارب ... متراكم فى الارض مثل نباتها
وبها قراد لا اندمال لجرحها ... لا يفعل المشراط مثل أدتها
أبدا تمص دماءنا فكأنها ... حجامة لبدت على كاساتها
وبها من النمل السليماني ما ... قد قل ذرّ الشمس عن ذرّاتها
لا يدخلون مساكنا بل يحطمو ... ن جلودنا فالعغو من سطواتها

ما راعنى شىء سوى وزغاتها فنعوذ بالرحمن من نزغاتها
سجعت على أوكارها فتظنها ورق الحمام سجعن فى شجراتها
وبها زنابير تظن عقاربا بالابر للمسموم من لدغاتها
وبها عقارب كالاقارب مرتعا فينا حمانا الله لدغ حماتها
فكأنما حيطانها كغرابل أطلعن أرؤسهن من طاقاتها
كيف السبيل إلى النجاة ولا نجا ة ولا حياة لمن رأى حياتها
السم فى نفثاتها والمكر فى لفاتها والموت فى لفتاتها
منسوجة بالعنكبوت سماؤها والارض قد نسجت بيزاقاتها
ولقد رأينا فى الشتاء سماءها والصيف لا ينفك عن صعقاتها
فضجيجها كالرعد فى جناتها وترابها كالوبل من خشياتها
واليوم عاكفة على أرجائها والآل يلمع فى ثرى عرصاتها
والنار جزؤ من تلهب حرّها وجهنم تعزى إلى لفحاتها
قد رممت من قبل أن يلقى لآ دم أمنا حواء فى عرفاتها
شاهدت مكتوبا على أرجائها ورأيت مسطورا على عتباتها
لا تقربوا منها وخافوها ولا تلقوا بأيديكم إلى هلكاتها
أبدا يقول الداخلون فناءها يا رب نج الناس من آفاتها
قالوا اذا ندب الغراب منازلا تتفرق السكان من ساحاتها
وبدارنا ألفا غراب ناعق كذب الرواة فأين صدق رواتها
صبرا لعل الله يعقب راحة للنفس اذ غلبت على شهواتها
دارتبيت الجن تحرس نفسها فيها وتنذر باختلاف لغاتها
كم بت فيها مفردا والعين شو قًا للصباح تسح من عبراتها
وأقول يا رب السموات العلا يا رازقا للوحش فى فلواتها
أسكنتنى بجهنم الدنيا ففى أخراى هب لى الخلد فى خباتها
واجمع بمن أهواه شملى عاجلا يا جامع الارواح بعد شتاتها

حكى الزمخشرى فى ربيع الابرار أن رجلا من أهل الشام اطلع على جرد أخرج من جحره دنانير كثيرة فتركها وأخذ يلعب بها ثم أدخلها مكانها فقام الرجل وأخذ الدنانير فأقبل الجرد يثب ويضرب بنفسه الارض حتى مات.

وحكى الشريشى فى شرح المقامات عن أبى محمد الحسن بن اسماعيل الضراب قال كنت قاعدا انسخ فى ضوء السراج وبين يدى قدح فيه ماء وظرف فيه كعك وزبيب ولوز فجاءت فأرة وأخذت لوزة ومضت ثم عادت أخرى فبددت الماء الذى فى القدح فعادت الفأرة فسكبت القدح عليها واشتغلت بشغلى ساعة فإذا قد جاءت فأره أخرى فدارت حول القدح فسفسفت وبقيت ساعة على ذلك والفأرة الأخرى تسفسف من داخل فلم تجد حيلة فى خلاصها فمضت وأتت بدينار فوضعته ووقفت فلم أرفع القدح ففعلت ذلك إلى أن أتت بسبع دنانير ووقفت ساعة فلم أخل عن الفأرة فمضت وأتت بقرطاس فارغ فعلمت أنه لم يبق عندها شىء فخليت عنها.

قال الغندجيهى رويت هذه الحكاية عن أشياخ ثقاة قيل ان الخصى من كل شىء أضعف من الفحل الا الجرذان فإن الخصى يحدث فيه شجاعة وجراءة ولا بدع فى ذلك فإن الجرذان الكبار لا تدع الهر وبنات عرس الا قتلتها فينبغى لمن فى منزله شىء منه أنه يصطاد منه ذكرا يخصه ويتركه فى البيت فإنه يأتى على بقية الجرذان بأسرها، وذكر الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة: قال أخبرنى الشيخ شمس الدين بن خضر الدمشقى أحد كتاب المنسوب بدمشق سنة اثنين وخمسين وسبعمائة قال حللت مثقال ذهب لاجل الكتابة به فاتفق أنى نزلت من البيت وتركته فى الدواة بغير غطاء ثم رجعت إلى البيت ونظرت فلم أر شيئا من الذهب فى الدواة فتعجبت غاية العجب فنظرت فإذا فأر فى جانب البيت وعلى خرطومه أثر الذهب يلمع فعلمت أنه شربه فنصبت المصيدة وخرجت من البيت فما لبث أن وقع فيها فأخذت طاسة وجعلت فيها ماء وأمسكت بذنبه وجعلته يعوم فى الطاسة وكلما أراد الخروج رددته بذنبه إلى أن شرب ماء كثيرا وكاد يموت فقبضت بذنبه ودليت رأسه إلى أسفل فجعل يستقى من حلقه الذهب مختلطا بالماء الذى شربه إلى أن لم يبق منه شىء فغسلت الذهب مرة ثانية ووزنته فلم ينقص غير قيراطين هكذا أخبرنى أو كما قال.

وحكى الكواشى فى تفسيره أن إبراهيم الخليل عليه السلام لما ألقى فى النار جعل كل حيوان يطفئ عنه النار الا الوزغ فإنه كان ينفخ فى النار، وعن النبى ﷺ أنه أمر بقتل الوزغ وقال كان ينفخ على ابراهيم، وذكر الزمخشرى عن ابن عباس أنه قال الوزغ يريد الشيطان برسله ليفسد على الناس ملحهم ومن العجب أن الافعى لا ترد الماء ولا تريده واذا وجدت الخمر شربت منه حتى تسكر وكنية الافعوان أبو حيان وأبو يحيى لأنه يعيش ألف سنة

وأرض حمص لا تعيش فيها العقارب وإذا طرحت فيها عقرب ماتت لساعتها، سمع غلام رجلا يقول أنا مثل العقرب أضر ولا أنفع فقال ما أقل عملك بل لعمرى إنها لتنفع اذا شق بطنها ثم شدت على موضع اللسعة وتجعل فى جوف اناء فخار ويسد رأسه ويطين جانبه ويوضع فى التنور فإذا صار رماداً يشفى به من به الحصاة مقدار نصف دانق فتفتت الحصاة وتلسع الافعى فيموت.

حكى) أن عقربا لسعت مفلوجا فذهب عنه الفالج، وشتم رجل الارضة فقال له بكر بن عبد الله المزنى مه فهى التى أكلت الصحيفة التى تعاقد المشركون فيها على رسول الله ﷺ وبها تيقنت الجن أن ﴿لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين﴾(١) وقيل لها لاى شىء تأكلين كتب المشتغلين فقالت ما آكل الا كتب الذين لا يشتغلون وقال لقمان لابنه لا تكن الذرة أكيس منك تجمع فى صيفها لشتائها النملة تفلق الحب أنصافا لئلا تنبت فتفسد والكزبرة تفلقها أرباعا لانها من بين الحب ينبت نصفها اذا قربت العقرب من الولادة اكلت أولادها جلدها وخرقوه حتى يخرج وقد ماتت الام وقال الشاعر فى ذلك:

وحاملة لا يكمل الدهر حملها تموت وينمو حملها حين تعطب

لعاب الجراد سم لا يقع على شىء الا أخرقه خطب المأمون يوما فوقع الذباب على عينيه فطرده فعاد مرارا حتى قطع عليه الخطبة فلما صلى الظهر أحضر أبا الهذيل فقال له لم خلق الله الذباب فقال ليذل به الجبابرة فقال صدقت وأجازه بمال، وقال الجاحظ فى منافع الذباب إنه يحرق ويخلط بالكحل فإذا اكتحلت به المرأة كانت عينها أحسن ما يكون ولذا ترى المواشط تستعمله وتأمرن به العرائس وما أحسن قول عنترة:

وخلى الذباب بها فليس بنازح غرّدا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحكّ ذراعه بذراعها قدح المكب على الزناد الاجذم

قيل هذا من التشبيهات العقم وقال الجاحظ وجدنا المعانى نقلت ويؤخذ بعضها من بعض الا قول عنترة وخلى الذباب البيتين وزعموا أن رجلا من ولد حليمة ظئر رسول الله ﷺ كان أصيد خلق الله وأحذقهم بالتدريب وبلغ من حذقه أنه ربى ذئبا يصطاد به الظباء والثعالب وسرق منه فرجع إليه من ثلاثين فرسخا وضرى أسدا حتى صار أهليا واصطاد به الحمر والبقر وعظام الوحش وضرى الزنابير حتى اصطاد بها الذباب قال الجاحظ من من

(١) الآية: ١٤ من سورة سبأ.

علم البعوضـة أن وراء جلد الجاموس دما وأن ذلك الدم غذاؤها وأنـها متى طعنت فى ذلك الجلد الغليظ الصلب نفـذ خرطومـها مع ضعفه علـى غير مـعاناة ولو أنك طعنت بمـسلة شديدة المتن لانكسـرت.

وقال التيفاشى ومما جربه الناس كافة لأجل البق الصابون فإنه اذا طلى به المواضع التى بها البـق أى موضع كان من جـدار أو سرير قـتله ولم يعد اليـه ما دام أثر الصـابون فيـه قال صاحب الفلاحة البنطية اعلم أن القطران من أعظم شىء يكرهه النمل فمتى أردت ألا يقرب النمل شيئًـا فخط حول ذلك خطا من القطران مدورا فإن النـمل لا يقربه وان طليت به حول حجرة النمل هربن، صدق الحلزون اذا أحرق حتى يصير كلـا أبيض وذر على بيوت النمل هربن فإن أقام به مات جميعه وقال صاحـب الفلاحة البنطية أيضًا حجر المغناطيس الجاذب للحديد اذا وضع على باب أجـحرة النمل لم يخرجن ويهربن إلى تـخوم الارض قال وأهل بلادنا يجـعلون فى وسط الكدس من الحنطة وغـيـرها من الحبـوب من حـجر المـغناطيـس وغيـرها لئلا يدنو منه النمل قـال وإذا غطيت اناء فيه عـسل أو غيره بصـوف أبيض من كبش ولكن منفـوشا لم يقـربه النمل وكـذلك إذا أدرت الصوف حـول الاناء من أسفله لم يقـربه النمل، القمح المسـوس اذا وضع فى بيت فيه بق فإن السوس يأتى عليه بمـجموعه ولا يدع منه بقة واحدة وهذا صحيح مجرب والبنفسج إذا قطع قطعا صغاراً وجعل عليه قليل عجين فان الفأر يأكله ولا تستطيع مـعدته أن تهضمه فيموت عن آخـره وهذا مما جرب وصح عند معاشر الناس كافة.

قال الشيخ شهاب الدين بن فضل الله:

ونـامـــــوس له قـــــرص أليـم	نضــــوج له ومنه لـنا نـضـــوج
ومن عــــجب تراه الـعــــين أنا	مع النامـوس يرتفع الـضـجـيج

وقال الشـيخ إبراهيم المعمار فى البراغيث:

ان البــــراغـــيـث اللئــــام	قــــوا علـى فــقـلت مــالى
الا الخـــمـور لا خـــتـمـــرت	وقـــرصـــونى قلت أبالـى

ومن العـجـائب مـا ذكره ابن بدرون فـى شرح قـصـيـدة بنى الافطس عند ذكـر الواثق وجلالته وهيبتـه فإنه يحكى من هيبتـهم له أنه لما ثقل فى علته التى مات فيهـا خيل اليهم فى بعض الاوقات وقـد أغمى عليـه أنه قضى فدنا منه تركى يقـال له ايتاخ ليـعلم هل مات أم لا

فلما دنا منه فتح عينيه ونظر إلى ايتاخ فرجع القهقرى فانتشب طرف سيفه بالباب فاندق وسقط ايتاخ على قفاه لما نظره هيبة له ورعبا داخله من نظره ليصفن العجائب أنه لم تمر ساعة من نظره إلى ايتاخ الا وقد مات فأخذ وجعل فى بيت فما أقام به الا يسيرا فوجد قد أخرجت الفأرة عينيه فسبحان من لا يزول ملكه المنفرد بالبقاء لا إله الا هو العلى العظيم وعلى ذكر ابن بدرون فما أحسن قول الصاحب جمال الدين بن مطروح:

لك يا بدرون وجه ... صار عنوان السعاده
لا تخف نقصا ومحقا ... أنت بدر وزياده

وقريب من هذه الواقعة ما ذكره الثعالبى فى لطائف المعارف أنه لما جىء برأس مروان ابن محمد إلى عبد الله بن على أمر بعزله فجاءت هرّة قلعت لسانه وجعلت تمضغه فقال عبد الله أو غيره لو لم يرنا الدهر من عجائبه الا لسان مروان فى هذه لكفانا وكان مروان قد عرض بظهر الحيرة سبعين ألف عربى على سبعين ألف عربى ثم قال إذا انقطعت المدة لم تنفع العدة.

نقلت من الطالع السعيد فى فضلاء الصعيد تأليف العلامة المحدث البارع كمال الدين جعفر الادفوى فى ترجمة تاج الدين الدسناوى محمد القوصى مولدا وداراً ووفاة محنة الدهر وفريدة العصر فقيه عالم فاضل محدث أديب شاعر كريم الاخلاق طيب الاصول والاعراق فمن نظمه ملغزا فى نملة:

يا من اذا ما قاصد أم له ... تم له منه الذى أمّله
ومن حوى الفضلين فضل الندى ... وفضل علم للهدى حصله
ما اسم رشيق القد حلو الجنى ... ذو فطنة ممزوجة بالبله
ألمى دقيق الخصر قد زانه ... ردف له يهتز ما أثقله
أو انتمى يعزى لواد غدا ... وارده مستعذبا منهله
حل به أسنى ملوك الورى ... ومن غدا بالفضل والمعدله
ان قلت صف لى حسنه واقتصد ... قلت مجيبًا لك ما أجمله
أو قلت صف لى ملكه واقتصر ... قلت أجل جل الذى كمله
أو قلت هل من مسترفد ... قلت ونلمسكين والارمله
تصحيف ما ألغزته مودع ... فى النظم فافتح بالذكاء مقفله
وعكسه أيضًا بلغت المنى ... مستودع فيه فما المسأله

القول فى طبائع الحيات: وإنما سميت حية لأنها تحوّت اى اجتمعت ويطلق على الذكر والانثى يقال حية ذكر وحية أنثى وهى أصناف كثيرة لاتحصى كما لا تحصى أصناف السمك.

ذكرت بقوله حية وهو ما أنشدنى لنفسه من لفظه المقر المجدى فضل الله بن مكانس عفا الله عنه.

عاذلتى بعد أن توفيت فى النوم أبصرتها الشقيه
تلسعنى بالملام فيكم كأنها فى الوجود حيه

رجع: وشرها الافاعى ومسكنها الرمال والجبال ويضرب المثل بها بأفاعى سجستان ومن التهويل فى أمرها ما حكاه ابن شرمة أن أفعى منها نهشت غلاما فى رجله فانصدعت جبهته ويحكى أن شبيب بن شبة دخل على المنصور فقال يا شبيب أدخلت سجستان فإنه بلغنى أنها محواة أى كثيرة الحيات قال نعم يا أمير المؤمنين قد دخلتها قال فصف لى أفاعيها فقال هى دقاق الاعناق صغار الاذناب مفلطحة الرءوس رقش برش كأنما كسين أعلام الحبرات كبارهن حتوف وصغارهن سيوف قال أرسطو وليست الافعى من الحيوان الذى يلد حيوانا مثله وان خرج من بطنها أولاد وإنما ذلك لتكسر البيض فتلويها وتجمعها فى بطنها فيتوهم من رأى ذلك أنها تلد وليس الامر كذلك ومن الافاعى ما يتسافد بأفواهها فإذا أعطى الذكر الانثى وقع كالمغشى عليه فتعمد الانثى إلى موضع مذاكيره فتقطعها نهشا فيموت من ساعته فإذا بلغ بعضها لم يكن له مخرج لضيق مكان الولادة فيبقى فى بطنها حتى يخرج فيشقه ويخرجن وتموت الام من ساعتها فيكون طلبها للولد هلاكها وذكرها يسمى الافعوان يأتيها أيام الصراف فيصوت بها فتأتيه وبعض الحيات مستطيل أكدر اللون وأخضر وأسود وأبيض وأرقط وفى بعضها نمش وتخرج كل بيضة ثعبان على لونها ولم يعرف السبب فى اختلاف ذلك وأما داخله فشىء أسمخ من الصديد واقذر وهو فى جوفها منضد طولا على خط واحد وليس للحيات سفاد معروف تنتهى إلى علمه وليس عند الناس فى ذلك الا الذى ترون من ملاقات الحيات والتوا كل واحدة منهما على صاحبه حتى كأنهما لووح خيزران مفلوذ والحية مشقوقة اللسان ولذلك يظن بعض الناس أن لها لسانين وهى واسعة النحر ولها خطم وكذلك يفعل نابها ولو كان لرأس الحية عظم لكان أشد لعضها ولكن جلدا يطبق على عظمين مستطيلين وتوصف بالنهم والشره لأنها تبتلع الفراخ من غير

مضغ كما يفعل الاسد ومن شأنها انها متى ابتلعت شيئا فيه عظم أتت شجرة أو حجراً شاخصا فتنطوى عليه انطواء شديدا فتحطم ذلك العظم حتى تصيره رفاتا ومن عادتها إذا نهشت انقلبت فيتوهم أنها فعلت ذلك لتفرغ سمها وليس الامر كذلك وإنما فى نابها عضل فإذا عضت استغرق ادخال الناب كله وهو أحجن يشبه بالبيض فإذا انقلبت كان أسهل لخروجه وأسلس لنزعه وفى طبعها أنها اذا لم تجد طعما تعيش بالنسيم وتقتات به الزمن الطويل وتبلغ الجهد من الجوع ولا تأكل الشىء الحى وربما بقيت أربعة أشهر فى الشتاء صابرة على الجوع لا تغتذى بشىء البتة وهى اذا هرمت استقرت فى بيتها وأقنعها النسيم ولم تشته الطعام ومن عجيب أمرها أنها لا تطلب الماء ولا تريده لغلبة الارضية عليها ولهذا تصبر عن الغذاء المدة الطويلة لأن حرارتها لا تسرع بتحليل مادتها لقلة الحرارة وغلظ المادة وهى لا تضبط نفسها على الشراب اذا شمته لما فى طبعها من الشوق إليه فهى اذا وجدته شربت منه حتى تسكر وربما كان السكر سبب حتفها لأنها إذا سكرت خدرت والذكر من الحيات لا يقيم فى الموضع الواحد وربما تقيم الانثى على بيضها بقدر ما تخرج فراخها وتقوى على المكسب ثم تخرج سائرة فمتى وجدت جحرا دخلته واثقة بأن ذلك الساكن فيه بين أمرين إما أن يقيم فيصير طعاما لها واما أن يهرب فيصير الجحر لها ولهذا يضرب المثل بها فى الظلم فيقال أظلم من الحية وعين الحية لا تدور فى رأسها وكذلك عين الجراد كأنها مسمار مضروب وعينها ما تنطبق وان قلعت عادت وكذلك نابها ان قلع عاد بعد ثلاثة أيام وكذلك ذنبها ان قطع عاد وفى طبعها أنها تهرب من الرجل العريان وتفرح بالنار وتطلبها وتعجب بها وباللبن ومتى ضربت بالقصب الفارسى ماتت وان ضربت بسوط قد مسه عرق الخيل ماتت وهى طويلة الذماء والذماء بطؤ خروج الروح بعد القتل وذلك أنها تذبح حتى تفرى أوداجها فتبقى أياما لا تموت ويقال أنها لا تموت حتف أنفها الا أن تقتل أو تصاد وتبقى فى جؤن الحوّائين تدلكها الايدى وتكره على الطعم فى غير أرضها إلى أن تموت أو تحملها السيول فى الشتاء والزمهرير فتموت اذا ضررت والحية تسلخ فى كل عام قشرا عن جلدها فى أول الربيع والخريف وتبتدئ بالسلخ من عيونها ثم من رأسها ويتم سلخها فى يوم وليلة واذا هرمت وعجزت عن سلخه أدخلت نفسها بين عودين أو فى صدع ضيق حتى يتسلخ تأتى إلى عين ماء فتنغمس فيه فيشتد بذلك لحمها ويعود إلى قوته وشدته وليس فى الأرض شىء مثل جسم الحية الا والحية أقوى منه بدنا اضعافا ومن قوتها

أنها اذا دخلت صدرها فى جحر أو صدع لم يستطع أقوى الناس وقد قبض على ذنبها بكلتى يديه أن يخرجها لشدة اعتمادها وتعاون أجزائها وليست بذات قوائم لها أظفار ومخالب أو اظلاف تتشبث بها وتعتمد عليها وربما انقطعت فى يد الجاذب لها وإنما لشدة فقر ظهرها فان لها ثلاثين ضلعا وذلك مشاهد فى صعودها وسعيها خلف الرجل الشديد الحصر وعند هربها منه وهى برية وتعيش فى البر بعد أن يطول مكثها فى الماء وصارت مائية وأصنافها كثيرة جدا وهذا القدر كاف فى وصفها.

القول على طبائع الفأر: يقولون جميع ما يقع عليه اسم الفأر فأر وهى أنواع: فأر البيت والربات والخلد واليربوع وفأرة البيش وفأرة المسك، فأما فأرة البيت فصنفان: جرذان وفأر وهما كالجواميس والبقر والبخت والغراب والفأر من الحيوان الذى جمع حاستى الشم والبصر وليس فى الحيوان أفسد منه، ليس يبقى على شىء جليل ولا حقير الا أهلكه وأتلفه ولا يقصر فعله عما فعلته ريح عاد و يكفيه ما يحكى عن سد مآرب ومن تدبيره فى الشىء يأكله بحسوه وهو أنه يأتى القارورة الضيقة الرأس فيحتال حتى يدخل طرف ذنبه فى عنقها وكلما ابتل بالدهن أخرجه وامتصه حتى لا يدع فى القارورة شيئا ولقد حكى أن رجلا كان عنده جرة زيت فغاب عنها مدة ثم افتقدها فوجدها مملوءة حجارة وليس فيها من الزيت شىء فأدار فكره فى ذلك إلى أن الفيران كشفوها وشربوا منها إلى أن لم يبق أن تصل أفواهها إلى الشراب فدلت أذنابها حتى لم تصل إلى الزيت فألقوا الحجارة شيئا بعد شىء فكان الحجر اذا وقع فى الحق طفا الزيت حتى فنى ولقد أرانى بعض الاصحاب ظرفا من زجاج كان فيه فستق مقشور قد نقبنه وأكلن ما فيه وكل البزور تأكل قلوبها وتترك قشورها وما أعجب من شىء كعجبى من نوى الخرنوب التى لا تقدر الاضراس على كسره وهى تنقبه وتأكل قلبه وكذلك تفعل بالقرطم مع ملاسته، وفى طبعه النسيان فربما صيد مرات فيفلت ويعود وبه يضرب المثل فى السرقة والنسيان والحذر ويبلغ الفأر من تحرزه واحتياطه أن يسكن السقوف فربما فاجأه السنور وهو يريد أن يعبر إلى بيته والسنور فى الأرض وهو فى السقف ولو شاء أن يدخل بيته لم يكن للسنور عليه سبيل ويشير إليه السنور فى الأرض بيساره كالقائل له ارجع فإذا رجع أومى إليه بيمينه كالقائل له عد فيعود وإنما يطلب بذلك أن يعيى أو يزلق ولا يفعل به ذلك ثلاثة مرات الا ليسقط فيثب عليه.

وحكى الجاحظ أن ناسا أنكروا أن يخلق الفأر فى أرحام إناثها من أصلاب ذكورها

ولكن من بعض الارض كطينة الفاطول فإن أهلها يزعمون أنهم رأوا الفأر لم يتم خلقه بعد وان عينيه فصان ثم ينتشان حتى يتم خلقها وتشتد حركتها، ذكر الجاحظ ذلك على طريق الاستبعاد، قال صاحب المنهاج وإنما رأيت ذلك عيانا اتفق أنى سافرت من الفيوم فمررت بقرية تسمى صفط واذا بفيران قد خرجوا من شقوق الارض كجراد منتشر كل واحد منها نصفه حيوان ونصفه الآخر طين لم تكمل خلقته وكذلك يتولد بمصر اذا انكشف ماء النيل عنها.

القول فى طبائع العقرب: وهذا الحيوان أصناف منه الجرارة والطيارة وما له ذنب كالحربة وماله ذنب معقف وفيها السود والخضر والحمر والصفر والكمد وما له لون الرماد وما لونه لون اللهب وما له حمتان وأصحاب الكلام فى طبائع الحيوان يقولون العقرب مائية الطبائع ومن ذوات الذر وكثرة الولد تشبه السمك والضب وعامة هذا النوع اذا حملت الانثى منه يكون حتفها فى ولادتها لان أولادها إذا استوى خلقها أكلت بطنها وخرجت فتموت والجاحظ لا يعجبه هذا القول ويقول أخبرنى من أثق به أنه رأى العقرب تلد من فيها مرتين وتحمل أولادها على ظهرها وهى قدر القمل كثير العدو والعقرب شر ما يكون إذا كانت حبلى ولها ثمانية أرجل ولها أظلاف مثل أظلاف الثور عيناها فى ظهرها وهى من الحيوانات التى لا تسبح ومن عجيب أمرها أنها لا تلسع الميت ولا المغشى عليه ولا القائم الا أن يتحرك شىء من بدنه فإنها عند ذلك تضربه وضربها له إنما هو خوفا فهى تدفع بنفسها بضربها وهى تأوى إلى الخنافس وتسالمها وتصادق من الحيات كل أسود سالخ وربما لسعت الافعى فتموت وفيها من يلسع بعضه بعضا فيموت الملسوع ومن شأنها إذا لسعت الانسان فرت فرار مسىء يخاف العقاب.

وقال الجاحظ والعقارب تستخرج من موتها بالجراد لأنها حريصة على أكله تمسك الجرادة فى عود ثم تدخل بها فى مكانها فإذا عاينتها العقرب تعلقت ومتى أدخل الكراث إليها وأخرج تبعته وما معها من جنسها ونوعها وهى اذا خرجت من بخشها فى طلب المطعم يكون لها نشاط وعزم تضرب كلما لقيته من حيوان أو نبات أو جماد وربما ضربت الطست والقمقم فتخرقه وتسيل مادة وربما نشبت فيه ابرتها وهذه الابرة منعونة فيها السم والعقارب القاتلة تكون فى موضعين بشهر زور وعسكر مكرم وهى جرارات وهذه العقارب تلسع فتقتل وربما يتناثر اللحم من لسعته أو تعفن لحمه واسترخى ولا يدنو منه

أحد الا وهو يمسك أنفه مخافة أعدائه وهى فى غاية الصغر فان أكبر ما يوجد منها يكون قدر زنته دانقا واحداً والذى يوجد منها كبيرا يكون زنته ثلاث حبات وقد وزنت بشعيرة فرجحت الشعيرة عنها ذكر هذا صاحب كتاب النوار ومن ظرائف أمرها أنها مع صغرها وقلتها ونزارتها تقتل الفيل والبعير بلسعها وبنصيبين عقارب قتالة يقال ان أصلها من شهر زور وإن بعض الملوك حاصر بها فأتى بالعقارب من شهر زور ورمى بها فى كيزان بالمجانيق إلى البلد فأعطوا القوم بأيديهم وما أظرف قول من قال وقد واعد امرأة ليأتيها فلما خرج من عندها ضربته عقرب فى طريقه فقال:

ولقد سريت مع الظلام لموعد حصلته من غادر كذاب
فإذا على ظهر الطريق معدة سوداء قد علمت أوان ذهابى
لا بارك الرحمن فيها عقربا دبابة دبت إلى دباب

وسمع خبره صاحب الدار فقال:

ودار وأيام سكانها تقيم الحدود بها العقرب
اذا غفل الناس عن ذنبهم فان عقاربنا تضرب

القول فى طبائع النمل: ذهب ابن أبى الاشعث أنه لا يتزاوج ولا يتوالد ولا يتلاقح وإنما يسقط منه شيء حقير فى الأرض فينمو فيصير بيضًا ثم يتكون فيه وهو من الحيوان المحتال يتغرق فى طلب المعاش فإذا وجد شيئا أنذر الباقين فيجئن ويحملن وكل واحد يجتهد فى اصلاح العامة غير مختلس لشيء من الرزق دون صحبه ويقال إنما يفعل ذلك رؤساؤها ومن تحيله فى الرزق أنه ربما وضع بينه وبين ما يخاف عليه منه ما يحجزه عنه من ماء أو شعر فيتسلق فى الحائط ويمشى على جذع من السقف مسامتا لما حفظ ثم يلقى نفسه عليه وفى طبعه أنه يحتكر زمن الصيف لزمن الشتاء وله فى الاحتكار من الحيل ما أنه ما اذا احتكر ما يخاف نباته قسمه نصفين ما خلا الكسفرة فإنه يقسمها أربعا لما ألهم أن كل نصف منها ينبت واذا خاف العفن على الحب أخرجه إلى ظاهر الارض ونشره وأكثر ما يفعل ذلك فى القمر ويقال ان حياته ليست من قبل مأكله ولا قوامه وذلك أنه ليس له جوف ينفذ فيه الطعام ولكنه مقطوع نصفين وإنما قوّته اذا قطع الحب من استنشاق ريحه لا غير وذلك يغذوه ويكفيه وهو يشم ما ليس له ريح مما لو وضعه الانسان على أنفه لما وجد له ريحا والكلام عليها طويل وهذا القدر كاف.

لبعض الشعراء فى البراغيث والبق والبعوض:

تومى على ظهر الفراش منغص	والليل فيه زيادة لا تنقص
من عاديات كالذناب تداءبت	وسرت على عجل فلا تتربص
جعلت دمى خمرا تداوم شربها	مسترخصات منه ما لا يرخص
فترى البعوض مغنيا بربابة	والبق يشرب والبراغيث ترقص

أبو عامر بن شهيد يصفه: أسود زنجى وأهلى وحشى ليس بوان ولا رميل وكأنه جن لا يتحرى من ليل وشونيره أو نبتها غرره نقطة مداد أو سويداء قلب قراد شربه غب ومشيه وثب يسرى ليله ويكمن نهاره ولا يمنعه ستر يدرك بطعن مؤلم ويستحل دم كل مسلم مشاور للاساودة يجر ذيله على الجبابرة يتكفن بأرفع الثياب ويهتك ستر كل حجاب ولا يحفل ببوّاب يرد مناهل العيش العذبة ويصل الاجراح الرطبة ولا يمنع منه أمير وهو أحقر من كل حقير سره مبثوث وعهد منكوث.

نقلت من كتاب الامتناع والمؤانسة لابى حيان التوحيدى أن نبات عرس إنما تلقح من أفواهها وتلد من آذانها ومن عادة هذا الجنس أنه يسرق ما وجد من حلى الذهب والفضة ويخبئه فى جحر وإن وجد أيضًا فى البيت حبوبًا خلط بعضها ببعض.

النمل عمول مواظب فإذا جمع الحب قطعه كيلا ينبت اذا أصابه الندى والبلل ويخرجه ويبسطه عند فم الجحر حتى إذا يبس أدخله فمن جرب طبائع النمل أدرك علم زمان المطر والصحو ومن أراد أن يهلك النمل فليدق الكبريت والحريق وليذره فى جحره ولا يولد من تزاوج لكنه يخرج منه شىء صغير فيقع فى الأرض فيصير بيضًا ثم يتصور من البيض بالهيئة التى ترى

الخنافس: إذا شمت ريح الورد ماتت وأجنحتها مدمجة لاصقة بها، البق والبعوض لا تناكح لهما وإنما تستحيل من عين الماء ووسخه ونتنه ومن أخذ غصن العنب ووضعه تحت سريره لم يقربه بق ولا بعوض ومن أراد أن لا يتأذى بالبراغيث فليحفر وسط البيت حفرة ويملأها بدم تيس فإن البراغيث تجتمع هناك وان وضع فى الحفرة ورق دفلى ماتت البراغيث، تم ما ذكره أبو حيان فى الامتناع ومنه قيل لذويب أتزعم أنك مفلس لا تقدر على قرض ولا جمع ولا خفالة وبينك عامر بالفأر فقال على بن أبى عتيق الطلاق الثلاث البتة ان كان يمنعهم من التحول عنا الا أنهم يسرقون أطعمة الناس ويأكلونها فى بيتى لأمنهم فيه لأنه لا هرّ هناك.

وعلى ذكر الفأر فما أحسن قول الشيخ أحمد الموال الشهير بالفأر أنشدنيها المرحوم الفخرى بن مكانس:

قلبى صبا نحو بطحى رأيت ورق   لما رأى القاعد أخلفو عليها دق
ومذ قطعها الصبى شقات قلت الحق   يا فار نلت المنى اعبر لهذا الشق

يتأذى بمن ينبذه بهذا اللقب فاتفق حضورهما عند الامير قشتم نائب السلطنة الشريفة يسلمان عليه حين قدم من سفره فأحضر لهما مشروبا على العادة فمسك فخر الدين الاناء وقال ذكروا أن شراب الليمون فى الاسفار يسكن الدم إذا فار فاحتد منه الفأر وقال كذبت عن من نقلت هذا فقال عن الفارابى فكان الشاهد أنكى من الزائد.

نقلت من تذكرة العلامة عز الدين الموصلى شيخنا رحمه الله وفقا يوضع لفقد الذباب من البيت الذى يكون فيه وصورته ان يوضع يوم الخميس المعروف بخميس البيض قبل طلوع الشمس بعد صلاة الفجر ويكون واضعه قد صام أربعة أيام لا يفطر فيها على زفر ولا زهومة ثم يضعه على هذه الهيئة ويكون الوضع فى ورق لونه رصاصى تربيعا بالمسطرة محررا وهو هذا الوفق المبارك ان شاء الله تعالى:

هلك	الذباب	باذن الملك	القاهر القدير
٨٧8	٦٧٢	8٦٢	8٧٣
٦٧١	٨٧٣	٧٢٨	8٧
٨٣٧	8٨	٦٧	٨٧٣

ناصر الدين بن النقيب:

ودار خراب بها قد نزلـ   ـت ولكن نزلت إلى السابعة
فلا فرق بين أنى أكو   ن بها أو أكون على القارعه
فوالله ما نمت فى أرضها   ولا طلعت لى بها طالعه
ومفردت بالصفات القبا   ح وما هى الا لها جامعه
تشاورها هفوات النسـ   ـيم فتصغى بلا أذن سامعه
اذا ما قرأت اذا زلزلت   بها خفت أن تقرى الواقعه
وأخشى بها أن أقيم الصلا   ة فتجد حيطانها الراكعه

قال الشيخ شمس الدين بن الصائغ أنشدنى الشيخ تاج الدين عبد الباقى اليمانى قال حضرت منزل الشيخ جمال الدين بن نباتة فرأيت فيه نملا كثيرا فقلت:

ما لى أرى منزل المولى الاديب به   نمل تجمع فى أرجائه زمرا
فقال لا تعجبن من نمل منزله   فالنمل من شأنها أن تتبع الشعرا

وعلى ذكر النمل ذكرت ما نقلته من خط الوداعى ما صورته دب شخص شاهد عدل يقال له النميلة فعمل فيه عز الدين بن رواحة:

عتبت على نميلة فى التعدى   وجراءته على ما لا يحل
وقلت مقال انكار عليه   تدب على العدول وأنت عدل
فقال لقد عتبت علىّ ظلما   وهل للنمل غير الدب شغل

من المجربات اذا ظهر النمل فى موضع أن يقرؤ عشر مرات فى نفس وأحدهم الغذاء والعشاء طويل فإنه يرحل بإذن الله.

السيد الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفق الدين على الآمدى فى الحية:

وتخاله فى القيظ سوطا باليا   ملقى وفى كانون دملج معصم
وقد استدارت مقلتاه بحمرة   فيها تحاكى قطرتين من الدم

وله فيه:

وهو حبل قل اذا ما امتد أو   مثل خيط النهر مهما اضطربا
سببا للموت وصالا به   وكذاك الحبل يدعى سببا

من كتاب كتبه يحيى محى الدين بن عبد الظاهر إلى القاضى كمال الدين بن العطار كاتب الدرج السعيد: من منزله خربه اللصوص من كل صلد تزاحمت به مدارج السيول وغصت به حلوق الوحول وغدا شحيا فى صدور السهول قد جمعت الاقطار وجوه صفاته وفتحت الأيام والليالى ما لعله من حسن صفاته وأصبح مغائراً فى طرق الزروع كم حصل به لها أذى ومحاجر كم أطرفت عيون الأرض منه على قذى كأن أسوده على الأرض كلب يؤذى الابصار وكم خد به استدار منه له أوحش عذار كم تجمعت فلذة فكانت ظلمات بعضها فوق بعض وبنيت فى الفضاء فأحسن بها من نهود تبدو فى صدور الأرض تروع المراعى فى المراعى وتسمع بها قعاقع سهام المنايا فنغدوا تراكيش للحيات والافاعى من كل أفعى تفترس افتراس الضيغم وتملس املاس الجدول وتنكمش انكماش السهم تفزع

رائيها فى المنام وإذا انقبضت صارت عـروة وإذا انبـسطت فهى حزام كم جنات الترائب فى أنيابها وكم لعبت بالارواح بلعابها ذات ألوان كـالدنيا بينما تروق اذا هى نزوع ولين معاطف كالايام وكأنما استدار بها اشراك المرقوع قد غدت للخيام أطنابا عوض الاطناب وإذا شاهد الاطباء علامـاتها وامتدادها قالوا هذا الذى يـقال له الموت من العلامات والاسـباب كم قد نضجت العيون منها بأسود سالخ وكم أحرق سـمها مهربا فى كوره لاهاجة بار الموت وهو له نافخ ومن عجب أنهـا تمشى على بطنها ولا تـأكل ما تفترس وتوقـد فى الليالى المدلهـمة عيونها نارا لا يجد عليها هدى طرق المقتبس.

القاضى فتح الدين بن الشهيد:

أقـــول لنـمل الـعـــذار التى	على الـخـد دبت قـفى تحـملى
حـمـت عـــل الـريق ألحـــاظه	إلـى ابـن نمـل فـــــلا تـسلى

بدر الدين يوسف الذهبى:

يا جـــمـــال الـكتـــاب بـل يا	حـميـد الذكر حـقا ومن له العليـاء
لى بيت صـــعب مـجاريـة الفكـ	ـر ومــا أن تحـــملـه البلـغـــاء
ظاهـر العـــيب لا عـــروض له	والضـرب والقبض فى ذراه سـواء
لا أراه من الـخـــفـــيف فـلم ذا	جـاز فـيـه الـشـعيـب والاقـواء
للبــراغـيث فـيــه رقص ولـلبق	زمـــــيـــــــر وللـذبـاب غنـاء
عـــامل لا أراك فــــيــــه وهذا	ك دليـل أن ليـس فــــيــــه بنـاء

منقول من الموجز لابن نفيـس مما يطرد الهوام من البيت التبخير بأصل الرمان وقضبانه وأصل الـسوس والقنة والقرون والاظلاف والحـوافر والشعر والحلتيت وورق الفـار وحبه ورماد الصنوبر وخـصوصا مع القنة والشـونير والمركـبات من هذه الحيـوانات التى تهرب منها الحـشـرات إذا جعل فى البيت لغـلغ أو طاووس أو قنفد أو ابن عرس فان الهـوام تفزع منها وتهرب وإن ظهرت قتلها وكذلك البيضابيات والايائل.

طرد الحيات الكبريت والنوشادر بالخل يهربها والخردل يقتلها وإذا وضع على مسكنها هربت منه.

طرد العقارب الفـجل المشدوخ وعصارته إذا مسكت وورقـه والباذروج وثفل الصائم والتبخر بالعقرب يهرب العقارب وكذلك الزرنيخ إذا وضع والفجل المقطع إذا وضع على جحرها لم يجسـر على الخروج منه.

طرد البراغيث إذا رش البيت بطبيخ الحنظل أو نقوعه تماوتت البراغيث وتهاربت وكذلك العليق والخرنوب ودمُ التيس إذا جعل فى حفرة آوت إليه البراغيث وكذلك يجتمع على خشبة طليت بلحم القنفذ ووسخ الكبريت والدفلى يهربها.

وطرد البق والبعوض التدخين بنشارة خشب الصنوبر أو القلقندس أو بالشونيز أو بمجموعهما وهو أجود بالآس اليابس أو بالكبريت أو باخثاء البقر أو بالحرمل أو بورق السرو أو جوزه ورش البيت بطبيخ هذه أو بطبيخ الترمس أو الدلب.

طرد ابن عرس يطردها ريح السداب.

طرد الفأر وقتلها: المرتك والحريق والبنج وأصل الفأر وهى تتداوى بالسباحة فى الماء فان لم تجدها ماتت والتراب الهالك وخبث الحديد وإذا سلخت الفأرة الذكر أو قطع ذنبها أو خصى وربط بخيط هرب الفأر الباقى والسلخ أقوى.

طرد النمل دخان النمل نفسه يطرده ويهرب.

طرد الذباب يقتلها الزرنيخ وحده أو باللبن ودخانه ودخان الكندر وطبيخ الحريق الاسود.

وطرد الزنانير بخار الكبريت والثوم.

طرد الخنافس دخان الدلب وورقه.

طرد الارضه: يطردها الهدهد إذا جعل فى البيت والتدخين بأعضائه وريشه.

طرد السوس: الاقثين والفوتنج وقشور الاترج وماء الحنظل الرطب.

طرد سام أبرص: الزعفران إذا جعل منه فى البيت هرب.

الباب الخمسون

فى وصف الجنان وما فيها من حور وولدان

عن أبى سعيد الخدرى يرفعه أن الله جل ذكره لما حوط حائط الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وغرس غرسها ثم قال لها تكلمى فقالت قد أفلح المؤمنون فقال تعالى طوبى لك منزل الملوك وقال زيد بن أرقم قال رجل لرسول الله ﷺ تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون قال نعم والذى نفسى بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل فى الاكل والشرب قال فان الذى يأكل تكون له الحاجة والجنة طيب لا خبث فيها قال عرق يفيض من أحدهم كرشح المسك فيضمر بطنه، دخل داود عليه السلام غارا من غيران بيت المقدس فوجد حزقيل يعبد ربه وقد يبس جلده على عظمه فسلم عليه فقال أسمع صوت شبعان ناعم فمن أنت فقال داود قال الذى له كذا وكذا امرأة وكذا وكذا أمة قال نعم وأنت فى هذه الشدة قال ما أنا فى شدة ولا أنت فى نعمة حتى ندخل الجنة، قال مالك بن دينار جنات النعيم بين جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة قبل ومن يسكنها قال الذين هموا بالمعاصى فلما ذكروا عظمة الله راقبوه، وقال بعض العلماء فى السدس الاخير من الليل تفتح أبواب الجنة الا ترى أن أرواح الرياحين تفوح فى ذلك الوقت، جاء الاسلام ودار الندوة بيد حكيم بن حزام فباعها من معاوية بمائة ألف درهم فقال له عبد الله بن الزبير بعت مكرمة قريش فقال ذهبت المكارم الا من التقوى يا بن أخى اشتريت بها دارا فى الجنة أشهدك أنى جعلتها فى سبيل الله.

ولمؤلفه رحمه الله:

إذا رأيتم قبر خير الورى والمنبر الزاهى واجلا له
بشراكم الجنة هنيتم ومن يرى هذا فطوبى له

وأنا أبتهل بلسان التضرع والخضوع وأسأل لحظات الاعتراف والخشوع لمتصفحى كتابى هذا وأبوابه ومتأملى ألفاظه واعرابه الصفح عما يقفوا عليه من عثرات العبارات والمعانى والتجاوز عما وقع فيه من التقصير والتوانى فالمعترف بذنبه كمن لا ذنب له ومن لا يقبل العذر فالذنب له.

من رام أن يقبل البارى معاذره فليقبلن مسرعا ممن له اعتذار

وليقتد بقوله تعالى: ﴿وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾[(١)] لا سيما مع استغراق زمان أنا بنكدة منوط وليل ونهار أنا فيهما بطلب القوت مربوط واغزا فى عجومة ظاهرة فى البيان وعجمة غالبة فى اللسان تمنع عن ادراك حقائق المرادات والجمع بين دقائق المعانى وحسن العبارات ولكننى مكره فى ذلك لا بطل:

فان لم يكن نظم القصائد شيمتى وليس جدودى يعرب واياد
فقد تسجع الورقاء وهى حمامة وقد تنطق الاوتار وهى جماد

ثم قل أن يخلص مصنف كتاب من الهفوة بل الهفوات وهيهات ثم هيهات أن ينجو الناظر أو المؤلف من العثرة بل العثرات خصوصا مع الممتحنين بل المتعنتين والحاسدين المغتبين ولكن قال رسول الله ﷺ : «من طلب عثرة أخيه ليهتكه طلب الله عثرته فهتكه».

لا تلتمس من مساوى الناس ما ستروا فيهتك الله سترا من مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

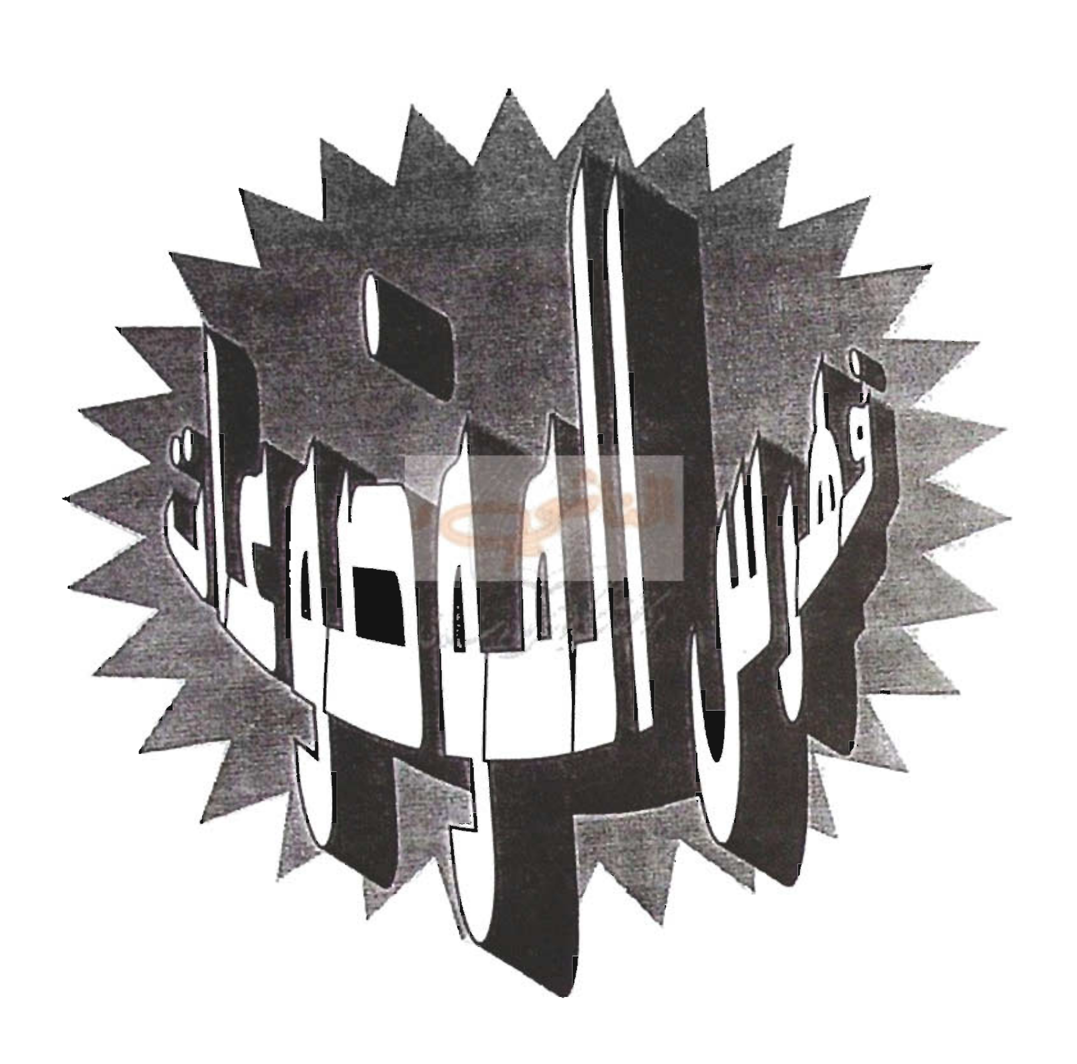
وأنا أقسم على جماعة متصحفيه أن يتأملوه وينظروا فيه بعين الرضا ويعبروا عنه بلسان الصفا والوفا فان تجد فيه بعيدا قربه أو خطأ أصلحه وصوّبه:

فان زل طرفى أو كبا فهو حلبة يزل بها الطرف المطهم جاريا
فعفوا جميلا عن خطاى فاننى أقول كما قد قال من كان شاكيا
وعين الرضا عن كل عين كليلة كما أن عين المنحط تبدى المساويا

وبالله أستعين أولا وآخرا ظاهرا وباطنا والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين.

---

(١) الآية: ٢٢ من سورة النور.



فهرس موضوعات الجزء الثاني من كتاب مطالع البدور

الموضـــــوع الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

تمت فهرست الجزء الثانى من مطالع البدور

